فيض العباب

وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب

لابن الحاج النميري

مصدر جديد من مصادر تاريخ المغرب الأدبي والحضاري في العصر المريني

دراسة وإعداد
الدكتور محمد ابن شقرون
أستاذ التعليم العالي بجامعة محمد الخامس
الرباط

دار الغرب الإسلامي

فيض العُباب

وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة
إلى قسنطينة والزاب

الطبعة الأولى

1990

دار الغرب الإسلامي

ص. ب: 5787 - 113

بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

فيض العباب

وإفاضة قداح الآداب

... كتاب أدب وحضارة، كتاب تاريخ وسياسة....

... يبرهن عن مدىٰ تشبّث المغرب الأقصىٰ بمبدأ توحيد المغرب العربي وعن الجهود العظيمة التي بذلها - ولا يزال - والتضحيات الجسيمة التي تحمّلها في سبيل تحقيق هذه الوحدة استجابةً لرغبة ملحّة أكيدة ومطامح عميقة متجذّرة في نفوس شعوب هذه الأقطار....

أثرٌ مغربي نفيس ظل مخطوطاً مغموراً فأخذنا على عاتقنا القيام بهذه المحاولة المتواضعة.

وبهذه المناسبة نتقدّم بشكرنا الجزيل إلى أصدقائنا المشرفين على المخطوطات والوثائق على المساعدة التي قدّموها لنا: إلى أستاذنا المحترم العلّامة الشهير محمد إبراهيم الكتّاني (*) صاحب الفضل العميم على الطلبة والباحثين عموماً، إلى الأستاذ الكبير الأديب عبد الرحمان الفاسي (**) الذي بادر بجعل المخطوط رهن إشارتنا وإمدادنا بصورة منه بمجرّد ما علم برغبتنا في تحقيقه ونشره وإلى الأستاذ الكبير محمد العربي الخطابي (***) المحافظ الحالي للخزانة الحسنيّة الذي وفّر لنا نفس العناية ونفس التسهيلات.

(*) عضو أكاديمية المملكة المغربية.

(**) عضو أكاديمية المملكة المغربية المحافظ السابق للخزانة الملكية ومحافظ الخزانة العامة حالياً.

(***) عضو أكاديمية المملكة المغربيّة.

كلمة

يشتمل هذا العمل على بابين رئيسين:

1 ـ الدراسة.

2 ـ التحقيق.

لأسباب قاهرة أفردنا للدراسة أرقاماً مستقلّة خاصة بالهوامش المتعلّقة بها، وتوجد هذه الهوامش مجموعة كذيل للدراسة. أمّا الأرقام الأخرىٰ التي تتخلّل النص والمصحوبة بحرفي أ وب داخل هلالين فإنها ترمز إلى ورقات المخطوط أمّا التحقيق فله هوامشه المتسلسلة حسب كل صفحة من صفحات الكتاب ولا بدّ من الإشارة في هٰذه الكلمة إلى العطب الذي أُصيبت به الآلة الطابعة ممّا أدّىٰ إلى إتلاف بعض أجزائها فنتج عن ذلك ما يلاحظه القارىء من نقص أو اختزال في بعض الكلمات أو بعض الحروف فلم يكن من الممكن تلافي هٰذا النقص ولا تجاوزه رغم جميع الجهود المبذولة لذلك نرجو من القارىء اللبيب تفهّم هٰذه الصعوبات التي كادت تحول دون إخراج هذا الكتاب إلى الوجود وإدراك خلفياتها المختلفة.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ازدهرت الرحلة في عصر بني مرين وتطورت . واختلفت باختلاف مؤلّفيها وتنوعت . وبتلوُّن اتجاهاتهم ومقاصدهم تلونت . وانطبعت بطابع سلوكهم وأذواقهم وميولاتهم فتميزت ، واتضحت معالمها الكبرىٰ واستقرّت . فكانت لها أهداف رئيسية تستجيب لرغبات ملحّة ، ومطامح عميقة ، متجذّرة في النفوس كجذور العقيدة الدينيّة المترسّخة . وأهداف أخرىٰ تعتبر فرعية متولدة عن ظروف اجتماعية وسياسية واقتصادية وثقافية . فكان التكامل والتفاعل بين سائر الأهداف الموجّهة حتى أصبح من العسير تحديد الهدف الأسمىٰ والمقصد الأسنى ، في كل مرحلة من مراحل التنقّل ، وفي كل خطوة من خطوات التجوّل عبر الأقطار أو عبر المدن الكبرى أو المدن الصغرىٰ ، أو عبر القرى النائية ، والأراضي الشاسعة المترامية والخالية .

ومع أن الغاية العاجلة والأساسية كانت في أغلب الأحيان بالنسبة للمغاربة غاية روحيّة فرضتها قواعد الإسلام الشرعية ، واقتضتها ظروف البيئة وعواملها الجغرافية ، فإن المجال كان أمام الرحّالة فسيحاً ، والمسالك التي يسلكها متشعبة واسعة . تأخذ بتلابيبه وتشدّه إلى آفاق أخرى قريبة أو بعيدة ، تبعث في نفسه روح المغامرة ، وتذكّي في عقله حب الاستطلاع والاتصال بالناس ، وإجراء المحاورة والمناظرة .

ومهما كانت الاتجاهات السائدة ، والعوامل المكيّفة المجسّمة ، فإن

البيئة المغربية خلّفت لنا في هذه الحقبة الطويلة ، الحقبة المرينية والوطاسية ، بصفتها منتِجة أو مستهلكة ، رحلات يمكن الإشارة إلى بعض مظاهرها في هذه العجالة التي نقصد بها التذكير والتمهيد ، لا الاستقصاء والتحديد . وذلك باعتبار الأسباب الظاهرة أو الخفيّة ، العاجِلة أو الآجلة ، والنتائج المستخلصة المؤقتة أو النهائية . إذ العناصر المكوّنة لهذه المادة الأدبية الخصبة عناصر كثيرة ومتنوعة ، متداخلة ومتكاملة هي من صميم ميادين متقاربة ومتجاورة ، أو متباعدة مستقلّة وإنما الظروف النفسية والاجتماعية ، كما أسلفنا ، أو عوامل بيئية داخلية أو خارجية هي التي تحكّمت في التطوُّر ، وأخضعت المسيرة لمجراها ، فأنتجت ما أنتجته من الألوان التي نحن بصدد ذكرها أو ذكر بعضها مما سمحت الأحداث والتقلّبات بإيجاده ، والاطلاع عليه وإفراده ، ومحاولة الكشف عن طبيعته ومصادره ، ووصفه والتعريف به .

يتعلّق الأمر - مرّة أخرى - «ببضاعة» من نوع خاص ، تستمد جذورها من روافد ومناهل كَانَـتْ في بداية أمرها متجمّعة تصبّ في قالب معيّن يكاد يكون الإطار الوحيد لها ، إطار الجغرافية بمظاهرها الرياضية والفلكية ، والبريّة والبحرية ، والطبيعية والبشرية وغيرها مما يدخل في نطاق «المسالك والممالك» المعروفة ، أو مما له صلة بالغرائب والعجائب والأخبار النادرة ، والحكايات السارّة الممتعة ، والأدبيات المثقفة والمسلية التي تستهدف الطرائف والظرائف والأخذ بأنواع شتى من الحقائق والمعارف ، والاكتفاء بما هو جلي مساعد في التكوين والتهذيب وتربية الذوق والسير في دروب المعاشرة الحسنة ، والنهوض بمستوى الأخلاق الرفيعة ، والتفاهم المتّزن ، والتعامل المستمر ، والانسجام بين الأفراد والجماعات ، وسائر الطبقات مما ينص عليه الإسلام ويبيّنه بالنسبة للمجتمع الإسلامي وغيره من المجتمعات البشريّة .

ونتيجة لذلك التطوّر وذلك التداخل أصبح الأصل فرعاً والنتيجة مقدمة ، وانقلبت الآية وحدث انفجار وأزمة فتغلّب عنصر على عنصر ، وحل الجزء محل الكل ، وانفردت بعض المقومات واتخذت لها شكلاً يحدّد طبيعتها ،

ويقوي وحدتها ، ويغلب جانباً من جوانبها فاتّخذته عنواناً لها وسِمَة أساسيّة لوجودها .

وهكذا يمكننا أن نتحدّث بشيء من التجاوز والتساهل عن الرحلة الحجازية ، والرحلة السفارية ، والرحلة السياحية والرحلة التجارية ، والرحلة البرية ، والرحلة البحرية والرحلة الخارجية ، والرحلة التعليمية ، والرحلة الوظيفية ، والرحلة الاختيارية التلقائية ، والرحلة القسرية المفروضة ، والرحلة الفردية ، والرحلة الجماعية ، والرحلة السياسية ، والرحلة الداخلية ، والرحلة الحربية ، والرحلة العسكرية ، والرحلة الأسرية ، والرحلة التبشيرية ، والرحلة الوطنية ، والرحلة الأجنبية ، والرحلة الشرقية ، والرحلة الغربية ، والرحلة الشاملة ، والرحلة الجزئية المرحلية ، والرحلة الموقتة والرحلة النهائية ، والرحلة الزجرية التأديبيّة ، والرحلة الواقعية التجريبية ، والرحلة الشفوية المعتمدة على النقل والرواية ، والرحلة الخيالية ، والرحلة الحديثية ، والرحلة التاريخية ، والرحلة الأثنوغرافية ، والرحلة الفهرسية ، والرحلة النقدية ، والرحلة التي لا تحمل اسم رحلة ، والرحلة التي تتخذ شكل المراسلة ، والرحلة الفنية الأدبية ، أو تصطبغ بصبغة المعاهدة المبرمة بين الدول المتجاورة أو المتنازعة .

إلى غير ذلك من الألوان التي تغلب فيها جانب على جانب آخر رغم اشتراكها ، كما قدمنا ، في كثير من الأسس والأهداف ، وتشابهها من حيث المحتوى والأغراض . والسبب في هذا التنوّع وهذا التطور هو البيئة المغربية نفسها بجميع مظاهرها ومعطياتها ، وجميع ظروفها وارتباطاتها وعلاقاتها بجيرانها ، بأشقّائها وأعدائها ، بجميع ما عرفته من تطورات وأحداث سياسية واجتماعية وثقافية ، وعوامل نفسية داخل إطارها المحدود ، وداخل إطارها الواسع الفسيح ، وفي زمنها الطويل .

وتكفي الإشارة ، من باب التذكير ، إلى نوع العلاقات التي كانت قائمة بينها وبين الأندلس ، وبين بني عبد الواد في المغرب الأوسط ، وبين بني

حفص في المغرب الأدنىٰ ، وبينها وبين البرتغال ، وبين نصارىٰ الأسبان في كلٍ من مملكة قسطلان ومملكة أراجون ، وبينها وبين دول أخرى على شط البحر المتوسط من جنوة وصقلية وميورقة .

بل يكفي التذكير بنوع الصراعات الحادة والمستمرة التي طبعت هذه العلاقات ، وشكّلت في كثير من الأحيان أنواعاً شتّىٰ من الجبهات والمواجهات السياسية والحربية ، تارة بقصد الدفاع وإثبات الذات ، وطوراً من أجل المقاومة وحماية ثغور الإسلام من التوسعات والغزوات ، وتوحيد كلمة المسلمين ولَمّ شعثهم وجبر صدعهم ، والقضاء على الفتن الداخلية ، والثورات المحلية ، واستجابة لرغبة المظلومين ، وتلبية لرغبة المستغيثين وإنصافهم من ظلم ذوي القربىٰ ، أو من جور المعتدين النصارىٰ أو المتنصِّرين .

والتاريخ يشهد أن الحلبة المغربية هي التي كانت مركز الجاذبية، ومحور التلاقي والفاعلية ، ومصدر البذل والحيوية ، فلعبت على مسرح هذه الأحداث وفي مختلف الجبهات دوراً رئيسياً يرقى إلى دور دولة بطلة حقّقت مكتسبات عدة في المغرب ، وفي الأندلس ، وفي الجزائر ، وفي تونس وفي غيرها من الدول الأجنبية ، مكتسبات تبدو سياسية بالدرجة الأولى ، لكنها تنطوي على منجزات أساسية حيوية روحية وعمرانية واجتماعية وثقافية ، ولا أدلّ على ذلك من الجهود التي بذلتها لتوقيف المدّ الاسترجاعي الأسباني النصراني ، وتأخير السقوط ، وتمديد عمر دولة الإسلام قبل سقوطها النهائي . وإذا كانت أكثر دول المغرب العربي أصبحت كلها موحّدة تحت راية المغرب المريني . وأصبحت كلمة المسلمين موحّدة بفضلها في الغرب الإسلامي ، وإذا كانت دول النصارىٰ بأسبانيا والبرتغال وغيرها قد رغبت في إقامة الصلح وعقد اتفاقيات التبادل التجاري مع موحِّد هذه الدول ومنسِّقها . وإذا كانت العلاقات بين المشرق والمغرب هي الأخرى قد عرفت نوعاً من الاستقرار والازدهار في التواصل والتآخي في الداخل والخارج ، فإن كل ذلك راجع لا محالة إلى نوع السلطة التي كان يباشرها المغرب ، والسلوك الذي كان يسلكه إزاء هذه

الدول جميعها ، والسمعة التي كان يملكها . كل هذه الوسائل وغيرها جعلته يتبوأ مكانة كان يُحسد عليها ، مكانة الصدارة والقدوة وحسن التفهّم والمعاشرة ، والحرص على جمع الصفوف وتقوية الوحدة وإعدادها لمجابهة القوة الطاغية الطامعة في كل وقت وفي كل وهلة للاستيلاء على ما تبقّىٰ من القواعد الإسلامية .

ألم تكن هذه العوامل الداخلية والخارجية كفيلة بأن تستبيح التنقّل والحركة ، وتخلق أسباباً كثيرة لشد الرحلة إلى المغرب الأقصىٰ الذي أصبح نفوذه ، كما أسلفنا ، أقوىٰ ، ودرجته أعلىٰ ، وثرواته يستفيد منها القاصي والداني ، ومراكزه العلمية القارّة والمتنقّلة ينهل منها المشرقي والمغربي؟

وليس بغريب أن يصبح قبلة يقصده الأندلسيُّون والجزائريُّون والتونسيُّون والمشارقة والنصارىٰ المرتدُّون ، أو الأسرى المحاربون . وليس بغريب أن يلجأ إليه اللاجئون والمهاجرون ، والسياسيُّون والديبلوماسيُّون ، والسُّفراء والتجّار والعلماء والأدباء والفقهاء ، والمظلومون والمستغيثون ، والطلبة والمعوزون ، والغرباء والراغبون في الإستفادة من خيراته أو من أمنه وراحته وازدهار اقتصاده ، كلٌ حسب درجته ومقصده ، مما نجده مسطّراً في محاولات أخرى قمنا بها في مناسبات سابقة[1] .

ألَمْ تكن هذه العوامل أيضاً كافية لخلق نهضة في ميدان الرحلة المغربية؟ إن أشهر الرحلات قد أُلّفت في هذه الحقبة ، وتركت تأثيراً كبيراً في الأوساط الرسمية والشعبية ، في المجتمعات العربية الإسلامية والأجنبية . يكفيك دليلاً على ذلك ما بلغته رحلة ابن بطوطة ، وابن رشيد من شهرة واسعة طبقت الآفاق القريبة والبعيدة ، وما تركته في النفوس رحلات أخرى متزامنة ومتعاصرة كرحلة العبدري ، ورحلة التجيبي وغيرها مما قد يطلع عليه الباحث في غير هذه الدراسة .

إلّا أن هذه الرحلات كلّها ـ وغيرها ـ وإن كانت من إنتاج مغاربة ينتمون إلى نفس البيئة ونفس الأزمنة فإن أحداثها جرت في مسرح بيئات أخرى شرقية

أو أفريقية لها صلة وثيقة بالمغرب ولا ريب في ذلك . لكن اهتمام أصحابها قد انصبّ بطبيعة الحال على معالم أخرى ومظاهر وأمكنة ومعطيات ونُظُم وأشخاص من صميم البلدان التي دخلوها أو حلُّوا بها وهم في طريق أدائهم لفريضة الحج كالحجاز ومصر والعراق وسوريا ، والمسافات التي تفصلها .

وسواء أكان الأمر يتعلّق بوصف الديار أو المؤسّسات الاجتماعية أو المراكز العلمية أو الإدارية ، أو النُظُم السياسية والقضائية ، أو العادات والتقاليد الشعبية ، أو التعريف بالشخصيّات الثقافية ، ومناهج الدراسة ، وكيفية التعلُّم فإن هذه المعلومات الضافية والثمينة لا تفيد بالنسبة للبيئة المغربية إلاّ إفادة جزئية وغير مباشرة تبقىٰ منحصرة في مجالات ضيِّقة وبعيدة سطحية بالنسبة لكثير من المغاربة رغم كون هذه الإفادة تسعىٰ لتوثيق الصلة بين مختلف أطراف العالم العربي الإسلامي وتجمع وحدته وتوحّد صفوفه ، وتوسِّع آفاق معرفة أبنائه بتناول الرأي والمحاورة والمناظرة فيقع التكامل والتفاعل والتعاون ويحصل التفاهم والتشاور .

ويرجع ذلك كلّه بالخير العميم على الرحّالة المغربي وعلى أبناء وطنه ذلك ليس إلاّ وتلك فائدة «لا نستصغرها لأننا نعلم أهميّتها بالنسبة للميادين التي نرغب في دراستها» .

نحن لا نستهين بالفوائد التي نجنيها من وراء هذه الرحلات التي تجري خارج إطار المملكة المغربية والتي هي فوائد جمّة ، لكننا كنا نود أن نظفر بحركة موازية في التيار المعاكس أي برحلات تتم من المشرق إلى المغرب ، ويقوم بها رحّالة مشارقة وأندلسيُّون ، وتونسيُّون وجزائريُّون يتطلّعون ويتجولون في مدن المغرب وقراه ، ويتنقلون داخل حدوده المستترة الثابتة أو حدوده الواسعة المتحركة فينصب اهتمامهم على مركز السلطة وعلى النُظُم السائدة ، وعلى أحوال الناس وتقاليدهم المرعية ، وعلى آثارهم ومعالمهم التاريخية والعمرانية ، وعلى أنماط اللباس ، وطرق المعاش والمعاشرة ، وعلى الحفلات والمواسم ، والأعياد الرسمية والشعبية ، وعلى مظاهر الفنون

والأنشطة الثقافية ، وسائر أنواع المعاملة والمتاجرة ، والحرف الصناعية ، والأدوات المستعملة ، والحيل المستخدمة ، وغير ذلك من أنواع السلوك والتفكير والوجدان مما يميِّز شعباً بأكمله ، ويعرّف بثقافته وبأصالته ، ويساعد على تحديد شخصيته عبر الزمان والمكان .

إلّا أننا مع الأسف لم نعثر على مثل هذا الإنتاج إلّا في أحوال نادرة ، وظرف استثنائية . فلا نجد من بين المصادر أو من بين الذين رحلوا إلى المغرب «واستوطنوه أو قضوا فيه مدّة معيّنة ـ وهم كثيرون ـ وخصّوه بدراسة أو بوصف إلّا قلّة قليلة ، ونتيجة لذلك فالرحلات المغربية بمعناها الضيِّق والحقيقي لا تشغل إلّا حيِّزاً ضيقاً إذا ما قورنت بالرحلات الأخرى المعاكسة وهي من إنتاج أفراد معدودين ينتمون إلى المشرق وإلى المغرب أو إلى دول مسيحية .

ولذلك ترانا نُرحِّب أشدّ الترحيب بكل محاولة من شأنها أن تكشف عن كل أثرٍ ذي صبغة محليّة ، ونصفِّق أحرّ التصفيق لكل كاتب جاءنا بكتابة تتناول بالوصف أو بالتحليل مظاهر بيئتنا المختلفة .

والرحلة التي نُقْدِم على نشرها الآن لأول مرة تستجيب لهذه الرغبة الملحّة ، وتحقّق ما يرضينا من المطامح العالية . وهي رحلة من نوع خاص ، وتكتسي صبغة نادرة ونفيسة ، تكاد تكون مجهولة : مخطوطة . ولا توجد منها في الدنيا ـ حسب علمنا ـ إلّا نسخة واحدة . إطارها المغرب في حدوده العامة . وعصرها عصر الدولة المرينية . فمن هو مؤلّفها؟ وما هو محتواها؟ وما هي ظروف تأليفها؟ وماي هي قيمتها؟ تلك أسئلة عريضة سنحاول الإجابة عنها فيما سيأتي بعد التمهيد لها بمعلومات عامة نتمنى أن تنير الطريق ، وتهيىء القارىء ، وتضع الموضوع في إطاره العام وإطاره الحقيقي .

تلك ، أيضاً ، أسئلة كثيرة وعريضة تقتضي الإجابة عنها الإلمام بعناصر رئيسية وأخرى ثانوية نتمنى أن تكون كافية لربط القارىء بموضوع هذه الدراسة المتواضعة ، حتى يتتبع فصولها ومراحلها المختلفة .

وينبغي لنا أن نشير بادىء ذي بدء ـ ونحن ما زلنا في البداية ـ إلى أن الأمر يتعلّق بـ :

«فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب» .

ذلك هو العنوان الذي تحمله هذه الرحلة . وقد ورد بنصّه الكامل في عدد غير قليل من المصادر المعاصرة أو اللاحقة . وهو عنوان يدل على محتواه : شكلاً وجوهراً ، صياغة وقالباً كما سيتضح لنا فيما بعد .

أما مؤلّفها أو كاتبها فهو آبن الحاج النميري . وأما مبدعها ومخطّطها ومنفّذ جميع مراحلها بكليّاتها وجزئياتها فهو الملك أبو عنان المريني (729-759 هـ) . ومعنى ذلك أن الأوّل معاصر للثاني وأن الصلة وثيقة بين الرجلين صلة خادم بمخدومه ، صلة كاتب خاص بلا واسطة بينه وبين رئيسه أمير المؤمنين سلطان المغرب الأقصىٰ والمغرب الأوسط والمغرب الأدنىٰ . من عظماء ملوك بني مرين إن لم يكن أعظمهم على الإطلاق . وهو آبن أمير المسلمين السلطان الأكبر أبي الحسن علي (697-752 هـ) «سلطان مراكش وسجلماسة ودرعة واسفـي وأزمور وسلا ومكناسة وطنجة وسبتة وتلمسان ووهران وهنين ومليان والمرية والجزائر وجبل الفتح ورندة» . موحِّد المغرب العربي الإسلامي ، وحامل لواء استرجاع المغرب الموحدي .

زمن الرحلة إذن زمن مرحلة خاصة من مراحل عهد دولة بني مرين : مرحلة الاستقرار والازدهار واكتمال النضج وبلوغ القمّة ، وإنجاز أهم الآثار ، وتحقيق المشاريع الكبرى السياسية في الداخل والخارج ، وتنفيذ المخططات الاقتصادية والثقافية ، وإشاعة الرخاء والأمن والطمأنينة ، وبث دور العلم ومراكز التعبّد وتعميم التعليم ، وتشجيع الطلبة المستقرّين أو المتنقلين .

فعمّ الإشعاع الحضاري سائر نواحي المملكة ، وتجاوزها إلى حدود نائية شرقية وغربية وجنوبية بلغها صيت المغرب وطارت إليها شهرته الواسعة ، فكثر

الواردون عليه ، وطمع الطامعون ، والتجأ إليه المهاجرون والسياسيّون . وخاطب ودّه النصارىٰ والمسلمون ، وقصده المظلومون والمستغيثون . فعجّت البيئة المغربية بعناصر من كل حدب وصوب حسب الأغراض والغايات والنزعات والملمّات . وقبل ذلك وبعده فهو عصر فطاحل العلماء والفقهاء وفحول الشعراء والأدباء الذين انصهروا في هذه البيئة ونهلوا من معينها ، وكرعوا من ينابيعها ، فأفادوا واستفادوا ، وتناظروا وعلّموا وكتبوا ، وأنتجوا إنتاجاً يتميّز بأصالته وطرافته ، وبعمقه وندرته . نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر آبن خلدون[1] ، وآبن الخطيب[2] ، وآبن مرزوق[3] ، وآبن عبد المهيمن الحضرمي[4] ، وآبن رضوان[5] ، وآبن البناء[6] ، وآبن رشيد السبتي[7] ، وآبن الشاط[8] ، والتجيبي[9] ، والشطي[10] ، وآبن أجروم[11] ، وآبن بطوطة[12] . وغيرهم من الأعلام الذين تواجدوا على نفس الساحة الأدبيّة والعلمية . وواضح أنهم يمثّلون جميع أطراف المغرب الإسلامي برباط قوي ومتين .

وليس مؤلّف «فيض العباب» إلاّ واحداً من هذه النخبة التي أشرنا إليها ، وسردنا نماذج منها ، فقد كان منها إليها ، وارتبط بكثير من عناصرها ارتباطاً زمنياً ومكانياً وصدر عنه ما صدر عن كثير من أفرادها ، وتحمل نفس المسؤولية التي كانت على عاتق عدد غير قليل منها في هذه الديار المغربية ، في حضرة فاس العلمية ، عاصمة الدولة المرينية .

لذلك كان من الضروري أن نقف عنده وقفة تسمح لنا بأخذ فكرة عن شخصيته وثقافته ، ومعرفة ما أتىٰ به من جديد بالنسبة لمعاصريه ، سيما وهو جدير بهذه الوقفة وبهذه العناية نظراً للخدمات الهامة التي أدّاها في المغرب الأقصىٰ ، وللأثر النفيس الذي تركه لنا وهو أثر نادر ، فريد من نوعه وطريف كما أسلفنا .

ليس آبن الحاج من المؤلّفين المجهولين ، ولا من الأدباء والعلماء المغمورين إلاّ أننا لا نكاد نعرف عن حياته وعن آثاره ، التي أصبح جلّها في

حكم المفقود إلّا شيئاً قليلاً بسبب السكوت الذي خيّم عليه وعلى غيره .

ومع ذلك فقد عرفت به بعض المصادر المعاصرة ، وتطرّقت إليه مصادر أخرى ثانوية لاحقة وأخرى حديثة . فكانت التعريفات مختلفة شكلاً وجوهراً . بعضها صادر عن المخالطة والمعاشرة وواقع البيئة والمزامنة ، وبعضها الآخر ناتج عن مجرّد النقل والرواية والجمع والاستنتاج والمقارنة .

وكم سرّنا أن نجد بعض هذه المصادر مبوّبة مرتّبة عند باحث جديد قام بمحاولة أخرى جادّة تتعلّق بنفس المؤلِّف ، لكن بأثر آخر من آثاره المفقودة . فانصبّ اهتمامه أوّلاً على التعريف به وبمؤلّفه بالضبط لغاية تحقيقه ونشره . وما هٰذا الآخر الذي نعنيه إلّا «مذكرات» ابن الحاج نفسه التي ظلّت هي الأخرى محجوبة مجهولة ..وهي تفيد في هذا الميدان إفادة مباشرة موضوعية لكن الباحث لم يخرجها بعد إلى الوجود ليطلع عليها عموم القرّاء ، ويدركوا ما تنطوي عليه من معلومات ذاتية وأخرى تتعلّق بالبيئة المغربية .

وكان لا بدّ بالنسبة إلينا من الرجوع إلى المصدر المخطوط الذي يوجد في بلاد أجنبية لنأخذ عنه صورة شمسية ، فكان ذلك مما ساعدنا على الإلمام بعناصر تتعلّق بحياة مؤلّفنا وجوانب أخرى من شخصيته واهتماماته. وتكاد تكون هذه العناصر مفتقدة وهي عبارة عن معلومات ترتبط بالدرجة الأولىٰ بسيرته وببعض شيوخه .

أما الرحلة التي نحن بصددها فهي مصدرٌ لمعلوماتٍ من نوع آخر قليلاً ما تتعلّق بحياة المؤلِّف الخاصة الضيّقة وإن كانت تلقي بعض الأضواء بصفة مباشرة أو غير مباشرة على عقليته ، واهتماماته ، وسلوكه في ميادين رسمية معينة ، وجوانب خلقية تكوينية ، وثقافية .

ومهما اختلفت المصادر المطبوعة من حيث القيمة ، ومن حيث الأصالة ومهما تباينت وجهة نظر مؤلِّفيها ودرجة جديّتهم فإنها تشكل بالنسبة لموضوعنا حجر الزاوية وتجسّد وثائق ضرورية جديرة بدراسة نقدية .

ونحن وإن كنّا لا ننوي القيام بهذه الدراسة حالياً فإن جوانب ثرائها وإفادتها من جهة ، وضرورة البحث من جهة ثانية تفرض علينا استعراض أهم ما رجعنا إليه ، ورجع إليه غيرنا تعميماً للفائدة ، وتيسيراً لقرّاء اللغة العربية بصفة خاصة فنقتصر إذن على بعض العناوين مع تقييمها :

ــ لسان الدين آبن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة ، ج 1 ـ 350-370 .

ــ لسان الدين آبن الخطيب : الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس في المائة الثامنة . (260-269) .

ــ لسان الدين آبن الخطيب : نفاضة الجراب في علالة الاغتراب ، تحقيق المختار العبادي .

ــ لسان الدين آبن الخطيب : ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب .

ــ أبو البقاء خالد البلوي : تاج المفرق في علماء أفريقيا والمشرق تحقيق ح السايح ، ج 2 .

ــ شمس الدين محمد آبن مرزوق : المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا آبن الحسن خ ، خ ، عـ ، رقم 111 و376 .

ــ عبد الرحمان آبن خلدون : التعريف بآبن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً .

يحيىٰ آبن خلدون : بغية الروّاد في ذكر ملوك بني عبد الواد 138-139 .

ــ آبن الأحمر : نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان 313-318 .

ــ أحمد بابـا التنبوكتي : نيل الابتهاج بتطريز الديباج .

ــ آبن القاضي : جذوة الاقتباس ص 87 .

ــ المقري : نفح الطيب ج 3 ، 287 ـ 289 ـ 315 ـ 327 .

آبن إبراهيم ، العباس ، الأعلام ، ج 1 ، ص ـ 178 .

ج ، ف ، هونكينس ، آبن الحاج وكتابه قرائن النصر ومحاسن العصر في مدح أمير المسلمين أبي عبد الله آبن نصر .

Bulletin of the School of Oriental Studies T : 24 PP : 64 - 57 (A. L de Pémaré).

أ ، ل ، د بريماري .

مذكرات آبن الحاج النميري الأندلسي 1968 نسخة مرقّنة .

ولنفس المؤلّف «مذكرات سفير أندلسي في المغرب والأندلس في القرن الرابع عشر فرنسا 1981 مقدّمة باللغة الفرنسية .

والدارس لهذه المصادر وغيرها يخرج بنتيجة تكاد تكون حتمية وهي أن أهم ما يتعلّق بسيرة آبن الحاج وثقافته وإنارة بعض جوانب حياته . يكاد يقتصر على إحاطة آبن الخطيب ، ورحلة البلوي ، ونثير الجمان لابن الأحمر ، ونفح الطيب للمقري ، وجذوة الاقتباس لابن القاضي ، مع الإشارة إلى أن المصدر الأول يجب أن يحتل المكانة الأولى لغزارة مادته ، وللتفاصيل المختلفة التي وردت فيه دون سواه . ولا عجب في ذلك فقد كان بين آبن الخطيب وآبن الحاج أكثر من صلة ، وأكثر من وجه نسبة : صلة المودّة ، والمعاصرة ، وصلة الثقافة ، والمداعبة والممازحة ، وتبادل الآراء والأفكار والعواطف ، والمراسلة فقد خصّص له في كتابه المذكور أكثر من عشرين صفحة ، كما عزّزها بعناوين أخرى في الريحانة ، وفي الكتيبة الكامنة وفي النفاضة ، وحلاه بأعلى الصفات ، وخلع عليه أحسن ألقاب الشرف والتعظيم والتمجيد مما لا نجده عنه عند غيره ، وإن كنا واجدين عند صديق آخر «البلوي» ما يدخل في العاطفيات والوجدانيات ، وعدداً غير قليل من المعلومات التي تطلعنا على مقاصد واتجاه كل من الرجلين في باب 'الشعروالأدبيّات والحديث الذي راج بينهما بقسنطينة حديث طويل وذو شجون . وإن البضاعة التي تبادلاها بضاعة شعرية متنوعة تنم عن ذوق معيّن ، وكفاءة متميّزة . فلقد أنشد كل واحد منهما للآخر أبياتاً وقصائد مختلفة القوافي والأغراض لشعراء مشارقة ومغاربة للإفادة والاستفادة ، فتباريا وتخاطبا ، واستحسن كل واحد ما جادت به قريحة الآخر . ورضي كل من الطرفين أن يكون أستاذاً للطرف الآخر في المادة

المعروضة وعبارة فرويت عنه وروى عني ، وقيدت عنه وقيد عني عبارة لها أكثر من مغزىٰ ، وأكثر من دلالة .

وعند آبن الأحمر كان من المتوقع أن يحظىٰ آبن الحاج بأعلىٰ مكانة ، وينال حظاً وافراً من الاهتمام الذي صبّه على فحول الأندلسيين والمغاربة معاً . ولكن الأمر لم يكن كما تمنّيناه رغم تقارب العهد بين الرجلين وتشابه تكوينهما ووضعيتهما . واشتراكهما في كثير من الصفات والملابسات مما يجعل الصلة أوثق ، والمودة أقوىٰ والتفاهم أعمق .

ومع ذلك فالصفحات التي شغلها المؤلِّف في «نثير فرائد الجمان» ، ذات قيمة عظيمة وهي تشكل مادة أدبية غنية وتتضمن بالإضافة إلى ذلك معلومات قيِّمة جديرة بآطلاعنا عليها إذ نجد فيها جوانب معيّنة ذات صلة بحياة المؤلِّف وآثاره الأدبية بصفة خاصة .

ويمكننا بالإضافة إلى ذلك أن نشير إلى مرجع آخر لا يقل أهمية عن المراجع الأصليّة التي ذكرناها ، ونعني به نفح الطيب للمقري حيث توجد معلومات متنوعة عن الرجل وعن ثقافته وآثاره ، وهي معلومات قلّما ظفرنا بها في غيره من المصادر المعاصرة ، ولا أدلّ على ذلك من إيراده لمقتبسات من رحلة آبن الحاج التي تعتبر اليوم مفقودة ، وإيراده كذلك للأشعار التي قيلت في مناسبات عدة وتعالج مواضيع مختلفة .

ومن حسن حظ الباحث أيضاً أن يجد بالإضافة إلى ذلك أبياتاً شعرية يكمل بها قصيدة تضمنتها الرحلة التي نحن بصددها ، وهي قصيدة طويلة نظمها آبن الحاج في مدح أبي عنان بعد شفائه من مرض ألمّ به وهو يتأهّب للحركة السعيدة . هذه بعض الأمثلة وهي كافية للدلالة على الأهمية القصوى التي تكتسيها هذه الوثيقة المغربية .

أما فيما يرجع للأبحاث الحديثة فمما لا شك فيه أن دراسة : Prémaré تكتسي صبغة علمية وهي تدور كما أسلفنا حول آبن الحاج ومذكراته اليومية

ففيها جال وأجاد ، وأفاد فاستغلّها فرصة وتوسع في الموضوع توسعاً كان له ما بعده ، فأفادنا بمعلومات قيِّمة استعنّا بها خصوصاً في معالجة هذا الجانب من شخصية وسيرة آبن الحاج النميري سيما وأن الباحث قد استثمر ما جاء في هذه المذكرات اليومية بما فيها المعلومات التي تتعلّق بجوانب مهمّة من شخصية آبن الحاج وثقافته الأدبية والعلمية بصفة خاصة ، لأنها تتضمن اتصالاته المتعددة بكثير من أدباء وفقهاء عصره ليأخذ عنهم ، وليأخذوا عنه بقصد التبادل ، والتشاور ، والتحاور ، والأخذ ، والرواية وهي بالإضافة إلى ذلك تهتم بذكر أسماء الشيوخ والأدباء الذين رووا عنه وروىٰ عنهم ، وأنشدوا له وأنشد لهم ، وقيدوا عنه وقيد عنهم . وهذه الوثيقة مهمّة مفيدة لأنها عبارة عن فهرسة أو برنامج كما عند الأندلسيين ، وبذلك تعتبر أساسية في هذا الموضوع بالضبط . والغالب على ظنّنا أن الباحث المذكور لم يستثمر جميع ما تضمنته هذه المذكرات في دراسته .

ويحق للباحث أن يتساءل عن أهمية الأثر الثاني لابن الحاج وقيمته ، ومعرفة نوع المساعدة التي يقدّمها لنا في التعريف به ، وبشخصيته . ويمكن أن نؤكد في غير مبالغة أن فيض العُباب يتضمن من المعلومات والعناصر التاريخية والحضارية والسياسية والإدارية والحربية والأدبية والفنية ، ، ، ما لا يمكن عدّه ولا حصره! مما لا نعثر عليه في وثائق أخرى عاصرته أو قاربته إلّا أن شخصية آبن الحاج تكاد تكون منعدمة فيه ، مختفية وراء شخصية مخدومه البطل الأول صاحب السلطة العليا السلطان أبي عنان الأكبر مدبر الحركة وقائدها الأعظم . فلم يكن آبن الحاج سوى «الناطق الرسمي» بآسم الأمير والمعبِّر الأمين عن أفكاره وعواطفه وإحساساته وخلجات صدره ، المستجيب لأوامره ونواهيه ، المطبق بالحرف لتعليماته ، والمنفِّذ لقراراته ، السائر في خطاه وعلى هديه ، المتكيِّف بوحي منه ، وحسب أغراضه ونزعاته ، المدرك لخفايا شعوره وخبايا سريرته ، يفرح لفرحه ويغضب لغضبه . وقد كان بحق يستحق الثقة العليا التي وُضعت فيه ككاتب السر ، وصاحب القلم الأعلىٰ . وقد كلِّف بمهمة عليا كان عليه أن يؤدِّيها بكامل الإخلاص والتقدير ، وحسن

التفهّم والتدبير . فكان بارعاً في تأديتها ، مقدّراً لعواقبها ، مستمراً بها إلى نهايتها .

فلم يكن ، والحالة هذه منشغلاً بنفسه ، منصرفاً إلى أشغاله ، مهتمّاً بوقته ليصرفه في الاتصال بأصدقائه أو شيوخه ، أو تحقيق بعض حاجياته ومآربه ، فيصدر عنه ما صدر في «مذكراته» من إفادات ، وإملاءات ، وإنشادات وتصرّفات ، وتحقيقات ، ومحاورات ، وترجمات لكثير من الشخصيات التي اتّصل بها عن طريق الصدفة أو عن طريق الرغبة ، فعرّفنا بها ، وبنفسه ، وبأدبها ، وبأدبه فكانت كما أسلفنا عبارة عن فهرسة وعن ما يسمىٰ بـ «أنتلوجية» أو سجل المنتخبات الأدبية . جمع فيه ما تجمع له بالصدفة أو بالانتقاء .

فالوثيقتان متشابهتان ، متفقتان في الشكل والأهداف ، فالمذكرات عبارة عن حصيلة ، عن سجل يومي دوّن فيه آبن الحاج ملاحظاته ، ومشاهداته ، وتأمّلاته ، وانفعالاته ، ونتائج اتصالاته اليومية بكثير من أدباء بيئته وعصره . وهو في كل هذا مرافق لملكه السلطان أبي الحسن المريني ، متنقل متجوّل في شمال المغرب وجنوبه .

وإذن فنحن أمام رحلتين إثنتين اتفقتا في الشكل واختلفتا في المقصد والمضمون . فالأولى تكتسي صبغة مدنية ، ولا يتعدىٰ إطارها حدود المغرب الحالية أما الثانية فتكتسي صبغة سياسية حربية نظراً لِما كان للناس من أهداف سياسية وحربية اقتضتها ظروف البيئة وعوامل المجتمع وتوحيد كلمة المسلمين المنشودة .

ومن المؤسف أن بعض معاصري آبن الحاج من أدباء ومؤرّخين لم يزيدوا على أن أشاروا إليه إشارة خفيفة ، أو سكتوا عنه سكوتاً ، وضربوا صفحاً عن أصالته والمكانة الاجتماعية التي كان يتمتع بها ، والمسؤوليات التي كلّف بأدائها بفاس وغيرها . ولعل ذلك راجع في نظرنا إلى أسباب سياسية وشخصية .

من هؤلاء آبن جابر الوادياشي صاحب «البرنامج» ، أستاذ آبن الحاج وصديقه . فليس بهذا البرنامج إشارة أو صلة برحّالتنا رغم الصداقة التي كانت تربطهما ، ورغم كونهما درسا معاً في تونس .

ومنهم أيضاً آبن الشمّاع صاحب الأدلة النورانية على مفاخر الدولة الحفصية (ق 9 هـ) ، والزركشي (ق 9 هـ) مؤلِّف تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، وآبن أبي دينار (أواخر ق 11 هـ) مؤلِّف المؤنس في أخبار أفريقيا وتونس .

ولم نعثر على شيء يذكر في «البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان» لابن مريم ونفس الشيء يلاحظ أيضاً عند الخزاعي في كتابه تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول اللّه ﷺ ، من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية رغم كونه معاصراً له (710-781هـ) .

إلّا أننا مع ذلك ، ـ اعتماداً على هذه المصادر وغيرها ـ ، استطعنا الخروج بنتائج مكنتنا من رسم صورة تقريبيّة لابن الحاج مؤلِّف فيض العُباب الذي نحن بصدده .

وهو أبو القاسم ، برهان الدين إبراهيم بن عبد اللّه بن محمد بن إبراهيم بن أسد بن موسىٰ بن إبراهيم بن عبد العزيز بن إسحاق بن قاسم النميري الغرناطي المعروف بآبن الحاج . ويضيف آبن القاضي أن أجداده معروفون كذلك ببني أرقم[13] .

من أسرة عريقة في المجد ، نبيلة ونبيهة الذكر . عرف أكثر أفرادها بالفضل والعلم والمكانة الاجتماعية الرفيعة والسلطة الدائمة والتوفُّر على الثقافة العالية ، وخدمة الملوك والرؤساء ، وذوي الجاه والنفوذ من وزراء وأمراء بصفة خاصة ، بل منهم من تولّىٰ خطة القضاء أو الأشغال أو الوزارة .

أطلعنا آبن أخيه إبراهيم بن أبي عمر في مقدمة فيض العباب على هذه المكانة العلية التي احتلّتها أسرته قائلاً : «كان عمي رحمه اللّه إبراهيم بن

عبد اللّه بن الحاج من بعض خدامه ، فوقف العبد كاتب هذا بخطّه إبراهيم بن أبي عمر بن الحاج (،،،) عليه . فالعبد يرغب في تجديد ما جرت به العوائد من العناية بذلك الموضع الشريف بالعمّ والوالد ، ليلحقني ما لحقهما من الخدمة والرعاية والتشريف بالوساطة لموالينا بأن يلحقوا بآبائه في الولاية (،،،) ويوصل المملوك بجاه مولده للرتب العالية،،،[14] .

وآبن الحاج نفسه يشير إلى مذكراته[15] إلى أفراد أسرته الذين كانت لهم مكانة تذكر وذلك عندما سأل شيخه أبا الحسن آبن الجياب أن يجيز له ولأخويه محمد وأبي عمر ولابن أخيه محمد بن محمد .

فأبو عبد اللّه كما عند آبن الخطيب[16] ولي خطة الأشغال بغرناطة وبسبتة يوم كانت تحت نفوذ بني الأحمر . وجده إبراهيم هو الآخر قد شغل منصب الكتابة لدى رؤساء بني أشقيلولة ، وكذلك منصب رئيس ديوان الجند بتكليف من سلطان بني نصر . وكذلك الشأن بالنسبة لابن أخيه المذكور الذي نِيطت به مسؤولية في ديوان الجند[17] .

ويجب التذكير كـذلك أن خـاله أبـا عبد اللّه بن عـاصم قد تـولّى الكتابـة لمحمد الثاني الفقيه ، وأن ابنه أبا عبد اللّه محمد هو مؤلّف تحفة الحكّام الشهيرة بالعصمية.

ولادتـه :

أجمع كثير من مترجميه ، بل جلّهم ، على أن ولادته كانت سنة 713 هـ ـ 1313 م باستثناء مؤلّف واحد هو الصفدي صاحب الوافي بالوفيات الذي قدمها بسنة واحدة وأرجعها إلى سنة 712 هـ . وذلك على أثر اجتماعه به سنة 738 هـ بالقاهرة في طريقه إلى الحج فسأله عن مولده وأفاده بسنته الحقيقية هذه[18] ، وأنشده قصيدة منها :

هن البـدور ثغيـرات لمـا رأت   شعـارات رأسي أذنـت بتـغيـيـر
راحت تحب دجىً شبـاب مـظلم   وغـدت تعـاف ضحىً مشيب نيِّـر

كانت وفاته بعد سنة 774 (أ) . لم نعرف بالضبط تاريخ هذه الوفاة لكون المؤرخين قد سكتوا عنها سكوتاً تاماً .

حياته إذن قصيرة لكنها حافلة بالأعمال والجهود العظيمة والنشاط الدائب ، والطموح والإرادة القوية ، والرغبة الملحّة في النهوض والتحسّن الدائم والترقية المستمرة كما فعل الآباء والأجداد ، وسائر أفزاد الأسرة . وبالرجوع إلى أعماله والخدمات والوظائف التي شغلها ، والأعباء الإدارية وغيرها التي تحمّلها يمكننا أن نميِّز في هٰذه الرحلة القصيرة المراحل التالية : ـ

1 ـ مرحلة الشباب : من 712 هـ إلى 734 هـ وهي المرحلة التي استكمل دراسته فيها ، واستطاع الحصول في نهايتها على درجة كاتب ديوان أبي الحجّاج يوسف النصري.

2 ـ آبن الحاج في الشرق لأداء فريضة الحج حوالي سنة 737 هـ . قضى بالديوان المذكور ثلاث سنوات انصرف على أثرها إلى الديار المقدّسة لأداء فريضة الحج .

3 ـ في خدمة بني حفض ، بقسنطينة ، (أبي عبد اللّٰه آبن أمير المؤمنين أبي يحيىٰ الفضل) (739 هـ) ، وأبي زيد عبد الرحمٰن والأمير الفضل (739-740 هـ) .

4 ـ في خدمة بني مرين (أبي الحسن المريني 743-747 هـ) .

5 ـ آبن الحاج مرّة أخرى في الشرق لأداء فريضة الحج حوالي سنة 747 هـ[19] .

6 ـ آبن الحاج مرة أخرى في خدمة بني حفض ، وبصفة خاصة الأمير أبي عبد اللّٰه محمد 750-752 هـ.

آبن الحاج في العباد بتلمسان في خلوته 752-757 هـ.

آبن الحاج في خدمة بني مرين (السلطان أبي عنان ثم أبي زيان السعيد 757-758-760هـ[21]) .

آبن الحاج في خدمة بني نصر محمد الخامس العلي باللّه سفيراً وقاضياً إلى أن فارق الحياة بعد سنة 774[21].

تلك هي الأحداث الكبرى التي ميّزت حياته من بدايتها إلى نهايتها . وهي كما أسلفنا حياة مليئة بالتقلّبات والتطورات السياسية في الداخل والخارج وفي سائر أقطار المغرب الإسلامي . قضاها كلّها في خدمة الملوك والأمراء والرؤساء تارة كاتباً في ديوان الإنشاء ، وتارة أخرى كاتباً خاصّاً ورئيس الكتبة في المغرب الأقصىٰ وسفيراً لبلده إلى تلمسان ، ثم قاضياً بإقليم غرناطة إلى أن توفي .

وهي وظائف سياسية ، كما يلاحظ ، من شأنها أن تشغل صاحبها وتصرفه عن الاهتمام بقضايا أخرى لما تتطلّبه من ارتباط آبن الحاج بأبي عنان ارتباطاً وثيقاً كما أسلفنا ، وأصبح في خدمته بناء على رغبة ملحّة صدرت منه إليه ، وتنفيذاً لتعليمات خاصة ، فآبن الحاج الذي كان كاتباً لأبي الحسن سارع إلى الامتثال لأوامر ابنه أبي عنان فآلتحق في الحين بالحضرة العليّة ككاتب علامة ورئيس ديوان الكتبة ومحرّر الرسائل الخاصة والظهائر المختلفة كما لعب أدواراً أخرى تدخل في نطاق خطة الحجابة أو الحسبة.

تحدّث آبن خلدون[1] عن نوع هذه المهام التي كلّف بها آبن الحاج وأطلعنا على ظروفها وأسبابها قائلاً : «وأفرد آبن رضوان بالكتابة وجعل إليه العلامة كما كانت لأبي عمرو . فاستقل بها موفر الإقطاع والاهتمام والجاه ثم سخطه آخر سبع وخمسين ، وجعل العلاّمة لأحمد بن أبي القاسم آبن أبي مدين والإنشاء والتوقيع لأبي إسحاق إبراهيم آبن الحاج الغرناطي».

ولسنا نعلم بالضبط هل كان آبن خلدون على علم تام بجميع المهام التي أنيطت بآبن الحاج ذلك أن آبن أخيه أكّد لنا في مستهل فيض العباب إن العلامة كانت هي الأخرى من اختصاصات عمّه ومقومات وظيفته . أيهما أقرب إلى الصواب والواقعية؟ ومهما يكن من أمر فالمسؤوليات التي تحمّلها آبن الحاج في هذه الظروف كانت متعددة الجوانب والمظاهر ، إذ كثيراً ما أشار إليها هو نفسه متحدّثاً عن نوع الأشغال التي كلّف بإنجازها والظروف المحيطة

بها فكان «مكلّفاً بكبرى الأعمال قاطعاً سحابة اليوم منفّذاً لما أُنيط به من الأوامر والخدم السلطانية».

أمره أبو عنان بإنشاء كتاب الفتح قائلاً له : لا يظلّك الصبح إلّا وقد جئتني به مكتوباً مسطور (110 أ) وأهبت بالكتبة الماثلين ليكتبوا نسخة فامتثل للأوامر وكتب الكتاب الذي استغرق منه ليلة كاملة.

وبعد فتح قسنطينة وعلى أثر هذا الفتح حرّر كتاباً في الموضوع ووجّهه إلى الرعايا بقصد الاطلاع ثم قام بنفس المهمة بعد ما تم فتح تونس وعنابة مفصلاً الظروف التي تم فيها هذا الفتح والإجراءات المتّخذة والتدابير المعلنة إلخ وفي نفس الموضوع يأمره أيّده اللّه بإنشاء كتاب لأهل البلاد بوصول تلك البيعات بيعة أهل طرابلس وقابس ، ، ، واستوفى الكتبة بالديوان الشريف بعد الانتشاء اكتتابها وأحضرها بالبساط الشريف (124).

ومن جهة أخرى نراه يتولى كتابة رسائل من نوع آخر تكتسي صبغة دينية واجتماعية : هو الذي أنشأ رسالة الحثّ على أداء الصلاة ووجّهها إلى القضاة قبيل القيام بالرحلة (10 ب) وهو الذي حرّر الرسالة التي أمر فيها أبو عنان بالتصدّق على المساكين والمعوزين والعفو عن الأسرى والمسجونين ثم كلّف بتحرير رسالة مولوية تأمر ببناء مستودعات في كل مدينة وفي كل قرية ، «وصدرت تلك الأوامر بتعريفي الذي حكم بتشريفي» وهو «المكلّف أيضاً بكتابة الظهائر الكريمة والمراسيم الشريفة (35 ب) المتعلّقة بالتعيينات والترقيات كظهائر موظفي وخدمة الزاوية المتوكليّة (35 أ) والمكلفين بالسهر على أداء الصلاة وتعيين أصحابها وتسمية الشيوخ كشيوخ أولاد وشاح الذين صدر لهم المرسوم الشريف المتعلّق بعبد اللّه ابن رشاش ، وكذا الأمر بالنسبة لعرب أفريقية الذين طالبوا بتجديد ظهائرهم وصكوكهم وإجراء عوائدهم وأسعفوا «وصدرت لهم بتعريفي ظهائر صريحة» (99 ب).

فابن الحاج لا يسكت عن هذه المهام السامية التي أسندت إليه في مناسبات مختلفة لأنها تعرّف بالمكانة التي كان يحظى بها وقد يشير إلى مراسم

سلطانية خطيرة وظهاثر إمامية كبيرة[139] كتلك التي صدرت بشأن الوزير الكبير آبن ودرار بعد فتح قسنطينة وبشأن القسنطينيين بعد إخماد نار الفتنة (92 ب) وقد يتدخّل في أمور أخرىٰ غير هٰذه تكتسي صبغة سياسية محضة كالمبادرة التي اتّخذها بعد استئذان رئيسه للكتابة إلى قاضي عنابة للدخول تحت الطاعة (94 أ ـ 95 ب) أو تتصل بدور المحتسب والحاجب كما قدمنا كسلوكه مع الشاعر آبن عبد المنان الخزرجي[113] حينما قام بينه وبين الملك بدور الوساطة.

ونتيجة للاعتبارات السالفة الذكر، والعلاقات الوثيقة التي كانت تربط بين الكاتب الوفي المتفاني في خدمة رئيسه وملكه والملك العظيم الذي قدّر كل التقدير خدمات مرؤوسه فإن الرحلة لم تكن في جوهرها بل وحتى في صياغتها سوى من إملاء وإيحاء أبي عنان الذي ظل مسيطراً على الموقف، ومؤثراً كل التأثير بشخصيته القوية وبنفوذه المعنوي والماديّ والروحي على كاتب الرحلة الذي استطاع بذكائه وأدبه وأخلاقه أن يتقمّص هذه الشخصية وينْفذ إلى أغوارها ليمثّلها أحسن تمثيل بواسطة الكلمة والجملة وأن يتكيّف معها في سائر أطوارها وتقلّباتها وأفكارها وعواطفها وانفعالاتها وردود فعلها وحتى مع نواياها وخفاياها! وإدراك ظواهرها وبواطنها والتنبؤ بما سيصدر عنها. فشخصية أبي عنان هي الشخصية القوية البارزة في «فيض العباب» والرحلة إلى «قسنطينة والزاب» وشخصية آبن الحاج هي الشخصية الخافتة المتسترة والساعية إلى التعبير عن إرادة أبي عنان بشتىٰ الوسائل والأساليب والمجتهدة في ترجمة عواطفه وإحساساته بصريح العبارة أو بالرموز أو الكتابة.

فكثيرة هي الأحداث التي فصّلت تفصيلاً ودقّقت تدقيقاً، وكثيرة هي المشاهد والمعالم التي وصفت وصفاً طويلاً يكاد يكون مملّاً!، وكثيرة في مقابل ذلك هي القضايا التي اختصرت اختصاراً وهشمت تهشيماً والأخبار المفيدة التي أوجزت إيجازاً!

والتطويل أو التقصير والشرح أو التلخيص والإطناب أو الاختصار والتعميم

أو التخصيص كل ذلك ظل خاضعاً لإرادة مسيطرة إرادة السلطة القوية المعبِّرة أو الموحية ، فلم يكن آبن الحاج والحالة هذه سوى أداة طيِّعة لكن عن اقتناع سخّرتها يد أبي عنان لرسم لوحة كاملة تعكس بصدق وأمانة معالم شخصيته وعناصر بنيته.

وللقارىء أن يأخذ فكرة عن ذلك بالرجوع مثلاً إلى الفصول التي خصّصها النميري للحديث عن الزاوية المتوكليّة وله كذلك أن يرجع إلى الحديث الذي دار حول الواحات والدور الفخمة التي سكنها العرب «المنافقون والخونة المارقون» كيف صوّرت تصويراً وكيف خربت تخريباً ، وكيف تناولتها الفؤوس والمعاول وأصبحت أثراً بعد عين وغير صالحة للمفسدين لأن أبا عنان لم يكن راضياً عنها ولم يكن راغباً في إبقائها ، وكيف كانت الجنان المحدقة بها حيث خط أفراق السعيد باقة من الزهور والورود ، روضة يانعة باسمة منسّقة ما رأت العين أحسنها لأن أبا عنان أعجبه منظرها ودوخته العطور الفائحة منها ، فأصبحت نتيجة لذلك جميلة وبديعة بالنسبة لابن الحاج الذي أطال وأجاد في وصفها.

وكذلك الشأن بالنسبة لسائر الممالك والمسالك والمشاهد والمعالم والمآثر والمناظر فهي رائعة جميلة لا نظير لها إن أعجبت وراقت فارس بني مرين ، ، ، وهي قبيحة خربة مفسدة للذوق تسيء إلى الناظر إليها لأن أبا عنان غير راضٍ عنها : حذر شديد ، ويقظة دائمة ، وجهود مستمرة للتعرّف على الأحداث وعلى وقوعها ، ومعرفة أسبابها ومسبباتها للصبغة الخاصة التي تكتسيها والخطورة التي تحدق بها في ظروف صعبة ومتقلّبة اجتازها المغرب الأقصى وسائر نواحي الأقطار الأخرى في تقلّبات مستمرة وصراعات محتدمة بين الإخوان الأشقّاء . فلم يخل آبن الحاج بنفسه إلّا قليلاً ، ولم يجد من الوقت ما يكفيه للراحة والاستجمام إلّا عند ما كان بخلوة العباد مقيماً . وفي هذا الظرف القصير أرغم على الالتحاق بالمغرب مرة أخرى ، فآنتقل إلى فاس[22] ملبِّياً الدعوة ، ممتثلاً للأوامر العليا التي صدرت له عن ملك المغرب الأقصى.

آبن الحاج في خدمة أبي عنان المريني:
والمسؤوليات التي تحمّلها بجانبه:

وكي نأخذ فكرة عن الرجل وهو يخدم أكبر شخصية عرفها المسرح السياسي في المغرب الإسلامي وعصره وهو أبو عنان ، ونكون على بيّنة من نوع المسؤوليات التي تحمّلها ، والخدمات المختلفة التي أدّاها ، يجدر بنا أن نلقي نظرة وجيزة على نشاطه لنعرف مظاهر هذا النشاط ، ونطلع على ما نسمّيه اليوم بمجال الاختصاص.

سبق لابن الحاج أن خدم أبا الحسن المريني (والد أبي عنان) ككاتب في ديوان الإنشاء ، ورافقه في تنقلاته داخل المغرب ، كما تشهد بذلك «مذكراته اليومية» التي أشرنا إليها في غير ما مرة ، فآرتحل إلى بلاد تونس لأسباب سياسية وغيرها . ولكن ما أن استقرّت الأحوال في المغرب الأقصى وصار الأمر إلى أبي عنان كخلفية لوالده حتى أرغم على الرجوع إلى محلّه ، واستئناف عمله لكن بدرجة أرقىٰ حيث منح منصب كاتب السر ورئيس ديوان الإنشاء . غير أن ما يهمّنا أكثر ، من هذه المرحلة ، هو طبعاً نشاطه أثناء الرحلة إلى الزاب وقسنطينة للوقوف على نوع العلاقة القائمة بينه وبين سيِّده ورئيسه ، والأوامر التي كانت تصدر إليه ، والأعمال التي كلّف بإنجازها في مختلف أطوار رحلته : أهي أعمال إدارية محضة؟ أم إدارية وسياسية؟ أو تقتصر علىٰ شؤون أبي عنان الخاصة مما يتصل بمنزله وقصره والعناية بحريمه وقصره.

فآبن الحاج كما يتجلىٰ في «فيض العباب» نفسه ، رجل وضع نفسه بكامل قدرته ومؤهلاته الفكرية والأدبية والخلقيـة رهن إشارة مخدومه أبي عنان ووظف جميع مواهبه ومؤهلاته في خدمته ، فكان لسان حالـه ، والناطق بآسمه ، والمعبّر الصادق عن أوامره ونواهيـه ، والمترجم الأمين لأفكـاره وعواطفه ، والمقدّر الحقيقي لظروفه وأحواله ، والمدرك لطموحاته ، وتنبؤاته

وتكهناته لا يصدر عنه إلّا ما صدر عن رئيسه أو بإيحاء منه ، أو بإيعاز . إذ كان ملمّاً به ، وبجوانب شخصيته ، مطّلعاً أشد الاطلاع على نفسيته ، وأحواله ، وظروف بيئته . فآستطاع أن يحظىٰ بكامل ثقته ، وأن يكون أقرب إليه من غيره ، مكرّماً معزّزاً ، فعمّ التفاهم بينهما وقوي الترابط والانسجام مما أدىٰ إلى تقوية أواصر المحبّة والوئام ، وصيانة سُبُل التفاهم والانسجام . فالعواطف كانت مشتركة ، والمحبّة كانت متبادلة بصريح العبارة أو عبر مواقف مختلفة ، وحالات تدل على حسن النية ، ولسان الحال أبلغ من فصاحة المقال ، كما يُقال.

ولقد عبّر كل منهما للآخر عن هذا الاحترام المتبادل ، وبرهن كل منهما في كثير من المناسبات عن هذا التوافق والتعاطف الذي لم يتبدّل . وهكذا كان آبن الحاج دائماً محترماً ، منوّهاً ، معظّماً ، مبرزاً في جميع الظروف والمناسبات جميع ما كان يتمتع به سيِّده من حميد الصفات ، وما يقوم به من أعمال ومنجزات ، وما يسديه من حسنات في كبار مختلف مرافق الحياة ، وما يمحوه من سيئات لرفع الظلم عن سائر الأفراد والجماعات ، ظلم الحكّام والقضاة ، وما يرتكبه أصحاب الأشغال في ميدان الجبايات إلّا أنه (مع الملاحظة الدقيقة) بعد مشاهدة تلك الحوادث الدامية ، حوادث العقاب بعد الإياب ، صدر عنه ما يشعر بحزازات خفيفة صاغها في قالب لا يخرج عن حدود الاحترام واللباقة ، وكان الأمر يتعلّق بلوم أو بتفسير ، أو بتعليل ، أو بالدفع إلى أخذ العبرة فيما يرجع إلى الأحداث المستقبلة . وهكذا يقول في شيء من الصراحة :

«ولم ينشب السلطان أن آنحدر عن اليفاع ،ولم يكن له بعد إقامة حتى أن ظاهر وجدة واجداً على قومه ، مظهراً لهم التي هي أشد من تثريبه ولومه ، وهنالك آبتدأ العقاب وزوال النعم والرغاب وأظهر بعض ما وفر في صدره وتنكر حتى لمنفذي نهيه وأمره ، ، ، »[24].

فاه بهذه العبارات وللمرة الأولى والأخيرة معبّراً عن رأيه الحرّ في سلوك

رئيسه ، متألماً لما أصاب الأشياخ الذين «زور عمر بن ميمون في أمرهم ما زور ، وخدع وغدر» ، وبآستثناء هذه الفلتة ظل آبن الحاج محافظاً على توازنه ، وحرارة وجدانه بالنسبة لرئيسه الذي لقي حتفه على يد الفودودي وزيره ، وظل يثني عليه راجياً من اللّٰه عزّ وجلّ أن يرسل إليه شآبيب رحمته . وقد شهد بذلك آبن أخيه إبراهيم عمر بن الحاج في مقدمته لكتاب عمّه قائلاً : «وكان عمي رحمه اللّٰه إبراهيم بن عبد اللّٰه من بعض خدامه (أي أبي عنان) ما زال يردّد الذكر بإحسانه وإنعامه ، متخذاً سُبُل العبودية سبيلاً ، ويخدم بالأدعية التي لم يكن مرتعها وبيلاً ، ويقرر تشيّعه الذي لم يكن قياسه ممتنعاً ، وانقطاعه الذي لم يكن حديثه منقطعاً . فاستعمله في الخطط الرائقة البشائر ، والاعتناء المشرف للقبائل والعشائر . فقدّمه صاحب علامته الكريمة ، وأصدر عليه نعمه الجسيمة . فكان رحمه اللّٰه مشغولاً بخدمته وشاكراً لما أفاض عليه من عوارف نعمته ، مولعاً بمدح مولاه علم ملوك الإسلام ، وناظماً في مدحه ومدح أسلافه الكرام»[25] .

ورغم قوة أبي عنان وعظمة ملكه وشدة بأسه ، واستبداده برأيه ، وتعاليه عن جميع أعوانه وخدّامه ، وترفعه عن سائر من يريد أن يتقدّم له ببعض نصائحه ، أو يظهر منه ميل إلى مراجعته أو تفسير أقواله ، رغم ذلك كلّه فآبن الحاج كان ممن يجرؤ على استئذانه في الكتابة إلى قاضي وخطيب بلد العناب بالدخول تحت طاعته ، وتقديم آيات إخلاصه وولائه[26] ، فأذن له بذلك ، ورأىٰ في ذلك التدبير المفرح سبيلاً في توسيع مملكته ، وهو الذي استطاع أيضاً أن يتقدّم ببعض قصائد الشعراء ، وهو الذي استطاع أن يلتمس منه أن يترك أثراً بعد صلاة العصر على تقاوس فاستجاب أبو عنان لهذه الرغبة ، ونفذ هذا المقترح الذي تجسّم في إقامة محراب وتشييد بناية[27] .

كل ذلك وغيره يدل على ما كان يتمتع به من مكانة خاصة لدى رئيسه وولي نعمته ، يدعو له بالتوفيق والتأييد في كل لحظة ، وبمناسبة كل حدث أو حركة فالفصول والأبواب كلّها مختومة بعبارات الودّ والتقدير ، ومنتهية بالدعاء الصالح وحسن المصير وكأنّها تشكّل عنصراً من عناصر السجع المتّبع في

التحرير . ولا يخشىٰ آبن الحاج تكرارها ، ولا يملّ ما قد تحدثه من ضجر في نفوس قارئها ، وهو يلتزمها ، ويلتزم التشبث بغيرها من ألقاب التعظيم والتشريف كلقب «أمير المؤمنين» الذي جاء على لسانه في كل حين باستثناء مرّة واحدة لقّبه فيها بـ «أمير المسلمين» ، ومرّة أخرى بعد انتهاء المأمورية العظمىٰ اكتفىٰ بذكر اسم «السلطان»(28) .

فلم تتغير اللهجة في سائر مراحل الرحلة ، ولم يشعر القارىء بأدنىٰ تطور سلبي في ميدان العواطف والوجدان وذلك حتى بعد وفاة الملك أبي عنان وانتهاء الأمر إلى ابنه وخلفه أبي زيان . ويتحدث آبن الحاج عن الحوادث الدامية التي جرت بالحضرة العلية فاس ، وما آلت إليه من جرّائها أمور الخلافة الفارسية . فاستمر آبن الحاج في حديثه وهو بفاس يحافظ على توازنه وحرارة وجدانه بالنسبة لرئيسه .

وهو ، كما أسلفنا ، لا يترك فرصة إلّا واستغلّها لمدح مولاه وإبراز معالم شخصيته ، وإظهار قوّته وتفوّقه ، وعدّ جميع صفاته الفكرية والأدبية والمادية والمعنوية والخلقية مطنباً في ذلك ، مردِّداً ومعيداً في كل فصل من فصول الرحلة ، وفي كل باب من أبوابها الرئيسية ولقد خصّص أبواباً ثلاثة(29) بعناوينها الضخمة للتحدّث عن هذه الشخصية الفذّة الفارسية البارزة كما فعل سلفه أو زميله في المهنة الخطيب الأديب آبن مرزوق عند ما ألّف كتابه المسند الصحيح الحسن في أخبار ومآثر مولانا أبي الحسن مخلداً به . ذكرى رئيسه .

ولا بد في هذه المناسبة من الإطالة والجنوح إلى المبالغة ، فأبو عنان أحسن ملوك الإسلام ، ومتفوّق بصفة خاصة على عبد المؤمن الموحدي الذي لم يدخل بجاية كما «دخلها» خلفه ، رمز الخلافة الشريفة ، فالأوّل لم يكن له في الملك سلف مشهور ، ولا علم في الخلافة مذكور . والثاني ورث الخلافة كبيراً عن كابر ، فهو الكريم بن الكريم بن الكريم سلسلة يوسفيّة»(30) .

ذلك من جانب الخادم ، أما من جانب المخدوم فإننا نرى أن أبا عنان لم يقصّر في إسداء المعروف والمودّة لكاتبه والبرهنة له ، كما قلنا عن اعتزازه

بوجوده من بين خدّامه الأوفياء ، للدلالة له على المكانة الخاصة التي يحتلّها في نفسه فكان يقرّبه في المناسبات العامة والخاصة ويقاسمه آماله وآلامه ، ويشاطره أفراحه ، وأحزانه ويشـركـه في السرّاء والضـرّاء ، ويتناول معـه أطعمته ، ويستدعيه ليركب معه في قاربه الخاص(31) ، ويرافقه في التجوّل عبر مدينة تونس أو عبر ضواحيها ذاكراً له ما خطّطه بشأنها ، وما قد دبّره للاستيلاء عليها ، وما قد أخفاه على غيره ممن توجهوا إليها بقصد حصارها . كل ذلك وغيره يدل على درجة التقرّب التي نالها ، والحظوة الرفيعة التي حظي بها .

آبن الحاج:

صفاته الجسمية والخلقيّة:

لم تزوّدنا المصادر التاريخية القليلة أو غيرها بما من شأنه أن يطلعنا على بنيته الجسمية ، ويجعلنا نقف على طول قامته أو قصرها ، على أساريره وملامح وجهه ، وعلى لون بشرته وعلى صحّته ومناعة بدنه ، أو ضعفه أو نحالة جسمه ، ومظهره الخارجي ، وشكل لحيته كما فعل آبن الأحمر في «روضة النسرين» مع الملوك الذين أعطانا نبذة يسيرة عنهم . وحتى آبن الخطيب نفسه الذي يعتبر من أصدقائه الأوفياء والذي احتك به احتكاكاً خاصاً ، وآهتم بسائر جوانب شخصيته اهتماماً قلّ نظيره في جلّ المصادر التي وقفنا عليها ، لم يعرِ هذه الناحية بالضبط العناية التي كنا ننتظرها منه رغم كونه أفـادنا ببعض المعلومات المتعلّقة بأخلاقه ، وملابسه : فهو عفيف ، نبيل ـ أبيّ ، مترفّع عن الدنايا ، وقور يسعىٰ إلى كسب المجد والجاه والفضل عن طريق العلم والسلوك الحسن وخدمة الأمراء والملوك .

وهو إلى غير ذلك حَسَن المنظر والهيئة ، جميل الوجه حسن الشارة ، يلبس أفخر الملابس ويعنىٰ أشد العناية بمظهره فيبدو متأنقاً متألّقاً ، سالكاً سلوك الأدباء الظرفاء ذوي الحشمة والوقار رغم ما يوحون به من لهو وعبث واستهتار .

يقول عنه آبن الأحمر في نثير فرائد الجمان(م1) «،،، أبهة سكنت من الشكل الظريف ببهوها ،،، يملأ العيون بحسن الشارة ، ومن يعرفه طُولِع على بشر البشارة ، إن لبس وآعتم خبر مبتدأ كماله ما تمّ» .

ويتحدث عنه آبن الخطيب قائلًا : «كان صدراً من صدور النظر وأعيانه ،،، مع الترخيص للباس الحرير والخضاب بالسواد ومصاحبة الأبهة والحرص على التجلّة»(م2) .

«نشأ على عفاف وطهارة ، وآمتهك صبابة ترف من بقايا عافية أعانته على الاستظهار ببرّه ،،، مخوّلاً في العناية ، مشتملاً على الطهارة ، بعيداً في زمان الشبيبة على الريبة ، نزيهاً على الوسامة عن الصبوة والرقية . أعانه على ذلك نخوة في طبعه وشفوف وهمه . كان مليح الدعابة ، طيِّب الفكاهة»(م2) .

هل تؤكِّد هذه الصفات رحلة فيض العباب؟

كان من الممكن أن نعثر في هٰذه الوثيقة الفريدة على معلومات ضافية ومتنوعة عن شخصية آبن الحاج البدنيّة والخلقيّة وجوانب أخرىٰ من سلوكه لكننا مع الأسف لم نظفر بشيء كثير في الموضوع مما قد نجده عند شخصيات أخرى قامت برحلات عبر المغرب وخارجه . كآبن بطوطة ، وآبن الحاج العبدري ، وآبن رشيد السبتي ، وآبن الخطيب وغير هؤلاء ممن قد أشرنا إليهم في بداية هذه الدراسة . ذلك أن آبن الحاج قليلًا ما رجع إلى نفسه وخلا بذاتيّته أثناء الحديث عن مخدومه ليتحدث لنا ، كما فعل غيره ، عن انفعالاته ورغباته ، ويعبّر عن آتجاهاته وأذواقه وأشواقه وآماله وآلامه . لم يفعل ذلك ، ولم يشرْ إليه رغم استطراداته وتوقفاته وخروجه في كثير من الأحيان عن إطار الحديث الرسمي المقيَّد به .

ولعل آنشغاله بموضوع رسالته ، وتزاحم وتراكم الأعمال المنوطة به ، والالتزامات الكثيرة ، والأعباء الثقيلة التي كانت ملقاة على عاتقه ليل نهار ، وملازمته لرئيسه ملازمة الظل لصاحبه ، لعل ذلك ـ وغيره ـ هو الذي جعله

ينسىٰ نفسه ويتفانىٰ في خدمة أبي عنان خدمة وفيّة لا تعرف مللاً ولا كسلاً ، وكثيراً ما عبّر هو نفسه عن هذا التفاني وهذه الأعباء ، إذْ كثيراً ما سهر الليالي كلّها منذ غروب الشمس إلى طلوعها لتأدية الواجب وتطبيق الأوامر العُليا التي تفرض عليه أن «لا تظلّه سحابة اليوم وقد أتىٰ بالكتاب محرّراً مسطّراً» .

ومع ذلك كلّه فقد يستفيد الباحث من سلوك آبن الحاج ومن تكيّفاته ، ومن جميع المراحل التي قطعها مع أبي عنان في رحلته ما يدلّ على بعض السِمات المتعلقة بطبعه وخلقه ونزعاته ومعتقداته وجوانب أخرى من شخصيته ، وذلك بصفة مباشرة أو عن طريق الاستقراء والاستنباط .

وأوّل ما يتضح لنا في سلوكه هو رزانته ، وثباته ، واستقرار طبعه وهدوءه ، وآتّزان وجدانه ، ومحافظته على توازن وآنسجام شخصيته بصفة عامة . فهو ليس من النفوس الشديدة الانفعال السريعة التأثُّر بأدنىٰ العوامل فتفرح وتغضب ، وتندفع وتخرج عن الجادة ثم تنطفىء وتتراجع فتهدأ إلى حين . وليس هو أيضاً من النفوس الداخلية الباطنية التي لا تتحرّك ولا تنزعج ، ولا تقلق ولا تتسرّع إلاّ بعد جهد وانتظار ، إذ لم يبدِ منه أثناء رحلته ما يخلّ بهذا التوازن وهذا الانضباط لا في الطبع ولا في الأخلاق . ولم نشعر منه بردود فعلٍ تنمّ عن حقدٍ مكين أو ضغينة دفينة ثابتة تنتظر أوّل فرصة لتعبِّر عن نفسها تعبيراً صريحاً متأجِّجاً .

ولم يشذ عن هذه القاعدة إلاّ نادراً وفي ظروف خاصة لم يستطع فيها كبت عواطفه وإخفاء سخطه ، والسكوت عن منكرٍ شنيع آرتكب بمحضره ، وجريمة تسبّبت في قتل شخصيات كثيرة شديدة الوفاء لسيده السلطان أبي عنان الذي خفي عنه الأمر حتى تصور له «الباطل في صورة الحقّ ، وخدع في تحمّل ذلك الحمل الأشقّ ، ولم يكن إلاّ أن قام عيد النحر» وهنا عبّر عن رأيه بصراحة مبدياً غضبه الشديد واستنكاره القوي وسخطه العنيف على «الخائن الغادر الماكر عيبة العيب الذميم المشهد والغيب مسيلمة عصره» (3م) عمر آبن ميمون بن أمصمود الذي دبّر المكيدة لحزازة قارة في نفسه ضد الوزير الوفي

المخلص فارس بن ميمون بن ودرار الذي ذهب ضحية الكذب والغدر «وقتل شر قتلة ، وقتل في ذروة القصاص أحسن قتلة» (٤٩) ، وقتل معه بسبب الوشاية الكاذبة عدد كبير من رؤساء القبائل المرينية .

ومن جهة أخرى فلقد برهن آبن الحاج أثناء رحلته عن جَلَد وقوة وصبر وصمود ومجاهدة ومناعة بدنية وصحة جيدة . لقد تحمّل العطش بقوة شديدة في تنقلاته عبر صحراء الزاب وصحراء أفريقية ، وتعرّض للرياح والعواصف الهوجاء ، والسيول الجارفة التي كادت تقضي حتى على المحلّات المنصورة ، وأتلفت كثيراً من العتاد والصناديق المملوءة بالذهب والفضة ، وذهب ضحيتها عدد كثير من الخدم والفرسان ، وعناصر كثيرة من الحاشية ، وسهر الليالي ، وتحمّل الأهوال ، وتعرض للأخطار ، وتغلّب على الصعاب ، فكان صبوراً صامداً لم تنل منه هذه الأهوال كلّها ، ولم تثنِ عزيمته ، ولم تفت في عضده . فكان دائماً على أتم الاستعداد لتلقّي الأوامر وتنفيذها في كل وقتٍ وحين حتى في وقت النوم ، فيقضي الليل كلّه ساهراً لينشىء رسائل أو ظهائر أو مراسيم مختلفة ، فلم يصب بمرض أقعده ولا تخلّف عن مهامه السامية ، رغم الرحلة التي كانت شاقة وخطيرة ، ومع ذلك فلقد استطاع آبن الحاج أن يخرج سليماً من المحنة .

وبالإضافة إلى ذلك فإننا نشعر منه بميل إلى التصوّف والمتصوفة ، والتعاطف مع علماء الحقيقة أسوة بعلماء الشريعة . ظهر منه ذلك الميل عندما كان بالزاوية المتوكلية بمناسبة تدشينها وتسليم مفاتيحها إلى «القَيِّم» ، وحضور الحفل الكبير الذي أقيم تكريماً لرجالها وخدمها وشيوخ الزوايا ، والسالكين سلوك الطريقة الذين استدعوا بنفس المناسبة . فلم يخف آبن الحاج عطفه على هؤلاء وأولئك وتمنّىٰ أن يكون من القوم وضمنهم ، وأن يخلو إليهم ، وتأسّف شديد التأسّف لبعده عنهم ، وكم كان سعيداً عندما كان بالخلوة بالعباد! فهو في هذا الميدان يشاطر أبا عنان ، ويشاركه نفس العواطف ، ويتجاوب معه تجاوباً لا تخفىٰ آثاره عن كل ذي اهتمام بدراسة سيرة الرجلين .

ثقافتـه :

ثقافة آبن الحاج ثقافة عربية إسلامية عميقة ، واسعة ومتنوعة يغلب عليها طابع المشاركة والموسوعية . ثقافة أصولية وفروعية وحديثية ولغوية ومنطقية وتاريخية إلى غير ذلك من الجوانب المعرفية المتعددة والمجتمعة في شخصية واحدة كشخصية آبن الحاج نفسه أو شخصيات أخرى معاصرة كآبن الخطيب وآبن مرزوق وآبن خلدون .

ومع ذلك كلّه ، ورغم موسوعيته وتضلّعه في العلوم التي أشرنا إليها فآبن الحاج ذو ثقافة أدبية ممتازة راقية ، بها عرف ، وبها تميّز ، وفي مجالاتها صال وجال كما يُقال ، وبرهن عن مقدرة فائقة فهو «شاعر حاطم ، وبحر كتب موجه متلاطم» (م٥) ، فحل النثار والنظام ، ورأس أهل البلاغة العظام . يذكر بجانب صديقه آبن الخطيب ، ويقرن آسمه بآسمه وبآسم غيره من ذوي البضاعة الأدبية الفنية الممتازة التي قدّرها ملوك بني مرين حق قدرها ، وأحلّوها المكانة العظيمة التي تستحقّها .

يدلّك على ذلك كلّه ، على جميع الجوانب المكوّنة لشخصيته رحلته هذه الحافلة بالإشارات والاستطرادات والاقتباسات والاستشهادات والتضمينات العفوية والمقصودة . فهو ما فتىء يبرهن عن هذه الثقافة الموسوعية والأدبية ، يتحيّن الفرص ويستغلّها لإبراز ذاتيته وتأكيد مقدرته وكفاءته العلمية بتوظيف معلوماته الواسعة المتعددة لغاية أدبية بقصد التورية بأسماء العلوم والفنون ، وبأسماء الكتب ، وبالمصطلحات المختلفة التقنية كما يُقال اليوم أو بقصد الدلالة والبرهنة وشرح بعض المواقف التاريخية أو التعريف ببعض الشخصيات الأدبية أو السياسية . وسواء أكان الأمر يتعلّق بتاريخ الإعلام عامة ، أم بتاريخ المغرب خاصة ، أو بتاريخ الأدب العربي ، تاريخ الشعر والشعراء ، أو بالمنطق أو بالأصول . أصول الدين وأصول الفقه ، أو باللغة والنحو ، وبعلم العروض ، وعلم البيان والبديع . فهو في كل هذه الميادين يبدو حسن الاطّلاع واسع المعرفة بكثير من الأخبار والآثار والحكم والأشعار والنوادر والعجائب .

فقد لا يكتفي بالإشارة والتلميح لأنه يتعمّد في بعض الأحيان ذكر الأحداث المفصّلة ، وبيان مصادرها ، وإرجاع الأقوال إلى أصحابها كانوا نحاة أو لغويين أو أدباء أو فقهاء . فهو ذاكر لأسمائهم دون تردّدا

ويدلّك على ذلك كلّه ـ مرة أخرى ـ آثاره الباقية والضائعة ، أو تلك التي تعتبر في حكم المفقود حسب معلوماتنا المتواضعة . لقد ألّف في الرحلة وفي الحديث ، وفي التصوّف ، وفي الفقه ، وفي الفرائض ، وفي البديع ، وفي علم الكلام ، وفي الفِرق ، وفي غير ذلك من العلوم والفنون كما سنرىٰ في فقرة آتية . وهي إن دلّت على شيء فإنما تدلّ على ثقافة واسعة ومتنوعة ـ كما أسلفنا ـ وتدل في نفس الوقت على شخصية لها وزنها الثقيل ومكانتها العلمية الممتازة بين شخصيات العصر الذي يهمّنا ، ولا أدل على ذلك أيضاً من الإلحاح الذي أبداه أبو عنان في الأوامر السامية التي صدرت منه إلى هذه الشخصية لكي تلتحق بالمجلس الأعلىٰ وتنضم إلى الحلقة الرفيعة والنخبة المولوية الخاصة .

وإذا كان أبو عنان قد ألحّ هذا الإلحاح ، وهو الملك العالِم ، وبادر إلى استدعاء آبن الحاج ليلتحق به فوراً ، ويتقلّد منصب كتابة السر ، ويرأس ديوان الإنشاء ببلاطه فذلك ليس بالأمر المعتاد!

آثـاره :

أشرنا إلى الصبغة الكميّة التي تكتسيها آثار آبن الحاج ، ونحاول الآن التعريف بهذه الآثار بصفة أدقّ لنأخذ فكرة عن اتجاهات صاحبها ، وتحديد معالم تكوينه . ولقد انفرد آبن الخطيب من بين سائر المؤرِّخين المعاصرين أو غيرهم بذكر جلّ هذه المؤلّفات ، وأوردها في كتابة الإحاطة ، ولم يفته منها ـ حسب معلوماتنا ـ سوى ثلاثة كتب سنأتي على ذكرها في نهاية هذه القائمة .

لم يراع آبن الخطيب ، في ذكره لهذه المؤلّفات أي ترتيب . ولم يعن أي عناية بشرح بعض العناوين التي تبدو غامضة . وقد قام بعض المحدِّثين بهذه

المحاولة ، وأتى بتصنيف لا يخلو من فائدة (م6) بيَّن فيه الأُطر الأساسية التي ينبغي أن يدمج فيها كل مؤلّف من المؤلّفات المذكورة .

وتعميماً للفائدة نذكر هذه الكتب كما جاءت أولاً في الإحاطة :

1 ـ كتاب المساجلة والمسامحة في تبيين طرف المداعبة والممازحة .

2 ـ إيقاظ الكرام بأخبار المنام .

3 ـ تنعيم الأشباح بمحادثة الأرواح .

4 ـ كتاب الوسائل ونزهة المناظر والخمائل .

5 ـ الزهرات وإجالة النظرات .

6 ـ كتاب في التورية على حروف المعجم .

7 ـ جزء في تبيين مشكلات الحديث الواصلة من زبيد اليمن إلى مكة .

8 ـ جزء في بيان آسم اللّه الأعظم .

9 ـ نزهة الحدق في ذكر الفرق .

10 ـ كتاب الأربعين حديثاً البلدانية والمستدرك عليها من البلاد التي دخلتها ورُويت فيها زيادة على الأربعين .

11 ـ روضة العباد المستخرجة من الإرشاد .

12 ـ الأربعون حديثاً التي رويتها عن الأمراء والشيوخ الذين رووا عن الملوك والأُمراء .

13 ـ كتاب اللباس والصحبة وهو الذي جمعت فيه طرق المتصوفة .

14 ـ كتاب فيه شطر الحماسة لأبي حبيب .

15 ـ رجز في الفرائض على الطريقة التي ظهرت في بلاد الشرق.

16 ـ رجز صغير في الحجب والسلاح.

17 ـ رجز في الجدل .

18 ـ رجز في الأحكام الشرعية : والفصول المقتضبة في الأحكام المنتخبة .

19 ـ مثاليب القوانين في التورية والاستخدام والتضمين .

20 ـ فيض العباب وإجالة قداح الآداب في الحركة إلى قسنطينة والزاب .

21 ـ وقد أفادنا المقري في نفح الطيب(م7) أنه «كان يتوفر بالمغرب على مجلدين من رحلته التي كتبها بخطّه ، وقد أتىٰ فيها بأعجب العجائب» . وهي رحلته إلى الحجاز نقل منها المقري معلومات كثيرة وأسماء لشخصيّات علمية لقيها آبن الحاج في الديار المقدّسة .

22 ـ «تقاييد أو يوميات» تحتوي على معلومات شتى ، تراجم ، مرويات ، أسانيد ، أشعار كثيرة سجّلها آبن الحاج مع السلطان أبي الحسن المريني داخل التراب المغربي ، وتركها على حالتها كمسودة بدون ترتيب ولا تبويب ، تعسر قراءتها لأنها مكتوبة بخط رديء ، ممحوّة بعض أجزائها ، وتنقسم هذه التقاييد اليومية إلى قسمين : القسم الأول يحمل في مكتبة الأسكوريال رقم 483 ، والثاني بنفس المكتبة يحمل رقم 1734 . ولقد حاولنا الإستفادة من صورة أخذناها عن الأصل لا سيما فيما يرجع لشيوخ آبن الحاج .

وقد أشرنا في مناسبة سابقة إلى عمل L. de Prémaré الذي قام فيه بدراسة جادة لهذه التقاييد ونشر ملخصاً عنها تحت عنوان : مذكرات آبن الحاج . وهذه التقاييد لم يذكرها آبن الخطيب .

23 ـ وأخيراً ينسب لابن الحاج كتاب «قرائن القصر ومحاسن العصر في مدح أمير المسلمين أبي عبد اللّه بن نصر» . وهذا الكتاب لا يزال مخطوطاً توجد نسخة منه بإنجلترا في مكتبة أبريتش تحت رقم 5670 . وهو في مدح الملك النصري أبي عبد اللّه (م8) .

يتعلّق الأمر إذن بقائمة طويلة تتضمن أنواعاً شتى من العلوم والفنون ، وتؤكّد اتجاهات آبن الحاج الأساسية قبل كل شيء في الأدب والنثر الفنّي والبلاغة ، ثم في ميدان التصوّف والحديث والفقه وفي مواضيع أخرى هزلية ،

كما تؤكّد من جهة أخرى الاهتمامات السائدة في عصره وفي البيئة المغربية من الناحية الثقافية .

لا يعرف من هذه الآثار ـ حسب علمنا ـ سوى فيض العباب الذي بين أيدينا ، والتقاييد اليومية أو المذكرات كما عند بريمـار وكتاب قرائن النصر .

والطريف في تلك المؤلّفات هو ما يرجع لعالم المداعبة تلك التي ترجع لعالم المداعبة والممازحة ، وهو موضوع بكر في الأدب المغربي جـدير بالبحث والدراسة . وهو من المواضيع التي تكاد تكون شائعة في عصر المؤلّف وفي بيئته بصفة خاصة . فلقد سبق لابن الخطيب أن راسل آبن خلدون لما استقر بالحضرة وتسري جارية رومية اسمها هند ، وداعبه مداعبة فيها أكثر من المزاح والطرافة والنكث والفكاهة(م9) ، كما كتب لابن الحاج يداعبه أيضاً وقد ولي خطة القضاء(م10) ، فراجعه برسالة أخرى ممازحاً جامعاً بين الفاكهة والفكاهة رادّاً على آبن الخطيب قوله ومصححاً رأيه(م11) .

ولابن الحاج في نفس الموضوع إنتاج آخر لا يقل ظرافة وطرافة ومزاحاً وفكاهة شعراً ونثراً أورد منه المقري في نفح الطيب نتفاً لا تخلو من فائدة(م12) حول مواضيع مختلفة وآبن الخطيب(م13) أبياتاً حول القلم والفتىٰ الكيِّس عنبر والكاس وغير ذلك مما تحاور به مع أصدقائه وتبارىٰ وتفكّه وتندّر .

آبن الحاج الناثر .
منهجه وأسلوبه :

عالج آبن الحاج مواضيع نثرية مختلفة تاريخية وسياسية وأدبيّة وفنية وفقهية وحديثية وصوفية ـ كما مرّ بنا ـ لم يبقَ منها إلّا هذا الجزء اليسير الذي وصلنا إلينا .

ونحن ، وإن كنّا نهتم أشد الاهتمام بجميع ما أنتجه في هذا الميدان ، إلّا أننا في هذه الدراسة الحالية المتواضعة سنقتصر على فيض العباب الذي جعلناه منذ البداية إطاراً لبحثنا ومنطلقاً للتعريف بجوانب شخصية مؤلّفنا .

آبن الحاج المؤرِّخ :

هل يُعتبر آبن الحاج مؤرِّخاً؟ وإذا كان الأمر كذلك فإلىٰ أي حدّ تنطبق عليه صفات المؤرِّخ النزيه الموضوعي المتجرِّد الباحث عن الحقيقة وحدها ، المستقرىء للأحداث التي يرويها ، والمدرك لظواهرها وبواطنها ، والمتتبِّع لنتائجها وانعكاساتها ، والمهتم بمعرفة أسبابها ومسبِّباتها ، المحلِّل لعواملها ولمعطياتها القريبة والبعيدة إلخ؟

تشكّل الرحلة مادة تاريخية غنية طافحة بالأحداث والوقائع والتجارب اليومية ، والأزمات السياسية ، والفتن الداخلية ، والمعارك الحربية ، والإجراءات القمعية والزجرية ، والتدابير الإصلاحية الاجتماعية والاقتصادية إلى غير ذلك من العناصر التي ألممنا بها في مناسبات متعددة . والذي يهمّنا هنا هو كيف صاغ آبن الحاج هذه المادة؟ وأي قارىء قصد بالدرجة الأولى؟ ، ، ، ومعنى ذلك أن حديثنا سيدور على منهجية آبن الحاج وأسلوبه .

من المعروف أن آبن الحاج لم يكن حرّاً في التقاط معلوماته ، واختيار مواضيعه ، وانتقاء شخصيات روايته . لقد كان ملتزماً أشد الالتزام ، مقيداً بشتى القيود ، وفيّاً لقضيته أشد الوفاء ، مخلصاً كل الإخلاص لسياسة رئيسه ، متفانياً في خدمة هذا الرئيس الذي قدّره كل التقدير . والأحداث التي تناولها بالوصف ، والأخبار التي رواها لنا ، والمواقف التي أطلعنا على كلّياتها أو جزئياتها هي مواضيع موجّهة ، داخلة في إطار معيّن معروفة حدوده بصفة مسبقة ، مرسومة خطوطه العريضة قبل بداية المعركة : قبل بداية الرحلة .

فهو إذن كان في موقف خاص يفرض عليه القيام بالواجب وآلتزام جانب الحذر واليقظة ، والاحتراس من زلّات القلم وفلتات اللسان والخروج عن الجادة ، والانسياق وراء الأهواء والنزعات الشخصية . كل ذلك وغيره فرض عليه فروض الثبات والرزانة وإدراك كنه المهمة المنوطة به ، وإدراك ما تنطوي عليه من أهداف سامية قريبة وبعيدة .

وبالفعل لقد اجتهد كل الاجتهاد ، وبذل أعظم التضحيات ليكون عند

حسن الظن ، وفي المستوى المنشود ، وبالفعل فلقد برهن عن هذه الكفاءة النادرة ، الضرورية ، وعن الصفات المشروطة ، وأحاط بجميع جوانب المهمّة الملقاة على عاتقه فكان متفهِّماً للظروف المحيطة ، والملابسات الطارئة ، ملمّاً بالمواقف المتّخذة ، والنتائج المستخلَصة ، مدركاً لعواقب الأمور ، ومقدِّراً لأبعاد السياسة فلم يكن سطحياً ولا هامشياً تقتصر مهمّته على تلقّي الأوامر وتنفيذها ، ولا يبالي بنتائجها أو بمراميها . كلا إنه كان متلبساً بهذه المهمة السامية ، متشبعاً بها ، متجاوباً معها متعاطفاً ، متفانياً في إنجاحها وضمان استمرارها عبر الزمان والمكان فالسياسة التي كان مخدومه يتبعها كانت السياسة التي تبنّاها هو أيضاً وجعل منها قضيته الحيوية . ودليلنا على ذلك هو مواقفه المختلفة أثناء الرحلة ، واستجاباته المستعجلة ، وانصياعه التام ، والتزامه القائم على الاقتناع والرؤية البعيدة . ودليلنا على ذلك أيضاً هو معرفته العميقة لقبائل الأعراب وعشائرها وبطونها وأنسابها ، ونوع العلاقات القائمة بين أعراب الجريد وأعراب الزاب وأعراب أفريقية وأعراب طولقة وتقاوس وفرفر ، أي جميع القبائل الضالة والمضلّلة ، العابثة بمصالح الرعية ، الساعية في الخراب والدمار وإيقاد نار الفتنة . يعرف تلك القبائل التي حاربها أبو عنان بكل ما أوتي من حكمة وقوة ، واستنفذ فيها جزاء مما كان يملكه من أجهزة وأسلحة ، يعرف ماضيها وحاضرها وخصائصها ونواياها وخفاياها . ويعرف رؤساءها وشيوخها وموقدي الفتنة فيها وغيرهم من المخلصين في الماضي والمائلين إلى الإخلاص في الحاضر والخائنين ، والمنافقين وما أكثرهم وما أكثر تقلّباتهم وخداعهم ، بل يدرك أسماءهم وأسماء قبائلهم وأصهارهم ، ويلم بتفاصيل دقيقة تتعلّق بهم وبسيرتهم وكان الأمر يتعلق بباحث متخصِّص فيهم : فهو إذا تحدّث عنهم أجاد وأفاد ، واستقصى وأحاط، وجعل القارىء يندهش ويحار أمام هذه القدرة العجيبة على معرفة موضوع شائك ومتشعب!

أَلَمْ يكن هذا في صالح أبي عنان الذي كان يعتمد على كاتب أولاه من العناية والاهتمام ما جعله يرقى إلى كاتب العلامة ورئيس ديوان الإنشاء!

وبقطع النظر عن كل ما سبق فإن آبن الحاج اعتنى بتقديم الأخبار ونقل

الوقائع والأحداث بصفة خاصة تميّزه عن غيره من بين سائر مؤلّفي الرحلة في العصر المريني الذي ينتمي إليه . فهو ، كما أسلفنا ، أديب قبل كل شيء ، أديب فنّان مبدع ، رسّام يعتمد على الخيال ، الخيال «المحيي» أو «الخيال الخلّاق» في بعض الأحيان .

يتتبّع حركة أبي عنان ، ويستقصي جوانبها وتفاصيلها فينقل لنا ما نتج عنها حسب طريقة معيّنة خاصة به . والذي يهمّه فيها هو فعاليتها ونجاعتها ونتائجها الإيجابية ولكن لا ينقل لنا ذلك بصفة باردة جامدة يقصد من ورائها إظهار الحقيقة المجرّدة و«الواقع الذي يرتفع» بل يقحم ذلك الخبر في إطار حي ناطق مؤثّر ومثير ، يخاطب العين ويقرع السمع ويبعث الإحساس ، ويوقظ الشعور ، ويحرّك الوجدان ، ويستفز الانفعال ويدعو إلى المشاركة والتعاطف والتجاوب مع شخص أو موقف ومعايشة تجربة ولو إلى حين ، يحدث ذلك طبعاً على حساب القارىء والمؤرّخ الراغب في تتبّع الأحداث ومعرفة تسلسلها ومنطقها وأسبابها ومسبّباتها ونتائجها . فآبن الحاج لا يقيم أكبر وزن لذلك ولا يهمّه الشرح والتحليل ، ولا يعني بالنقد والمقارنة والتنظير ، وليس ذلك من شأنه ولا من اختصاصه .

إن حديثه لا يتعدىٰ حدود النقل والسرد والرواية ولا يتجاوز مستوى الوصف الخارجي إذا أردنا النظر إليه بشيء من التجاوز كمؤرّخ للأحداث التي عاشها . فالوصف عنده يشكّل حجر الزاوية ، ويطغىٰ على كثير من فصول وأبواب الرحلة . ومن الممكن التأكيد أنه يتحيّن الفرص لتصيّد مواضيع الوصف ، «وصف الإنسان والحيوان والنبات والجماد» لذلك يعتبر الخبر عنده مقدمة أساسية إن لم تكن نقطة انطلاقة ، ومجرد وسيلة للوصول إلى هدف آخر هو الرسم والتصوير والتفنّن في إبراز معالم اللوحة! وإظهار جمالها بكل ما أُوتي الرسام من ذوق ومهارة وتقنية ومؤهلات فطرية وطبيعية وثقافة علمية وممارسة طويلة .

نعم قد يزودنا آبن الحاج بمعلومات تاريخية كتلك التي تتعلّق بالموحدين

وبآبن عبد المؤمن . وقد يترجم لنا بعض الشخصيات المعاصرة كآبن مزني وآبن تافرجين وقد يرجع إلى الوراء ليذكّرنا بأحداث وقعت قبل الرحلة كحديثه عن المعركة التي انتصر فيها الجيش المريني بقيادة أبي عنان على البرتغال ، وقد يفسِّر لنا ما جرى ببعض المدن التاريخية العتيقة وما تحتوي عليه هذه المدن من مآثر عمرانية كمدينة لميس وغيرها . نعم قد يفعل ذلك وغيره فيستفيد المؤرِّخ منه فوائد متعدّدة ، لكن ذلك السلوك يكتسي صبغة مؤقتة ويتطور تطوراً سريعاً يجعل من آبن الحاج المؤرِّخ أديباً وكاتباً وفنّاناً محقّقاً ضالته المنشودة فيندفع حرّاً طليقاً نحو آفاق بعيدة يحلّق في أجوائها .

وعلى هذا الأساس نتعامل معه وبهذه الصفة تتحدّد شخصيته في هذا الجانب من رحلته .

استعمل آبن الحاج في البلاط المريني كاتباً للسر المولوي وكاتب العلاّمة ورئيس الكتبة بديوان الإنشاء ، ولا شك أن كفاءته وسمعته وثقافته الأدبية هي التي أهلته لهذه الوظائف السامية بجانب ملك اشتهر بثقافته وعلمه وذكائه ودهائه ، ملك يحاور الأدباء ويناظر الفقهاء والعلماء . وكان من الضروري أن يشترط في كاتبه شروطاً خاصة ومستوى راقياً يتناسب والمكانة التي كان يحتلها في المغرب وفي المشرق على السواء . وكان آبن الحاج في المستوى المطلوب متوفِّراً على قدرة ممتازة في فن الكتابة إذ كان «فحل النثار ورأس أهل البلاغة العِظام» «امتطى من ديوان الإنشاء جواداً مجلياً وعداً كل منتم لهذه الطريقة مصلياً» .

وتدل هذه الشهادة من آبن الأحمر على أن كاتبنا هذا قد بيَّن طريقة في هذا الباب وأثر في غيره من الكتّاب .

وكثيراً ما شبّه بآبن الخطيب وبآبن زمرك وغيرهما من فحول الأدب (الشعر والنثر) في هذا العصر فآنطبق على الأوّل ما آنطبق على صديقه من الصفات وخلعت عليه نفس الألقاب ونُعِت بنفس النعوت . جمعتهما ظروف واحدة وتقاسما البضاعة، وانتميا إلى نفس البلاط وأدّيا نفس الخدمة مع تفاوتٍ في

الرتبة وليس بغريب أن يتأثّر كل منهما بالآخر وأن يتنافسا في الخلق والابتكار ويتفاعلا ويتباريا.

وآبن الخطيب نفسه قد تأثّر بمن سبقه إلى الميدان ، وسار مثلاً على طريقة أبي المطرف آبن عميرة كما عند باحث معاصر اهتم بدراسة رسائله التي جمعت قبيل عصر آبن الخطيب بقليل على يد أحد المعجبين بأدبه وهو الأديب الإشبيلـي الأصل آبن هانىء الأندلسي (14 م) .

ومهما يكن من أمر فآبن الحاج أظهر مقدرة فائقة في فن الكتابة بما يملكه من ثقافة أدبيّة ومؤهلات خاصة . وأوّل ما يميِّز أسلوبه هو السجع الذي التزمه التزاماً وطغىٰ على جميع رحلته منذ بدايتها إلى نهايتها ، فكان لا يحيد عنه لا في الخبر ولا في الحكاية ، ولا في الوصف وتحليل المواقف ، ولا في مديح أبي عنان والدولة المرينية ، بل لقد غالىٰ في استعال السجع وآتخذ قاعدة له ، وتكلّفـه تكلّفاً جعله يبحث وينحت ، ويـدور حول الألفـاظ والمترادفـات والمشتقّات ، وجميع الصِّيغ المستعملة والمهجورة . فجملته قد تكون بسيطة كما تكون مركّبة معقّدة متزاوجة أو متعددة العناصر . لكن عناصرها هذه مرتبطة أشد الارتباط ومتناغمة متناسقة تدخل في إطار واحد أساسي كما قلنا ، السجع البسيط أو السجع المركّب (السجع الداخلي والتصريع) الذي يحافظ على نفس النغمة داخل جملة واحدة أو جمل متعددة فتتكرّر «القافية» ويتكرر الإيقاع اللفظي بتكرر حروف الروي ، ويستريح الكاتب لا من السجع طبعاً بل بالبحث عن جرس آخر مدوي .

وقد لا يكتفي آبن الحاج بالسجعة في آخر الجملة بل يلتزمها في جميع العناصر المكوِّنة لها ، ويصب هذه العناصر في قالب واحد وتأتي مصطنعة متراصة ، متشابهة في الشكل والصبغة .

وقد تخونه الذاكرة أو تقعد به الهمة فلا يفلح في تحقيق ما وعد به من جمل موسيقية على نفس الوزن والصبغة ويكتفي حينئذ بالحلول الجزئية . والأمثلة على ذلك كثيرة نسوق منها هذه الجمل حسب ورودها في النص :

1 ـ وكان من قصد مولانا أن تتلاقىٰ في محل بجاية جيوش البر وجيوش البحر ويقاتل الإسلام منهما بيمينٍ هاثلة (62 ب) .

2 ـ ولجأ إلى ما عرف به مولانا (، ، ،) من العذر والحلم ، وما حلاه اللّٰه من الفضائل المشتهرة اشتهار النم (80 ب) .

3 ـ والأطعمة والأثاث ، والمتاع والعبيد والخدم[128] .

4 ـ وأطلقت عنانها في شكر الملك العناني ، وذكرها مقام مولانا تذكـرة الفارسي[113] .

وتلك ظروف استثنائية ، وما سوى ذلك فهو كلام يكتسي صيغة إيقاعية ككلامه عن أهل قسنطينة :

«وسكنت زماجر نـزالهم ، ونشطت مـزاحم قتالهم ، ولانت معـاجم مجالهم ، وخمدت نيران جلادهم ، ونطت سهام التزامهم (80 أ) ، وهكذا يستمر إلى أن ينهي فقرة كاملة .

وللدلالة على ذلك نسوق مثالاً آخر نستمده من حديثه عن أبي عنان[143] :

«والعاصي مصدور ، والعاسي مصدوع ، والبور مشروح والبذل مشروع (، ، ،) والحياء ممنوح ، وحبل العدل مجدول ، وأنف الظالم مجذوع» .

وهو في هذا المثال جاد في المحافظة على الوزن وعلى تقارب الحروف وتجانسها وكأنّه التزم في قاموسه الصوتي بأن يأتي في كل كلمة من كلمات جملته بحرف واحد يؤدِّي نفس الإيقاع (لزوم ما لا يلزم) .

ويتنفس مرة أخرى ويبلغ كلفه بالوزن والموسيقى الحد الأقصى ، ويصنع لدى حديثه عن الرحيل جملاً عديدة موزونة على تفعلة معينة وكأنّ الأمر يتعلّق ببحر الرجز . فلنستمع إليه مرة أخرى :

«وهمدت العساكر ، ، ، واعتصبت فآعتصرت ، واحتقبت فآحتقـرت ،

وانتصبت فآبتصرت ، وأبدلت فأبدعت ، وامتنعت فأمتعت ،،، إلخ» (145 ب) .

وينمّق ويطرّز مرة أخرى ويقول حينما يعبّر عن نشوة الانتصار على الأعراب بعد تخريب فرفر ومساكنها : ولا حمام فروعي ، ولا نبات أصولي ، ولا بلبل منطقي ، ولا نور عددي ، ولا ماء فرضي ، ولا آس ولا آس ، ولا كاس ولا كاس ، ولا راضٍ ولا راضع ، ولا شافٍ ولا شافع»[149] .

ويمتاز أسلوبه خاصة باستعمال التورية ، وهو مشهور بها عند معاصريه عند غيرهم . ولقد ألّف فيها كتابين كما رأينا وهما «مثاليب القوانين في التورية والاستخدام والتضمين» و«التورية على حروف المعجم» . وقدرته في هذا الباب واضحة المعالم في رحلته ، في كثير من فصولها وأبوابها ولقد وري بأسماء الكتب وبأسماء العلوم والفنون وبأسماء لشخصيات سياسية وأدبية ، وبمصطلحات بلاغية ونحوية ومنطقية وفلسفية وفقهية وحديثية وقرآنية وأصولية وصوفية وكلامية ولغوية وعروضية ،،، إلخ فكان موفقاً إلى أبعد حدٍّ . ولقد ساعده على ذلك سرعة البديهة و«حضور الذهن» وتضلعه في كثير من العلوم والفنون التي.كان ينفق منها متى أراد ويدلّنا على ذلك المثال الذي أسلفناه لغاية أخرى. وهو :

«ولا حمام فروعي ، ولا نبات أصولي ، ولا بلبل منطقي ولا نور عددي ، ولا ماء فرضي ،،،، » .

وقد لا يوري بصفة مباشرة ولكنه يلجأ في الوصف إلى استعمال المصطلحات الفنية والعلمية لإظهار مقدرته وتصرّفه المطلق في البضاعة التي يملكها . وخير مثال على ذلك هو هذه اللوحة التي قدمها لنا عند وصول الأجفان (63 أ ـ ب).

«ووصلت الأجفان مزهرة كالأرض زاهرة كالسماء ، خافضة كالإضافة ، رافعة كالابتداء ، متصرّفة كأصول الأفعال ، متمكنة كأصول الأسماء ، جامعة

مانعة كالحدود الحقيقية ، صحيحة الموضوع والمحمول كالمقدمة الاقترانية ، مرتبطة المقدم بالتالي كالموجبة الجزئية ، موصلة إلى المقصود كالبراهين القطعية ، ظاهرات حروفها فهي مجرورات مفتقرات إلى الصلات والعوائد ، ذات أبحر ودوائر كالعروض ، مفتوحة كالأفعال الماضية،،،» وكذلك فعل عندما تصدّىٰ لوصف الخيل والأسلحة والسفن وغيرها ، فقدرته على إيجاد الوصف يستمدّها أوّلاً من إتقانه لسائر المصطلحات اللغوية التقنية الخاصة بكل عنصر من العناصر التي وصفها ، فهو قاموس لغوي متخصص في عدة ميادين يذكرنا بقاموس المخصّص لابن سيدة الأندلسي ،،،

وهو ، إلى ذلك كله ، مغرم بسائر المحسنات البديعية ، من جناس وطباق ، ومقابلة ، يتلاعب بالألفاظ وبالجمل فيقلبها ، ويعكسها ، ويقدم مؤخريها ، ويؤخر مقدمـها ، فيتغير المعنى ، ويتحوّل ، ويتطور ، وتصبح البداية نهاية والنهاية بداية ، والخبر مبتدأ والمبتدأ خبراً ،،، ! وحديثه عن هزيمة الأعراب (123 ب) يعطينا فكرة عن هذا التصرّف : «وكأنّ الشمس بدر لأنها لاحت من جنح الدجىٰ ، وكأن البدر شمس لأنه لازم النهار ، وكأنّ الفلق يشفق لكن بدم الأعداء ، وكأن الشفق قلق لأنه مقارن بانتشار الأضواء ،،، » ولقد بالغ في الصنعة والزخرف إلى حدّ التعقيد فجنىٰ بأسلوبه هذا على كثير من الحقائق والفوائد المختلفة التي كان من الممكن للباحث المؤرِّخ أن يظفر بها لولا الغموض ، والالتباس الذي ساد ـ تقريباً ـ جميع الأوصاف ، وحال دون فهم كثير من الأخبار والبيانات المقدّمة خصوصاً بـالنسبة للمنشـآت العمرانية التي وجدنا صعوبة في معرفة بنياتها ومظاهرها المختلفة وتحليل مركباتها .

آبن الحاج كاتب الرسائل :

مهمّة آبن الحاج الرسمية هي إنشاء الرسائل وتكليف الكتبة بنسخها بأمر من الخليفة العناني وتحت إشرافه المباشر ومراقبته الدقيقة كما مر بنا في مناسبات مختلفة يتعلّق الأمر إذن برسائل ديوانية حرّرت أثناء الرحلة إلى

قسنطينة والزاب . وعددها أربع . الأولى إثر فتح قسنطينة والثانية بمناسبة دخول الجيش المريني إلى عنابة والثالثة بعد فتح تونس والرابعة وهي الأخيرة خاصة بالإيـاب النهائي والرجوع إلى الحضرة العلية .

لم يتضمن فيض العباب من هذه الرسائل إلّا ثلاثاً أما الرابعة التي تتعلّق بعنابة فقد ضاعت من المؤلِّف الذي تأسّف شديد التأسّف على ضياعها .

ويلاحظ أن هذه الرسائل تكتسي صبغة إعلامية وأنها موجهة إلى الرعية عن طريق «الشرفاء والعلماء» والفقهاء والوجهاء والخاصة من كذا والعامة غايتها كما أشرنا هو اطلاع الرأي المغربي على المراحـل التي قطعتهـا الرحلة والمشاريع التي تم إنجازها والمعارك التي خاضها الجيش والفتن التي قضىٰ عليها الخليفة والجهود التي بذلت لتلك الغاية ، وخصوصاً النصر الذي حققته الرحلة ، في هذه المرحلة وهو الفتح . فتح قسنطينة وعنابة وتونس . وهكذا تبقى الصلة وثيقة بين العاهل المغربي في السفر والحضر وبين رعاياه فتطمئن النفوس وتطلع الطبقات الاجتماعية الخاصة على الجهود المصروفة وتكون على بيِّنة من الإجراءات المتّخذة والنتائج المُسْتَخْلَصَة والأحداث المتوقعة والتدابير فيحصل التفاهم والوئام وتقوى أواصر المحبّة ويسود في البلاد الأمن والسلام .

ويمكن اعتبار محتوى الرسائل ملخصاً لما جاء في ثنايا الرحلة بل هو تكرار لكثير من الفقرات الواردة فيها فالرحلة إِعلام أوّل والرسائل إِعلام ثانٍ فهما إذن متداخلان متكاملان إلى حدٍّ . ذلك أننا عثرنا فيها على معلومات لم نظفر بها في النص منها تاريخ بعض الأحداث التي كنّا نجهل وقوعها كتاريخ وصول الأسطول إلى تونس وهو آخر يوم شعبان وعدد القوّاد الذين كانوا به وهو 300 رجل ومنها أيضاً تحديد أسماء قوّاد آبن تافرجين الذين قتلهم الجيش المريني كالقائد ميمون وموسىٰ بن عثمان العبدوادي (112 ب) .

ولكن عيب هذه الرسائل كما مرّ بنا في فصل سابق هو أنها جاءت ناقصة مختزلة . ولسنا نعلم بالضبط من هو المسؤول عن هذا الاختصار فلم تتضمن

منها الرحلة إلّا أجزاء معيّنة والسبب في ذلك راجع في نظرنا لطولها واحتوائها على كثير من العناصر التي سبق ورودها في النص فجاءت مبتورة إذ حذفت منها في كل مرة «فاتحة الكتاب بعد سطره الأعلى ومقدمته الفضلىٰ وتاج مفرقه الأجلىٰ» (110 ب) . كما حذفت منها أجزاء بأكملها كان من الممكن أن تمدّنا بمعلومات ثمينة ودقيقة ما أحوج المؤرِّخ إليها يدلّك على ذلك عبارات الاختزال المتكررة في بعض فقراتها : «منها» ، «ومنها أيضاً» إلخ .

بُنية الرسائل:

تتشكّل بُنية الرسائل من العناصر الأساسية الآتية:

1 - «بعد السطر الأعلى ومقدمته الفضلىٰ» .

2 - المُرْسِل: من عبد اللّٰه المتوكّل على اللّٰه فارس أمير المؤمنين المجاهد في سبيل رب العالمين آبن مولانا ، ، ،

3 - المُرْسَل إليه: الشرفاء الفقهاء والوجوه والأعيان والأُمناء والخاصة من أهل كذا والعامة على الولاء .

4 - الإشارة إلى الموضوع (تلميح) .

5 - سلام عليكم أجمعين .

6 - أما بعد حمد اللّٰه .

7 - والصلاة .

8 - والرضىٰ على آله .

10 - فإنا كتبناه إليكم كتبكم اللّٰه من منزلنا الأسعد .

11 - الموضوع: تفاصيل كثيرة من شرح وإطناب ، ، ، إلخ .

12 - الخاتمة: تضع حدّاً بصفة تمهيدية للحديث وتشعر بالنهاية وقد تتضمن دعاءً صالحاً للرعية كما في الرسالة المتعلقة بفتح تونس .

وإذا ما قِيست هذه الرسائل بتلك التي وجّهها أبو عنآن إلى الـدول

المسيحية مثلاً[15] اتضح لنا أن الشبه قوي بين النوع الأوّل والنوع الثاني من حيث الشكل أو من حيث البُنية التي كانت إطاراً لكل منهما . فالعناصر الأساسية التي سبقت ملاحظاتها تكاد تكون هي هي :

السطر الأعلى فاتحة . بآسم اللّه الرحمٰن الرحيم صلّىٰ اللّه على سيِّدنا ومولانا محمّد رسول اللّه وعلى آله وصحبه .

أما الفروق الثابتة فتنصبّ على المحتوى وعلى الأسلوب أيضاً ، فالرسائل الديبلوماسية تتصف بالاختصار والقصر وتتميّز بأسلوبها البسيط . أما الأخرى فتكون أطول وأضخم وأحفل بالسجع ومحسنات أخرى بديعية وإن كان ذلك في غير تكلّف ولا إسراف في بعض فصولها .

ومن جهة أخرى فإن رسائله هذه تكاد تحمل بصفة عامة سائر مميزات الرسائل المشرقية والأندلسية المتداولة في عصره والتي نجد نموذجاً منها عند آبن الخطيب في الإحاطة وفي الريحانة وعند القلقشندي في صبح الأعشىٰ (ج 7 ص 31 و ص: 66 ، 86 و 396-407) بآستثناء بعض الفروق المتطورة والراجعة في بعض الأحيان إلى مراسيم معيّنة اقتضتها السلطة العليا .

ذلك أن كتاب الرسائل ورؤساء ديوان الإنشاء كثيراً ما تنقّلوا بين بلاطات دول المغرب والأندلس فكتبوا لكثير من رؤساء هذه الدول وحملوا معهم بعض التقاليد وبعض العادات التي ساعدت على ترسيخ المراسيم المرعية في هذا الميدان إلى حدٍّ بعيد .

آبن الحاج الشاعر:

أشرنا في مناسبات عديدة إلى الألقاب التي خلعت على آبن الحاج للتنويه بشاعريته وبأدبه بصفة عامة وبالمكانة السامية التي كان يحظى بها في عصره من لدن معاصريه ومنافسيه وأصدقائه وتلامذته . ويكفي للدلالة على ذلك الحكم الذي أصدره عنه آبن الخطيب والشهادة التي أدلىٰ بها في حقّه في هذا الميدان نفسه إذ «طلع شهاباً ثاقباً وأصبح شعره للشعري مصاقباً فنجم وبرع وتمّم

المعاني واخترع ،،، وتفتن الألباب فنونه البديعة وطرائفه من بليغ يطارد أسراب المعاني البعيدة فيقتصّها ويغوص على الدرر الفريدة فيخرجها،،،» (الإحاطة ج 1: 353) .

ويستمر آبن الخطيب في المدح والإطراء قائلاً: «فطرز المفارق برقوم أقلامه وشنف المسامع بدرر كلامه. ،،،» وهو في نظر آبن الأحمر (نثير فرائد الجمان 313) شاعر خاطم ،،، زينت بكلامه نحور البيان إذ هو علقٌ ثمين» فلم يبقَ لنا والحالة هذه إلاّ اللجوء إلى مؤلّفاته التي نتوفر عليها الآن وهي كما ذكرنا سابقاً: «فيض العُباب» و«المذكرات» وقرائن القصر .

يتضمن فيض العُباب الأبيات والقصائد الآتية:

1 ـ قصيدة من ثمانية وعشرين بيتاً كملها المقري في نفخ الطيب (ج 9 ص 325) مضيفاً إليها 7 أبيات . نظمها آبن الحاج في تهنئة أبي عنان بعد إبلاله من مرض ألمّ به وهو يستعد للرحلة الكبرى[43] موضوعها إذن المديح ووصف الحروب وأغراض أخرى تكميلية .

2 ـ بيتاً منفرداً في وصف معركة (ص 74) .

3 ـ قصيدة من 41 بيتاً (ص: 77) ـ نظمها أثر أخذ الفأل الحسن غرضها الرئيسي المدح بالإضافة إلى وصف المعارك .

4 ـ سبعة أبيات في وصف السيل الجارف الخطير غرضها تهنئة ومدح ووصف المعارك . وهو من فحول الشعراء الذين ضمهم كتاب نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان ،،،

5 ـ عشرة أبيات نظمها ممتثلاً لأوامر أبي عنان في مدح أحد خدّامه الأوفياء: آبن مزني .

فما هو شعره إذن؟ وما قيمة هذا الشعر وما خصائصه؟ مما لا شك فيه أن آبن الحاّج قد نظم كثيراً من الشعر منذ صباه إلى آخر حياته إذ كان بضاعته التي

«نظم» وطلع شهاباً ثاقباً بفضلها . فأين هذا الشعر الغزير؟ أين ذهب؟ هل ضاع منه وهو بقيد الحياة أم أضاعه غيره بعد مماته؟ أم الظروف السياسية والاجتماعية والخُلُقية التي تخبّط فيها عصره وبيئته هي المسؤولية عن هذا الضياع؟ أسئلة من الصعب الإجابة عنها الآن لانعدام الوثائق الأصلية والحجج الكافية للتدليل على رأي ثابت في الموضوع ذلك أن جلّ آثاره قد ضاعت ولم يبقَ منها لحدّ الآن إلاّ ذلك الجزء اليسير الذي ألممنا به في بداية هذا الفصل فضاع معها كثير من شعره كما لا نعلم أيضاً أنه ترك ديواناً خاصاً به كما فعل غيره(16م) .

وهكذا يتضح من هذا الجرد العام أن الأمر يتعلّق بشعر المناسبات وأن الموضوع الرئيسي هو المدح الذي يعتمد على أغراض أخرى متداخلة ومتكاملة .

المذكرات: تتضمّن «المذكرات» مواضيع مختلفة من النثر ومن الشعر استشهادات ، اقتباسات ، قصائد وأبياتاً ، حكايات ونوادر وأخباراً ومرويات كما تتضمن شعراً من إنتاج آبن الحاج نفسه في مناسبات مختلفة تتعلّق بحياته اليومية وبآتصالاته الخاصة وبعلاقاته مع أصدقائه وغيرهم .

قرائن القصر ومحاسن العصر في مدح أمير المسلمين أبي عبد اللّه بن نصر:

عبارة عن ديوان خصّصه آبن الحاج لمدح السلطان أبي نصر وهو يتضمن 29 قصيدة ما بين مطولات ومقطعات مرتبة حسب القوافي(17م) .

وبالإضافة إلى هذه الآثار الباقية نجد عند معاصريه وخصوصاً منهم آبن الخطيب وآبن الأحمر ، كما نجد عند المقري وعند آبن القاضي بعض القصائد وبعض المقطعات والأبيات التي نظمها آبن الحاج في مناسبات مختلفة وفي مواضيع متعددة فريدة جدية وهزلية وصفية وغزلية ولغزية . ففي الإحاطة (ج 1 ، 355-358) نماذج من هذا الشعر الذي يدور كما قلنا حول الوصف وصف الخمر ووصف الظبي ووصف القلم ووصف الفتىٰ الكبير عنبر

ووصف عين ماء . وفي نثير فرائد الجمان نعثر على قصيدة طويلة من 50 بيتاً (116-314) نظمها في رثاء خاله عبد اللّٰه محمد بن محمد أبي عاصم .

أما المقري فقد أورد له القصيدة الطويلة التي نظمها في تهنئة أبي عنان بإبلاله كما أورد له عدة أبيات في مدح أبي القاسم الرزالي والحافظ المزي وعماد الدين الكندي وفي وصف فتىً قارب العشرين وفي وصف الشاعر المبدع أحمد آبن عبد المنان وفي مداعبة أبي عبد اللّٰه العزفي وفي رثاء الطيب آبن عمّار .

ويزودنا آبن القاضي بقصيدة من 79 بيتاً نظمها آبن الحاج في المديح النبوي وفي تهنئة الملك المريني أبي بكر السعيد .

وهكذا يتضح لنا مرة أخرى أن آبن الحاج نظم في أغراض متعددة أهمّها المدح الذي شغل حيِّزاً كبيراً من إنتاجه ثم الوصف الذي استبد هو الآخر بكثير من المواضيع التي طرقها وتداخل مع أغراض أخرى ، فكملها ثم الرثاء ثم أغراض يدخل في إطارها من اتصالات شخصية ومساجلات ومداعبات وممازحات وفكاهات ونكت ونوادر وألغاز وأحاجٍ طبقاً لتكوينه الخاص ومسايرة للذوق العام الذي كان سائداً في عصره إسوة بمن عاصروه وعايشوه واحتكّوا به وكوّنوا الطبقة الاجتماعية المثقّفة التي كان ينتمي إليها من أمثال آبن الخطيب وآبن زمرك وآبن الأحمر وغيرهم .

ونستنتج مما سبق أيضاً أن الأغراض الرئيسية عنده (المدح والوصف) هي التي جاءت في قصائد طويلة النفس وأمّا ما سواها فلا يكاد يخرج عن أبيات منفردة أو مقطعات كتلك التي نظمها في وصف القلم أو في وصف فتىً عنبر الكبير أو في آبن عبد المنّان إلخ . ولا غرابة في ذلك ما دمنا نعرف أن شاعرنا كان ولوعاً بهذا النوع الأخير من القريض الذي خصّه بمؤلّف مستقل وهو كما أسلفنا :

المساهلة والمسامحة في تبيين طرق المداعبة والممازحة .

أمّا الهجاء فيبدو أنه لم يكن له فيه نصيب بدليل قوله :

لي المدح يروى منذ كنت كأنما تصورت مدحاً للورىٰ وثناء
وما لي هجاء فأعجبن لشاعر وكاتب سر لا يقيم هجاء

(آبن الخطيب الإحاطة ج 1 ، ص 355) .

وقد يميل إلى الفخر كقوله :

أيا عجباً كيف تهوى الملوك محلي وموطن أهلي وناسي
وتحسدني وهي مخدومة وما أنا إلاّ خديم بفاس

ولقد عبّر عن إعجابه بنفسه والثقة التي يشعر بها لدى مخدومه والمكانة الثقافية التي يحتلّها في وسطه ، وقدرته الفائقة على الإنشاء والتفنّن في صناعته ، عبّر عن ذلك في مناسبات عديدة في الرحلة التي بين أيدينا .

معاني مدحه :

من حق الباحث أن يتساءل عن المعاني التي دار عليها مدح آبن الحاج لأبي عنان في فيض العباب على الأقل وهو الغرض الذي شكّل في شعره العنصر الأساسي كما علمنا ، يتناول آبن الحاج في مدحه صفات ممدوحه الفكرية والخلقية بصفة خاصة تلك التي تبرز مميزات شخصيته القوية الفذّة الأصلية ، العنصرية النادرة في الوجود ، المتفوقة على جميع شخصيات الملوك بما لها من قوة ذكاء ، وحصافة رأي وقوة ملاحظة وشدّة انتباه وعمق ثقافة وغزارة علم وشيوع في الأدب والشعر والبيان وشجاعة وإقدام وحسن تدبير وتجربة في الحرب ،،، إلخ .

وإذا كانت بعض هذه المعلومات مألوفة ومبتذلة في شعر معاصريه وفي شعر من سبقوه إلى الميدان فإن آبن الحاج لم يكن يعمّم إلى درجة الابتذال والتكرار وعدم التمييز بين شخصية وشخصية أخرى . فالصفات التي اختارها لتكون موضوع شعره صفات خاصة انتقاها من بين صفات أخرى لأنها ملازمة لأبي عنان مميزة لشخصيته ولسلوكه خصوصاً تلك التي ترتبط بفكره وبنبوغه

وذكائه وثقافته الأدبية أو إقدامه في الحروب وتقدمه في ساحة الوغى ليعطي المثال بنفسه . فلم يكن آبن الحاج في هذا الميدان مبالغاً ولا متطرِّفاً إلى درجة الإسفاف والإفراط في المدح الذي يقصد به التكسُّب والحصول على الجاه والمال بمختلف الطرق وبشتى الوسائل مهما كانت وضيعة وسالبة للشخصية .

لم ينزل آبن الحاج إلى هذا الدرك رغم لجوئه إلى معانٍ مطروقة ومكرّرة لأنه استطاع أن يكيِّفها ويطوّرها ويصبّها في قالب لا يخلو من طرافة وأصالة .

لقد حافظ في سائر المواقف ـ كما مرّ بنا ـ على توازن ملحوظ واستقرار في الطبع والوجدان فكان معتدلاً مقدراً للمواقف متوقعاً عواقب الأحداث والسلوك المرتجل والمواقف المستعجلة .

وهو الرجل الذي «نشأ على عفاف وطهارة ، البعيد عن الريبة ، النزيه عن الصورة ، وقد أعانه على ذلك نخوة في طبعه» (آبن الخطيب الإحاطة ج 1 ص 351) .

أمّا خصائصه الفنيّة فتكاد تكون هي الأخرى واضحة في نثره في الرحلة ، في الرسائل وفي «المذكرات» اليومية . فظاهرة الصنعة والتصنيع سمة غالبة في شعره ونثره وأوّل شيء نلاحظه في قصائده وفي مقطعاته هو ولوعه بالتورية التي أُغرم بها وأخلص لها وجعلها من العناصر الأساسية . لأسلوبه ، وإخلاصه هذا وتفانيه في حبّها جعله يؤلِّف فيها كتاباً مستقلاً على حروف المعجم وكتاباً آخر سمّاه مثاليب القوانين «في التورية والاستخدام والتضمين» .

فكم ورىٰ في نظمه ونثره ، كم ورى بأسماء الأشخاص من أدباء وسياسيين وعلماء ومحدثين ولغويين وفقهاء ونحاة ومؤرخين ، وكم ورى بأسماء المؤلِّفين وعناوين الكتب ، وكم ورى أيضاً بسائر المصطلحات العلمية والفنية والأدبية والفقهية والأصولية وغيرها . كم داعب وكم مازح وكم عمّم، وكم حاجىٰ وكم لغّز وهو يوري ويصف .

وهو إلى ذلك شديد الحرص على «التضمين» والاقتباس والجناس والطباق والمقابلة والترصيع ولزوم ما لا يلزم . ولقد ساعده على ذلك ثقافته الواسعة المتعددة الجوانب ومشاركته في سائر العلوم وتضلّعه في الأدب واللغة والشعر .

وفي الأبيات الآتية دليل على بعض ما قد أشرنا إليه : في القلم .

أحاجيك ما واش يراد حديثه ويهوي الغريب النازح الدار إفصاحه
تراه مع الأحيان أصفر ناحلاً كمثل مريض وهو قد لازم الراحة

وفي الفتى عنبر :

قد قارب العشرين ظبي لم يكن ليرى الورى عن حبّه سلوانا
وبدا الربيع بخده فكأنّما وافى الربيع ينادم النعمانا

في أحمد بن عبد المنّان وفي عينه خضرة :

أبا أحمد لم تضي للعلا ومن حاز في صيعة كل زين
ترابت في العلم روضاً نضيراً فلا تنكرن خضرة حول عين

(المقري نفح الطيب ج 9 ص 323) .

وقد كان بودّنا أن نعرف اتجاهاته في النقد أو على الأقل المقاييس الثابتة التي يستند إليها في حكمه على الشعراء وعلى شعرهم . وقد كانت الفرصة متاحة عندما تعرّض في فيض العباب إلى بعض الشعراء الذين اجتمعوا معه بمجلس أبي عنان وأورد مختارات من شعرهم .

ولسنا نعلم بالضبط لماذا ذكر بعض الأسماء وأغفل أسماء أخرى كآبن جزي وكآبن الأحمر الذي رافق أبا عنان إلى أفريقية ، ولا لماذا اكتفىٰ بإيراد بعض الأبيات لأولئك الشعراء ولا على أي أساس كان انتخابه لإجزاء شعرهم؟ ولقد حدث له مرّة أن عبّر عن رأيه في الموضوع وقال إنه حذف مطلع القصيدة «لنكادة فيها ولشيء مجّه الطرف» . والواقع أن مثل هذا التعليل لا يكفي لأخذ فكرة عن اتجاهه في النقد أو على الأقل لمعرفة ذوقه وميله .

الصورة الشعرية :

مخيلة آبن الحاج قوية وخصبة قادرة على التركيب والاستيحاء وإعادة البناء وخلق الجديد من الأوضاع القديمة وإقامة علاقات دقيقة بين الكليّات والجزئيات وإدراك الروابط الظاهرة والخفيّة ساعدته تلك الملكة إلى جانب ثقافته الواسعة على النحت والتصوير والإبداع فأكثر من التشبيه والاستعارة والكناية معتمداً في ذلك على العناصر المادية المحسوسة .

ويستمد هذه العناصر من الإنسان ، من الحيوان ، من الطبيعة المحيطة بهما كما يستمدها من ذاكرته ، من مخزونه الثقافي فيرجع إلى الماضي عن طريق التراث ليقتبس منه ما شاء من الصور والتشبيهات ، ويظهر كما أسلفنا مقدرة خاصة على نحت هذه الصور وإخراجها بفضل عمق ثقافته ، في قالب جديد كامل الملامح بارز المعالم يفيض حياة وجاذبية يجد فيه القارىء لذة ومتعة ويتجاوب معه في كثير من معطياته فيستمر الارتباط ويشتد التأثير . خصوصاً إذا تذكّرنا أن آبن الحاج شريك أبي عنان في التجربة ، تجربة الحياة المتنقلة عبر الصحراء وعبر الزاب ، وعبر أفريقية والجريد خاض معه الحروب والمعارك ضد النصارىٰ وضد الأعراب . ضد أهل البدو وأهل الحضر فاكتملت لديه الوسائل السمعية والبصرية والوجدانية المتعلقة بالتجربة الكاملة التي عاشها بفكره وبعاطفته وخياله فآستوحى منها مادته واستطاع أن يصف بدقّة ما شاهده وما سمعه بدون رواية ولا واسطة مضيفاً إلى ذلك ما اختزنه في ذاكرته من صور ومشاهد بواسطة الكلمة الموحية والجملة المعبّرة المشعة فهو في هذه الحالة آبن الحاضر وآبن الماضي .

وشهادة آبن الخطيب فيه كافية لإعطاء فكرة عن فنّه وإبداعه ، فهو «الذي طلع شهاباً ثاقباً وأصبح شعره للشعري مصاقباً فتفنّن وبرع وتمّم مذاهبه دافعة» وهو الذي «تفتن الألباب فنونه البديعة وطرائفه من بليغ المعاني واخترع ، يغوص على الدرر الفريدة فيخرجها ويستخلصها بطبع يطارد أسراب المعاني البعيدة فيقتضبها» .

وهو كما يتجلّى في شعره الذي بين أيدينا شاعر مطبوع مقتدر غائص على الدرر «مبدع خلّاق» ، سريع البديهة ، حاضر الملكة والقريحة ممتلك لنواصي اللغة والأدوات ، يأمره أبو عنان بالارتجال ويقيده بقيود المعاني والأغراض فيمتثل مسرعاً، ويستجيب للنداء في الوقت المناسب وينظم في آبن مزني ما أمر به طبقاً للتعليمات المولوية فيقول على البداهة ويراجعه أبو عنان في الموضوع فيتراجع ويعيد الكرّة فيكمل التجربة ويفوز فوراً برضا مولاه.

نعم قد يقول قائل إن ذلك من الظواهر الأدبية الشائعة في عصره في ميدان النثر . وأنه لم يأتِ بشيء جديد في الموضوع وإنّما آتسم بسمات من سبقوه أو عاصروه ، فلم ينفرد بخاصية تذكر ولم يخرج عن التكرار والاجترار . قد يكون ذلك جزءاً من الحقيقة لأن الفرد لا بد متأثّر ببيئته وبالذوق السائد في عصره أحب أم كره .

ولكن ما يميِّز آبن الحاج الشاعر هو حسن الاستعداد وامتلاك كثير من المؤهلات والمواهب الفطرية والقدرة الفائقة على تطويع التعبير ، وحسن استخدام الأساليب الفنيّة وتكييفها مع المعطيات التي يغوص في بحرها بكامل السهولة ودون خوف «تلاطم الأمواج» ، فبقطع النظر عن التيارات الاجتماعية والتقاليد الجارفة المكيّفة والمؤثرة فإن الفرد الذي يستطيع هضم هذه التيارات وتكييفها قادر على الاحتفاظ في كثير من الظروف بشتى المميزات التي تحول دون ذوبان الشخصية .

فآبن الحاج مهما يقل عنه ، كان من هذه النماذج التي طَبعت الأدب المغربي والأندلسي بطابع جدير بالمعرفة والتحليل .

ونحن وإن كنّا لا ندّعي القيام بهذه المهمة في هذا الإطار الضيِّق ـ مرجئين ذلك إلى فرصة أخرى بحول اللّه ـ إلّا أننا نريد أن نلفت النظر منذ الآن إلى خصائص آبن الحاج الفنيّة في ميدان الشعر كما أشرنا إليها .

الرحلة

والسؤال الخطير الذي يطرح نفسه على الباحث هنا هو هل الرحلة كلّها من إنشاء آبن الحاج النميري أم هناك يد أجنبية ساهمت في صنعها؟ ما نوع هذه المساهمة؟ هل هي مساهمة انصبّت على الشكل وحده أم حتى على المضمون؟ وهل يتعلّق الأمر بزيادة أم بنقصان؟ فما هي تلك الزيادة وما هو ذلك النقصان؟ إلى غير ذلك من الأسئلة الخطيرة التي يصعب الجواب عنها كلها في هذا المجال لانعدام العناصر الموضوعية الكافية والوثائق الضرورية إذ لا نملك من «فيض العُباب» إلاّ نسخة واحدة بخط يد أجنبية .

ومع ذلك فسنحاول الكشف عن بعض الجوانب الغامضة والإتيان ببعض الإيضاحات المستخلصة من الرحلة نفسها : الحقيقة الأولى هي أن الرحلة كتبت بعد وفاة صاحبها ونعني بالكتابة هنا عملية الاستنساخ التي أنجزها إبراهيم آبن أخي آبن الحاج النميري الذي أدلىٰ لنا باعتراف مفيد منذ اللحظة الأولى نتخذه كمنطلق يقودنا إلى مراحل أخرى وهذا التصريح هو كما جاء في المقدمة : «كان عمّي رحمه اللّه إبراهيم بن عبد اللّه بن الحاج من بعض خدّامه (أي أبي عنان) ما زال يردّد الذكر بإحسانه وإنعامه فما كان استنخب أتم (الاستنخاب) وأبهج به جميع الكتّاب إنشاؤه لهذا الكتاب المسمّىٰ فيض العُباب فوفق العبد كاتب هذا بخطّه إبراهيم بن أبي عمر آبن الحاج عليه ونهض إلى جمع ما لديه وكان الكتاب متفرِّقاً في تقاييد مبدّدة ورقائع مسدّدة ،،، بنسخ هذا الكتاب وتأليفه ،،، » .

وواضح من هذا النص أن العملية لم تقتصر على النسخ المجرد بل تعدته إلى الجمع «والتأليف» وأن الرحلة كانت عبارة عن أوراق مبعثرة وتقاييد في شكل مبيضة وهي في مثل هذه الحالة شبيهة بيومية إخبارية حوت من المعلومات ما استطاع مؤلّفها أن يجمع منها في أوراق قيّد فيها ما وقع عليه سمعه وبصره أو ما جال في خاطره وجاش في صدره من عواطف وانفعالات كتلك المذكرات التي تركها على حالتها الأولى بعد مرافقته لوالد أبي عنان أبي الحسن في تنقلاته عبر المدن المغربية ، وهذا مجرّد افتراض .

نعم لقد وجدنا في النص إشارة إلى كلام المؤلِّف كما هو الشأن بالنسبة لكثير من المؤلّفات التي رُوعِي فيها الضبط والتمييز بين كلام الناظم وكلام الشارح مثلاً وذلك باستعمال كلمة «قال» «وكلمة قلت» لكننا مع الأسف لم نجد هذه الإشارة التي كنّا نتمنىٰ من ورائها الشيء الكثير إلّا ثلاث مرّات وردت في ورقة (48 أ) ـ وورقة (89 أ) وهي ـ قال مؤلِّف «هذا الكتاب إبراهيم بن الحاج» وقال إبراهيم آبن الحاج المذكور «وقال إبراهيم آبن الحاج»، ، ،

فمن هو إبراهيم آبن الحاج؟ ومَنْ هو مؤلِّف الكتاب؟

ومن المحتمل أن يكون المؤلِّف قد تمكّن من الوقت فحسن مستوى الرحلة وصاغها صياغة لائقة وإن لم تكن نهائية . وذلك ما يغلب على الظن لأن الأسلوب الذي بلغت به إلينا ليس أسلوب الارتجال والتقييد العفوي . بل هو أسلوب علمي فني يغلب عليه طابع الصنعة والتصنيع في كثير من الأحيان كما سيتضح لنا في مكان آخر أسلوب لم يطرأ عليه تغيير يذكر منذ بداية النص إلى نهايته باستثناء المقدّمة . وفي هذه الحالة تظل مساهمة آبن الحاج مساهمة جزئية اقتصرت على جمع الأوراق وترتيبها وإعادة كتابتها بخط واضح جميل في مستوى الهدايا العلمية التي تقدّم للملوك من لدن خدّامهم الأوفياء كما فعل آبن الحاج الناسخ عندما قدّم «فيض العُباب» لأبي فارس عبد العزيز «ليكتسب العبد الشرف الواضح الشكر والثناء الرائق الجميل» وقد فعل خيراً وأدّىٰ بعمله هذا خدمة جليلة أنقذ بها هذا الأثر النفيس من الضياع ـ كما ضاعت جلّ آثار

عمّه الأخرى ـ وقد كان خليقاً بهذه المهمة نظراً لروابط القرابة والثقافة التي كانت تربطه بعمّه وكان أميناً في حمل الأمانة وردّها إلى صاحبها فاعترف بكون العم هو منشيء الرحلة وأن عمله انحصر في جمع ما كان مبدّداً فقام بنسخ الكتاب وتأليفه ، والمقصود بالتأليف كما ذكرنا هو الترتيب والتنسيق . ومع هذه التحريات والاستنتاجات يظل الالتباس حائماً حول جوانب أخرى من الرحلة فلا ندّعي إذن أننا وصلنا إلى معرفة الحقيقة وإدراك ما يمكن أن يكون قد أخفاه ناسخ الرحلة ومؤلّفها ولا ما يكون قد ادّعاه لنفسه تبريراً لمواقفه وإبرازاً لمكانته وطمعاً في كسب الشهرة والالتحاق بذوي الرتب العالية . وبالإضافة إلى ذلك فإن زمن كتابة الرحلة ظل هو الآخر غامضاً . كل ما يستفاد من النص أن الرحلة لم تكتب دفعة واحدة وفي زمن واحد . بل كُتبت في ظروف مختلفة غير متسلسلة .

من المؤكّد أن قسماً منها قد كتب أثناء الحركة إلى قسنطينة والزاب وأن القسم الآخر لم يحرّر إلّا بعد انتهاء المأمورية واستقرار المؤلّف في الحضرة الفاسية ودليلنا على ذلك هو عدم مراعاة الترتيب الزمني في رصد الأحداث وسوقها حسب تسلسلها وتقديمها للقارىء حسب تاريخ وقوعها ليستطيع تتبّعها عن كثب وإدراك أسبابها ومسبّباتها ومقدماتها ونتائجها وتقدير عواقبها . فالأحداث المروية لم تكن كلّها متزامنة . منها ما يتعلّق بالزمن الذي كتب فيه المؤلّف رحلته ومنها ما هو راجع إلى الماضي ومنها ما له صلة وثيقة بالمستقبل ومع ذلك فالمؤلّف يجمع بينها في سياق واحد ويتحدّث عن الحاضر والمستقبل وكأن الأمر يتعلّق بحدث واحد جرىٰ في الزمن الذي يتحدث عنه وهكذا نراه في كثير من الأحيان يوقف السياق وينتقل فجأة إلى الكلام عن أحداث أخرى جرت في زمن متباعد متأخّر لينقل لنا تفاصيلها ونتائجها ثم يرجع إلى الموضوع الذي هو بصدده مكمّلاً أو مكرّراً فيلتبس الأمر على القارىء الذي كان يظن أنه أمام يومية إخبارية تنقل له ما جرى يومياً مراعية السابق واللاحق ورابطة بينهما برباط واضح .

ودليل آخر على أن بعض أجزاء «فيض العُباب» لم تكتب إلّا بعد العودة

من الرحلة الكبرى هو أن المؤلِّف أثار في بعض الفصول قضايا سياسية وأخرى اجتماعية كانت وليدة ظروف متأخِّرة جداً كقضية تنصيب الأمير أبي زيان خلفاً لوالده أبي عنان المتوفي سنة 759 هـ وقضية العقاب القاسي الّذي ألحقه هذا الأخير ببعض وزرائه وخدّامه .

أُصيبت الرحلة ببتر في بدايتها ، وفي بعض أجزائها ، فوصلت إلينا ناقصة ، غير أن هذا النقص لم يمس جوهرها ولذلك لا يُعدّ خطيراً .

تنقصها مقدمتها الأصلية أي مقدمة المؤلِّف ، إن كان فعلاً قد قدم لها ، أو وضع ديباجة تتناسب ومحتواها والهدف الذي ترمي إليه كما ألفناه عند غيره من معاصريه وغيرهم ممن أبدعوا وتفنّنوا في هذا النوع من التأليف ، وأتوا بتحف رائعة تعتبر نموذجاً لما بلغ إليه النثر في المغرب زمن المؤلِّف من صنعة ، وتعقيد ، وتصنيع لا يتأتّىٰ إلاّ للفحول أمثال آبن الخطيب ، وآبن مرزوق ، وآبن الحاج نفسه كما سنرى فيما بعد .

أين هذه المقدمة التي كنّا نتوقعها؟ هل أبدعها مؤلّفها وضاعت منه كما ضاعت أجزاء أخرى من أثره بعد وفاته؟ أم أنه لم يقم بتدبيجها وترك الكتاب في انتظار فرصة موآتيـة ليكمل ما كان ينقصه؟ .

المهم أن الذي بين أيدينـا هو كـلام لا يخلو من صنعة في التـركيب والتنسيق ، وهو لابن أخي المؤلِّف ، كما مرّ بنا ، قدم به كتاب عممه ، وأبرز المقاصد التي قصدها بجمعه وإهدائه إلى ولي نعمته .

وفي النص ثغرات أخرى يلاحظها الباحث بسهولة ، ويعثر عليها القارىء المتأنّي المتبصِّر في بعض الفصول والفقرات ، التي يجدها ناقصة أو مشوهة ومحرّفة ، ثم لا يدري مرة أخرى من يتحمّل المسؤولية ، وهل يتعلّق الأمر بنقص سببه ضياع وإتلاف فقط أم بحذف متعمّد لأجل غاية معيّنة أم بكليهما معاً .

ومهما كانت الأسباب فإننا نشير هنا إلى بعض هذه الثغرات كما التزمنا بذلك .

مدح آبن الحاج أبا عنان بعد شفائه من مرض حلّ به وهو مقيم بفاس قبيل سفره إلى قسنطينة والزاب بقصيدة بائية تبلغ خمسة وثلاثين بيتاً ، لكن النص الذي بين أيدينا لا يحوي منها سوى ثلاثين بيتاً ، والخمسة الأولى الأخرى التي تنقصها جاءت في نفح الطيب (ج 9 ص 325، 326) حيث أورد المقري القصيدة بكاملها .

ونفس النقص يلاحظ لدى قراءة بعض الأشعار التي نظمت خصوصاً في مدح أبي عنان بمناسبة شفائه ، أو بمناسبة فتح حقّقه كدخوله قسنطينة ، أو تونس ، أو بلاد الزاب ، أو بمناسبة انتصاره على الأعراب في بلاد الجريد بصفة خاصة ، وهذه الأشعار هي لأبي العبّاس النعمان(32) ، ولابن محمد آبن البرطال(33) ، وللقاضي أبي علي عمر الزناتي(34) ، وهو نقص غير مبرّر ، ولا يعرف سببه ، ولا مَنْ يتحمّل مسؤوليته خاصة وأننا نجد ، على العكس من ذلك ، قصيدة طويلة ، يبلغ عدد أبياتها 64 بيتاً ، لابن الحاج مثبتة بكاملها في الرحلة .

ونفس البتر يوجد في ميدان النثر ، في الرسائل المولوية التي بعثها أبو عنان المريني إلى رعيته بمناسبة فتح قسنطينة(35) ، وتونس وعنابة(36) ، وبمناسبة رجوعه إلى الحضرة بصفة نهائية(37) ، وهي رسائل طويلة من إنشاء آبن الحاج ضمنها أخباراً موجزة عمّا جرى من أحداث قبل عملية الفتح هذه ، والإبلاغ بالمسرة الكبرى ، ثم الإعلام بحصيلة الحركة ، وبالاستعداد للإياب إلى الحضرة العليا بصفة نهائية .

وهي رسائل بتراء اختصرت اختصاراً ، واختزلت لأسباب نجهلها ، واقتصر مؤلّفها أو جامعها على ذكر أهم أبوابها باستعمال عبارة «ومنها» أربع مرات في الرسالة الأولى ، وعبارة «ومن الكتاب المذكور» أو «ومن فصول هذا الكتاب المذكور» ستّ مرّات في الرسالة الثالثة ، كما رجع إلى استعمال كلمة «ومنها» ستّ مرّات في الرسالة التي تخبر بنتائج الرحلة والعودة إلى فاس .

أمّا الرسالة المتعلّقة بفتح بلد العنّاب فلم ترد منها أي كلمة في الرحلة

لأنها ضاعت من المؤلّف ، باعتراف منه وهو يتأسّف على هذا الضياع بقوله : «وقد أنشأت بفتح بلد العناب كتاباً واحداً تعددت نسخه الحميدة الاقتراب ، ، ، إلاّ أنه ذهب وانضاع ، وكان زهراً لمجتمع رياح فلا غرو وأن ضاع . ولقد تمنّى القلم الواشي أن يعيد حديثه فجزع وارتاع»[38] .

والدارس لهذه الرحلة قد يعثر على ثغرات أخرى تدل على ما دلّت عليه سابقاتها ، وتفيد أن النص الذي بين أيدينا ليس هو النص الأصلي .

من ذلك مثلاً أن الكاتب يتحدّث عن فداء أبي عنان للأسراء ، كلما عقد مع الإفرنج عقد هدنة وصلح ، يتحدّث عن الغائب ثم نراه يخاطبنا ويقول : «فما كان بأسرع من انطلاق نسائكن وقد لطمن صفحات خدودهن»[39] هذا الاضطراب في الأسلوب يدل على أن شيئاً قد حذف ، وأن العبارة التي أوردها المؤلّف تفيد أن رسالة قد حرّرت في الموضوع ولم ترد منها إلاّ هذه العبارات الطويلة .

من ذلك مثلاً أن آبن الحاج في حديثه عن شالة انتقل بصفة مباغتة أيضاً إلى الحديث عن فاس ، ولم يذكر أي شيء يتعلّق بالمرحلة التي قطعها أبو عنان في رجوعه من شالة إلى فاس . لماذا هذا السكوت؟ وهل هو سكوت أم اختزال واختصار؟ .

ومن ذلك أيضاً أن المؤلف عندما نظم قصيدة بتازة أشار إلى أنه سيكتفي بتقديم بدايتها فقط لكننا نجده يتراجع ، ويورد أكثر من 40 بيتاً[40] .

بين أيدينا ما يدل مرة أخرى على أن الكتاب أصيب بتعديل ، أو بتغيير ، أو بمراجعة .

ونلاحظ أيضاً عند انتهاء الرحلة (174 ـ أ) أن المؤلّف ختم كتابه بصفة مفاجئة تجعلنا نشك في سلامة النص ذلك أنه وصف قتل الوزير «وسجن شيوخ بني مرين» ثم تحدث عن وفاة أبي عنان ، وعن خلافة الأمير أبي ريان ، وانتقامه من شهود الزور وعلى رأسهم عمر بن ميمون ، ، ،

ومما يدل على أن الرحلة لم تكتب في زمن واحد ، وأن جزءاً منها كتب بعد الرجوع إلى فاس :

10 ـ قول آبن الحاج : «ذكر الحركة السعيدة التي أرت العجائب وطبق ذكرها المشارق والمغارب» 40 ـ أ .

20 ـ ورود عبارات مثل التي ردّدها آبن الحاج في مناسبات مختلفة وهو يتحدث عن أبي عنان «حفظه اللّه» «أيّده اللّه» «رضي اللّه عنه» «وكان أيّده اللّه وما بالعهد من قدم ، وما يسلبه من نسيان لرسوخ قدم ، ولما كان بصدد تلك الحركة التي استجلبت أخبار النصر» ، وقوله وهو يقدّم القصائد التي أنشدت بعد استعراض الجيوش بتازة «فما حضرني الآن من ذلك»[41] .

وأخطر من ذلك أن فصولاً مفيدة للغاية قد حذفت من الرحلة لأسباب نجهلها أيضاً ، ويتعلق الأمر هنا بمعركة دارت بين الجيش المريني والجيش البرتغالي ، معركة انتصر فيها المغرب على عدوه انتصاراً عظيماً حسب المؤلِّف نفسه لكننا لا نعرف عنها شيئاً ، كل ما نعرفه عنها هو أن آبن الحاج أخبرنا بها ، واكتفى بالإشارة إلى بعض مظاهرها . فذكر بأن «خبر هذه الحركة قد تقدّم في هذا الديوان ، وأوردناه مشروحاً على قواعد الإيضاح والتبيان»[42] ، ولكن لا أثر لهذا الشرح ، ولم يتقدم أي خبر في هذا الموضوع باستثناء هذه الإشارة التي أوردها هنا . فأين ذهب هذا الفضل المومأ إليه؟ هل تضمنت الرحلة أخباراً أخرى لا تدخل في نطاقها ثم فصلت عنها بعد ترتيبها وإعادة نسخها؟

أسباب الرحلة وعواملها :

للرحلة أسباب متعددة ذكر بعضها أبو عنان نفسه بصفة صريحة ، ثم ذكر بعضها الآخر بصفة غير مباشرة وفي مناسبات متعدّدة .

يذكرنا أولاً على لسان كاتبه الخاص بالأحداث التي وقعت في صفوف الأعراب والتي واجهها الشيخ أبو عمران الذي كلّف بإخمادها والقضاء عليها .

فقصد ميلة ولاحقته القبائل فخاض المعركة في ميلة وبجاية لكنه انهزم في ميلة وانتصر في بجاية ، فاستأذن أبا عنان في الرجوع إلى هذه الأماكن للأخذ بالثأر . إن الفتن التي اشتعلت بميلة وبجاية هي التي دفعت أبا عنان إلى القيام برحلته الكبرى إلى الشرق ، وأكّد أنّه أخّر هذه الرحلة لاشتغاله بمحاربة الكفّار «وما أخّرنا الحركة إلى الشرق عن إهمال ، ولكنا أثرنا الاشتغال بجهاد الروم أولي الأيد والتمكين»[43] ، لأن ذلك أهم[13] ، والباعث على هذه الفتن هو ما قام به الأعراب أعراب سليم بصفة خاصة من تحرّشات ومن فساد والحركة السعيدة ستكون إلى قسنطينة أولاً لأنها جاهرت بالعناد ثم أخيراً إلى أفريقية التي ستكون المقر النهائي .

وفي مناسبة أخرى نرى أبا عنان يرجع إلى نفس الموضوع ويعلّل الحركة كما يلي : «آعلم أن المراد أن تجتمع كلمة الإسلام ، وتلتئم أحزابها أحسن الالتئام ، وتتخلّىٰ الدواعي لجهاد عبدة الأصنام ، ، ، ويُستطاع السير لحج بيت اللّه الحرام ، ويحسم داء الفتنة ، وينقضي أمد المحنة»[44] .

هذه الأسباب الدينية الروحية والسياسية هي التي أبلغها الوزير آبن ودرار إلى سكّان قسنطينة قبل حصارها .

جمع كلمة الإسلام ، توحيد صفوف المسلمين ، القضاء على الفتن التي يثيرها الأعراب ، الاستجابة لنداء المستغيثين الراغبين في الدخول في طاعة ملوك المغرب بني مرين .

إلّا أن المتتبّع للأحداث يلاحظ أن أحد الأسباب الرئيسية التي أثارت التدخّل المباشر لأبي عنان في النواحي الشرقية هو ، قبل كل شيء ، رغبته الملحّة في إخضاع الأعراب لسلطته ، والقضاء على عصيانهم وفسادهم وعبثهم بالسلطة ومصالح الرعايا ، وجميع أنواع التخريب التي كانوا يرتكبونها . فلقد شغلته هذه القضية شغلاً كبيراً ، واستأثرت باهتمامه أثناء الرحلة كلّها ، لذلك أولاها جميع طاقاته وكامل عنايته .

الرحلة

مراحلها:

نلاحظ أوّلاً أن الأمر يتعلّق برحلتين اثنتين : رحلة داخل المغرب الأقصى ، ورحلة إلى الشرق . رحلة من فاس إلى سلا والرجوع إليها ، ثم الرحلة من فاس إلى قسنطينة ، ثم إلى الزاب ، ثم الإياب . ويمكننا أن نلخص المسافات التي قطعت فيما يلي :

الذهاب :

1 ـ فاس	سلا	
2 ـ سلا	فاس	
3 ـ فاس	قسنطينة	
4 ـ قسنطينة	الزاب	
5 ـ الزاب	أفريقيا	

الإياب :

6 ـ أفريقيا	الزاب	
7 ـ الزاب	قسنطينة	
8 ـ قسنطينة	فاس	(الإياب عن طريق الصحراء) .

ومن المؤسف جداً أننا لا نتوفر في النص على تحديد زمني مضبوط لهذه المراحل والتنقّلات ، ذلك أن المؤلّف قليلاً ما أمدّنا بالتواريخ الضابطة ، وتركنا في أغلب الأحيان أمام فراغ خطير لا نستطيع سدّه إلّا بالاستنتاجات وتخمينات قد تكون بعيدة عن الحقيقة ، وهذا الفراغ يشكّل في حدّ ذاته ثغرة من الثغرات التي مسّت سلامة النص ـ وجعل الباحث يتخبّط في مشاكل من الصعب إيجاد حلّ ناجع لها .

ومهما يكن فإننا استطعنا ، بواسطة وثائق أخرى معاصرة ، أن نعوِّض ذلك النقص ، وأن نتعرّف بشيء من الدقّة على المراحل المهمة التي قطعها أبو عنان في ذكر حركته هذه .

وهكذا جرت أحداث كبيرة ومتنوعة تكتسي في بعض الأحيان أهمية قصوى بالنسبة لمؤرِّخ الحضارة المغربية أو الأدب أو السياسة بدون أن نعرف تاريخ وقوعها أو تاريخ صدور الأوامر التي أُعطيت بشأنها ، فلم يكن لدينا مثلاً أي فكرة عن المراحل التي قطعت بين طولقة ولميس وبسكرة ، وما هو الزمن الذي شغلته الحركة من الزاب إلى فاس مثلاً وحتى المسافة التي تفصل بين تازة وقسنطينة ظلت غائبة غامضة مع الأسف .

كل ما نعرفه هو أن أبا عنان كان مقيماً بقصره بفاس في شهر رجب من عام 757 هـ ، فمرض في نفس الشهر ، وانتكس فشفي من مرضه في شهر شوال سنة 757 هـ ، وأن الحركة قد بدأت في 20 جماديْ الأولى يوم الخميس 758 وأن أبا عنان خرج من المدينة البيضاء يوم الجمعة ثاني يوم الرحيل ، وأنه كان في الطريق 27 جماديْ الثانية 758 هـ ، وأنه وصل إلى المدينة يوم 29 جماديْ الثانية 758 هـ ـ وأن الأسطول وصل إلى تونس في آخر يوم من شعبان 758 [45]، وأن الركب توجّه إلى طولقة يوم رمضان 758، وأن أبا عنان دخل فرفر يوم 23 رمضان 758 ، وأنه دخل تقاوس يوم الأربعاء 28 رمضان 758 ، ثم مدّ وكال يوم 30 رمضان 758 ، ثم من جهة أخرى نجده يتجه إلى تقاوس يوم الإثنين 2 شوال فيخرج منها يوم الإثنين 9 شوال 758 ، ثم يصل إلى قسنطينة يوم الخميس 12 من الشهر المذكور[46] . وكان دخوله إلى فاس في غرّة ذي الحجة 758 هـ .

ملخص الرحلة وأبعادها :

نلاحظ أن أبا عنان قد خطّط للرحلة قبل القيام بها ، وأخذ العدّة اللازمة لتنفيذها ، إذ كان الهدف منها هو قسنطينة والزاب ـ لكنه غيّر هذا التخطيط أثناء الرحلة نفسها ، ووسع مشروعه الذي أصبح يتضمن حتى أوطان أفريقية (غير

أن هذا التغيير المفاجىء كان باقتراح من أعراب تلك الأوطان الذين اتّصلوا بأبي عنان وألحّوا عليه في الحركة إلى أفريقية ، فآستجاب لرغبتهم . ووجّه جيوشه لإخضاع هذه النواحي إلى سلطته ، وقد فعل ذلك لأسباب كثيرة منها أن والده أبا الحسن خسر معركة دارت رحاها بينه وبين أهل قيروان ، وهذه المعركة المشهورة ، ونتائجها كانت وخيمة بالنسبة للجيش المغربي . فكان من الضروري أن لا ينسى أبو عنان هذه الهزيمة الشنيعة .

وكان من الممكن أن تستمر هذه الرحلة وتطول لولا حدوث حوادث عجلت بالرجوع وجعلت أبا عنان يختصر المسافات ، ويلغي كثيراً من التنقلات ، ويتراجع عن بعض أهدافه ، ذلك أن عمر آبن أبي ميمون أبلغ الخليفة أن الوزير فارس بن ميمون آبن ودرار أراد الغدر به ، واتّفق مع رؤساء بني مرين على حبك المؤامرة هذه «وكان هذا الأمر مما رجح لديه (أي أبي عنان) الرجوع إلى الغرب ، وحمله ،،، » ، فشاع الخبر وذاع في أوساط الجيش ، ونتج عن ذلك تخوّف واضطراب أدّىٰ إلى سوء النيّة ومحاولة تفادي ما قد يحدث من فتن ومؤامرة .

وهكذا حل الركب المولوي بفاس بتمام السرعة الممكنة خوفاً من فوات الوقت ، فآتّخذ أبو عنان ما اتّخذه من إجراءات زجرية وقمعية ضد مدبري الفتن ، ومن حامت حولهم الشبهات والتهم .

أمّا العدّة فقد كانت متوفرة جداً ، وفّرها أبو عنان من الناحية النفسية والمعنوية ، جنّد جيوشاً كثيرة من مختلف الطبقات والدرجات والأجناس من مرتزقة وجنود رسميين ، وقبائل مستنفرة ، ، إلخ ، وقام بأعمال برٍّ وإحسان وغيرها في مجالات اجتماعية ، وسياسية ودينية متنوعة ، وأذاع في الناس أخباراً محمّسة ومتنوعة ، فهيّأ النفوس ، وعبّأ الأفكار ، وقوّىٰ الإرادات ، وشحذ الهمم ، ونهض بالعزائم ، واستطاع بذلك أن يكون على أتم الاستعداد لخوض المعركة خير دليل على ذلك هو ما قد اتخذه أبو عنان من إجراءات لفائدة الأسرى ، والمسجونين ، والمعوزين والمدينيين ، ومعاهدات الصلح

التي أبرمها لفائدة النصارى الراغبين في التعامل مع المغاربة .

والمؤلِّف هو الذي أطلعنا على هذه الاستعدادات والإجراءات المتّخذة قبل الشروع في الحركة الكبرى . وهي تعتبر كمقدمة موضوعية للرحلة البعيدة السعيدة ، كما تعتبر الرحلة الأولى الداخلية مكمّلة لهذه المقدمة .

1 ـ الرحلة الداخلية من فاس إلى الرباط ومن الرباط إلى فاس :

اتّخاذ إجراءات مختلفة كما أشرنا إلى ذلك الرحيل إلى الجنوب أي الرباط وسلا ، وفاة أخت السلطان أبي عنان . أبو عنان ينتقل إلى فاس لحضور مراسيم الجنازة ، زيارته لقبور والديه وأجداده . دخوله الزاوية التي بناها (زاوية النسّاك) . الرجوع إلى فاس في حفلٍ عظيم . دخوله الزاوية المتوكلية . تدشينه لهذه الزاوية ، تعيينه لموظفيها ، تجميعه واستعراضه للجيوش التي ستخوض معركة الفتح بضواحي فاس . إيفاده جزءاً كبيراً من هذه الجيوش تحت سلطة الوزير آبن ودرار الذي سبق أبا عنان إلى المعركة .

لا نعلم كم دامت هذه الرحلة الأولى كل ما هنالك أن المؤلّف بدأ الحديث عن أبي عنان قائلاً : إنه كان مقيماً في قصره في شهر رجب 757 ، وأن الرحلة الكبرى لم تبدأ إلاّ في ضحى يوم الخميس 20 جماديْ الأولى سنة 758 . ونعلم أيضاً أن هذه الرحلة الأولى شغلت من المخطوطة التي بين أيدينا أربعين ورقة أي الربع تقريباً .

2 ـ الرحلة الكبرىٰ :

بدايتها ضحىٰ يوم الخميس 20 جماديْ الأولى 758 هـ . تقدّمها يوم السبت 23 جماديْ الأولى من عام 758 هـ . وصول أبي عنان إلى تازة حيث تجمّعت الجيوش اللاحقة بالسابقة ، تقدّم الركب في 17 جماديْ الثانية وفي 19 من الشهر المذكور .

وصول أبي عنان إلى المدينة ، وفود ممثلين عن سكّان بجاية لتقديم

الطاعة ، نزول المحلّة ببني يمـل ، ذكر مجيء السيل . وصول الركاب العلي إلى ظاهر بجاية ودخوله إيّاها دخولاً رسمياً .

أبو عنان يقضي بميلة ثـلاثة أو أربعـة أيّام[47] وصـول الأسطول إلى بجاية[48] . أبو عنان يأمر بتوجيه المحلة نحو قسنطينة ، ، ، أبو عنان يصاب بمرض خطير[49] أبو عنان يتجه نحو قسنطينة ، أبو عنان يعطي الأوامر لبناء أبراج عالية تمهيداً لفتح قسنطينة . الوصول إلى قسنطينة[50] . معارضة سكّانها لسياسة الفتح . آبن الحاج يحرِّر كتاب الفتح ويرسله إلى جميع نواحي المغرب[51]، وهو الأمول من نوعه كمراسلة مولوية موجّهة إلى الشعب بهذه المناسبة السارة .

فتح بلد العنّاب . آبن الحاج يحرِّر رسالة ثانية بهذه المناسبة لإخبار الشعب بهذا الفتح الجديد . الاستعداد لفتح تونس ، بعد فتحها تقام حفلات عظيمة . آبن الحاج يتلقّى الأوامر المولوية لكتابة خطاب موجّه إلى الشعب ـ وهو الثالث من نوعه ـ يوم الخميس آخر يوم من شعبان . أبو عنان يستقبل الوفود من كل جهة لتقديم الطاعة . محاربة السواوقة[52] ، وقد استغرقت الذي استغرقته هذه المرحلة في المخطوط من 40 إلى 126 ورقة لكننا لا نعلم بالضبط الوقت .

الرحلة إلى الزاب[53] :

هذا هو الهدف الثاني الذي استهدفه أبو عنان من حركته السعيدة .

اهتمّ المؤلِّف بتاريخ بداية هذه المرحلة الثانية ، لكن الناسخ ، أو غيره ـ لم يستطع نقل هذا التاريخ ، فترك بياضاً تأسّفنا له شديد التأسّف ـ استعدادات خاصة ، تعبئة عامة . الرحيل من قسنطينة ، وقوع طوفان كبير الوصول إلى جبل أوراس جنوب بلاد الزاب . ذكر الوصول إلى بسكرة قاعدة بلاد الزاب . الرحيل إلى طولقة يوم 12 من شهر رمضان المعظّم أبو عنان يقضي يوم الجمعة 23 رمضان بمنزله بطولقة[54]. ذكر الرحيل إلى تقاوس وأوطانها يوم 28 من شهر رمضان 758 هـ. وقد توقفت الحركة عند طولقة ولم يستطع تجاوزها

والتوغّل في الصحاري[55]. دخول أبي عنان إلى قاوس يوم الأحد الثاني من شهر شوال 758.

الإياب من الرحلة الكبرىٰ إلى فاس :

ذكر القدوم على قسنطينة والإياب[56] . في يوم الإثنين التاسع شوال المذكور يتم الرحيل عن تقاوس والوصول إلى قسنطينة . وفي يوم السبت 12 شوال يتم الرحيل عن قسنطينة والاتجاه نحو المغرب الأقصىٰ عن طريق الصحراء مروراً بالمسيلة ـ الجبل المدارك لعياض ـ آبن الحاج يكلّف بتحرير كتاب يوجّه إلى الشعب لإخباره بالإياب . القدوم على تلمسان[82] الوصول إلى البيضاء[83] في غرة ذي الحجة سنة 758 هـ .

ومعنى هذا أن الإياب من قسنطينة إلى فاس قد دام شهراً وثمانية عشر يوماً . وهكذا تكون الرحلة قد دامت كلّها ثمانية أشهر .

نتائج الرحلة :

للرحلة نتائجها الحتمية الإيجابية والسلبية حسب الجهود المبذولة ، والأموال المصروفة ، والأسلحة المستخدمة ، والجيوش المعبّأة ، والمواقف المتّخذة ، والأحداث المتلاحقة ، والسياسة المتّبعة من لدن أبي عنان لخوض المعركة ، معركة الفتح ومعركة إخماد نار الفتنة ، وإصلاح شؤون الرعية ، وإقرار الهدوء والطمأنينة ، والغنائم المستخلصة ، والهزائم الملحقة بالخصوم وبالقوات المرابطة ، وبالخسائر التي مُني بها الجيش المريني في سائر أطوار الحركة .

إنها عملية تقييمية صعبة ، كما أسلفنا ، لا يمكن القيام بها بكامل الضبط والدقّة لأن مؤلّف الرحلة خضع ، في كتابتها ، لعوامل من شأنها أن تبعده عن التجرّد والموضوعية ، عوامل الخدمة وإرضاء إرادة حسنة موجّهة ، ونزعات موحية ومسيّرة ، ورغبات سلطة حاكمة أمرة مقيدة من المستحيل مخالفة أوامرها والخروج عن الخط الذي رسمته لسياستها وسلوكها . ثم هو ، قبل

ذلك وبعده ، لسان هذه السلطة المعبّر الخاص عن نتائج تحركاتها ، ونجاح أعمالها ، وإظهارها بالمظهر اللائق بها ، بفوزها ونصرها لا بفشلها وانهزامها ، ولا بسوء تدبيرها وسوء عاقبتها .

لهذه الأسباب وغيرها لا يمكن أن ننتظر من آبن الحاج سوى رواية مكيّفة مصوغة في قالب مهيّأ أحكمت صنعته ، وأحطيت جنباته بكامل الحيطة والتدبُّر ، والافتعال والتصنّع والتخيّر . ومع ذلك فالباحث قادر على استخلاص بعض النتائج الموضوعية من التصريحات الرسمية ، ومن ثنايا السطور المنسّقة ، ومن خلفيات الأحداث الموصوفة والمروية لمعرفة هل حقّقت الحركة السعيدة الأهداف التي رسمت لها في البداية ، أو تلك التي انضافت إليها أثناء المعركة؟

اعتباراً لما ذكر يمكن القول أن الحركة قد نجحت نجاحاً تاماً في تحقيق الأهداف العاجلة وهي فتح قسنطينة ، بل وتونس وعنابة وإخضاع بلاد الزاب . ثم لا ننسى بهذه المناسبة ما فعله الشيخ أبو عبد اللّه بن سلمة الأندلسي عندما أوصل «بيعة أهل قابس ، وبيعة أهل طرابلس ، وبيعة أهل قرقمة» . وآبن الحاج نفسه يفتخر بهذه الفتوحات قائلاً : «لا جرم أنه لم يسمع في هذه الأزمان بملك وطيء بلاد الزاب بجيوشه وجنوده»[57] . فالنتائج المتوصل إليها في الميدان العسكري[58] ـ والميدان السياسي نتائج إيجابية لا يمكن إنكارها . فكثيرة هي الوفود ، الممثّلة لسكان هذه النواحي وغيرها ، التي جاءت تطلب العفو خاضعة ، نادمة على ما صدر منها في أيّام سالفة . فرفعت الألوية والبنود المرينية على بروج قسنطينة وغيرها من البلدان التي كانت إلى زمن غير بعيدة عاصية معارضة محاربة . وقرعت الطبول ، وأقيمت الحفلات ، وتحقّق الدخول الرسمي لهذه البلاد ، وصدرت أوامر بالعفو الشامل ، وتعليمات تامة بإعادة تنظيم الأجهزة القائمة ، وتصحيح الأوضاع الفاسدة ، وتقويم آعوجاج بعض ممثلي السلطة المنهارة ، ونشر سبل الدعة والطمأنينة ـ وتحقيق إصلاحات اجتماعية واقتصادية[59] . فأصبح أبو عنان ، والحالة هذه ، هو الملك الواحد لسائر تلك الأوطان ، والموحد لكلمة المسلمين ، وجامع

شملهم تحت سلطته المنتشرة على ربوع أقطار المغرب الإسلامي كما فعل والده أبو الحسن ، وكما فعل قبلهما عبد المؤمن الموحدي .

هذا الفوز العظيم ، وهذا النصر المبين الذي تحقّق للمغاربة إنما يعود أساساً إلى أبي عنان ، بفضل شجاعته وإقدامه ، وحسن تدبيره ، وسياسته ، وبفضل ثقافته ـ ومهارته ، ومعرفته لكيفية التعامل مع خصومه وأنصاره ، وإدراكه لأسرارهم ومقاصدهم ، واستمالتهم بدهائه وعفوه ، وجبر خواطرهم بتحقيق مآربهم في الوقت المناسب ، والاستجابة الفورية لمطامحهم .

أما الذين ثاروا ضد السلطة الحاكمة فقد عوقبوا أو سجنوا أو نقلوا إلى حضرة فاس مقر الخلافة المرينية : «وقرّ قرارهم بحضرة الملك الذي تشرّفت الملوك برسم بساطه ، وسكنوا الديار التي تتوق إليها الأبصار ، والمنازل التي حازت وصف الجنة فطرقها تجري من تحتها الأنهار ، ونعموا بالأزهار اليانعة ، والأغصان المائسة ، ورأوا عيوناً تجري في الربوع الآنسة»[60] . فكان لهذه العملية التي اتّخذها أبو عنان كوسيلة لقمع الطغاة الفاسدين ، والعصاة المخربين ، نتائجها الحسنة . منها : إبعاد عناصر الفتنة وفصلها عن باقي الطبقات الاجتماعية المتشبثة بالنظام والطمأنينة ـ ومنها ترقية مستوى هؤلاء الأعراب المغترين بنقلهم من البداوة التي كانوا فيها متوغلين . والفضل في ذلك راجع أيضاً إلى الجهود الجبارة التي بذلها في الميدان الحربي حيث وظف قوات هائلة حربية وبحرية لم يسبق له أن استعملها في معركة أخرى ، قوات ثقيلة مخيفة مرعبة ذهل لها الخصم في كل مكان ، في إسبانيا النصرانية ، وفي تونس وقسنطينة ، وفي كل بلاد دخلها أو اقترب منها . أسطوله كان من أعظم الأساطيل الغربية ، وجيشه أيضاً كان أقوىٰ جيش عدداً وتنظيماً عرفته الدول الإسلامية في المغرب العربي ، ضم السائف ، والنابل ، والرامح ، والعدوي ، والوصيف ـ والمستعمل للمنجنيق وغيرها من الأدوات الثقيلة الفاتكة ، والراجل ، والفارس ، والجندي ، والمتطوع ، والمرتزق ـ ورجل القبيلة ، وصاحب المعول ، وصاحب الفأس ، والقارع للطبول ، والناشر للبنود والألوية ، ، ، إلخ .

يكفيك برهاناً على ذلك أن كثيراً ممن سمعوا بهذا الجيش والقوات المصاحبة له قد تراجعوا عن خطّتهم في المعارضة ، وعدلوا عن عمليات المواجهة ، وأيقنوا بالانهزام المحقّق قبل وقوع الواقعة ، واستسلموا ، وطلبوا الأمان نجاة بأنفسهم ومحافظة على سلامة رغبتهم ، فقدموا أنفسهم فدية ودخلوا تحت طاعة السلطة الجديدة المحاصرة ، وتركوا بلادهم راضية خاضعة . وأكبر حجة على ذلك هو ما فعله الأمير صاحب قسنطينة الذي فضل المهادنة على المواجهة ، وسلم مفاتيح بلاده للجيوش الفاتحة .

لكن ليس معنى هذا أن تدخّل أبي عنان لم يرَ أي معارضة ولم يلقَ أي مقاومة في جميع الظروف والأمكنة حتى في بعض المدن التي ظلت حيناً من الدهر هادئة مطمئنة كقسنطينة نفسها التي شهدت اضطرابات لا يمكن الاستهانة بها[61] ، اضطرابات أحدثها السكان أنفسهم تعبيراً عن احتجاجهم ومعارضتهم للقوىٰ الفاتحة ، منهم من هرب من المحلة المنصورة ، ومنهم من أوقد نار الفتنة ، ومنهم من تولّىٰ الزعامة كالشيخ خلف الذي تحوّل من مؤيّد مشايع إلى معارض معاند[62] وغيره .

إلّا أن المعارضة القوية العنيفة المستمرة لم تظهر إلّا على يد الأعراب ومناصريهم في كل مكان من الصحراء القاحلة في بلاد الزاب ، وفي أفريقية حيث جنّدت جنود كثيرة ، وقامت معارك طاحنة دائمة اقتضت تعبئة قوات مختلفة ، واستخدام أسلحة متنوعة كثيفة ، وبذل جهود مضنية نظراً للأحوال الطقسية القاسية ، الجفاف ، والحرارة المحرقة ، والعطش المميت ، وانعدام وسائل التمريض والتغذية ، ووعرة المسالك ، وطول المسافات وتعذّر الصمود أمام شتىٰ أنواع العقبات والأخطار الناتجة عن تتبع قبائل الأعراب الذين فروا من خط المواجهة ، وتوغلوا في أطراف الصحراء الشاسعة ، وتفرقوا طولاً وعرضاً وشمالاً وجنوباً ، لكن ليلتئموا ويوحدوا صفوفهم ضد القوات الفاتحة ، والتحوّل إلى قوة واحدة ، صامدة ، قادرة على ارتكاب ما ارتكبته من أعمال فاسدة ، وبث الفوضىٰ والفساد ، وتأليب السكّان ضد السلطة المرينية .

فاقتضى ذلك كلّه من أبي عنان جهوداً جبارة منهكة واستنزافية ذهب ضحيتها عدد لا يحصىٰ من الجنود المجنّدة ، والمرتزقة ـ والمتطوعة . فكانت وبالاً على الجيش المريني الذي فقد فيها عدداً كبيراً من أسلحته ورجالاته ، وقواده بالإضافة إلى الأموال الضائعة ، وخسائر أخرى مادية ومعنوية . فلقد دبّ إلى النفوس الكلل والملل ، وسيطر عليها الضجر والخلل ، واستحوذ عليها الخوف والفزع والتشاؤم وعييت في الأمر وفقدت الهداية وتمنت أن لو كانت في أمن من هذه الحركة التي أصابتها في الصميم ، ورجعت إلى مقرّها البلد الأمين .

ورغم ذلك كلّه فقد تمادى أبو عنان في تتبّعه لأثر الأعراب[63] ، ولم يتراجع عن خطته مضحياً بالنفس والنفيس ، ومقتحماً الأهوال والأخطار ، وصامداً في وجه كل ذي قوة جبار إلى أن دقّت ساعة الخطر وكاد جيشه أن يُصاب كلّه بالخلل ويلوذ بالفرار ، وخاف على نفسه من الموت في تلك المفاوز والقفار ـ وعلى عرشه في الداخل من الانهيار ، وسوء تدبير وزرائه ، وكيد حاشيته وخدّامه ، فنادىٰ بالاستنفار والرجوع فوراً إلى مقر الخلافة لاتخاذ التدابير اللازمة . ذلك أن الحاجب عمر بن ميمون «أبلغ الخليفة أن الوزير آبن ودرار عوّل على غدر الخليفة (، ، ،) وأنه تحدّث في ذلك مع عمدة شيوخ بني مرين (، ، ،) وأنه ما بقي الآن إلاّ أن يرتكبوها شنعاء (، ، ،) وكان هذا الأمر مما رجح لديه الرجوع إلى الغرب ، وحمل في التغير على طهرائه ونصائحه على ارتكاب المركب الصعب . فشاع ذلك تلك الليلة في المحلاّت المنصورة التي سئمت من قطع المراحل ، وإنضاء الرواحل ، وصدع الفلوات والمجاهل ، وسرّ الناس ذلك اليوم سروراً تهادته الأرواح!»[64] .

وبالفعل سارع الركب إلى الرجوع ، «فأتىٰ الأمر الذي عظمت به الهواجس ، وفجع بفارس الذي لم تلد مثله الروم ولا فارس . وتضعضعت للفضائل أرشح أركان ، وأصبح المجد ضماناً بعد أبي زيان . فعجبنا من زمان بدل العز بهون ـ وأتىٰ بأنواع من العجائب وفنون ، فلم ينج فارس من فارس ولا آبن ميمون من آبن ميمون»[39] .

وهكذا تنتهي الرحلة الموفقة بهذه النهاية المفاجئة المؤلمة بعد انتصارات عظيمة وتضحيات جسيمة في ميادين مختلفة تكبّد فيها الجيش المغربي خسائر فادحة مادية ومعنوية خسائر في الأموال والأرواح نتجت عن المعارك القاسية ، والسيول الجارفة[65] التي كادت أن تقضي على المحلة المنصورة ، وذهبت بكثير من الصناديق المملوءة ذهباً وفضّة ، فضلاً عن أعمال محو الرسوم الأثرية المتجسمة في كثير من الحصون والقصور البديعة التي كانت إما مساكن أو مآوي للأعراب الهاربة ، والتي أمر الخليفة بهدمها مشرفاً بنفسه على محو أثرها لكي لا تبقى عدة للعابثين المفسدين الفارّين من العدالة ، والماسّين بوحدة المسلمين . وهي قصور نادرة ، وحصون حصينة بديعة ، قصر عثمان بن علي الرياح[66] ، وحصن لميس[67] ، وقصر باينة[68] ، ثم قصر يعقوب بن علي[69] ، والحصن الجديد[70] ، وحصن فلق[71] .

بعض الثغرات :

من الملاحظ أن آبن الحاج كثيراً ما يلجأ إلى الاختصار والاختزال والاكتفاء بما حضره وكثيراً ما يذكر بأحداث وقعت مشيراً إلى أهميّتها فقط وكثيراً ما يعد بالرجوع إلى الموضوع الذي هو بصدده ليعطي التفاصيل الضرورية من بعد وقد يفي بوعده وقد لا يفي لأسباب نجهلها . والأمثلة التالية تعطينا فكرة واضحة عن هذا السلوك المقصود أو العفوي .

لقد تحدّث عن الأعراب العصاة[72] واعداً بالرجوع إليهم لذكر العقوبات التي ألحقت بهم فترك القارىء في حيرة وانتظار ، ولدى حديثه عن طولقة التزم الصمت متعمداً[73] ، وقال إن الشروح ستأتي في الوقت المناسب فوفى بوعده هذه المرة . ولقد وعد أيضاً في ورقة 116 بتزويد القارىء بتفاصيل كثيرة عن أخلاق أبي عنان وسلوكه وذلك في مناسبة أخرى مقبلة وما أظنّه فعل والسبب في ذلك راجع لنسيان أو لتزاحم الأحداث وقِسْ على ذلك مواقف أخرى لا سبيل لذكرها هنا .

وقد يلاحظ أيضاً أن الصمت الذي يلتزمه في بعض المواضيع صمت

متعمّد من ذلك الحديث الذي راج بين أبي عنان والشيخ آبن عاشر وهو حديث ذو أهميّة قصوى نعلم بعض تفاصيله عن طريق مصادر أخرى[74] .

ثم لماذا نراه لم يذكر أي شيء يتعلّق بالمدة التي قضاها أبو عنان بسلا وهي مدة لا تقل عن شهر؟ ولماذا اختزل الأحداث التي جرت ما بين يوم الخميس إلى يوم السبت وهو اليوم الذي انطلقت فيه الرحلة[75]؟

وقد يلتمس لذلك الأعذار معلِّلاً اختصاره بكثرة الأشغال أو بالنسيان فنكون حينئذٍ على بيِّنة من الأمر ونقبل العذر المبسوط ونشاطره تأسّفه وألمه . وهكذا يطلعنا على بعض الظروف التي لم يستطع فيها الوفاء بوعده أو إيفاء الموضوع حقّه فينقل لنا نقلاً تاماً ما شاهده أو سمعه أو ما قرأه :

«ورفعوا قصائد هي أبدع من نواضر الأزهار ونواظر العرب الأبكار إلاّ أني شغلت عن استيفاء جمعها ، وشغلتني الخدم عن صون فرائد منها بعد رفعها ، وامتدّت يد بعض الخواص التي تناولت نورها (، ، ،) وكان ذلك منسوباً لظلم الليالي وجورها ومما حضرني الآن القصائد التي أودعتها حرز الصون[76] .

وهو يشير هنا إلى ظروف فتح قسنطينة وما قيل في المدح بشأنها ويتأسّف شديد التأسّف لعدم استطاعته تضمين رحلته جميع القصائد والأبيات التي نظمت بهذه المناسبة ورفعت إلى الملك أبي عنان . وإذا كان هنا قد علّل الاختصار وبرّره بكثرة الأشغال فإنه في مواضع أخرى علّله بخيانة الذاكرة وعدم قدرته على اختزان جميع المعلومات المتعلّقة بالمباراة الشعرية التي ساهم فيها أبو عنان نفسه لدى حديثه عن كتاب الأغاني[77] .

وبالإضافة إلى ذلك كلّه فإن القارىء المتتبّع لجميع ما جاء في الرحلة من أخبار وأوصاف يجد لا محالة نوعاً من الاضطراب والارتباك في سرد الأحداث وحرية مطلقة في الترتيب والتبويب واتباع منهج تسلسلي يتقيّد به المؤلّف ويلتزمه منذ البداية إلى النهاية ذلك ما أخلّ في كثير من الفصول بالتوازن والنظام ، وجعل القارىء يلمس كثيراً من التكرار والتردد والتقديم والتأخير

دون ما مبرر واضح . وحديثه عن الجيش وعن مكوناته أكبر دليل على سوء تصرّفه[78]في هذه الناحية المتعلقة بحسن الترتيب والعناية بالتنقيح والتهذيب وسائر ظواهر الأسلوب الشكلي ، فمرة أخرى من يتحمّل مسؤولية هذه الهفوات؟ هل المؤلِّف نفسه أو آبن أخيه الذي تناول الرحلة «بالجمع والتنسيق»؟

عنصر الوصف في الرحلة :

قد أشرنا في دراسة سابقة إلى المكانة التي يحتلّها الوصف في الرحلات التي أُلّفت في عصر بني مرين[79] ، وقلنا أن مؤلّفيها اهتمّوا بوصف المسالك والممالك ، والمشاهد والمآثر ، والمعالم والحفلات والمناسبات الخاصة ، والأعياد ، والتقاليد والعادات ، والمناظر الطبيعية وغير ذلك مما يدخل في إطار تجوّلهم ، ويقع تحت سمعهم وأبصارهم . كل حسب تكوينه ومقاصده وعاداته وطبعه ، ، ، إلخ .

ومعنى ذلك أنهم تفاوتوا في هذا الميدان رغم اشتراكهم في عناصره الأساسية : منهم من جعل الوصف غايته ، ومنهم من اتّخذه سبيلاً لتحقيق مطامح أخرى حدّدت أهدافه ، ومنهم من جعله في مرحلة ثانية . فلم يكن آبن الحاج ليشذّ عن هذه القاعدة رغم كونه مكلّفاً بمهمة رسمية ، ورغم كونه لم يخل بنفسه إلاّ في ظروف استثنائية .

فالوصف يعتبر من أهم العناصر التي طغت على أسلوبه ، وميّزت كتابته ، وحدّدت شخصيته . وهو يتناول الخبر وينقله ويصفه في الإطار المحيط به .

بل لسنا مُبَالِغِين إذا اعتبرناه المادة الأساسية التي تتكون منها بضاعته بالإضافة إلى المادة الخام التي هي «الفعل» ، فالفعل والنعت إذن هما دعامته وبيت القصيد الذي ظل ينشده همّه الأول وشغله الشاغل هو تتبع الحركة الدائبة ، حركة أبي عنان أثناء الرحلة الميمونة ، ما يقوم به من أفعال وما ينجزه من أعمال وما يصنعه من أحداث ، وما يثيره من ردود فعل في جميع الظروف

والبيئات . هذه الحركة المتجسمة في الفعل الماضي والحاضر ، بل وحتى المستقبل هي المقصودة بالذات في الرحلة ، هذه الحركة المتدفّقة السائلة والجارية التي تطبع بطابع الإيجابية لا السلبية وتتخذ شكل المبادرة والحيوية المستمرة المتجلية في الإجراءات والانتصارات والمسارعة إلى خوض المعارك ، وتثبيت الأقدام ، واحتلال الأجواء ، وسدّ الفراغ ، والتسابق إلى الميدان والاستقلال به قبل فوات الأوان ، ، ، .

إن ما يهم آبن الحاج في هذا المضمار هو تسجيل كل خطوة إيجابية ، وإبراز كل مرحلة تقديمية ، وتجسيم كل مبادرة ناجحة ، ولا يهمّه أن يبرز المواقف الانهزامية والمواضيع الارتيابية . إلّا أن هذا «الفعل الفعّال» الذي يترجم النشاط الجبّار ليبقى منحصراً في دائرة ضيِّقة لا يعرف أبعادها القارىء إلّا إذا أضيف إلى الفعل «النعت» وأصبح كل خبر مروي موصوفاً محدّداً ومتميزاً وداخلاً في إطار يحدد مراميه وأبعاده ، ويجسم آثاره ويبين خطوطه ومسالكه ، وأخطاره ، ويجعل الباحث يقدر جسامته ويقيم نتائجه . «فالفعل» الصادر عن الرئيس المدبر ليس فعلاً مجرّداً داخلياً باطنياً . إنه فعل فعّال كما قلنا ينطبق على الأشخاص والأشياء والحيوانات والنبات ، وتتميز به نجاعته وإيجابيته العميقة المنتشرة الواسعة لا المنحصرة المحدودة . لذلك نرى آبن الحاج يربط بين العنصرين المتلازمين، فهو حين يخبر ويروي يُعْنَىٰ أشدّ العناية بوصف الظروف والملابسات والقرائن والمؤشرات التي تجعل الحدث يتخذ أبعاداً واسعة مثيرة منشطة ومحسمة تنقل القارىء من مستوى عالم المجردات إلى عالم المحسوسات المدركة بالعين والأذن والصور الذهنية ووسائل أخرى تثير الإحساسات وتوقظ الانفعالات ، وتبعث الغرائز وتشد النفس إلى ميدان الوجدانيات فيجعل القارىء يدرك ويفكر ويتخيّل ، ويتصور ، فيعبر عن الحدث بوجدانه ، بعقله ومخيلته وعاطفته وإرادته ، وينفعل فيقع التجاوب الكلّي وتكمل التجربة . لذلك ترى آبن الحاج لاجئاً إلى عدة وسائل لتحقيق هذه التجربة الكاملة التي تجعل القارىء ، كما أسلفنا ، متجاوباً متعاطفاً مع الأخبار المروية . وهكذا تراه مهتماً أشد الاهتمام بالمرئيات والمسموعات من

أصوات ، وحيوانات ، ونباتات ، وأشياء أخرى ، فيضفي عليها من نفسه ويبث فيها من روحه وعاطفته ، ويجعلها حيّة ترزق ، وتتحرّك وتخاطب العين والأذن وتتطوّر وتموت وتحيىٰ كسائر البشر .

وهذه العملية «الإحيائية» ليست من ابتكاره ، ولا من إبداعه ، فقد لجأ إليها الشعراء وكتّاب النثر الفنّي وهو من هؤلاء وأولئك فلا غرابة أن يأتي بما أتىٰ به القدماء والمحدثون ، ويسير على هدي كثير ممن سبقوه وسجّلوا في هذا الميدان مآثرهم وبيّنوا قدرتهم وكفاءتهم كما سنرى ذلك في موضع آخر .

والقارىء لرحلته هذه واجد فيها ، ولا شك ، أوصافاً كثيرة ومختلفة لعوالم متنوعة يأخذ عنها فكرة كافية . ومع ذلك فلقد رأينا من الضروري أن نسوق بعض الأمثلة تعميماً للفائدة .

لقد وصف لنا الناعورات : الناعورة العظمىٰ ، والناعورتين الجديدتين ، والناعورات الثلاث المعطلة . ووصف المصارة[80] ووصف البغال الإسبانية (20 أ) والأوقات المخصّصة للصيد والراحة ، ووصف قبة شالة والمدرسة والزاوية الكائنتين بها[81] ، ووصف الزاوية العظمى[82] ، والحفل المقام بمناسبة تدشينها ، والبساتين المحيطة بها ، ووصف الهوادج ـ (45 أ) والحوادث الطبيعية الطارئة كالرياح العاصفة ، والأمطار الطوفانية الخطيرة التي كادت تقضي على أفراق السعيد[83] ، ووصف الموكب الملكي عند خروجه ، ووصف أفراق السعيد ، والأسطول المتوجّه إلى قسنطينة ، والحوادث الطبيعية الثانية التي أصابت أفراق ، ووصف الدخول إلى قسنطينة وتونس ، ووصف القصور والحصون المخربة والمهدمة والواحات المحيطة بها ـ والأعمال التي جرت للقضاء عليها[84] وعلى من حل بها ، ثم وصف في النهاية مراسيم الإياب ، والحلول بالحضرة السعيدة .

ولقد تفاوت وصفه من حيث الطول والقيمة ، وهكذا أخذ وصف الزاوية المتوكلية حصة الأسد فكان وصفاً طويلاً ودقيقاً تناول الجزئيات والكليات والعناصر البسيطة والعناصر المركبة ، والأهداف والأسباب ، فأفاض في ذلك

آبن الحاج وأجاد ، وأبدع وأتقن ، وتصنّع وتفنّن ، فكان نثره نموذجاً من النثر الفني في هذا القرن .

وهكذا أيضاً لم تنلْ الزاوية الكائنة بشالة إلاّ حظّاً ضئيلاً لا نستطيع تعليله وتبريره . أما القصور والحصون المخرّبة فقد وصفت هي الأخرى وصفاً لا يقل أهمية : خاصة قصر يعقوب بن علي وقصر الرياحي ، وقصر آبن تافرجين ، وما كان آبن الحاج ليهتم بها لولا أنها ملاجيء القبائل العاتية ، فانشغل بها ليبيّن جسامة النكبة وخطورة الفداحة التي حلّت بأصحابها ذوي النيّة السيئة (كما ذكرنا) .

أما حديثه عن أفراق وبيانه لمكوناته ومقوماته وأجزائه الأمامية والخلفية ومرافقه العمرانية وأبوابه ونوافذه وشرفاته وقببه وممراته وحدائقه إلخ ـ فقد كان حديثاً طويلاً ومعقداً غلبت عليه الصنعة الفنية والتعقيد الذي تجلّىٰ في صقل العبارة وتزويقها وتنميتها ونظمها في عقد يطول أو يقصر حسب حركة المؤلِّف مما أدّىٰ به إلى غموض والتباس دون فهم المقصود وتصوّر البنية بكامل أجزائها بمقدمتها ونهايتها بكامل الصراحة والوضوح لذلك كان لا بد من بذل مجهود خالص ، فكري وأدبي لحل العقدة وإعادة تركيب البنية بعد إدراك عناصرها وترتيب هذه العناصر داخل الكل .

ولم يقتصر وصف آبن الحاج على المعالم الأثرية ومظاهر البناء والعمارة وما يرتبط بها ، فقد تعدّاه إلى مظاهر حضارية أخرى كالناعورة العظمىٰ التي استأثرت باهتمامه وجعلته ينشغل بها مدة طويلة لم يسعه في نهايتها إلاّ أن يعتذر للقارىء عن الإطالة التي ارتكبها والناتجة حسب تصريحه عن جموح القلم والمخيلة .

وكالأسطول الذي استبد هو أيضاً بالقلم ونال من عناية المؤلّف قسطاً وافراً تجلّت فيه قدرته على معرفة هذا الميدان معرفة دقيقة وعلى رسم لوحة فنية أقحم فيها جميع أنواع المراكب فأتقن أسماءها وبيّن أصنافها وذكر الوظيفة التي تؤدِّيها كل منها إلخ ، فهي كالعرائس الراقصة الزاهية المختالة في مشيها

المتعرضة لمطاردة المياه الجارية والأمواج المتلاطمة .

ويزيد القارىء إعجاباً بالوصف الذي خصّصه الفنان للجمال والخيل والبغال فكان في هذه الناحية أيضاً رسّاماً مطبوعقا أهّلته ثقافته الأدبية واللغوية لوصف الحوافر والقوادم والرؤوس والأذناب والأذان مع ذكر أسمائها المتعددة والتي تفصل بينها مما يذكرنا بمهارة شعراء الملاحم[85] والمعارك الحامية الذين يتتبعون تحركات الجيش داخل ميدان الوغىٰ وينقلون إلينا تلك اللوحات المقتبسة نقلاً يجعلنا نعيش التجربة المقصودة .

الناحية السياسيّة

اتصف أبو عنان المريني بكثير من الحزم والذكاء والشجاعة والدهاء في سياسته الداخلية والخارجية ، فاستطاع أن يخمد كثيراً من الثورات والفتن الداخلية ، والمناوشات الخارجية الصادرة عن الدول المسيحية التي أقنعها بصواب رأيه ، وبشدة بأسه ، وتفوق جيشه ، ووفرة أسلحته ، فسارع كثير من ملوكهم إلى مخاطبة ودّه ، وكسب عطفه ، وعقد اتفاقيات صلح معه ، فكان هو في موقف المهاجم وكانوا هم في موقف المدافع عن نفسه الراغب في استمالة جاره ضماناً لاستقرار أمنه ونمو اقتصاده وتجارته ، والاطمئنان إلى نجاح هذه السياسة ، واستطاع بعد ذلك أن يولي وجهه شطر الشرق لاستعادة الوحدة التي حقّقها والده ، فقام بالحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب . ويتعلّق الأمر كما هو معلوم بتوحيد كلمة الغرب الإسلامي تحت راية واحدة ، وذلك بإخضاع المغرب الأوسط والمغرب الأدنىٰ لحكمه ، أي ما يسمى اليوم بالجزائر وتونس ، فبذل جهوداً عظيمة معنوية ومادية ، ووظف قوات هائلة برية وبحرية للوصول إلى غايته . فأحرز بذلك نصراً عظيماً وحقّق مكاسب كثيرة كما اصطدم ـ كذلك ـ بعقبات شتىٰ وخسر مواجهات عديدة .

وأهم عقبة واجهته في أداء رسالته هذه أثناء رحلته كلها هي المعارضة الشديدة التي لقيها على يد أعراب أفريقية وأعراب الزاب بمختلف قبائلهم وبطونهم ، وشعوبهم وبطونهم بحيث يمكن أن نؤكّد في غير مبالغة أن المشكل الوحيد الذي سيطر على جميع المشاكل في هذه الرحلة هو مشكل الأعراب الذي شغل أبا عنان ، واستأثر باهتمامه وجميع قدراته وإمكاناته وجهوده ، واستنزف سائر مدخراته ، فكان شغله الشاغل والغاية القصوى التي كان ينشدها في كل وقت وحين ، والهدف القريب والبعيد الذي ظل يعمل على تحقيقه ليل نهار . فلم يكن الحل سهلاً ولا سريعاً ، ولم تجد فيه الوسائل

المستعملة ، ولم تنفع فيه الحيل المدبّرة ، فلا العنف ساعد على حلّه ، ولا الحلم خفّف من وطأته ، فبقيت حالة العرب كما كانت عليه .

رغم الانتصارات المتوالية والفتوحات المتكررة ، والقضاء على الثورات المحلية والفتن المتجددة وكثرة الوفود القادمة من كل ناحية لتقديم فروض الولاء والطاعة ، ومطالبة الملك بقبول الهدايا وتجديد عقود البيعة كدليل على الإخلاص والتشيّع للدولة المرينية الحاكمة .

ويحق لنا أن نتساءل عن الأسباب التي جعلت أبا عنان يقف من الأعراب هذا الموقف ويكون لهم بالمرصاد في كل زمان وفي كل مكان ويحاربهم أينما حلّوا وارتحلوا مقتفياً آثارهم عبر المفاوز والصحاري للقضاء على رؤسائهم وقطع دابر مشعلي الفتنة في قبائلهم؟

ذلك أنهم عاثوا في الأرض فساداً ، وأوقدوا نار الفتنة ، وحرضوا على العصيان وشق عصا الطاعة ، فخربوا البيوت ، ودمّروا الدور ، وزرعوا الفوضىٰ ـ وأشاعوا البلبلة ، وأذاعوا الأخبار الخاطئة ، ونشروا الرعب بين الطبقات الأمية ، وأرهقوا القبائل المجاورة بفرض الخفارات ، وأنواع أخرى من الجبايات الثقيلة . فَسَادَ الفساد ، وانعدم الأمن وصاح الناس هل من مغيث؟ فكان لا بد والحالة هذه أن تقوم السلطة القائمة بوضع حد لهذه الحالة المزرية لإعادة الطمأنينة ، وضمان الاستقرار وسُبُل العيش لسائر الطبقات الاجتماعية ، فجنّد أبو عنان كما أسلفنا كل ما كان يملك من قوة وطاقة ، وكل ما كان يتوفر عليه من جيوش ، وأسلحة لحل هذا المشكل ، مشكل الأعراب الذين تحدث عنهم آبن خلدون ، وهو شاهد عيان ، وأطنب في تفصيله ، وبالغ في بيان خطورة نتائجه ، وقال الكثير عن عواقبه ناسباً لهؤلاء الأعراب كل رذيلة ، جاعلاً منهم مصدر كل خراب وكل دمار ، ويئس من كل خير يأتي على أيديهم .

حقّاً ، إن أبا عنان لم يكن منشغلاً بمشكل الأعراب وحده ، ولم يقصر جهوده على هذه الجبهة ، ذلك أن جبهة ثانية تطلّبت منه أيضاً كثيراً من العناية

والتضحية وهي جبهة فتح قسنطينة وعنابة وتونس ، وأوطان أفريقية ، جيش في البر وجيش في البحر يتعاونان ويتعاضدان لتحقيق النصر . ولم تكن هذه الفتوح يسيرة سهلة ، بدون أدنىٰ معارضة ، ولا بذل كثير من الأموال والعتاد والنفوس البشرية . كلا ، إن الباحث ، كما أسلفنا في غير هذا المكان ليجد خسائر كان لها ما بعدها . ولكن الأزمة لم تـدم طويـلاً رغم المعارضـة الشديدة ، وهكذا نرىٰ أمير قسنطينة يستعظم الخسائر النازلة بجيشه ، فيعرض على أهل قسنطينة اللجوء إلى الطاعة[86] فيتقبّلون ذلك ويتفاوض معه الوزير آبن ودرار «حتى سمع كلامه وحاصلة الإقرار باللامة والإعلان عن التوبة ، والدعاء لعلّام الغيوب»[87] فيحظىٰ بالعفو ، ويرسل ، في الحين ، أخاه الفضل ليقرّ العبودية فيقبّل الأرض وبعد ذلك «يخرج الأمير أبو العبّاس ومعه أهل قسنطينة على اختلاف مراتبهم وتفاوت مناصبهم لطلب العفو والأمان ، فيحظىٰ كل منهم بما رغب فيه فيسعفه مولانا الإمام ويقبِّل الأرض مرة أخرى ، ،»[88] والملاحظ أن عقود البيعة تتجدّد بطلب من المبايعين ، لأمن أبي عنان إذ كانت هذه العقود بمثابة ضمان وأمان .

ذلك مثال من الأمثلة العديدة التي تدل على أن أهل المدن والقرىٰ المفتوحة سرعان ما يدخلون في الطاعة ويعلنون التوبة ويندمجون ضمن الرعية التي تتمتع بالهناء والأمن والطمأنينة .

أما الأعراب فقد ظلّوا متمردين ثائرين نـاقمين ، حاقـدين متنقلين ، مخادعين معاندين ، جاحدين غير مبالين بما يلحقهم ولا راضين بما يبذل بقصد إرضائهم وجبر خواطرهم واستمالتهم وإرجاعهم إلى الصواب ليعيشوا مع غيرهم آمنين ، مطمئنين ، ولقد استغل أبو عنان بالفعل جميع الوسائل الكفيلة بإقناعهم وتفنن في خلق الحيل لإرشادهم وصـرفهم عن غيّهم ، فكان ، تارة عنيفاً ، قوياً ، شديد العقاب ، وتارة ، أخرى حليماً صابـراً متسامحاً ، باذلاً كل أنواع العطايا والهدايا من خلع وجرايات ، وإقرار عادات وتعيينات وترقيات ولكنه ، رغم ذلك كلّه ، لم يفلح فبقي المشكل مطروحاً عويصاً مزمناً .

فكّر أبو عنان في حيلة أخرى ، ودبّرها تدبيراً ، وشرع في تطبيقها ، رغم خطورتها ، وما ينشأ عنها من أحقاد وضغائن وردود فعل نفسية واجتماعية عساه ، في الأخير ، يجد حلاً ناجعاً لضمان انضباط وسلامة الأعراب وطاعتهم ، والقضاء على فتنهم وتصرفاتهم وفسادهم ، فطالبهم بإحضار رهائنهم من أولادهم أو من إخوانهم أو من أقاربهم ، تقدم الرهينة وتبقى في يد السلطة كضمان لاخلاصهم ووفائهم لأنهم كثيراً ما أعلنوا الطاعة والإخلاص وآنقلبوا ذات يومهم ناقضين العهد ناكثين متحالفين مع الخونة المارقين ، معلنين الحرب .

فمنهم من قدم ابنه ، ومنهم من قدّم أخاه ، ومنهم من قدّم أولاده كلهم للارتهان ملتمساً بذلك عفو الخلافة كعثمان بن يوسف الذي جاء إلى أبي عنان بجميع أبنائه فردّهم عليه باستثناء واحد منهم ارتاب في أمره[89]ت فقاده مع غيره إلى حيث تحشر الرهائن وتحبس وتُصان وتفصل عن أهلها لحملهم على الانقياد والثبات على العهد .

والحقيقة أن سياسة الرهائن هذه ، كان لها أثرها الإيجابي ومفعولها القوي ونتائجها السريعة الآنية ، إذ جعلت كثيراً من الأعراب المتمردين يتراجعون عن غيّهم ويعلنون انقيادهم وطاعتهم للخليفة المريني ، فحصل أبو عنان ، بذلك ، على استقرار نسبي وضمن لنفسه وقتاً صرفه في تدبير شؤون البلاد التي تم فتحها .

لكن الباحث يلاحظ أن هذه السياسة لم تأتِ بالفائدة المرجوة بصفة نهائية وأن نتائجها كانت محدودة في الزمان والمكان ، عديمة الجدوى بعد مدة وجيزة لأنها عادت بالشر على الدولة وعلى رئيسها أبي عنان .

ذلك أن كثيراً من القبائل ثارت ضغائنها عند مطالبة أبي عنان بإحضار صغارها فلم يكن «بأسرع من إخفائهم للسبل وتعرّضهم للطرق ، ، ، فشنّوا الغارة على الضعفاء وضربوا في الأرض بالجموع والسرابا وانتابت طائفة منهم ما قرب من المحلات المنصورة والجيوش»[90] وتلك هي الطامة الكبرى!

وجدير بالذكر ، أن هؤلاء الأعراب المعارضين ، الساخطين ، الناقمين كانوا من عرب رياح ، من أولاد محمد بن مسعود بن سلطان ويحيىٰ بن دريد بن مسعود وأولاد عساكر ، وسائر من تفرّع عن جذم رياح ، كما كانوا ينتمون إلى أولاد سواق وأولاد سباع[91] وأولاد توبة من قبائل الأثبج ، وبني وشاح[92] إلى غير هؤلاء ممن فصل في أمرهم يحيىٰ بن خلدون وغيره من المؤرخين المعاصرين والمحدثين كجورج مارسي .

وكثير من هؤلاء وغيرهم انصرفوا فارّين متوغلين في الصحراء ، واعدين مهددين ، مؤلّبين القبائل لأخذ الثأر والرجوع ، بالانتصار ولا غرابة إذ رأينا الوزير أبا علي الحسن بن مخلوف يهدد بالسماح للجيش باكتساح أموالهم وانتهاب حلالهم[93] .

ومن الوسائل الزجرية التي اتخذها أبو عنان ضد الأعراب للوصول إلى نفس الغاية ، وقطع دابر القبائل العربية المفسدة هي عملية التخريب التي أمر بشنّها فمارسها على الديار والقصور والحصون وعلى سائر الممتلكات والرياض . خذ مثالاً على ذلك ، قصر عثمان بن علي الرياحي الذي هدم تهديماً ، وأسباب هدمه كما ذكرها آبن الحاج هي أنه لا يقري الضيوف مع كثرة ماله ، ولا يقوم بحقوق الإخوان ، وأنه دخل مع أخيه علي في الفتنة أثر مجاهرة يعقوب بالخلاف ، وجعل قصره مقراً للمفسدين ، وقاعدة لانطلاق عمليات المشاحنة[94] .

وخذ مثالاً على ذلك إحراق وهدم لميس لأن عمرانها تم من طرف أبي دينار سليمان بن علي وهو من رؤوس الفتنة[95] وأسباب هدم قصر يعقوب بن علي معروفة كذلك[96] . لقد بنىٰ قصراً شحنه بالمدخرات لمحاربة الجيوش المرينيّة، وهكذا تستمرّ الفتن العربية، وتستمر ضدّها التدابير الزجريّة المتنوعة.

ويبقىٰ المشكل هو هو رغم دهاء أبي عنان وذكائه ، وشجاعته وحلمه وصبره في المتابعة والمقاومة ، فبقي العرب متوغلين في الصحراء ساخطين ، جادين في جمع شملهم لإعادة الكرة ، فيتراجع أبو عنان .

الآثار المعمارية ومظاهر أخرى حضارية :

تتضمن الرحلة معلومات وافية عن الآثار المعمارية ومظاهر أخرى حضارية تناولها ابن الحاج بالوصف ، وأطلعنا على مظاهرها بصفة عامة أو بصفة خاصة ، وأطال وأسهب في وصفها ، أو مال إلى الاختصار والاكتفاء بذكر بعض ملامحها .

والمعلومات التي زودنا بها في هذا الباب معلومات نادرة لأنها تتعلّق في بعض الأحيان بآثار معمارية لا نعرف عنها شيئاً كالزاوية المتوكلية مثلاً التي أمر أبو عنان ببنائها على «غدير حمص» وهي «زاوية أعجز وصفها كل بليغ»[97] وقد اندثرت اليوم معالم هذه الزاوية التي ظلّت قائمة حتى صدر المائة 11 هـ[98] وأصبحت أثراً بعد عين ، تناولها ابن الحاج بالوصف الدقيق ، وبيّن تصميمها ، وذكر تفاصيلها ، فطال حديثه عنها واستغرق ما يزيد على ثلاثين ورقة (من 33 إلى 65) من المخطوط الذي بين أيدينا ، فكانت عنايته بها عناية خاصة ، وفائقة لم يحظ بها أي أثر آخر جاء في رحلته ، كما اهتم بجميع العناصر الأخرى المتصلة بها ، والمشكلة لما نسميه اليوم بالمركب أو المجمع المعماري ، فتحدث وأفاض في الحديث . تقع هذه الزاوية على غدير حمص في منزل جميل ، صلبة القواعد ، سامية البنيان ، مصبوغة بالأبيض ، ساحتها واسعة ، دقيقة التنميق والزخرفة ، يقع قبالتها مسجد سقفه كله مزخرف بالزجاج وتقع قبالتها قبة شامخة في الفضاء . وتحف بالزاوية من جهاتها الأربع براطيل بديعة متقابلة الأشكال والأوضاع . يصل الجامع بالقبّة صهريج طويل عريض ، كثير المياه . بشاطىء هذا الصهريج أسدان من التبر يخرج الماء من أفواههما وفي كل ثلاثة أركان الزاوية تقوم ثلاثة أبواب تفضي إلى منازل ثلاثة بديعة ، والديار الثلاثة ، واحدة للإمام ، والثانية للمؤذّن ، والثالثة لناظر الأوقاف والأحباس . وبجانب الزاوية دار لنزول الواردين وأخرى للطبخ .

وللزاوية والدارين باب شرقي يقابل قصر الخليفة بمقربة صومعة شامخة العلو ، مبنية بالزليج الملون .

وهكذا يسترسل ابن الحاج في وصف هذه الزاوية التي «أعجز وصفها كل بليغ» ويبيِّن الإجراءات التي اتّخذها الخليفة لتدشينها وتعميرها ، وتعيين الخدام والمقيمين عليها .

ولقد حاولنا أن نرسم صورة هذه الزاوية وبنيتها انطلاقاً من هذه المعلومات ، وتطبيقاً لِما أملاه علينا من تفاصيل وجزئيات ، فاتضح لنا أنها تشبه ، إلى حدّ كبير ، زاوية النسّاك التي أمر الخليفة المريني ببنائها في سلا ، والتي لا تزال قائمة إلى الآن رغم اختفاء كثير من معالمها . غير أن الزاوية المتوكلية أكبر منها ، وأبدع وأعظم ، وأرفع ، وأغنىٰ وأجمل .

ولقد تحدث كذلك عن هذه الزاوية التي بناها أبو عنان بسلا ووصفها وصفاً يسمح بتصوير بنيتها ، لكن وصفه هذا ، ظل مختصراً وغير دقيق : «فهي من أحسن الزوايا ، حسنة ، جميلة ، ذات ترتيبات فائقة ، مزخرفة ، بديعة الصنائع ، رقشت ترقيشاً باهر الجمال» ولم يصف شيئاً آخر ، ولم يذكر ما يتعلّق بطولها وعرضها ، وعلوها ومادة بنائها ، ولم يصف أبوابها ولا نوافذها ، فهي ، بدون شك ، دون الزاوية المتوكلية . فهل تقصيره ناتج عن جهله بها أم أن هناك أشغالاً أخرى أهم ، صرفته عن وصفها[99]؟

ثم ينتقل المؤلِّف إلى التحدّث عن بعض المدارس ، وأخصّ بالذكر منها ، المدرسة القائمة بجوار شالة والمدرسة الكائنة بسلا ، فيصف الأولى وصفاً سريعاً معرفاً بموقعها وبمظهرها العام «مجاورة للروضة السعيدة ، مدرسة شامخة البناء ، وثيقة الأساس ، منفسحة الأرجاء ، حيطانها كالأسوار وسقفها كالفلك ، لابسة البياض ، رائقة الجمال ، قد رتبت أحسن ترتيب وبوّبت مداخلها أحسن تبويب ، وفرشت»[100] ثم ينتقل بنا إلى الثانية ويتحدث عنها بكامل التفصيل والدقّة لأنها أبهىٰ وأجمل ، وأرقىٰ وأوسع ، كثيرة الزخرف والتمنيق ، بديعة الشكل والمنظر ، رائعة باهية ، زاهية . وهي مدرسة تقع

وسط المدينة ، تحولت إلى فندق ، ثم إلى محكمة شرعية ، تلاشت أبوابها ، وخرب سقفها ، ورممت بعض أجزائها فشوهت بنيتها الأصلية[101] . ونجد في الرحلة أيضاً حديثاً ليس بقصير عن القبة العظمىٰ التي توجد بشلا حيث قبر والده ، وقبر والدته ، وقبر أخته الحرّة أيضاً «وهي قبّة من عجائب الدنيا وأعظم مصانعها التي بلغت الغاية القصوى ، أزرها من الرخام الأبيض الصافي قد نسّقت ألواحه نسق القوافي ، وحذيت حذو النعل بالنعل ، لكن لا يراها إجلالاً إلاّ الحافي ، وأقيمت تحت تيجان الأقواس كأنّها أساورة كسرى ومرازبه ، وجعل كل واحد منها عمدة كآسم المغرب ، وأيّد الصناع نواصيه فهو قيد النواظر ، وبهجة الخواطر ، والمطمح الذي قرن بقلائد العقيان والجواهر»[102] ونظفر في الرحلة أيضاً بوصف لمجمع طريف ، معقّد التركيب ، رغم بساطة عناصره ، متناسق الأطراف والأجزاء رغم تفكّك مقوماته ، يشكّل وحدة كاملة بمقدماته ومؤخراته ، تخضع في تصميمها وتركيبها إلى أهداف تبرهن عن عمق تفكير وذكاء ، ذلك هو «أفراق السعيد» : (خيمة كبيرة مستديرة تصنع من شقائق الكتّان المضاعفة) يخيطه النصاحيّون ، أبيض اللون يقوم على أعمدة بأسفلها زجاج حديد ، له شرفات من الرقاع الزرق . وله بابان ، الأوّل مفتوح لبيت عال ، والثاني قبالة البرج وفي جوفه حائط من الخشب موشى منمّق ، يشتمل على أبواب كثيرة مزخرفة .

وهو إلى ذلك ينقسم إلى قسمين كلاهما يسمى أفراق ، الأول منهما خاص بزوجات الخليفة وحريمه ، ويليه أفراق الثاني ، قبّة عظمىٰ خاصة بالخليفة نفسه ، يتصل بها البيت الأعظم ، وكأنّه مدينة بكامل مرافقها ومقوماتها ، أحكم بناؤها وأتقن تخطيطها ، وصيغت أجزائها المكونة لسائر وحداتها في قوالب متقاربة ومتباعدة ، ومختلفة ، ومتشابهة يعجز وصفها الباحث المتسرّع ، ويحار القارىء في معرفة روابطها وقنواتها وإدراك أسرارها وخفايا محتوياتها .

ذلك بصفة إجمالية هو أفراق . ولقد حاولنا أن نعطي فكرة تقريبية عنه برسم صورة بيانية تجسيمية تيسّر للقارىء التعرف إليه ، وتوضح له بنيته في

ملامحها الكبرى ، فكانت محاولتنا صعبة رغم جهودنا المتواضعة لأسباب تعود بالدرجة الأولى إلى آبن الحاج نفسه ، إلى أسلوبه الذي يتميّز بالتصنيع والتعقيد ، واختلاف الصور واللجوء إلى عملية التجريد والتحويل والمقارنة والتحليل والإيحاء والتقديم والتأخير والتلاعب بـالضمائـر ، فهو المسؤول الأوّل!

ومع ذلك فقد حاولنا محاولتنا ولم نتراجع في خطّتنا :

وإذا انتقلنا في نفس الميدان ، الذي يهمّنا هنا ، إلى جانب آخر من جوانب العمران وجدنا في الرحلة كذلك معلومات تكاد تكون كافية عن القصور والحصون التي سكنها الأعراب وأجليت عنها أثناء عملية التخريب والهدم التي سلطت عليها للأسباب التي ذكرناها ، وهي مبانٍ شامخـة بديعـة ، متقنة الصنع ، رائقة المنظر ، متناثرة عبر الصحراء القاحلة كقصر طولقة وحمص ، ولميس وتقاوس ، وفرفر وغيرها من القصور والحصون المنيعة ، فهي أماكن للعدو يلجأ إليها للقيام بأعماله العدوانية ، ومع ذلك فقد تناولها آبن الحاج بالوصف وأعطانا فكرة عن شكلها ومحتواها وعن مواد بنائها وعن كثير من العناصر المكوّنة لبنيتها. واعتناؤه بها راجع إلى المنهاج الذي يتبعه في تناول الجوانب السلبية المذمومة والتي لا بدّ من التنويه بها كي تظهر الخسائر الفادحة التي مني بها العدو المفسد ، ويبرز الأثر النفيس لتتضح جسامة النكبة ووقعها الشديد في النفس المتألمة انتقاماً من تلك النفوس الشرّيرة .

والدارس لحضارة المغرب في هذا العصر يستفيد غاية من هذه اللوحات النادرة ، ويأخذ فكرة كافية عن أسلوب العمران والعمارة ، فقصر عثمان بن علي الرياحي ، مثلاً ، قد يعتبـر نموذجـاً من نماذج القصـور في العصر المـريني . شكله مربّـع ، محاط بـأسوار من الحجـر المنجـور المسمى بالعيسوي ، ومن خصائص هذا الحجر أنه لا يستجيب لقذائف المجانيق ، له أركان أربعة ، كل ركن انتصب به برج كما انتصب على بابه برج لونه أبيض . ولقد ألصقت بهذا البرج خراجة مشرفة على الباب ، بداخله ديار متعددة ،

أجمل هذه الديار واحدة قائمة على أربع سوار من الرخام ، وتحيط بالقصر حدائق خضراء من الأعشاب والأشجار والزهور[103] .

ويصف آبن الحاج لنا مدينة لميس[104]، ويتعلّق الأمر ببناء أثري قديم يعود إلى ما قبل الفتح الإسلامي ، تشتمل على آثار مصانع ، وعلى قبّة عظمىٰ مبنية بالحجارة المنحوتة المزدانة بمنقوش التصاوير ، حيطانها مرتفعة ، محاطة بأساطين عظمىٰ تفضي إلى بلاطات متصلة بساحتها الكبيرة القائمة على السواري الضخمة[105] .

وكذلك فعل بالنسبة لقصر باتنة ، وقصر يعقوب بن علي وحصن فلق[106] وحصن فرفر[107] وقصر طولقة[108] وخطة آبن الحاج في وصف هذه المعالم العمرانية لا تخضع في نظرنا لمقاييس مضبوطة ومحددة يسير عليها منذ البداية إلى النهاية ، فتارة يطيل ويدقّق ، وتارة أخرى يوجز ويختصر كما فعل بالنسبة لقصر باتنة ، والغالب أنه يخضع في معالجته لهذه المواضيع لعوامل ذاتية ، وأخرى خارجية ، ويتعلق الأمر بتكوينه ونزعاته وذوقه والظروف والملابسات المحيطة به ، كما يتعلّق بإرادة رئيسه ومخدومه المتحكّم في سيره وسلوكه .

وكم فوّت علينا ، نتيجة لذلك ، من فرص ثمينـة ، وكم أضاع من معلومات قيّمة وحقائق تاريخية نحن في أمسّ الحاجة إليها لتعويض ما نقص في مصادر معاصرة لأنه يكتب بأسلوب الأديب الفنان المبدع الذي يضحي بالحقيقة بحثاً عن الصورة الفنية الجميلة التي تهمّه بالدرجة الأولى ، وهي ضالته المنشودة يظل ينقب عن مكوناتها وعناصرها تائهاً في جزئياتها ، سابحاً في بحر إيحاءاتها وخصوصياتها مزوقاً منمّقاً مزخرفاً . ومع ذلك كلّه فنحن مدينون له بشيء لا نجده عند غيره في هذه الحقبة من تاريخ المغـرب وحضارته ، فعلىٰ الباحث إذن أن يقدّر الظروف التي كتبت فيها الـرحلة والعوامل النفسية والاجتماعية التي شكّلت خلفياتها ليستخلص منها النتائج الضرورية ويستثمرها في المباحث التي هو بصددها .

وقد يجد القارىء في «فيض العُباب» بالإضافة إلى هذه المعلومـات

المعمارية المحضة ، عناصر حضارية ترتبط بمواضيع مختلفة كالهوادج التي أولاها المؤلِّف من عنايته الخاصة ما جعلنا نقف على كثير من مظاهرها ، وندرك أنواعها المختلفة ودرجاتها المتسلسلة وظروف استعمالها ، وراكبيها ومسيرتها ، وملابسها ، ومقاودها ، إذ كان للملك هودجه ، وللوزير هودجه ، ولشيوخ بني مرين هوادجهم ، وللأعراب هوادجهم الخاصة بهم[109] كلٌّ حسب درجته والوظيفة التي يؤدِّيها .

ومن هذه العناصر الحضارية الناعورات بمختلف درجاتها : نخص بالإشارة منها الناعورة العظمىٰ التي نالت الحظ الأوفر من اهتمام آبن الحاج[110] إلى جانب الناعورتين الصغيرتين ، ففي الرحلة نجد فقرات بكاملها مخصّصة لإبراز دور الناعورة العظمىٰ ، وبيان معالمها ، وإشعار القارىء بقيمتها وسر دورانها وتداخل أكوابها وتصارعها مع مياه النهر الجارفة وأحجاره الجميلة ، إلى جانب الناعورتين الصغيرتين المحلقتين والناعورتين المعطلتين وما جرىٰ بشأنها من عمليات تعويض وتدارك إلى غير ذلك من المواضيع التي تهم مؤرِّخ الحضارة بالدرجة الأولى .

وإذا كان آبن الحاج لا يخضع في إيراده لهذه العناصر لأي خطة معيّنة ـ كما أسلفنا ـ فإن وصفه لها لا يخلو من فائدة أدبية وأخرى مادية تطلعنا على كثير من المظاهر الاجتماعية والاقتصادية السائدة في عصره وفي بيئته .

علاقات المغرب مع الدول المسيحية :

تفيد الرحلة ، التي بين أيدينا ، أن المغرب ربط في هذا العهد علاقات مع الدول المسيحية ، وأن هذه العلاقات كانت مبنية على أسس متينة ، وكانت أيضاً نشيطة إلى حدٍّ ما ، انطبعت بطابع الودّ والصداقة ، والسبب في ذلك راجع إلى أبي عنان نفسه ، إلى ثقافته وأخلاقه ، ودهائه وشجاعته النادرة ، وحسن سلوكه ، وإدراكه العميق لحاجيّات الدول ومطامحها الآنية والعاجلة ، وإمكاناتها المختلفة ، كما يرجع إلى القوّات الهائلة التي كان يتوفر عليها في البر والبحرِ والجيوش الكثيرة الباسلة والأسلحة الثقيلة والمتنوعة التي وظفها لغايات سياسية معيّنة ، والانتصارات العظيمة التي حقّقها في الداخل والخارج ، في المغرب الأقصى وفي المغرب الأوسط ، وفي المغرب الأدنىٰ كذلك .

ويُستفاد من رحلة ٱبن الحاج أيضاً أن الدول الأجنبية هي التي رغبت في إقامة هذه العلاقات ، التي أشرنا إليها ، وذلك بناءً على ما ذكرناه من أسباب وعوامل ، فهي التي مدّت أيديها لتعقد مع المغرب معاهدات صلح ، وتبرم معه اتفاقيات تجارية مختلفة ، وهذه الدول هي البرتغال ، وقشتالة ، وأراجونة ، وإيطاليا و «ميورقة» و «صقلية» .

ويكشف لنا ٱبن الحاج عن معركة دارت رحاها بين المغرب والبرتغال ، فٱنتصر فيها المغرب على عدوه انتصاراً عظيماً ، استولىٰ المسلمون على ما كان فيها من النساء والولدان «وإن خبر هذه المعركة قد تقدم في هذا الديوان وأوردناه مشروحاً على قواعد الإيضاح والتبيان»[111] ما نوع هذه المعركة؟ ما هي الظروف التي جرت فيها؟ وما هي الخسائر التي مني بها العدو بسببها؟ لأول مرة حسب معلوماتنا المتواضعة في الموضوع نقف على أخبار هذه

المعركة التي أشار إليها المؤلِّف ، وذكر أن تفاصيلها قد تقدّمت في هذا الديوان . أي ديوان يعني؟ هل يعني «فيض العُباب»؟ فإذا كان يقصد «فيض العُباب» بالذات فإننا لم نعثر فيه ، لا على الكليّات ، ولا على الجزئيات التي يشير إليها . فأين ذهبت هذه الأخبار؟ هل ضاعت من يد الناسخ آبن عم المؤلِّف كما ضاعت أجزاء أخرى من الرحلة؟ ذلك ما رجحناه في غير هذه المناسبة . وهل تعرضت المصادر الأخرى المعاصرة لهذه المعركة؟ ما نظن أن آبن خلدون الذي يهمّه الأمر بالدرجة الأولى ، قد أورد شيئاً يتعلّق بالموضوع الذي نحن بصدده ، بل لا نكاد نجد فيه ما له صلة بالعلاقات القائمة بين النصارىٰ وأبي عنان بصفة عامة ، فآبن الحاج نتيجة لذلك هو مصدرنا الوحيد في هذا الموضوع المهم بالنسبة لتاريخنا ، وهو الذي أخبرنا[112] بوصول وفود الروم في شوال 757 هـ طالبة عقد الصلح مع الخليفة الفارسي ، ومن جملتهم وفود ملك البرتغال الذي هزمته الجيوش المغربية في أقـش[113] وأن ملك قشتالة أرسل هدية (عبارة عن بغال) إلى أبي عنان طالباً منه عقد معاهدة صلح[114] كما أخبرنا أن صاحب ميورقة قد طلب ، هو الآخر ، إبرام عقد مهادنة بينه وبين أبي عنان ، فوجّه «كاتب سرّه المخصوص بالاعتناء ، وحاكم بلنسية وما إليها من الأرجاء ، وفوّض لهما سلطانهما بالشهـادة في التزام الشروط التي يلزمها مولانا» . ومن جملة الشروط التي اشترطها أبو عنان أنه «إن زال حكم الصلح المنعقد بينه وبين ملك قشتالة فإنه يعينه على قتاله ويكون مع المسلمين يداً واحدة في نزاله»[115] .

«فتوجه أبو علي الحسين مع رسولي ملك أراغون ، فاجتمع بهذا الأخير وشمخ عليه بأنفه ، والتزم له جميع ما التزم رسولاه عنه ، وكتب بذلك عقداً شهد به القند أخو ملك قشتالة وغيره من الزعماء والرؤساء والعظماء والأعلام» ثم يفيدنا كذلك أن زوجة ملك أراغون أخت ملك صقلية قد وجهت إلى أبي عنان طلب معاهدة صلح لفائدة أخيها ، فاستجاب أبو عنان لطلبها ، لكن مقابل خمسة شروط لم يذكرها آبن الحاج ، مع الأسف[116] .

ذلك ما استفدنا في هذا الباب من «فيض العُباب» رغم كون آبن الحاج ،

كثيراً ما يكتفي بالإشارة والتلميح ، ويقتصر على التنويه بالخليفة أبي عنان الذي أصبحت ملوك النصارىٰ تخشاه وترغب في التعامل معه والتصالح .

ومن حسن حظنا أن وثائق دبلوماسية مرينية ترجع إلى هذا العهد بالضبط ، لا تزال محفوظة إلى اليوم في إحدى المكتبات الأجنبية بإسبانيا ، وهي عبارة عن رسائل معاهدات بعث بها أبو عنان نفسه إلى ملوك النصارىٰ المذكورين أعلاه ، في الموضوع الذي أشرنا إليه ، وهي وثائق مخطوطة تحمل خاتم أبي عنان وتشرح لنا الظروف التي لابست مواقف المغرب من دول النصارىٰ ، وتبين نوع العلاقات التي كانت قائمة بين الطرفين . وتعميماً للفائدة نرى من الضروري ذكر أهم ما جاء فيها :

- رسالة من أبي عنان تحمل تاريخ : ذو الحجة 755 هـ إلى ملك أراجونة بردرو الرابع ، وهي جواب عن رسالة بعث بها بردرو هذا إلى أبي عنان طالباً منه السماح لتجّاره بمزاولة نشاطهم في المغرب وإطلاق سراح النصارىٰ المعتقلين . يستجيب أبو عنان لهذا المطلب ويوافق على المقترحات المقدمة إليه .

- رسالة(117) مؤرخة في الحادي عشر من ربيع الثاني عام 751 هـ موجهة إلى بردرو ملك أراجونة جواباً عن رسالته التي يرغب فيها من أبي عنان إبرام اتفاقية صلح بواسطة مبعوثه الزعيم جيل البيريطي .

- رسالة مؤرّخة في 28 ذو القعدة عام 750 هـ. 27 dec. 1349 من أبي عنان فارس إلى بردرو الرابع ملك أراجونة يخبره فيها بما جرىٰ بينه وبين جيل البيريطي وإلى ميورقة وثقة ملك أراجونة الذي يرغب في الصلح وقد أجاب أبو عنان بهذه الرسالة مُعلناً قبوله بواسطة منصور بن علي وإبراهيم بن محفوظ .

- رسالة مؤرّخة في 28 رجب 752 هـ موجهة إلى صاحب أرجوانة يخبره فيها أبو عنان بما جرىٰ بين التجّار النصارىٰ وحرّاس الشواطىء المغربية من مناوشات وخصومات بشأن قرقورة أخذها بعض التجّار المذكورين ، وفيها

يؤكّد أيضاً أبو عنان أن عقد الصلح ثابت وآن على ملك أراجونة أن يراجع موقفه ويرد ما كان في القرقورة ليحرر الشيطي الذي حبسه آبن الخطيب .

ـ رسالة من أبي عنان إلى بردرو الرابع صاحب أراجون مؤرخة في 7 شوال 751 هـ 8 dec. 1351 يخبره فيها أنه موافق على شروط الصلح التي أقرّها ، وأنه أمضىٰ العقد المشار إليه ، وأشاع خبره في نواحي البلاد المغربية .

ـ رسالة تحمل تاريخ : في شعبان 752 هـ 25 sep. 1351 وهي جواب من أبي عنان إلى بردرو الرابع يطمئنه فيها على سلامة التجّار النصارىٰ ، ويذكره بالإجراءات المختلفة التي اتخذها أبو عنان بشأن قضية الشيطي وهي تأكيد وتزكية .

ـ عقد صلح بين أبي عنان فارس وملك أراجونة بردرو الرابع يحمل تاريخ 25 رمضان 751 هـ 26 nov. 1352 مدته أربعة عشر شهراً ابتداءً من تاريخه ، وهو يضمن حرية السفر والمتاجرة لرعايا كل من الدولتين .

ـ رسالة من أبي عنان إلى الملكة لينور زوجة ملك أراجون وأخت ملك صقلية فلود ريج كرد علي رسالة وجهت إليه من هذه الملكة التي رغبت من أبي عنان أن يعقد الصلح مع أخيها المذكور . فأسعفها بمطلبها وأنعم عليها به مؤرّخة في صفر 759 هـ 25 Juillet 1358 .

ـ رسالة تحمل تاريخ 4 صفر 759 هـ 16 Jan. 1358 موجهة من محمد بن الحاج الحسيني نيابة عن أبي عنان المريني إلى الرينة لينـو امرأة ملك أراجون يخبرها فيها أن أبا عنان تلقىٰ رسالتها في شأن أخيها صاحب صقلية الراغب في الصلح . وقد أسعف رغبتها وقبل طلبها .

ـ رسالة مؤرّخة في 11 صفر 759 هـ 23 Jan. 1358 من الشريف محمد بن يحيـىٰ بن يوسف الحسيني إلى ملك أراجون الرابع نيابة عن أبي عنان مضمنهـا هو أخباره بأن «مولانا أبا عنان قد قبل عقد معاهدة صلح مع صاحب صقلية أخي زوجته وموضوع آخر يتعلّق بشراء حوائج في المغرب

لفائدة بردرو المذكور» .

هذه الوثائق الأصلية تؤكِّد ما أشار إليه آبن الحاج في «فيض العُباب» كما تؤكّدها من جانب آخر مصادر أجنبية منها :

Campany (Antonio de) : Los antiguos tratados de paces y alianzas entre Africa desde de Aragon y diférentes' principes infieles de Acia y Africa desde el Siglo XIII al XV.

ومنها أيضاً :

De Mas Latrie (M. L) Traites de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des Chrétiens avec les Arabes de l'Afrique Septentrionale du moyen âge (Paris 1966).

حيث نجد أصداء واسعة لما كان يجري بين المغرب وغيره من الدول المسيحية ، وهكذا نجد في هذا المصدر الأخير رسالة مؤرخة في 10 غشت 1357 من بردرو الرابع إلى أبي عنان تمتد بمقتضاها مدة الاتفاق بين المملكتين إلى خمس سنوات[118] ، ورسالة أخرى من نفس العاهل تحمل تاريخ فاتح يونيو 1358 موجهة إلى أبي عنان بقصد حمله على التخلّي عن المساعدة التي طلبها منه ملك قشتالة ، وفي نفس المصدر نعثر على عقد صلح لمدة عشر سنوات[119] أمضاه أبو عنان المريني لوالدة الفيري الإيطالي . في 9 أبريل 1358 .

وهكذا تعطينا هذه الوثائق وغيرها فكرة عن نوع العلاقات القائمة بين المغرب والدول المسيحية التي أشرنا إليها ، كما تزودنا بمعلومات إضافية تفيدنا في جوانب أخرى من هذا البحث .

والنتيجة الأولى التي نستخلصها منها هي أن الجانب المغربي كان قوياً وعزيزاً ، إذ كان مرغوباً فيه من لدن هذه الدول كلها ، التي سعت بكل الوسائل إلى خطب ودّه وتعزيز أواصر المحبّة بينها وبينه . ومنها أنه من حين لآخر قد تنشب خلافات محدودة ولكنها لا تؤثّر على العلاقات القائمة والثابتة ، وهذه الخلافات كثيراً ما تنجم عن اصطدامات بين التجّار في الشواطىء

البحرية كتلك التي حدثت عندما كان أبو القاسم بن فتح مسافراً وصادف شيطياً للروم فأخذه ، وأسر أهله وأتىٰ بهم إلى بلد العناب مقرنين في الأصفاد[120] ، وكتلك التي تحدّث عنها ابن الحاج أيضاً واصفاً فيها سلوك الخطيب أبي العباس الذي يلقي أيضاً «في عرض البحر جفناً للروم ، فانقضّ عليه انقضاض الأجادل على اليعاقيب السوابح ، ، ، فأخذ الجفن ومن فيه وجاء بأسرىٰ»[121] إلى غيرها من الحوادث التي قد تعرض العلاقات الودية إلى نقض ومراجعة[122] وأهم من ذلك في نظرنا هو أن المغرب كان في هذا العصر مأوىٰ لكثير من المهاجرين والأسرىٰ والنصارىٰ الذين شكلوا عنصراً من عناصر سكانه في فاس بصفة خاصة أو في غيرها من المدن ، فقد كان منهم من فضل الخدمة والانضمام إلى الحاشية السلطانية ، ومنهم من أتىٰ ليحمل السلاح ، ويحارب بجانب الجيوش المغربية ، ومنهم من اتخذ فاس مقرّاً له وسكنىٰ يزاول فيها معاملاته التجارية ، ومنهم من قدم إلى المغرب بقصد الإذاية والجاسوسية ، ومنهم من أتىٰ إلى المغرب في بعثة رسمية استقدمتها السلطة القائمة ورغبت في إقامتها مدة طويلة بعد استئذان ملوك النصارىٰ المعنيين بشؤونها ، فالأعلاج والممالك والموالي وغيرها من المفردات المستعملة في الكتب التاريخية لا تعني سوى هذه العناصر الأجنبية في عصر الدولة المرينية[123] .

الجيـش :

امتاز الجيش المريني في عهد أبي الحسن بقوته وشجاعته وسرعة تدخّله وحنكته وتجربته من بين خصائص أخرى جعلته يتفوق على الجيوش التي كانت في صراع معه في المغرب الأوسط وفي المغرب الأدنىٰ ، ولقد شهد بهذا التفوُّق النصارىٰ أنفسهم الذين كانوا يتربّصون به الدوائر ويتحيّنون الفرص للهجوم على الشواطىء المغربية واحتلالها متى تمكّنوا من ذلك .

وفي عهد أبي عنان الذي يهمنا هنا ، وحسب النص الذي بين أيدينا ، نرىٰ أن هذا الجيش بقي محافظاً على قوّته وعلى شدة بأسه وبسالته وانضباطه وتربيته وارتفاع معنويته ووفائه وإخلاصه لملكه ، بل ازداد قوة وحنكة وعظمة ، وتميّز بصفة خاصة بقواته البحرية التي أدهشت بعددها الوافر وشجاعة تدخلها العدو في العالم المسيحي وأرهبته وجعلت كثيراً من دوله تهاب الأسطول المريني وتخشى مواجهته ، فسارعت ، خوفاً من بأسه ، إلى مخاطبة أبي عنان لإبرام وتجديد اتفاقيات الصلح والود والوئام .

وإذا كان آبن فضل الله العمري قد زودنا بمعلومات مفيدة عن الجيش المريني في عهد أبي الحسن بصفة خاصة فإن آبن الحاج شاهد عيان ، يضيف إلى كلمتنا معلومات أخرى قيمة أكثر واقعية ودقّة ، ذلك لأنه شاهد وتتبع عن كثب مراحل المعارك الطاحنة التي دارت بين الجيوش المرينية والجيوش العبدوادية والحفصية والقبائل العربية المناوئة .

لقد عاش التجربة واحتك بالعناصر المحاربة وأدرك الأهداف القريبة والبعيدة للتحركات المدبرة وعلم بسير جميع أنواع الأسلحة الموظفة ، وهو كاتب السر والمطّلع الأمين على ما يحاك ويدبّر في الخفاء قبل غيره من الخدام المخلصين وهو ، إن بالغ في المدح والتنويه ، فمبالغته تبقىٰ محصورة في

نطاق الجزئيات ولا يمكن أن تخفي العناصر الأساسية والمبادىء الوطنية والخطوط الكبرى التي يسير عليها الجيش بسائر مكوناته ومقوماته وأسلحته . ودليلنا على ذلك أن كثيراً مما وصفه جاء تزكية لما قد ورد في مصادر أخرى معاصرة أو قريبة منه (راجع مثلاً العمري) (ب 41) .

ولنبدأ بمعرفة عناصر الجيش ، ولنقرّ منذ البداية أنها كثيرة ومتنوعة . لقد ذكر منها ابن الحاج (ص 146 أ) «الأعلاج الرومية والمماليك الزنجية والأجناد الأندلسية والطوائف التركية والتترية والأفاريق العراقية والمصرية والشامية واليمنية والهندية وسائر التركمانية بالإضافة إلى الجنود المغربية الزناتية والعربية التي نجد الرامح والراجل والسائف والفارس فيها كما يجب أن نضيف الوصفان والعدويين[124] الذين كانوا يتوفّرون على قضبان صلبة مرصدة لتأديب أهل الجهالة .

جيش عرمرم ضخم يقاوم ، له وزنه وحسابه ويقام له ويُقعد[125] ضم هذه العناصر التي كانت متساكنة ، متعايشة ، متضامنة منضبطة تحت راية واحدة ، لكل عنصر منها خصائصه الحربية ووظيفته العسكرية والأدوار المحددة له والطريقة التي يسير عليها عندما يكون في المعركة ، والأسلحة المتميزة .

كل قائد لدعم خاص ولباس خاص ، وكل القواد يلبسون أزياء متميّزة ، وكل أصناف الجيش تحمل أقبية متفرّدة ، مرقّمة وفوقها مصفحات من الحلل والأنزاق والأثواب المجلوبة من الشام والعراق (141 أ) .

وهكذا يمكن تمييز قوّاد الأتراك مثلاً بطبنّخلاتهم ومزاميرهم وأعلامهم ، وقد كتب على كل واحد منها شعار الكتيبة كما يمكن تمييز الفرسان الأندلسيين بأقبيتهم المختلفة الألوان وبالرتافيل التي على رؤوسهم ، وبالعصي الطوال التي اعتقلوا بها وبالنبابيل التي تقلّدوها وبالراية التي تحملها عصا كل منهم وبخيولهم المبرقعة وأجراسهم التي تملأ الجو بأصواتها المدوية (41 أ) كما تميّز غيرهم بالشواشي والقلانس المذهبة .

أما الأسلحة المستعملة فهي كثيرة ومختلفة ، كما أسلفنا ، ذكر منها ابن الحاج : الأنفاط والمجانيق والملاصق والدبّابات والقسي والسهام والسنان والقنا والرماح والسيوف والمعاول والفؤوس (73 ب 75 ب) كما تحدث عن الدروع (76 أ) والمصفحات (76 أ) والذهب والمضخات والمغافر البيضاء والقسي اللمطية والدرق (76 ب) وقد وصف لنا هذه الأسلحة وصفاً رائعاً وظّف فيه طاقاته الشعرية وثقافته الأدبية (76 ب 77 أ) .

ولم ينسَ ابن الحاج مخدومه أبا عنان الذي كان من الفرسان الشجعان يقتحم العقبات ويواجه جميع أنواع الصعوبات ويصمد أمام الأخطار والأهوال ، فيعطي المثل بنفسه ويتقدّم الكتائب يخوض المعارك ، وهو في المقدمة ، ضارباً أروع مثال في الحروب الطاحنة ، إذ كان يتولىٰ بنفسه قيادة كتيبة متميزة عن باقي الكتائب لضخامة هوادجها ، فكان له زيّه العسكري الخاص : ملوطة بيضاء تحمل الشواشي كتبت فيها آثار مجده وفوق الملوطة مصحف ملوكي ، مضمة شريفة على رأسه بيضة هندية .

وعلى المصفح عقارة حمراء (78 أ) ، حينما ينزل يأمر بإطعام الطعام واقتداء السلام ، ثم يجلس على ملكه ينتخب الكماة ويختار الكفاة ، وينتقي الأبطال الحماة ، ويثبت الحمية ويثير الحفائظ المزهية (79 أ) وكلما عزّ الأمر وبرزت العراقيل واشتد الخطب وضاقت السُّبل ، تقدّم أبو عنان لحل المشكل وقفز بفرسه متخطّياً الأهوال بين سهول وقناطر وجبال فيقتفي أثره جيشه، ، ،

أما العنصر النسوي فقد كان له دوره ، ووجوده في المعركة ثابت (كما كان في عصر أبي الحسن وقبله)[126] فالهوادج المحمّلة بالجواري كانت لا تفارق الكتائب الراجعة ، وللنساء دور نفسي واجتماعي في الحروب يؤدينّه عن طريق الكلمة أو العبارة أو الإشارة أو الأغنية أو الزغردة .

ولقد أعطانا ابن الحاج بعض التفاصيل في الموضوع وأشار إلى غناء النساء العذب قبل الرجوع من الحركة إلى فاس بصفة نهائية .

الأسطول :

سبق أن أشرنا إلى أن الأسطول المريني كان في هذا العهد بالضبط أقوىٰ أسطول عرفه المغرب الإسلامي في عصر أبي عنان! أسطول قوي مجهّز بما كان يحتاج إليه من قوّات بشرية وأسلحة ثقيلة وفرق سريعة التدخّل والنزول . وقد كان متفوقاً ، فيما يبدو ، على الجيش البري بدليل ما جرىٰ في فتح تونس ، ذلك أن الجيش البحري هو الذي تقدّم رغم وجود القوّات البريّة فاقتحم المدينة وتمكّن أبو عنان من الدخول إليها بسرعة لم تكن منتظرة .

ولقد كان هذا الأسطول يتوفر على أبطال[127] حماة محنكين لهم دراية تامة بواقع البحار وبالمعارك التي تجري على صفحاتها لـذلك فـاز أبو عنـان بانتصارات متوالية في هذا الميدان وحمد لرجاله مقدرتهم وكفاءتهم والفرص التي أتاحوها للجيش البرّي الذي أُعفي من خوض المعركة والتضحية . ونحن مدينون هنا لابن الحاج بمعلومات غنية عن هذا الأسطول وعن مقوماتـه وخصائصه وقوّاده ، إلّا أن الأسلوب الذي وصف به هذا الأسطول كان أسلوب أديب شاعر ، لا أسلوب مؤرِّخ يبحث عن الحقيقة المجرّدة ، لذلك اختفت معلومات كثيرة ودقيقة وراء الاستعارة والمجاز والتورية والتلميح والإيجاء والكناية إلخ ،،، فلم نظفر ـ والحالة هذه ـ إلّا بعناصر محدودة فيما يرجع للقطع التي كان يتكون منها الأسطول المذكور ، فهي[128] الأغربة والطرائد والشياطيء والسفينة الاستطلاعية والسلالير[129] والقوارب والسفائن التي تحمل الأفلاك والأملاك[130] والشواني والمراكب والخراقات .

منتخبات أدبيّة

وفي الرحلة أيضاً معلومات مختلفة عن بعض الشعراء وبعض إنتاجهم ، وهكذا يمكن أن نتحدّث عن نواة «لانتلوجية» أدبية تضمنت شخصيات من المغرب الأقصى ومن تونس ومن غيرهما ، ويتعلّق الأمر ، بالضبط ، بفقهاء وعلماء وموظفين سامين نظموا في ظروف مخت‍
كاملة . ولقد كان لهم ارتباط وثيق بأبي عنان ، إذ كانوا من جس‍
الأوفياء ، عندما حل بمدينة من مدنهم أو قرية من قراهم . وتلت
عادات أبي عنان وعادات أبيه وأسلافه وغيرهم من ملوك بني مرين وملوك المغرب بصفة عامة . والتاريخ يذكرنا بجيش العلماء والفقهاء الذين صحبوا أبا الحسن المريني في رحلته إلى القيروان حيث هلك عدد كبير منهم لأسباب قاهرة لا مجال لتفصيلها في هذا الميدان والمهم أن هؤلاء الشعراء الذين ذكرهم ابن الحاج في رحلته هم فقهاء قبل كل شيء ، جادت قرائحهم بإنتاج يمكن اعتباره وليد الصدفة ونتيجة ظروف طارئة ، خاصة وهو إنتاج يكاد ينحصر في غرض واحد ، غرض المديح المولوي الذي حفلت به الرحلة في كثير من أبوابها .

والنتيجة التي يمكن الخروج بها من دراساتنا الأدبية ، هي أن ابن الحاج لم يكن يقصد هذا الموضوع قصداً . وإنما الظروف الخاصة ، ظروف الاحتكاك الطارىء والتواجد القارهي التي أملت عليه الاهتمام بالشخصيات التي ذكرها ، والقصائد التي ضمّنها رحلته .

فشخصياته كلّها أو جلّها تنتمي إلى عالم الفقه والإدارة ـ كما أسلفنا ـ قضاة ، عدول ، شهود البيت ، فقهاء أجلّاء : منهم أبو عبد الله محمد الفشتالي قاضي الجماعة[131] وأبو الحسن مصادق ، الفقيه أبو العبّاس

أحمد بن أبي شامة الفقيه ، وأبو العباس نعمان الفقيه ، وأبو عبد اللّه العزفي الفقيه[132] وأبو العبّاس بن عبد المنّان الفقيه . وأبو العباس النعمان الفقيه ، وأبو عبد اللّه بن حزب اللّه الفقيه[133] وأبو محمد البرطال الفقيه أحد شهود البيت الكريم[134] والفقيه القاضي أبو علي الزناتي[135] أحد شهود البيت الكريم .

وبناء على ذلك فإن إنتاجهم يكتسي صبغة خاصة . إنه إنتاج فئة اجتماعية لها ثقافتها المتميّزة ، إنتاج الفقهاء في ميدان الأدب ، وهو ، كما نعلم ، موضوع في حاجة إلى البحث والدراسة بدأ بمعالجته ابن الأحمر في نفس الحقبة ، وترك لنا منه نماذج في كتابه «نثير الجمان» حيث خصص لفقهاء العدوة صفحات عظيمة الفائدة .

ونلاحظ أن ابن الحاج لم يترجم للشخصيات التي أوردها في رحلته وإنما اكتفىٰ بذكر أسمائها والإشارة إلى ميادين عملها وتحلية بعضها بأسمىٰ الألقاب وأجمل الصفات .

هل خضع ابن الحاج في عرضه لهذه المنتخبات الأدبية لمقاييس معيّنة؟ إن المقاييس التي خضع لها هي مقاييس ذاتية ، عفوية بنت الصدفة والأهواء والنزعات الشخصية ، تارة يتحكم فيها الذوق ، وتارة أخرى تتحكم فيها قوة الذاكرة ومدىٰ قدرة ابن الحاج على استظهار أو استحضار جميع القصائد والمقطعات التي قِيلت في المناسبة التي يتحدّث عنها .

وكمثال على ذلك نراه يعرض للفشتالي أربعة أبيات[136] ولمصادق بيتاً واحداً ، ولابن شامة بيتاً واحداً . وللنعمان بيتاً واحداً وللعزفي اثني عشر بيتاً[137] . ولابن عبد المنّان ثمانية عشر بيتاً ولابن النعمان اثني عشر بيتاً[138] ويعرض لنفسه أربعين بيتاً[139] .

وهو يعترف بكونه لم يعرض كل القصائد المنظومة في المناسبة التي يتحدث عنها وهي مناسبة «أخذ الفأل» لأنه لم يحضره منها سوى ذلك القدر[140] . وكثيراً ما اعتذر ، وكثيراً ما تأسّف على النسيان أو على الانشغال

بالخدمة . ويتأكد هذا التصرّف ، ويتجدد هذا السلوك اتجاه الأدباء والشعراء في مناسبة أخرى ، مناسبة الفتح[141] حيث يكتفي بإيراد بيت واحد من قصيدة أبي العباس بن النعمان وثلاثة أبيات لابن حزب الله . وستة أبيات لابن البرطال[142] وخمسة وعشرين بيتاً لعمر الزناتي ، بينما يورد لنفسه قصيدة من ستة وأربعين بيتاً[143] .

وتتوالى الفتوحات ويتكرر النصر ، وينظم الشعراء قصائدهم فيقدمونها لأبي عنان للتهنئة وللإشادة بعظمة الملك ، فيعمد ابن الحاج مرة أخرى إلى عملية الانتقاء داخل الشعراء المساهمين ، فينقل لنا من إنتاج بعضهم ما أعجبه ، وما استطاع استحضاره بمناسبة دخول الجيش المريني إلى تونس وفتحها ، وهكذا يُورد من قصيدة الشاعر ابن عبد المنّان أربعة أبيات[144] وستة أبيات لأبي محمد البرطال[145] وأربعة وعشرين بيتاً للقاضي الزناتي .

إلّا أن عمليته الانتقائية لا تظهر بوضوح إلّا عندما تصدّى للشيخ المشتغل ابن عبد اللّه بن جابر الذي بعث من مكناسة قصيدة في الموضوع اختار منها ابن الحاج تسعة عشر بيتاً فقط ، وأسقط منها مطلعها «لنكادة فيه وتثبيج مجه الطرس عن فيه»[16] :

بشـراك بـالفتـح مـولانـا فقـد نفحت   بـه عـليـك صبـاه أو جبـائـنـه

ومما يؤسف له ، أن ابن الحاج ، للأسباب التي ذكرناها . وذكر بعضها هو نفسه ، فوّت علينا كثيراً من الفرص ، ولم يزودنا إلّا بنسبة قليلة من جميع ما نظم من أبيات ومقطوعات وقصائد قِيلت في مناسبات عديدة ، وهي تشكّل في مجموعها تراثاً أدبياً نفيساً ، ما أحوجنا إلى معرفة مضمونه وشكله ولغته وفنيته ومواضيعه وأغراضه والمعلومات المختلفة التي يتضمّنها في الناحية التاريخية والحضارية والثقافية وغيرها ، وأسفنا يشتد عندما نرى ابن الحاج مثلاً يلتزم الصمت التام لأسباب قد لا نعرفها ، ويسكت عن كثير من الشعراء ، الذين لهم مساهماتهم الخاصة ، كالشاعر ابن إسحاق الحسناوي التونسي الذي حضر حفل تدشين الزاوية المتوكلية ونظم قصيدة في الموضوع لم يورد

منها ابن الحاج آي بيت[146] . لماذا؟ ولا شك أن الشاعر تناول في هذه القصيدة ، من بين مواضيع أخرى ، وصف مجالس هذه الزاوية وبنيتها وفوائدها ووظيفتها ، وغير ذلك من المظاهر المعمارية التي نجهلها بالنسبة لهذه الزاوية العظيمة المندثرة!

وإذا كان ابن الحاج يقدّم غيره في عرض الشعر، بعد إجراء العملية الانتقائية التي أشرنا إليها ، ويبقىٰ هو الأخير ليتمم العرض بشعره ، فإنه يأخذ حصّة الأسد في هذا العرض حيث تطول قصائده وتفوق في الطول جميع المقاطع والقصائد؟

أغراض هذا الشعر ، كما أشرنا مراراً ، هي المدح والتهنئة ، مدح أبي عنان وتهنئته بالفتوحات والانتصارات التي حققها في ميدان السياسة الداخلية والخارجية ، انتصاره على الأعراب وعلى النصارى وعلى الثائرين وعلى المفسدين ، وافتتاحه لبجاية وقسنطينة والزاب وتونس وغيرها من المواضيع ، التي ألهمت الشعراء وألهبت قرائحهم فجاءوا بشعر يختلف قوة وضعفاً باختلاف قدرات أصحابه .

وابن الحاج نفسه يشير إلى ذلك بقوله بعد تمام الفتح «عطف أهل الأدب على بنات الأفكار وأشعروا هدي الإشعار ورفعوا قصائد بالتهنئة»[147] .

ومعاني هذا المديح معروفة ، تكاد تكون تقليدية تذكّرنا بالمعاني الواردة في كثير من قصائد المتنبي وغيره من شعراء الملاحم ، تدور حول شخصية أبي عنان القوية وأخلاقه الكريمة ، النبيلة ، المتجلّية في العفّة والشجاعة والكرم وسرعة المبادرة والتفوّق على الملوك في سائر ميادين المعركة في البر والبحر ، والتفوّق في ميدان العلم والمعرفة ، إلى غيرها من الصفات الفكرية والخلقية والاجتماعية التي برهن عنها أبو عنان ، كما برهن عنها سيف الدولة بالنسبة لبني حمدان .

ولكن ، المهم في هذه الأشعار التي دارت كلّها حول شخصية أبي عنان ،

والتي جعلت منه أعلىٰ إنسان في كل زمان وكل مكان ، هي الظروف التي سلكها أصحابها في نَظْمِها ، ذلك أن الباعث الأساسي الذي كان وراءها هو أبو عنان نفسه ، الذي يُعتبر المحرِّك الأول والدافع القوي لخلق هذا الجو الأدبي الرفيع المتميِّز الذي ساهم فيه بحظٍ وافر من ماله ومن ثقافته ومن نظمه ومن دهائه ومن طبيعة سلوكه الخاص ، فنال الشعراء منه التشجيعات والتقديرات والمكافآت المادية والمعنوية ، وتنافسوا كلّهم في الإجادة والعطاء وتسابقوا وسارعوا إلى المجد فحولاً ونالوا رضاء الخليفة الذي كان يتوفر على ثقافة أدبية وتجربة فنّية .

والحقيقة أن الأمر كان يتعلق في غالب الأحيان بمساجلات ومعارضات ، بل بمباريات دبّرها أبو عنان تدبيراً ، واستعدّ لها استعداداً ، ولا أدلّ على ذلك مما جرى بمحضره بعد ما أخذ الفأل الحسن من كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني ولم تقع عينه الكريمة إلّا علىٰ هذين البيتين وهما من قصيدة لأعشىٰ همدان :

بجنـد أميـر المسلمين وخيله	وسلطانه أضحىٰ مُعاناً مؤيّدا
ليهن أميـر المسلميـن ظهـوره	على أمّة كانت طغاة وحسدا

وعلى أثر ذلك تسابق الأصحاب في ميدان النظم والتوطئة على هذين البيتين اللذين «أحييا للإجادة أوضح الرسم فأتوا في ذلك بقصائد تفتّحت عن كمائم الأفكار زهراً . وطلعت بسماء القراطس زهراً وثنت قدود الأقلام ، وقد كادت تميل سكراً» وهكذا تستمر المباريات بتجدد المناسبات .

ومن الشعراء الذين تباروا بهذه المناسبة أبو عبد اللّه[148] العزفي الذي أورد له ابن الحاج اثني عشر بيتاً وأبو العبّاس بن عبد المنّان وأبو العباس النعمان[149] وابن الحاج نفسه ، الذي نظم قصيدة احتوت على أربعة عشر بيتاً ، وطبيعي أن هذه القصيدة كانت تدور حول المعنى الرئيسي ، وهو الفأل الحسن ، وانتصار أبي عنان ، وكلّها من نفس البحر ونفس القافية .

العنصر النسوي في الرحلة

جرىٰ الحديث في بعض المناسبات الخاصة عن العنصر النسوي وعن بعض نشاطه في الميدان السياسي والميدان الحربي بصفة خاصة . وإذا كنّا لم نعتد وجود معلومات كافية عن المرأة المغربية في كثير من مصادر التاريخ والأدب لأسباب لا سبيل للتفصيل فيها هنا فإن آبن الحاج قد أفادنا أن المرأة المغربية كانت تركب الهودج وتصاحب الكتائب المرينية في حركاتها نحو الزاب وقسنطينة وترتدي أحسن ملابسها . وتتميز تلك الهوادج الرائقة اللافتة للأنظار بزينتها وبحلّتها الجميلة وأغشية من الحلل المنسوجة من الذهب والإتراف إلى غير ذلك من الأثواب العراقية والأندلسية والرومية(45) وبما ترتديه من أثواب نفيسة وحلى ذهبية وفضية ويتعلق الأمر بزوجات الأعلاج والوصفان بصفة خاصة .

أمّا دور المرأة في هذا الميدان فيكتسي صبغة خاصة ومهمة نظراً للتأثير النفسي العميق الذي تحدثه المرأة بصوتها وبعبارتها وبإشاراتها وتلميحاتها وبسلوكها إلخ في حركات الجيش وإقدامه في ساحة الوغىٰ على المعارك ومجابهة الشدائد والأخطار والأهوال . ولقد أدرك المسؤولون المرينيّون فعالية هذا الدور النسوي وقدّروا عواقبه ، وحسبوا له ألف حساب من الناحية النفسية والوجدانية لضمان نجاح بعض خططه ، فأفسحوا المجال للمرأة المغربية كي تشارك في ساحة الوغىٰ بما هي مؤهّلة له وبما تستطيعه من تحميس وترغيب وتشجيع وتحريك الهمم وخلق ظروف خاصة أساسها الانفعال والاندفاع والتسابق نحو التضحية بالنفس والنفيس لنيل الشرف والمجد والأخذ بالثأر .

فكانت المرأة المغربية أثناء الرحلة تنشد وتغنّي أعذب الألحان وتصدر أرقّ الأصواب النافذة إلى الأعماق لتحريك الهمم كما قلنا وإفاضة الوجدان

وإذابة العواطف وترقيق الحواس ، وإيقـاظ الغرائـز ، وبعث روح الكفاح والانتصار على العدو أينما كان . ما هي هذه الألحان؟ وما هي هذه الأناشيد التي كانت تصدر عن نساء الوصفان والأعلاج؟

كم كنّا نود من ابن الحاج أن يكشف لنا عن فحوىٰ هذه الأغاني وعن لغتها وأساليبها ، وطرق أدائها لكنه لم يفعل إذ اكتفىٰ بالإشارة وتسجيل الظاهرة . ولو فعل لأدركنا في ميدان الغناء الشعبي وغيره من الميادين المتّصلة به حقائق تاريخية وأخرى لغوية وفنية نستطيع بها بناء مشروع تركيبي خاص بهذه الفنون التي أشرنا إليها .

كل ما هنالك أن «ما راق العيون مثل هوادج نساء الجيش التي برزت ساميات فوق الجمال وبدت في باب كل هودج جارية رائعة الجمال متزيّنة بالحـلي والحلل ، وكل واحدة تتغنّىٰ بذكر أيام الحروب والملاحم وتثيـر الحماس في النفوس ويفوح بمجاوبتها أسراب من الجواري قد أحدقن بها لابسات أفخر الملابس وهن من زوجات الأعلاج والوصفان والمماليك .

ونفس الظاهرة لو حظت في عهد يعقوب المريني في معركة «واد تلاغ» حيث واجه الجيش المريني الجيش العبدوادي بقيادة يغمرسان الأول . ففي هذه الحالة أيضاً ظهرت نساء الفريقين خلف الجيوش في الهوادج مبديات زينتهن ووجوههن وعليهن ثياب رائقة وحلل مرقومة . والغاية من ذلك كلّه هي «تقوية المعنوية» وإثارة الحماس وبعث الهمم[150] .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرىٰ أي في الميدان الاجتماعي والسياسي فإن حضور العنصر النسوي في بعض الحفلات الرسميّة شيء أكّده ابن الحاج في فيض عُبابه حيث يُورِد أخباراً عن أهل فاس الذين أخرجوا نساءهم و«قعائد البيوت الممتعة وربّات الخدور» لاستقبال أبي عنان لـدىٰ رجوعـه ، إلى الحضرة ، من الرحلة السعيدة.

ونلاحظ مرة أخرى مشاركة هذا العنصر في نفس الموضوع - في ميدان

الطرب والغناء ـ مشاركة بيّنة لها تأثير مباشر في نفوس المستمعين الذين كانوا بهذه المناسبة يستلذون هذه الألحان العذبة المطربة التي كانت تشنف الأسماع وتجلب إليها الأنظار وتسترعي الانتباه بالألحان الصادرة عن القيان اللواتي اضطررن للتوقف عن الإنشاد بسبب تدخّل أبي عنان ومخافة إثارة الفتنة بأصواتهن العذبة وجلب البلبلة .

ومرة أخرى يؤكّد لنا آبن الحاج اندفاع الجواري بأفراق السعيد يغنين فرحاً بالتلاقي ،،، فسمع التشبيب بالتشبيب ،،، وتلاحين التلاحين وظهر ملك الزنج الطار ، وكادت تهز معاطفها الأقطار ،،، والمغنيات بالقرب فائهات عن أشهىٰ من المورد العذب فدعا أيّده اللّه رئيس الفتيان ،،، فأشار إليه بإسكات القيان وإخفاء أصواتهن التي كانت شنوف الآذان،،،

المولد النبوي

أشار ابن الحاج إلى الحفلات الخاصة التي كانت تُقام في عهد أبي عنان بمناسبة عيد المولد النبوي . وذكر أن هذه المناسبة كانت تحظى برعاية كبيرة من لدن العاهل المغربي الذي كان يضفي عليها من الهالة والتقديس ما هو جدير بالملاحظة وما كان له تأثير كبير في نفوس الطبقة المثقّفة وسائر الطبقات الاجتماعية بالمغرب ومما كانت تتميّز به هذه الحفلات هو إيقاد الشموع الملونة وإطعام الأطعمة المختلفة اللذيذة وتوزيع ماء الزهر وماء الورد ، فيحضر المغنّون لامتداح من خصّه اللّه بالتعزيز كما كانت توزع صلات كثيرة وتؤدّىٰ الديون عن المسجونين الذين عجزوا عن أداء الديون ،،، وعن الأموات كذلك .

وإذا كان الاحتفال بالمولد النبوي يرجع إلى مبادرة أبي العبّاس أحمد العزفي السبتي صاحب الدرّ المنظم في مولد النبي المعظّم ، الذي شرح في مقدمة كتابه هذه العوامل التي دفعته إلى سنّ هذه السُّنّة في المغرب وحمل الناس على التشبث بها وإذا كانت هذه السنة قد بدأ ظهورها في نهاية العصر الموحدي وبداية العصر المريني وإنها لم تتخذ شكلها الرسمي وصبغتها العامة إلاّ في عهد السلطان أبي يعقوب يوسف المريني الذي عمل على تعميمها ، فإن أبا عنان هو الذي أشاعها ورسّخها واتّخذ جميع التدابير الرسمية كي تصبح من التقاليد المغربية المرعية التي تتحمّل نفقاتها ومسؤوليتها الدولة نفسها[151] .

وما ذكره عنه كاتبه أبو العبّاس أحمد بن عبد المنّان في قصيدة مولدية رفعها إليه بنفس المناسبة لكاف للدلالة على المواقف الخاصة التي اتخذها أبو عنان في هذا الشأن ليكون الحفل أبهىٰ وأعظم وأشدّ تأثيراً في النفوس على

المستوى الإقليمي وعلى المستوى الوطني : من ذلك مثلاً سكّه ديناراً ذهبياً كبيراً بقصد الهدايا ، ومن ذلك أيضاً إحداثه لآلة عجيبة الصنع أنشئت كي تزكي هذه المناسبة وتظهر جمالها وجلالها وهي آلة في غاية الدقّة ، محكمة التركيب ، غريبة الصنع ، وصفها شاعره المذكور آبن عبد المنّان وصفاً مفصّلاً في قصيدته :

وآلـة للمـواقت استقـل بـهـا ... صنـع تفوت النهي لـطفاً صنـائعه
أبيـاتهـا عـد أبـراج السمـاء ولا ... قـطب ولا فلك تـدري مـواضعـه
يجـري الهلال عليهـا جـريـاً أبـد ... على المنـازل صنـع فـاق بـارعـه
وفي البيـوت جـوراً كـل واحـدة ... منهن خصّت بميقات تطالعـه[152]

وخلاصة ذلك أن هذه الساعة تتركّب من اثني عشر طاقاً في كل طاق جارية وفي كل ساعة يخرج طائر يعلن عن الساعة الموقوتة وذلك برميه في الطست صنجة إذ ذاك تخرج جارية تأخذ بيدها اليمنى «كتاباً» يحمل الساعة المذكورة وتقدّمه إلى أبي عنان بإشارة مبايعة :

وفي اليمين كتـاب بآسم مـوقتهـا ... إلى الإمام وقد أومـأت تبايعـه[153]

وتستمر هذه السُّنّة المولدية طيلة العهد المريني والوطاسي الذي رسخت فيه وثبتت واتخذت صبغة رسمية وشعبية كما أشرنا ، وتجلّت في عدة مظاهر مادية ومعنوية وأدبيّة وثقافية كان لها ما بعدها في العصور اللاحقة .

وصف المخطوطة

ليس لدينا من «فيض العُباب وإفاضة قداح الآداب (وفي الإحاطة لابن الخطيب فيض العُباب وإجالة قداح الآداب) في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب» إلّا نسخة واحدة مخطوطة محفوظة في الخزانة الحسنيّة بالرباط والمسجّلة تحت رقم 3267 وهي النسخة الوحيدة التي عثرنا علينا لتحقيق هذا النصر الذي بين أيدينا .

ومن هنا تتجلّىٰ الصعوبة الرئيسية التي واجهتنا في عملية التحقيق هذه فكان لا بدّ ، والحالة هذه ، من بذل جهود خاصة لقراءة النص وتفهّمه واستنطاقه والنفوذ إلى خلفياته لإدراك سياقه ومراميه وأبعاده ومقارنته في بعض الأحيان بنصوص أخرى معاصرة ـ رغم قلّتها ـ علّها تفيد بعض الإفادة وتساعد على بعض الثغرات وإلحاق بعض المستدركات .

ورغم كوننا قد أشرنا في فصول سابقة إلى بعض السلبيات المتعلقة بالشكل فإننا نريد الآن أن نسجّل بعض الملاحظات ونحصرها في نقط رئيسية لأخذ فكرة عن الحالة التي وصل فيها النص إلى أيدينا .

1 ـ يتضمن 175 ورقة 25-18 من 40 سطراً بمعدل 20 سطراً في كل جهة ، كتب بخط أندلسي ملوّن ومزخرف وبعناوين بارزة مزخرفة هي الأخرى داخل إطار مستقل .

2 ـ كاتب النص ليس هو المؤلِّف بدليل أن بعض الفقرات المحذوفة حذفت بصفة مفاجئة ومرتجلة فحذفها لا يدل على اختصار مقصود ومدبّر وإنما يدل على عملية طارئة عفوية .

3 ـ احتواء النص على أخطاء نحوية ولغوية في بعض الأحيان يتجلّىٰ ذلك في

ضبط بعـض المفردات وكتابتها كتابة محرّفة وجمعها جموعاً شاذة وكذلك الشأن بالنسبة للتذكير والتأنيث ، وآسم الموصول إلخ . راجع مثلاً ورقات 117 و 119 و 121 (أ 26 مسـاكين ج مسكن) «وقلوب أودعهـا معـري زفراتها» . ضبطها بفتحة فوق (الألف مثلاً) .

4 ـ بياض في كثير من الفصول : من سطر أو سطور (راجع ورقة 107) فوت على القارىء فوائد مختلفة بعضها يتعلّق بتاريخ الأحداث المروية والبعض الآخر له صلات بالأحداث نفسها التي تركت مكانها فارغاً .

5 ـ تصويبات وتصحيحات في الهامش لسنا نعلم مَنْ هو صاحب هذه الهوامش التي جاءت لتكمل بعض النقص أو تضيف توضيحات . راجع مثلاً 90 أ و 118 أ .

6 ـ ومما يؤسف له هو ذلك البتر الملحوظ الذي وجد في بعض الأوراق كتلك التي تحمل 3 ب و 4 أو 5 أ . ويبدو أن هذه الأوراق تتضمن معلومات عن أسباب الرحلة أو تلك الأخرى (128 أ و 29 ب) التي تحتوي على معلومات قيّمة ومظاهر حضارية متعددة حول المدرسة الكائنة بجوار شالة وعلم من أعلام التدريس الشيخ أبي زيّان المتوفى ،،،، والذي حضر جنازته أبو عنان نفسه .

7 ـ وأخطر من ذلك أن قسماً مهمّاً من المخطوط قد فُقد وهو القسم الخاص بحركة أبي عنان إلى البرتغال سنة 756 هـ . وهي التي قال عنها آبن الحاج أن خبر هذه الحركة قد تقدم في هذا الديوان ، وأوردناه مشروحاً على قواعد الإيضاح والتبيان (ورقة 36) هل معنى هذا الكلام أن رحلة فيض العُباب تشكّل جزءاً من كتاب أكبر وأشمل؟ أو أن القسم المشار إليه قد ترك جانباً ولم يضم إلى فيض العُباب لسببٍ من الأسباب؟

ومن حسن حظّنا أننا وجدنا في أسلوب المؤلف الذي آلتزم بالسجع «وأخلص له» منذ البداية إلى النهاية خير مساعد على قراءة النص وتكميل جمله

الغامضة ، وتعويض بعض المفردات الناقصة ، وهكذا استفدنا من بعض السلبيات الخاصة بالأسلوب استفادة لا يُستهان بها في ضبط بعض التراكيب وتكميلها .

أبو عنان المريني

أبو عنان المريني هو أقوىٰ شخصية برزت على مسرح الأحداث في الرحلة كما أسلفنا . هو البطل الرئيسي ، لا فائدة في تكرار ذلك ، وشخصيته معروفة عرفت بها بعض المصادر التاريخية وغيرها ، المعاصرة واللاحقة وإن كان هذا التعريف ينحصر في دائرة ضيِّقة قد لا تتجاوز حدودها الميدان السياسي والميدان العسكري اللذين استأثرا بكثير من نشاطه الرسمي اليومي . فلقد استطاع أن يؤسِّس دولة كبرىٰ ، ويكون المحرِّك الأساسي لسياسة المغرب الأقصىٰ وسائر دول المغرب الإسلامي ، ولهذا الاعتبار ركّز كثير من مؤرِّخين القرون الوسطىٰ تآليفهم على هذين المحورين ولم يخرجوا عنهما إلّا في ظروف استثنائية . أما الجوانب الأخرى المتعلِّقة بحياته اليومية الشخصية وبطبعه ، وبخلقه ، وبمعتقداته ، وبوجدانه ، وبآنفعالاته وسائر ردود فعله النفسية فقليلاً ما حظيت بعناية هؤلاء المؤرخين .

وإذا كان الأمر كذلك فإن ما يهمّنا في هذه المحاولة المتواضعة هو إبراز بعض هذه المعالم الغامضة انطلاقاً ، بطبيعة الحال من الرحلة ، وعبر مواقفه المختلفة ، واتصالاته المتنوعة وسائر ظروف تكيّفه مع الأحداث التي عاشها في هذه المرحلة ، وتعايشه مع الأفراد والجماعات التي شكّلت محيطه البشري في وقت معيّن .

صفاته البدنيّة:

لم يهتم آبن الحاج بهذه الناحية من مخدومه ، ولم يعرها عناية تذكر كعنايته بالجوانب الأخرى المرتبطة بخلقه وبأخلاقه بصفة عامة . كل ما نعلمه منه أنه كان يتمتع بصحة جيّدة ، وقوة بدن منيعة بالرغم مما أصابه من مرض

وعلل خطيرة قبل رحلته وأثناءها . ونتيجة لذلك فلقد سقط طريح الفراش للمرة الثالثة . وكان مرضه خطيراً وهو على أبواب فتح قسنطينة وعنابة ، ثم اشتد مرضه مرة أخرى في الإياب مما خلق بلبلة في صفوف الجيش وسكان المدن المفتوحة . ومع ذلك فقوّته الجسمية كانت دائماً ممتازة ، مكّنته من اقتحام الأخطار والأهوال ، والصمود أمام كل العقبات ، والجهاد والمجاهدة ، ومقاومة الحر الشديد في الصحاري في الزاب وفي الجريد ، وتحمّل العطش وصوم رمضان (رغم إفطار كل الجيش والخدم) والقفز بالفرس من القناطر . وتخطي الأنهار والسيول الجارفة كل ذلك كان يتحمّله بصبر وجلد . وكان لا ينام إلّا قليلاً! ويتقدم الكتائب ويتفقد المنازل والقصور ، وينزل إلى الميدان ليقتلع الأشجار ويهدم الدُور ويتأكّد من سير الأعمال وهو يقاوم الأعراب بطولقة وفرفر وتقاوس! وما سوى ذلك فلا نكاد نعلم عنه شيئاً .

ولكن المصدر الوحيد الذي أفادنا في هذه الناحية هو أبو الوليد إسماعيل ابن الأحمر الذي أورد في كتابه «روضة النسرين» بعض التفاصيل التي لها أهميتها ، يقول في معرض وصفه لأبي عنان : «أنه كان أبيض اللون ، تعلوه صفرة قوية . طويل القامة ، يشرف الناس بطوله ، نحيف البدن ، عالي الأنف حسنه أزب ، جهوري الصوت ، في كلامه عجلة (، ، ،) أعين أدعج ، أهدب الأشفار ، جميل الوجه ، بارع الحسن ، عظيم اللحية ، ولم ترعيني في جيشه أعظم لحية منه ، ولا أحسن منها ولا أملح منه وجهاً»[154] .

أمّا صفاته الأخلاقية والأدبية فلقد أشار إليها كثير من مترجميه الذين اتّفقوا على أنه كان يتوفر على صفات عالية ممتازة ، نادرة ، تدل على النبوغ ، والعبقرية ، وعلو الشأن ، والاستعدادات الفطرية ، والمؤهلات الطبيعية (بين بني مرين كلّهم) والملكات الفكرية الحادة ، والذكاء المفرط ، والذهن الثاقب ، والرأي الحصيف ، والقدرة العجيبة على سرعة التكيّف مع الأحداث ، ومع البيئات ، وحسن تفهّم الغير والتفاهم مع هذا الغير إلى غير ذلك من القدرات والخصائص ، التي تميّز ذوي النبوغ والتفوّق والموهوبين ، مما لا نجده عند غيره من سائر ملوك بني مرين .

فهو بإجماع هؤلاء المؤرخين فارس ، شهم ، بطل ، شجاع يقوم في الحرب مقام جنده ، أسد هصور ، عارف بركض الجياد ، قوي ، منيع ، صبور ، مجاهد لا يعرف الكسل ولا التراخي ولا النوم ، ولا الفتور ولا الهدنة ، ولا التساهل في إيجاد التدابير اللازمة ، ولا التردد في تحمُّل المسؤوليات الصعبة ، قوي عنيف ذو شدة وبأس في الظروف اللازمة ، حليم عاطف ، ليِّن متفهِّم ، متسامح في المواقف التي تقتضيها الضرورية وتستوجبها حسن السياسة ، ومصالح الرعية .

هو «ملك العلماء» و«عالم الملوك» ، هو الأديب المناظر المحاور ، الفقيه ، المحدِّث ، المنشد ، الراوي ، الشاعر ، المبدع ، الكاتب ، البليغ ، مكرم الأدباء ومتفقِّد العلماء ، ذو الخط الحسن ، الحافظ للقرآن الكريم ، العارف بناسخه وبمنسوخه ، الناقد المجرِّح المعدِّل ، العارف بالمنطق وأصول الدِّين والحساب .

هذه وغيرها ألقاب سامية تشريفيّة خلعت على أبي عنان في كل مصدر تعرّض له من قريب أو من بعيد فجعلت منه أقوىٰ شخصية رسمية عرفتها الدولة كما أسلفنا .

وإذا تذكرنا أن أبا عنان ولد سنة 729 هـ وتربّع على العرش سنة 749 هـ ، وتوفي سنة 759 هـ ، ودامت دولته فقط عشر سنوات تقريباً أدركنا مدى جسامة المسؤولية التي تحمّلها وهو آبن عشرين سنة وأثناء مدة حكمه القصيرة ، ومدى التضحيات التي بذلها على الصعيد السياسي في سياسة المغرب الداخلية وسياسته الخارجية ومع بني نصر ومع بني عبد الواد ، ومع بني حفص ، وعلى صعيد البناء الحضاري ، والثقافي ، والاجتماعي ، والقارىء لفيض العُباب ، والمُتتبّع لجميع أطوار هذه الرحلة ، والمستقرىء لما تتضمّنه في ثناياها من أسباب وبواعث وأطوار ، والمتأمّل للمواقف وسائر أنواع السلوك التي سلكها أبو عنان في السرّاء والضرّاء سرّاً وعلانية يستطيع لا محالة ، مع النقد ، أن يخرج بنتائج تساعده على أخذ فكرة كافية عن شخصية هذا الرجل ، والتأكّد من

صحّة الأقوال التي قِيلَتْ فيه ، والأحكام التي صدرت بشأنه من لدن هؤلاء المؤرِّخين الذين أشرنا إليهم.

وأهم هؤلاء المؤرخين : آبن الأحمر في «روضة النسرين» وفي «نثير الجمان» ، وآبن خلدون في «التعريف» وفي «العبر» ، وآبن القاضي في «الجذوة» ، والمقري في «نفح الطيب» وفي «أزهار الرياض» إلى غيرهم من المحدثين الذين اكتفوا بالنقل والرواية أو أضافوا بعض العناصر المستخلصة من الأحكام السابقة . وأفيد من ذلك بالطبع هو هذه الوثيقة التي بين أيدينا لأنها تضع رهن إشارتنا لا أحكاماً جاهزة ، ولا أقوالاً مردّدة ولكن مادة حيّة في بنية محكمة ، وتجربة شخصية واقعية مصوغة طبعاً في قالب مصنوع ولكنها حافلة بتجارب إنسانية أنتجتها ظروف معيّنة سياسية ، واجتماعية واقتصادية ، وثقافية يستطيع الباحث الخبير والمحلِّل الناقد أن يستثمرها ويستخرج منها النتائج الحتمية التي تساعده على فهم وتقييم ما ورد في هذا الموضوع في مصادر أخرى . فالعملية في مثل هذه الأحوال عملية تحليلية نفسية ما دام الأمر يتعلّق بوثيقة رحلة أو وثيقة شهادة مباشرة تحمل في طيّاتها كثيراً من المعطيات الخفيّة .

ومهما يكن من أمر ، فإن أبا عنان ، حسب تعاملنا مع هذه الوثيقة ، وعلى الصفة التي أشرنا إليها قد برهن في كثير من الأحيان والمواقف ، والظروف المختلفة عن كثير من هذه الصفات والأخلاق التي تعدّدت وتردّدت في المصادر والمراجع العربية والأجنبية . فالمعارك الضارية التي خاضها ضد الأعراب في الصحراء ، وضد بني عبد الواد ، وضد بني حفص ، وضد النصارىٰ نصارىٰ قشتالة وأراجونة والبرتغال ، والتضحيات الجسيمة التي بذلها في الميدان المالي والأدبي وهو على رأس القافلة يخطِّط ويدبِّر ، وينفِّذ ، ويقود ، ويمرح ، ويلعب ، ويبت في أمور الجبايات ، ويحكم بين الرعايا ، ويعين السفراء والوزراء ، ويحضر المبارزات ، ويقضي على الخونة والمتلاعبين بمصالح الرعية ، ويتعرّض للسيول الجارفة وللكوارث الطبيعية ، وللمؤامرات السياسية ، ويقوم بأعمال البرّ والإحسان مما يدخل في ميدان

المصالح العمومية كل ذلك وغيره يؤكّد كثيراً من جوانب شخصيته اللامعة الفذّة . كم عاقب ، وكم كان شديداً في العقاب . لكن كم عفا وسامح ، وكم تصدّق وأعطىٰ من الخلع والثياب ، وخفّف من ثقل عبء المظلومين والسجناء والمدينين وسائر المعوزين . كم «صال وجال» ، «وأقام الدُّنيا وأقعدها» لفائدة وحدة الإسلام ، وجمع شمل المغاربة كلّهم وتحقيق السلام والوئام .

وبالإضافة إلى ذلك فإننا نظفر في هذه الرحلة بمعلومات أخرى مختلفة تزيد في تعريفنا بهذه الشخصية : بعضها يزكّي ما لدينا ، وبعضها الآخر يعتبر عنصراً جديداً بوصفه صادراً ، لأول مرة ، عن شاهد عيان كان في خدمة هذه الشخصية وملازماً لها بصفة وثيقة .

يمكن القول أن آبن الحاج اهتم اهتماماً خاصاً بشخصية أبي عنان ، فأكثر من لفت النظر إليه ، وإبراز صفاته الخلقية الحميدة . فعل ذلك في كل مناسبة وفي كل ظرف نثراً وشعراً . فهو الشخصية النموذجية التي لا توجد مثلها . فكثيراً ما عدّد صفاتها وكرّر القول فيها وأطنب منوهاً بخصالها وشيمها وعاداتها وقدراتها ، وبمؤهلاتها مما ذكرناه سابقاً ولا ضرورة لذكره مرة أخرى . ومما يُستفاد من جهة أخرى من رحلته موضوع لباسه في ساحة المعركة . فقد كان أبو عنان يرتدي ملوطة بيضاء تحمل شواشي كتب عليها آثار مجده ، وفوق الملوطة مصحف ملوكي ، وله المظلة الشريفة ، ويجعل على رأسه بيضة هندية ، ويلبس على المصحف غفارة حمراء»[155] .

لقد كان أبو عنان عنيفاً ، قوياً ، عطوفاً ، يجمع بين إفراطه في العنف وحكمته ورزانته وتعقّله ، والدليل على ذلك المعاملة التي صدرت منه تجاه يعقوب بن علي[156] الذي أذنب فعفا عنه ، وقبوله لتوبة أمير قسنطينة وعفوه مع أخيه ، وقبوله لطاعة شيخ أولاد عيسى بن دريد وأولاد ميمون[157] رغم ما صدر عنهم من عصيان وتمرّد . وهداياه لمن أحبّه وأطاعه كثيرة وغنية ومتنوعة . لا أدلّ على ذلك من الخيول المجهزة بالذهب والفضة الخالصة التي قدمت لابن مزني[159] ، كما قدمت لنسائه «الكسي السابغة الفواصل ، المثقلة بالذهب ،

وأسبغت عليهن المدارع فائقة الديباج ، وألحفن بالأردية المنتخبة» . كل ذلك تم بأمر من أبي عنان .

أما شجاعته في ميدان الوغىٰ وخوض المعارك الطاحنة فهي واضحة كل الوضوح ، شهد بها آبن الحاج قائلاً : «وكان مولانا يبعد عن صوب المحلات (، ، ،) المصائد والمطارد ، ومنتحياً الجهات التي تنجم منها طلائع العدو المعاند ، ويميل على الجوانب المخوفة مبتدراً للطعن إن أزفّت الغارة»(160) .

لقد كان أبو عنان ـ بالإضافة إلى كل ما سبق ـ يهتم كثيراً برجال التصوُّف والصلاح ويبحث عنهم أينما كانوا فيحل بجانبهم ، ويستعطفهم ويكرمهم وينال من بركتهم يتضح ذلك في موقفه من الإمام الصوفي الربّاني أبي عبد اللّٰه الصفّار الذي رغب منه أن يصحبه في الرحلة فأبىٰ . ومع ذلك فقد قبل عذره ، وأمر بتسريحه وعفا عنه(161) .

وقد عبّر هو نفسه عن ميله هذا قائلاً ، عندما دخل إلى روض موحش، : «هذا موضع لا يكون أحسن منه لمن انقطع إلى العبادة ، وقطع العلائق في طلب السعادة ، وأخلص لعالم الغيب والشهادة ، وهو بعيد عن الناس»(162) . وقد تمنّىٰ أن يكون زاهداً . وعند تدشينه للزاوية المتوكليّة بادر باستدعاء شيوخ الزوايا للحفل وأعطىٰ أوامره السامية بتحرير ظهائر التعيين والترقية لفائدة جماعة من المتصوّفة ويذكر آبن الحاج أن ولياً من أعظم أولياء اللّٰه اتصل بمخدومه فلم يزل مولانا أيّده اللّٰه معتقداً فيه وفي أمثاله ، معتملاً في الاهتمام بأهل اللّٰه تعالىٰ أعظم اعتماله «معتنياً بالسالكين مسالك أهل الطريقة» .

ويتضح هذا السلوك مرة أخرى في زيارته لأضرحة الصلحاء وللأولياء . فهو لا ينقطع عن هذه الزيارة أينما وُجِد . وهو الذي يبحث عن هذه الأضرحة ، فيجد لذة ومتعة في الدخول إليها كما في الإياب عندما دخل ضريح شيخ المشايخ سلطان العارفين أبي مدين شعيب الأندلسي فأطال به المقام ، وواصل الدعاء وأدام(163) . ثم سار إلى ضريح الشيخ الصالح أبي

إسحاق الطيّار فأقام هنالك أيضاً معتملاً في الدعاء[164] . وببجاية انقطع عن الأشغال وانصرف قاصداً ضريح الشيخ الصالح الشهير الولي سيدي أبي زكرياء الزواوي فوفاه حقّ زيارته .

وإذا انتقلنا إلى جانب آخر من جوانب هذه الشخصية ، وهو جانب مراسيم الدخول والخروج فإننا نجد أبا عنان شديد العناية بها ، وحريصاً على أن تكتسي هذه المراسيم صبغة رسمية فائقة تنال من إعجاب الرعية ، وتؤثر تأثيراً قوياً في نفوسهم ، وتجعلهم يحسّون بقوة وعظمة الدول في السفر وفي الحضر ، تصطف الصفوف على جانبي الطريق في نظام بديع وفي ترتيب لا مثيل له ، فيخرج الناس بألبستهم الجديدة للقائه . بما فيهم ربّات الخدور من نساء وأوانس . وتقرع الطبول وترتفع الأصوات بالدعاء جهاراً[165] . وتخفق البنود والألوية ، وتقف كل فرقة من أهل الحنطات بعلمها الخاص الذي يحمل شعار عملها. وعند تقدّم الموكب الملكي تزحف وتنضم إليه جميع العناصر الممثّلة فيكون ذلك اليوم يوماً مشهوداً ، فيـدخل النـاس ويقبّلون البساط الملوكي «يقبّلون الأرض قبل تقبيل اليـد» ، وقد تغنّى الفتيات والفتيان غناءً عذباً له وقع في الأذن فيضطر أبو عنان إلى حمل الخلصان على إسكاتهن وإسكات حاملي الطار (وذلك ما حدث مثلاً في مناسبة الرجوع النهائي من الرحلة والدخول إلى فاس) . ويتبع ذلك أعمال إحسانية كتوزيع الهديا والخلع على الرجال والنساء[166] .

لقد كان أبو عنان متمسكاً بعقيدة الإسلام ، متشبثاً بدينه لدرجة كبيرة لم يعرف سبيلاً إلى التهاون ولا التراخي في أداء الواجبات المفروضة والمسنونة سواء كان في السفر أم كان في الحضر . فهو يحضّ على إقام الصلوات ويعطي المثل ولا أدلّ على ذلك من التدابير الرسمية التي اتّخذها بهذا الشأن حينما كتب إلى عمّاله قائلاً : «إن أهم أموركم عندي الصلاة» وقد كتب إلى جميع القضاة فيما يتعلّق بصلاة الجماعة ، واتّخذ إجراءات شديدة ضد كل من تقاعس عن أدائها «ولم يشك أنه يقتل حداً إن لم يكن كفراً» . وقد عيّن في نفس المناسبة موظفاً خاصاً بكل بلدة هو صاحب الصلاة لأن القضاة قد

ينشغلون بالأحكام والدواوين .

أما في الميدان الاجتماعي فإننا نراه يلجأ إلى تدابير خاصة منها إقامة مستودعات يجعل فيها القضاة أموال الأحباس ومستفادات الأوقاف وأموال المواريث واليتامىٰ ، يتولىٰ رعايتها قاضي البلد وخطيبه[167] . ويأمر بتعيين أملاك للتحبيس برسم فداء الأسرى ، وبرسم المدارس والزوايا والمارستانات ، وإطعام الفقراء والمساكين . وما بناؤه للزوايا المتعددة في فاس كالزاوية المتوكلية ، وفي تلمسان بسيدي الحلوي وفي سلا وفي سبتة على المسافرين . ولذلك اشتهر عند مؤرِّخيه «بباني الزوايا» .

إيمانه بالغيبيّات :

ومن أهم ما يميّز ذهنية أبي عنان ومعتقداته إيمانه بالغيبيّات ، واعتقاده في الفأل بصفة خاصة . وقد برهن عن هذا السلوك بصفة تكاد تكون ثابتة وملحّة ، فقبل إقدامة على الحركة السعيدة اجتماع الشاهد أبو عمران مع رجل من المعدودين إذ ذاك من أهل الخير ، وكان بين يدي أبي عمران كتاب لم يعرف ذلك الرجل ما هو ففتحه على وجه التفاؤل فنظر الحاضرون لأول صفح برز في ذلك الكتاب وقرأ ما نصّه : «فتح اللّٰه لكم في هذه الحركة (، ، ،) يفتح اللّٰه لكم به شرقاً وغرباً ، ، ، »[168] .

وفي مناسبة أخرى جاء رجل فأخبر أبا عنان بأن طائرين حطّا على شجرة وهما نفس الطائرين اللذين أخذ بهما الفأل الحسن في السنة المنصرمة! فسرّ أبو عنان بذلك! . وفي مناسبة أخرى أيضاً يفتح كتاب الأغاني على وجه التفاؤل فلم تقع عيناه الكريمتان إلاّ على بيتين من قصيدة لأعشىٰ همدان ، فسرّ بما احتواه هذان البيتان!

ولم يكتفِ ولم يقنع بكتاب الأغاني فلجأ إلى «جزء فيه للحسن كل مودع من مروياته الشريفة ما (، ، ،) به نهل وعلّ فتشوّف لأخذ الفأل فيه»[169] . ثم لجأ مرّة أخرى إلى كتاب متنوّع المواضيع فطلعت له عينية آبن خميس وحمد اللّٰه على بُشراها[170] .

ويروي لنا آبن الحاج قصة الولي الصالح أبي عبد الله اليجري الذي كان «يخبر بأحوال الموتىٰ ومصائرهم وما كان من نافعهم وضارهم ، ويبلغ وصاياهم محقّقة بأمارات يعرفها الموصون إليهم . فلم ينازعه قطّ في ذلك منازع فأُدِّيت بأخبار هذا الولي عن الموتىٰ ديون (، ، ،) فآستخبره مولانا عن أحوال مولانا أمير المؤمنين أبي الحسن ، فأخبره بأنه بخير على ما يسر ، وآستجلىٰ ما عنده في فتح قسنطينة (، ، ،) وأخبره أنه يفتحها ويأخذها أخذاً حسناً» .

وكما يدخل في هذا الإطار قضية السفينة التي تحمل اسم «غراب» والتي تشبث بها أبو عنان وألحّ على استعمالها ، لقد أمر أن يصنع له غراب بسلا ، وأن يتلو الأسطول هذا الغراب . كما أمر بإرسال غرابين يتبعان القائدين البحريين إلى تونس[171] ، فإلىٰ ماذا يرمز الغراب في اعتقاد أبي عنان؟ إنه يرمز إلى الويل والثبور اللذين سينزلان بأهل قسنطينة المعاندين ، وأهل تونس العاصين .

ثقافة أبي عنان :

ثقافة أبي عنان ثقافة واسعة متنوعة ، عربية إسلامية كثيراً ما نوّه بها آبن الحاج . ونرىٰ أن هذا الملك أكثر الملوك ثقافة وأدراهم في عصره ، وأنه امتاز عنهم بكثير من الصفات الفكرية والمؤهلات العقلية . ذلك ما يستفاد من رحلته ، بما تتضمنه من إشارات ومحاضرات ومحاورات ، وأحاديث مع الفقهاء والعلماء والأدباء .

مجلسه من أعظم المجالس العلمية والأدبية في عصره ، إن لم يكن أعظمها على الإطلاق . لحرصه الشديد على أن يضم هذا المجلس أشهر الشخصيّات الثقافية من فحول الشعراء وفطاحل العلماء وأنبغ الأدباء وسائر المثقفين المرموقين ذوي الصيت البعيد والإشعاع القوي في المغرب الأقصىٰ أو خارجه من الأندلس بصفة خاصة . وكتّابه كانوا كذلك من ذوي الثقافة العالية من النخبة الممتازة التي كان يُشار إليها في المحافل والمجالس على

صعيد المغرب وعلى صعيد المشرق أيضاً نذكر منهم على سبيل المثال صاحب القلم الأعلىٰ أبا القاسم بن يوسف بن رضوان وأبا الفضل القاسم آبن رضوان وأبا الحسن علي الخزاعي صاحب القلم الأعلىٰ وأبا الحسن علي آبن أبي مدين شعيب العثماني الشهير وأبا الحسن علي بن محمد الصباغ العقيلي القاضي ناظر الأمير أبي زيد عبد الرحمان والكاتب الشهير محمد آبن جزي الكلبي مدون رحلة آبن بطوطة وأبا العبّاس أحمد بن عبد المنّان والعلاّمة المؤرِّخ الشهير عبد الرحمان آبن خلدون[172] .

كان يحفظ القرآن ويعمل به[173] ، ويهتم بالعلم وبالعلماء إذ أمر ببناء مدرسة عظيمة قرب شالة ، وإعطاء الكساء الرفيعة والملابس الفخمة البديعة للطلاّب والمدرّسين . وكان محدثاً له إسناد[174] يجلس ويقدّم له مصحف عثمان وصحيحا مسلم والبخاري في قبتين من ذهب[175] ، وكان بين يديه الكريمتين الكتاب العزيز في تفسير غريب القرآن «وهما مما أكثر مطالعته في كل الأحيان وأشخص معانيه التي برزت في شأو الإحسان»[176] . ومن شيوخه أبو عبد اللّٰه محمد بن أحمد المقري الذي أخذ عنه صحيح مسلم[177] ، والفقيه الصفّار المراكشي الذي أخذ عنه علوم القرآن ، والعبدري الذي لازمه طول حياته ، والفقيه أبو عمرو الذي كان يعلّمه القرآن والعلم ، وأبو عبد اللّٰه محمد بن عبد الرزّاق شيخ آبن خلدون الذي كان يقرأ عليه القرآن بقراءاته المختلفة[178] .

وأهم من ذلك فإن آبن خلدون عبد الرحمٰـن قد تتلمذ على أبي عنان ، وأخذ عنه صحيح البخـاري رغم كون المؤرِّخ الكبير العظيم لم يشرْ إلى ذلك لا في تعريفه ولا في كتابه العبر[179] .

وقد كان أبو عنان يتوفّر على خط جميل ، بارعاً في رسم الحروف العربية ، متفنّناً في رسم أشكالها لافتاً للنظر في إتقان إخراجها وإبـداع صورها . وكان يتدرّب على هذا الفن منذ صباه إلى أن أصبح من الخطّاطين المشهورين في الأوساط العلمية . وكان يساعد أباه على استنساخ المصحف

الكريم ، وخير مثال على ذلك هو ما ترك لنا من آثار في الموضوع حيث تتضح براعته وتتجلّى فنيته . وقد احتفظت لنا المكتبة المغربية[180] بنموذج من خطه الجميل الذي يُعتبر في نفس الوقت نموذجاً من الخط المغربي في العصر المريني ، ويتعلق الأمر بكتابه «الأحاديث الأربعينية من مروية الخلافة العلوية» . تأليف آبن مرزوق الجدّ برسم السلطان أبي الحسن .

وتدلّنا مصادر أخرى على نشاط أبي عنان العلمي في الميدان التربوي حيث برهن عن كفاءة أثارت الانتباه ، وعبّرت عن اتجاهات متحرّرة ترمي إلى محاربة التقليد ونبذ الطرق العقيمة المعتمدة على الحفظ والاستظهار كوسيلة وحيدة للتعليم ، والاهتمام بملكة النقد والتحليل والمناقشة والاستنباط والاستدلال . «وهكذا نراه يتدخّل في مجلسه علمي يرأسه الفقيه الشيخ الصرصري في الزاوية المتوكليّة ويوجّه إليه من يتحاور معه ويتنافس فيعجز الصرصري ويغضب وينصرف الرجل إلى حال سبيله فيستدعيه أبو عنان ويوصيه بعدم الاتكال على الحفظ وحده ، وينصحه بالتخلّي عن هذه الطريقة والاستعداد للمحاورة والمجالدة لأن ذلك لا يقدح في رتبته»[181] . وقد كان أبو عنان نفسه يلتزم بهذا المبدأ في حياته الفكرية ، حيث وجدناه يعزّز حفظ صحيح البخاري بشرحه الخاص له[182] .

وتحدّثنا المصادر أيضاً «أن أبا عنان هو الذي زود مدينة فاس بأكبر خزانة للمطالعة عرفتها العاصمة العلمية في عصر بني مرين ، خزانة الكتب وخزانة المصاحف ، وجمع فيها أكبر عدد ممكن من الكتب المحتوية على أنواع من علوم الأديان والأبدان والأذهان واللسان وغير ذلك من العلوم على اختلافها وشتّى ضروبها وأجناسها ، وعيّن قيّماً لضبطها ومناولة ما فيها»[183] .

ثقافته الأدبية :

تميّز أبو عنان بين ملوك بني مرين بما امتاز به من ثقافة أدبية واسعة . وقد برهن عن هذه الثقافة في مناسبات كثيرة ، وفي ظروف مختلفة كما يتضح من فيض العُباب الذي ينطوي على أكثر من إشارة ، وأكثر من فائدة في

الموضوع ، وليس بغريب أن يلتفت آبن الحاج إلى هذه الظاهرة ويعني بتسجيلها لأنه شريك مخدومه في الحرفة .

فكثيراً ما ردّد أن مولاه مجيد في نظم الشعر والكناية الفنية ، «وكان مولانا بظاهر قسنطينة نـأخذ من مـاله ومن أدبـه ، ونستضيء من العلوم بأنـوار سهمه»[184] ، وأن المياه كانت مطردة كحدود علومه ، والروضات اليـانعة كمنثوره ومنظومه[185] . وعندما دخل مولانا بجـاية وتجـوّل في جنباتهـا ، وانصرف الناس ، ولم يبقَ إلاّ الخواص الذين يحسنون التخاوض والتفاوض في المنثور والمنظوم وكرع مولانا من المناظرة والمحاورة[186] .

ويروي لنا المقري في أزهار الرياض (ج 2 ص 316)[187] وفي نفـح الطيب : (5، 366) إن أبا عنان كان يحفظ كثيراً من شعر آبن خميس[188] ويعتني به أشد اعتناء ، فأورد له قصائد طويلة من رواية أبي عنان .

وأبو عنان هو أستاذ آبن الحاج في النظم . أليس هو القائل؟ :

أعــرني أميـر المؤمنين بــلاغــة	فـإني عن عجز لمـدحـك هـائب
وأنـطق لسـاني بــالبيـان معلّمــاً	فإني في التعليم لا الجود راغب[189]

واهتمامه بالشعر والشعراء واضح بيِّن يتجلّى في مواقف كثيرة شجّع فيها الشعراء وخلع عليهم الخلع الكثيرة ، وقدّم لهم الهدايا الجزيلة الثمينة كتلك التي نالها من يده الكريمة الشاعر المبدع آبن عبد المنّان الذي نظم قصيدة بمناسبة فتح تونس[190] .

وعند ما كان بظاهر بسكرة مع آبن مزني جلس مع أهل مجلسه العالي مجيلاً في ميدان المذاكرة ، «ناظماً ما يشاء من فريد فوائد المحاضرة» .

ونفس الشهادة يؤدّيها لفائدتـه أحد معـاصريـه الأفذاذ وأحـد خدّامـه المرموقين ، وصديق من أصدقاء آبن الحاج المخلصين . ونعني به الأديب الكبير الوزير آبن الخطيب القائل في شأنه :

أوجب حقّ الشعـر والكتابـة وأملت أعـلامهـا جنـابـة

وإذا كان أبو عنان كما شهد بذلك آبن الحاج نفسه وغيره من المؤرِّخين والأدباء أديب عصره وشاعر وقته فأين مساهمته وما نوع هذه المساهمة؟

يفيدنا آبن الحاج أن الملك الشاعر كان سريع البديهة ، فيّاض القريحة ، يرتجل الشعر ارتجالاً ، ويخوض سائر مجالاته ، وينظم في سائر أغراضه .

إلّا أنه مع مع الأسف لم يزودنا إلّا بأبيات قليلة من شعره ضمنها رحلته وهي ـ مع قلّتها ـ إن دلّت على شيء فإنما تدل على نبوغه وتمرّسه ، وطول باعه ، وطول تجربته ، والدليل على ذلك هو ما حدث عندما «نظم قاضي الحضرة أبو عبد اللّه محمد المقري هذا البيت المفرد :

دخلت بـلاد اللّه شـرقـاً ومغـربـاً فلم تـرَ عيني مثـل بسكـرة يبسـا

«فزاد عليه مولانا أسرع من ارتداد الطرف ، وأوحىٰ من رجع البصر وهو العطف» .

ويـا قبـح مـا أسـود القتـام بـوجههـا فمذ غشي الأبصار لم تبصـر الشمسا
وخسـراً وسحقاً لابن هـان لقد غـوى بمـدح بـلاد الـزاب إذ عـدم الحسـا

ثم أشار مولانا إلى ما أنشده من شعر أبي القاسم آبن هانىء الأندلسي :

خـليلي أيـن الـزاب مني وجعـفـر وجنـة عـدن بنت عنـهـا وكـوثـر

«وفي الحين أمرني مولانا بالزيادة على ثلاثة الأبيات وقال : اذكر آبن مزني بأحسن الصفات . ولما كتبت أبياتي وناولتها اليد الكريمة قرأها وقال لي : آطوِ بساط هذا النظم»(191) .

وهذا الحوار كافٍ للدلالة مرة أخرى على تجربة الأمير الشاعر وطول ممارسته ، واطلاعه علىٰ التراث الشعري . ويفيدنا آبن الأحمـر في نثير الجمان (ص 336) أن الشاعر آبن عبد المنّان نظم قصيدة وصف فيها قتل الأسد

للثور أمام أبي عنان فرفعها إليه ووافق المجلس أن الشريف العراقي أبا عبد اللّه الحسين رفع هو أيضاً في نفس الموضوع قصيدة من نفس الوزن والقافية فلما قرئت قال شيخ بني مرين أبو مهدي عيسىٰ لأبي عنان : يا أمير المؤمنين إن قصيدة الشريف أحسن من قصيدة ذلك الحضري ، فقال له أبو عنان : ليس الأمر على ما ذكرت اسكت! فإنك غير عارف بالشعر ، إن قصيدة أحمد بن عبد المنّان أبدع من قصيدة الشريف ،،،» .

ومثل هذا الكلام له دلالة في الاتجاه الذي نقصده ومن المؤسف أن المصادر الأخرى التي بين أيدينا لم تزودنا هي الأخرى إلّا بكمية ضئيلة من شعر أبي عنان . وهي قليلة جداً إذا ما قسناها بتلك التي تناولت جوانب أخرى من شخصيته ونشاطه أيرجع ذلك إلى إهمال أو ضياع أو سكوت متعمّد ولأسباب أخرى تتعلق بالشعر كمبدأ ، كقضية أخلاقية كتلك التي أثارها آبن خلدون والعبدري والمكودي وبصفة خاصة آبن الدراج في كتابه الإمتاع والانتفاع في مسألة سماع السماع التي بيّنّا فيها رأينا في أبحاث أخرى سابقة[192]؟

مهما كانت الأسباب التي حالت دون معرفة جميع ما نظمه أبو عنان من أبيات ومقطعات وقصائد فإننا مدينون لابن الأحمر ولابن الخطيب ولابن القاضي وللمقري الذين احتفظوا لنا ببعض هذا الإنتاج وقدموا لنا جزءاً يسيراً منه ، قد لا يكفي لتقييمه وتصنيفه وإعطاء جميع التفاصيل الضرورية لإصدار حكم نهائي عنه .

ولكن هذا القدر قد يكون كافياً لأخذ فكرة عن الشاعر وعن مذهبه . أورد له آبن الأحمر في نثير الجمان بيتين في شعر الحكمة ، وبيتين آخرين في وصف تفّاحة . كما أورد له قصيدة بائية في 25 بيتاً[193] نظمها في وفاة حاجبه وخادمه الرئيسي صاحب القلم الأعلىٰ محمد بن أبي عمر التميمي ، ومطلعها :

ألمـاً بـأجـداث العلىٰ والمنـاصب   تحيـي ثراها واكفات السحائب ،،،

لقد كنت لي أنساً وخلّاً وصاحباً فبنت ولم تثن العنان لصاحب

كما زودنا بخمسة أبيات نظمها أبو عنان محيياً كاتبه وحاجبه المذكور[194] .

ونجد عند ابن القاضي في الجذوة أشعاراً متنوعة نظمها أبو عنان في غرض النسيب والغزل تبلغ في مجموعها 27 بيتاً .

نقتطف منها كنموذج هذه الأبيات :

يا رامياً بالنبال من غنج وطائلاً بالنصال من دعج
وبادياً كالهلال في سحب وطافحاً من سلافة الفلج
وباسماً عن لثاليء نسقت وناسماً كل عاطر أرج
رفقاً بقلبي فإن فيه هوىً ولا تطل في الملال والحرج

وواضح أن هذا الشعر لا يخلو من صنعة ، وأن معانيه تدور حول مواضيع معروفة .

ومما خاطب به ابن الحاج النميري هذان البيتان اللذان أوردهما :

يا ملمّاً بأرض تلك البلاد حي فاسا وحي أهل الوداد
إن تنادت بشخصها عن عياني فحماها مصور في فؤادي

وإذا أردنا أن نأخذ فكرة عن المقاييس النقدية التي كان يحتكم إليها أبو عنان في استحسان الشعر واستقباحه لجأنا إلى الحوار الذي دار بينه وبين ابن الحاج ، كاتبه ، عندما نظم المقري بيتاً منفرداً ولم تجد قريحته بأكثر منه .

ونستنتج من موقف أبي عنان ما يلي :

1 - الشعر طبع وسليقة : كما يخضع لما يجود به الطبع . فقد يجود ببيت واحد كما وقع للشاعر المقري . وقد يجود ببيتين كما وقع لأبي عنان نفسه .

2 - الشعر صناعة : نفهم ذلك من تكليفه لابن الحاج بإتمام الأبيات الثلاثة .

3 - ينبغي للشاعر أن يكون أميناً في تصوير الواقع وأن يبتعد عن المبالغة

والتهويل يفهم من هجوه لابن هانىء الأندلسي في وصفه لبلاد الزاب كما يفهم من قول آبن الحاج الذي بالغ في مدح أبي عنان وأخفىٰ صوره وأخفىٰ صور آبن المزني .

4 ـ ينبغي للشاعر أن يـراعي مقتضىٰ الأحوال وأن لا يبتعـد عن الغرض المقصود ، ولقد انحرف آبن الحاج عن هذه الطريقة إلى درجة جعلت أبا عنان ينهاه عن فعله ويأمره بـ «نسخ ذلك الحكـم»[196] .

* * *

وبعد فهذه محاولة من المحاولات المتواضعة التي نقوم بها للتعريف بثقافة المغرب وحضارته في عصر من عصوره الزاهرة ، عصر الـدولة المـرينية والوطاسية .

وما نظن أنها محاولة موفّقة كل التوفيق وذلك لعدة أسباب منها المخطوط نفسه ـ كما أشرنا إلى ذلك ـ الذي يوجد في حالة رديئة جداً : تلاشت أوراقه وانعدمت أجزاء منه وآنمحت فقرات كثيرة فصعبت قراءته وعسرت بل أصبحت مستحيلة في بعض الأحيان ومنها ظروف الطبع والمشاكل المتعددة الناتجة عنه ، مما اضطرّنا إلى الاختصار وعدم نشر جميع ما توفّر لدينا من معلومات حول آبن الحاج وأبي عنان بصفة خاصة .

ومع ذلك فلقد رأينا من الأفضل إخراج هذا العمل على حالته بدلاً من تأجيل طبعه إلى وقت آخر ، آملين أن تُتاح لنا فرصة قريبة بحول اللّه لتكميله ونشره في حالة أرقىٰ وأفْيَد .

وما توفيقي إلاّ باللّه

(*) نستدرك هنا الإحالة إلى الأبحاث القيّمة التي نشرها الأستاذ الكبير محمد الفاسي في موضع الرحلات المغربية .

كما نحيل القارىء مرة أخرى إلى ل . دو بريمار ـ مذكرات آبن الحاج ـ حيث نجد معلومات إضافية عن سيرة كاتب الرحلة .

هوامش

(1) (742 - 808 هـ) راجع : محمد آبن شقرون الحياة الفكرية . ص : 342 .
(2) (713 - 776 هـ) ن . م : محمد آبن شقرون الحياة الفكرية . ص : 265 .
(3) (710 - 781 هـ) ن . م : محمد آبن شقرون الحياة الفكرية . ص : 283 .
(4) (676 - 749 هـ) ن . م : محمد آبن شقرون الحياة الفكرية . ص : 238 .
(5) (718 - 783 هـ) ن . م : محمد آبن شقرون الحياة الفكرية . ص : 297 .
(6) (721- 807 هـ) ن . م : محمد آبن شقرون الحياة الفكرية . ص : 235 .
(7) (،،، ـ 721 هـ) ن . م : محمد آبن شقرون الحياة الفكرية . ص : 186 .
(8) (،،، ـ 723 هـ) ن . م : محمد آبن شقرون الحياة الفكرية . ص : 201 .
(9) (606 - 730 هـ) ن . م : محمد آبن شقرون الحياة الفكرية . ص : 222 .
(10) (،،، ـ 749 هـ) ن . م : محمد آبن شقرون الحياة الفكرية . ص : 234 .
(11) (672 - 723 هـ) ن . م : محمد آبن شقرون الحياة الفكرية . ص : 207 .
(12) (703 - 789 هـ) ن . م : محمد آبن شقرون الحياة الفكرية . ص : 251 .
(13) «الجذوة» ص : 84 .
(14) «فيض العباب» . ورقة : 2 .
(15) ،،، ورقة : 15 .
(16) «الإحاطة» : ج 3 . ص : 351 .
(17) ،،، 2 . ص : 209 - 210 .
(18) راجع ما أورده في الموضوع آبن ثغري (،،،) المنهل الصافي ج 1 . ص : 180 نقلاً عن الصفدي . الوافي بالوفيات .
(19) A. L De Prémare PP : 52 - 504 .
(20) آبن القاضي : «الجذوة» . ص : 87 - 89 .
(21) راجع تفاصيل ذلك كلّه عند : A. L de Prémare .
المغرب والأندلس في القرن الرابع عشر الميلادي .
ص : 27 - 64 وهو مرجع يعفينا من هذا الجانب عن إعادة ما ورد فيه من إيضاحات وتحقيقات .
(22) الإحاطة : 35 .
(23) التعريف ص : 35 .
(24) 67 أ :.
(25) فيض العُباب ورقة 1 .
(26) ،،، و 44 - 95 .
(27) 152 أ وكذا (ب) .

(28) 17 أ و ب كذا 15 و 16 .

(29) 59 .

(30) 102 .

(31) و 51 أ .

(م1) ص : 313 .

(م2) الإحاطة ج 1 ص : 35 .

(م3) 161 أ .

(م4) 174 .

(م5) ابن الأحمر : نثير فرائد الجمان 313 .

(م6) دو بريمار A. L de Prémare المغرب والأندلس ص : 76 - 87 .

(م7) ج 9 ص : 316 .

(م8) راجع المعلومات التي أفادنا بها دو بريماري (المصدر السابق ص : 15) حول هذا المؤلف وحول الدراسة التي قدمها به J. F Hopkins ج . ف هوبكينس ، لم يرد اسم هذا الكتاب في الإحاطة .

(م9) المقري : نفح الطيب ج 8 ص : 280 - 286 .

(م10) الإحاطة ج 1 ص : 361 - 395 .

(م11) ج 1 ص : 364 - 365 .

(م12) ج 9 ص : 317 - 119 .

(م13) ج 1 ص : 356 - 357 .

(م14) الدكتور محمد بنشريفة أبو المطرف ص ص : 219 - 220 .

(م15) راجع الرسالة الموجّهة من أبي عنان المريني إلى ليون أخت سلطان أراجون جواباً منه على رسالتها المؤرّخة 759 هـ وكذلك الرسالة الموجّهة إلى بدرو Pedro صاحب أراجون .

(م16) ابن الخطيب : الصيب والجهام والماضي والكهام . الجزائر 1973 ، ابن الحاج البلفيقي : العذب الأجاج في كلام أبي البركات ابن الحاج .

(17) لم نطّلع على هذا الكتاب الذي ما زال مخطوطاً بمكتبة ابريتش رقمه 5670 ، وإنما كان اعتمادنا على د . بريمار A. L de Prémare ، مذكرات سفير أندلسي بالمغرب ص : 51 الذي أفادنا بهذه المعلومات .

(م18) جذوة ص : 87 - 92 .

(م19) الإحاطة ج 1 ص : 357 - 358 .

(32) 86 .

(33) 88 .

(34) 88 .

(35) 83 - 84 .

(36) 90 .
(37) 101 .
(38) 134 .
(39) 124 أ .
(40) 174 ب .
(41) 148 أ .
(42) 20 أ .
(43) 10 ب .
(44) 39 ب .
(45) 112 أ .
(46) 157 أ ـ 159 أ .
(47) 55 ب .
(48) 56 أ .
(49) 68 أ .
(50) 78 ب .
(51) 83 ب .
(52) 106 أ .
(53) 129 ب .
(54) 140 ب .
(55) 149 ب .
(56) 158 أ و ب .
(57) آبن تافرجين يترك كثيراً من الأموال والمذخرات فتغتنمها الجيوش المرينية 105 .
(58) 82 وما يليها .
(59) 10 ب .
(60) 89 ب .
(61) 91 أ .
(62) ارجع إلى ما قاله آبن خلدون في الموضوع .
(63) 162 ب .
(64) 173 ب .
(65) في سفوح بني يمل تنزل أمطار غزيرة طوفانية تغمر الخيام وأفراق السعيد بصفة خاصة ، فكان من الضروري جمع أحمال الأموال والأثواب والصعود عليها اتقاء لخسائر أخرى فاستمر الحال كذلك ليلة واحدة ، لكن الخسارة كانت فادحة (57-58 أ) ، وأخطر من ذلك ، الطوفان الذي حلّ في الإياب بباب إيسلي فكان كارثة أخرى أشد وأعظم نتج عنها موت عدد

كبير من الناس (168 أ) وأبيد عدد كبير من الخيل والبغال من جرّاء هذه المياه الطوفانية .

(66) 131 أ .

(67) 133 أ .

(68) 134 أ .

(69) 135 ب .

(70) 137 أ .

(71) 138 أ

(72) 68 ب.

(73) و112 أ .

(74) راجع آبن شقرون . الحياة الفكرية . ص : 75 .

(75) 45 ب . .

(76) 85 ب .

(77) 49 ب .

(78) 42 و92 .

(79) مظاهر الثقافة المغربية . ص : 182 .

(80) 29 أ .

(81) 26 أ .

(82) 28 أ .

(83) 58 ب .

(84) 135 إلى 139 .

(85) أقصد المتنبي وغيره .

(86) 80 ب .

(87) 81 أ .

(88) 82 أ .

(89) 121 أ.

(90) 119 ب .

(91) 125 أ .

(92) 128 أ .

Les Arabes en Berberie ود . أبو ضيف أثر القبائل العربية .

(93) 125 ب .

(94) 132 أ .

(95) 133 ب .

(96) 135 أ .

(97) 32 ب يرجع تأسيسها إلى سنة 754 هـ راجع المنوني «ورقات» ص : 47 .
(78) 28 ب .
(99) 30 أ و ب .
(100) 28 والبقية مبتورة .
(101) لم يورد آبن الحاج في رحلته أي شيء يتعلّق بمدرسة أبي الحسن والد أبي عنان .
(102) 27 ب .
(103) 131 .
(104) 132 .
(105) 133 .
(106) 138 .
(107) 146 .
(108) 136 .
(109) 46 .
(110) 47 أ .
(111) 20 ب .
(112) 25 .
(113) 19 - 20 أ .
(114) 19 - 20 .
(115) 22 ب .
(116) 23 ب .
(117) غير واردة ترجمتها.
(118) ص : 325 .
(119) ص : 327 .
(120) 96 ب .
(121) 96 ب .
(122) راجع مثلاً الاتفاقية المبرمة في هذا الموضوع أعلاه .
(123) راجع في الموضوع كتابنا البيئة المغربية ومظاهرها الثقافية باللغة الفرنسية 123 - 127 .
(124) راجع آبن فضل اللّه العمري : مسالك الأبصار ترجمة ك . دو منبين ص : 141 .
(125) صاحب قسنطينة يتنازل لأبي عنان عندما سمع بهذا الجيش وأهل طولقة يفرّون كلّهم عندما رأوا هذا الجيش (146 ب) .
(126) يعقوب بن عبد الحقّ . راجع في الموضوع المنوني «ورقات» (، ، ،) ص : 73 والمراجع المذكورة .
(127) الكثير الشعر كالقائد آبن الأحمر الذي كان رأس الأسطول المريني العناني وكأحمد بن

الخطيب وأبي القاسم بن بكر بن بنج . راجع «فيض العُباب» حيث تجد معلومات ضافية عن فتح تونس والظروف المحيطة بهذا الفتح مما لا نجده عند آبن خلدون «العبر» ج. 13 ص : 619 .

(128) راجع التفاصيل في المنوني . «ورقات» (،،،) ص : 77 .

(129) لم ترد في المصدر المذكور ص : 77-78 .

(130) لم ترد في المصدر المذكور ص : 77-78 .

(131) 46 ب .

(132) 49 أ .

(133) 87 ب .

(134) 88 أ .

(135) 88 أ .

(136) 46 ب .

(137) 49 أ .

(138) 49 أ .

(139) 51 ب .

(140) 48 أ .

(141) 86 أ .

(142) 87أ.

(143) 89 أ .

(144) 113 ب .

(145) 113 ب .

(146) 37 ب .

(147) 85 ب .

(148) 16 أ .

(149) 12 أ .

(150) راجع الذخيرة السنية ص : 131 والتفاصيل التي أدلىٰ بها في الموضوع المنوني : «ورقات» (،،،) ص : 73 .

(151) راجع التفاصيل التي أوردها في الموضوع الأستاذ محمد المنوني . «ورقات» ص : 265-281 .

(152) راجع القصيدة المذكورة في نثير الجمان لابن الأحمر ص : 324-325 .

(153) ابن عبد المنّان . القصيدة المذكورة أعلاه في «نثير الجمان» ص : 325 ومحمد المنوني «ورقات» ص : 269 .

(154) ن . م .

(155) 78 أ .
(156) 53 أ .
(157) 54 أ .
(158) 41 أ .
(159) 159 أ .
(160) 36-38 ب .
(161) 61 ب .
(162) 93 أ .
(163) 166 أ .
(164) 166 أ .
(165) 143أ.
(166) كما فعل مع آبن مزني . 40 .
(167) 19 ب ـ 20 أ .
(168) 9 أ .
(169) 51 ب .
(170) 55 ب .
(171) 96 أ .
(172) 98 أ .
(173) 41 ب .
(174) 41 أ .
(175) 52 أ .
(176) نيل الابتهاج ص : 249-254 .
(177) راجع في الموضوع ابن الأحمر ، نثير الجمان ، 223-314 .
(178) التعريف .
(179) نحن مدينون بهذه الفائدة للدكتور عبد اللّه العمراني نقلاً عن ابن جعفر البلوي . البلاط المغربي في المجالين الروحي والزمني دعوة الحق ع : 1971.3 . ص : 68-69 .
(180) 3582 : خ . ع .
(181) راجع في الموضوع . المغربي المنوني : التيارات الفكرية في المغرب المريني . ص : 90 نقلاً عن المقري ازهار الرياض ج 3 . ص : 27-28 .
(182) كتاب التعريف لابن الجلاب 140 .
(183) الجزنائي . زهرة الاس ص : 76 .
(184) 108 أ .
(185) 14 أ .

(186) 62 أ .

(187) 2 ص : 316 وفي نفح الطيب : 5 ، 366 .

(188) من أعظم أدباء القرن السابع هـ توفي سنة 708 له ديوان جمعه ابن الخطيب تحت عنوان الدرّ النفيس في شعر ابن خميس .

(189) 2 ب .

(190) 111 أ .

(191) 144 أ .

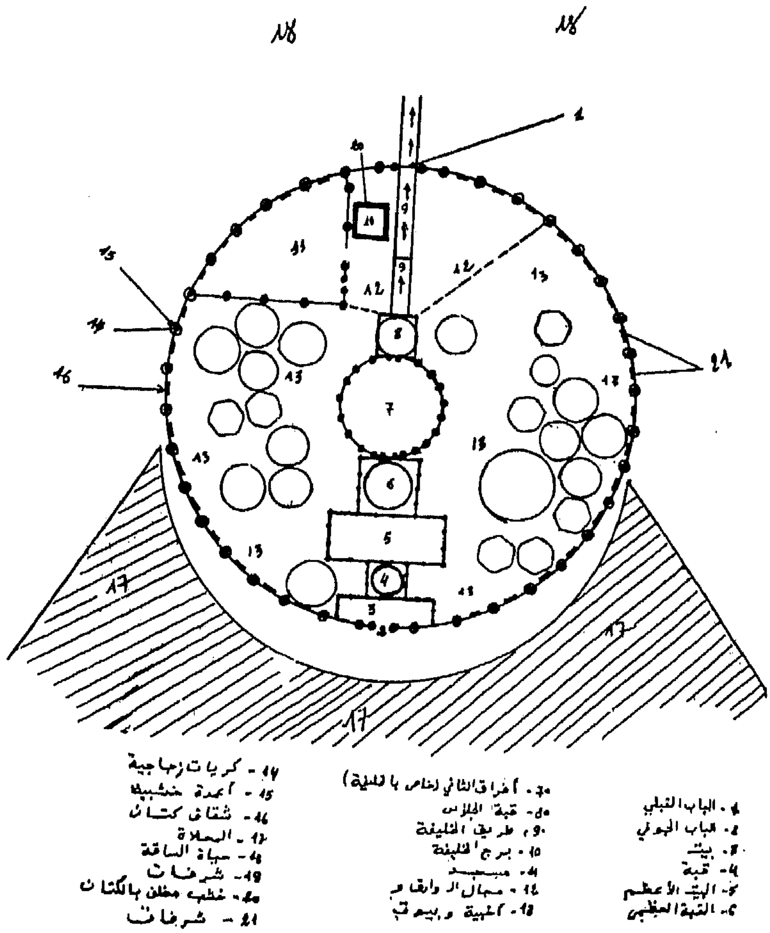
(192) راجع مظاهر الثقافة المغربية .
مقدمة كتاب الإمتاع والانتفاع. .

(193) 131-228 أ .

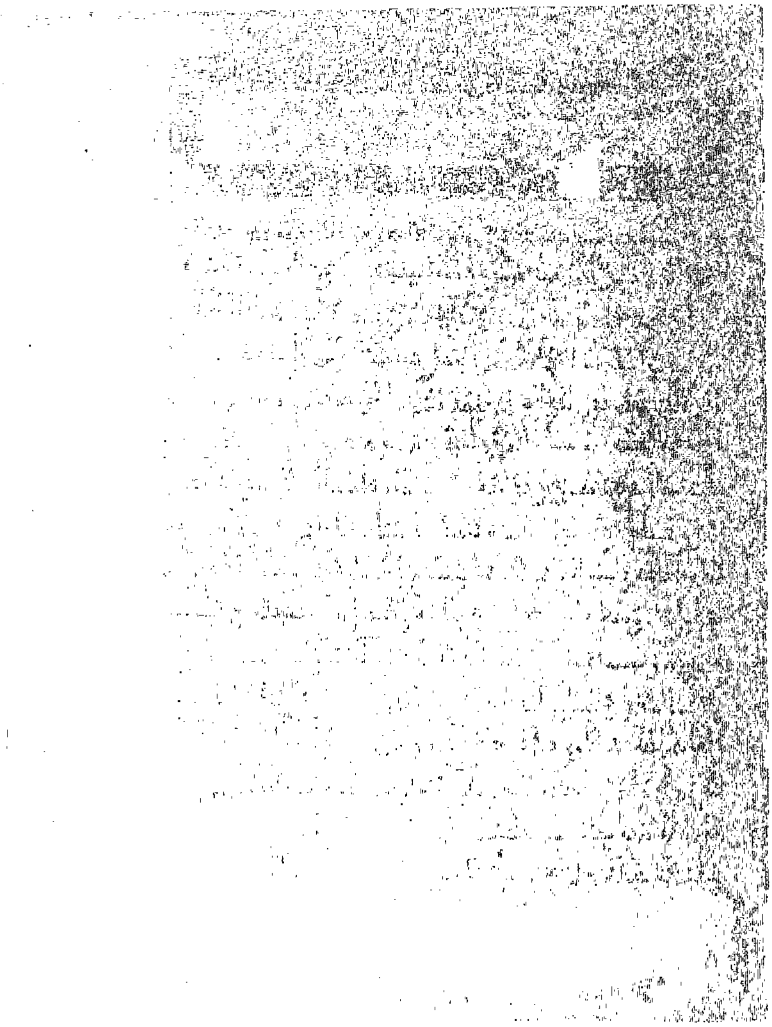
(194) المصدر السابق ص : 232 .

(195) ج 9 ص : 328 .

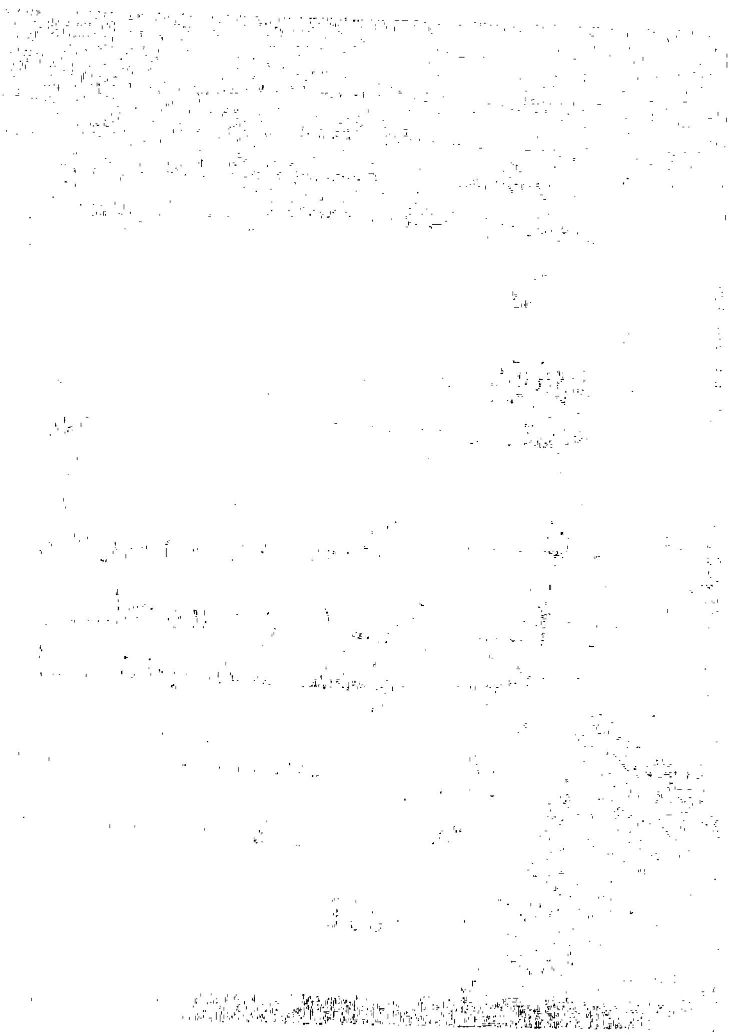
(196) 144 أ و144 ب .



رسم بياني لأفراق



فيض العُباب صورة من البداية



صورة نهاية فيض العُباب

بسم الله الرحمٰن الرحيم

فيض العُباب

وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب

،،،، في سبيل ربّ العالمين أبي يوسف ابن عبد الحقّ رحمه اللّه وقدّسه وبرّد ضريحه وجعل الجنة مثواه لما كانت له الفضائل التي أوردت في تلك المدة العجائب ، وشوّقت النجباء النجائب ، وأنطقت بالثناء عليه الأحقاب والحقائب ووضحت محاسنه وضوح البدر عند الكمال ، وأقرّت الأوهام والعقول أنها لم تر مثل ذلك الجمال ، كان عمّي رحمه اللّه إبراهيم بن عبد اللّه بن الحاج من بعض خدّامه ، ما زال يردّد الذكر بإحسانه وإنعامه ، متّخذاً سُبُل العبودية سبيلاً ، ويخدم بالأدعية التي لم يكن مرتعها وبيلاً ، ويقرر تشيعه الذي لم يكن قياسه ممتنعاً ، وانقطاعه الذي لم يكن حديثه منقطعاً ، فاستعمله في الخطط الزائقة البشائر ، والاعتناء المشرّف للقبائل والعشائر ، فقدّمه صاحب علامته الكريمة ، وأصدر عليه نعمه الجسيمة ، فكان رحمه اللّه مشغولاً بخدمته ، وشاكراً لما أفاض عليه من عوارف نعمته ، مولعاً بمدح مولاه علم ملوك الأعلام ، وناظماً في مدحه ومدح أسلافه الكرام ، كل مستظرف النظام ، فمما كان استنخب أتم الاستنخاب ، وأبهج به جميع الكتّاب ، إنشاؤه لهذا الكتاب المسمىٰ : بفيض العُباب ، وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب ، فوقف العبد كاتب هذا بخطّه ، إبراهيم ابن أبي عمرو بن الحاج عليه ، ونهض إلى جمع ما لديه ، وكان الكتاب متفرقاً في تقاييد مبدّدة ، ورقائع مسدّدة ، فطمع العبد ليكتسب الشرف الواضح السبيل ، والثناء الرائق الجميل ، بنسخ هذا الكتاب وتأليفه ، وإظهار استفتاح

مولانا أمير المؤمنين أبي عنان للبلاد وتصريفه ، ليقتدي بذلك حفيده الأسعد الأرضىٰ وخليفته ، وتتجلّىٰ بتلك المحاسن دولته ، ذلك مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل ربّ العالمين خليفة اللّه في[1] أرضه القائم بسنّته وفرضه ، أبو فارس ابن السلطان المعظم أمير المسلمين وناصر الدين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، أبي العباس[2] المتوكّل على الواحد العالِم ابن مولانا السلطان المعظّم ، ، ،[3] الذي لم تأتِ به[4] الدهور رافع راية الزعامة المشهور ، ، ، ،[5] أبو فارس المذكور أيّده اللّه من سلطان ، وقيّد به البلاد والأوطان ، ونصر ببنوده التي ، ، ،[6] وجنوده التي لا يأمن الكفر موانعها ، ورفع ببسطه حكم القبض ، كما وضع له القبول في الأرض ، وجعله معيّناً لذي الحاجة الملهوف ، وكهفاً يلجأ إليه في الأمر المخوف ، ناهياً عن المنكر آمراً بالمعروف ، ناهباً قلوب الأعداء يوم الزحوف. ناهضاً طرفه في الميدان ، ناهجاً طرق الفوز والرضوان ، ولا زال ملكه رفيعاً عزيزاً ، وتشريفه لما ابتهم من الرتب تمييزاً ، قطعي مقدمات السعود ، جلي أقيسة[7] الصعود ، بحري سحاب الجود ، وسمي عهاد العهود[8] فرفعت هذا الكتاب إلى مقامه ، لاثماً ترب أقدامه ، داعياً اللّه سبحانه بدوم أيّامه ، وملتمساً لعوارف أنعامه ، عارفاً بأن مولانا أبا العبّاس كان رحمه اللّه آخذاً في الطريقة الأدبيّة ، التي بلغ فيها رفع المزيّة ، حتىٰ تشرّف الأدب بكلامه المستطرف الحسن ، وفخر النظم ببديع شعره الهائل المستحسن ، فما ينتج إلاّ مثله أديباً ، ومن يأتي بكل

---

(1) بياض .

(2) ، ، ، .

(3) بياض .

(4) كذا في الأصل ، ولعلّه يريد بمثله .

(5) بياض .

(6) بياض .

(7) كذا في الأصل .

(8) كناية عن كرمه المعهود .

(8) ج سبطَ : غزير .

مستطرف عجيباً ، فالعبد يرغب في تجديد ما جرت به العوائد ، من العناية بذلك الموضع الشريف بالعمّ والوالد ، ليلحقني ما لحقهما من الحرمة والرعاية ، والتشريف بالوساطة لموالينا بأن يلحقوا العبد بآبائه في الولاية ، واللّه سبحانه ينفع بالمقاصد والنيّة ، ويوصل المملوك بجاه مولاه للرتب العليّة.

وهذا حين الابتداء ، بذكر تلك السفرة والسِيَر الكريمة الأنباء والاستفتاح الذي أبهج وسرّ ، وأقرّ العين حين استقر ، فشكره اللّه شكر الشجاع إلى الحسام ، وأثنىٰ عليه ثناء الروض بعاطر النسيم على واكف الغمام ، والتصريفات التي صدقت[9] ووفت بديون الأماني المتحيّزة إلى صوب الأصا ، ، ،[10].

ذكر ، ، ،[11]:

ودخل شهر رجب من عام سبعة وخمسين وسبعمائة ومولانا أمير المسلمين مقيم بالمدينة البيضاء ، مشيد لمبانيها تشييده المباني العلياء ، ناظر للمسلمين النظر الجميل الذي أحيا في جميع الأرجاء ميت الرجاء ، ورويَ عن عراك أخبار الهيجاء ، وعن مغيث أحاديث النعماء.

ثم انتقل في الشهر المذكور إلى قصبة فاس ، تاج العزّ الذي حلي بدرر المعالي ، ومقرّ الملك الذي فوف برود الأيام وشنف أسماع الليالي ، وجناب السعد الذي راش[12] الدهر جناحه ، وشعب المجد الذي أجال في بساط الحمد قداحه ، ومقام الاستيلاء الذي أبدىٰ في آفاق الهدى صباحه ، حيث المياه تنساب انسياب الأراقم ، والرياض تنسي البرود التي بأيدي الرواقم ، فما شئت من زهر بليل ، وهواء صحيح ، ونسيم عليل ، ومنظر يلهي

(9) غير واضح .

(10) كلمة ناقصة .

(11) بياض .

(12) أغناه وكساه .

الحجازي عن شامة وطفيل ، ويشغله عن نسيب ابن أبي ربيعة ونسيب جميل.

وعيّن أيّده اللّه لرؤساء الدولة بالقصبة دوراً ، ونقلهم السعد في المنازل لما رآهم نجوماً وبدوراً ، وقرأوا كتاب الآمال مسطوراً ، ولقاهم اللّه في الأولىٰ قبل الأخرى نضرة وسروراً.

ولما استقرّ بذلك المحل القرار ، وأدرت أخلاف النعم تلك الدار ، اعترىٰ مولانا أمير المؤمنين أيّده اللّه مرض حاد بشّر بالحسنىٰ وعقبىٰ الدار ، وأبان عن مصداق قوله ﷺ: الحمىٰ حظّ كل مؤمن من النار فتلقىٰ ذلك بالصبر الطيّب النهب وأبردها بالماء والصدقة التي تطفيء غضب الربّ ووِدّ الإسلام لو دانت في مذهبها بالصرفة ، وانتقلت من جسده الطيّب كما انتقلت قبل من المدينة إلى الجحفة ، وأراحت المسلمين مما أصابهم من الأشجان الوحية الخطفة ، والأوصاب[13] التي تكونت في رحم المواجد تكون النطفة.

ثم إنه لم تمضِ سبعة أيّام من مرض سابع الخلفاء ، ولا تجرمت بجرمها الذي فتّ في عضد العرة الفحشاء ، حتى أفاق وبلّ ، وحلّ من شعب النقوة حيث حل ، وأعرب عن كرم الطبع ، وتوكله على اللّه في الدفع والنفع ، وظهر ما قاله عليه السلام: «إن مثل المؤمن كخامة الزرع» وما سر المسلمين كخروجه أيّده اللّه إلى الناس ، ونسخه أحاديث الإيحاش بالإيناس. وبرز وجهه الجميل كالشمس التي ردّت الطرف كليلاً ، وأبدت صفرتها للمولىٰ الذي رأيناه في الملوك أصيلاً ، وقعد مجلس ملكه فأفاء ظل الأمن ظليلاً ، ورأىٰ سبيل الرشد فآتخذه سبيلاً ، وأعاد عوائد المسرّات التي كرمت جملة وتفصيلاً ، فوجبت التهنئة التي أهابت ببنات الأفكار وأظهر الحسن بها رونقه في بيوت الأشعار ، فكان مؤلّف هذا الكتاب أول من لبّىٰ منادي التهنئة وأجاب ، ورفعت إلى المقام العلي المولوي الإمامي قصيدة منها[14]:

---

(13) الأمراض والأتعاب.

(14) راجع في الملحق ما ينقص هذه القصيدة.

وقـل لمن وافىٰ بشيـراً نفـوسـنـا ... فمـا هي إلاّ بـعض مـا أنت واهـب
أقـود لجـرد الخيـل قبا بـطونهـا ... معقـدة منهـا لـحـرب سبـائـب
طوالـع من تحت العجـاج كـأنّهـا ... نعـام بكثبـان الصـريم خـواضب
مـحـجـلة غـراً كـأن رعـالـهـا ... بحار جـرت فيهـا الصبـا والجنـائب
من الأعـوجيات الصـوافي ترتمي[15] ... إذا زحـفت يـوم الـقـراع مقـانـب
، ، ،[16] فقـد صح الإمـام الـذي بـه ... فل السيوف المرهفات القـواضب[17]
ومستـأصـل الفـل المغـذ جيـاده ... بضرب كما ترغو[18] الفحول الضوارب
ومن حـطم السمـر الطوال كعـوبهـا ... بـطعن كما امتاح الركيـة[19] شـارب
وكـرّ عـلى أرض العـدا بـفـوارس ... كـأنّهم في الحـرب أسـد غـوالب
كـأن ظبـاهم فـي الهـيـاج أكفـهم ... تـجـود وأرواح الـعـداة مـواهـب
كـأن رمـاح الخط أحسـابهم ومـا ... حـوت من نفـوس المعتـدين مناقب
هم مـا هم حـدث عن البحـر أو بني ... مـرين فنـهـج القـول أبـلج لاحب
من البيت شـادت قيس عيلان فخـره ... فـطالت معـاليـه وطـابت منـاسب
وأحيـا لـه ملك الخليـفـة فـارس ... مـآثـر غـالتهـا الليـالي الـذواهب
كريم فلا الحادي[20] الركائب مخفق ... لـديه ولا المنضي النجـائب خـائب
إذا بـذل النعمىٰ ففضت مكـاسـب ... أرىٰ بـأسـه الأمضىٰ ففضت كتـائب
أنـامله يروي الـورىٰ صوب جـودهـا ... فلو لا دوام الـري قلت السحـائب
وكم خلت برقاً في الدجىٰ نور بشـره ... تشيم سنـاه النـاجيـات النجـائب
فـأخجلني أن قـد يـرىٰ البـرق خلبـاً ... فلا الصواب هام لا ولا الجود ساكب
أعـرني أميـر الـمؤمنيـن بـلاغـة ... فـإني عن عجـز لمـدحك هـائب
وأنـطق لسـاني بـالبيـان مـعلّمـاً ... فـإني في التعليم لا الجـود راغب

---

(15) بياض عوّضناه بما في نفح الطيب للمقري ج 9: 325 .
(16) بياض في النفح : هنيئاً .
(17) كذا في الأصل .
(18) بياض عوّضناه بما يناسب .
(19) البئر الوافرة الماء .

وكيف تـرىٰ لي بعد في الجـود رغبة ... وجـودك لي فـوق الـذي أنا طــالب
وقـد شبت الآمـــال إذ شئت ثم إذ ... تفقـــدتهـا لم يـــدر مـا شبّ شـــائب
بلغت بـــك الآمـــال حتى كـــأنـهـــا ... وقد صدقت مـا شئت صدقـاً كواذب
عجبت ومـــا تـــولي وأوليت معجـب ... فـلا بـرحت تعجب منـك العجـائب
فخـذهـا تبث العـذر لا المـدح إنـــه ... هو البحر قل هل يجمع البحر جاشب
بقيت بقـــاء الـدهـــر ملكـك قـــاهـر ... وسيبـــك فيّـــاض وسيـفـــك غـــالب
وعـــوفيت من ضـر وأعـــطيت أجـره ... ولا روعـــت إلاّ عـــداك الـنـــوائـــب

ولما أفاق مولانا أمير المؤمنين من مرضه وفارق جوهر جسمه الشريف مؤلم عرضه ، انتقل من قصبة فاس إلى المدينة البيضاء واحتل منها روضاً روىٰ من زهره عن الضحاك ومن غيثه عن البكاء ، واستقر بدار ملكه المنيع الحمىٰ ، استقرار المأمون بدار السلام ابن ذي يزن بمحراب الدمىٰ ، وأفاض من عذب جوده ما حسدته الثغور فألم اللمىٰ ، وتلا تبرؤوا من الحول والقوة ﴿وما رميت إذ رميت ولكن اللّه رمىٰ﴾.

ثم أن اللّه تعالىٰ أراد مضاعفة أجره ، وزيادة الرحمة الخافضة لجناحه الرافعة لقدره ، فشكا الألم الذي رتق الموارد ، وعاد إليه المرض فشجا العائد العائد. إلاّ أنه أيّده اللّه لم يزل يتكلّف النظر في الأمور ، ويجلس للخاصة والجمهور ، إشفاقاً على المسلمين من هموم ألقت عليهم كلاكلها ، وأشجان شجتهم أخطارها ومعاضلها. وأخذ بكضم الفساد ، ودقّق في صدور الخطوب الشداد ، وإقامة لميل الهدو والهدون ، وإخماداً لضراب الحرب الزبون ، وجبراً لنفوس كرّت عليها يد الوجد ، وقلوب أودعها معري زفراتها سقط الزند ، ومراعاة للمصالح التي هي من صبحها قبل الأسفار ، ومن نير هدايتها عند الأبدار ، ومن ثمر إفادتها بعد الينع والأثمار ، وإيثاراً لجانب السياسة التي هي من أوقات ليلها ، ، [21].

---

(20) بياض عوّضناه بما هو وارد في النفح (النجائب) .

(21) أسقطنا ورقتين لتعذّر قراءتهما .

ولما كان يوم الوقيعة ركب بنو، ،[22] والسدويكشيون وبرزوا عن دواورهم عرين ، ثم اجتمعوا للفرصة منتهزين. ورفعوا لواء لاموا به شعب اللامة ، ونبذوا الوفاء الذي يليق بأهل الزعامة ، وما علموا أن لكل غادر لواء يُعرف به يوم القيامة. ولما انضمت أوزاعهم في قبضة التمالي ، وبرزوا عزائمهم عن الهوينا في ذلك الأمر والتباطي ، وجهوا إلى الشيخ أبي عمران يطلبون ملقاه ، وألاّ يشغل شعابه عنهم جدواه. وزعموا أنهم اجتمعوا للنظر في مصالح تلك الأرجاء ، وضربوا ميعاداً لاستتمام المحاولات السديدة والآراء. وأظهروا له طاعة الأزارقة لقطري ، وانقياد طيء لآل عدي.

ولم يكن مقامهم إلاّ أعظم مقام فاضح مخزي ، فخرج إليهم الشيخ أبو عمران عن محلّته التي آن أن يقعقع عهدها بعد الاجتماع ، وتأتيها بنات بحر ناشرة جناح الالتباع[23] ، وقصد جموع الأشقياء الذين ترصّدوا له الغوائل ، ونصبوا له الحبائل ، ولحقت حربهم جمال كرب وائل. وخدعوا الفحل الذي إن قال لم يترك مقالاً لقائل.

فلما توسط صفوفهم ، وشاهد شريفهم ومشروفهم ، رموه عن يد واحدة وأتوه بخيول ناهدة ، ورماح مسرعة قاصدة ، وعزائم ريحها غير راكدة ، وأربدها غير كالدة. ونبضت عروق عنادهم ، وومضت بروق فسادهم وأتوا بالفعلة المليمة والزلة ، وجاوزوا المقام الذي يكون الائتمان عليهم فيه كالظلة[24] ، وضوىٰ عظم تعظيمهم ، وردوا تكرمة تكريمهم ، ونكبوا عن الواضحة ، واعتملوا في الأعمال غير الصالحة ، وخانوا ومانوا[25] ، وبفساد أديانهم دانوا ، وأنفسهم على غير هيئة أهانوا[26] وحقّت الحقائق ، واتّسع

(22) بياض .
(23) يقصد به الضياع .
(24) بالفتح والضم .
(25) كذبوا .
(26) بياض .

البغي وضاقت المفارق[27]. وحمي الوطيس، وقعد لهم في الصراط المستقيم إبليس. فعند ذلك،،،[28]

،،، من بني مرين الذين مزق لهم هنالك أهاب[29]، وخذلوا بمواطن تحكمت في آسادهن كلاب.

وما زال الشيخ أبو عمران حتى خرج من غمرة الحرب مثخناً مثبتاً، وأثقلته الجراح التي تركت باب البرء المترجىٰ مرتجاً مصمتاً، وقصد جهلة ميل بعد أن قدم فرطاً، وتحمل من مؤنة الثكل شططاً، وفاز بالأجر المذخور الذي هوّن مصابه، والفخر المأثور الذي أماط بأنقاب السعادة نقابه، ووفىٰ خدمة مولانا أمير المؤمنين الذي أخذ له بالثأر، وخصّه بالعناية والإيثار، وأذاقه حلاوة العزّ التي لم يكن مثلها لأكل المدار.

ولما رأىٰ الأشقياء أن الشيخ أبا عمران قد أفلت أشراك مكائدهم، وأعجزهم وإن كان طريداً أن يكونوا من طرائدهم، وبّخوا نفوسهم بما كان من نجاته بنجائه، وخافوا أن يسلم فيعود ثأر أبنائه، وعلموا أن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، وأنه إذا طلبهم بعد ذلك بين صبح غلبه لذي عينين، فانتدبوا لتلافي تلفه، واستمتاع تلبية المنون على شرف شرفه، والتحقوا به أسرع من لوث الأزار، وأوحىٰ من انحدار السيل إلى القرار، فقاتلهم هو ومن سلم معه أشد القتال، واستأنف صبراً على تلك الأهوال، حتى دخل ميلة مبلياً أحسن بلاء، مبقياً بأذمة بأسه لأكرم ذماء.

وأحدق الأعداء بأسوارها إحاطة السلاسل بالأعناق وعاثوا في جنباتها عيث الريح في الرماد والرمد في الأحداق، وظنّوا أنهم قد حالوا بين الشيخ وأمله، وكانوا له كالرزق الذي هو أشد طلباً للعبد من أجله وأزمعوا على محاصرته،

---

(27) كذا في النص. أو المعارف.

(28) أسقطنا صفحة اضطربت كتابتها وعسرت قراءتها.

(29) كذا في الأصل.

ورأوا أن البعد قد قطع ظهر مظاهرته ، ولم يكن إلاّ أن أقام هنالك حتى شدّ جراحه التي كانت لأسنّة الرماح أفواهاً ، وأراها الفتك لطعنة ابن عبد القيس أمثالاً وأشباهاً ، واسترجع مشترىٰ الحياة التي كان[30] بيعها إكراهاً. وتلوم هنالك حتى اعتضد بحسن تدبيره اعتضاد يزيد بمسلمة ، وروىٰ عن مقبل ليله ومدبر خطبه عن الأسود وعلقمة. وأمر من كان معه بالركوب ، وحمل أمر رحيله إلى بجاية على الوجوب ، فما أيقظ الأعداء إلاّ خروجه عن البلد متأهّباً للنزال ، قارعاً ظنابيبه[31] لمقارعة الأبطال ، فاقتفوا أثره حتى تلاقىٰ السواد بالسواد ، ومزقت أديم الليل صدور الجياد.

وأطلعت السريجية سرجها التي جلت ظلم الدادي ، وجالت المثقفة العسالة جولان البروق في أفواه الغوادي ، فما فصل بينهم إلاّ الصبر على الدفاع ، وثبات العزائم في مواطن الارتياء والارتياع ، حتى رجع الأشقياء عن مساورته ومهايجته ، ونكصوا عن مداخلته في غمرة الحرب وموالجته ، وانكفأوا قارعين أسنان الندم منتظرين للتي تنسخ وجودهم بالعدم ، وتعتورهم بالحروب التي هي أقوم من الساق على القدم ، وتفرقت جموعهم الخاسرة أيدي سبأ. وتورعت فئتهم الباغية شذر مذر في الأباطح والرُّبى. وأيقنوا بالهلاك والدمار ، واستعقاب الخسار ، واستحقاب العار ، وفتكات رجال لا تنام عيونهم عن الأوتار ، وأشفقوا من يوم تضب به لثات النزال ، ويشتجر للدعاس بين الكماة المقاديم والأبطال ، وعلموا أن سيف مولانا أمير المؤمنين أيّده اللّه لا يفوته هارب ، ولا يغلبه بحول اللّه مقاوٍ مقاوم ولا مناصب ، وأن جيشه المظفر كالنهار يلحق أبعدهم وأدناهم ، وكالليل الذي هو مدركهم وإن اتسع منتاهم.

ولم يثنِ الشيخ أبو عمران عنانه حتى استقرّ ببجاية ناجح الآراء ، وحمد سراه عند الصباح المجلي للظلماء . وكتب لمولانا أمير المؤمنين أيّده اللّه

(30) سقط حرف من حروف الكلمة .

(31) جمع ظنبوب . يضرب به المثل للدلالة على التغلّب على الصعاب .

مهوناً لذلك الواقع ، ومعلّماً أن ذلك الخرق لا يتسع على الراقع ، وطلب أن يؤذن له في الرجوع لأخذ ثأره ، وزعم أنه كفيل بإدراك ذحله وإحياء آثاره وذكر أن أولئك الأوباش السافلة آراؤهم ، والأوشاب المستباحة أذراؤهم أقل من أن يقفوا بتلك الأوطان ، من أن يكونوا بمسارحها من القطان . وبين أن تلك الهزيمة كانت فلتة جرت على غير المعتاد ، وندرة جرىٰ بها القضاء تمحيصاً لأهل الرشاد ، واستدراجاً لأهل الغي والفساد .

ذكر ما ظهر من مولانا أمير المؤمنين عند وصول هذا الخبر : وما تعرف من آرائه الكريمة يوم الوقوف على حديثه المستطر :

ولما اتّصل ذلك الواقع بالعلم الشريف ، وتواترت أخباره التي نسخت التنكير بالتعريف ، تلقّاه مولانا أمير المؤمنين أيّده اللّه بالرضىٰ والتسليم ، ونظر إلى مصادر الأمور من لدن الحكيم العليم ، وفصل الحكم بالعزم والتصميم ، وسفه رأي القعدي المزين للتحكيم . وأشفق لحال الشهداء الذين تلقّوا ضيق المأزق بأرحب صدر ، وتتبّعوا سنن من كان قبلهم من الشجعان باعاً بباع ، وشبراً بشبر ، وتردّوا أردية الموت حمراً فأمست أرواحهم في حواصل طير خضر . وقال في أمرهم ما يقرب إلى اللّه ويدني ، وتمثّلت هيبته فقالت لو ذات سوار لطمتني .

ولم ينشب أن أشاد بالحركة إلى بلاد الشرق ، وأمضىٰ عزائمه التي هابها كل شتيم الوجه منهرت[32] الشدق ، واعتمل رمي الأشقياء بأنحاف أرؤسهم[33] وتلا لسان مجازاته : **﴿إن اللّه لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾** ، وكان من قول مولانا أمير المؤمنين رضي اللّه عنه أنا ما أخّرنا الحركة إلى الشرق عن إهمال لمن استرعىٰ باللّه من أهله ، ولا أرجأنا الأخذ في أمرها بالاشتداد لتجانف عن مناهج الحزم وسُبُله ، لكنا آثرنا الاشتغال

---

(32) واسع الشدق ، الذي لا يكتم سرّاً .

(33) ج رئيس . يقصد به زعماء الثوّار .

بجهاد الروم أولي الأيدي والتمكين ، ورأينا أن الأهم أن ينهض لإرغام من تمادوا ، ، ،[34] في الدِّين ، وامتثلنا قول العزيز الجبّار : ﴿**يا أيّها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفّار**﴾ . وأرصدنا لهم ما يعود عليهم بالثبور والويل ويجمع لهم بين أهضام الوادي والليل ، وأعددنا لهم ما استطعنا من قوة ومن رباط الخيل . والآن والحمد للّه قد ألقت إلينا ملوك الروم أيدي الإذعان ورغبوا جميعاً في المهادنة التي تضفي مدارع اليمن وتصفي مشارع الأمان ، فأسعفناهم بذلك إسعافاً علّت به كلمة الإيمان ، وجنحنا للسلم بعد جنوحهم لها امتثالاً لأمر الرحمان ، واطمأنّت نفوس المسلمين بهذه المكيّفات الجميلة والصنائع البديعة الجليلة أحسن الاطمئنان . فلم يبقَ إلّا أن نصرف وجوه نظرنا إلى البلاد الشرقية ، ونوفي في جبر أهلها المطيعين بالأذمة المرعية ، ونبتغي رضىٰ اللّه سبحانه في إنقاذهم من أيدي الفتن ، والأخذ بأضباعهم من ، ، ،[35] المحن ، وإذهاب ما مـلا تلك الأرض من الجور والـظلم ، ودهمها من الخطوب الممضة[36] الكلم . واكترث رضي اللّه عنه من أحوالها التي جاست خلال الاختلال ، وكان عللها[37] من موارد الاعتلال ، وأمورها التي انفجر جرحها بعد الاندمال ، وعاد أشعري صلاحها إلى الاعتزال ، وذكر ما حل بأفريقية من الحوادث العظائم ، والدواهي التي تشطّت بها القلوب القاسية تشطي[38] المراجم ، ولقيت على آثارها الفوارس العوابس مـا لقيه شقي البراجم . وشاهد بعين اليقين نصره مخولاً ، ويومه في قهر العـرب أغرّ محجلاً . ودعا على سليم آخراً كما دعا النبي ﷺ على أحياء منهم أولاً ، وأيقن أنه سيرى بفضل اللّه حديث قهرهم مسلسلاً ، وحكم عللهم معلّلاً ، وصعَّب أمورهم مذلـلا ، وحسام بغيهم مفللاً ، ورأس ريـاستهم بالسيف

(34) كذا في الأصل .
(35) لعلّه يقصد سوء المحن .
(36) الموجعة لجراحها .
(37) الشرب الثاني ، السقي .
(38) يقصد القلوب المتصدّعة المتفخة نتيجة لِمَا أصابها على أيدي الاعراب .

مجللاً[39] . وقال أيّده اللّه أن حركتنا السعيدة في هذا العام إلى قسنطينة التي أظهرت إباء ، وجاهرت بالعناد اجتراماً واجتراء ، ورأت المواعظ من قلوب أهلها قيعاناً لا تمسك ماء ، ولا تنبت كلاء . وأما أفريقـة فالاحتفال لتمهيدها إن شاء اللّه أعظم ، والاحتفاء بأمورها أنسق للعزائم وأنظم . وسوف نجعلها إن شاء اللّه للأمنة قراراً ، ولجميل الإدارات داراً ، ونأخذ من عربها الذين ثار بغيهم ثأراً .

ولم ينشب أيّده اللّه أن أمر بتجهيز الأساطيل ، والشواني[40] الشواني‌ء لأهل الأباطيل ، والأجفان التي تنهض لمحو القال والقيل ، نهوض العيس الهراقيل ، وتطأ صفحات خد البحر الأسيل ، بالعتاق النجيبات المراسيل . وقدم رضي اللّه عنه قائداً على قوّاد بلاده البحرية ، وصناديد أبطالها الغربية والشرقية : الرئيس محمد بن يوسف بن الأحمر الذي أحيا السعد لتعظيمه عظـماً ناخراً ، وورد بحر الجود كالبحر الذي ركبه زاخراً ، وأظهر المضاء والغناء ، فآمتاز بحسن الأحدوثة أولاً وبتتميمها آخراً . وأشخص الرئيس المذكور إلى سبتة ليكون هنالك على قدم الحركة ، ناظراً للقوّاد في المصالح المشتركة ، معتزماً لقهر الأعداء الذين ألقوا بأيديهم إلى التهلكة ، وباءوا بالحريم المستباح والحرمة المنتهكة .

وأمر مولانا أيّده اللّه بإقبال الجيوش والعساكر ، وجمع الكتائب التي ترىٰ الأكم[41] فيها سجداً للحوافر . وأفاض بحور العطاء واقتدىٰ بعلي بن أبي طالب رضي اللّه عنه في فعله بالبيضاء ، ، ، ،[42] وبالغ في الزيادة والتبريك ، وكاد يأمر العين مخافة العين بالتحريك، وأخضع البلاد ، وقطع الطوال لما جاد . والآثار ، ، ،[43] التي جلّلت الجنـة ، وتخلّلتها المحـاسن فأحسنت

---

(39) يقصد قطعهم .

(40) يقصد المراكب .

(41) الأكم : التل أو الموضع الذي يكون أكثر ارتفاعاً ممّا حوله .

(42) بياض .

(43) بياض .

الخلّة ، ، ،[44] ينشد بين الأبحر ، ، ،[45] الذي كسي الحلّة ، وجهزهم بما يحتاجون إليه من الخيل التي تظهر مطاهم ، ، والسيوف التي إن قصرت كان وصلها خطاهم ، والبيضات التي حفظت بها بيضة الإسلام ، والمصفحات التي زلّت على صفوانها أقدام الحمام . وأصدر أيّده اللّه الأوامر الكريمة بحشد القبائل ، وحشر الرامح والنابل ، واستقدام العالي والسافل ، واجتماع البازغ والآفل ، وجعلهم لصلوات جيوشه كالنوافل ورسم إغفال الكماة الغوافل ، ومسح بالساعد الأشد على الضروع الحوافل ، واستنهض أبطالاً تسرع خيولهم كالنعام الجوافل ، وسلك مع الرعايا في تقسيط الجنود مسلك العدل ، وأمرهم بالجري في التجاوز على أوضح السُبُل . وقال لهم اقتضوا بالتوفيق دينكم ، واتركوا في قهر الأعداء أينكم[46] ، ولا تتكاسلوا إن مالت الحرب إليكم ، ودعوا بعدكم عن مأزق الهيجاء وبينكم . وتلا عليهم لسان حاله الكريمة : ولا تنسوا الفضل بينكم .

وما زال أيّده اللّه يغمر بهذا التدبير الناجح ليله ونهاره ويساوي في إبرام معاهدة إعلانه وإسراره ، ويبرأ إلى اللّه من قوته وحوله ، ويضرع إليه في فعله وقوله ، ويلظ بالدعاء ، ويستوهب بركة خواطر الصلحاء . ويشكر نعم اللّه التي أسبغها عليه ظاهرة وباطنة ، وصنائعه الجميلة التي لم تزل راتبة راهنة ، ومواهب إحسانه التي تسوغها هادئة هادنة ، وعوارف آلائه التي زاد شمائلها ميمونة آمنة ، وعواطف عنايته التي لم تزل للعهد حافظة سادنة .

لطيفة تساؤل وغريبة تفاؤل :

وفي ظهر يوم الإثنين ثالث لجمادىٰ الأولىٰ من عام ثمانية وخمسين وسبعمائة اجتمع مع الشاهد ابن عمران رجل من المعدودين إذ ذاك في أهل البساط الشريف ، المبوئين من الحظوة والوجاهة بالمحل المنيف . فتذاكر معه

(44) بياض .
(45) بياض .
(46) العبء والحمل .

في شأن مولانا أمير المؤمنين أيّده اللّه وما شرع فيه من الحركة السعيدة ، وإمضاء العزائم المسرّة للأعداء المبيدة .

وكان بين يدي ابن عمران كتاب لم يعرف ذلك الرجل ما هو ، إلاّ أنه ألهمه اللّه إلى أن فتحه على وجه التفاؤل لمولانا أمير المؤمنين أيّده اللّه في الحركة التي هو بسبيلها ، والوجهة السعيدة التي اهتدىٰ العزم بدليلها ، وتشوف السعد بمعرفة تحريمها وتحليلها . فنظر هو والحاضرون إلى أوّل صفح برز من ذلك الكتاب ، ورجعوا الأبصار في أوّل سطر من ذلك الصفح الذي لم يجز المصفح عن المرتاب . وقرأ ما نصّه «صنع اللّه لكم في هذه الحركة الميمونة صنعاً يفتح لكم به شرقاً وغرباً ، ويملككم رقاب الورىٰ عجماً وعرباً ، ويثني إليكم أزمة القلوب ودّاً وحبّاً» . فلما أخبر ذلك الرجل مولانا أمير المؤمنين أيّده اللّه بذلك وأحضر الكتاب المذكور ، وكشف عن الصفح الذي أبدىٰ من إسجاعه وهداه النور والنور ، سرّ المقام العلي بذلك سروراً وضح به للسنة السنن وأعجبه ذلك اقتداء برسول ﷺ الذي كان يعجبه الفأل الحسن ، وشكر اللّه على ذلك شكراً تساوىٰ فيه السرّ والعلن ، وأتىٰ بسجدة الشكر ترجيحاً لحكمها الذي قويت له المنن وعظمت به المنن .

ذكر بعض من أعماله الصالحة ، ونتائج علمه المتكفّل بالتجارة الرابحة :

ولما كان أيّده اللّه بسبيل الحركة السعيدة التي ضمنت نجاح الأمور ، وأخرجت ربّات خدورها لحضور عيد السرور ، وشهدت أن ليس لممضيها جزاء إلاّ الجنّة كالحج المبرور ، وبشرت المسلمين بالسعادة الشارحة للصدور ، ، ،[47] ولم يزل يجتهد في أعمال البر والتقوىٰ ، ويعلّق من في إيالته السعيدة بالأسباب التي تقوى ، وينظر في مصالح الدنيا والدين تقرّباً إلى سامع النجوىٰ ، ورسوله الكريم الذي قال : «لا طيرة ولا عدوىٰ» . فاعتنىٰ بإقامة عماد الدين الذي به النجاة ، وكتب إلى عمّاله كما كتب عمر رضي اللّه عنه

---

(47) بياض .

«إن أهم أموركم عندي الصلاة» . وقد كان رضي اللّٰه عنه كتب إلى جميع القضاة ببلاده أن يحملوا الناس على عمارة المساجد التي أبدت طرق الخير منتهجة ، وصلوات الجماعة التي تفضل صلاة أحدهم بخمسة وعشرين جزاء وسبع وعشرين درجة ، وأمر أيّده اللّٰه أن يشد في ذلك غاية الاشتداد ، ويشمل هذا الحكم جميع الحاضر والباد .

ويمضي عند أهل المدر والوبر،[48] وأرباب الإقامة والسفر ، فتلقيت تلك الأوامر الكريمة بالسمع والطاعة ، وأذكيت العيون على أهل التفريط والإضاعة ، وجعلت الإرصاد على من تشاغل بالصناعة ، عن إقامة السُّنّة وحضور الجماعة ، وأشيعت أحاديث العقاب أعظم الإشاعة ، وأذيعت أحاديث التنكيل للناكبين عن ذلك السبيل أوحىٰ الإذاعة . وافتقدت أحوال المكلّفين بجميع الأقطار ، واستعملت أمورهم في سائر الأمصار ، وتوضحت أعمالهم عند المواقيت ، وحضوا على العبادات التي يقتنونها اقتناء اليواقيت ، واستكشفت عوائد الناس في المحافظة على الصلوات ، والملاحظة لأوامره ونواهيه ليحظوا بالحسنات ، ويعتملوا فيما يمحو اللّٰه به السيئات ويرفع الدرجات . وأرهق تارك الصلاة من أمره عسراً ، ولم يشك أنه يقتل حدّاً إن لم يكن كفراً . فعمرت المساجد ، وهجرت المضاجع والمراقد ، وتساوىٰ في حضور الصلوات العالِم والجاهل ، والعالي والنازل ، والحافي والناعل ، وحفظت المسائل ، وتحقّقت المقاصد والوسائل ، وعرفت الفرائص والسُّنن والفضائل ، وجاء الحق وزهق الباطل ، ورعي المهمل وحلي العاطل .

ثم رأىٰ أيّده اللّٰه أن الناس قد حدث عنهم في ذلك الوقت بعض فتور ، فجعل الوصية على الوصية كالوضوء على الوضوء نوراً على نور . وأعمل فكره الشريف فيما يدوم به ذلك العمل المبرور ، ويرتفع لواؤه المنشور ، ويتلقىٰ بالإسعاف قادمه المحبو والمحبور . فأمرني بالكتب إلى جميع قضاة البلاد ، ومن ازدانت بهم من الخطباء والشيوخ الأمجاد ، وأهل الخير الذين تنزلوا من

---

(48) سكّان البوادي والحواضر .

أرضها منزلة الأطواد . وأمر أيّده اللّه أن يتخيّر أهل كل بلد من يصلح أن يكون صاحب الصلاة منفرداً بما كان من ذلك مسنداً للقضاة . ورأىٰ أيّده اللّه أن القضاة قد استغرق أكثر أوقاتهم القعود للأحكام ، والنظر في نوازل أهل الخصام ، ومطالعة الدواوين التي ألّفها علماء الإسلام ، فسارع عبده مؤلّف هذا الكتاب للتعريف بتلك الأوامر الكريمة ، وبادر بإحضارها جارية على مناهج الرشد القويمة . فأمر أيّده اللّه أن تطوىٰ بها المراحل ، وتُجاد بغيث جودها الربوع المواحل ، فما كان بأسرع من وصولها إلى جميع البلاد ، وقرارها في نصاب البلاغ الصادق الأشهاد . وجعلت كتب القضاة ترتدف ، ولأسماع ما صدرت به المراسيم الشريفة تقف وتستوقف حتى عرف مولانا أيّده اللّه جميع من تخيّر وتقرّر لديه من أحوالهم الحكم الذي ما بدّل ولا غيّر ، فأمر بأن يكتب لكل واحد منهم ظهير بتلك الولاية ، وعمل مرتب يوسع في العطاء والجراية ، وعيّن لكل واحد منهم أعوان بقدر ما يحتمل بلده ، وعمل لكل عون مرتّب يقوم به أوده ، وتعلو فيما كلف به يده ، فاستقامت الأمور ، وتناسقت الأجور ، وظهر الخير الموفور ، والسعد المذخور واستوثقت أحوال الصلاة ، واستقرت شعائر الإسلام واضحة الآيات ، باهرة الآيات . وذهب ظلم الجهل المحتلك ، وظهر مصداق قوله ﷺ الناس على دين الملك .

- مكرمة وصل سبب السعادة بسببها ، وسنة حسنة سنّها - فله أجرها وأجر من عمل بها :

وفكّر رضي اللّه عنه ذات يوم فيما للّه عليه من النعم ، وما خوّله من مواهب الجود والكرم ، والآلاء المتوالية المتتالية والخبر العمـم ، وأنّه سبحانه وتعالىٰ قد زاده بسطة في النجاح والمال ، كما زاده بسطة في صالح الأعمال ، وأنزل أوصافه منزلاً مباركاً من الكمال ، فشكر اللّه على ذلك شكراً أطال فيه وأطاب ، وجدّد للمسلمين نظراً صالحاً بلغهم به الآمال الرغاب .

وأمر رضي اللّه عنه بإخراج أموال عظيمة من طيب كسبه ، وتخيّر ذلك تخيّراً دلّ على طهارة قلبه ، وعين لكل بلد من بلاده قسطاً معلوماً ، وحظّاً يبرز

كتابه مرقوماً . وأمرني أيّده اللّه أن أكتب عنه إلى جميع الأقطار وعامة الأمصار ، بأن جميع من هو في السجون من الضعفاء الذين عجزوا عن أداء ما عليهم من الديون فتؤدّىٰ ديونهم من ذلك المال ، ويطلق سراحهم من الاعتقال ، ويرون ببذل العين قرّة العين ويفرج همهم الذي قال فيه ﷺ : «لا همّ إلاّ همّ الدين» . وأمر رضي اللّه عنه أن يتّصل ذلك العمل على الدوام ، وتعاقب الليالي والأيّام ، وأن يكون ذلك من متصيّر مجابيه المجموعة بالعدل الثابت الأحكام . المفوقة بالجود المخجل للغمام ، المبذولة في سبيل الملك العلاّم المقرونة بالنيّة الصالحة في النقض والإبرام .

وفي الحين توجّه العدويّون بما ثقل وزناً من الدنانير ، وجمعت في صررها جمع السلامة لا التكسير من كل محبوب طبعه بالطبع معد للضر والنفع ، مقبول الوتر ، والشفع ، عارف بأمور المعاش ، آخذ تفسير المحاسن عن النقاش ، يفترش خد الخوف أحسن افتراش ويترك أحاديث الفقر واهية كأحاديث خداش ، وينعش الحدود العاثرة أحسن إنعاش ، ويزيل عن القلوب كل إيحاش ، ويظهر لأصحابه الحكم كما كان يفعله أرسطاطاليس وهو ماشٍ ، فلم يكن بأسرع من وصول ذلك المال إلى البلاد ، قضي به الغرض على حسب المراد ، وربما فضلت منه بقايا وافرة الإعداد . وأخرج المعتقلون من بيوت كانت للأكباد صادعة ، وفتحت أبواب لم تزل لأيدي أولي الأيد دافعة ، ونسي تصور السجون وقد كانت حدودها جامعة مانعة ، فلا يسمع السامعون إلاّ أدعية بموارد القبول شارعة ، وشكراً لا تزال أخباره مستفيضة شائعة ، وحمداً لا تبرح أسرابه بمراعي الإخلاص راتعة . وسرت الخاصة والعامة بذلك أعظم سرور ، ومد اسم كل مقصور ، وارتفع من ابتهاجهم كل مخفوض ومجرور ، وأبلغوا في الدعاء الذي هو بظهر الغيب مقبول ، وأثنوا الثناء الذي حديثه مسند موصول ، وشكروا الشكر الذي برده بالألسنة الرطبة مبلول . وعلموا أن وراءهم ملكاً يدفع عنهم الملمّات ، ويفرج عنهم باللّه تعالىٰ الأزمات ، وينظر لهم في المعضلات والنجدات ، وخليفة مكّنه اللّه في أرضه فوفىٰ إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بفرضه ، وأمر بالمعروف ونهىٰ عن

المنكر في إبرامه ونقضه ، وعلم أنه مسؤول عن رعيته ، فكان للّه ما أظهر من حبّه وبغضه ، وأقرض اللّه في النظر لهم قرضاً حسناً فجزاه بتضاعف قرضه ، وأرعاهم عيناً لا ينامون إلاّ وجال بين جفنـها وغمضه ، ولزم في سياستهم العلم الذي أعطاه كله استمناحاً لبعضه وأمتع اللّه المسلمين ببقائه ، وزاد في سموه وارتقائه ، وكتبنا في الرزق المنثور من أرقائه كما جعل المدينين من طلقائه ، وحال بين المرء منهم وشقائه .

تنبيه على حسنة قرب عهدها ومنقبة كرم رقدها ومفخرة شرف نطقها وعقدها ، ومأثرة صفا وردها وضفا بردها :

وكان أيّده اللّه وما بالعهد من قدم ، وما بسبيله من نسيان لرسوخ قدم ، قد أمر أن يكتب لجميع الأقاليم والبلاد ، ويُشاع عند الحاضر والباد ، أن جميع من توفي وعليه دين من الديون أو عليه حقّ من الحقوق المدركة ولو بالظنون فإنه يؤدّىٰ عنه ذلك من بيت المال ، ويحتمل عنـه بالغـاً ما بلغ أحسن الاحتمال ، وأمر أيّده اللّه أن يستمر ذلك على السنين والأعصار ، وتعاقب الليل والنهار ، اتقاء لمرضاة الملك الغفّار ، ، ،[49] ويرجو بها شفاعة نبينا الصادق المختار ، يوم أخذه بالحجر عن النار ، ﷺ ما قبّلت الريح مباسم الأزهار ، وجالت خواطر الحصا بأفكار الأنهار ، ورجحت موازين الغصون بحبّات ندىٰ الأشجار ، وسبق أشهب الصباح فمسحت وجهه أيدي الأنوار . وتذكّر أيّده اللّه الحديث الذي ليس في صحته مين[50] ، وأن النبي ﷺ أتىٰ بجنازة ليصلّي عليها فقال : «هل عليه دين؟» فصلىٰ على من نسبت البراءة من ذلك إليه ، ولم يصلّ على الآخر حتى التزم أبو قتادة أداء ما عليه . وفي هذا دليل على سعادة الميت بأداء دينه ، وإجمال أثره ، بعد ذهاب عينه ، فللّه درّ مولانا أمير المؤمنين الذي أدخل المسرّات على الأحياء والأموات . وخصّهم بالمبرّات المُبِرّات ، واعتمدهم بالخير الذي لا تفصم عروته ، ودعا لهم

(49) بياض مقداره سطر ونصف تقريباً .

(50) كذب .

والإمام العادل لا تردّ دعوته ، وراعىٰ حقوق اللّٰه فيهم فكرمت روحته وغدوته . أيّده اللّٰه تأييداً تضمن النجاة نجوته ، ونصره نصراً لا تعرف عند الجري كبوته ولا عند الضرب نبوته ، وضاعف لديه الفتح الذي تعلو ذروته ، وتتصف بذات قرار ومعين ربوته ، وتهدي إلى أحسن مناهج الاتساء اسوته ، وأبقاه للعفو عمن اتسعت في اكتساب الحظايا حظوته ، والجبر لمن حلّت لطلب الحباء حبوته ، وانفسحت لسؤال الندىٰ ندوته ، ومنحه العز الذي لا تمتطي صهوته ، والعضد الذي يؤنس ناره وتقتبس جذوته ، والسعد الذي يبدو لأهل الصفا صفاه ومروته . ولا زال في ملك لا ييبس ثراه ولا تنفد ثروته ، وطيب عيش يحسن صفوته ، ويتمشىٰ في أعطاف النعيم قهوته . ويرغم أنف كل عدو ظهرت بفوهته[15] هفوته ، فأوجبت تجافي جنبه عن المضاجع جفوته بمنّه ويمنه .

نظر جميل ورأي أصيل وتتميم لمصالح المسلمين :

وذكر أيّده اللّٰه عند اعتماله في الحركة والوجهة الشرقية المقرونة بالبركة ، ما حدث من التساهل في حمل الأمانات ، وقلّة المحافظة على حدود الديانات ، وأن الذي يحتمل الأمانة بواجب الاستحقاق ويتميز بما بعث النبي ﷺ لتتميمه وهو مكارم الأخلاق ، قد يموت قبل تأدية الأمانة ، ويترك ما أودع عنده في كنف الصيانة ، فإذا تحصّل بأيدي ورثته أكلوه أكلاً لمّاً ، وأورثوا المؤتمن همّاً وغماً ، وربما حدث للمؤتمن الوفي سفر يزعجه ، ويكتب اللّٰه به عليه الجلاء ويخرجه ، فيبقىٰ صاحب الأمانة في عمىً من أمره ، ولا يتوصل إلى حقّه سجيس دهره ، وربما توصل إلى حقّه بعد مفارقة بلده وإضاعة أهله وولده . أو بعد تجديد سفر لمن ألقىٰ عصا التسيار ، ويتجشّم الأهوال التي تفتّ في عضد الاصطبار ، وقد اعتمد النبي ﷺ التيسير واختار ، وقال ﷺ : «لا ضرر ولا إضرار» فنظر مولانا أمير المؤمنين أيّده اللّٰه فيما يثبت للحق حكماً ، ويوضح للتحفّظ رسماً ، وتسدّ الذرائع في أكل أموال اليتامىٰ ظلماً ،

---

(51) فمه ، ما تفوّه به من كلام السوء .

وعدم ردّ الأمانة إلى المؤتمن الذي أضاع حزماً ، فٱقتضىٰ نظره الكريم أن يكتب إلى جميع البلاد والأقاليم التي تحت إيالته الرفيعة العماد ببناء مستودعات وثيقة المباني ، ومستحفظات تطمئن بها قلوب القاصي والداني ، ومستقرّات تكون على العين عيوناً وتؤدي من الكلاة[52] مفروضاً ومسنوناً ، ، ،[53] للمال المحتجز صفّاً وحجوناً .

وأمر أيّده اللّه القضاة أن يجعلوا بتلك المستودعات أموال الأحباس ، وما بأيدي أهل البلاد من أمانات الناس ، على اختلاف الأنواع والأجناس . إلى ما تألّف بعد من مستفادات الأوقاف ، وأموال المواريث واليتامىٰ والمحاجير من سائر الأصناف ، وماذا عسىٰ أن يحتاج إلى إيداعه ويستشرف عليه أحسن الاستشراف ، فيُصان صون الدرّ في الأصداف ، وتؤمن قضاياه من الانحراف ، وأزهاره من الاقتطاف ، وعيدانه من الانقصاف .

وأمر أيّده اللّه أن يكون لكل باب من أبواب المستودعات قفلان لهما مفتاحان ، أحدهما يستقر بيد قاضي ذلك البلاد كائناً من كان ، والآخر بيد خطيبه الذي ضعف به الباطل واستكان ، ويستمر ذلك على توالي الأزمان ، ما تعاقب الأجدان واختلف الملوان .

وصارت تلك الأوامر الكريمة بتعريفي الذي حكم بتشريفي ، ورجوت بركة مولانا أمير المؤمنين الذي أجمل تصريفي ، وكان من نعمه تليدي وطريفي ، ومدي الذي لا يبلغ الآن ونصيفي . وأمر أيّده اللّه أن ينهض بها العدويون[53] إلى البلاد الدانية والشاسعة ، والأقاليم الآهلة بأنوار عدله الساطعة ، والأصقاع المحمية بسيوفه الماضية القاطعة . فوصلت إليه محلّقة بجناح الاستعجال ، منقادة في أزمة الاسترسال محتوشة[54] ركاب الاستتمام

(52) دين أو ما يُحفظ .

(53) كلمة غير واضحة .

(53) هل يقصد بهم السباقين؟ .

(54) يقصد بذلك الإحاطة والعناية التامة بالأوامر العليا .

للمصالح والاستكمال .

وما كان بأسرع من الائتمار لها والامتثال ، وتوفية مقاصدها التي نزلت ببطحان الإجمال . نفع اللّه مولانا بما أسلف من كريم الفعال ، ويمن مساعيه المرضية الإحرام والإحلال .

اعتمال في صالح الأعمال،
واسترسال فيما يرضي سيد الإرسال صلىٰ اللّه عليه وعلى الصحب والآل وسلّم تسليماً يتكفّل بسعادة الحال والاستقبال :

ولما كان أيّده اللّه بصدد تلك الحركة التي استجلت أخبار النصر ، وتكنّفت جناب الظهور الجميل الإتمام والقصر . ووتر[55] بها العدو أهله وماله كما شبّه به من فاتته صلاة العصر ، لم يزل المقام العلي الكريم يضاعف الحسنات في تضاعيف أشغاله ، ويكثر من أفعال الطاعة التي جمعت مناظم آماله : فعيّن إذ ذاك للتحبيس أملاكاً عجزت عن حصرها وإحصائها ، ورباعاً ضعفت منتي[56] عن استيفائها بالعدّ واستقصائها ، فمنها ما عيّن برسم فداء الأساري والعناة الذين تراهم من هموم العدو سكارىٰ وما هم بسكارىٰ .

ووقع عزمه الشريف أن لا يترك بلداً من بلاده الساحلية إلّا ويثبت فيها حبساً للافتداء ، ويعدّه هنالك متأهّباً للنداء ، لأنه ربما أتىٰ العدو بالأسرى في أجفانه ، وطلب إحضار فديتهم أسرع من رجع أجفانه ، لخوفه من عدو آخر يطلبه ويرغب في إيحانه ، ويسارع لتخضيعه وأقرانه[57] وينوء عليه بكلكل ضرابه وطعانه ، أو إسراعاً لانتهاز فرصة جعلها العزم في ضمانه ، أو خوف نفاذ زاد يتعذّر بيعه وإن أثمن فيه بحق أثمانه ، فلا يؤلف للعدو ما يطلبه من المال ولا يستقضي إحضاره عن أولي الأصفاد والأغلال ، إلّا وقد انصرف

---

(55) أي ألحق بهم الهلع والفزع والهلاك .

(56) قدرتي .

(57) إبقائه في نفس المكان .

العدو عن الساحل ، وانكفأ بالعناة الذين أسلمتهم صدور الرماح إلى السلاسل . فتكاد النفوس تذهب عليهم حسرات ، والقلوب تتصدع وجداً وزفرات . ولا يزداد الأسرى إلاّ شجوناً محتوشة الأوار[58] ، وهموماً ملأت سجالها إلى الأصبار[59] وأبرح ما يكون الشوق يوماً إذا دنت الديار من الديار ، ووجب حقّ الجار على الجار ، وتلاقت الأبصار بالأبصار . فلا أعدم اللّه مولانا أمير المؤمنين بركة تلك الملاحظة الكريمة الآثار ، والمحافظة على القلوب الخائفة من الانكسار ، وأثابه بالجنّة مع المصطفين الأخيار ، والمهاجرين الأنصار ، الرحماء بينهم الأشدّاء على الكفار .

ومن تلك الأحباس ما عيّن برسم المدارس والزوايا والمارستانات المعدّة للرفق بأهل البلايا .

كل ذلك مما أمر أيّده اللّه ببنائه على أعظم الاحتفال ، وأنفق فيه الأموال التي كادت تفوق عدد المال . فلم ير مثلها في جيل من الأجيال ، ولا تفتقت عن أبدع من زهراتها كمائم الأعمال . ولا أنتجت أبدع من محاسنها أقيسة الصنائع ، ولا صححت أجمل من متونها أسانيد البدائع . فما شئت من فخامة التشكيل ، وضخامة التفريع والتأصيل ، ومطايا التيسير للمرافق والتسهيل ، والتأنّق المصاحب للتوثق والتألّف المعضود بالتحقّق ، والمياه المطردة كحدود علومه ، والروضات اليانعات كمنثوره ومنظومه ، والمباني الشامخة كمجده ، والقواعد الراسخة كشكره وحمده ، والمنازل الرحيبة كصدره ، والمصانع الحافلة الرفيعة كقدره ، والأماكن الباهرة كأنوار علائه ، والمواقف الشريفة كسناه وسنائه ، والمظاهر السامية كشرفه ، والمحاضر المحمودة كسلفه ، والمشاهد المعظمة كجلاله ، والمعاهد المطهرة كخلاله ، والمسارح المتأرجة كثنائه ، والمعالم المبتلجة كنور بهائه والمشاعر المشهورة كمناقبه ، والمقادي المأمولة كفضائله ومواهبه ، والصروح المرفوعة كذكره ، والعروش

(58) شدّة العطش وقوّة البأس .

(59) وكأنّها دلو امتلأت ماء وفاضت .

المعلاة كفخره ، والمحافل السامية كطيب نحره . بارك اللّٰه للمسلمين في عمره ، وقرن النجح والتوفيق بنهيه وأمره . وأيّده وما النصر إلاّ من عنده بنصره .

ومما أظهر من الأعمال المنوطة بأجياد الكمال ، والأفعال التي اقتضاها فضله المنفسخ المجال ، وأوجبها برّه بوالديه الطاهرين وأسلافه المخصوصين بنيل الحسنيين ، المربي رفدهم عن الرافدين ، المشتهر فضل أياديهم كحديث ذي اليدين ، أن عيّن حبساً متّسع النطاق ، ووقفاً تصحبه رفاق الأرفاق ، وخصه بشلة[60] أكرم بقيع بالغرب ، وأشرف تربة نقية لأهل القرب ، حيث ضرائح الملوك الأعيان ، والخلفاء المتلقاة أرواحهم بالروح والريحان ، ومضاجع السلاطين الذين اقتدوا في حياتهم بالكتاب والسُّنّة ، وحفظوا رعاياهم بنصيحة فوجدوا بعد وفاتهم رائحة الجنّة ، وحيث الفضائل تملىٰ ، والمحاسن تجلىٰ ، وكتاب اللّٰه آناء الليل وأطراف النهار يُتلىٰ ، وسرائر السعادة تبلىٰ والأعمال الصالحة تجد والحزن يبلىٰ ، والنفوس تهبط للتزاور من الملا الأعلىٰ ، والرحمة تورد أهل الشريعة بالمشرع الأعذب الأحلىٰ .

وأمر مولانا أمير المؤمنين أيّده اللّٰه أن يعمل بفوائد تلك الأحباس ، طعام يعم الظاعن والمقيم من الناس ، وأن توسع معايش المساكين أولي الإفلاس ، والضعفاء الذين لجأوا إلى الملك العظيم الإيناس ، الذي هو لبني الرجاء كما كان بنو العباس ، فتعاضد الرفد القديم بالحديث ، وفاضت بحور العطاء الحثيث ، والجود الذي أخذت وثائقه عن آبن مغيث ، وصفت موارده ، فلم يختلط طيبها بخبيث ، وكثر الشاكر والداعي . وحمدت المساعي ، واخصبت للمنتجعين المراعي .

وكتبت بجميع ما ذكرنا من الأحباس والأوقاف رسوم تنزهت عن الاختلاف ، وعقود حكم تعارفها بالائتلاف ، وشهد فيها أعلام هذا الزمان ،

---

(60) أو شالة كما ينطق بها اليوم . راجع عن هذا المكان الشهير : د . إسماعيل إسماعيل : شالة الإسلامية ومراجع البيبليوغرافيا .

وصدور أهل العرفان ، وعلماء ذلك الديوان العزيز والإيوان ، وجليت عرائس معانيه بمنصة البيان ، وفتح على منشئها في الكلام ، فلا غرو وأن أظهر الفتح قلائد العقيان ، وبقيت شرفاً يزحم بعود لكن إلى الإحسان ، وفخاراً تدخل بابه المعالي دخول الصائمين باب الريّان .

نفع اللّه مولانا بأعماله الكريمة الخبر والعيان ، ولا أعدمها حلولاً بالعلمين لكن من الإسلام والإيمان .

لواحق وضحت لها حقائق :

هذا وكم من مسجد أصلح أموره ، وعاجل جبوره ، وعيّن له ما تنشرح به صدور وظائفه ، وتتفتح إلى جناب السعة والسداد أبواب مصارفه ، ويبدو للغرّ المحجلين من آثار الوصف ما تنكر من معارفه ، ويزهىٰ بالمنتظرين الصلاة بعد الصلاة ما استوحش من مواقفه ، وتفيض على الأتين وعليهم السكينة والوقار ما غاض من عوارفه . وكم من مؤذن لم يأله ارفاقاً ، وأسبغ عليه نعمه جزاءً وفاقاً . وأطال له أسباب الاعتناء الذي حسن اتساقاً لما كان من الذين هم أطول الناس يوم القيامة أعناقاً .

وكم من مكتب رفع لمعلّمه علم الغنى ، وبلغه من إقامة أوده غاية المنىٰ . فحمد صدره ووِرده ، ورأىٰ مصداق قوله ﷺ : «القرآن غنىً لا فقر بعده» ، وأنس المزيد فضل من الإمام الذي بدأ الجميل فتمّمه . وسمع قول النبي ﷺ : «خيركم من عَلِمَ القرآن وعلّمه» ، فرفع قدر الموصوف بالأمرين وعظمه ، وأجلسه على كرسي العناية وكرّمه . ولأجل حفظه للقرآن العظيم الذي هو كلام اللّه قرّبه وكلّمه . وهيأ أسباب السعادة للتالين الذاكرين ، وهدىٰ الجميع الذين كانوا صغار قوم وسيكونون كبار قوم آخرين ، وحاز أجر الأئمة المتّقين الصابرين . وكتب اللّه له فضل الأغنياء الشكرين ، وثواب الواردين في مراضيه الصادرين ، وجعل عدوه في الغابرين وحبيبه لصراط النجاة من العابرين .

شرح الإجمال :

وذكر وصول الإرسال راغبة عن ملوك الروم في الإمهال ، والإنعام عليهم بالصلح الوارف الظلال ، والمهادنة الموفية بصلاح الأحوال :

كان استقلال مولانا أيّده اللّه من المرض الذي ذكرنا عوده في شوال من عام سبعة وخمسين وسبعمائة ، فذهبت الآلام كلّها ذهابَ أمس الدائر ، وتخلّص البدر من سراره[61] الذي قضىٰ به عالِم السرائر . وآنجلىٰ عن شمس المعالي غيمها ، وزال عن النفوس القانطة ضيمها ، وذهب عن سيف البأس صداه ، واختليت به قمم عداه ، ورد بيت الملك على قواعده ، وأخلي المطاف لقاصده ، واحذر إلى اسم الإمامة عامل الرفع ، وأمنت أحاديث كلاتها من الاعضال والقطع ، وباتت السعود بجمع ، ونزع عرق المسرّات أحسن نزع ، وقدع فحل الارجاف أعظم قدع ، ولمعت بروق الابتهاج أبدع لمع ، وصفت الموارد من الأكدار ، وأفضت أهلة الجذل إلى الابدار ، وبلغ مال الآمال النصاب ، وأذهب الشجون والأوصاب ، وأرسلَ سهمها إلى ثغرة اليأس فأصاب ، وتلقّىٰ وفد البشائر غير الندامىٰ ولا الخزايا ، وأظهر له أعظم الرتب وأكرم المزايا ، وجاءت الأيّام بأزكىٰ التحف وأنفس الهدايا ، واعتمد المطيع بنيل الأماني والعاصي بإتاحة المنايا . وآنجلت الغمـاء ، وذهبت اللاواء ، وتلاءمت بعد تفرّقها الأهواء ، وسكنت الدهماء ، واجتمعت بعد تشعبها الآراء .

وخرج مولانا أيّده اللّه إلى المصارة فسكن بقصرها الذي سلم له الخورنق والسدير ، وأنسىٰ الجعفرية التي حل بها المتوكل الأول كما حل بهذا المتوكل الأخير .

وسكن بـالمصارة خـواص الدولـة ووجـوه الخـدّام ، وذوو المـراتب المخصوصون بالبرّ والإكرام ، وقوّاد الأجناد الذين عمروا مقامات الأسراج

---

(61) يُقال أيضاً السرر . تخلصَ مما حجبه وحال بين ضوئه الساطع .

والألجام ، وضربوا هنالكم أخبيتهم التي لبست من الحسن كل رداء فضفاض ، وروىٰ الجمال من ظواهرها وبواطنها حديث بياض ورياض ، واستقرّت هنالك في خضر المروج ، وارتفعت الكواكب ، ولا غرو فهي بين البروج فلا تبصر العيون أمامها إلاّ أهلة السروج ، فوق صهوات الجياد السابقة للرياح الهوج ، وبروق الأسنّة الحامية لسحائب الحدوج ، المومضة يوم تداعي الأبطال للحرب اللجوج .

ذكر الناعورة،(61) :
وإيراد أخبارها المأثورة :

وهنالك تهيأت الإحاطة برؤية الناعورة العظمىٰ ، ومشاهدة أشكالها التي لها المظهر الأسمى ، والجانب الأحمىٰ ، ذات المحاسن التي روت عن صاعد ورافع ، والبدائع التي قرأتها على الربيع قراءة نافع .

وما سر الناظرين كفلكها المسخر الذي سقى الروض بنوء الفرع المقدم ، ونوء الفرع المؤخر . وطلع بسعد الأخبية وأقرّ سعد السعود بين الأندية . طامحة الهمم ، راجحة الكرم . بادية الصلاح ، محفوفة بعناية الملك الفتّاح . ما مر بها ثعبان نهر إلاّ رفع ، ولا نادىٰ منادي هيئتها إلاّ سمع . قراءتها في الوادي بالإدغام الكبير ، ومعرفتها بالصبّ معرفة الخبير . ووجود النطفة الطاهرة في رحمها ليس بالعسير ، بل حملها وفصالها كلمح البصر في التقدير . راوية إسنادها عال ، وقلبها بإيراد سؤال القلب غير خال . أبدع أدلّتها دليل الدوران ، وتأتي بالبرهان الساطع لكن على الحسن والإحسان . كريمة لا يحسن ردّ السائل إلاّ منها ، ولا يروى وجوب السماع لصوت العود إلاّ عنها . بحضرتها الماء اتضع فارتفع ، وعلى يدها خرق السنة الشهباء ارتقع . ظاهرة كرم لأزارها الشد واللوث ، وسالكة نكحها للقطب الذي هو للروض الغوث .

---

(61) حول هذه الناعورة راجع كولان مجلة هسبيريس (البيبليوغرافيا) .

وما أجذب المرعى ولا أمحل ، إلّا روى عنها حديث الرحمة المسلسل . ولا أتىٰ النبات بعيب إلّا وغطىٰ كمالها على غيبه ، ولا لقيها الربيع إلّا وكتب عنها حديث الفرج وجعله في جيبه . ومن العجائب أن دولابها يمشي مكبّاً على وجهه وهو في الجنّة ، ويسعى في قطع الطريق على الصديق وهو مكرم عند أهل السنّة ، ويجيز الدور والتسلسل وهو معترض قوي المنّة . وكم أجمع الماء على مصادمته فخرق الإجماع ، وعاب على ما استودع ،،،[62] ما استطاع . وكاد دورانه يدخل ما لا يتناهىٰ في الوجود ، وكم سجد فلم يطمئن في السجود . ونسّق أكوابه فاستسقىٰ بالنجوم ، واختار أن تسودّ وجوه لكن من الغيوم ، وهو أثناء ذلك محمود ليس بمذموم ، ناظر من جنابه المزهر في كتاب مرقوم .

وما الذي أقوله في ناعورة فاقت نواعير الأرض كما فاق ملوكها إمامنا ذو الشرف المحض فلم تقاربها إلّا بنتها التي جاورت الدار البيضاء ، وملأت بما هو أبدع من الفضة الفضاء . حيث اشترىٰ الرُّبىٰ فوجب الدفع ، واستوىٰ الماء والخشبة فظهر بالنصب الرفع . ناعورة حازت كل حسن باهر ، وعمل طاهر ، وجبرت الروض فلم ينكر التصعيد والتقصير من فعل جابر .

حسناء زيّنت بعقود أكوابها التراقي ، ولدغها صل النهر فكان ماؤها الراقي . جارية لها أخوة لكن من الرضاع ، عارفة بأحاديث الري المنزّهة عن الانقطاع ، إذا أسند حافظها الموطأ رواه من دولابها آبن الطلاع .[62] . مفاوضة في الغناء والحفض ،،،[63] لا يرد على ألواحها سؤال النقض ، ولا يُعاب إجراؤها بالكفّ والقبض ، ولا تشكو عيونها من فقد الغمض .

معتدلة الحركة ، ظاهرة البركة . لا يضعف كبدها بالاستسقاء ، ولا يضر

---

(62) بياض ولعلّ ما محي هو : وحمل قدر .

(62) هل يقصد محمد بن الفرج آبن الطلاع (404-497) القرطبي المالكي مفتي الأندلس ومحدّثها؟ .

(63) من حفضه ألقاه وطرحه من يديه .

معدتها كثرة شرب الماء ، ولا تخاف إذا تعرّت من الهواء . عارفة إن قذفت بحدّ القذف . عالِمة بقراءتها على آبن كثير بالمدّ لا بالقصر ، وبالوصل لا بالوقف . مظهرة للحقّ المرعي ، خبيرة باللازم القطعي . مقدمتها مقرونة بالسور لكن سور المدينة ، وبيانها أبداً بالمادة لكن من الأنهار العذبة المعينة .

تعلّمت وهي في منابتها ناعمة ، جود الغمام الذي غدت وهي هامعة ، وغناء الحمائم التي أمست وهي عليها ساجعة . فلما يبست جادت على الروض بمثل غمائمه ، وأسمعت من صوتها ما هو أبدع من سجع حمائمه ، وأجرت دموعها إدكاراً لعصر الشباب ، وتوالىٰ أنينها تألّماً لبُعد الأحباب ، وأضحىٰ تحت اشرافها اليتامىٰ لكن من درر الحباب ، وتحت نظرها كل بكر حرة لكن من ماطرات السحاب .

وعلّمها النسيم حسن الإمالة والروم والإشمام ، وأودعها من لطائفه ما يرقص لسماعه الزهر بالأكمام . فلا شيء أبدع من الأولىٰ والأخرى ، ولا أجمل في قياس النواعير من هذه الصغرىٰ وتلك الكبرىٰ .

ذكر الناعورتين الجديدتين :
ووصفهما الذي أنسىٰ نثره الشعرتين :

اللهم إلّا الناعورتان اللتان أمر مولانا أيّده اللّه بإحداثهما بعد ذلك التاريخ ، فجاءتا أبدع منظراً ، وأطيب مكسراً ، وأصفىٰ جوهراً . وزادتا في رفعة الصيت لا في الحجم ، وعدتا في ذوات المناصب المنيفة على النجم . نتيجة حكمة بديعة الأسرار ، وهندسة كريمة الآثار ، فلهما المجد الثابت القطب والمدار ، لما نسبتا إلى بني النجّار ، ساميتي الفخار ، وأحبتا من هاجر إليهما لكن من الماء البديع الانهمار .

توأمتان جمعهما بطن واحد وهو بطن الوادي ، ورضيعتا لبان لكن من أجل ما استقر في ضروع الغوادي . وصاحبتان أنبتهما اللّه أو لا نباتاً حسناً ، وجمعهما على الطهارة التي شملت بقعة وبدناً . فكل واحدة منهما قد حفظت

لوحها وانطلقت . وتلقت من مياهها رسائل إخوان الصفا فتحققت . وجلعت من جاء من رأس الماء على رأسها ، وعضدت نصها في الكرامة له بقياسها . وتساوت حالها في الخطرات ، ووافتها مختلطة الأزهار في مائها ما حدثت المختلطة عن آبن الفرات . وأسكنت الري من ضلوعها بالمنحنىٰ ، وأنزلت بالعوالي ما قرب من ركب مائها ودنا ، وآقتدت في خطّها بذات النطاقين ، وحفظت في كل كوب من أكوابها مختصر العين . ومن آدابها إذا فقدت الفاكهة والأب[64] أن تدمع عينها ولا تقول إلّا ما يرضي الرب . فهي حسنة الإلقاء ، غير واهبة السقاء ، بحسن الاستنشاق والاستنثار . وتسبّح أعقابها وتخاف النار كاملة الطهارة ، تجمع بين الماء والحجارة ، طائعة لا تحب من عصا ، مباشرة إن سجدت بوجهها للحصىٰ . لا تدافع إلّا خبثين ، وربما قبلت من سيل واديها الأسود ذي الضفتين . غنية كرم بذوب اللجين لها تجر ، رطبة الكبد ويح مخ ففي كل كبد رطبة أجر . خافضة من أجزائها المستنبطة والمجموعة ، راوية أحاديثها الموصولة والمقطوعة . يعرف في الروض فيضهـا الأصول والفروع ، ويحقق المحمول والموضوع والمرسل والمرفوع . ويتلقىٰ من واديه تفسير ، ، ،[65] ويعول منها على الجديد ، ، ،[66] الشافعي ويصاحب من نظرائه كل سديد الرأي ، عارف بحججه بيت السقي ، يبدأ بتقبيل الحجر قبل الطواف والسعي ، ويصعد فوق الصفا والمروة متوضحاً أعلام الهدي . ويهاجر إلى الأزهار قبل الفتح ، يستقر بتلاعها فارس ، ، ، حامي السـرح . ويهز أعطاف الغصون في ندوة الحي ، ويبدي دلائل الصنعة الإلٰهيـة فيتبيّن الرشد من الغي .

فلا بعداً لهاتين الناعورتين لا بعداً ، وحفظ اللّٰه بينهما وبين العماد عهداً . وجعل قرانهما في برج واحد أسعد قران . وألقىٰ لهما في المحل أعظم

---

(64) المرعىٰ .

(65) غير واضحة .

(66) غير واضحة .

كلكل[66] لا جرم أن سرورنا بما وفرتا للروض من البضائع المرجاة ، وحياتنا فيما طلع بأكوابهما فلا غرو فالطالع بيت الحياة .

لعوبتان بلغتا الجمال ما تمنى ، وروى الحسن من أشكالهما عن آبن المثنىٰ[66] ودودتان ولودتان فلا قصد بهما إلّا تسنى . مشدودتي الأوساط في خدمة الوارد ، يقومان بلا عقل لتلقي القاصد . ويرفعانه إلى أسمىٰ المواضع . ويوفيان له حق المراضع . ويرويانه حديث الري ويفيدانه علو المسافة ، يظلمان نقيراً إذا ظهر علوهما وسموهما في قصر الخلافة .

كفيلتان بالعيش الرضي ، يروي الدوح من كل دولاب لهما عن الرياشي . سيدتان حظهما في الجنة ربيح ، وحديث خشبهما حديث حسن صحيح .

عادلتان أدخلتا على مائهما السير والتقسيم ، وتسنمتا أعالي الروض فلم تنكرا من عيونهما التنسيم . فكل واحدة منهما مساوية للأخرى فيما تحوز ، عالِمة حين اشتركتا في ربح حمل الماء أن الشركة بالتفاضل لا تجوز . من كل خاشعة ترن وتئن ، ويحرك لها حوارها فتحن . أكوابها أبدع من كؤوس الرحيق المختوم ، وأحسن من غدران غب الغيث السجوم ، وهي وإن لم تكن عدد النجوم فهي موازية في فلكها للنجوم . تتسق قلائدها في صدر الوادي أحسن آتساق . وينطبع الماء فيها خلخالاً فيزهىٰ به كل ساق . عجيبة أنسىٰ حسن مخبرها المنظر ، وعرفنا إقبالها وإدبارها أحوال الزمان أن تعرف أو تنكر ، وأذكرنا ماؤها النعيم المسؤول عنه والعجب من جارية سبق ماؤها فأذكر . عارفة بأدوات الحصر ، عالِمة بالمد والقصر . بارعة لإدراك المعالي ، مرخصة من الأزهار ، ماؤها،[67] أعطر من الغوالي ، إذا نظمت سرطي أكوابها أنتج[68] عين

(66) كلمة غير واضحة .

(66) محمد بن المثنىٰ (168-252 هـ) . انظر الزركلي : الأعلام ج : 7 ص 240 .

(67) شبه بياض عوّضناه بهذه الكلمة .

(68) بياض عوّضناه بكلمة مناسبة .

المقدم عين التالي . وطلعت على الحدائق بالتي هي أبهج ، وسابق دولابها الريح ، ، ، [69] ولا غرو فهو أعوج ، وكم أذهبت عن الجناب الممحل ما شكاه من الضير ، وبينت في الروض الآنف ما كان أشكل من بدائع السير ، ورّوت روضة الأزهار ، وأتت بنزهة الأبصار ، ورعت ما لمالكها عليها من الحقوق ، وأسندت الحديقة لابن الصلت[69] لكن من البروق ، وحقّقت ما لكواكب أكوابها من النظائر ، وعرفت بأوقات المسرّات الواضحة الشعائر ، وسارت أخبار القحط سير المثل فطلعت بالفلك الدائر على المثل السائر ، وعرفت علم البديع لكن من النور الناضر .

حيّاها اللّه وحيّا أختها وجنّب تلك وهاتي في الفعل لا في الشكل عوجها وأمتها[70] وقرن بأسماء سعودها عطفها وتأكيدها ونعتها ، ورسم على كرة المحاسن قنطرتها وسمتها ، وأدام لأنف المبغض إرغامها ، وللحسود كبتها ، بمنّه وفضله وجوده وكرمه .

ذكر النواعير الثلاث الصغار، وكيف تعطّلت بعد ثبات القطب وتحرّك المدار والامتياح الذي حاز ثناء الروض المعطار :

وكان بالمصارة ثلاث نواعير صغار ، كالأفراخ ، مشي مائهـا كمشي الأرخاخ[71] إلاّ أنها تنفث محدودبة الظهور كالأشياخ ، وتسر حسواً في ارتقاء إذا دعاها الروض للإصراخ ، وتستنسخ أعمال النهر أحسن الاستنساخ . وترىٰ أنها راوية من دواليبها عن الشماخ .

---

(69) بياض .

(69) أمية بن أبي الصلت الداني (460-529 : أديب وعالِم أندلسي .) راجع ترجمته في الزركلي . الأعلام ج 1 ص : 363 .

(70) «لا ترىٰ فيها عوجاً ولا أمتاً» .

(71) طائر معروف بمشيته اللطيفة .

أجود على الدوح من بني حمدان على أبي الطيّب ، وأبسط أيادي بالنوال من المزن بجودها المرهم الصيب .

فلما هيء للناعورتين الجديدتين موضع قرارهما ، ورفع بالبناء محل استظهارهما ، أقصر الماء لديهما عن الانحدار ، وتعطّلت حركات الثلاث بسبب الانحصار . فشكت ما يشكوه الثلاثة ، والثلاثة ركب من الحوادث . وضرب الماء الأعواد ، فمن العجب أن علت المثاني إذ ذاك على المثالث . ولسرعان ما عدم النبات منها لا من غيرها النضارة ، ومحاسيف النهر من أعمالها ما قال آبن دارة ، ولم يملأ بطونها إلّا التراب ، وكأنّما تقطعت بها الأسباب وأخدرت أعضاءها كثرة المادة الباردة ، وتعطّل لها بتلك البطاح تحضير المائدة ، وأصبحت أفئدتها خالية ، وأم امتياحها(72) هاوية . وآنقطع أنينها ، ولم يستقر ببطن كل واحدة جنينها .

فهي تندب من القرّ بها طللاً محيلاً ، وتحسد النسيم في حركاته وإن كان عليلاً . فالروض يعزّيها ويقول الغريق شهيد ، والوادي يغيظها ويقول : ما لما فات معيد . وأصبحت أكوابها خاوية على عروشها ، معرضة أوجهها لخدوشها . مجزومة حروفها المبنية على الفتح . قد عاداها السقي معاداة الشافعي لفتيا آبن أبي السمح(72) وعدم ماؤها المرفوع ، ولا غرو فقد رأيناه على آلة حدباء محمولاً ، وشاهدناه قد ترك تنفّسه الذي كان دليلاً على السلامة مقبولاً .

فللّه درّ روض المصارة من راوٍ أخذ عن الأكابر والأصاغر ، وشاهد كتب خط يده ببيع عقود الندىٰ من الأزاهر . وأظهر العدل لكن بواحدة من جواهره آلاف الجواهر . فهو ملعب للرياح اللوافح ، وكناس غزلان السحاب السوافح . وغياب مسك الغيوم المنفتقة ، وخزانة النور الجامعة لفنونه

---

(72) النزول إلى البئر .

(72) هل يقصد آبن أبي السمح مالك بن جابر (؟ ـ 140 هـ)؟ الزركلي . الأعلام . ج : 5. ص : 130 .

المتفرّقة . والمسرح الذي تسافر فيه الأبصار فيكون سفرها قطعة من النعيم ، وتُحار فيه البصائر فيهديها الحسن إلى صراطه المستقيم .

روض هو أعجوبة الدنيا ، والمحل الذي شكر لواديه اليد السفلىٰ ، ولمولانا أمير المؤمنين اليد العليا . فكم أفاض به أيّده اللّه من سجال نوال ، وسمع بعرصاته من سؤال ، وأصلح من أحوال ، فجوده أعظم من واديه ، وأغدق من غواديه . ذلك الماء بتكلّف ، وتلك أنزلته بتعسّف . وجوده قد تنزّه عن تانك الخلبتين ، وترك فخر لمروين ، صريعاً للفم واليدين .

إلّا وأن عفوه عن الجاني ، لأبدع من الزهرات التي فتقها للجاني ، وأمره ونهيه بتلك المعاني ، أحسن في الأسماع من المغاني ، فسير الملوك الألفاظ وسيره المعاني ، ومن كان منهم الهادم للعدل فهو الباني ، خليفة نظم عقود الأماني نظم حرز الأماني، [72] ووجد له في الفضل التوالي وعدم التواني .

أمتع اللّه المسلمين بأيّامه التي بها صلاح القاصي والداني ، وجعله ممن اشترىٰ الملك الباقي بالملك الفاني ، بمنّه وكرمه .

وأنا استعذر عن جموح القلم في وصف هذه النواعير ، والخروج بذلك إلى حدّ التكثير الموجب للملل الذي لا قبول عنده للمعاذير . فإنما هي معانٍ جاش بها الفكر فلفظها ، وأنواع من الهذيان اختبر العقل أدلّتها فنقضها ، لكن ذكر مولانا أيّده اللّه شرفها تشريفاً واضح المراسم ، وأسعد أعمالها بالأعقاب بحمده والأعمال بالخواتم .

رجع الحديث :

ولمّا خرج مولانا أيّده اللّه إلى المصارة وكمل برؤه الذي سرّ أهل البداوة والحضارة . طاشت بذلك الأخبار ، وتهادت أحاديثه الأقطار . واتصل ذلك بالروم فصرف همّهم إلى الهموم ، وسلب الأطراب حتى عن نبات الكروم . ونفث بالروع في كل روع ، ورمىٰ أكبادهم بانشعاب وصدوع ، وغادر طعامهم

كالضريع الذي لا يسمن ولا يغني من جوع . وأذاق كل عين منهم ثكل كراها . وسرىٰ إلى قلوب أضمرت الفرية على اللّٰه ففراها[73] وشاهدوا بظهر الغيب عزم مولانا الأرضى ، واشتداده فيما أغمض فيه من الأرجاء وأغضىٰ ، وعاينوا جنود اللّٰه منتشرة ذات اليمين وذات الشمال ، ناهدة بأجذال الجلّاد ومساعد القتال . ملبية داعي النزال ، قاذفة بالأبطال لا الكشف ولا الأعدال ، نافرة للجهاد الذي هو ذروة الإسلام وسهام الأعمال . من كل مشمر عن ساعد جد واعتزام ، ملتزم للجهاد في سبيل اللّٰه أحسن التزام . فمثله مثل الصائم القائم الذي لا يفتر عن صلاة ولا صيام ، تحت رايات أمام أي إمام ، مظهر لبأس وإقدام ، منزّه وإن كانت خلقه الحسناء عن ذام[74] سام حام لآل سام وحام سيوفه دوام ، كفيلة للعز بدوام ، لأبعـد غاية من قصد ومرام رام ، وغيث نواله عند تعاطي ، ، ، وهام بهام ، كما أن بحر بأسه ذو التطام ، وإرهابه لعداه في يقظـة ومنام نام .

فعند ذلك نظر ملوك الروم في عواقب أمورهم ، وتغلغلت مخافة مولانا الخائف من اللّٰه تعالىٰ في صدورهم . وعلموا أنهم درئة[75] لرماحه ، ولحم على وضم[76] لصفاحه ، وأسماء تتغيّر لدخول عوامله ، وأدلّة تتزيّف بالطعن في مقدماتها لكن بذوابله . فأوّل من بادر إلى الاستخداء[77] ومديد الاستجداء ملك برتغال ، فقال من الخير ما قال ، ومن عثرة أعذاره استقال .

وكان شيخاً أحوذياً[78] أكل الدهر عليه ملياً ، فطلب أماناً وخاف سنان رمح لا يزال مطعاناً ، ولم يكن قبله وهو هرم يخاف سناناً .

---

(73) قطعها .

(74) كذا في الأصل : ذام يذيم والذام والذيم : العيب والمذمّة .

(75) كذا في الأصل .

(76) ما يوضع عليه اللحم لإنضاجه أو لشيّه .

(77) من أخذ . أنقاد ، أذعن .

(78) دائم الاستعداد .

(79) كذا في الأصل ولعل الأمر يتعلّق ببلاده .

وقد كان مولانا أيّده اللّه وجّه في العام الماضي إلى بلاده[79] [79] أسطوله ، وأقدم عليه من سلا أجفانه التي عرفت عرض البحر وطوله . فجاءها خضاره بالمنايا الحمر ، وأسمعتها الحرب أراجيز العجاج لكن من البحر . وما كان بأسرع من فتح الأجفان للأقش التي كانت زمردة خضراء بتلك البلدان ، فلم تنفع من سم الطعان ، حين عضت حيّات لكن من المران واستولىٰ المسلمون على ما كان فيها من النساء والولدان ، وسلطوا القتل على الكهول والشبّان . وخلعوا السنّة النواقيس بحلم الآذان . وكسروا أصلاب الصلبان ، وصيروا (الشنت؟) المعبود فكيف بعابديه إلى النيران فلا غراب في البر إلّا نعق ببينهم ، ولا غراب في البحر إلّا جاء بحينهم ، فكلاهما شاب صفو عيشهم بالأكدار ، فأعجبوا ليوم شاب فيه الغراب يا أولي الأبصار .

وخبر هذه الحركة قد تقدم في هذا الديوان ، وأوردناه مشروحاً على قواعد الإيضاح والتبيان ، فخاف ملك برتقال أن يطرق بلاده المرة بعد المرة ، وأن يخرب ملكه الراكبون ثبج[79] البحر ملوكاً على الأسرة . فوجّه أرساله إلى مولانا أمير المؤمنين أيّده اللّه راغباً في الصلح رغبة المتذلّل الخاضع ، وطالباً للمهادنة التي أغمدت السيوف فأمنت نصبة مولده من القواطع . وأفصح أنه ما طلب ذلك إلّا نظراً في المصالح لنفسه ورعيته ، وأنه خاف عليهم من الحروب التي تحول بين المرء وأمنيته ، كما خاف على بلاده من الخراب ، وإقامة سوق الطعان بأسواقها والضراب . ولم يظهر في ذلك كلّه ناموساً ، وصدق سن بكره فكان حرفه مجهوراً لا مهموساً . فأعجب مولانا أيّده اللّه ما أظهر من الذل إذ هو للإسلام عزّ ، وعلم أن ذلك النازل إذ لز في قرن الوفاء حسن له لز . فأسعف أيّده اللّه قصده ، ووجّه من خدّام بابه الكريم من يكمل الصلح معه ويتمم عقده ، فتلقّىٰ إرسال مولانا أيّده اللّه بالإكبار والإعظام ، وفرح بقدومهم فرح الأرض المجدبة بواكف الغمام ، وشكر نعمة المقام العلي شكر العين المسهدة للمنام ، ودخل تحت ما رسم له من الأحكام ، وأعاد إرساله مقرراً

---

(79) ثبج البحر : عرضه ووسطه .

لاغتباطه بذلك ، ومعرّفاً بشكره الذي أنهج السُّبُل والمسالك ، فبلغ من الإبقاء عليه ما أراد ، وانتجع سحائب الفضل الامامي فحمد المراد . وبقي في طيب لايطـار غرابه ، ورأى سيفه المغلوب أوقاتاً هي أحلىٰ من العسل فسر ذبابه .

﴿ فصـل ﴾

ولما علم صاحب قشتالة أن قصده هو بيت قصيد الجهاد ، وتدويخ بلاده هو جلي قياس القتال والجلاد ، لما تميز به من صيت الملكة وقدم الدولة ، وعرف به من بسطة البـأس وعظم الصولة ، وأن أسلافه هم الذين قارعوا ملوك الإسلام ، وصبروا على معاطات كؤوس الحمام . وانتهبوا من بلاد الأندلس أنفس عقد ، ولاكت سيوفهم كبدها ولا ينكر لوك الأكباد على هند . فاستشعر عظيم الروم الأخير ما استشعره عظيم الروم الأوّل ، ورأىٰ أنه سيملك ما تحت قدميه إمام الهدى الذي عليه المعول ، الحامي لملّة الإسلام حماية كرم نصرها المخول ، وأصبح الرومي كهر قل جزاء ينظر في النجوم[79] ونجوم هذا أسنة تطلع في ليل العجاج سريعة الهجوم ، بأيدي سراة من بني مرين أولي الفضل المعلوم ، والبأس المختوم ، والمناقب الواضحة الحدود والرسوم ، فأنقاد في أزمة القهر ، وأتىٰ لانقطاع ذكره في الحروب حين من الدهر .

ووجّه إلى مولانا أمير المؤمنين أيّده اللّه راغباً في الصلح ، طالباً بذلك أجزل المنح ، ثانياً من عنان إبائه ، كاسراً من سورة مضائه . جانحاً للسلم مهيض الجناح ، آسياً جراح الاجتراح ، مفتضحاً في احتقاب الجزع أعظم الافتضاح .

ووجّه إلى باب مولانا أيّده اللّه هدية احتفل بها غاية الاحتفال ، وأعرب بها عن مخافته ولسان الحال أفصح من لسان المقال . فما سيق من بلاده أحسن من بغلاته التي أوفدها شاحجة ، حافظة للصواهل أرحاماً واشجة . من كل مشرفة الهادي نشأت عند الضال ، عبلة لم ترَ شجاعة عنترة إلاّ بهذه

---

(79) وفي الهامش نقرأ ما يلي : «لكن نجوم ذلك السماء المحفوظة بالرجوم» .

المواقف الكريمة والمحال . عريقة أبوها من جنس يعفور[80] الكريم ، وخالها من المنهي عن قودها بالنواصي إظهاراً للتكريم ، لكنها ربما لا يعجبها الإباء ، وتزهىٰ بالخال وبالخال تزهىٰ الحسناء .

نيرة اللون لا يسابقها ظليم ، عجيبة قياس مشيها منتج وهي عقيم ، عالية القرىٰ مرتفعة كنار القرىٰ ، على كل وظيف من قوائمها السير وظيف ، ولحوافرها في زيارة الأرض ذات الطول والعرض تخفيف ، وكم أخرجت أوقات السرعة بالصفيحة ، وبذلت في قطع المراحل حق النصيحة .

بغلات حسن لها فخار ، وأنشدت وما التأنيث بآسم الشمس عار . فهي بحار[81] ركبت بحاراً ، ووافت أعظم منها جوداً وإيثاراً . وأخرجت من الظلمات إلى النور ، وذخرها اللّه لركوب الملك المنصور فهي في الحقيقة أفلاك لشمس الشموس وبدر البدور .

رجع الحديث:

فتلقّىٰ مولانا أيّده اللّه رسوله بالكرم والفتوة . وقبل ما سمي هدية بالفعل وغنيمة بالقوة ، وترجم كتاب الطاغية ، فإذا به يفيض في الشكر والثناء ، ويعلن بما خبره من كرم الوفاء ، ويتلطّف في طلب المهادنة التي كان حصولها أغرب من العنقاء ، أو حديث السارية لكن من جيوش مولانا التي دوخت أرض الأعداء .

وأقصر الطاغية عما عرف بأسلافه من البأو ، والزهو والتكبّر البعيد الخطو ، والصلب المقرون بالتأثيم واللغو . ودفن سيوفه في قبور الأغماد فملست ناراً ، وأنام عواسل رماحه فكانت مضاجعها عاراً وشناراً . وخلع أوتار قسيه فلم تدرك أوتاراً . ونزع دروعه التي أثرها في الحرب جليل ، ولم

(80) ظبي . حمار للنبي ﷺ . يشير إلى الحمارين المهديين إلى النبي ﷺ من لدن المقوقس ومن عمرو بن عروة .

(81) شبّهها بالفرس الواسع الجري .

يحضرها مجلس أنسه ولا غرو فكل منها ثقيل . وألزم خيله مرابطها فلم يشف لها بالجري غليل . وأشفق عليها من طعان لا تبقى لها به غرر ولا تحجيل .

فرأىٰ مولانا أيّده اللّٰه أن ذلك أمر بعد عهد الإسلام بمثله ، وحال لم يتوخ وفد العز أوضح من سبله ، ولم يعرف الظهور بأبين من جنسه وفصله . فأسعف أيّده اللّٰه عظيم الروم بمطلبه ، ولم يعر المطال به ، وأراد من علو الكلمة الإسلامية ما لا لحاق لمرقاه ولا مرقبه .

ولادخل ملك الأندلس في أحكام تلك السلم بعد أن مني من كلام الطاغية بأرغب الكلم ، ورمي من تعاظم الكافر عليه بموضحة العظم . فآختالت الأندلس في برود العافية ، وجددت المسرّات من رسومها العافية ، استمنحت الآلاء فجاءها ابن مالكها بالشافية الكافية ، وتكفّل لها بنجاح السعي ، وعلو راية الرأي وأشعار هدي الهدي ، ورجح التأمين لأهلها أحاديث الإثبات على أحاديث النفي .

جزىٰ اللّٰه مولانا على ذلك جزاء من أحسن صنعاً ، وشكر أعماله التي أوسعت المخاطبين أعطاء والخطوب منعاً ، ولا زال ثمر الكفر بحر قتالة وسموم ريح نزاله ينعي ينعاً .

﴿ فصل ﴾

ثم أتت أرسال الجنويين ترغب في الصلح وتجيل الكلام في طلبه إجالة القدح . وتراه لمتاجرها أعظم الربح ، ولسائل حياتها أعظم المنح ، ولم تغرهم أجفانهم التي هي لعيون التجّار أجفان ، وأساطيلهم التي هي لجواري الرياح شمائل وأيمان . وأوثقتهم الأيدي المنزهة عن الغلول بالغل ، ولم يغنهم تكفنهم في الحديد عن التكفن في ثياب الذلّ . وعاد مرفوع همهم إلى حط ، وشط لحروبهم مزار شط ، وكسرت أقلام مجاذيفهم فلم تسر بخط ، ولم يجدوا بدّاً من التخضع ، والأصحاب بعد التعصب والتمنّع .

فأسعف مولانا أيّده اللّٰه طلباتهم ، وأنجح مطامح رغباتهم ، ووجّه مع

أرسالهم أحد خدّام الباب الكريم حتى تمّم عقد الصلح أحسن التتميم ، وألزمهم الشروط التي توطد بها العزّ ، وأضحت أعطاف المدن لسماع حديثها تهتز . واستراحت البلاد الساحلية من عدوانهم ، وأمنت حمائم أبراجهم من غربانهم ، وهدأت المراسي من مراسمهم ، ورفت المرافىء خروق دعاسهم[82] . وامتلأت بتجارهم دواوين الأقطار ، وأدّوا أعشارهم دنانير مستديرة كالأعشار ، ودراهم يبدو وفقها للمربع للمشتري مدى الإعصار ، وسلعاً رفع إلى الملك الأوحد مجموعها على حسب القصد والاختيار .

فالأمان مشفوع بالفوائد ، والعزّ قد قرن أصليه بالزائد ، والسعادة خارقة للعوائد ، بنية قطب الملوك الزاكي المحامد ، والبذل لكن من آبائه الكرام الأماجد ، منحه اللّه أجر المثاغر المجاهد ، وجعل حظه كالحظي يطعن في صدر المعاند ، ومنطقه كالمنطق يعرف به صحيح النظر من الفاسد ، بمنه ويمنه .

﴿ فصل ﴾

ولما رأى سلطان أراغون وصاحب ميورقة ما كان من فعل ملوك النصرانية ، وإسعاف عماد الدين الإسلامي لأهل المعمودية ، رأى أنه أولاهم بالخضوع ، وأحقّهم بطلب جوده المشروع ، وأجدرهم بالرهبة من أساطيله التي تنهد إلى الكفار ، وتزحف بأشناع الماء إلى إشباع النار . وجيوشه التي تكفلت رماحها الطوال بقصر الأعمار ، وسيوفها القصار بطول الأحزان بتلك الديار ، وتوالي الأشجان بتلك الأقطار . وأيقن بالهزائم التي زيد معاني القهر وضوحاً ، وتترك بوجه دينه البطل كالمسائل كدوحاً . وتغادره بين المدرعة البيض والمثقفة السمر ، مضطجعاً على يمينه كأنّما صلّى ركعتي الفجر ، غير معيد في الجماعة كأنّه أتى بسنّة الوتر .

فبادر لطلب المهادنة المنفسحة الأناء ، ورغب لأهل ملّته في الإسجاع

---

(82) طعانهم وقتالهم .

والإبقاء ، والصلح الذي لولاه لصلّىٰ السيف من سبالهم بالصهباء ، ووجّه كاتب سرّه المخصوص بالاعتناء ، وحاكم بلنسية وما إليها من الأرجاء ، المعتمد لديه بالاكرام والاحظاء ، طالبين كف الغارة الشعواء ، وانعقاد السلم التي يجعلونها سلماً لنيل الرجاء . وفوّض لهما سلطانهما بالشهادة في التزام الشروط التي يلزمها مولانا الرفيع المجادة ، وإبرام معاقدها في الأجواء والإعادة .

فمن جملة ما ألزمه مولانا أيّده اللّٰه أنه إن زال حكم الصلح المنعقد بينه وبين ملك قشتالة ، فإنه يعين على قتاله ويكون مع المسلمين يداً واحدة في نزاله ، ويصرخ أن نبهت الفتن عيونها بأجفانه ، وينهض مع عقبان أساطيلنا بغربانه ، ويوجّه لحمل الطعام مراكبه التي تركت أساها وقراقره[83] التي تتلو عند رؤيتها قوله تعالىٰ: ﴿والجبال أرساها﴾ .

وأخذ عليه العهد في ذلك أخذاً وضح سبيلاً ، وبشران اللّٰه تعالىٰ سيأخذ الكافرين على أثره أخذاً وبيلاً ، وثبت للإسلام العزّ الـذي شمخ منكباً وتليلاً[84] ، ووضح حين خاصمت ألسنة الرماح خليلاً ، ، [85] جميع ما ألزماه سمعاً وطاعة ، وصلياً للذل فلظىٰ للشوىٰ نزاعة . وسطراً عقده الصحيح الإسناد ، وكتباً أخباره بالريش لما اختارا أن يطرق البلاد وأظهرا السرور ، فعل المريض للعواد ، ورويا عن طلق لكن من وجه الإسعاف لا الإسعاد .

وعيّن مولانا أمير المؤمنين أيّده اللّٰه للتوجّه معهما للشهادة على ملك أراغون بما عقده رسولاه المذكوران ، والتزمه سفيراه المسروران: الشريف المعظّم الحظي الوجيه أبا القاسم ابن قاضي الجماعة الشريف العالِم المرحوم أبي علي حسين بن يحيىٰ الحسين لما عرف من مضائه ، وصرامته وغنائه ،

---

(83) السفن الطويلة .

(84) العنف .

(85) بياض .

وخبره من فصاحة لسانه ، وانقياد بيانه ، وجريه في ميدان الجدال والجلاد ملء عنانه .

فتوجه معهما حامياً جانب العزّ ، متعهداً جذوع الآمال بالهز . ذا رواء حسن ، وعين حريم لا تلتذ بوسن. [86] فخم اللباس ، مطهراً من الأوجاس . شديد العارضة ، مدركاً للأسرار الغامضة ثابت؟ الأقدام عف السرائر ، عارفاً في مدارك أموره بالمصادر ، لا يجحد في العلم ، ولا يستلان عوده عند العجم . موفياً حق الخدمة ، ومؤدياً شكر النعمة .

ولما اجتمع بسلطان أراغون ، شمخ عليه بأنفه ، وأظهر عزّ مولاه الذي أتته السعود من بين يديه ومن خلفه . فلم يظهر له الرومي إلّا الاحتمال ، وأولاه الإعظام والإكبار والإجلال . وأفصح بالشكر لخليفة الرب الشكور ، وملك الإسلام الذي أبرم الأمور . وأقرّ له بالفضل الذي لم تعم عنه القلوب التي في الصدور .

والتزم له جميع ما التزم رسولاه عنه ، ولم ينسخ ما تلقّىٰ منهما ما تلقّىٰ منه . وكتب بذلك عقداً شهد فيه القند أخو ملك قشتالة وغيره من الزعماء والرؤساء العظماء والأعلام الكبراء . واجتمعت أهواء بني الأصفر على تعظيم الملّة السمحة البيضاء ، والانقياد لملكها الذي ترك ربوع الأعداء ، أشد افتقاراً من دار مية بالعلياء . وأذن النصر من صعدته على الزوراء ، وأصبح ذل الكفرة بسيوفه أعدىٰ من الثوباء. ؟

وتحدّث الشريف المذكور أكرمه اللّه مع ملك أرغون في خلاص ما للمسلمين من قبل النصارىٰ من الحقوق ، فخلصها أسرع من إيماض البروق ، ووثق به الوفاء أحسن الوثوق ، وآزدان شعر شعوره بالوتد المجموع لا المفروق ، وظفرت نيّة مولانا أيّده اللّه في إظهار صدق الصادق والمصدوق ، جعله اللّه ممن نال رضا الخالق بسياسة (المخلوق) . ونصره

---

(86) النعاس .

النصر المؤزر في الصدور والورود والغروب والشروق بمنّه ويمنه .

﴿ فصل ﴾

ولما اجتمع الشريف المرفع المذكور بسلطان أرغون ، وخلص معه عقد الصلح على أحسن ما تمنينا أن يكون ، وثبت حكم السلم التي صدقت في سبوغ ظلال الأمان الظنون . لم تنشب زوجة السلطان المذكور وهي أخت صاحب صقلية وسلطانها المحبّب للخاصة من أهلها والجمهور ، أن وجهت إلى الشريف بالشكر لمولانا أمير المؤمنين أيّده اللّه ونصره إلى آخر الدهور ، وتقرّبت إلى بابه الكريم بالخدمة التي رجت بها صلاح الأمور ، وشمول الخير الذي هو لعابر البحور أجمل من الشعر العبور .

ورغبت من هذه الخلافة العلية الانعام علىٰ أخيها بالصلح ، وكتبت بذلك كتاباً شرح مقصدها أوضح الشرح خوفاً من أن تعاجل أساطيلها إكليل أجفانه بالنطح ، وتعبث في البلد الذي راع لكن بالسيف الباتر والرمح .

فرأىٰ مولانا أيّده اللّه إسعافها ، وكانت قواعد الصلح خمساً كقواعد الإسلام ، وكالصلوات المفروضة ورحم استعطافها واستحضر استلقافها[86] التي خُوطب بها الكفّار زيادة في الآثام ، وكالأنامل التي قبضت على السيف الميسر بفضل اللّه لذلك المرام ، والرمح الذي استقام ،،،[86] من لطائف الانعام ، وأمن من الخوف والحزن لكن ببركة المولىٰ الخليفة الإمام .

ووجبت الاستعادة بالآيات الخمس من عيون الحسّاد لكن يوم تلاقى اللهام بالجيش اللهام . وفي ذلك من عزّ الإسلام الذي كاد يكون غريباً ، ما رآه الأعداء بعيداً ورأيناه قريباً . وسمعناه لداعي سرورنا مجيباً ، ولابتهاجنا مطيلاً ولأوقاتنا مطيباً ، أدام اللّه مولانا وزاده صنعاً عجيباً ، وأمتع ببقائه ما ذكرناه كآمرىء القيس منزلاً وحبيباً . بمنّه ويمنه .

---

(86) كذا في الأصل وهي غير واضحة .

(86) بياض .

﴿ فصـل ﴾

وما من رسول توجّه عن مولانا أيّده اللّه إلى ملك من ملوك الروم ، وفضّ ختام الأماني بحمل الكتاب المختوم ، إلّا وأعطاه الوفاء برسم فداء الأسرى وأحيا من ذلك الفرض الذي ينال به الفوز في الأولىٰ والأخرى ، واشتد في ذلك اشتداداً انحلّت به القيود ، فروت عن أسعد بن سهل السعود ، وعن ثابت بن يزيد الوعود ، وقدم النجح فهو يجول ويجود ، وعظم المنح فهو يروق ويرود[87] .

فما كان بأسرع من انطلاق نسائهن وقد لطمن صفحات خدودهن ، وأذررن من درر دموعهن أمثال ما كان في عقودهن حتى فرج عنهن ثمال اليتامىٰ ، والخليفة الذي هو عصمة للأرامل والأيامى . وكم من رجال عاثتهم الأغلال ، وبت في أعضادهم من أهل الإضلال الاذلال . وحملوا من الأحزان كل ثقيل المحمل ، وأهملوا فلم يعرفوا من الكتب إلّا تقييد المهمل. فحروف حجوبهم مبنية على الضم ، وموالجهم ضيّقة لكن لها سعة في الهم . تبلىٰ عليهم السيوف المغمدة ملء جفونها ، وتطيش صدور الرماح الثرّة أساها عليهم وشجونها . وتشتاقهم المآزق التي وردوا بأيديها لها حـداً . وشدّوا فيهـا حيازيمهم للموت شدّاً ، وتنمّروا لقراع الدارعين حتفاً وعداً . فكل على أبي فراس يربي ، وينشد قوله : أسرت وما صحبي ، إلى ، ، ،[87] مستضعفين من سواحل البلاد مختطفين ، ومن لجج البحار كدررها ملتقطين ، وبدهم القيود كدهم الجياد مرتبطين ، موثقين بأيدي الروم الذين لا يعرفون الإغـضاء ، ,ولا يملكون للعرب[87] البغضاء ، ولا يربحون من المها إلّا غضاء ، حتى نظر للجميع مولاهم نظراً جميلاً . وأصار الزمان لعثرات سعودهم مقيلاً . وأوضح لهم من الألطاف منهجاً ، وجعل اللّه من أمرهم على يديه فرجاً ومخرجاً .

---

(87) يزيد وضوحاً وبهجة .

(87) بياض .

(87) كذا في الأصل وربّما حذفت «الا» .

فآصطفُّوا عقائل النجاة ، واجتلوا شموس البشرىٰ باهرة الأياة ، وصدع العزم بمدعاته إلى فكّ العناة . ونفض العز أجنحته على أكوار الذل ، واشتهرت سراية السرور فلحق البعض بالكل ، واستنقذوا من لهواث القهر ، وكانت قراءة خلاصهم في ليلة الهموم بالجهر . وفكت الرقاب من أسر أولي الجيف ، حين خاف الأعداء فك الرقاب بوطء الضرف أو ضرّ بها بالسيف . وأحدقت المسرّات بالمسلمين أحداق الحجاج بمسجد الخيف(88) . وأبدعت المحاولات في إنجاح أمورهم إبداع البحتري في وصف الطيف . فألقت قلوبهم ما فيها من الهموم وتخلّت ، ورمت كبولهم بدائها وآنسلّت . واحتلوا من السلامة بالحصن المشيد ، وأعجبت أرجلهم في حديثها المطلق لا المقيد . وأناست الكبول منها مواعد عرقوب ، ولم تدر على حمامها الذي أصبح وهو حمىً غير مقروب . وضعفت قواها وانهدّت ، وانفرجت أزمة حلقها حين اشتدت . ورحلوا عن وادي عوف ، وأطعمهم اللّٰه من جوع وأمنهم من خوف . وبلغوا برأي مولانا أيّده اللّٰه غاية السول .

وشرط إطلاقهم فنفع الشرط حين لدغت عقارب الكبول . وسمعت القيود بشرىٰ العين فإذا به مصبح ، وأفلح الحديد بالحديد فإذا هو بأهل الفلاح مفلح . وأقبل بحجولهم المثقلة آسي الأسىٰ ، فقطعها في أرجلهم كأنها كانت عرق النسا ، واستقام مشيهم بعد لعل وعسىٰ . وأنشدوا : «كأن الفتىٰ لم يعر يوماً إذا اكتسىٰ» . وما أبهجهم كإقبالهم على جناب مولانا أمير المؤمنين أيّده اللّٰه فكل حياه ، وشاهد نور الهدىٰ قد اقترن بنور محياه . ونالوا بقربه غاية الأمل ، وسعدوا بتقبيل يده التي باطنها للندىٰ وظاهرها للقبل ، فأفاض عليهم بحور النعماء ، وأنزل الناس منازلهم في العطاء . وردّ كل غريب إلى وطنه ، وأقرّ كل خائف بمأمنه . متقرّباً إلى اللّٰه بذلك في سرّه وعلنه ، ومظهراً لفرائض الدين الحنيف وسننه .

فكم من امرأة اجتمعت بأخواتها المسلمات في أكرم معاهدهن ، وعبدت

---

(88) ما آنحدر عن الجبل وارتفع عن مصبّ المياه ومسجد الخيف يوجد بمنىً .

اللّه في قعر بيتها وقعور بيت النساء خير مساجدهن ، ودخلت في عداد الضاربات بخمرهن على جيوبهن ، ولزمت الحجاب في الحافظات لفروجهن والمطهرات لمضاجع جنوبهن . فالعرض مصون ، وحبل الطاعة لا منبت ولا ممنون . فالحبيب مسرور ، والعدو محزون . والشمل مجموع ، والجناح مرفوع ، والخير لا مقطوع ولا ممنوع ، ببركة إمام قوله مسموع ، ورمحه مشرع وجوده مشروع ، أبقاه اللّه في سعد يضحىٰ به قلب العدو وهو مصدوع .

هذا وكم من رجل اعتمل في المراشد ، وأعمل كثر الخطىٰ إلى المساجد . وفاز في مراد السنة والجماعة بأعظم مراد ، وكثر سواد المسلمين بعد أن كان من ليل أحزانه في سواد . وألبس زوجته وأولاده ثياب المسرّات بعد أن لبسوا عليه ثياب حداد ، وظنّوا أنه قد غلق رهن حياته برماح ذلق وسيوف حداد ، فالشعث ملموم ، والشمل بالأحباب منظوم ، وداء الاعتداء محسوم ، بسعادة مولانا عدوه مقصوم ، وعدله كجوده بين الناس مقسوم . جزاه اللّه عن المسلمين جزاء من أحب لهم ما أحب لنفسه . وجعل إزالة وحشتهم أعظم أنسه ، وأبقاه في سعد يقصر يومه،[88] ويزيد على أمسه بمنّه وفضله .

ذكر الرحلة الميمونة ،،،[88] :

لزيارة الضرائح الطاهرة القدسية :

ولما أفاق مولانا أيّده اللّه من المرض المذكور ، واستأنفت الدنيا سروراً فاق كل سرور . واشتاقت الأعلام إلى النشر . وتلقىٰ وفد الرياح بالاعتزاز والبشر . وأقامت عوامل رماحها الظاهرة النفع ، فلم ترضَ بعد سكونها إلّا عوامل الرفع . ودبّر خفقانها بالمفرحات ، وعالجتها الرياح بالبارد والحار من

(88) في الهامش زيادة وهي «عن غده» .

(88) بياض .

المشمومات ورغبت الطبول في القرع ، والإتيان بوترها أثر الشفع ، وتشوفت إلى نيل إسعادها ، ودخول الضرب والحط في أعدادها ، واشتاقت الأخبية إلى انتظامها في المحلّة الحافلة ، واختارت بجهات سلا قرع الرمل لتكون بياضاً قرن بالنصرة الداخلة .

وكـادت الخيول تفصح بطلب الـركوب ، وأقبلت تختـال في أعنّتها كالشارب الطروب . وآن أن تسعد برحيلها ونزولها وتطلع في ليل العجاج صباح غررها وحجولها . فأشاد مولانا أيّده اللّه بالحركة ، وسفر سفره عن وجه البركة . فرأىٰ أن من جملة أعماله التي برزت في حلبة الصلاح ، وأفعاله الكريمة التي عرس ببطحائها ركب النجاح ، أن يبالغ في بر والديه الطاهرين وأسلافه الكرام ، وأن يزور ضرائحهم التي فاقت بعاطر نشرها أزهار الكمام . فتحرك في طالع السعود وأفاء ظلال البنود ، وأفاض بحار الجود . وأقام مواسم الأفراح ، وأدام كرائم الأرباح . وأبدىٰ كواكب السرور ، وأهدىٰ مواهب الحبور ومـلأ مـلا الأرض بكتائبه، وقطع أبهر الجبال بمقانبه ، ودان لعبيده باللطف الذي كرم محله . وآثر الرفق في رحيله والرفق خير كلّه .

فخلي النصب درج الضب(89) ، ونبت الحب في القلوب نبات الحب . وارتفعت الألسنة بالشكر للربّ . وهبت نواسم الحمد والثناء فكانت عاطرة المهب . وانتشرت درر الأمطار انتشار السلك ، ودمعت عيناً سحبها وقد تدمع العين من شدة الضحك . فسرنا المرويان : الغيث ونواله ، وراقنا المبهجان الروض وكماله . وضحكت لنا أفواه الغدران ، وانزعت كؤوسها للشارب الـظمـآن . ولانت مـراكب الأرض . وخفضت جنـاحهـا للراكب أحسن الخفض . وكنزت الأباطح فضة الأمطار ، ودبرتها فأخرجتها ذهباً لكن من يافع الأزهار . وربت الأنهار كمال الصدقة . وزاد نور الحديقة في نور الحذقة .

وما زال مولانا أيّده اللّه يخرج في خواصه عن الساقة . ويسير برسم

(89) يقصد بذلك ذهاب الكدر والحزن .

الصيادة مطلق الأعنة . بادي الطلاقة . متنعماً بشقاء الوحش ، غير مؤدّ في كسر ثنايا للأرش[90] بكلاب شامخة الأنوف . متوالية الزحوف . تمرق للأرانب كل اهاب ، وتذيب قلوب ذئاب وتروي عن ثعلب في جيات وذهاب . من كل لاحق الأطلين ، متلق راية البطش باليدين ، حديد الناب كأنّه حديد ، يعتبر فيه كل ذي عقل سديد فكم رآه يطلب الطريدة طلب الغريم ويشتاق إلى حطمها اشتياق الحجيج إلى زمزم والحطيم . ويطعن طعنة ثائر كقيس بن الحطيم ، معلم كلما زجر انتهىٰ ، لا يعجزه إدراك ما إليه بصره انتهىٰ ، يؤثر القهر على الأكل إذا ما اشتهىٰ . ولا يسهو عن لحاق الوحش ولو بلغ السها . أسرع من البرق ، وأعظم من الريح في السبق .

وأما بزاته فهي المرسلة في كل طالع سعيد ، المعدول عود صيادتها كل يوم بعيد ، المظهرة شدة البطش . فما هي من اليد الكريمة ببعيـد . من كل سبط الراحة . لا يميل إلى الراحة . فخم المنشر غائر العينين ، كأنما يقوم الليل كلّه في طلب النيل للحسنيين . موشىٰ الجناحين . كأنّما ألبسته صنعاء حلتين . وأهدت إليه ريدة وسحول بردتين . أسرع من مروق السهم إلى الرمية . وأحب في الفتك من السائل في العطية . كأنّما هو للحجل إذا رامت الإسراع حجول ، ولبرك البرك أغلال وغول . وللحبارىٰ المحبرة قيـود ، وللكراكي المسيّرة أجل محدود ، فكم جال في تلك التلاع الحو ، وأبدىٰ دارة جلجل لكن في الجو . وأعجل الطيور إلى الموارد فلم تغترف . وصيرها في الخوف جمعاً متنامياً فلم ينصرف . فلا خط جناح إلاّ وهو به معلق ، ولا قلم منقار إلاّ وهو بظفره محقّقه . فحقّ له أن يكون نزهة للأبصار ، وعبرة لأولي الاستبصار .

أمتع اللّه بأيّام مولانا فكلّها محاسن ، ووكل له المسرّات التي يحسن بها الظاهر والباطن ، وأدام عافيته فبها شرقت الأعداء وأشرقت المواطن ، وفي ظلّه عاشت المساكين وعمرت المساكن .

---

(90) أي لا يؤدّي ثمن الفدية .

﴿ فصـل ﴾

وما زال مولانا أيّده اللّه في سرور متجدّد ، وخير بتردّده في المنازل الكريمة متردّد . حتى حل ركابه العلي رباط الفتح ، بعد أن زار يوم دخوله الضرائح العاطرة النفح ، وحاز في تعظيم تلك القبور المعلاة معلىٰ القدح .

وحشر الناس لقراءة القرآن ، والابتهال بالدعاء لسلطان السلاطين ومكوّن الأكوان . وعظم الاعتبار ، وكثر الأذكار . وذمّت الحياة الدنيا التي هي متاع الغـرور ، وسكبت الدمـوع على المسير إلى القبـور ، وإخـلاء الضـروح والقصور ، وفقد الأمر والمأمور ، وانتظار يوم النشور . والعرض على الحكم انعدل الذي بيده مقاليد الأمور ، وأنفض ذلك المجلس عن طمع في نيل الأجور ، وقبول الأعمال المنجية من الويل والثبور .

نفع اللّه مولانا بسعيه المشكور ، وعمله المبرور ، وأبقاه في العيشة الراضية ما جرت السفن في البحور بمنّه ويمنه .

﴿ فصـل ﴾

وبين يدي هذه الحركة الحسنة المأخذ ، والوجهة التي عضت السعود على كتب بشراها بالنواجد ، توفيت الحرّة المعظمة أخت مولانا أمير المؤمنين أيّده اللّه وكانت عنده بالمحل السامي من البرّ والإكرام ، والحرمة الدائمة الاتصال المتّصلة الدوام ، والاعتناء الذي دلّ على صلة الرحم التي هي بالعرش معلّقة ، المتكفّلة بزيادة العمر الذي عراه موثقة .

فحضر أيّده اللّه جنازتها التي حفّت بها وفود السعادة ، وتكفّلت لها الأدعية الصالحة بالحسنىٰ والزيادة . وكان يومها بالبيضاء يوماً مشهوداً اعتبرت فيه الخلائق قياماً وقعوداً ، وتفيأوا ظلال الرحمة ممدوداً ، وألفوا ورد الإخلاص مورودآً ، ورفده مرفوداً . وشاهدوا من رضى مولانا أمير المؤمنين وتسليمه ما عضد حديث صلاحه بقديمه ، وأثنوا عليه ثناء الروض على الغيث بعاطر نسيمه . وعاينوا من مكارم أخلاقه ، ما حاز في ميدان الكمال خصل سباقه ،

ودل على كرام أعراقه وشرفه ، الذي راقت الليالي بآتسامه والأيام بآتساقه .

وكان دفنها بغربي المسجد الجامع بالبيضاء ، في موضع بيَّض وجوه العلياء . وأمر أيّده اللّٰه أن تُبنىٰ عليها قبّة بديعة كأفعالها مع المساكين والفقراء ، سامية كمجدها الباهر السنا[91] والسناء[92] . ثم رأىٰ مولانا أيّده اللّٰه أن دفنها بشلة أبلغ في برّها ، وأرفع لذكرها وأبقىٰ لفخرها . إذ هي البقعة التي ظهرت لها البركات ، وكادت تحسد تربتها النجوم المشتبكات . فأمر بنقلها ليزيد الجسد الطيّب طيباً .

وقام الدهر بأخبار مناقبه خطيباً ، وسما نعشها الأشرف كنبات نعش . ولم يكن به غير الألواح والدسر من فرش . وعيّن لسوقه جماعة من كبار الخدّام ، والصدور الأعلام . وانتدت للمسير مع الحجاب الأشرف جميع من كان بفاس من الشرفاء السادة ، والفقهاء أهل الإصابة والإجادة ، والوجوه والأعيان أولي الأصالة والمجادة . وغيرهم من النبهاء والأغفال . معتملين في الدعاء أحسن الاعتمال ، مبشّرين بما يعدل أحداً أجراً . وفيه قال ﷺ : «جبل يحبّنا ونحبّه» ومَنْ أحسن من النبي فيه قولاً وذكراً ، فمثل مولانا أيّده اللّٰه مع رعاياه كمثله سرّاً وجهراً ، إمام شهد لهذه الملة الحنفية أزراً ، وقضىٰ في إرغام عداها وإظهار هداها نذراً .

فما أقام أيّده اللّٰه برباط الفتح بعض أيّام إلاّ والجنازة الشريفة قد وصلت ، وفي صدفة حصن شلة درتها حصلت ، وعلى مشاهد الرضوان قدمت ، ولغفل من مضاجعها وسمت وسمت بعد أن تلقتها المواكب . وفاضت من رحمة دموع سواكب ، وطأطأت رؤوس الأشراف إجلالاً وإعظاماً ، وسألوا اللّٰه لها الجنة التي حسنت مستقراً ومقاماً .

وحضر مولانا أمير المؤمنين أيّده اللّٰه للدفن ، وارتفعت الأصوات بالقراءة

---

(91) ضوء البرق .

(92) من الرفعة والعلو .

التي تنزهت عن اللحن واللخن[93] . وامتلأت أرجاء تلك المشاهد ، وغصّت بالقادمين صدور تلك المعاهد . وانتشر شذىٰ العنبر المشبوب انتشار النقع ، وكان يوماً جرىٰ فيه جواد بعد جواد لكن من الدمع ، وصدع القلوب إلقاء الحجاب العلوي بالأرض ذات الصدع .

وكان حفر هذا الضريح الكريم بالقبّة العظمىٰ التي أمر مولانا أمير المؤمنين المذكور أيّده اللّه ببنائها على والده المتوفىٰ ووالدته[93] سيّدة نساء عصرها ، الحصان الرزان التي كانت وحيدة دهرها . ذات الأعمال الصالحة ، والآراء الناجحة . والدين الشهير ، والفضل الكبير . والجلالة العظمىٰ ، والسيرة الرحمىٰ . قدّس اللّه مضجعها ، وأضفىٰ من الرحمة مشرعها .

وهذه القبّة من عجائب الدُّنيا ، وأعظم مصانعها التي بلغت الغاية القصوىٰ . أزرها من الرخام الأبيض الصافي ، قد نسّقت ألواحه نسق القوافي ، وحذيت حذو النعل بالنعل لكن لا يراها إجلالاً إلّا الحافي . وأقيمت تحت تيجان الأقواس كأنها أساورة كسرىٰ ومرازبه . وجعل كل واحد منها عمدة كآسم المغرب . وأيدي الصنّاع نواصبه ، فهو قيد النواظر وبهجة الخواطر ، والمطمح الذي قرن بقلائد العقيان والجواهر .

كتب اللّه لمولانا أجر بنائه ، برّاً بالمقبور تحت سمائه ، وأطال عمره وزاد في بقائه ، وجعل نفوس العالمين بعض فدائه ، وصرف طوارق الحدثان عن أحبّائه .

رجع الحديث :

فكان دفن الفرع الزكي بأزاء الأصل الكريم ، جمعاً للجسوم في دار الدُّنيا كما اجتمعت الأرواح في دار النعيم . وترتب هنالك أفواج من القرّاء يواصلون الختمات في الإصباح والإمساء . ويوفدون منها على المتوفين هدايا ،

---

(93) اللخن : التكلّم بقبح .
(93) اسمها : شمس الضحىٰ .

ويبعثونها مع الروح والريحان تحايا . لا جرم أنه ما من شفيع أفضل عند اللّه من القرآن . ولا وسيلة أعظم من ترتيله في الإسرار والإعلان ، تكراره يزداد فيه تجمّلاً ، فلا يزال غضّاً جديداً آخراً وأوّلاً ، مجزلاً للأجر متمّماً وللسعد مكمّلاً . فطوبىٰ لمن حفظه وعمل به كمولانا الخليفة الإمام ، وبشرىٰ لمن أكثرت قراءته على قبورهم كأسلافه السادة الأعلام ، وأهل بيته الذين حلّوا من الأضواء والرحام محل الزهر من الكمام . والقصص البديعة من زهر الكمام .

فهو رضي اللّه عنه الولد الصالح الذي لا ينقطع عمل آبائه بدعائه ، والصدقات التي تجري بعدهم هجيراً برّه واحتفائه . فلا أسعد من سلفه به خلفاً ، ولا أسمىٰ من شرفه في الملوك شرفاً . أبقاه اللّه بقاء يسرّ أهل الدين ، ولا زالت أعلامه ونصره تلك بادية التلوين وهي ظاهرة التمكين .

﴿ فصـل ﴾

وفي هذا الوقت تمتعت الوفود من رؤية المدرسة التي أمر مولانا أمير المؤمنين أيّده اللّه ببنائها بهذه البقعة الباهرة الفضل ، والمحل الذي كاد حرفه يتلقّىٰ القادمين بالأهل والسهل .

وهي متّصلة بهذه القبّة الجديدة ، مجاورة منها للروضة السعيدة مدرسة شامخة البناء ، وثيقة الأساس منفسحة الأرجاء . حيطانها كالأسوار ، وسقفها كالفلك إلاّ أنه ليس بالدوار . لابسة البياض كالقرّاء إذ أبرزوا في أحسن ثيابهم ، رائقة الجمال كوجوه آل حمدان يوم لقائهم .

وقد رتبت أحسن ترتيب ، وبوّبت مداخلها كتواليف ساكنيها أحسن تبويب ، وفرشت ،،،

وأجمل من منثور الأزاهر التي ،،،

روض بيوتها نسق التيجان ،،،

البستان وأقيم بقبلتها على الباب ،،،

البدائع الّتي اتبعت دلوها في الكمال ،،،

بهيج بين النسيم الراوي وبين مائه ،،،
تهيج موضع جاور أهل الجنة فلا ينكر ،،،
السعادة والخير العميم . فكم به من ،،،
كيوم ذي قار . وطالب حفظ ،،،
بآنسياب أنهار . وأنقذه اللّٰه بالعلم ،،،
كتب اللّٰه ذلك في صحيفة مولانا أيّده اللّٰه ،،،
على جوده ،،،
الفتح توفي ،،،
رحمهما اللّٰه الشيخ الأجلّ المرفع أبو زيد
لم تطل مدّته . ولا ظهرت كل الظهور ،،،
وأوحش ذلك السيف غرباً . وفقد ،،،
وجذوة ذكاء ، وهضبة وقار ،،،
وانفثأ حمىٰ خطبهم ، وآنحلّ عقد كرب[93] كربهم ، وأقيم درء سرائهم وكف وطء ضرائهم .

وعلى أثر انصرافهم أمور مولانا أيّده اللّٰه لهم بالكساء الرفيعة ، والملابس الفخمة البديعة . وأمر أن يخلعوا ثياب الحزن ، ويعتاضوا السهل من الحزن[94] . وفي الحين أمر أيضاً أيّده اللّٰه بأن يكون ضريح الشيخ أبي زيان بشلة أمام القبّة العظمىٰ ، إظهاراً للعناية الفضلىٰ ، وإكمالاً للنعمة الجسمىٰ . وركب حتى حضر لدفنه بذلك المحل الأشرف الأسمىٰ . وقام لمواراته تواضعاً لا تزال أخبار فضله تنمىٰ . وأظهر التألّم لفقده ، والتوحّش من بعده .

فعجب الناس لسعادة ذلك الشيخ حيّاً وميتاً ، ودعوا له الدعاء الذي عمر للإخلاص بيتاً . (وصلّوا) عليه فما من مصلٍّ يرىٰ في حلبة الثناء عليه سكيتاً .

---

(93) بياض عمّ ورقة استطعنا أن نستنسخ منها بصعوبة ما هو داخل في هذا الإطار .
(94) ما غلظ من الأرض .

جزىٰ اللّٰه مولانا على فعله الجميل ، وأمتعه من سعده بالمديد ومن عمره بالطويل .

﴿ فصـل ﴾

وأقام مولانا أيّده اللّٰه برباط الفتح حتى نظر في أمـور تلك البلاد ، واستكشف أحوال قاضيها البجائي الذي حاد عن نهج السداد . ورفع أيّده اللّٰه المظالم التي أتلعت أجيادها ، ودرأ المفاسد التي أرسلت في ميدان الجهل جيادها . وعمر تلك المعاهد بعدله الذي الذي هو أنفع لها من عمادها ، واستقر بأعلىٰ قصبة الرباط بالقصر الأرفع الأنفس ، والمحل الذي يخيّل للجواري الكُنّس ، إنها بعض الجواري الكنّس . فكأنّه بارى البحر في مناتحه الفضلىٰ ، لكن اليد العليا خير من اليد السفلىٰ ، ولا أعجب من النهر السائل وهو بسبائك الفضّة تحلّىٰ . ورأىٰ حسن سلا تجلىٰ ، فما سلا ولا تولّىٰ ، إلّا أنه أشبه سيوف مولانا أيّده اللّٰه في المـد والجزر ، والعلو على الرؤوس يوم حل العقال وشد الأزر . فأحسن به نهراً بديعاً يباهي عاصي حماة منه بمطيع . وكم لاح وجهه الحسن الجميل وفاق بلونه اللازورد الخرساني فكيف يُقاس به النيل؟!

وفي تلك الأيام أمر مولانا أيّده اللّٰه بدفع غراب كبير برسم سوق الخشب من المعمورة ، وإعداده بدار الصنعة المشهورة . لتنطلق أحوال الإنشاء ، وتكمل صور الأجفان المتمكنة من قلوب الداماء[95] . فما كان بأسرع من خروج ذلك الغراب ناشراً من أجنحته مجاذيفه مخلولاً من إشراك حبائله ومخـاطيفه . دافعـاً في صدور الأمـواج ، مرتقيـاً أسهمتهـا كـالأحـداج . مشتملاًملاة الحباب منساباً بروضة البنود كالحباب . له كلما سار زجل وهو بالعود موشح ، وكم اعتل بشراعه النسيم وهو مصحّح ، وقيد بمحاسنه العيون وهو مطلق مسرّح .

---

(95) كذا في الأصل ولعلّه يقصد بها الدامية .

ولم ينشب أن انتقل من قدم النهر إلى رأس البحر ، وسار لطيته في كنف السلامة والنصر . معرباً عمّا لمولانا أيّده اللّٰه من جزيل الأجر ، وجميل الذكر .

تقبّل اللّٰه أعماله في السرّ والجهر ، وبلّغه أكلأ العمر ، وأعانه على إثبات الهدىٰ ومحو الكفر بمنّه ويمنه .

﴿ فصل ﴾

وفي تلك الأيام جاز مولانا أيّده اللّٰه إلى عدوة سلا ، وعبر الوادي الذي حلي في العيون وحلا . ودخل الزاوية التي أمر ببنائها للفقراء والمساكين . وجعلها على شرف همّته من أوضح الدلائل والبراهين . فجاءت من أبدع الزوايا وأنفس الخبايا . وخصّها الحسن بأرفع المزايا ، وحباها الجمال بالمرباع والصفايا : فما شئت من ترتيب فائق ، ومنظر رائع رائق ، ووثاقة مبان ، وأوضاع حسان ، وإتقان اختطاط ، وبراعة استنباط ، ومحاسن كأنّها درر في أسماط . كاملة المرافق . منفسحة الطرق للطارق . لا تزال آخذة زخرفها متزيّنة . مطلعة نجوم صنائعها واضحة بيّنة ، فائقة أزهار الروض الأنيق . بما أودعت من الترقيش الباهر والجمال والتنميق . فالأبصار عليها موقوفة . والقلوب للتنعّم بمحاسنها مصروفة .

وللفقراء والمساكين بها ما يشتهون : من أكل هني وعيش رضي . وخير غير منزور ولا بلي . ومواصلة أذكار ، ودعاء بأسحار . وتسبيح بعشي وإبكار .

نفع اللّٰه بذلك مولانا الملك الصالح ، ولا زالت خواتم أعماله تفوق الفواتح .

﴿ فصل ﴾

وفي يوم دخوله إلى الزاوية المذكورة ، وسروره بمحاسنها المأثورة . دخل بلد سلا وجال في سككه ، بعد أن طلع في سواد جنابه طلوع البدر في

حلكه . وقصد رؤية المارستان الذي أعدّه هنالك للمرضىٰ ، وأرضا بتشييد مصنعه أرضىٰ[96] .

فمبناه صحيح لا يفارقه عليل ، وقوي لا يريمه ضعيف مستنيل . فما شئت به من رفق يتمهد أكنافه . وتأنيس تتجدد ألطافه ، وعلاج تتورد قطافه ، وتدبير يحسن مرتفعه ومصطافه ، ويضرب بمدرجه الطرق طوافه . فلا سقيم إلّا وحديث برئه ليس بالسقيم .

وكتاب الشفا[96] منه يروي عن الحاضر والمقيم ، بعد أخذ التنبيهات والمدارك لكن عن الحكيم[96] . فالمقيم به كالسافر يصح ويغنم . وبآقتبال الأجر والعافية ينعم ، وبما لقي هنالك من الخير يخبر مدى العمر . وعن ذلك المصنع الذي جاور البحر يحدث ولا حرج لا عن البحر .

نفع اللّه مولانا بذلك ، ورتّب في خزانة طاعته المسالك والممالك .

ذكر الرحيل عن رباط الفتح .

والرجوع إلى الحضرة العليّة التي اشتهرت في البلاد اشتهار الصبح . رضي اللّه عن مولانا ونصر اعلامه :

وفي يوم رحيل مولانا أيّده اللّه من الرباط ، والمحل الذي اغتبط طاعته أجمل الاغتباط . أمر بنزول محلّاته المنصورة ، بمقربة من شلّة لا شلت بها يد سائل . ولا برحت الغيوث تجود بكل سائل ، وتقيم على أثار النسيم كل غصن مائل . حتى تلبس حلل النور مطرزة بذهب البروق . وتختال في برود الزهر الذي نفض من الثناء على الغمام أعظم الحقوق .

---

(96) كذا في الأصل .

(96) يقصد كتاب الشفا لابن سينا .

(96) يقصد بالحكيم : آبن سينا .

(96) يقصد به مصنع السلاح .

فقـامت الأخبية بتلك الهضـاب . وضربت الفسـاطيط بتلك الضراب وتبركت أباطحها بعد نزول الولي بالأقطاب والأوتاد . وبسطت خدودها لوطء الجياد ، وتشرّفت بقدوم الملك العادل الذي هو خير ملوك العباد . وزهيت من ساقته الرائقة بخميصة ذات أعلام ، وكحلت عيون بوارها بأثمد نقع أثارته وقتام .

ولما كان ثلث الليل الآخر من الليلة المقبلة عند حصر النهر ، ومموادعته للوفود القادمة عليه من البحر ، تحرّك الركاب العلي في جيوش تباهي النجوم البادية . وتباري بسراياها أفلاكها السـارية . فمـا أظهر الصبـح هشاشتـه وبشاشته ، ولفظ الليل على ذباب سنف الفجر حشاشته ، حتى اجتاز مولانا أيّده اللّه الوادي وخاض عبابه المتهادي . وصرف الأعنة إلى مزج حمام ، ملماً مسارحه ومساربه أحسن إلمام . وجال منه في أباطح رفع بها الخصب كل عمد ، وغسلها الأفق من خطايا المحل بماء وثلج وبرد . فبرز في أبدع شارة . بهدية أحسن بشارة . وقصدنا المعمورة بعد ذلك ملتذّين بالصيادة ، شاكرين لعالِم الغيب والشهادة . معتبرين فيما نصبه من الدلائل على قدرته ، وأبداه من البراهين الساطعة لمن أصبح على فطرته . فالأكوان تروق وجوهـها بنور جماله ، والعوالم تبدي صحائفها المملوءة بأسرار كماله وجلاله ، وتجلو عرائسها على منصّات الاختراع وتحلي صدورها بعقود الإبداع . وتكشف للعقول كل قناع ، وتدير على الأرواح كؤوس حب انزاعت أحسن إنزاع ، فالقلوب منتعشة بهبوب نواسم الأسرار ، والنفوس غارقة في بحر الأنوار . والسعادة قـد آن إدراكها لأولي البصائر والابصار .

جعلنا اللّه ممن تجرد من ظلمات الطبع ، ووقف عند حدود الشرع ، وغاب بتجلي المعاني القدسيّة عن الضر والنفع بمنّه ويمنه .

وما زال مولانا أيّده اللّه مجدّداً للرعايا نظراً جميلاً ، ومكملاً لهم في طريقه المصالح تكميلاً ، ومفيئاً عليهم من اعتنائه ظلاً ظليلاً . وكان من مزيد برّه بأسلافه الكرام ، وأعماله الصالحة التي نورت وجوه الليالي والأيّام ، أن

زار ضريح الجدّ الأعظم أبي الأملاك المنسوقة مناقبه على ترائب المعالي نسق الأسلاك ، مدبر الحروب ، وكاشف الخطوب ، الحائز للسؤدد المولود والمكسوب . مفلل الكتائب . وصادع أطباق المقانب[97] . المشهور في المشارق والمغارب . سيّدنا أبي محمد عبد الحق ابن محيو هناه اللّه ما خوله من أجر الشهداء ، وغمره برحمة منه سابغة الرداء ، ورضوان وارف الظلال ، رطب الأنداء . وهو مدفون بالموضع المسمّىٰ بالجمعة في قبّة تتصل بجامع شامخ البناء ، معتمد بالاحتفال والاحتفاء . تظهر عليه آثار الجلالة ، ودلائل السعادة المطابة المطالة . فقضىٰ مولانا أيّده اللّه حق ذلك الجدّ الكريم ، ووفىٰ بما يجب لمحلّه الأشرف من الإجلال والتعظيم ، وأولاه من أدعيته الصالحة ما ترتفع به إن شاء اللّه درجاته في دار النعيم .

ولم ينشب أيّده اللّه أن قدم على حضرته العلية في طالع السعود ، ووفد عليه وفادة الغيث على التهائم[98] والنجود . وأعاد إليها عهود المسرّات التي أهابت بالهبات ، وعوائد البشرىٰ التي ثبتت أقدامها أحسن الثبات ، وحسن نزلها للأفذاذ والثبات . واحتل أهل الحضرة في البروز ، وأتوا من الابتهاج أحسن الكنوز . ولبسوا أحسن الملابس . وعمروا للجذل أفسح الأندية والمجالس . وأخرجوا ربّات الخدور ومنتقية البدور ، وعقائل المقاصر ، وكرائم البوادي والحواضر . وقعائد البيوت الممنعة ، وأسرار جوانح الحجب المرفعة . وميزوا جموعهم بالرايات وتقلّدوا السيوف البديعة الحمائل ، واشتملوا بما هو أبدع من زهر الخمائل جنائب ، وترتبت قوّاد أجناده فكانوا برؤوس الهضاب عصائب ، وبصدور البطاح عقوداً عرائب .

فقضىٰ الناس حق السلام ، وعاينوا الخليفة المتوكل فسر من رأىٰ بذلك المقام . وقبلوا الركاب العلي تقبيل الإكبار والإعظام . ولاذوا منه بجواد فوق جواد ، وكريم أعجز بما له من أياد خطباء أياد . وجعل قهر كل معادٍ مدخراً

(97) من قنب يقصد بذلك هنا الهازم للجيوش المقنّبة وكأنّها كلاب ضارية .

(98) أرضٌ قفراء كثيرة الرمل .

لمعاد ، وحد لأهل الكفر كل حداد بيض حداد .

ولم ينشب الناس أن شيّعوه أيّده اللّه بالأدعية الصالحة وناطوا الإخلاص بالخاتمة منها والفاتحة ، وأضحكوا ثنية الثناء بكل ثنية . وفارزوا من رؤية إمامهم العادل بكل أمنية . وانعلوا[99] عنه بكل موهبة سنية وعطية .

وكان يوماً رائق المباسم ، واضح المناسم ، هبّت فيه الأفراح هبوب النواسم . وتناسقت البشائر الوافرة المقاسم . واستقر مولانا أيّده اللّه بحضرة ملكه السامي ، ونجحت المساعي البعيدة المرامي . وكادت القصور تهتز طرباً ، وتقضي من لثم مواطئه الشريفة أرباً . وأنارت البقاع : واجتمع الشمل ، وشمل الاجتماع . وأخرس لسان البين ، وصدعت زجاجة الأين . وعطلت قوس الفراق ، ونسخت أحكام الأشواق وفلق نوىٰ النوىٰ . وعفىٰ جواء الجوىٰ[100] . ولم تطل مدة الانتزاح ، وعجل ليله بالإصباح ، وعمّت النعم المضمونة الأرباح .

أمتع اللّه مولانا بعوارف الإسعاد ، وجعل أيّامه سهلة الانقياد . ولا زالت سعوده تهل بالقران ومعاليه بالافراد .

ذكر الزاوية المتوكلية :

وإيراد بعض اوصافها الجلية وما عمل فيها من الأعمال المرضية :

وعلى أثر رجوع مولانا أيّده اللّه من حركته الجميلة الآثار ، واستقراره بحضرته العلية التي هي مطلع الأنوار ، ومطرح أشعة المجد والفخار ، تخلّصت الزاوية العظمىٰ التي أمر أيّده اللّه ببنائها على غدير الحمص الذي أنسىٰ وادي حمص ، وأطلعها بشاطئه مجموع كمال لا يعرف النقص . وروضة أذهان فحصت عن المحاسن فلزمت الفحص .

---

(99) كذا في الأصل ، هل يقصد بها أعلنوا؟ .

(100) شدّة الحبّ .

وما الذي أقوله في زاوية أعجز وصفها كل بليغ ، وأثنته وكأنه بحيات الأقلام جد لديغ . فشغر الشعر به مكبوت ، والنثر وإن فاق النثرة به ممقوت . فهي أعجوبة المغرب والمشرق ، ومنشأ أحاديث الهشيم[101] والمعرق[102]. مصنع طأطأت له المصانع رؤوسها ، ومبنىٰ استصغرت به المباني الشامخة نفوسها . قد اختطت في أرض وطئة الأكناف ، متخيّرة للمنزل المنيف والروضة الميناف . فتأسّست على أثبت القواعد ، وقامت شامخة المراقي والمصاعد . راسخة أقدام حيطانها، ظاهرة بركات استنباطها . منفسحة الساحة ، متلقية الواردين براحتي الراحة . مبيضة كأنما أشكالها الصباح الصباح . صحيحة جسوم البناء لكن تسري بها من روضها المجاور الأرواح . أحسن من الوشي اليماني تنميقاً ، وأبدع من حلتي الغواني جمعاً وتفريقاً .

قد قام بقبليها على العادة جامع للمحاسن جامع . ومسجد يتحيّر فيه راء ويتعجّب فيه سامع . قد لبست سقفه من الزخارف حللاً . وجرت ذيل الإبداع والإتقان فضلاً . وأزرت شمساً بالبدور وأبدت وجوه الابتهاج. وتلقت أعراب البدائع من الزجاج .

وتقابلها بالجوف قبة صعدت في الجو، وتنزّه كمالها عن الليث واللو[103] . وارتفعت ارتفاع النسر الطائر . وجمعت بين الحسن الباطن والحسن الظاهر .

وتدور بهذه الزاوية المباركة من جهاتها الأربع براطل[104] بديعة الاختراع . متقابلة الأشكال والأوضاع . قد قامت سواريها كأنّها عرائس تجلىٰ . وبأرضها من الصنائع ماُ هو أبدع من حللهن التي تبلىٰ .

---

(101) كذا في الأصل .

(102) كذا في الأصل .

(103) طائر .

(104) جمع برطال . نعلم بالضبط ماذا يقصد بهذه البراطيل البديعة الشكل .

وقد امتد من الجامع إلى القبّة صهريج بديع الطول والعرض . يلتفت عن زرق كأنّما عيونه عيون للأرض . ينسخ به الرياح دروعاً لكنها فارسية ولربما جاءت بها المياه رافضة القياس كأنّها ظاهرية داودية .

وبشاطئي هذا الصهريج أسدان[105] لم يغل التبر ، حين نفق منهما الصفر ، ولم تبـأ[106] الزهر ، حين طلع أمامهما الزهر . للماء على أفواههما تحدر ، وللحباب أمامهما تحيّر وللحصا خيفة منهما تستر . من كل ثقيل على النفوس خفيف . قد سخر للصالحين وشرف أحسن تشريف . وعظم بمحله إيناس . فكأنما عرينه كناس وفي طـي ذلك للتنعّم أنواع وأجناس .

وفي كل ركن من أركان هذه الزاوية باب يشرع إلى دار بديعة البناء ، متناسبة الأجزاء ، مكملة المنافع . منيعة المصاعد والمطالع . إلاّ البـاب الـذي بالجوف الموالي إلى جهة الغرب فإنه يشرع إلى دار وضوء أطردت فيها مياه ، وطابت لميازبها[107] أفواه . وخرجت بها خطايا المتوضـي مع آخر قطر الماء . فعاد نقياً من الذنوب إلى إخوانه الصلحاء مخلصاً لمولانا أمير المؤمنين في الدعاء . شاكراً لتهممه بالفقراء وأبناء السبيل المشتاقين إلى الأوطان والأبناء . والمستضعفين الذين قصدوا جنابه الذي استهميت بـه سحائب النعماء ، واسنسقت غمائم الآلاء .

والديار الثلاث المذكورة إحداها معينة لإمام هنالك ، والأخرى للمؤذّن الذي يسلك في إقامته شعائر الدين المناهج الواضحة المسالك . والثالثة للناظر في الأوقاف والأحباس ، المتصرِّف في إعداد الطعام وترتيب الناس .

ويتصل بهذه الزاوية دار معدّة لنزول الواردين . مفتحة أبوابها للوفود القاصدين ، وتقابلها دار أخرى معدّة للطبخ ، واستمجاد العفار والمرخ[108] .

---

(105) نوع من الزخرف البديع ويقصد بها الاسدال .

(106) كذا في الأصل .

(107) مسيل الماء ، مصبّه .

(108) شجرتان معروفتان تنتجان النار .

لا تخمد بها نيران القرىٰ . ولا تزال مشبوبة لذوي النوائب والسرىٰ[109] .

وللزاوية والدارين المتصلتين بها باب عظيم في جهة الشرق . ناظر إلى الحضرة العليّة التي هي مجمع الخلق . وبمقربة منه الصومعة التي كادت تزحم الكواكب ، وتبلغ السحاب فتدر غيوثها السواكب . وهي من أحسن الصوامع صنائع وأعظمها بأشغال الزليج الملون بدائع . تفوق بمحاسنها الرائقة الرائعة الديباج . وتنسي بتفافيحها المذهبة السراج الوهّاج .

أعلىٰ اللّه كلمة من أعلاه إظهاراً للدين . وجعل أيّامه خليفة الأمنة والتهدين . ونفعه بأعماله الصالحة التي شهدت بسلامة القلب وصحة اليقين بمنّه ويمنه .

ويتصل بهذه الزاوية المباركة من جهة الغرب والجوف روض أريض ، لقداح الحسن مفيض . قد رمىٰ كتاب تربه بالأثقال ، وضمن منها سطوراً بديعة الجمال وشغلت أفكار أرضه بالأصول ، وصار من حيطانه في حكم المعقول . حتى أبهج أولي الأحكام ، وأبدىٰ المحاسن المشتركة الإلزام . وأخرج الأشجار من زهره في أبدع نصيف[110] . وترك الريح تصلي من نوره في درع حصيف . فالأغصان تميل على جوانبه حباً . والماء يجري إلى ملاقاته صباً ، وبنات المزن تصاحب منه أباً .

ويغربي الزاوية صهريج عميق . للماء في جنباته لعب وتصفيق .

ـ ذكر السانيـة و أوصافها المتباينة ـ :

وقد قامت بإزائها سانية بديعة الأشكال . لا تشكو في حبّها بتقطّع الأوصال . كريمة كأنما علمها بنوبرمك البذل ، فهي تصاحب في قعر بيرها جعفراً وتطلع لنا الفضل . بديعة النغمات ولا غرو فهي الميلاء . حنينها أشدّ

(109) يفهم منه البؤس والسير ليلاً .
(110) أبدع ثوب رشيق .

من حنين مهيار إذا أبدت من روضة ظمياء[111] . حسناء ليس التوقف من مذاهبها ، ولا الإمساك من مآربها . بل حبلها بين الرجال على غاربها . فهي تجد وتفور ، وتشرب وتدور . منزّهة عن الهنات ، معدودة عند الروض في السابحات .

إلاّ أنها أصابتها العين فهي باكية . ومن حمل المصاحب المفارق شاكية ، قد دارت عليها الدوائر . وأدخل أصبعه في عينها الزائر .

أستغفر اللّه بل هي الجارية المبرورة ، الضاحكة المسرورة . المنشرحة الصدر . الطالعة في الهالة كالبدر . إذا نادت بمائها فهو المنادىٰ المرفوع . وإذا أتت في أبياتها بوتد فهو المجموع . وتبهج الفقراء بمحاسنها المتوالية ، وترسل إليهم ماءها فلا تنكر مجيء السائل إلى الزاوية .

معجبة حبائلها ملازمة للشرب . فلو كانت عاقلة لكانت ندامأ . وكل قواديسها مركب مفيد بالوضع . فلو كان لفظاً لكان كلاماً . من كل ممنطق يروي عن الحبال ، ويجود بذوب الفضّة على السؤال . ويخدم على رأسه إذا جاء زوّار . وهو مع كرمه لا يبالغ في الفخر . ولو شاء لقال : أنا فخّار .

وما هي عند السقي إلاّ كواكب ، قد قرن بالسعادة منها الطالع والغارب . ومنازل أنواؤها متصلة الري ، تسر الولي ، في الزاوية بالوسمي . إلاّ أنا نقوم عندها للّه بالحق الأوجب ، وكم نادىٰ بمائها الروض فلم يكن المنادىٰ مضافاً ، بل طاب فأخرج نباتاً طيباً كرم أنواعاً وأصنافاً . وسرىٰ إلى الأشجار فألقته في عيونها ، وظهرت ينابيع حكمته من قلوبها على ألسنة غصونها . فدعت إلى الاعتبار ، فزينت كمائم قلوبنا بأزهار الأسرار .

زاد اللّه في معاني مولانا السلطان الباهر الأنوار . الذي زيّن بأفعاله الجميلة وجوه الأزمان والأعصار .

---

(111) الروضة التي يسقيها ماء السماء .

ـ ذكر الناعورة :
وأوصافها المحمودة المأثورة ـ :

ولما رأىٰ مولانا أيّده اللّٰه أن هذه السانية قد لا تبالغ في العطية . ولا يسرع بعمل فريضة دورانها الحمارية . وإنه قد يحتاج إلى أكثر من مائها . وأعظم من نائلها وحبائها . أمر رضي اللّٰه عنه أن تعمل على نهرها ناعورة توفي بالمقصود ويحسب ماؤها المستوي على جودها بالجود .

فلا يزال الليل والنهار مطرداً . مجدداً لحكمه الثابت بالقياس الجلي ومؤكداً . فجاءت ناعورة جميلة الآثار . مقبولة العمل وإن صلّت مستندة إلى الجدار . عزيزة عند أهل الشرع . مرجوة في كل أحيانها للنفع إلّا أنها تسرق الماء من حرزه فلا يحكم عليه بالقطع .

بديعة روت من أحاديث المحاسن كل مسند ، وغنت على جانب المسجد فكان غناؤها على معبد . مرفعة علية ، فريضة دولًا بها منبرية . مقدمة تحب فضل جسارة ، وتقهر سيف النهر بقناة إلى الزاوية خطارة .

ولم أرَ قبل مائها مسلسلًا يدخل الجنة على حاله ، وبارد المزاج يسرع أتم الإسراع في حركته وانتقاله . جارية بادية الزينة . حكم عليها منجم نهرها بالطينة ، فرأىٰ طالعها أسعد طالع . محقّق الدرجة ليس يشان بقاطع .

صابرة لا يضجرها سائل ، ولا يروعها ثعبان النهر وهي حامل . لا جرم أن قلبها قد تقوىٰ بشراب العود، وجسمها قد صبح ببركة الركوع والسجود. مشتغلة بالتصريف إلّا أنها لا تعرف اعتلال العين. عاكفة على التأويب والسرىٰ إلّا أنها لا تشكو بالأين[112] . معربة نصبت فعلها وقلبت أكوابها؟ لتحرّكها وانفتاح ما قبلها . خليلية أعجبها التقطيع ، وأظهرت الدائرة التي يخرج منها السريع .

---

(112) التعب والعياء .

شامخة لها الفلك الثابت العمد ، يحل الماء منه بالقوس ثم يحل بالزاوية في الأسد . جانية على كل روضة غضّة ، محليّة لها من مائها المتلون بأساور من فضة . ماثلة لا تعرف الخوف ، ضخمة تدور إلى الشرق وتملأ الجوف . قائمة صرفت وفد النسيم أحسن الصرف . وسجنت الماء لأنه فرّ عند الزحف . إلّا أنها لا تزال تخرجه فيسير بإقبال النور البديع ، ويستخلف ربيعه فلا ينكر يوم دولاب استخلاف الربيع.

سامية حازت أعظم البهاء . وغدت وعليها تاج كسرىٰ تنادم ابن ماء السماء ، وربما نقضت النهر لما حازت فضله الظاهر استعلاء . حسنة السرائر . ماؤها في قلبها خاطر من الخواطر . مهتدية إلى الري اهتداء الطيف ، غير مكترثة وقد انتحت أكوابها من نهرها بالسيف . مصلحة إذا أيبس الأصحاب بينهم الثرىٰ . ممتطية من مائها الأفجر فلا غرو إن جرىٰ . وفيه ضمنت للروض نجاز الوعود ، وطلع عليها سعد مولانا أيّده اللّه وهو سعد السعود ، فلا غرو أن أرىٰ جريان الماء في العود .

ومن العجائب أن دولابها معظم عند بني مرين وهو عند الوادي ، مضيق عليه وهو يجود بأعظم من صوب الغوادي . ويسر الجار الجنب لا سيما إذا قرب الصباح ونادىٰ المنادي . وكم أظهر في خدمة الصالحين من فعل الأكياس ، إلّا أنه إذا ذكر له رأس الماء أحب دوراناً في الرأس .

راقية إذا شكا الماء بداء الضرع،(113) وإن ارتفع خشبها الذي أمن من الصدع . سقت بمثل الكافر . هو الأرزة مثل المؤمن ، وهي خامة الزرع ، فللّه درّها حين أتت من المحاسن بفنون . وكشفت عن مجنون؟ لا يُتاح به منجىٰ نون . فروت من سيلها عن المنكدر ، ودارت على القطب فعرفته معرفة المختبر . ورأت بالزاوية الابدال . وعرفت المقامات والأحوال ، فلو نطقت لقالت : ما النية إلّا نيّتي ، وأنشدت مخاطبة نواعير المصارة : وما شرب العشاق إلّا بقنتي .

---

(113) هل يقصد الصرع أو الضرع؟ .

ولا أعجب منها حين اتحفت بالسقط ، وأبهجت بنقطها ولا بد للدوائر من النقط . فهي الطاهرة القلب ، المحبوبة القرب ، التي تأدّب الماء مع أكوابها ، ما أتىٰ بيوتها إلاّ من أبوابها . وقصد بالزاوية الأخيار ، وقيل ذا الجدار وذا الجدار .

أجرىٰ اللّه الصالحات على يدي من أجراه ، وتقبّل أعماله التي قدّمها لأخراه بمنّه ويمنه .

﴿ فصل ﴾

ولما تخلصت الزاوية التي هي شمس والزوايا كواكب ، وتم ذلك المصنع الذي هو بحر والمصانع أنهار ومذانب . أمر مولانا أيّده اللّه بكتب ظهير كريم بتعيين مرتبات للقائمين هنالك بالوظائف ، وجرايات للمتولين لاشغالها المرضية السالف والخالف ، وأن يرتب هنالك جملة من الفقراء الصوفيّة أولي الأسرار القلبية ، والأنوار القدسيّة ، ليقيموا هنالك لإقامة الذكر ، معلنين مع ـ شيخهم ـ بالحمد للّه والشكر ، عامرين المجالس التي تحف بها ملائكة الرحمان . وتتنزّل عليها الرحمة في كل الأحيان ، سالكين مسالك أهل الطريق ، دارجين على مقامات أهل التحقيق . مكرمين للضياف ، موضحين لهم سبل الائتلاف . جامعين لهم على مركز التقوىٰ ، معلقين آمالهم بالأسباب التي لا تزال تقوىٰ .

وكذلك تعيّنت الجرايات لجملة من الخدم المتزوجات لأمثالهن عدداً من العبيد المجتمعين في قبضة الرقّ السعيد المختارين للتحبيس على ذلك الموضع الذي هو أبدع من القصر المشيد ، ليقوموا بتنظيف تلك الديار ، وخدمة الزوّار ، وعمل الأطعمة العميمة الإيثار .

وعيّنت للقبّة السعيدة وسائر البيوت فرش حسنة النعوت ، من الطنافس والقطف ، والزرابي واللحف .

وصدرت بخطي تلك الظهائر الكريمة ، والمراسم الشريفة . واستقر

الحال على ما ترضاه الإمامة المنيبة والخلافة المنيفة . ونجحت الأمور ، وثلجت برؤية الصدور الصدور . وزادت الأنوار ، وتوالت الأذكار ، ورقت شمائل الأسرار . وهبّت الصبا والشمائل بالاستبشار . فهي زاوية سعيدة السعداء إلاّ أنها في الغرب ، ورياض ربيع إلاّ أنه نابت منها بالقرب .

﴿ فصل ﴾

ومن جملة من سكن هذه الزاوية المباركة من الواردين عليها ، والصلحاء القاصدين إليها ، ولي من الأولياء أقام هنالك نحو نصف عام صامتاً لا يتكلّم ، صائماً الدهر يتحدّث ويتأثّم . مقبلاً على العبادة ، طالباً كيمياء السعادة . لا يلتفت إلى مخلوق ، ولا يفتر عن أداء ما للّه عليه من حقوق .

إلى أن اعتراه مرض برح به ، ووصل سبب التألّم بسببه . فعند ذلك تكلّم بما خفّ ، ومد للمضافحة الكف . وصرف وجهه إلى رؤية القاصد . وغدا ألمه موصولاً ، فآحتاج إلى العائد . وأنا ممن زرته في آخر عام ثمانية وخمسين وسبعمائة ، فأسمعني كلامه ، وأولاني برّه وإكرامه . فرأيت منه رجلاً أطال شأو المجاهدات ، وتوغل في ارتياد رياض الرياضات ، وجعل لذاته في ترك اللذّات ، وصفىٰ باطنه من كدورات الشهوات ، حتىٰ لحق بمن هام في وادي الفناء الذي هو وجود ، وغاص في بحور المحو الذي هو إثبات مشهود . وتحلّىٰ بفرائد التفريد ، وكتب في جرائد التجريد . وأنس باللوائح والطوالع ، وانتعش بالبواده واللوامع . وهام بالمحادثات والمكالمات ، وكلّف بالمشاهدات والمحاضرات . وتاه في بيداء السحق والمحق . وانتقل إلى بقاع الجمع من حضيض الفرق . وشرب من عين الحياة ، واجتلىٰ شموس الحقائق باهرة الآيات . واحتسىٰ كؤوس المحبّة على بساط الوفاء ، ووقف لاجتلاء كعبة الأسرار على صفاء الصفاء .

نفع اللّه بمنّ هذه أوصافه ، وحيّا اللّه من اهتزّت لسماعها أعطافه . واللّه يجبر صدع من ردّ من الباب ، إلى ظلمة الحجاب . وحسده الشيطان في الدخول مع الأحباب واستنشاق نواسم الاقتراب . فهو متبع هواه . متردٍّ في

مهواه . قد ردّ من أمره في الحافرة ، وآثر الدنيا على الآخرة . ونفسي بهذا أعني ، فما أجدرني ببكاء على الذنوب وحزني ، وعودي إلى التوبة التي تقرّب إلى اللّه وتدنّي ، وخروجي عن الدنيا التي لا تنفع طالبها ولا تغني .

رجع الحديث :

وطلبت من هذا الشيخ المبارك أن يعرّفني بشيخه الذي سلك على يديه ، واستند في حسن التربية إليه . فأعرض عن الجواب ، واشتغل بذكر رب الأرباب . فقنعت منه بالدعاء ، وفارقته مفارقة الظمآن للماء .

ثم إنه بعد ذلك أبل ، وعافاه اللّه عزّ وجلّ ، فتشوّف لرؤية مولانا أمير المؤمنين أيّده اللّه ونصره ، وشكر في اعتنائه بالصالحين وردّه وصدره . فأخلىٰ له مجلسه ، واستدعاه وأنسه . فلم يزد الشيخ على حمد اللّه والثناء عليه وانصرف إلى حلّه الذي اشتاق إليه ، وعاد إلى انقطاعه وتخلّيه ، والاشتغال بتحلّيه العائد بتجلّيه .

ولم يزل مولانا أيّده اللّه معتقداً فيه وفي أمثاله ، معتملاً في الاهتمام بأهل اللّه تعالىٰ أعظم اعتماله . فاللّه يثيبه وينفعه ، ويحيطه بالعمر الطويل ويمتعه بمنّه ويمنه .

﴿ فصل ﴾

وكان المقدّم شيخ الصوفية بهذه الزاوية المباركة عند خلاصها . ومتولىٰ الإمامة بجامعها الأكرم المناسب لشرف اختصاصها الفقيه الصالح الزاهد أبا عبد اللّه محمد بن الفقيه الجليل المعظّم الأصيل رئيس المغرب وحسنة عصره المعجب به المغرب أبي محمد عبد اللّه بن أبي مدين . فقام بالواجب ، وسلك في أموره على السنن اللاحب(114) .

ولما حصل مفتاح الزاوية بيده ، وناسبت أحوالها الحسنة حسن معتقده ،

---

(114) من لحب . الواضح .

واستحقّ ذلك الطوق جيِّد ولايته ، وكانت تلك الخطة بداية في تقديمه ، ونهاية رعايته ، رأىٰ حفظه اللّٰه أن يشهر أحوال تلك الزاوية في الآفاق ، ويشيع في المعمور عمارتها الجميلة الوفاق . ليقدم عليها الوفود ، وتكرم بمعاهدها العهود . وتحطّ بها الرحال ، وتستقدم ببركتها الآمال ، وتستكفىٰ بحماها الخطوب ، وتستجلىٰ بروحها الكروب . وتتيسّر للضعفاء الأقوات ، وتصفو من كدرها الأوقات .

فاستدعىٰ أهل فاس إلى الحضور بجامع القرويين في يوم أخذت به السعود مأخذها ، واسترجعت الأفراح من يد الزمان أخائذها[115] . واسترجحت في ميزان الابتهاج تباشيره ، واستوضحت في وجه السرور أساريره . وطاف بكعبة الآمال طواف القدوم ، وأبدىٰ من محاسنه ما هو أبدع من الوشي المرقوم .

فجاء الناس زرافات وأفذاذاً ، وأغذوا[116] إلى إجابة داعيهم اغذاذاً ، ولم تتسلل البشرىٰ عنهم لواذاً بل أنفذ لهم حكم السعادة إنفاذاً وأسرعوا إلى الجامع الأعظم إسراع الحجّاج ليلاً بين العلمين ، وازدحموا بصحنه ازدحام الركائب ليلة النفر بالمأزمين . فما راعهم إلاّ بروز الشيخ الصالح الولي أبي يعقوب يوسف عمر الإمام نفع اللّٰه به فوقف للدعاء ملياً . وأفصح بالثناء على مولانا أيّده اللّٰه بدياً .

ولم ينشب الناس أن أمنوا على دعائه ، وأثنوا أعظم من ثنائه ، وحمدوا اللّٰه ملء أرضه وسمائه . وقد كان شيوخ الزوايا مجتمعين ، والفقراء السفارة للأوامر مستمعين . وبيد قيِّم الزاوية مفتاحها الضامن للفتوح ، المبشِّر بالخير الممنوح الذي فعله حميد ، وكل بصر برؤية حديده حديد .

---

(115) الأخيذ هو الأسير .

(116) أسرعوا .

(117) قوله تعالىٰ يتسلّلون منكم لواذاً .

فلما طلع حاجب الشمس ، وتعرف الأفق بالفصل منها والجنس . خرج خدمة الزاوية مع الفقراء ، وأمامهم صدور الشرفاء ، وأعلام الفقهاء ، وغيرهم من الأعيان الحسباء ، ومن انخرط في سلك الدهماء . رافعين أصواتهم بالأذكار والدعاء ، مفعمة أنوفهم بالعنبر والورد والكباء.[118] مرسلة عليهم مزن القوارير بغيوث ماء الورد مشوباً بالعبير ، مفضوضة لهم نوافح المسك الأذفر . مضمخة ذيول نسيمهم بشذاه الأذكىٰ وعرفه الأعطر .

وبرزت لذلك المشهد الكريم ربّات الحجال ، والمخدرات المحمية ببيض النصال . وامتلأت الطرق بالشبّان والكهول والشيب ، داعين السميع المجيب ، مظهرين للمحبّة التي استجليت ضرائبها[119] المنزهة عن الضريب كالضريب . مخلصين لمولانا أمير المؤمنين المنصور الذي جاء بالترغيب والترهيب .

ثم خرجوا على باب المحروق فغصّت الأباطح بأصناف الخلائق. وانتشروا بتلك الأرجاء انتشار النواسم في الحدائق ، وتجاذبوا أهذاب المسرّات الواضحة الحقائق ، والابتهاج الذي أبان لهم أوضح الطرائق ، إلى أن أفضوا إلى الزاوية النيّرة المطالع الطالعة الأنوار ، وقدموا منها على محل الجود والإيثار ، والفضائل التي تحلّت بها عواطل الاعصار ، واشتهر ذكرها في الأقطار والأمصار .

ودخلوا بابها الذي فتح للسعود أبواباً ، وحلُّوا بجنابها الذي فسح للخيرات جناباً ، وعجبوا من صنائعها ، وقيّدوا أبصارهم ببدائعها . وأطالوا بها الأذكار ، واستنزلوا بأسرار قلوبهم الأنوار .

وكان فيمن حضر ذلك الحفل الشيخ الشاعر الشهير أبو إسحاق الحسناوي التونسي ، فأنشد قصيدة من نظمه في مدح مولانا الخليفة الإمام ، وذكر

---

(118) نوع من التبر المعطّر ج كبىٰ .
(119) طبائعها.

محاسن تلك الزاوية التي هي بكر الأيّام . فأصاخت إليه الأسماع ، وكادت تنطق بأمثال مدائحه البقاع .

وعلى أثر ذلك وصلت طيافير الطعام الملوكية ، عليها المناديل الساطعة البياض ، والسباني المرقومة كأنّها أزهار الرياض . من كل موشىٰ الظاهر والباطن ، ثقيل إلاّ أنه متلقىٰ بالقبول في كل المواطن ، مستدير كالشمس لكن حرارتها في ألوانه إذا سار لم يبرح عن سمت الرؤوس يرصد أهل زمانه ، كبير الساحة ، تجول فيه الراحة بالراحة . مرتصّة في دواخله صفوف صحافه ، لا يتحلّل فرجها الشيطان الذي حكمت التسمية بآنصرافه . آت بما تشتهيه الأنفس التي حظيت بإسعاده وإسعافه ، معروفة حروفه بالإشباع والاتباع ، آمنة أحاديثه المسلسلة من الانقطاع . متحرّك خفض على الجوار ، فروىٰ لحمه عن البزار . فأكل الناس هنيئاً مريئاً ، وأفاضوا في الدعاء الذي أطلع صبح القبول جلياً ، وانفضوا عن مشهد تهادت البلاد أخباره ، واجتلت في صفحات الأيام آثاره . ووقت صفت من الشوائب موارده ، واستحكمت بأيدي السعود معاقده .

وحين أبدىٰ وجوهه باهرة الجمال ، وصدع بأنوار البشرىٰ الطالعة نجومها في سماء الإقبال . واستتبت أمور الزاوية أحسن استتباب ، وانسكبت سحائب الجود بذراها أعظم انكساب ، وآتبعت قلم الحساب بكل عطاء حساب .

جزىٰ اللّه مولانا على ذلكم جزاء من آتبع الحسنة بأختها . وتحلّىٰ من الفضائل بأبدع نعتها ، وجلىٰ أحكام الفخار لوقتها ، ولا زال كماله منزهاً عن عوج النقائص وأختها .

ـ غريبة

وقصّة عجيبة ـ:

لمّا عزم مولانا أيّده اللّه على الحركة السعيدة التي انتشرت أخبارها ، ووكفت[120] باليمن والنجاح أمطارها ، وأرخيت على عرائس البشائر أستارها ، وحفظت بجوانح الأيّام والليالي أسرارها. أراد رضي اللّه عنه أن يتحرّك معه إمامه المشهور بالصلاح ، المروية أحاديث ولايته في العوالي الصِّحاح ، ذو الخلق الحسن ، والفضل الواضح السـنن . الصوفي الربّاني ذو المقامات والأحوال ، المعمور القلب بأنوار الجمال وأسرار الكمال : أبو عبد اللّه الصفّار أبقىٰ اللّه بركته ، وأنجح إقامته وحركته . لمّا اعتاد من جميل مؤانسته ، وحسنات مجالسته . وما رآه من كراماته ، وآعتاد من بركاته.

وعزم على الشيخ نفع اللّه به في ذلك عزماً أمضاه، واقتضاه من حسن اعتقاده ومحبّته ما اقتضاه. فلم يمكن للشيخ إلّا الانقياد لأمره ، والطواعية للملك الذي قدّره حقّ قدره.

إلّا أنّه لم يكن ذلك من مراده ، وأشفق من أفراد أهله وأولاده . وظهرت عليه أحوال ، وصدرت منه أقوال في التحقيق وأفعال ، إلى أن عزم على الاستقالة وطلب الإعفاء ، ولم يأخذ من أمور الحركة في شيء من الأشياء.

وكنت ممن قلت له: يا سيّدي لا تراجع مولانا أيّده اللّه فإنه لا يترك سبيلك للإقامة ، واشتغل بالحركة المتكفّلة إن شاء اللّه بالسلامة ، ومزيد البرّ والكرامة.

ولم أكن أطمع في سراحه ، ولا أحدّث نفسي بنيل اقتراحه . فقال لي: أنّه أيّده اللّه سيتركني ، وبقصدي يسعفني . فتعجبت من ذلك لما كنت أعرفه منشدّة العزم على رحيله ، وصدور الأمر الذي لا سبيل إلى تأويله.

---

(120) غزرت .

ثم إنّه تكلّم مع بعض أصحابنا في ذلك فلم يسع صاحبنا إلاّ موافقة وتسليم . وقال له: يا سيّدي الباب مفتوح والكريم كريم . فصاح الشيخ إذ ذاك ووقع مغشياً عليه.

وبعد ونية[121] أفاق وعرف ما لديه، قال مولانا أيّده اللّه، عندما اعترىٰ الشيخ ما اعتراه ، وغلبته الحال التي لطف بها معناه ـ سرىٰ سرّه إلى قلبي ، وصفا من كدرات الحس شربي . فأشفقت من حاله ، ونويت أن أسرّحه وأبلغه أقصىٰ آماله. وخرجت في الحين لإمضاء ذلك الحكم ، وإقرار ذلك الرسم . فأخبرت بالواقع ، ما ظهر من ذلك الشيخ الجاري على أكرم المهائع. فعجبت من ذلك ، وحمدت سلوكي تلك المسالك . ووفيت مقاصد الشيخ الذي أشهد بولايته . ولا أزال أرعاه حق رعايته.

أثاب اللّه مولانا وزاد في معناه ، وعمّر بالحسنات والبركات مغناه ، وزاد من فضله الذي يعقب حسناه، ويحسن عقباه بمنّه ويمنه.

ـ ذكر توجّه الوزير،
وما ظهر من حسن التدبير ـ :

ولمّا اجتمعت الجيوش من جميع الآفاق ، وآنثالت على أباطح الحضرة العليّة آنثيال الواكف الغيداق . وآنتشرت ذات اليمن وذات الشمال ، وطابت سجاياها وخلالها بتلك الخلال . وآرتفعت مضاربها ارتفاع النجوم العواتم ، ونشرت ذوائبها في النجود والتهائم ، وترادفت كأمواج البحار ، وحفّت بالمدينة البيضاء كما حفّت الهالات بالأقمار ، رأىٰ مولانا ـ أيّده اللّه ـ أنها لا تسعها الطرق ولا تحملها المنازل ، ولا تكفيها الموارد ولا تحسبها المناهل . فقدم منها كتائب وافرة الأعداد ، ومقانب أيهت بأهل الجلاد ، وقدمها بين يديه لحصار قسنطينة التي شمخت بأنفها على البلاد ، وأشخصها تحت نظر الوزير

---

(121) فتره .

ابن ودرار في طالع السعد والإسعاد . وفوض إليه في أمور ذلك القطر ، وصدرت له بتعريفي مراسم سلطانية رفيعة القدر ، وظهائر إمامية فارسية كبيرة الخطر .

وأمر له بألوف من الأموال ، والكساء البديعة الجمال . وحمل أمانة الإعذار والإنذار ، وإقامة الحجّة على أهل الاغترار . وأفصح له بأن باب العفو مفتوح ، ومعنىٰ الصفح والإغضاء مشروح . وأن التوبة على الخاطئين معروضة ، وعهود الوفاء لا مرفوضة ولا منقوضة .

وأعلم أن المراد أن تجتمع كلمة الإسلام ويلتئم أحزابها أحسن الالتئام ، وتتخلّىٰ الدواعي لجهاد عبدة الأصنام ، ويستطاع السبيل لحجّ بيت اللّه الحرام ، وزيارة سيِّدنا ومولانا محمّد خير الأنام ، عليه أفضل الصلاة وأزكىٰ السلام . وينحسم داء الفتنة ، وينقضي أمد المحنة . ويمحو العدل الفساد ، ويرتفع الظلم الذي اغتر به اللئيم فساد .

فتقدّم الوزير وسعادة مولانا أيّده اللّه تهيء له من أمره رشداً ، وتضفي عليه ملابس المسرّات جدداً . وتكنفه بالنصر الذي جاد وجال ، وتمّ ملك العدو فحاد وحال ، وأصاب ركنه فماد ومال . وأهاب بالخير فزاد ، وبالشر فزال .

ودعا بالولي فساد وبالجود فسال إلى أن نزل قسنطينة بمن معه من الجيوش التي جاشت بها صدور الهيجاء ، والعساكر التي صبّت سوط العذاب على الأعداء . فصيّرها في قبضة الحصار ، ودعا بدعاية الحقّ الباهر الأنوار . وعرض على أهلها المتاب ، وخوّفهم التبار(122) والتباب(123) . واستعمل في استصلاحهم ملاحظة الرفق ، وأنهىٰ الوصايا الكريمة التي صدعت بالصدق . وضمن لهم العفو عمّا اجترحوا من السيّئات ، والفوز من رضا الخليفة الإمام أيّده اللّه بنيل الأمنيات . وعرّفهم قصده الكريم في جمع الكلمة ، وضمّ نشر الأمة المسلمة .

---

(122) و (123) الخسران والهلاك .

فتركوا استبصاراً ، وأصرُّوا واستكبروا آستكباراً . وافترشوا البغي مهاداً ، وركبوا في الغي جهاداً . وكشفوا صفحة العناد ، وأوغلوا في موانىء الفساد . وعاقدوا عزائمهم على صدق الجلاد . وآختالوا في ملاء الاملاء ، وغفلوا عن عواقب فعلتهم النكراء . وأعضل داؤهم ، وتفاقهم استشراؤهم . وتعاهدوا على القلاع ، وتكانفوا على الذياد عن بلدتهم والدفاع .

فلما يئس الوزير من فلاحهم ، وأعيته وجوه استصلاحهم . صدقهم القتال والنزال ، وأذاقهم النكال والوبال . وعطف عليهم زمام الأزمات ، وأشرف بهم على أنجاد النجدات . وأخذ عليهم الثنايا ، وصيّرهم في لهوات المنايا . وصال عليهم صيال قريع الشول ، وجاد لهم بأوضح معاريض القول . وأتاهم بالداهية الدهياء ، والرقم الرقماء . وسامهم خطة الخسف ، وجاءهم بمطفئة الرضف .

ولم يزل مكبّاً على ذلكم العمل ، معتمداً فيه بنيل الأمل . وآلات الحصار تتوجّه إليه في كل الأوقات ، والمراسم الشريفة تصدر بإمضاء العزمات ، والاشتداد في قهر أولي الدنيات . حتى وصل الركاب العلي فآنفرجت الأزمة ، وارتفعت النقمة وسكنت الصدمة ، وشملت النعمة ونزلت الرحمة . ولاح صباح الهدىٰ ، وآنفسح للرشد المدىٰ . ونسخ العسر باليسر ، والتجهم بالبشر . والمر بالحلو ، والكدر بالصفو . وثابت البصائر ، وصلح الباطن والظاهر .

وجاء الفتح لميقاته ، وصعد النصر بأعلىٰ مرقاته . وشفع الإحسان بالحسن ، وبات السيف وصاحبه كلاهما قرير الجفن . وعطل عامل الرمح وولى العامل . وأبيح العيش الناعم حين ردّ عن الصدور الذابل . وعوض التدمير بالتدبير ، وآعتمدت جملة العفو بالتفسير ، وقرنت الهداية بالتيسير . وزال الهرج ، ووضع النهج . وحقنت الدماء في أهبها ، وأريحت النفوس من تعبها ونصبها ، وشد كرب كربها . ووصل سبب الدعة والأمنة بسببها . وارتفعت المحاذير ، وقبلت المعاذير .

وأمن السرب ، وخطم[124] الخطب . وحمدت الآراء ، واجتمعت الأهواء ، ونجع الدواء ، واستقام العلاج فزال الداء .

وأنجح اللّٰه مساعي مولانا ويمنها ، وحلىٰ أفعاله بالتقوىٰ فزيّنها ، وهدىٰ بعدله البلاد وهدنها ، وأوضح بالسنّة رماحه معاني النصر وبيّنها . ولا زالت سعوده في صعود ، وأنجاده طالع نجود . ودام في عزّ مشهور مشهود ، وفتح منقول ومنح منقود .

ذكر الحركة السعيدة

التي أرت العجائب وطبق ذكرها المشارق والمغارب :

وفي ضحىٰ يوم الخميس الموفىٰ عشرين لجمادىٰ الأولىٰ من عام ثمانية وخمسين وسبعمائة كان خروج مولانا أمير المؤمنين أيّده اللّٰه ونصره من المدينة البيضاء في طالع السعود المتتالية الأضواء .

ويرز في موكب ودّت الثُّريّا لو تكون ثراه، والشعراء العبور لو عبرت عليها سراياه . والسماك الرامح لو صحب رماحه ، وأخوه الأعزل لو صافح صفاحه ، والنسر الطائر لو جاءه سبقاً ، وأخوه الواقع لو وقع حقّاً .

وتقدّم بين يديه أيّده اللّٰه قوّاد الأجناد والأعلاج والأتراك والوصفان كل قائد له علم معروف ، ولواء إليه مصروف ، وترتيب عليه موقوف . ولقواد الترك طبنخالات تحفظ نظامهم الشرقي ومزامير هائلة مما عرفوا بها الملك المصري . وبأعلىٰ أعلامهم الشعر الذي جعلوه شعاراً ، وزادت به الحروب استظهاراً .

ولسائر القوّاد أيضاً زي تميّزوا به في العساكر ، واشتهروا به اشتهار النجوم الزواهر ، وتعرّفوا به تعرّف الأفق بالصباح السافر .

وجميع القوّاد المذكورين إلّا قوّاد الأندلس ما من جموعهم إلّا رماة

---

(124) زال وتوقّف .

بالقسي العربية ، المجلوبة من البلاد المشرقية ، والمحكم عملها في البلاد المغربية . من كل منشأة بيد الإتقان والإبداع ، مسواة كما شاء أولوا الشجايا الفاضلة والطباع . تنعطف آنعطاف الوشاح على الخصر ، وتنحني آنحناء الضلوع لكن بيد الصدر ، ذات عظم يعرفه العظام ، وشكل يُصان به شاكله الرمي الذي يرام . موشية بهرت جمالاً ، فتارة تكونُ هالة وتارة هلالاً . وترسل النجوم الثواقب لكن تسمىٰ نصالاً . وتعلو الساعد فتبر للحرب يميناً وتلزم شمالاً .

وأمّا جموع قوّاد الأندلس فما منهم إلاّ رام بالقوس الفرنجية . حامل لها حمل الفلك للقمر والغصن للقمرية . من كل صليبة العود ، جامعة مانعة كالحدود . مشدودة الظهر ، إذا شهر السلاح فهي هلال الشهر . واصلة الأسباب ، مرسلة على الأعداء التباب ، كلما حركت الوتر على العود بارىٰ سهمها الرباب . وربما أرسلت بريشة عند الإيناس لا البأس ، وأبدته كالأشفار الكحيلة لكن بعين القرطاس .

فهي تباهي بجوزتها الجوزاء ، وتصمي يوم الحروب العواء . وتجعل مفتاحها للظفر مفتاحاً وعمودها عمود صبح للنصر الذي لا يزال ملتاحاً . منتقلة من الذراع إلى الكفّ ، كلما أخذت في الأصماء لم تعرف بالكف . عروس وما أحسن رميها بالشمع . منتسبة كلما نبعت كلوم العداة إلى النبع .

وعلى جميع هؤلاء الأصناف أنواع الأقبية التي حسن لها التمييز ، وكاد يقطر منها الذهب الإبريز . أبدع ما رقمته الرواقم ، وأحفل ما وسمت به أغفالها المواسم . وفوقها المصفحات من الحلل والأنزاق ، والأثواب البديعة المجلوبة من أرض الشام وأرض العراق . منسوقة بها المسامير المذهبة التي تكاد تغشي الأبصار ، وتوقد من أشعتها فوق أهل الجنّة النار . والدروع الداودية التي أنست صفحات الأنهار ، عند هبوب النسيم في الروضة المعطار . فهي عبرة لأولي الاعتبار ، ونزهة للنظّار ، وجمال للأمصار والأعصار .

وأما القلانس والشواشي المذهّبة والمفضّضة فتلك التي باهت الشموس الباهرة الأنوار ، والبدور الواضحة الأسفار ، وزهيت أطواقها المرجحة على نواظر الأزهار ، ومختلفات مطلولات النوار .

واختص خيول الأجناد الأندلسيين بالبراقع البديعة الجمال ، المرسلة إرسال السجوف على ربّات الدلال . وقد جعلت الكواكب الجلاجيل المذهّبة سماء . وأنهي النظر في ترتيبها البديع إنهاء . فملأت الجو أصوات أجراسها ، وكادت تنطق بالبشائر التي انتعشت النفوس بأنفاسها .

وخلف هؤلاء الفوارس ، وعرائس الخيل الذين أنافوا في الحسن على العرائس . جموع الأندلسيين المغاورين المرتجلة قد لبسوا الأقبية المختلفة الألوان . وجعلوا فوق رؤوسهم الرتافيل التي هي أبدع من نور البستان . واعتقلوا بالعصي الطوال .

وبنوا بالأمداس التي هي رسائل أزوال القتال ، وبـروق الموت التي تخطف أبصار الآجال . وتقلّدوا بالنبابيل التي التظت نيرانها في الأغماد . واشتاقت إلى الإطفاء لكن بدماء الأعاد .

وما منهم إلاّ من حملت عصاه راية تلاعب هبّات النسيم ، وتتوارىٰ من عجاج الخيل بالليل البهيم . وخلفهم الوصفان المترجّلة قد لبسوا الأقبية الرائقة ، واحتملوا السيوف الفائقة . والعدويون اللابسون لأحسن الأثواب ، المرتقبون لإمضاء الأوامر الكريمة أحسن الارتقاب . بأيديهم القضبان صلبة مكاسرها ، مرصدة لتأديب أهل الجهالة مناسرها .

وتقدّم بين يدي مولانا أمير المؤمنين الخليفة المتوكّل على اللّه أبي عنان فارس أيّده اللّه بنصـره قبتان ، لهما غشاءان من الحرير مذهّبان ، من أبدع ما تراه العينان .

فأمّا القبّة الأولىٰ ففيها مصحف عثمان بن عفّان رضي اللّه عنه الذي هو أعظم ذخائر المغرب ، وأشرف ما استقرّ بقصره المعجب المغرب .

وأمّا القبّة الأخرىٰ ففيها صحيح البخاري ، وصحيح مسلم أحسن ما أُلِّف في الحديث ، وأعظم ما دُوِّن في القديم والحديث . والكتابان اللذان تلقتهما الأمة بالقبول ، ورأت بركاتهما المتكفلة بنيل المأمول ولمولانا أيّده اللّه فيهما الإسناد العالي . والرواية التي تشهد بفضلها الأيّام والليالي . فهو الحقيق بأن يقدم من كتاب اللّه تعالىٰ ومنهما بين يديه نوراً ، ويجتلي على أثرها روض السعادة ممطوراً ، ويقرأ كتاب الأماني مسطوراً . ويرىٰ عدوه مذموماً مدحوراً ، ووليه مبتهجاً مسروراً .

ولاح مولانا أيّده اللّه في ساقته التي عقدت بطرقها أهداب العيون ، وشيّعت بالأدعية التي تكفّلت بالأجر غير الممنون ، والأثنية المردّدة التي هي أعطر من الروض غبّ الواكف الهتون . وحوله الخواص وأشياخ بني مرين أسود الحروب ، ومفاريج الخطوب . وسيوف الإسلام . وذخائر الليالي والأيّام . وكلّهم قد لبسوا البياض ، واشتملوا منه السائغ والفضفاض . فبدأوا كأنّهم تباشير الصباح ، وأشباه أياديهم التي نماها نصاب الجود والسماح . من كل صريح المجد ممحوض الحسب ، رفيع العماد في ذؤابة الشرف المنتخب . كريم سعىٰ مساعي آبائه وأجداده ، وترسم رسوم أسلافه المطيبين لولاده .

وترتب خلف هؤلاء السادة ، والمناجيب الذين توقلوا[125] مظاهر المجادة ، قوّاد الروم في جموعهم التي تهدّ الأرض هدّاً ، وتسدّ الأفق إذا تنمرت[126] خلقاً وقداً[127] . مناجيد صهب السبال ، زرق العيون كعوامل رماحهم الثقال ، قد آمتطوا الخيول المسومة أمثال الجبال ، واستعدُّوا لخوض غمرات القتال ، وصدمة حومات النزال . وخلفهم آصطفّت الألوية المنصورة

---

(125) رفعوا ، كان المجد عنواناً لهم ، إشارة إلى الإبل التي ارتوت فآطمأنّت فعبّرت عن اطمئنانها بهدرها .

(126) كذا في الأصل .

(127) كذا في الأصل .

والأعلام ذوات ألوان لا تنبت أمثالها في الروض الغمام . وبأعلىٰ عصيها عوامل مذهّبة كأنّها الكواكب ، والنيران شهبتها الصبا وسعرتها الجنائب . وعلىٰ أثرها جموع الطبّالين تقدّمهم مزوارهم كالطود الأشم ، مشتغلاً من أمرهم بالأهم .

فجعلت الطبول تقرع على طرائق تتهاداها الأسماع ، وتهواها حتى الأماكن والبقاع . ألسنة عزّ نطقت فأنست زئير الأسود الضراغم ، وهدرات البزل القناعيس في أعطانها القوائم . وملأت القلوب هيبة وروعاً ، وأذلّت رقاب الأعداء كرهاً وطوعاً ، وبشرت بالنصر الذي جعل فرعها لأبوابه فرعاً ، والفتح الذي نزع عن قوس السعود نزعاً ، وحفظ للمسرّات أصلاً وفرعاً .

وعلى أثرهم امتلأت الأنجاد والتهائم بكتائب تتلوها كتائب ، ومقانب تواكبها مقانب . وأفواج من الخلائق بعد أفواج ، كالبحر يشفع أمواجاً بأمواج ، والغيث يردف جوداً هتاناً بصوب ثجاج[128] .

وما زال السلام يعاد حفافي الموكب الأعظم ، والشكر الأفخم يتجدّد للإمام الأفخم . والعيون تشيع شمس الملوك التي طلعت بتلك الطرف ، وقمر السلاطين الذي أبهج القلوب والعيون فلم تنكر نزوله بالقلب والطرف ، وروض العلوم الذي كادت سحائب الدموع تجود حين عطر بالعرف[129] ويدأ بالعرف . إلى أن حلّ بأفراق جدل الفؤاد ، حميد الارتياء والارتياد ، شاكراً لربّ العباد ، الذي ألقىٰ إليه مقاليد البلاد ، واختاره لسياسة الحاضر والباد . قد أبدىٰ التواضع والانكسار ، وأظهر الاستعبار والاعتبار . وأيقن بالفلاح والنجاح ، واستروح إلى قادم البشرىٰ أحسن الاسترواح . ونظر إلى نيّته الصالحة فأيقن بقبول أعماله ، ولزم التقوىٰ فما شكّ أن له العاقبة المبلغة لآماله . وأقام السُّنّة فيما نيط به وأدّىٰ الفرض ، وعد من عباد اللّه الصالحين فلا غرو أن أورثه الأرض .

---

(128) من ثج إذا غزر وقوىٰ .

(129) رائحة زكيّة .

ذكر أفراق السعيد
وأوصافه المعروفة عند القريب والبعيد :

وأفراق السعيد كالبلد الواسع الأقطار ، القائم الأسوار . البديع الاختطاط ، الشريف الاستنباط ، المحكم الارتباط . وهو في وضعه مستدير الساحة ، بدري المساحة . قد صنع من شقاق الكتّان الموضونة[130] ، وفضلاته الفاضلة المصونة . وضوعفت طاقاته ، وحذيت حذو القذّة بالقذّة مسافاته .

وأظهر النصاحيّون[131] في خياطته النصائح ، وظاهر المراوح منهم المغادي والمعادي المراوح . وأعملوا فيه نبات الوخز غائصة غوص الأذهان ، أخذ من الألسنة الفاتقة رتوق البيان . ترسل خيوطها أسرع من البريق وتغادر الأنامل وكأنّها أفراس رهان تبارت في السبق ، ، ،[132] . عارفة كالأصولي بالجرح إلاّ أنها جاهلة بالفرق . ضيّقة العيون كالأتراك ، ناحلة الجسوم كالعابدين النُسّاك ، إلاّ أنّها تبيّن لها الخيط الأبيض لا تدين بالإمساك . فألتأمت أجزاؤه أحسن الالتئام ، وألتحمت على وفق الإبداع أجمل الالتحام . وتجانست أنحاؤه وتطابقت ، وتناسبت ميامنه ومياسره وتوافقت .

وجمع بشرائطه شرائط الكمال ، واختار من لونه وهو البياض طراز الجمال . وصنعت له عمد مثقفة كالقداح ، موشاة كأثواب الخود الرداح . بأسافلها زجاج حديد كبير الإجرام ، تشقّ الأرض شقّ الغرام قلب المستهام . وتقرّ في الترب كأنّها جذور النخل الباسقة ، وعروق الأزرة السامية السامقة .

فتقف تلك العمد متناسقة الصفوف ، جاثبة لمعنىً في غيرها وزهىً

---

(130) المنسوجة ، منسوجة بالجواهر . ومنه قوله تعالىٰ : ﴿على سرر موضونة﴾ .
(131) الخيّاطون .
(132) بياض .

الملك منها بصحيفة دلّ على شرف ما فيها عنوانها . ذات الاطناب التي تمتد آمتداد أشعة الشمس ، وتحل أوتادها من الأرض محل النفس من الجسم والسر من النفس . قائمة لفارس كإيوان كسرىٰ ، مزدانة بأنواره التي هي أفخر من أنوار البدر وأسرىٰ .

ويتصل بها البيت الأعظم الذي كاد يبلغ الفرقدين ، وتصير ذات العماد منه إلى ذي العمادين . بديع المحاسن جميل المسافر ، بهي المناظر ، زكي المخابر . وسيع مقام الاستضراب ، ممتد شأو الاستنخاب .

وتتّصل به القبّة التي هي ثالثة التعزيز ، وسمة شرف التمييز. ذات الحسن الفائق ، والجمال الرائق . والشكل البديع ، والاستنباط المرضي التأصيل والتفريع .

وبغربي هذه المساكن خيمة الشعر التي أعجز وصفها الشعراء ، وأنست بألوانها وبدائع صنعتها وشي صنعاء . قريبة التداني ، منيفة على أوثق المباني ، مستطيلة الشكل كالفجر الأول ، مستطيرة الذكر(133) المنزّهة عن التداني ، وخلال الأقيال (العياهلة)(134) الذين فازوا من دنياهم بنيل الأماني .

وفي أفراق السعيد من الأخبية والبيوت ما يشابه الكواكب في جمالها وآزدحامها ، ويشابه العقود النفائس في حسنها وانتظامها . كل ذلك مما نشأ في مظاهر الإبداع والإتقان ، وصنع في أسعد الأوقات والأزمان . واستفرغ في تنجيده الوسع ، ونعم برؤيته البصر وبوصفه السمع .

وأمام باب أفراق القبلي قبّة الجلوس وهي قبّة ليست بالكبيرة إلاّ أنّها في غاية الاحتفال ، مشتملة بالمحاسن أحسن الاشتمال . وفيها مرتبة الملك العزيز التمكين ، أحسن من طاقات السوسان والنسرين . وهي مستندة إلى

---

(133) بالهامش نقرأ «فخر الثاني تذكر منازل» وكلمتين غير واضحتين .

(134) كذا في الأصل .

ألواح تتصل بلطائف الصنعة ، وتتلاءم أجزاؤها فتصير سوراً ظاهر المنعة . وقد أودعها الدهّانون عجائب اشغالهم . وأظهروا بالفعل ما كان بالقوة في خيالهم حتى شمل الاتقان جميع ما تقع عليه الأبصار ، وتتشوّف إليـه الأفكار ، واستوضحت الحكم التي استتبعت بها الأسرار .

ويستقدم قبّة الجلوس مجال يقيد الألحاظ ، وتقف على ذكر محاسنه الألفاظ . وبه طريق الخليفة إذا خرج من مضاربه إلى حياة الساقة ، التي قامت قيام الجبل الرفيع الذروة ، والحديقة الملتفّة بأعلىٰ الربوة . مرسلة أطنابها إرسال شابيب الأمطار ، رافعة عمدها الثابت الذي كاد كالحروف . فتنتشر المرواقات على أعطافها ، وتتكاشف بمواطن استشرافها . حتى تحيط بالبقعة المتخيّرة لنزول خير الملوك ، والمنزّل المطهر الذي يحوز بسلوك الإمام عليه بركة أهل السلوك .

سور عظيم يعارض مهاب الرياح ، ويسمو سمو الحباب على الراح . ويزاحم الجو بمناكبه ، ويكاتب البروق المومضة بكواثبه . وله شرفات من الرقاع الزرق تباهي ألوان السحاب ، والعيون المناسبة في حجر الروض أحسن الانتساب .

وله بابان أحدهما جوفي وهو المسمىٰ بباب الصرف ، وهو مفتوح لبيت علا سمكه علو السماك ، وأشرف على المحلّة إشراف البدر المنوّر الأحلاك . وأعرب عن الفخامة الثابتة الدلائل ، والجلالة الرفيعة المنازل ، والضخامة التي أنافت على الملوك الأوائل . والباب الثاني بقبليه أمام البرج الذي كاد يبلغ عنان السماء ، ويزحم النجوم المختومة كؤوسها بمسك الظلماء . وهو مربّع الشكل ، محتفل العلو والسفل ، دواخل حيطانه أبدع من الروض غب العهاد ، وأحسن من تحلّيات الخريدة ولا غرو فهي منوطة بالعماد .

فسيح مجال الأطناب ، عالي مسادل الجلباب . شديد الأركان ، يفوق شامخ البنيان . سام على الهضاب ، دافع في صدور السحاب . قابض بأعّنة الرياح الهوج ، مشرف كغوارب القلائص العوج . قد لبس أثواب الهيئة وجرّ

برودها ، وصدع بأنوار العزّ وأبدىٰ صعودها . وزهىٰ بجامور تحسد الثريا اجتماع تفافيحه ، ويود الشفق لو كان بعض ذوائبه المرسلة إلاّ هزّ ريحه (.) .

وفي جوفه حائط من الخشب يروق الأبصار بريقه ، ويفوق الوشي اليماني تنميقه . حسن المساق ، جميل الاستنساق ، تجتمع أجزاؤه بعد الافتراق ، وتعود بعد الانخرام للانتظام والاتّساق .

وفيه جملة أبواب محكمة الصنائع ، مفيضة بقداح البدائع ، آخذة بأزمّة العيون إلى حسنها الرائع ، قائمة على قلب القلوب بجمالها الموفور البضائع . وكلّها موصد مغلق إلاّ الباب الذي بجهة الشرق فإنه معدّ لدخول الخليفة ، ومواطىء أقدامه الشريفة ، مخصوص بالولوج إلى المواقف العالية المنيفة ، والحواضر التي آحتوت على أسرار الحسن اللطيفة . ومن هنالك يشرع إلى باب أفراق الثاني الذي به مساكن الخلافة ومضاربها ، ومسارح ربّات خدوره ومساربها .

ويوالي باب أفراق الثاني القبّة العظمىٰ التي ظهرت كقوس قزح ألوانها ، يلحق بالكوكب السيّار .

قد أحكمت بدواخله الحرائم البديعة الاختراع ، والتوارق العجيبة التي استمتع الحسن بها أعظم الاستمتاع .

وبها أيضاً مرتبة الملك بيضاء عالية كالصبح ، مكتنفة في كل الأوقات بالنصر والفتح . يحلّها البدر فتجلي الأحلاك لكن بآنتسامه ، ويستقر بأعلاها البحر فيرسل الدرّ لكن من كلامه ، وتروي عن سهل لكن من خلائقه وعن كثير لكن من أنعامه ، «وتشاهد منه ثالث العمرين لكن عند تنفيذ أحكامه»[135] ونصر

(.) كذا في الأصل .

(135) كلام بالهامش .

الدِّين بالماضيين لسانه وحسامه .

وبمقربة من قبّة الجلوس بالجهة الشرقية يضرب الجامع الذي آمتدت له الأسباب ، وسرّ بالدخول في المحراب منه المحراب . وبه آستقرار الحزّابين والمؤذنين من مرتبين لقراءة القرآن ، وحفظ أوقات الصلوات بالآذان ، وإقامة شعائر الإسلام والإيمان .

﴿ فصل ﴾

ودخل يوم الجمعة ثاني يوم رحيلنا والمحلّات المنصورة بخارج المدينة البيضاء ، مقيمة بها إقامة الروضات الممتدّة الأفياء . تهبّ عليها نـواسم البشرىٰ والسرور ، ويتبلّج في أكنافها صبح الابتهاج الباهر النور . وتطلع فيها هوادي الجذل ، من ثنايا الأمل ، ويشفع نجح القول بنجح العمل ، ويستكفي بالملك الجليل طوارق الخطب الجلل ، وتنزّه الخلال عن الخلل ، وموارد العلل[136] عن العلل .

فكافيك بها من سعود لا تنبـو شبوات سيوفها ، ونعم لا تتفرّىٰ صفحات سجوفها . وحسبك من أمان تنال سلسة المغاد[137] ، وخيرات تستهمي كريمة الاعتهاد ، ومواهب تستدرّ عميمة الازدياد ، وعوارف تستمطر جسيمة الأرفاد ، ورغائب تستن في ميادين الانجاء والأنجاد .

فلمّا قرب أن ينادى بالصلاة ليوم الجمعة ، ويسعىٰ لذكر اللّٰه الذي تكفّل بحرمه المفلح بالرحب والسعة ، ركب مولانا أيّده اللّٰه في موكبه الأشرف ملبياً داعي الفلاح ، مشتملاً برداء الدِّين والصلاح . آتياً وعليه السكينة والوقار ، ماشياً وبين يديه تسعىٰ الأنوار .

وكان دخوله على باب الفتوح الذي بشّـر بالفتـوح ، وصلّىٰ بجامـع

---

(136) السقية الثانية .

(137) كذا في الأصل .

الأندلسيين فكان الإخلاص لصورة عمله كالروح .

ولما قضيت الصلاة رجع إلى محلّته السعيدة زاكي المنوح ، مستجزلاً أعاطي العزّ المنيع الصروح ، ومقاسم السعد المريش الجناح البادي الجنوح . وحشر أهل الحضرة العلية ناظرين إلى غرته السعيدة نظر الساري إلى الصبح المنير ، والظمآن إلى المورد العذب النمير ، الضاحي إلى الروض الخضل النضير . وشيّعوه تشييع الزهر نسيم الأسحار ، وأخلصوا في الدعاء لمقامه المأثور المكارم الكريم الآثار ، وأثنوا عليه ثناء الروض بعاطر شذاه على واكف الأمطار .

﴿ فصل ﴾

وفي صبيحة يوم السبت الثالث والعشرين لجمادىٰ الأولىٰ ، رحلت المحلّات المنصورة في كنف السعود التي تكاثبت وتصاقبت . والمسرّات التي تشايعت وتعاقبت ، والمباهج التي تراصدت وتراقبت ، والمناجح التي تجانفت عنها الحوادث وتناكبت . على أجمل هيئة وأفضلها ، وأبدع شارة وأكملها .

فما راق العيون كالهوادج التي علت فوق ذرىٰ البزل الهوادر ، وبدت كأنّها الأكمات المكلّلة بأنواع الأزاهر . سامية الهامات في الجو المنخرق . جامعة في الحسن بين المتّفق والمفترق . قد أحكمت بالعيدان ، أطول من العبدان،(138) وآعتمد تركيبها على وفق اقتراح الإبداع والإتقان . وجعلت عليها أغشية من الحلل المنسوجة بالذهب ، والانراق التي بينها وبين تلك أقرب النسب .

إلى غير ذلك من الأثواب العراقية والأندلسية والروميّة . كلٌّ يستبي الألباب بألوانه المختلفة ، ويروق النواظر ببدائعه المرتدفة . من أحسن ما نسج على منوال ، وخطر جديده في بال . رائق زانه التسهيم والتضليع ، معجب

---

(138) كذا في الأصل .

يروي عن الحريري وهو البديع .

ولهذه الهوادج ذوائب[139] مرسلة يضل فيهـا رائد الـرياح ، وتتضـوّع بمتموجها ما تصاعد من أراج أزهار البطاح .

ويباب كل هودج جارية عليها الحلل والحلي ، رائعة الجمال يحسد محياها البدر وجيدها الظبي . وجميعهن يغنين بذكر أيّام الحروب ، والملاحم التي طال بها عن المضاجع تجافي الجنوب . داعيات إلى ركوب الجياد ، والكرّ إلى مآزق الجلاد ، وسل السيوف الباترة من الأغماد ، والطعن الدارك بالسمر الصعاد . وطلب الثأر بالعزائم المحتدم أوارها ، والضرائم المشحوذ غرارها ، والحفائظ المشبوبة نارها . والمدافعة عن الحريم ، والذياد عن الحمىٰ المنبت للحميم . والحماية للحقائق ، والتوائح للمضايق .

وبين يدي كل واحدة أسراب من الجواري قد أحدقن بها لابسات أفخر المـلابس ، لولا عـظيم الهيأة لنـظر منهن إلى الغزلان الأوانس والنجـوم الكـوانس،[140] والأغصان المـطلعة بـدور الخنادس ، مكتنفـات بالأبـطال العوابس ، تحت ظلال البيض الرقاق والسمر المداعس .

وهن من زوجات الأعلاج[141] والوصفان[142] ، والممالك الحمثان[143] الشجعان . ناسئات في المقاصر والقصور ، لا يعرفن في أنفسهن إلاّ طعان الفوارس في النحور . وضرب الطلى تحت اللواء المنثور . وفيض النجيع المراق على الدروع ، واطلاع نجوم الأسنة في ليل العجاج المصدوع .

---

(139) من ذأب ذؤابه ، ما يتدلّىٰ من ناصيتها كالشعر وغيره .

(140) وكأنّها ظباء تختفي .

(141) ج علج (بفتح العين وكسرها) كل من آرتدّ عن دينه ولا سيما كفار النصارىٰ الاسبان في عصر بني مرين .

(142) جمع وصيف : عبيد مكلّفون بخدمات معيّنة .

(143) كذا في الأصل ولعلّه يقصد صفاءهن .

فهن يحيين ربّات الأحداج ، بأصوات توقظ عيون الهياج . وتثير الشوق إلى مجالدة الأذمار[144] ، ومناجزه العسكر الجرّار . ومعاطاة كؤوس الحتوف ، وحل معاقد الصفوف ، والنهود إلى الأعداء محكمين للسيـوف ، مدركين الأذحال[145] التي جعجعت بالحوادث والصروف .

وما من جمل يحمل هودجاً إلاّ وقد حلي بخلاخل الذهب والفضّة ، وألبس ما هو أبدع من نوار الخميلة الغضّة . وجعل في عنقه قلائد ذؤابات شذور ، لم تبار بأحسن منها جواري آل ساسان ، وخرائد قصور آل مروان وأمامه . وهو مبدأ القطار حمل عليه العياب[146] المحلاّة بأبدع السقط ، والفرش التي هي أبدع من الدرر واليواقيت في السفط[147] . وعليه جارية لابسة أفخر الثياب، منتقبة أحسن الانتقاب،[148] رئيسة في الجواري العرب الأتراب . مظهرة آثار الوقار ، موضحة أنوار الاستبشار .

وخلف جمل الهودج ، آمتدّ قطار الجمال البديعة الأزمة والثرىٰ ، المحلاّة كالعذارىٰ قمن من سنة الكرىٰ ، عليهن اللحف التي نسجها الذهب والحرير ، والزرابي التي لم يحـوِ ملها الخورنق والسدير ، والذخائر التي عزلها النظير ، ولسائر أنواع الفرش التي حام عن حسنها التعبير . فتخالها بساتين مختلفة ألوان الزهر ، وأفلاكاً تسري بالأنجم الزهر .

قـطار يتلو قطاراً ، وسـطر يستعقب أسطاراً . مـلء الطُّرق الفسيحـة الأرجاء ، وسداد المناهج المديدة الأدراء ، وطفاح الأرض المتّسعة الفضاء ، ومغمر الأباطح التي مرحت بها خيول الأنواء .

---

(144) ذمر (بكسر الذال) ج : اذمار . شجاع . وقد يفهم منه معنى آخر يقصد به المحارب القوي والخصم اللدود .
(145) العداوة . آخذين بالثأر .
(146) ج عيبة : صندوق .
(147) ج أسفاط : صندوق تضع فيه المرأة حليها .
(148) لعلّه يقصد به الخمار .

وكانت أبدع الهوادج هوادج مولانا الخليفة الإمام ، ثم هوادج المولىٰ أبي زيان فرع الخلافة الرفيعة المقام ، ثم هوادج الوزراء وخواص الخدّام ، كالوزير أبي علي الحسن بن عمر الفودودي ، وثقة الدار الكريمة الشيخ أبي عثمان سعيد بن موسىٰ العجيسي ، ووزير المولىٰ أبي زيّان أبي عمران موسىٰ بن عيسىٰ ، وهودج الحمرة بـز وثقة الدار العليّة ، المخصوصة بأتمّ الحظوة وأرفع المزيّة .

ولكل هودج من هذه الهوادج قطار يتلوه ، وبدع من الحسن يجلوه ، على الحالات التي ذكرناها ، والأوصاف التي أشرنا إليها وما استوفيناها .

وأمّا هوادج العرب على اختلاف أفخاذها وعمائرها ، فما أحصيتها كثرة ، ولا أحطت بها خبرة . إلّا أني رأيت منها حدائق تحملها هضاب ، وأنواراً نظيرها سحاب ، ومراقي تعرفها حرائب وحراب ، ومراقب للحسن إليها حياة[149] وذهاب .

هوادج يعلوها نقع المذاكي ، ويطاعن دونها المشكو والشاكي . وخدور تحمي أوانسها القدم[150] المناجيد ، وتظل الجحافل أمامها وهي عباديد[151] . وخدوج لا تعرف إلّا صليل المشرفية مختلية الهام ، ولا تعلم إلّا ركض الجياد قاصدة الجيش اللهام .

وقباب تشاهد دونها استجاز العوالي ، وتتوضّح الطعنات كائنات السعالي ، والضربات في صدور الصدور كأفواه العزالي[152] . يسير بها كل طويل النجاد ضخم الرماد ، راسخ العماد ، أعظم شرفه خدمة ملك الإسلام ، وبقية الخلفاء الكرام . الذي ذلّت لسيوفه الرقاب ، وأثنت على فضله

---

(149) لعلّها جيئة والتحريف عائد إلى النسخ .

(150) من يتقدّم الهودج من الشجعان .

(151) الجماعة من الحرّاس الذين يحيطونها بعنايتهم .

(152) العزالىٰ : ج عزلاء ، شبهها بالقربة العزلاء أو بفم كيس .

الأحقاب . ليث الحروب وغيث الجود ، الناشر للألوية والبنود . الذي لا يضاهي يوم آزدلاف العساكر وآصطفاف العشائر ، والتظاء نيران الحرب الواضحة الشعائر ، أمتع اللّه بملكه الذي أثر المآثر ، وعم بعدله البادي والحاضر ، بمنّه ويمنه .

﴿ فصل ﴾

ولما وادع أهل حضرة فاس المحروسة المقام العلي الكريم المولوي أسماه اللّه وخلّده ونصره وعضده بقلوب غمرت بالمحبّة أحناؤها ، ونفوس امتدّت على موارد الإخلاص أفياؤها . وصدور آنشرحت بالطاعة ، وآحتملت من صدق الولاء أوفر البضاعة . وعيون كادت ترقرق المدامع لولا نظرها إلى الغرّة التي أنست البدر الطالع .

تقدم قاضي الجماعة الخطيب العالِم الأصيل العَلَم الصدر الجليل أبو عبد اللّه محمّد بن أحمد الفشتالي . فقبّل البساط الكريم تقبيل الوداع ، وأحضر أبياتاً من نظمه دلّت على محبّته الباهرة الشعاع ، وإخلاصه الذي تميّز في ميدانه بالخطو الوساع(153) ، وأوجب له كرم الاصطناع . والحظوة التي هي أشهر من النار برأس اليفاع منها :

أيـا ملكاً تحـدّىٰ الركـاب لبـابـه ... ومنه لكف البغي تحدىٰ الركائب
بمثل الذي قدمت من كل صالح ... تـيسر آمــال وتــدنــو مــطالب
وكـل الـورىٰ مثني بمـا أنت أهله ... ولو سكتوا أثنت عليـك الحقائب
فسر في ضـمان اللّه سعدك قـاهر ... وجيشك منصور ، وسيفك غالب
وسعيك في مرضـاة ربّك نـاجح ... وسعي العدىٰ فيما يرومون خائب

وفي يوم النزول بالركن من أحواز فاس ترتبت المحلّات المنصورة ترتيباً أبهج العيون وراقها ، وأبدىٰ العجائب التي عمّت آفاقها ، وسرّ النفوس سروراً

(153) يقصد به الخطو السريع ، ومجازاً هو كرم العواطف والنبل .

ملا نطاقها ، واحتلّ طباقها وأحمد في حلبة الآمال سباقها .

وبينما مولانا أيّده اللّه جالس في مرتبة ملكه ، متشوّف لما يدخل من البلاد في ملكه ، وينتظم من الأقاليم الشاسعة في سلكه . إذ دخل عليه بعض الخدّام المقربين فقال : «يا مولانا نصركم اللّه . العجب أننا لما نزلنا هذا المنزل في السنة التي تحركتم فيها لقتال بني عبد الواد ، وزحفتم بجيوشكم المنصورة لاستئصال أولئكم الأعادي . نزل على مصعد الفنار شمال البرج السعيد طيران من طيور الفلاح ، فوقع تفاؤلكم بهما واستنجحتم بسببها أحسن الاستنجاح ، وبلغكم اللّه القصد الذي توجهتم بسبيله على حسب السؤال والاقتراح . وها فأنظروا إلى طائرين من طيور الفلاح قد نزلا بالموضع الأوّل ، مشعرين بالنصر العزيز والفتح المخوّل ، ونيل الآمال التي لم يكن حديثها بالمؤول» .

فسرّ بذلك مولانا أيّده اللّه مقتدياً ـ في الفأل الحسن يعجبه ـ بنبيّنا الكريم الذي علا في الفخر مرقاه ومرقبه ، صلّىٰ اللّه عليه وعلى آله وأصحابه صلاة ترضيه وتحسبه . فلم يـرَ بعد ذلك والحمد للّه إلاّ ميسر الفتح ، والنصر الكريم المنح ، والظفر بالأعداء أسرع من إجالة القدح ، والرجوع إلى الأوطان ناجحة أموره أعظم النجح ، زاده اللّه من فضله المتكفّل بالربح ، وكافأ ما اعتمده من جزيل العفو والصفح ، والأعمال الصالحة التي جلّت عن الشرح . بمنّه ويمنه .

﴿ فصل ﴾

ولمّا وصل مولانا أيّده اللّه تعالىٰ إلى تازا وصولاً فخماً ، وقدم عليها بالجيوش الجرّارة قدوماً ضخماً . أقام هنالك حتى تكامل مجيء الناس من جميع الجهات ، ووفدوا على الباب الكريم طائرين بأجنحة العزمات ، صامدين إلى مواطن التواقف والثبات . راكبين صهوات الجرد المطهمة ، والهماليج المسومة ، معتقلين للسمر الرديبية المقومة ، متقلّدين للبيض السريجية المحكمة .

وكان ممن تكاملوا في الوفادة ، ووصلوا على أكمل الهيئات المرادة العرب جشم على اختلاف أفخاذهم ، وعمائرهم معتمدين بيمن طائرهم ، ونجاح مواردهم ومصادرهم .

فآقتضىٰ النظر الكريم أن يميّزوا بتلك الأباطح المتّسعة تمييزاً ، ويعرضوا بتلك المسارح الرحيبة عرضاً عزيزاً . ليقرّ عين الإسلام بمن جمعه حامي دماره ، ومجمع شمل أنصاره ، الرافع لمناره ، الذاب عن حوزته وأقطاره . ويراع أهل الشرك بما للمؤمنين من فضل الاستعداد ، ووفور الأعداد ، وآستجمامهم لإحياء رسم الجهاد ، وإقامة سوق الجلاد ، وعضد[154] شجرة الفساد ، وإضمام صدىٰ العناد .

وأمر أيّده اللّه فضربت له خباء بأعلىٰ الربوة التي وقف بها يوم هزيمة آبن أخيه منصور ، ووثب فيها عليه وثبة ليث هصور ، وآنقضّ عليه آنقضاض العقاب الفتحاء على عصفور . فأخذ منه بالمخنق ، وصدع جيوشه صدع القدح المخلق . وفراها بالسيوف فري البرد ، وآنتشر في سوادها فاتكاً انتشار الشرار عن الزند، عناية من اللّه تعالىٰ بخليفته في أرضه، ووليّه القائم بسنّته وفرضه ، ولطفاً بالإسلام وأهله ، وتكيّفاً جليلاً لم يأتِ الدهر بمثله .

ولما آصطفّت للميز صفوف الكتائب في جميع تلك الأقطار ، وآمتدت آمتداداً ذوائب الصبح عند الأسفار ، وكادت تكاثر النجوم الطالعة في أرفعة الفلك الدوّار . أمر أيّده اللّه جموع كتّابه أن يقتسموا تلك القبائل لإثبات أسمائهم في أزمّة الأعطية الوافرة ، وجرائد الجرايات المتكاثرة .

وأشخص خواص الدولة وعظماءها للإنهاض في تلك الأعمال والإشراف على معرفة[155] تلك الأحوال ، والقيام بواجب تلك الخدمة الحميدة المنال . فبادروا إلى الاعتمال في ذلك حتى تكامل الغرض ، وتوفر النهض .

(154) كذا في الأصل .

(155) كلمة غامضة عوضناها بما يناسبها .

وتحاجزت الجموع وتبين التابع والمتبوع .

ثم ركب مولانا أيّده اللّه من خبائه ، وآنصمّ عليه موكبه الذي استمدت الشمس نور بهائه . وأمر أن يعرضوا عليه قبيلاً بعد قبيل ، ورعيلاً على أثر رعيل . فتقدّم أولاً قبيل الخلط أخوال مولانا المرحوم أبي سعيد الذين لهم في العرب مزايا التقديم والتفضيل ، والمراتب المشرّفة الهادي السامية التليل . فلم يرَ في جشم أبدع من هوادجهم وقبابهم ، ولا أفخم من دروعهم وأحسن من أثوابهم .

ثم أتت بعدهم القبائل على أكرم الحالات التي تكون عند النهود للحروب . والصمود بالبيض المدرية الحدود ، والسمر المنسوقة الكعوب ، كأنّهم البحار المتلاطمة الأمواج ، والليل الذي أتت اليلامع[156] فيه بالسراج الوهّاج .

ولما استوفىٰ الاجتياز ، وتم الميز وكرم الامتياز . أتىٰ أُمراء العرب ووزراؤهم صحبة المقدمين عليهم من خواص الدولة العلية ، ماشين على الأقدام ، مستنزلين عن جيادهم المحمودة الإسراج والإلجام . فقبّلوا الركاب العلي وآجتلوا البدر الحلي .

فبسط لهم أيّده اللّه من بشره وخصّ كلاً منهم بما يليق به من شكره ، وحمد اللّه على ما وهبه من بسطه الملك ، والإيالة التي أبرّت على العرب والعجم والترك ، وآنصرف إلى قصره الكريم بتازروا منشرح الصدر ظاهر الأمر . موقناً بالفتح الذي تتسّق بجيد الدهر أسماطه ، والنصر الذي تلوح تباشير صبحه وأفراطه[157] .

ولم ينشب أن جدّ في الحركة المباركة التي ملكت أزمّة النجح ، ومقاوده ، والوجهة الكريمة التي أوضحت صلاة السعد :

---

(156) ج يلمع . بفتح الياء والميم . البرق .
(157) بوادره .

القـاتـلات العـمـد إلاّ أنّهـا   لم تلوِ من صلف على الأعـذار

وقال الفقيه الكاتب الأعرف المجيد أبو الحسن ب مصادف رحمه اللّه تعالىٰ :

هـدرت دم العشّاق بين قبابها   فحـذار من تلك الظبـاء حذار

وقال الفقيه الكاتب أبو العبّاس أحمد بن أبي شامة :

يبـدون كالأزهـار راقت منظراً   وخـدورهن كمـائم الأزهـار

وقال الكاتب أبو العبّاس بن النعمان :

والعابثات خلال ميدان الهوىٰ   بفـوارس الألبـاب والأفكـار

وقال مؤلّف هٰذا الكتاب إبراهيم بن الحاج :

والظاعنات قدودهن بني الوغىٰ   بين الصـوارم والقنـا الخـطار

قال إبراهيم بن الحاج المذكور أيضاً :

فكـأنّما الأجفـان أجفان الـظبا   وكـأنّمـا الأشفـار حـدّ شفـار

قال إبراهيم بن الحاج : ولما وقف مولانا أيّده اللّه على مجموع هذه الأبيات لم يستحسن منها إلّا هذا البيت الأخير ، وأولاه القبول الذي ينسي ريح القبول ، نافحت الروض النضير ثم وقع استحسانه لبيت الشريف وهو الذي أوّله (تضمين حبّات القلوب بأسهم) . فأشاد رضي اللّه عنه بتفضيله ، وتلقاه بتتميم الشكر وتكميله وعرف لكل حقّه في الإجادة ، وشملت البركات التي أطلعت وجود السعادة .

﴿ فصل ﴾

وفي يوم الجمعة المذكور كان نزولنا بعيون القصب ، ولا عين إلّا وقد قرّت ، ولا صدر إلّا وقد أناخت به المسرّات واستقرّت . وبينما مولانا أيّده اللّه

في مجلس ملكه ، ونحن بين يديه وأبصارنا محدقة إليه ، وهو متفكّر في أحوال من بالشرق من البغاة الذين شهروا سيوف الفتن ، وأجنفوا[158] عن النهج الواضح والسنن ، والحسّاد الذين خبثت بطانتهم وظهارتهم ، وعظمت للحرب العوان إثارتهم . إذا بكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني قد وصل إلى الباب الكريم ووفدت منه خزانة آداب هي أبدع من الدرّ النظيم ، فتناول أيّده اللّه منه سفراً سر سفراً ، وفتحه على وجه التفاؤل الذي أبقىٰ في بطون الأوراق ذكـراً ، فلم تقـع عينه الكـريمة إلاّ على هـذين البيتين وهما من قصيـدة لأعشىٰ همذان وهي هذه:

بجنـــد أميـــر المؤمنين وخيله   وسلطانـه أضحىٰ معانـاً مؤيّداً
ليهن أميـــر المؤمنين ظهـــوره   على أمّـة كانت طغـاة وحسداً

فشكر اللّه على ذلك مولانا الذي رحم اللّه به البلدان ، وزاد إمضاء لعزائمه التي ظاهرت الإسلام والإيمان .

وكان بالبساط الكريم الشيخ الفقيه العدل الأديب أبو محمّد البرطال أحد شهود البيت فأنشد ارتجالاً مبلغاً بالسرور آمالاً :

تهنـأ بـزجـــر يـا خليفـــة ربّنـا   يبلغك المقصود واللّه فـأحمدا

وعلى أثر ذلك تسابق الأصحاب في ميدان النظم والتوطئة على هذين البيتين اللذين أحييا للإجادة أوضح الرسم فأتوا في ذلك بقصائد تفتحت عن كمائم الأفكار زهراً ، وطلعت بسماء القراطيس زهراً ، وثنت قدود الأقلام وقد كادت تميل سكراً . فمما حضرني الآن من ذلك قول الفقيه الحسيب الكاتب البارع المجيد أبي عبد اللّه العزفي[159] :

لـك السعد بـالآمـال أصبـح مسعـداً   فـلا زلت تعدو كـل حين على العـدا

---

(158) مالوا عنه .

(159) من أسرة العزفيين المشهورين بالعلم والوجاهة (أمراء سبتة) . راجع في الموضوع مؤلّفنا الحياة الفكرية على عهد المرينيين والوطاسيين (99-108) .

وعلياك شمس قد أنارت فطالما | بها أوضح اللّه السبيل إلى الهدىٰ
سريت بحزم تنشر العدل في الورىٰ | وتطوي بساط الجوز ممن قد اعتدىٰ
إلى وطن الأعراب في الشرق كي ترى | تصد الذي منهم لظلم تعمدا
وظل لسبل الحج بالجور قاطعاً | فضلل عن ذاك السبيل من آهتدىٰ
وبالعسكر الجرار دوخت أرضهم | فملكتها بالبأس فيهم وبالندىٰ
إلى وطن قد كان بالجور خالياً | فأصبح معمور النواحي ممهدا
ولما أخافوا السُّبُل يمّمت أرضهم | وصيرت حرب القوم فرضاً مؤكّدا
فراعتهم تلك الكتائب إذ أتت | تجر قناة أو حساماً مهندا
وجاؤوك أفواجاً يرومون بيعة | فمدّ بعون اللّه للبيعة اليدا
بجند أمير المؤمنين وخيله | وسلطانه أمسىٰ معاناً مؤيّدا
ليهن أمير المؤمنين ظهوره | على أمّة كانت بغاة وحسدا

وقال الفقيه الكاتب البارع الشاعر المجيد أبو العبّاس بن عبد المنّان(160):

إليك وإلاّ لا طوىٰ الركب فدفدا | عليك وإلاّ ما الثناء مرددا
وعنك وإلاّ ما المآثر والعلا | ومنك وإلاّ ما المواهب والجدا
أفارس يا أعلىٰ الملوك مناقباً | وأعلاهم كعباً وأطولهم يدا
ملكت فأوسعت البلاد وأهلها | أماناً ومنّاً بالحماسة والندا
وصلت شديد البأس لا شيء تبتغي | سوىٰ أن تقيم الحقّ في الأرض مرشدا
توجهت منها رحلة سام ذكرها | جفون العدا بالشرق يوماً مشردا
وأقصدته عن عزمة لك لم تكن | لتكفل قطراً ثم تتركه سدا
ولا قصد إلاّ أن تقيم على التُّقىٰ | قواعد هاتيك البلاد وتقعدا
وأن الذي يممتها قصد وجهة | ليصحبك التأييد دأباً مؤيدا
فتأخذ بالثأر العداة وإنها | لعادة صديق منك تعرفها العدا

---

(160) الأنصاري الخزرجي : (?-792) أحد كتّاب الدولة المرينية المرموقين راجع ابن الأحمر «نثير الجمان» (ص : 314-315) .

ولـو رزقت فضـل الخـطابـة بقعـة بهـا نحن قضت قبل من ذاك مشهـدا
وفتكـة بـأس منـك لم يثن قصـدهـا لهـام العدىٰ من كـل أشـوس أصيـدا
ومهمـا توخىٰ النصـر جيشـك منهمـا بـرايـاتّـه أنىٰ تـوجهـت منـجـدا
فـثق بـالـذي مـنـه تعـودت أنـه (لكـل آمـرىءٍ من دهـره مـا تعـودا)
ومـا بـرحت آيـات سعـدك تجتلىٰ لـديك إيّاه النصـر مثنىٰ ومـوحـدا
وحسب عـلاك اليوم فـألاّ على الظبـا ضمـان بـأن تجلىٰ بشـائـره غـدا
بـجنـد أميـر المؤمنيـن وخيـله . وسلطانـه أضحىٰ معـانـاً مـؤيـدا
لـيهـن أميـر الـمـؤمـنـين ظـهـوره عـلى أمّـة كـانت بـغـاة وحسـدا

وقال الفقيه العدل الكاتب أبو العبّاس بن النعمان:

دعتـك لنصـر الـدين عـاديـة العـدا على أمّـة تـدعـوك مـولىٰ وسيـدا
تمـديـد الآمـال تـرجـو تخلّصـاً وقـد نشبت في حبل من حـار واعتدا
بهـا ظمـأ للعـدل لم لا ولـم تـرد على بعدها من عدلك الـدهر موردا
لـك الفضل إن أوليتهـا نيل مـا رجت وأنفـدت سهمـاً لـلأعـادي مسـددا
سعيت لهـا تفـري الفـلا[161] سعي مهتـدٍ إلى نصـرهـا واللّه هـاد من اهتـدىٰ
وبين يـديـك الـذكـر للخلق مـرشـد فـأعـظم بـه من مـرشـد أم مـرشـدا
كففت أكف البغي عنهـا ولم تـدع لـذي ثـورة منهـا لسـانـاً ولا يـدا
تنـاولت بـاليمنىٰ الكـريمـة دفتـراً بـه حسن فـأل فيـه سعـد تجـددا
بـجنـد أميـر المؤمـنيـن وخيـله وسـلطانـه أمسىٰ معـانـاً مـؤيّـدا
لـيهـن أميـر الـمـؤمـنـين ظـهـوره عـلى أمّـة كـانت بـغـاة وحسـدا
ألا إنّمـا المـولىٰ الخليفـة فـارس بـه تصلح الـدنيـا ويعتضـد الهـدا
فـلا زالـت الأيّـام تـوليـه دائـمـاً من النصـر والتـأييـد مـا قـد تعوّدا

وقال مؤلّف هٰذا الكتاب إبراهيم بن عبد اللّه بن الحاج قصيدة أوّلها:

سـرىٰ وعيون الشهب تشكـو التسهدا خيـال على الأكـوار قـد زار مكمـدا

---

(161) ج فلاة .

ومـــا راعـــه إلاّ الـــصـبـــاح كـــأنّـــه حسـام بغمد الليـل قـد كـان مغمـدا
وومضـــة بـــرق ألبس الخـــد فضّـــة من الـدمـع كـما ألبس الأفق عسجـدا
عـجـبـت لـــه طـيــفـــاً ألـم ودونـــه مهـامه لم يعـرف به العيس مـوردا[162]
وأهـوال حرب يمنـع القضب ذكرهـا إذا هــبّـت الـــنـكــبـاء أن تـتـأوّدا
إلاّ أسـدت الأحلام في سنّـة الكـرىٰ يـداً مد شكـري كل شكـري لها يـدا
خـــلا إنني لا الـوجـد يبـرح لا ولا غـرامي إذا فكـرت في فـرقـة غـــدا
ألا أنس الـــلّـه الـقـبـــاب وفـتـيـــة إذا هـاج بـرح الحب أعــطوه مقـودا
طـوالع أنجـاد الهوىٰ حـالفوا الهـوىٰ فـأبقـوا لـه عهـداً كــريمـاً ومعهـــدا
أنـــاديهم لا السمـــع مـــلّ حــديثهم ولا العين أغضت أو ترىٰ الحسن قد بدا
ومـــا أنـــا والـــسلوان لا در در مـــن تـقـلّـد مـــن سـلوانـــه مـــا تـقـــلّدا
أقـول وقـد هبّت لنـــا نسمـة الصبـــا فألقت حديث الشـوق للركب مسندا
وقـد طلعت خوص الـركـاب كـأنّهـا سيـــوف تقـد البيـــد مثنىٰ ومـوحـــدا
رويـــدكـم حتـى تفيض دمـــوعـنـــا على السفح سفحاً أو يرق لنا الصـدا
وحتى نســـوم الـربـــع نـار صبـــابـة تـــوقـد منهـــا بـالأسىٰ مـــا تـــوقـــدا
ومـا الوجـد إلاّ أن تلوح بذي الغضـا خيـــام على أطنـابهـــا الـــدر نضـــدا
من المـطلعات البيض تلتـاح كالـدما أوانس تصمين الكمي[163] المســـردا
بعثن الهـوىٰ نحـو القلوب بـأسرهـا فـــأسبـــابـــه تـــزداد غيبـــاً ومشهـــدا
كـأنّ الهـوىٰ جـــود الخليفـة فـــارس إذا قيـــل عم الـخلق طـراً تـــزيـــدا
إمـام الهدىٰ المـرجو مـا فخـر العـلا بـأسعـد منـــه في الـزمـان وأصعـدا
شديد على الأعداء ما ابن مكرم[164] بـأشجـع منـه في الحـروب وأنجـدا
ومـا كـل من حثّ الخيـول يسـرهـــا ومـــا كـــل من أجرىٰ بها بلغ المـــدا
تقي لـــه العقبىٰ فـلا السعي خـــائب أبـىٰ الـلّـه إلاّ أن تـنـــال وتـحـــمـــدا
وفعل الفتىٰ كل على المجـد والعلىٰ إذا كـان عن تقـوىٰ المهيمن مبعـــدا

---

(162) نوع من الإبل البيض التي يخالط بياضها شيء من الشقرة .
(163) الشجاع المتغطي بسلاحه وبدراعه .
(164) لسنا نعلم هل يقصد محمد بن كرام إمام الكرامية أم محمّد بن مكرم .

كـريم بشمـل الحمـد ظـل مجمعـا ... وللشمـل شمـل المـال ظـل مبـدّدا
وخيـر من المـال الجزيـل لكـاسب ... ثـنـاء عـلـيـه لا يـزال مـخـلدا
وما تعرف الأوصاف في شرف سوىٰ ... إذا قسمت بين الشـجـاعـة والنـدا
وخيـر الـذي أعـددت حسن تـوكّـل ... على اللّه بـالتـأييـد أنجـح مقصـدا
ومن بيّنـات النصـر وجهتـك التـي ... أدانت لساري الرعب قلب من اعتدا
زحفت إلى الأعـداء في عـرض فيلق ... تـرىٰ البحـر فيـه بـالأسنّـة مـزبـدا
وقـدت لهم تحت العجـاج كتـائبـا ... تعيـد كـأمثـال التـهـائم أنـجـدا
ووجهت جنـداً يزحفـون إلى الـوغىٰ ... على كـل ممسـود النـواشـر أجـردا
وصـلـت بـسـلطان تـذل لـعـزّه ... ملوك الورىٰ من كل أشمخ أضيدا[165]
ولـمـا أراد الـلّه أن يـعـرف الـذي ... يؤول إليـه الأمـر في حـربـك العـدا
هـداك لأخـذ الفـأل والفـأل معجب ... كمـا جـاء عمّن جـاء بـالنـور والهـدا
فقـام خطيب الكـون نحـوك سـاعيـاً ... ووافاك كالأعشىٰ على القـرب منشدا
بـجنـد أمـيـر المـؤمـنـيـن وخـيـله ... وسـلطانـه أمسـىٰ معـانـاً مـؤيّـدا
لـيـهـن أمـيـر الـمـؤمـنـيـن ظـهـوره ... عـلى أمّـة كـانت بـغـاة وحـسـدا
وزاد بيـانـاً قـولـه فـآستمـع لـه ... حـديثـاً عن السـرّ اللطيف مـردّدا
أبـىٰ الـلّه إلاّ أن يـتـمـم نـوره ... ويخمـد نـار الفـاسقين فتخمـدا
بـقيـت ونـور اللّه يـهـديـك للتـي ... تنـال بهـا عـزّاً جـديـداً وأسعـدا

﴿ فصل ﴾

وفي يوم السابع عشر لجمادىٰ الآخرة تذكّر مولانا أيّده اللّه أيضاً إلى[166] ما يكون عمله في أحوال الأشقياء ، وإمضاء ما دان اللّه به من أخذهم بعظيم الاجتراح والاجتراء ، وما ظهر من فسادهم الذي افنضاه الأجزاء في الخلاء ، ويعدّ الجيوش التي تصدّع شملهم صدع زجاجة الصهباء ، ويتركهم يشكون

---

(165) كذا في الأصل .
(166) كذا في الأصل .

من سيوفها حرّ الرمضاء ، ويرون عن صعب[167] أحاديث الهيجاء .

وكان بين يديه الكريمتين جزء فيه للحسن كل ، مودع من مروياته الشريفة ، وما تكرّم به نهل وعلّ ، ويُقال إنه وابل لا طلّ[168] . فتشوّف لأخذ الفأل فيه ، والاعتمال في استطلاع طلع أمانيه . فخرج له قول آبن خميس[169] في قصيدته العينية التي فجّرت أرض البلاغة عيوناً ، واستخرجت من درر الإجادة ما كان مخزوناً ، وشهدت بالإبداع الذي كان دليله معلوماً لا مظنوناً :

آتبع عداك إلى أقصىٰ مفازعهم	إن خلّصت منك ذا جرم مفازعه
جيش كثيف كثير الخلق محتفل	جمّ الصواهل لا يلويه خازعه
مثل الرمال إذا هيلت كتائبه[170]	وكالأسود إذا هيّجت سلافعه
إن جاب سهلاً أثارته سوابغه	أو جار حرباً ألانته موالعه
وإن تيمم أرضاً وهي هادية	هزّت هضاب رواسيها قعاقعة
فرقت شمل العدىٰ فآجمع بمقدمك	الميمون شمل سرور أنت جامعه

فسرّ أيّده اللّه بذلك سرور من حظي ببلوغ الآمال ، ونطقت بتيسير أموره ألسنة الأحوال والمقال ، فلم تحم عداته منه المعاقل المنيعة والمصانع ، ولا خلصت ذا جرم منهم الملاوذ والمفازع .

وزحف بجيشه الكثيف الكثير الخلق ، فنصر كلمة العدل والصدق ، وفرّق شمل العدىٰ تفريقاً ، ومزّق إهاب هيبة بلادهم تمزيقاً . وأتىٰ بالفتح الذي تكفّل بآنشراح الصدور . وإقرار العيون ، وجمع شمل السرور على اثر ذلك التفريق بمقدمه الميمون ، والحمد للّه حمداً يعود بالهدىٰ والهدون ، ويتكفّل بالأجر غير الممنون . بمنّه ويمنه .

---

(167) هل يقصد به المنذر بن ماء السماء؟ .

(168) مطر غزير ، شديد لا مطر ضعيف . كناية عن كرمه وخلقه .

(169) محمّد بن عمر (625-708 هـ) الأديب الشهير ، ديوانه : الدرّ النفيس في شعر آبن خميس .

(170) إذا صبت وتفرق ما اجتمع منها .

﴿ فصل ﴾

وفي يوم التاسع عشر لجمادىٰ الآخرة كان بين يدي مولانا أيّده اللّٰه الكتاب العزيزي في تفسير غريب القرآن[171] وهو مما أكثر مطالعته في كل الأحيان ، واستحضر معانيه التي برزت في شأو الإحسان . ففتحه أيّده اللّٰه أخذاً للفأل ، واستنطاقاً لألسنة الأحوال . فلم يقع بصره الكريم إلّا على قوله تعالىٰ : ﴿وتكون لكما الكبرياء في الأرض﴾ أي الملك فسر بذلك وشكر اللّٰه عليه ، وأيقن بما عوده من النصر الذي هرع إليه ، والفتح الذي لم تلق مقاليده إلّا بيديه ، فبلغه اللّٰه فوق ما أمل ، وجلالة الصنع الأجمل ، والمكيف الأبدع الأكمل ، وعرفه بركة التوكل عليه في السر والعلانية ، وأظهر سريرته الصالحة في نصر الملّة المهديّة الهادية ، والنظر للمسلمين الذين سعدوا بإيالته الواطدة القدم السامية ، ودولته التي هي الكافلة الكافية ، الباذلة للإله الهاملة[172] الهامية[173] .

أبقاه اللّٰه في سعادة يخشع لها سمع الأرض وبصرها ، وعزّة يروي عن المعدل من رماحه والموثق من سيوفه خبرها ، وأدام أيّامه التي هي الرياض إلّا أن المعالي زهرها ، والبحار إلّا أن المحاسن دررها .

ذكر قدوم الوفود من عرب رياح، ووفادتهم التي لقوا بها النجاة والنجاح :

ولمّا أجاز مولانا أيّده اللّٰه المدية بمنازل جرت للمسرّات أذيالاً وأرداناً ، وأطلعت وجوه الجذل مثنىٰ ووحداناً ، وأقرّت برؤية بحر الجود أجفاناً ، وراقت بأنوار البشائر التي ازدادت إيضاحاً وتبياناً . وصل إلى الباب الكريم

---

(171) لأبي بكر محمّد بن عبد العزيز العزيزي السجستاني . وعنوان تفسيره «نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن» (وهو على شكل قاموس) .

(172) الفائضة .

(173) السائلة .

يعقوب بن علي بن أحمد بن عمر بن محمد بن مسعود بن سلطان شيخ رياح المخصوص بالوجاهة والاعتناء ، المقدم على الخاصة من عشائره والدهماء .

وقدم معه وجوه القبائل ، وزعماء الفصائل ، وأشراف العرب وسادتهم ، وأمراء أولاد هلال بن عامر وقادتهم ، ومعهم حواشيهم وغواشيهم ، وطوائف من لفيف الأعراب المنتمين إلى بواديهم ، المتعاونة أيديهم بأيديهم المتحالفين على دفاع أعاديهم ، المتعاقدين على إقامة عزمهم ، وعمارة نواديهم . فمتوا إلى مقامه الكريم بوسائل الخدمة والانقطاع ، ووصائل الخلوص المرضي الاستتباع ، والتشيّع المحمود الانتجاع ، ولزوم نهج الطاعة على بعد الأقطار والأصقاع ، والتحيّز إلى حزبه المفلح الذي له شرف الأحساب في سبيل التقوىٰ والإيضاع .

فرعىٰ مولانا أيّده اللّٰه متاتهم ، وغمر بالمسرّات أوقاتهم ، وأجزل لهم الحباء[174] ورادف عليهم النعماء ، ووسّع لهم في العطاء ، وعوّض شدّتهم بالرخاء . وأمر لهم بالكسوات التي راقت بها أعطاف الزمان ، والسيوف المحلاّة باللجين والعقيان . إلى غير ذلك من السروج المذهبة ركبها أحسن التذهيب ، واللجم العجيبة التي رتّبت صنائعها أحسن الترتيب .

كل ذلك كفاء لما أسلفوه من الخدم ، وأظهروه من المناصحة المرعية الذمم . لا رغبة في الاستعانة بهم على الأعداء ، ولا احتياجاً إلى التعاضد بهم عند احتدام الهيجاء ، وإدارة رحىٰ الحرب الزبون على رؤوس الأشقياء ولا استكثاراً بجموعهم التي فاقت مدىٰ الإحصاء ، وأراعيلهم التي ضاقت عن مزاحفها صدور البيداء .

إلاّ أنهم صرفوا إلى أوطانهم ، وأوصوا بحفظ أديانهم ، والأعمال الصالحة في كل أحيانهم . وأمروا بلقاء الركاب العلي إذا أطلّت على قسنطينة أعلام الخليفة الإمام ، وقدم عليها في جيوشه التي أثقلت كواهل الأكام . وأوعز إليهم بأن يكفّوا الأيدي عن التعرض إلى الأوطان ، ويعاملوا الرعايا بالسير المرضية الإسرار والإعلان ، ويكونوا أرصاداً لمن خوف الطريق من أهل

العدوان ، وقطع الطرق التي رفعت بها أعلام الاطمئنان .

وكان يعقوب بن علي المذكور ممن كانت له السوابق الحسنىٰ في خدمة هذه الإيالة الرحمىٰ ، وممن عرفت أوليته التي لم تزل أخبارها تنمىٰ ، وأناف علىٰ نظرائه في المناصحة لهذه الدولة العظمىٰ . ففاز من الحظوة بالقدح المعلّىٰ ، وبرز في حلّة الظهور علىٰ اخوانه وجلىٰ . واستجزلت لحاظه من التقريب والتنويه ، واستوفرت أقسامه من إنالة العزّ الصحيح التوجيه .

ولم يزل مشكور الكدح والسعي ، مرضي التصرّفات محمود الرأي ، إلى أن ظهرت منه في هٰذه الوفادة أحوال دلّت على نزارة عقله ، وآنبتات حبله ، وتراقىٰ الجهل به إلى أقاصي سبله ، واشتماله بالخرق الذي ما كان في شيء إلّا وشانه ، والحمق الذي ما كان في آمرىء إلّا وخفظ قدره وشأنه .

ومن ذلك أنه أعطاه مولانا أمير المؤمنين أيّده اللّٰه كسوة فـاخرة من الكسوات التي باشرت جسمه الطاهر ، ولابست شرفه الباهر حتى حسدتها السحب التي وارت القمر السافر . وجال في جنباتها الندّ والعنبر والورد وسائر الطيوب التي حكاها بالشكر أمامه الحمد . فالمجالس تروي منها عن العنبري والنوادي تظهر فيها التيان الطيبي .

فآقتضىٰ نظر ذلك العربي الجلف أن أعطاها لابن أخيه محبوب بن أبي دينار ، ولم يقدّر حق ذلك التشريف الذي يبقي كل فخار . فكان ذلك أوّل ما نقم عليه ، ومفتح الآراء الفائلة المنسوبة إليه .

ثم ظهرت منه أقوال دلّت على خبث سريرته ، وآنطماس بصيرته ، ومشنوء جريرته[175] . فآحتمل له ذلك مولانا أيّده اللّٰه جرياً على عوائده الكريمة في الحلم الذي لم يحلم أديمه ، والصفح الجميل الذي كرم في

---

(174) العطاء ، الكرم .

(???) كذا في الأصل .

(175) كذا في الأصل .

مناهج التقوىٰ وخدّه[176] ورسيمه . وآستصغر ما صدر عنه في جناب الرعي لمناصحته القديمة وخدمته المستقيمة ، ومشايعته التي أوجبت الحرمة ولم ترع بالجريمة .

وصرفه أيّده اللّٰه إلى وطنه ، ضافي رداء الإعزاز ، مثقل الحقائب بالنعم المضمونة النجاز ، ممتازاً بفضل التبدية والتقديم أحسن الامتياز . ساحباً أذيال الخيلاء ، أشمخ من النعمان بن المنذر بن ماء السماء[177] . أشد تعاظماً من بسطام بن قيس[178] في جاهليته الجهلاء .

فلم يزل يبحث عن حتفه بظلفه ، ويجدع بكفه مازن أنفه ، حتى حقّت عليه كلمة الطرد ، وطوحت به طوائح البعد . وطبع اللّٰه على قلبه وكدر ما صفا من شربه . وأدال سعادته بالشقاوة ، وصداقته بالعداوة ، وسلب عنه كرم الدناوة ، والعزّ الكريم العفاوة . فلم تقله أرض ، ولم يتلقه حيث حل إلاّ بغض ، ولا استزاره بعد البسط إلاّ قبض ، ولا دخل آسمه بعد الرفع إلاّ خفض . وسيأتي بيان السبب في ذلك مستوفىٰ الإيراد مسترجحاً في فسطاس الانتقاء والانتقاد . إن شاء اللّٰه لا ربّ سواه ، ولا معبود إلاّ إيّاه .

وبعد انصراف يعقوب بن علي وفد على الباب الكريم شيوخ أولاد يحيىٰ بن دريد بن مسعود بن سلطان ، وإخوانهم أولاد ميمون وغيرهم من الأعراب مستحثّين للخيل والركاب ، مجتابين برود السراب ، صادعين لأكباد القفر اليباب ،[179] قد علّقوا آمالهم بالملك الرفيع الجناب والخليفة الإمام الذي هو صاحب الحرب والمحراب ، والسلطان العادل الذي عمّ الخلق بآلائه الرغاب ، وأخلصوا الطاعة لإيالته الزاكية النصاب ، ومملكته التي أدار السعد أفلاكها على أثبت الأقطاب .

---

(176) أثره .
(177) آبن امرىء القيس من أشهر ملوك الحيرة ، راجع الزركلي . الأعلام . ج 9 ص : 10 .
(178) آبن مسعود الشيباني (ت حوالي 10 هـ) يضرب المثل بفروسيّته .
(179) الخراب .

فتلقّاهم أيّده اللّه بالقبول والإقبال ، ولم يصرد عطاياهم الكريمة المنال . بل شملهم بالإحسان ، وسفر لهم رضاه عن الأوجه الحسان ، ورو عيت خدمتهم التي جروا بها في ميدان الإخلاص ملء العنان .

ولم يروع جميع وفود العرب إلاّ ما شاهدوه من الجيوش التي ملأت الأرض حزوناً وسهولاً ، والكتائب التي فاضت على البسيطة سيولاً ، وأرسلت كالرياح الهوج خيولاً . إلى ما خبروه من عزائمهم التي وجفت بها بوادر الأعداء وصرائمهم التي عقدت جواراً للهيجاء ، وحفائظهم التي كاد صرافها يودي باليزنية السمراء.[180] .

وما ذعروا بأعظم من اقدام إمام الهدىٰ الذي طلقت سيوفه الأغماد ، ولم تعرف رماحه إلاّ الطعان كما فتح الساقي المزاد ، وحدث البروق العهاد.[181]

أمتع اللّه المسلمين بأيّامه التي آثرت الجهاد ، وبلغ الدين بهديها الصالح ما أراد .

وصول أهل بجاية برسم السلام، والمبادرة للقاء مولانا الخليفة الإمام :

ولما اجتاز مولانا أيّده اللّه على وطأ حمزة[182] في جيوشه ، وكتائبه ، التي تركت بيت البغي خاوياً على عروشه ، لحق بركابه العلي أهل بجاية في موكب غصّ بفقهائها الأعلام ، ووجوهها الذين رأوا بهذه الإيالة العالية حسنات الأيّام ، وأمنائها الذين نامت عيونهم تحت ظلال العدل الثابت الأحكام . وأتوا في زي رائق الجمال وشارات حسنة الاكتمال .

ولم ينشبوا أن نزلوا يمشون أمام البدر الذي آتخذ الطرف في الوافدين

---

(180) كذا في الأصل .

(181) يقصد بها العماد أو العهاد؟ كذا في الأصل .

(182) غير واضحة .

أفقاً ، والغيث الذي جعل نور بشره له برقاً . والروض الذي تحمّلت طيب شذاه رياح ، والبحر الذي أرىٰ منشآته لكنها كتب فصاح ، والليث الذي إتّخذ مناشب القنا غيلة لكنه مهما ملك فله استجاح(*) .

فقبّلوا الركاب الذي تشرّفت الملوك بتقبيله ، ولثموا مواطيء طرفه الذي أطرب الحرب بصهيله . وأدُّوا حقّ الخلافة التي طاعتها حكم مشروع ، وحبّها عمل صالح مرفوع ، والخير بإزائها لا مقطوع ولا ممنوع .

فتلقّاهم بالقبول الذي راقت مباسمه ، والإقبال الذي طابت نواسمه . وأسبغ عليهم ملابس الاعتناء ، وأخلالهم مطاف الارعاء ، وأراهم البديع لكن من الكلام والرفيع لكن من الاحظاء ، وآستحسن استباقهم إلى اللقاء استحسان الروضة الغنّاء ، لما تساقط من درر الأنداء .

وأمر أيّده اللّه بإنزالهم ، واستصلاح أحوالهم وإناطة حلى الاسعاد بأجياد آمالهم . وأقاموا بالمحلّة المنصورة ليلة مسكية اللون والعرف ، منيلة للأماني الزكيّة العرف .

فلما نشر الصبح لواءه ، وطوىٰ الليل رداءه . وآن أن ترفع الأعلام ، وتقوض الخيام ، ويعتقل الرديني(183) ويتقلّد الحسام . وتقرع الطبول ، وتستجرى الخيول . ويركب الخليفة في موكبه الذي خضعت له الأملاك ، وأضاءت بوجوه أهله الأحلاك . دعوا للوداع ، وأشعروا بحسن الاصطناع ، والنظر الجميل الذي يطابق كرم الطباع ، والمعالي التي هي أشهر من النار برأس اليفاع(184) .

وأمروا بالاستعداد للبروز ، وإيضاح سرّه المرموز ، وأن يكونوا على أقدام الاستشراف لإطلال الرايات والبنود ، والارتقاب لقدوم الكتائب المكتبة

(*) كذا في الأصل .

(183) نسبة إلى ردينة التي كانت تشتغل بتقويم السيوف وما شابهها .

(184) ما ارتفع من الأرض .

والجنود ، ووصول الخليفة الإمام إلى تلك المدينة التي أغفرت بها بطحاء السعود ، ورحمها اللّٰه بالملك العادل الذي أحيا الوجود بالجود .

وانصرفوا صادعين بالشكر ، مثنين على نِعَم مولانا أيّده اللّٰه ثناء الزهر على واكف القطر . فبشّروا من وراءهم ، وأعظموا بقدوم الركاب العلي سراءهم . ويشروا الناصرية بوفادة الناصر ابن المنصور ، لكنه الذي اعترفت بنو حماد له بالقصور ، وأناف على الملوك بالخلافة الباهرة النور ، والإمامة التي تكفّلت بصلاح الأمور ، أبقاه اللّٰه ظاهر العلم معلوم الظهور ، رفيع منار الفخار إلى يوم النشور . بمنّه ويمنه .

﴿ فصل ﴾

وفي يوم نزول المحلّة المنصورة ببني يمل على أكمل حال من العزّ الذي تفخّم أمره ، والظهور الذي واشج أرحام النصر نجره . آجتاز مولانا أيّده اللّٰه على بني يجر من قبائل زواوة ، فأنهي إلى علمه الشريف أن الشيخ الصالح الولي ذا الكرامات الباهرة الأنوار ، والعجائب المأثورة الأخبار ، والأحوال السنيّة المعروفة قديماً وحديثاً بتلك الأقطار ، أبا عبد اللّٰه محمد بن موسىٰ اليجري(186) .

فوجّه إليه رضي اللّٰه عنه أحد فقهاء مجلسه يطلبه في الاجتماع بمقامه الكريم ، والتبرّك بقدومه على بساطه المحفوف بالإكبار والتعظيم . فلبّىٰ الشيخ نفع اللّٰه به داعي الخلافة ، وأظهر السمع والطاعة لمقامها الفخم الإنافة . فقدم منه بصير بالإسرار بصير ، وبالبرّ والإكرام من الملك الصالح جدير .

---

(185) قلعة بني حماد مشهورة في تاريخ المغرب الأوسط راجع في موضوعها ، وفي موضوع مؤسّسها أ . جوليان : تاريخ أفريقيا الشمالية ص : 64-71 وراجع كذلك بصفة خاصة آبن خلدون : العبر . نشر دوسلان . ج 2 . ص 221-228 .

(186) جملة ينقصها الخبر . النقص راجع إلى النسخ .

فأخلىٰ له أيّده اللّٰه مجلسه المعمور بالدِّين والصلاح ، وأكرم مقدمه إكراماً تكنف جانب النجاح .

ومما عرف من شأن الشيخ أبي عبد اللّٰه اليجري رضي اللّٰه عنه أنه يخبر بأحوال الموتىٰ ومصائرهم ، وما كان من نافعهم وضارّهم . ويبلغ وصاياهم محقّقة بإمارات يعرفها الموصون إليهم ، والذكرىٰ بأسرار لم يطّلع في اكتتامها أحد عليهم . فلم ينازعه قطّ في ذلك منازع ، ولا تعرّض لمقدماته القطعية ممانع ، بل سلّم له في ذلك العالِم والجاهل ، والغفل والماثل[187] . وشهد بذلك فقهاء ذلك القطر ممن آقتدىٰ بهديهم الصالح ، واشتهرت معارفهم الكريمة المنائح . وطاشت فتاويهم في الآفاق ، وانعقدت عليهم المواكب الباهرة الإشراق .

فأُدِّيَتْ بأخبار هذا الولي الصالح عن الموتىٰ ديون ، وأظهر من أحوالهم مكنون . وقضيت لهم حقوق ، وأتيح لهم من كرم الاستحلال وثوق . وآنحسمت أدواء مخاصمات ، ورفعت بوائق مكالمات ، وأقلع عن معاصٍ وهنّات صدرت عن دانٍ وقاصٍ . وأرشد إلى أعمال الطاعة أقوام ، وحفظ لأفعال البر نظام ، والأخبار بذلك مستفيضة شائعة ، والأحاديث متواترة مشهورة ذائعة .

إلّا أنه في أكثر الأوقات يستكتم من يخبره ، ويأخذ عليه العهد في عدم الإفشاء لما يذكره . وقلّما يمضي يوم إلّا وتتلقّىٰ منه عجائب ، وتستكشف من لدنه أخبار غرائب .

فآستخبره مولانا أيّده اللّٰه عن أحوال مولانا أمير المؤمنين أبي الحسن رحمه اللّٰه ، فأخبره بأنه بخير على ما يسر ، وللّٰه عليه نعم تمر الليالي ولا تمر . وآستجلىٰ ما عنده في فتح قسنطينة التي وجهت إليها العزائم وشحذت لتسنم ذراها الصرائم . وأخبره أنه يفتحها ويأخذها أخذاً يحسن أمورها

---

(187) عكس الغفل . أي النبيه .

ويصلحها . وأخبره من أحوال العرب بما نرجو من اللّه تعجيل وقوعه ، وظهوره . في مدارج الاقتضاء وشيوعه . ولهج العيون بمشهوده والآذان بمسموعه ، وآشتمال مقدمة الظفر على محموله وموضوعه .

وآنصرف الشيخ رضي اللّه عنه إلى موضوعه مسرور الباطن ، لاهجاً[188] بذكر الإمام الظاهر المحاسن . مفصحاً له بدعاء ترفعه ملاءة الإخلاص ، وتستقدمه مقامات الاختصاص .

نفع اللّه مولانا بذلك وجعله أعود بالخير عليه ، ولا زال في مزيد السعود التي تحدق أبصارها إليه . بمنّه ويمنه .

﴿ فصل ﴾

وفي هذا اليوم ورد على الباب الكريم الشيخ الفقيه الحسيب أبو عبد اللّه محمد بن إبراهيم بن سلمة الأندلسي خاصة بني مكي وكاتبهم ، ومستودع أسرارهم التي تيسّرت بها مطالبهم . وأوصل بيعة أهل قابس ، وبيعة أهل طرابلس ، وبيعة قفاقس[189] ، وبيعة قرقمة مكتوبة لمولانا أيّده اللّه على الشروط التي ذهبت من الكمال حيث شاءت ، والربوط التي سرت الأحباء والأعداء ساءت ، وتدانت من مشاهد الإخلاص وما تناءت .

مودعة كل فضل آثر الشرع حصوله ، ومعنى لاحظ الحق معقوله ومنقوله . معربة عمّا لأهلها من الاغتباط الذي جرىٰ على سمت الهدىٰ ، والارتباط لهذه الدولة العليّة التي ضعضعت أركان العدىٰ . شاهدة بما عندهم من المحبّة التي كرم حمومها ، وآستنزهت في الدرور غيومها . والتشيّع الذي آستقام على منهاج الوفاء ، والانقطاع الذي شدّ أمراس الولاء . وآلتزام الطاعة الممحوصة طفاح الإناء ، والاستكفاء بعدل هذه الإيالة الغرّاء لأكفّ العداء ،

---

(188) كلمة غير واضحة عوّضناها بما يناسبها .

(189) كذا في النص .

وما تحكم من الجور فيهم واستحكم من اللاواء[190] . رافعة سجف الشكر الذي آتضح كفاء النعماء ، وملك مقاد مزيد الآلاء . فاضة لطائم الثناء عمّا هو أعطر من المسك الفنيق ، مستزيدة من جنابه المعطار ما هو أبدع من الروض الأنيق . شاهدة بمطار هذه الكلمة العلية في تضاعيف الأقطار ، وانتشارها في البسيطة المحكمة مناظم الأمصار ، وظهور هذه الدولة الفارسية التي تعوّدت مساعدة الأقدار وتضاعف الاقتدار .

فتلقّىٰ مولانا أيّده اللّٰه ذلك بالقبول الذي آسترجحت مقاديره ، والإقبال الذي آرتفعت أسرته ووضحت أساريره . وحمد اللّٰه على ما وهبه من سعة الملك وما آجتاز من الأقاليم المنظومة في جند طاعته نظم السلك . وأمر أن تكتب من تلك البيعات نسخ حذو القذة بالقذة[191] ، واردة بسنيات الملاذ على الأسماع الملتذّة .

وأمرني أيّده اللّٰه بإنشاء كتب لأهل البلاد ، معلماً بوصول تلك البيعات الجارية على نهج السداد ، وإيراد ما نشأ من الأخبار السارة للعباد والبلاد .

فآستوفىٰ الكتبة بالديوان الشريف بعد الإنتشاء اكتتابها ، وأحضرتها بالبساط الشريف واصلاً أسبابها . فأشخص أيّده اللّٰه بها نهضة من الخدّام ، ملتزمين لتوفية المقاصد الكريمة أحسن الالتزام . فكانت تلك الكتب فاتحة الكتب التي فتقت كمائم البشائر ، ومبادىء المسرّات التي أيهت[192] بالبادي والحاضر .

وما زال الكاتب أبو عبد اللّٰه بن سلمة صحبة الركاب العلي في عريض تشريف ، ومستكمل تصنيف ، إلى أن زحفت إلى قسنطينة الزحوف ، ومالت على جوانبها الصفوف ، وتلمظت لاستئصال أهلها السيوف ، وألحفتها

---

(190) كذا في الأصل .

(191) القذة (بضم القاف) : ريش السهم . يقصد بذلك التسوية .

(192) صاحت ونادت .

أجنحتها الحتوف . وضرب فتحها بسهم فائز ، ولانت قناة منعتها لغامز . وأهلّت بشعار الإنابة ، وأجابت منادي الرشد أوحىٰ الإجابة . وشاهد سلطانها قد حفد وخضع ، وأوعز للخدمة وخنع . وسلم بلده للخلافة المنصورة ، وآنصرف حين غلب وما كان أحمد لينصرف إلاّ للضرورة .

فعند ذلك دعي آبن سلمة للوداع ، وتلقّىٰ من أقوال الخليفة ما هو بهجة الأسماع ، ورأىٰ من كرم اعتنائه ما أوفىٰ على الآمال والأطماع ، وأصدر له إحساناً فاضت له سحابه ، وكمل له العطاء الذي آنفسح جنابه . وزاد على أمله في افعام سجال[193] المواهب ، والأخذ بأفواه أداوي[194] الرغائب . فحمد مراداً وآستمال مراداً ، وزاد في توطيد الشكر اجتهاداً ، وأصاب قواماً من عيشه وسداداً . ومكّن من أجوبة كتبه مطابقة أنحاء الاعتناء ، مالئة عباب الاحظاء . ضاحكة عن مباسم البشرىٰ ، رافعة شارحة معاني الابتهاج الذي ذكره أيسر وأسرىٰ .

ذكر مجيء السيل، ونحن بأهضام الوادي بالليل :

ولما استقر النزول بحضيض جبل بني يمل في أوسع أوقات السرور ، وأفسح ميدان الظهور . وارتفعت الأخبية والخيام ، وشمل المحلّة المظفرة الانتظام ، واستشمل أبنيتها الازدحام . وتواسجت أرحام الاطناب ، وآلتحمت أنساب القباب . واستوقف كل طراف عالي السنام ، ودارت الفساطيط التي أرغمت أوتادها أنوف الرغام . أرسل اللّه المزن مثقلة عشارها ، متراكمة أمطارها ، مترامياً تيارها .

وآنحلت أفواه العزالي عن كل جود هام هامع ، وصوب هامل هامر دافع . وشئابيب شرق بها الشرق ، وأضرم أحشاء جوها البرق . وكادت تترك الجبال

---

(193) سجال المواهب : المواهب الغزيرة .

(194) ج : أداوة .

دكّاً . وتبك[195] الأكمات بكاً ، وتفك مفاصل الهضاب فكا .

وترامت أيدي الرياح بكل عارض غيداق ، مرسل شقاشق[196] أرعاد وأبراق . يستنزل العصم[197] من كل شاهق ، ويكب على الادمان كل طارق . ويتغلغل في أكباد النجاد والتهائم ، ويستولج بطون الأرض بأسرىٰ من سم الأراقم . ويكاد يودي محاجر البحرين ، ويترك خافقة قلوب الخافقين .

فما كان بأسرع من آنحدار السيول الزواعب ، مترافعة على الأباطح والأهاضب . ملهية الضراغم عن أغيالها ، حائلة بينها وبين أشبالها . داخلة الأنفاق ، مخلخلة الأطباق . يسمع لها دوي يذعر الجنان في صريمه ، ويغول الغول المتلوّن في أثوابه الموارية لأديمه ، ويصك أسماع السعالي في البيداء ، ويلجلج ألسنة الرعود المنذرة بنواء الأنواء[198] .

فما كان بأسرع من غشيانه لقلي المحلّة المنفسحة الأقطار ، ونولجه على مضاربها المنسوقة نسق الأسطار . وكنا بين يدي مولانا أيّده اللّٰه ببرج أفراق آخذين في صلاة المغرب ، مغتنمين لأجرها المحسب . وكفاة الرجال يحتدقون على أفراق السعيد ، ويتطايرون لحفر الأخاديد . وعباب الماء يهيج هيجاناً ، ويترامىٰ شمائل وأيماناً . حتى أتىٰ المتولون لذلكم العمل طائشة عقولهم وأحلامهم ، ناكصة عن استكفاء تلك السيول أقدامهم . متأخّرة عن محاذره أقدامهم . فأخبروا مولانا أيّده اللّٰه أنهم غلبوا عن الدفاع ، وقطعوا من الاحتيال في ردّه علائق الأطماع .

وما كان بأوحىٰ من دخول الماء إلى أفراق جائلاً كل مجال ، صائلاً على ذلك الأبطح الأفسح كل مصال . فبادر خواص الخدام ، ونشاءات الأنعام ،

---

(195) تدق .
(196) ج شقشقة : دوي الرعد .
(197) كذا في الأصل .
(198) بعد العطاء .

ووجوه القوّاد ، ورؤساء الأجناد ، وجيش الروم المستخدم في طاعة الملك الجواد ، والإمام العادل الذي جاهد في اللّه حقّ الجهاد .

فدرنا بأفراق السعيد دوران الأطواق بالأجياد ، وتلقينا دوافع السيـول بصدور الجياد . ولم نبلغ مبالغ السبح في ذلك الآتي البعيد الآماد .

وكبرت همّة مولانا العليّة أن يخرج عن حماه ، ويفارق من ولاه اللّه من صون حجبهن ما ولاه . وأعجله الحال عن شدّ القباب ورفع الأحداج ، والحفظ في الرحيل أبهة الملك المحفوظ السياج ، وإقامة الهيبة المغنية عن العسكر الرجراج ، وآقتفاء مراسم العزّ في التأويب والإدلاج .

وأمر أيّده اللّه بأن تجمع أحمال الأموال والمتاع ، والصناديق المشحونة بالذخائر الكريمة الأجناس والأنواع ، وجوالقات الأثواب التي شهرت مثارات الإبداع . فآرتفعت من ذلك جبال تعصم الآوين إليها من الماء ، ومعاقل تقي الصاعدين عليها من الدماء .

ولما أمر مولانا أيّده اللّه على درر صونه ، وأمدّه اللّه تعالىٰ في ذلك الموطن الفظيع بعونه ، أمر أن ينصب له ببرج أفراق مصعد يحلّه ، ومرقىً على الماء يقلّه . ودعا بالخواص فسكن جزعهم ، وأزال خوفهم ، ممادهم المحل الشريف وهلعهم .

وما طلع الصبح إلاّ وقد غيض الماء ، وسكنت الغماء . ورجع الناس من الأنشاز ، وأقبلوا إلى الاجتماع بعد الانحياز . ورجعت مواضع الأخبية ، وتفقدت أماكن الأبنية . فما من الناس من رزيء شيئاً من ماله ، ولا من آمتدت إليه يد عادية في آرتحاله . كل ذلك بسعادة مولانا الذي أخلص للّه في سرّه وعلنه ، واسترعاه اللّه أمّته فقام بفرضه ، وإحياء سننه ، وتوكّل على اللّه في أموره التي أجراها النجح على أوضح سننه .

وكنّا ظننا أن أسباب أهل المحلّة قد آمتدت إليها أكف الانتهاب ، وأعان السيل والليل على الاختلاس والاستلاب .

ولما تحيّن الأسفار ، وجلس على تركمة أفقه النهار ، أمر مولانا أيّده اللّٰه بتحويل المحلّة الميمونة عن مواضعها المنخفضة والتصعيد بمضاربها المنقرضة . وشكر اللّٰه على جميل لطفه ، وحمده سبحانه على صنعه البديع وعطفه . وأفاض في ذكر الحال ، وبسط الوجه وبذل النوال ، وعلم أهل البصائر أن عين الحاسد أصابت ، فكان ذلك بالسحب الدوالح(199) حين صابت .

ولم يبرح أيّده اللّٰه خلال ذلك اليوم في إحكام لشأن التدبير ، والنظر الصالح للكبير والصغير . وإجالة لقداح المذاكرة ، وإرسال لأهداب المحاورة والمحاضرة . وارتياد لخمائل الآداب التي أبدت غضارتها ، وآقتطاف لأزهار العلوم التي ضاعفت نضارتها .

ومما خاطب به مولانا أيّده اللّٰه صاحب أشغاله العليّة ، ومهيمن حسبته المخصوصين بالرتب السنيّة ، الفقيه الكاتب أبو الحسن علي بن محمد بن سعود بعد إقلاع السيل ، وذكرىٰ عطايا مولانا الذي نال السعادة أحسن النيل :

قصدت تمهيد أفريقية فأتت لتحرز الأمن من خوف قبائلها
وأبصر الغيث ما جادت يداك لهم من العطايا التي عمّت نوافلها
فجاد محتفلاً تهمي سحائبه يريد يشبه ما أوليت هاطلها
فحين قصر جاء السيل معتذراً عنه كعادة من أضحىٰ يساجلها

وقال مؤلّف هذا الكتاب إبراهيم بن عبد اللّٰه بن الحاج :

يا خير ملك به الدنيا قد آبتهجت وخير معتضد فيها ومنتصر
قد حنت السحب من شوق إليك ولم تشعر بذلك إذ جاءت على قدر
وآستشعرت أننا لم ندرِ ما قصدت فأرسلت سيلها يسعىٰ على الأثر
فقبّل الأرض إعظاماً وأوسعها لثماً ولم يطوِ من كشح على ضرر

---

(199) المثقلة بالأمطار الغزيرة .

سريرة ظل يبديها ويظهرها | من المحبّة حتى جاء بالعبر
فأعجب لماء غدا يخفي سرائره | مع الصفا ويبديها مع الكدر
لا زلت في العزّ والسعد المجدد ما | وافى الحجيج لقصد الجحر[200] والحجر

﴿ فصل ﴾

وفي يوم وصول الركاب العلي إلى ظاهر بجاية على أفخم حالة وأعظمها ، وأضخم شارة وأكرمها ، وأشمخ مقدم أنسىٰ عبد المؤمن[201] يوم فتحها، وأغفل تاريخ وفادته التي قضت بفوز قدحها . وهيهات أين مملكة آبن علي الأوّل من مملكة بن علي الثاني[202] وإن اشتركا في ولاية المغرب بالعزّ الرفيع المباني ، وتكاثر الجيوش التي فاتحها الفتح بنيل الأماني ، ودنت لاستئصال الأعداء فكان التيسير للداني . فالأوّل لم يكن له في الملك سلف مشهور ، ولا علم في مسرىٰ الخلافة مذكور . والثاني ورث الخلافة كابراً عن كابر . وشهد له بالاستحقاق لها كل آتٍ وغابر . وحاز في الإمامة مراتب سنيّة ، فهو الكريم بن الكريم سلسلة يوسفية .

أمتعنا اللّٰه بأيّامه من ملك ، ملك القلوب بسيبه[203] قبل سيفه . وجعل للّٰه وفي اللّٰه رحلة شتائه وصيفه ، وأقال عثرات الزمان بعد تحكّم جور الزمان وحيفه .

وعمل له أيّده اللّٰه أهل بجاية بروزاً دلّ على محبّتهم التي آستنسلت خبايا الصدور ، وتشيّعهم الذي تناقلت أخباره ألسنة الدهور ، وآغتباطهم بإيالته السعيدة التي أخمدت شرر الشرور . وخرجوا عن بكرة أبيهم بالأسلحة التي

---

(200) لهذا المصطلح معان .

(201) و (202) يقصد عبد المؤمن الموحدي ويذكر أيضاً في نفس الوقت عزم ملوك بني مرين على استرجاع الأمبراطورية الموحدية . ويقارن هنا بين عبد المؤمن بن علي وبين السلطان أبي الحسن علي والد أبي عنان .

(203) هل يقصد سبيه؟ .

حموا بها ذلك الثغر ، فأضحكوا له الثغر ، وأظهروا القوّة التي برُّوا بها البرّ ، وصانوا البحر . وحمدوا اللّٰه على نجاح أمورهم ، ووضع الأوزار عن ظهورهم عند ظهورهم .

وعاد ضيقهم إلى فرج عاجل ، وشدّتهم إلى رخاء غير آجل . وآستجلوا من اليد الكريمة الأيادي ، وعمروا بالبشائر المترادفة المحاضر والنوادي . واستراحوا من غشيان المتالف ، وهيجان المخاوف ، وأخذ التالد(204) والطارف ، ولبسوا من الأمنة أجمل المطارف . وأنجلت العماية ، وتيسرت الغاية ، ودلّت على حسن النهاية البداية ، وحمد الرأي ونشرت الراية ، وأخصب الحمى وأحسبت الحماية .

ولمّا تبلّج صباح ذلك اليوم الذي كان فذّاً في الأيام ، ووقع عزم مولانا أيّده اللّٰه على دخول بجاية الآخذة بأهداب الغمام ، الحاكمة طرقها على الجيوش بالازدحام . كان من النظر السديد أن أقام أيّده اللّٰه حتى جازت عساكره المنصورة مواكب بعد مواكب ، وكتائب تلو كتائب . وأمر بحبس حملة الأثقال ، وردّت عن الطرق قطارات الجمال ، وما أتىٰ كشامخ الجبال من موقرة البغال ، وأقيم الكفاة للأخذ على أيدي الرجال ، وترتيب الأحوال . وآستديم ذلك العمل حتى آمتلأت أباطح الرشد بالفرسان ، وغصّت بالدارعين من الشجعان .

وأشخص من الوزراء والخواص من آعتمل في ترتيب القبائل وحفظ نظام الجحافل . حتى نسقوا بتلك الأقطار المنفسحة نسق السطور في الصحائف ، والعقود في أجياد الخرد الهيف المعاطف . وقام الورعة أمام الصفوف ، وكلّف النقباء بإيقاف الشريف والمشروف ، وحفظ المراتب الجارية على السمت المعروف ، والنهج المألوف .

ثم ركب مولانا أيّده اللّٰه في موكبه الذي أثقل مناكب الأرض ، وآنتشرت

---

(204) الأصيل ، القديم والطارف هو عكسه .

أراعيله في الطول منها والعرض . وأخذ صوب تلك الطرقات التي آتخذت سواد الجنات سواد عين للسعود ، وسويداء قلب للنصر المشهود ، وشرفت بمواطىء خيل الخليفة الذي هو امام البأس والجود ، شرف المحاريب بما أخلص فيها من الركوع والسجود . وزهيت منه ببدر كاد يصير أرضها سماء ، وبحر كاد يعبد حصاها درّاً وتربها عنبراً وكباء[205] ، وروضاً عطر خمائلها التي بهرت سناً وسناء ، وحدائقها التي أغذقت[206] البشر مالاً[207] والشجر ماء .

ولما أجاز أيّده اللّه المضيق عرج شمالاً ، ووقف بسفح ثنيه بتري[208] مبلغاً من النصر والظهور آمالاً . وأشرف على شبيهه البحر إشرافاً . ازداد به موكبه الشريف حسناً وجمالاً . وجعلت الأعلام تخفق بتلك الهضاب ، والطبول تقرع فتنسي شدو الخود الكعاب[209] . وبين يديه أيّده اللّه أمثال أسراب النعام ، من الوصفان المترجّلة الذين أعرضوا عن أحاديث الإسراج والإلجام ، والعدويين الذين فعلت القضب التي بأيديهم فعل الحسام . والمغاورين المشائين الذين قيدوا البروق في ميادين السحاب[210] وسابقوا الرياح التي جرت أذيالها بالقفر اليباب .

ولم يكن إلاّ أن دعا بأهل بجاية على حسب ما رتّب مزوار الحضر جموعهم ، وأقام على أنهاج التنظيم تابعهم ومتبوعهم ، مرفوعة أعلامهم كهممهم ، محفوظة أمورهم كذممهم . فقبّلوا الأرض بعد السلام ، وآلتثموا تلك المهبّات العاطرة أحسن الالتثام ، وآجتلوا غرة الملك الهمام ، وشاهدوا أنوارهم التي جلّت ظلم القتام ، وتمتّعوا بالنظر إلى روح الإسلام ، وجمال الليالي والأيّام . وأبهتهم ما رأوه من الجيوش التي كرم آصطفافها ، والعساكر

---

(205) سبق شرحه .

(206) من أغذق وغذق .

(207) كذا في الأصل .

(208) غير واضحة .

(209) الحسناوات ذوات النهود البارزة .

(210) كذا في الأصل .

التي عظم آرتدافها . والكتائب التي حلّ اعتسافها ، والجنود التي تكاثرت أنواعها وأصنافها .

ثم أمروا بالتحيّز عن مزحف الأعلام ، وإقبال القبائل للسلام على الخليفة الإمام. وأمر الوزراء والحجّاب ووجوه الخدّام، وصدور الخواص الأعلام، بآستقدام الجيوش فأقبلوا كأمواج البحر إلى البرّ ، كلما آنصرفت أمواج وجاءت أُخر على الأثر . وكالسحائب الروائح كلّما آجتاز صوب من الغيث أعقبه جود من القطر . وكان عرضهم بالهوادج التي رفعت بأسنّة البزل القناعيس[211] ، ولاحت بالجو المحرق كأنّها في الحسن أجنحة الطواويس .

وآزدحمت عليها أسنّة الرماح حتى حسبناها تزيّنت بالكواكب الثواقب ، وآنتشر على أرجائها النقع المثار حتى خلنا جنح الغياهب . وصهلت بأكنافها الخيول حتى خفيت أصوات القدم الفوارس ، واستعجمت أصوات الشجعان الدابّين عن الظباء الكوانس . وطالت رماح أهل الجميّة كما طالت أنوفهم ، وآختلطت بتوهم مأزق الجلاد صفوفهم ، وآشتاق إلى الطعن الدراك صارفهم ومصروفهم ، وأظهروا من التحذّق في إُجراء الجرد اليعابيب[212] ، واللعب بالدرق والسمر المنسوقة الأنابيب ، وإظهار الحفائظ وقرع الظنابيب[213] . وتقحم جراثيم الحروب المحمّرة الجلابيب ، ما أقرّ عيون العزائم ، وأبهج نفوس صوارم الصرائم ، وأنذر الأعداء بجر أذيال الهزائم ، والاصطلاء بنيران الملاحم .

وما زالت أهداب العيون بتلك الجيوش معقودة ، ومحاسنها لا مصروفة عن ولوج القلوب ولا مصدودة ، حتى تم الغرض وإستتب ، ورأى الإسلام من اجتماع أحزابه المفلحين ما أحبّ . وآنصرف مولانا أيّده اللّه إلى مضاربه المصطفّة على شاطىء البحر ، ونزل بخباء الساقة المغمور بالعضد والنصر .

---

(211) الضخمة .

(212) ج يعبوب : الفرس الطويل السريع .

(213) كناية عن الإسراع في إلحاق الهزيمة .

ونزل الناس ، وعمّ الإيناس . فقدمت لهم ـ على العادة ـ موائد الطعام ، والطيافير التي منعت كثرتها عن الازدحام . دخل مولانا أيّده اللّه إلى أفراق السعيد ، مسروراً بما أورثه اللّه من البلاد شاكراً لربّه سبحانه على ما منحه من السعد والإسعاد ، والنعم الثرّة العهاد ، والآلاء الكريمة الاعتماد . بعد أن رمىٰ التراب على رأسه تواضعاً لربّ العباد ، وذلاً بين يدي من هو بالمرصاد .

وكان يوماً عجب من حسنه أهل الأقاليم والأمصار ، وشاهدوا من محاسنه ما هو أبدع من الروض المعطار .

﴿ فصل ﴾

وفي عشية يوم الوصول ، والوفادة على مغاني بجاية والحلول ، ركب مولانا أيّده اللّه في موكبه الذي أنارت به البقاع ، ووجوه أهل جيشه الذي تضاءلت له الفراع[214] . فدخل ربض بجاية قاصداً دار صنعتها ، ناظراً من هنالك إلى ما بهر من منعتها . فتفقّد ما وجد بدار الصنعة هنالك من الأجفان ، وأمر بدفعها لقهر أهل البغي والعدوان . وأعجله عن رؤية البلد طي رداء الأصيل ، وآنقضاء ذلك اليوم الذي روىٰ منه السعد عن الخليل .

فلما كان في ثاني يوم القدوم ، وتالي ذلك العيد المتكفّل بالقصد المروم ، دخل أيّده اللّه بجاية في ساعة أخذت الآمال بيدها ، وآبتدرت الأماني سواري أسعدها . فجال أيّده اللّه في سككها[215] مبلغاً كل إرب ، فتارة يصعد وتارة ينحط في صبب . والأرض ترتج بوطء الجياد ، والجو قد مليء بالسلام المعاد . والأصوات تعلو بالدعاء ، والوجوه غرّ محجلة بآثار السراء . والعيون قد كحلت بأنوار الجمال ، والجفون قد تمتعت برؤية مجموع الكمال . والعقاب قد أمن أهلها من العقاب ، والربوع قد زادت مرابع الآلاء الرغاب . والديار قد دارت بها وفود اليمن والأمان ، والمنازل قد

---

(214) فرع مجرىٰ الماء إلى الشعب .

(215) الطرق المؤدية إليها أو الطرق التي تخترقها .

آستنزلت لطائف الحسن والإحسان . والسعود قد رفعت صوتها بالنداء ، والمسرّات قد نزلت إلى بطحاء النعماء ، والبشائر قد أبعدت ممشاها في أرجاء الرجاء ، والخيرات قد أعدّت نزلاً للنزيل الكـريم الولاء . والصـدور قد آنشرحت ، والمناهج قد آتضحت ، والمباهج قد أورت[216] لما آقتدحت ، والنفوس قد آستشعرت دوام السعادة واستروحت . والذنوب قد حطّت ، والحسنات قد كتبت وخطّت ، وذبالة نور الهدىٰ قد أضاءت حين قطت[217] . والخطوب قد آلتحىٰ عودها ، والكروب قد أعدم وجودها ، وصروف الزمان قد مزق أهابها ، وجذمت أسبابها ، وأوجف للأعداء خيلها وركابها .

ولم يثن مولانا أبو عنان العنان حتى صعد برج اللؤلؤة الذي هو المنار المهتدىٰ بنوره ، ورباط الجهاد الذي كسر سـورة الأعداء بسـوره . ومقرّ المثاغرين الذين هجروا المهاد ، ولازموا السهاد . وباتت أعينهم تكلا في سبيل اللّه ، وآنتظروا قدوم أجفان الكفار لاقتضاء حرب تؤذن بتقلّص الشفاه ، وعصب الأفواه ، وخرور الأذمار للأيدي والجباه .

وبعد رؤيته أيّده اللّه لهذا البرج الشامخ بناؤه ، وإشرافه منه على البحر الذي كادت تساجله وتكاثره جوده وحباؤه . خرج على باب المرسىٰ قاصداً زيارة ضريح الشيخ الصالح الولي الشهير سيِّدنا أبي زكرياء الزواوي رضي اللّه عنه ، فوفىٰ حق زيارته ، وصلّىٰ العصر بمسجده المبـارك الذي حكمت السعادة بعمارته ، ثم رجع إلى باب المرسىٰ جائلاً في بلده المسرور بقدومه ، ومبشّراً أهله كالغيث عند سجومه ، وتلفع أفقه برداء غيومه .

وأخذ أيّده اللّه في صعد حتى أفضىٰ إلى باب أمسيوان ، وتوغل في سلوك مناهج تلك البقعة التي هي مسرح العائدين ، ومعاهد أنس المجاهدين . وجشم الجياد صعود جبالها ، وأباح تعلق الجرد اللهاميم بأذيالها . إلى أن

---

(216) اشتد أوارها .

(217) قطّ الشيء قطعه .

وصل إلى قبّة الحارس التي هي غاية منتهاها ، وأعظم مطامح من يغشاها . ثم آنحدر عن ذلك المرقىٰ المنيف ، والمربىٰ الـذي شرفـه بقدومـه أحسن التشريف . وجعل ينظر إلى ما حازته تلك البقعة من رياضات أشرفت إشرافاً ، ومساجد آكتنفتها الكروم آكتنافاً .

فأعجب أيّده اللّٰه بذلك إعجاب ولي صالح ، وإمام غاد في أعمال البر رائح ، وقال : هذا موضع لا يكون أحسن منه لمن آنقطع إلى العبادة ، وقطع العلائق في طلب السعادة ، وأخلص أعماله لوجه عالم الغيب والشهادة ، فهو بعيد عن الناس ، راضٍ بالإيحاش بدلاً من الإيناس . يجاهد الجهادين جهاد النفس وجهاد العدو ، ويواصل في أعمال الخير الرواح بالغدو . ويسعي في خلاص نفسه الأمّارة بالسوء ، ويرمي به الزهد في الدنيا إلى قرارة الراحة والهدوء . فيكون الجدير بالحال المغبوطة ، والسعادة المنوطة ، والبركات المحوطة .

ثم رجع أيّده اللّٰه على بلده ، ولم يكن رؤية قصبته في ذلك اليوم من مقصده . وخرج أيّده اللّٰه من باب رأس السور ، مبتهجاً بما سناه له اللّٰه من النصر والظهور ، ومحبّة الخاصة والجمهور . ثم آنحدر فدخل من بـاب الخوخة إلى الربض ، وقضىٰ من خروجه على باب عزون بعض الغرض . وآعتام محلّته المنصورة فطلع عليها طلوع البدر ، في الأنجم الزهر ، وقدم عليها قدوم واكف القطر على خمائل الزهر .

وفي يوم آخر كان دخوله إلى قصبة بجاية فكنت ممن دخل معه قصرها الذي تقاصر عن أدنىٰ مباني الغرب وتضاءل تضاؤلاً دون قصوره التي هي منية النفس والقلب .

واستقرّ جلوس مولانا أيّده اللّٰه بالرياض الجديدة وهي التي أخذت من الحسن بطرف ، وحازت من بدائع الغرب ببعض طرف . إذ كان الأمير أبو زكريا آبن السلطان المعظم أبي يحيـىٰ قد بناها بعد وصوله من حضرة مولانا

أمير المسلمين أبي الحسن أيّده اللّه مثقلة حقائبه بنعمه ، مفاضة عليه سحائب جوده وكرمه .

وفي تلك الرياض أمر مولانا أمير المؤمنين أبو عنان أيّده اللّٰه بدخول أهل الموكب الشريف ، والاستقرار بمنزهها السامي العلي المنيف ، فأكلوا هنالك الطعام ، ووفوا الإكبار والإعظام . وآنصرفوا على العادة فلم يبقَ إلاّ الخواص الذين يحسنون التخاوض في العلوم ، والتفاوض في المنثور والمنظوم .

ولما قضىٰ أيّده اللّٰه غرضه من تلك الرياض ، وكرع من المحاورة والمحاضرة في أعذب الحياض . رجع إلى محلّته المنصورة ناظراً لأهل ذلك القطر النظر الذي يحملهم في كنف العدل والإحسان ، ويلبسهم أثواب الرضوان . وينيم أعينهم تحت ظلال العافية ، ويحيي من آثار أمنتهم العافية ، ويوردهم من النِعم بالمشارع الصافية ، ويلحقهم من السعادة بالمدارع الضافية .

جزاه اللّٰه عنهم جزاء من عامل اللّٰه فيمن استرعاه ، ورجا القلوب التي تنجح مسعاه . وأبقاه للمسلمين بقاء يسترجع غضارة الأيّام ، ونضارة الشهور والأعوام ، وحفظ بمقاليد سيوفه ودائع الإسلام .

ذكر وصول الأسطول، وبلوغ قوّاده للسؤل والمأمول :

ولما استقرّ مولانا أيّده اللّٰه بخارج بجاية على أكمل ما عوّده اللّٰه تعالىٰ من النصر ، الذي خالط بشاشة قلوب الدهر ، والظهور الذي روىٰ عن حرب وحزم أحاديث الفخر ، والسعادة التي تكفّلت بآنخفاض العدووآرتفاع الذكر . وصل البريد بأن الأسطول المبارك قد ظهرت أعلامه ، ومضت في آعتساف خضارة أحكامه ، وتيسّر في القدوم على مراقي بجاية مرامه .

وكان من قصد مولانا أيّده اللّه أن تتلاقىٰ على بجاية جيوش البرّ وجيوش البحر ، ويقاتل الإسلام منهما بيمين هائلة على الكفر ، وشمال حاكمة على

الأعداء بالقهر . ويجتمع الراكبون بثج البحر ملوكاً على الأسرة ، مع الراكبين صهوات الجياد ملوكاً على الصروخ المستقرّة . ويظهر بذلك فخامة الملك الذي أنسىٰ ملك آل ساسان ، وأزرت جيوشه بمن قاده تحت الورقس[218] أنور شروان ، بل الملك الذي أنسىٰ ملك بني مروان ، وجدد الفخر الثابت بقيس بن عيلان .

فلم ينشب مولانا أيّده اللّه أن أزعج البريد بالمراسيم الشريفة آمراً بقدوم الأسطول الذي نعقت ببين الأعداء غربانه ، ووفادته على البلد المشرف الذي علت مكانته وشرف مكانه ، وعلى الأثر وصل القائد أبو القاسم بن بنج قائد جبل الفتح ، رسولاً عن قائد القوّاد المرصد للفتح . فآستأذن في ترتيب الأجفان عند الإبراز ، وحفظ مراتب القوّاد عند الظهور والامتياز .

فصدر الأمر الكريم أن يتقدّم قائد القوّاد البحرية الرئيس المعظّم الشهير الزعيم المجاهد الحظي الكريم المقرّب ، ، ،[219] بالحسن إليهم آبن الأحمر ، وبعده القائد الخطيب أبو العبّاس بن الخطيب ذو الذكر الأشهر . وبعد ذلك ترتّب القوّاد حسبما آقتضته المدن التي تولّوا أمر بحرها[220] والبلاد . وأوعز أيّده اللّه أن لا يتعدّىٰ أحد منهم مكانه من مصطف الأجفان ، ومطار الغربان ، ومنتطح التواني الرفيعة الشأن . وحدّت لهم حدود ومراسم ، وأوضحت من التشريف خطوط ومقاسم ، وهبّت السعادة نواسم ، وآفترت للبشرىٰ مباسم ، وشيّدت للنصر معالم .

ولم يكن إلاّ أن وصل الأسطول إلى مرسىٰ بجاية في يوم نادىٰ السعد بزوراء أوقاته ، وغشيت أبصار المسرّات لآياته ، وقلوبها لآياته . وأقبلت الأجفان السعيدة مالئة متّسع الفضاء ، ومهبّات الزعزع والرخاء ، مزهرة

---

(218) كذا في الأصل .

(219) بياض .

(220) كذا في الأصل .

كالأرض زاهرة كالسماء ، خافضة كالإضافة رافعة كالابتداء ، متصرّفة كأصول الأفعال ، متمكنة كأصول الأسماء . جامعة مانعة كالحدود الحقيقية ، صحيحة الموضوع والمحمول كالمقدمة الاقترانية ، مرتبطة المقدم بالتالي كالقضية الاستثنائية ، غير منعكسة كالموجبة الجزئية ، موصلة إلى المقصود كالبراهين القطعيّة . ظاهرة حروفها ولا غرو فهي مجرورات ، مفتقرات إلى الصلات والعوائد ولا غرو فهي موصولات .

ذات أبحر ودوائر كالعروض ، غير محمولة على التراخي كالأمر بالمعروض . عارفة بالمنقول دون المعقول ، جامعة بين الفروع والأصول . لا تعرف فساد الوضع ولا فساد الاعتبار ، ولا تؤدّي ما كلّفت به إلاّ في وقت الاختبار . عقيدة ألوانها الليلية ، ومطالبها المباحث المشرقية . تعرف المدارك[221] وتريك المسالك والممالك.[222] متحرٌكة دائماً كأوائل الكلم ، وربّما سكنت كالمعتل الآخر المنجزم .

جوار وطؤها حلال ، لها عند بني النجار إجلال ، أصيلة النجر ، ربيحة التجر . ملاقية الأهوال . مساء وصباحاً قد صيّرها قارها من آل بني الليل وهي تحب رياحاً ، شدائق تنأىٰ عن الدفع لأهل الروض المخضل ، وتقشد مواخرها السرّ في السكان لا في المنزل . طائرة منذ عرفت القوادم ، طاهرة لا ترتكب المحارم . هلالية الشكل ، بدرية بأوجه أهل الفضل . تروع بالقوس الحوت ، وتحمل الأسد ليروع العدو الممقوت . متوالية الخطو ، ضربها بالمحو .

مجموعة جمع السلامة ، مودعة بالبرّ والكرامة ، متواضعة ما منها إلاّ من هجر الديار ، وركب بدار الصنعة الحمار . ومشىٰ فوق الماء كالأولياء والأبدال ، وتبدّل الملح الأجاج من العذب الزلال . معدّة لقتال الفرق

(221) إشارة إلى ترتيب المدارك وتقريب المسالك للقاضي عياض .

(222) إشارة إلى كتب الجغرافيين كابن حوقل وغيره .

العادية ، مفتوحة المواخر كالأفعال الماضية . حسنة الصدور والورود ، كالغواني إذا سمعت صوت العود . وراوية من بحرها عن الصدفي ، محدثة من جوّها عن المطربي . تبصر منها الجار والمجرور ، وتشاهد من حبائلها الممدود والمقصور .

أسانيد صواريها ظاهرة العلو ، ومقدمات جهادها ماتعة الخلو . ذوات تصريف قوي ، كأنّما تصريفها لابن جني . قراءة للرمل ، تظهر من الطريق أحسن الشكل . وتحكم من دماء الأعادي في الحمرة وتقرن الاجتماع بالنصرة ، دراري[223] قرانها سعيد ، ونظرها نظر مودّة حميد . وبروج لا وبال فيها ولا سقوط ، وخيل غزو كل الخير بنواصيها معقود مربوط ، من كل معلاة الشراع ، آمنة من الانصداع . تحصين خشبها المقطوع موصول ، وسلو جمالها المعلوم مجهول .

ذات جناح إذا عنت ، مطلعة مجاذيفها الرباب إذا غنت . بديعة لا يلحق أولي الأحلام في فضلها مرية[224] ، يحل ضاربها منها شبه المدينة فلا غرو أن تكون له قرية . لقلوعها الطي والنشر ، ولسيرها المطابقة التي زاد بها البشر . كريمة التمايل والاهتزاز ، حامية للحقائق في المجاز . من توابعها العطف . ومن خصائصها الوصل والوقف . مأمونة الغلط ، دربة بالخطوط والنقط . حسنة المادة والصورة ، بقصر الممدود للضرورة غير الضرورة .

عارفة بالإظهار والإدغام ، محسنة للروم والإشمام . عارفة بجمع الأعداد فوق الكراسي . محبوبة أعوادها كأنّما هي أعواد الفارابي[225] . مزيّنة للناظرين كالعروس ، الفضل عندها للقائم على الرؤوس ، مشحونة بالأبطال ، حاملة لأجدال القتال ، ومدارة الحروب والنزال ، من كل رام شهم ، عظيم يصيب كل عظم . له في إصابة الغرض أحسن غرض ، وفي تسديد السهم أوفر

---

(223) كأنّها نجوم ساطعة لامعة .

(224) ارتياب .

(225) لعلّه يقصد الفارابي وفضله على الموسيقى .

سهم . ومن رامح يمر عيس الأعداء بالعسال.[226] ويروي عن مسدد أحاديث الطعن للإقتال . ومن سائف يزحف بأبيض صارم ويروي حديث البأس عن مزاحم ، ويأوب فتروىٰ منه البشائر عن سالم ، قد لبسوا الحديد على الحديد ، ورفعوا عقائرهم بالتحميد والتمجيد ، وثوبوا[227] بآستئصال الأعمار وإيثار البوار ، وتقدّموا لقطع دابر الفجّار ، وخضخضوا غمار التباب والتبار ،[228] وآقتدوا بإمامهم الطاهر في الأخذ بالثأر ، ومحوا كلمة الأشرار ، وآجتثاث أثلة الكفّار .

فما شوهد أبدع من تلك الأجفان السعيدة ، وقد قرعت طبولها التي حكّت آصطكاك أجرام الهواء ، وعلت أصوات بوقاتها وأنفارها التي هي ملاقيح آقتحام الهيجاء . وأتت من أنفاطها بكل متأجِّج الشواظ ، يحول دويه بين الألسنة والألفاظ . مرسل في الجو ذؤابة كعقيقة البرق منذرة السامعين مالئة بالهوبها ما بين الغرب والشرق ، والرايات قد خفقت على قدود العوالي ، والبنود قد أظلّت بناة المعالي . والأعلام قد تلونت تلوّن الأزهار ، في الحدائق الغلب التي غذتها ضروع الأمطار ، والشمس قد عادت شموساً فوق البيضات الباهرة الأنوار ، وفي متون السيوف التي حودثت[229] بالصقال مدىٰ الإعصار ، ولها ذم الرماح التي كادت تذهب بالأبصار .

وبرز مولانا أيّده اللّٰه إلى شاطىء البحر في موكبه الذي خضعت له حوادث الدهر . وجعل ينظر إلى جيشه البحري نظر شاكر[230] حامد ، مشاهد لتلك العجائب التي شفعت زائداً بزائد ، حتى قربت منه الأجفان ، وأقرّت عينه الأعيان . وعظم الابتهاج وكرم الانتهاج ، وحسن الالتهاج ، وآلتقىٰ البحر العجاج والعجاج .

---

(226) الرمح القوي الشديد الاضطراب والاهتزاز .
(227) كذا في الأصل .
(228) تقدّم شرحه .
(229) يقصد جلاءها .
(230) زيادة في الهامش : (لربّه) .

ومالت الجيوش البريّة على جوانب اليم ، وآنصاعت إليه بعددها الجمّ ، وآزدحمت على البدر النم[231] ، وشمس الملوك الكريم الجدّ والأب والعمّ .

وفي الحين نزل القوّاد فقبّلوا الأرض ، وتلا البعض منهم البعض ، وأدّوا من تعظيم الخلافة العليّة الواجب والفرض . فتلقّاهم مولانا أيّده اللّه بالقبول والإقبال ، وبسط لهم بشره الذي شرح معاني الجمال والإجمال . وشكر انتهاضهم ، وآستحسن في توفية الخدمة أغراضهم .

ثم أمرهم بالرجوع ، وأوعز بالصعود إلى الأجفان والطلوع . ولم يبرحوا عن مرسىٰ بجاية حتى أمر لهم ولعمائرهم بمحسب العطاء ، ومزيد النعماء . وبسطت آمالهم بمضاعف الإحسان . ونشرت عليهم ملأ الآلاء الحسان وأوسعت معايشهم وأرغدت ، وجمعت لهم الجرايات وأفردت . وعمّوا بالنوال والإفضال ، وملئت سجال أمانيهم إلى الإسبال ، وأشبعوا النجح الوافي المكيال .

ووقع النظر الكريم أن يوسق الأسطول السعيد جميع آلات الحصار الثقال ، وتلان لها مهاد الانتقال ، ويراح جماع القبائل من الإعانة على أشخاصها إلى مواطن القتال ، وجمع أقارينها لقهر شيع الضلال ، واستئصال أشابة[232] المحال ، وآضمامة[233] النكال والوبال .

وأمر القوّاد بآعتيام[234] مرسىٰ القل بالعدد الكثر ، وأن يطلعوا على ديار الأعداء طلوع أبي فارس مع الفجر . ووقع العزم الأمضىٰ أن تنقل الآلات من هنالك إلى قسنطينة عند إطلال أعلام الخليفة عليها ، وتتابع الجيوش المعاظيم

---

(231) الساطع .
(232) ج أشايب . يقصد بذلك ازدراء جماعة الثوّار وأصحاب الفتن .
(233) اضمامة . ج أضاميم : جماعة من المحاربين أو عدد من الخيل .
(234) اختيار خير ما فيها لتغنمها .

ثانين[235] الأعنّة إليها . حتى تستف[236] الحروب طينة قسنطينة ، وتنسخ أكف المجانيق من أبراجها الجواهر الثمينة . فتيسّر وصول الأسطول إلى هنالك بعد أن أتىٰ الفتح لميقات يومه ، وحام طير السعود على مورد البشرىٰ أحسن حومه ، ووضعت الحرب أوزارها على رغم أناف العدو وقومه .

﴿ فصـل ﴾

أمر مولانا أيّده اللّه بآرتحال المحلّة المنصورة ، وتوجهت الجيوش لطيّاتها المحمودة المشكورة . والمبادرة لشرق أهل الشرق ، وأغراب أهل الغرب بالعزم الصدق ، والحروب المرهوبة الرتق والفتق .

وقوضت عن شاطىء البحر خيام كأمواجـه ، ورفعت فساطيط كـأنّها القوارب عند آرتجاجه ، وأقبلت الجياد طريق قسنطينة كأنّها أسراب القطا[237] عليها كل مقدام شهير السطا[238] ، إذا قصر سيفه كان وصله الخطا[239] ، وولت العساكر كالجراد المنتشر ، والرياح الهوج في اليباب المقفر .

وتلوم أيّده اللّه بخباء الجلوس على الشاطىء وأعلامه المنصورة منشورة ، ومواكبه مخبوة محبورة ، والنفوس بمشاهدة غرّته السعيدة مسرورة . وجعل ينظر إلى أساطيله المظفرة وقد ضربت بأجنحة مجاذيفها كالعقبان الكواسر ، ورفعت أعلامها المتهايجة لهبوب الريـاح النواشـر ، تهايـج متون البحـار الزواخر ، القائمة على صعادها قيام الخطباء على المنابر ، والورق المرفرفة على الغصون النواضر .

ولبس أهلها الدروع فكأنّهم الأسود اللابسة لأثواب الأراقم ، وأطلعوا

---

(235) كذا في الأصل .

(236) كذا في الأصل فهل يقصد بها النسف؟ .

(237) نوع من الطيور .

(238) المفازة .

(239) كذا في الأصل ولعلّه يقصد بذلك السرعة في الالتحاق بالعدو .

أشعة السلاح فكأنّهم البدور المطرّزة حلل ظلمائها بالنجوم العواتم . والطبول تصول على جنبات الجو ، والأجفان تتسابق كالرمال الجوافل في الدو . والناس قد حشروا ضحىٰ أجمعين ، ولبُّوا داعي العزّ والظهور وأتوا إليه مهطعين .

وأخرج العواتق ذوات الخدور ، وأشعروا بعيد النحر لكن للعدو الكفور ، أو الظالم الذي آثر دار الغرور . وغصّ البرء بالبر والفاجر ، ورمقت تلك المحاجر بالمحاجر . وزينت الثنايا بالثنايا البواسم ، ونعمت الأرواح بالأرواح النواسم . وأبهج من شط شطا ، وماشىٰ الشواشي من أبرز بالخطىٰ خطا . وعاد صبح الجذل نهاراً ماتعاً ، وآص[240] هلال المسرّات قمراً طالعاً . وأمر أمر الهدىٰ ، وأعدىٰ الزمان على العدىٰ . وعمّ الاستبشار ، وأقيل العثار . وأنارت المطالع وطلعت الأنوار . وشوهدت الآثار والمآثر ، وقلّ الشاكي وكثر الشاكر . ورأىٰ النجح البادي واليمن الحاضر الحاضر .

وأيقن المسلمون بآعتدال وزن زمانهم ، وحفظ أمانة سياستهم وأمانيهم . وأيقنوا بالنجاة والنجاح ، ورووا عن أفلح أحاديث الفلاح ، وعن صالح[241] أحاديث الاستصلاح . وأسندوا عن أيمن أخبار العدل ، وأخذوا عن أسعد مسلسلات الفضل[242] . وجعلوا يتمتعون من مشاهدة القمر الذي نسمت عليه أعداد الكمال ، والهمام الباسل «كلّما لجّ في الذعر ودعيت نزال» .

وألظوا بالثناء ، وألحُّوا في الدعاء ، وشكروا ولا شكر للروضة الغنّاء الواكفة الأنواء . وطربوا لذكر مآثرهم المأثورة الأنباء ، طرب حسان لغناء عزّة الميلاء .

ولم يكن إلاّ أن أمر أيّده اللّه بأن تصله طريدة قائد القوّاد ، وغراب الفقيه

---

(240) آص : صار وأصبح وتحوّل .

(241) لعلّه يقصد بذلك مقدمة آبن الصلاح في علوم الحديث .

(242) إشارة إلى آبن سليمان المحدّث .

الخطيب القائد أبي العبّاس بن الخطيب مبيد الأعاد ، ومسعر الحروب وقدوة الجلاد ، والطنجي الذي يحرز القصب لكن قصب السبق في الجهـاد . فسرعان ما جاءت الطريدة العظيمة ناشرة لأعلامها البيض ، مظهرة لحسنها الشائع المستفيض .

وأتت كأنّها تهلان أو ثبير[244] لكن عصمة أبطال كل منهم للأعداء مبيد مبير ، وسحره رماح للحرب على آثارها تغيظ وزفير ، إلاّ أنها تطير طيران فتحا[245] الجناحين كاسر ، وتقتدي في النهوض إلى قتال الفئة الباغية بسير السيّد عمّار بن ياسر .

وجاء غراب الخطيب أبي العبّاس مبهجاً في الملح الأجاج بملحه ، ماشياً مشي السحاب إلاّ أن الأعلام قوس قزحه وجذف فيه هلالاً ملأته من الدرق بدور ، إلاّ أنه هلال شهر ، لكن للسلاح التي بها الكفر موتور ، والعدو الباغي ملوم مدحور ، والمناوىء المعاند مقهور مقسور .

فلما قارب الجفنان الملك الذي برّ وأبرّ . عزم أيّده اللّه على ركوب البحر الذي بسط لمواطئه الخد والأجفان ، وكاد يخـرج بشارة من قعـره اللؤلؤ والمرجان . ودعا أيّده اللّه بقارب فركب فيه ، وشكر اللّه سبحانه ملء قلبه وفيه . وقصد إذ ذلك تشريفي بعظيم عنايته ، وإعلاء قدري بتنويهه وجزيل رعايته .

فلمّا أراد القوّاد الجذف بذلك القارب وقصد ذات الغوارب من الأمواج والغوارب . أمر أيّده اللّه بالتوقّف حتى دعاني للركوب معه ، وعوجل بصعودي إلى المحل الذي جمع من أشتات المحاسن ما جمعه . وطلع أيّده اللّه إلى الطريدة الكبيرة بادئاً بنواله ، مظهراً لقبوله وإقباله .

---

(243) إشارة إلى عزّة كثير الشاعر المعروف .

(244) كذا في الأصل . لعلّه يشير إلى أمكنة . والثبير كما في القاموس مادة بديار مزينة اقطعها رسول اللّه ﷺ شريس بن ضمرة .

وكان من قصده الكريم أن يحيط بأقطار بجاية نظراً ، ويحدق إلى اجتلاء جنباتها المنكشفة بصراً . وأخبر أن ذلك لا يتأتّىٰ إلاّ بركوب البحر ، والجو لأن بين السحر منه والنحر . فنظر أيّده اللّه إلى أبراجها نظر الشمس إلى البروج ، وشاهد منازلها مشاهدة القمر للمنازل الظاهرة العروج . وأبصر منها كل مقدمة التي سلبت العقول فهي سالبة محصلة ، وأوجبت المسرّات حين عدلت بالألوف فهي موجبة معدولة ماصلة .

مقدمات نظمت في الشكل الأوّل لكن من الحسن فما يعرف لها آرتداد ، ولم يوجد في ذوات المقدم فيها والتالي شرطي منفصل فلا جرم لا يوجد فيها عقاد . مستحصرة الأسوار فلا يخرج عن حكمها أفراد ، ظاهرة أثناها الروابط فلا نقض ولا فساد ، موجهة لكن إلى شطر الطاعة . فما يتعذّر لها مراد ، ضروريّة كلّها فلا منع ولا معارضة إذا أوضح إرشاد ، وجال طرفه أيّده اللّه منها في مبان كادت تواري السماك بسمكها ، وتنعم منها بمغان سرت آبن محرز[246] لكن لملكها ، ومصانع روت عن نابت لكن من مواعدها ، وأسندت عن سهل لكن من مراقبها ومصاعدها ، وأخذت عن عامر لكن بمحاضرها ومشاهدها .

ورأىٰ منازل أقوام آجتنوا من اللذّات زهراً ، واستقبلوا كواكب الآمال زهراً ، وحيُّوا أوجهاً على السفح غرّاً ، وآمتطوا بشاطىء البحر كل صخر يروق بشراً ، فأشبهوا الخنساء لا شجوناً وذكراً ، لكن في كونهم يذكرهم طلوع الشمس وغروبها صخراً[247] .

وما راقه كامسيوان الذي حمد به انقطاع ونسك ، وأنار كأنّه فلك ، وعلا البحر كأنّه ملك . وزهي بكل بقعة ترفل من نباتها في الحلل الخضر ، وتشبه

---

(245) كذا في الأصل بالألف .

(246) ت : (حوالي 140 هـ) هو مسلم بن محرز أبو الخطاب المشهور في فن الغناء والألحان . الزركلي . الأعلام - ج 8 ، ص 120 .

(247) إشارة إلى عاطفة الخنساء نحو أخيها .

قتيلة لا في الجزع والذعر ، لكن لها عين تفيض على النضر . إلىٰ مزارع تروي منها الخصب عن واسع ، ورياضات تسند المصلُّون منها عن جامع . وجبل جنباته مفرجة لكل كرب ، وشعابه حمالة الحطب ، ولا غرو فهي بنت حرب .

ويا لك من جبل لا يروعه الهرج ، ولا يخاف امتطاء صهوته وإن كان بها السرج ، فارغ يهـزأ بهزمـات القدم المنـاجيب[248] ، ويحن إلى الطعـان والضراب حنين النيب[249] ، ويروع عرين الليث الهصور بملعب الذئب . ويرد بقصيبته صاحب الرمح ، ويرىٰ أنه لمالكه جبل الفتح . لا سيما بعد أن تملّكه خير ممارس ، وأجلىٰ حماية المترجلة فصار حكمه لفارس . فهو شامـخ الأنف ، مزرور العطف . يزري بتلملم والمصاد ، وينسي جبل طي أولي الأرصاد . ويطل على رأس بجاية كالتاج ، وينتشر شجره فوقها كعصائب الديباج .

فسرّ مولانا أيّده اللّه بما أورثه اللّه من البلاد ، وآسترجع بسيفه من الأقاليم الوافرة الأعداد ، وشكر اللّه على نعمه الكريمة الاعتماد ، وآلائه المنتدية بمقامات الازدياد . ثم هبط من صهوات الجواري السوابح في البحر الملتطم الأمواج ، إلى صهوات الجواري السوابح تحت سرادق العجاج ، المستنيمة في مأزق الجلّاد وماقط[250] الهياج .

ورحل عن معسكر محلاته وقد أتته الأرض بقراها آبتهاجاً وسروراً ، وملء أرجائها نصراً وعزّاً وظهوراً . وآستتبت أموره على فضل وتيرة ، وألبسه اللّه رداء أحسن سريره .

ولم يزل تحت ظلال ألويته وبنوده ، منتجعة سحائب حبائه وجوده ، حتى

---

(248) المنجاب : الضعيف ، السهم المبري .

(249) ج ناب : زعيم القوم .

(250) الكاسر ، الشديد . الطارق بالحصا .

وصل إلى محلاته المنصورة بأحواز خميس مكلاته فنزل بمخيمه ، وحطّ بسرادقه الأشرف الذي عمّ الخلائق بأنعمه ، وآنصرف الناس إلى أخبيتهم وخيامهم رافعين أبصارهم إلى ما أطل من سعادة إمامهم . شاكرين اللّه تعالىٰ على صنائعه الجميلة التي ألّفت شتات الآمال ، وفتحت مغالق الظفر لأهل الشؤون المسنوءة[251] والأحوال . وأيقنوا بالنصر الذي يروض مصاعب المباعي ، ويأخذ بكظم المناصي[252] المناصب اللاغي ، ويصير حماه مسارح للثاغي ومسارب للراغي .

وآستطلعوا طلع الفتح الجميل الإهابة ، السريع الإجابة ، الحسن الإنابة ، الضامن للنجاة والنجابة ، المؤذن بآستشغاف السور؟ المارقي والصبابة ، الذي يقضي بحرب أهل الحرابة ، ويتكفّل للخلافة العليّة بالبشرىٰ المرسلة الذؤابة ، والسعود الجارية على صوب الإصابة ، والمسرّات الجامعة بين الإطالة والإطابة . بحول اللّه تعالىٰ وطوله ، وقوّته وحوله .

ذكر الإزالة لخفارات الأعراب
ورفع ضرائبهم التي قوبلت بالإعراض عنها والإضراب :

ولم يزل السير مستصحباً ، والعزم مستوفىٰ مستوعباً . والنجح قائماً قائداً ، والسعد رائماً راشداً ، والفوز زائراً رائداً ، والخير وارفاً وارداً ، والجذل وافراً وافداً ، والظهور حافلاً حافداً[253] ، والنصر معاوناً معاوداً ، والبشرىٰ تؤم ناشراً ، وأخبار العدو تسر ناقلاً ناقداً ، وتسيء جاهلاً جاهداً ، وتروع كانفاً كانداً ، وشارها من المفسدين شارداً ، إلى أن وصل الركاب العلي إلى بلاد بني سيلين ذروة بلاد السد ويكش وسنامها ، والأقاليم المجلو[254] بظلم العرب وظلامها . حيث يثمر غرس زمانهم ، ويظهر مجرىٰ سوابقهم

(251) كذا في الأصل ولعلّها تحريف لـ (مشنوءة) .

(252) لعلّه يقصد به الرائد المتحرِّك ثم يضيف المناصب : المظهِر للشدّة .

(253) مسرعاً .

(254) غير واضح .

وفخر عواليهم ، والإقليم الخصيب الذي عهدوا به آمتلاء حقائبهم ، وآستيفاء رغائبهم ، وآستكمال مطالبهم ، والانقياد لنواصي قواضبهم .

وآعتادوا باذرائه نيل المنى بالمنايا ، ورعي الحكم والتحكّم في الرعايا ، والدنو من الدنايا ، وأخذ المرباع والصفايا .

فضربت المحلات المنصورة خيمها بتلك الأباطح والهضاب ، وآذنت دولة الأعراب بالانقضاء والانقضاب . ووافوا في الإجابة من كـل حدب ينسلون ، وفي إظهار طاعة الإمام العادل يعتملون .

وآجتمعت جموعهم راعدة بوادرهم ، مرفوعة إلى أفعال الخليفة أمير المؤمنين نواظرهم ، واهية معاقد آصطبارهم ، مشفقين من محق إيثارهم ومحو آثارهم . إلاّ أنهم سدكـو[255] بالمطامع ، ولم يعرفوا تحريم تلك المراضع . وظنّوا أنهم يتركون لطلب عوائدهم ، واستخلاص أصليهم وزائدهم .

ففهمت الرعايا ما اعتمدوه من القصد الذميم فوقفوا لهم موقف الخصيم ، فصمّموا على منعهم أعظم التصميم ، وخاطبوهم فقالوا: تاللّـه إنكم لفي ضلالكم القديم .

ولم يكن إلاّ أن أنهوا ذلك إلى مقر العدل ، ومحل الفضل ، حيث يستمع صرير القلم وصليل النصل ، وتبلغ الرماح أجيادها للقضاء في المفسدين والفصل .

فآمتعض مولانا أيّده اللّه لما دهم أهل تلك الأقاليم أوحىٰ آمتعاض ، وارتمض لما بغثهم من الخطوب الكوارث أعظم ارتماض[256] وأنف من تحكّم الأوشاب والأوباش ، والعصب الذين تركوا النظر في أمور المعاد والمعاش ، وتلووا في الغي تلوي الخوص[257] في سعف العشاش .

---

(255) متشبّثون بالمطامع أشد التشبّث .

(256) احترق حزناً .

(257) ورقة النخل .

إلاّ أنّه أيّده اللّه ـ بحسب الوفاء الذي توشح بنطاقه ، والفضل الذي قام له الدهر على ساقه ، والجود الذي أعذبت نطاقه مكارم أخلاقه ـ أضمر في نفسه الكريمة أن يعطيهم أضعاف ما كانوا ينتجعونه ، ويخولهم الرفد الجزيل الذي يتوكفونه ويستهمعونه .

ولم ينشب أيّده اللّه أن أمر بإقامة البريح بأن مطالب العرب قد ارتفعت عن الأوطان ، وأكفّهم قد كفّت عن الأقاليم والبلدان . وضرائبهم قد أزيلت ، وأحوال خفاراتهم[258] قد أحيلت ، وعثرات الرعايا قد أقيلت وقداح العدل قد أجيلت ، وأعطاف السعود بالمسرّات قد أذيلت ، وسيوف الخلافة قد سلّت ، ودماء المخالفين قد أسيلت . والحق قد حصحص[259] ، والرشد قد آصطنع لنفسه وآستخلص .

وتنوولت تلك الأوامر الكريمة بأكفّ الإشاعة وتنوقلت بها مظاهر الإذاعة ، وصوبحت بأيدي الاستفاضة ، وطيف بها في البلاد طواف الإفاضة ، وتوغل في إنهائها ، وأغني عن استكشافها واستجلائها . وأزيل ببثّها البث ، واستديم بالحثّ على سماعها الحثّ . وتهوديت أخبارها في النوادي ، وتنوقلت في الحواضر والبوادي . وجعلت أسمار الحي الذي أقمرت لياليه ، وأحاديث الركب الذي بعدت في الاشاد والتأويب مراميه .

وسرت بها عقائل خيام الرعايا ، وقعائد بيوتهم اللاتي هنّ بجوانحها خبايا . وآنبسطت الآمال ، وغمـرت الحلال ، وحمي الـذمار ، وآنعقـد الجوار ، وأمنت البوائق التي لم تفتق من كمامها ، وآرتفعت العوائق التي امتد شأو آصطلامها . وآرتفعت الأدعية بكل مكان ، ورددت الأثنية بكل لسان . ونادىٰ لسان السعادة أن اعملوا شكراً ، واجتنوا ثمر الآمال نضراً ، واجتلوا للأماني شمساً وبدراً .

---

(258) ج‍ خفارة : حمامة أو ما يتقاضاه المحامي المحافظ .

(259) وفي الهامش زيادة : (والنجح قد عمم وخصص) .

وصدقت الظنون ، وظهر الهدي والهدون ، وتأتّى بالحركة السعيدة التي كانت على الفتح السكون . وعلم أهل الشرق أن لهم سلطاناً يسهر وعيون رعاياه نائمة ، ويعطش وهي على أعذب الموارد حائمة . وتسغب وهي في بساط الديمة والأمنة طاعمة .

فآستناموا إلى عزائمه التي رمت إلى أقصىٰ الآماد ، وصرائمه التي فاتحت بألسنة السمر الصعاد ، وفاهت بشفاه البيض الحداد . وسعدوا بطاعته التي تكفلت ببلوغ مأملهم ، ورأوا بها الميامن أقرب إليهم من أعناق رحائلهم ، وآغتبطوا بإيالته العظمىٰ الموفية بتفريج معاضلهم ، وإعلاء شعار مغالبهم ، وإصابة مقابل مصائبهم ، وإحسان عقباهم وإحسان عواقبهم .

ورمي العرب من ذلك بثالثة الأثافي[260] ، وهائضة القوادم والخوافي ، وهول بكل شنعاء مطّلع ، وداهية دهياً مفظع ، ورقم رقماء آعتامت بكل مطلع . إلّا أنهم لم يظهروا عن الطاعة تجانفهم ، ولا آعتمدوا للمروق من الدِّين تكاثفهم . لكنهم تغلّبوا على جنوب الأحن[261] ، وسعوا في التي آقتدتهم في اسطان المحن . وأضمروا التحيّز إلى حزب الشيطان ، والتبحّر في مفارقة الأوطان ، واشتراء الضلالة بالهدىٰ الواضح التبيان ، ومدافعة الأوامر الكريمة بأيدي العصيان .

وظهر ذلك على فلتات ألسنهم ، وفهمت خائنة الأعين من أعينهم . وسدروا في غلواء الفساد ، وآن أن تنضم أوزاعهم في قبضات العناد . حتى يخربوا بيوتهم بأيديهم ، ويجذعوا أنوفهم بأكفّ تعديهم . واختاروا شرودهم عن عصمة الإجماع ، وتمطرهم[262] في ميادين الاستنشاع . فأخذهم اللّه بما لبسته أيديهم أسرع من لوث الإزار وحل القناع . وسيأتي شرح ذلك إن شاء اللّه مستوفىٰ مقاله في مقامه ، مفتوحة أبوابه لمن تشوّف إلى استعلامه .

---

(260) ج أثفية والمعنىٰ : رماه بالشركلّه . .

(261) ج أحنة : الحقد .

(262) إسراعهم .

ذكر وصول علي بن ثابت
ما لم يكن بقابت:

هذا الشيخ علي بن بكر بن ثابت كان ممن كانت له سابقة حسنىٰ في الانقطاع ، وقدم صدق في التحيّز إلى هذا الأمر المُطاع ، والمبادرة إلى الدخول في إيالته الرحمىٰ والإهطاع ، وٱلتزام بيعته التي عضّ عليها بالنواجذ منعقد الإجماع ، ووصل السعد بٱستحكام أمرها في ميامن الأقطار ومزاين الأصقاع . ورفع خراج جبله إلىٰ القوّاد الذين نيطت بهم ولاية الشرق ، وقدموا بالجيوش الفائضة على أعطاف ذلك الأفق . ووقف موقفَ الناصح لا المناصي ، وتصرّف مع قبيله تصرّف العاصم لا العاصي ، وقبل بالحقّ والصبر[263] حسن التواصي . ورأىٰ من بركات هذه الدولة الإمامية ما رآه الداني والقاصي ، وعلم أن بأسها الشديد ورأيها السديد أخذ بالأقدام والنواصي .

وعاقه مرضٌ عن الوصول إلى الباب الكريم ، والشخوص إلى معدن الفضل العميم ، ومنيع المنّ الجسيم ، ومحطّ ذوات الرسيم ، ومغرس شجر الإكبار والتعظيم ، ومسفر وجوه الإجلال والتكريم ، ومقرّ العدل المذكورة أحاديثه ما بين زمزم والحطيم . فوجّه ولده نائباً عنه في تقبيل الأرض ، وأداء الواجب من الخدمة والفرض .

وكان ولده رجلاً قيدت الحمالة باعه ، وخامر البأو والكبر طباعه . ولم يزل في بلهينة[264] من عيشه مظهراً لحمقه وطيشه . حاصداً في حبل الرعونة ، بعيداً عن السير المأمولة المأمونة . حليف سير ، أينما يوجهه أبوه لا يأتي بخير .

إلّا أن مولانا أيّده اللّه كبرت همّته العليّة عن تصفّح أحواله وٱنتقاد أقواله

---

(263) وفي الهامش نقرأ (وامتثل للنهي ، ، ،) .

(264) في رخاء وسعة العيش .

وأفعاله ، فأكرم نزله ، وبلّغه من القبول والإقبال أمله . وخلع عليه لبسة الاعتناء أحمده مغبّة ما أظهره أبوه من الاستجـداء ، وآستحصاف معـاوز الانضواء وأوعز بكتب المرسوم الشريف لوالده بتولّي جبل بني ثابت شياخة وجباية ، وآنسحاب نظره على القلّ إشرافاً وولاية . وأصدر له الأوامر الكريمة بإجراء عوائده ، وإعادة جراياته ، وآعتنىٰ به الاعتناء الذي رأىٰ به أوقىٰ أوقاته وأقوىٰ أقواته .

وجزاه جزاء من آستقام فآستقال ، وبلغ في الاسترضـاء الآماد فبلغ الآمال . وتحيّز فما تحيّر ، وتعرّف فما تنكّر ، وآنتصب للخدمة فآنتصر ، وآقتدع أنف عدوه وآقتدر .

وصرف هذا الولد الواصل بيمن وأمان ، واحساب احسان ، وآمتناح امتنان ، لامتطامن[265] جانبه في آطمئنان ، ولا مرجىء رجاؤه في نيل أوطار وقصد أوطان .

وفي أثناء مغيبه صدرت عن والده مع قائد وطن قسنطينة أفعال نقمها القائد عليه وشدّد بسببها سهام الحوادث إليه .

وما وصله ولده إلّا وقد كان الشيخ رمىٰ عن قوس الاجتراح والاجترام ، وأذنته الحرب بالاصطلاء والاصطلام . وآتّفق أن وجّه ولده الواصل إلى قائد الوطن المذكور ليسلك معه مسلك النصفة والانقياد ، ويأخذ مأخذه في الارتياء معه والارتياد .

فثقفه القائد في حقوق تعيّنت على أبيه ، وآستند في ذلك إلى اجتهاد أخطأ فيه ، إذ الواجب أن يقف مع المراسم الشريفة في كل ما يذره ويأتيه ، ولا يظهر طواعية هواه في الأمر الذي يعزّ تلافيه .

فلم يكن إلّا أن هرب الولد من محبسه ليلاً ، وأسرىٰ من ميله وقد نال من

(265) كذا في الأصل .

آنتهاز الفرصة نيلاً . وأفلت اشراك الغابي الغافل ، وخاب قصد المتواصي المتواصل ، ولحق الهارب بشيخه الجاهم الجاهل ، وخيّم منه بالغي الخاطي الخاطل[266] .

فآستحمد الخدعة ، وأمن القيد والرتعة . وشكر لسواد الليل يده البيضاء ، وآضمر للقائد المذكور المغلية والبغضاء .

ولم يعتمد الشيخ الهوينا في مطالعة الخلافة العليّة بالأمر الواقع ، ورفع قصّته بذلك إلى الإمامة الجميلة الصنائع . وتظلّم من القائد وتبرّم ، وتحنّث بما أظهر من آجتمال الهضم وتأثّم ، وأسمع النداء ، وطلب الإشكاء . وذكر أن القائد المذكور أغرمه مالاً جمّاً ، ونشب بنشبه وأمّه أماً . وفتك في بلاده وغاث وأغار وما أغاث . وأحدث الأحداث ، وغيّر الشيوخ والأحداث .

فسمع مولانا أيّده اللّه شكيته ، وبلغه من الرأفة والرحمة أمنيته ، وأنكر على القائد فعله ، وتلقّىٰ باللائمة فصمه وفصله . وأمر بآستكشاف القضية وآستعلام تلك البليّة ، حتى يرىٰ في ذلك رأيه ، ويقهر الظالم ويوجب خزيه .

وفي أثناء ذلك مرض أيّده اللّه المرض الذي ضربت به الفتن ضرباتها ، وهيّجت كماتها للقراع وفرسانها . ووقعت المغادرات التي آستعاضت الضلال من الهدىٰ ، وآستفاضت أحاديثها المأثورة من العدىٰ ، وتلاقت بها في صدور الكتائب أيدي الردىٰ . وتركت خرقاً لا يرقعه أولو الآراء الفائلة ، وشعثاً لا يلمّه ذوو المساعي الزائفة الزائلة ، وحتفاً لا تقيمه أيدي العصبة المتواكبة المتواكلة ، وصدعاً لا تشعبه أكفّ العرقة المتحاذية المتخاذلة .

وكان علي بن ثابت المذكور ممن أظهر النفاق أو كاد ، وآستحقب الخسار لما استعدّ واستعاد ، واستجدّ الرأي واستجاد . ومال إلى الفئة التي جعلت شعارها الفساد وأشبهت الذئاب حين تعاطت الذياد[267] . وأقام بجبله يشوب

---

(266) الفاسد ، الفاحش .

(267) الطرد .

اليسرى بالعسرىٰ ، ويقدم في الطاعة رجلاً ويؤخّر أخرىٰ .

فلما طلعت تباشير البشائر بالإبلال ، وراقت أسارير السرور بالبرء المحمود المنال . وجلىٰ بذلك الوقت العاطل ، وجاء الحق وزهق الباطل ، تذكّر الشيخ ما أسلف ، وأذكر ما أعدّ في ميدانه وأوجف . وخاف أن يعرف ما أسرّ من حبّ الخلاف ، والجري فيه على أسال الأسلاف ، والخروج من طاعة أولي الأمر والانحراف . ونكث البيعة التي تلقتها القلوب بالاجتماع والأهواء بالائتلاف . وعلق بحبائل الذعر والرعب وآحتمل الروع ملء الروع والقلب ، وأنذره العطل والعطب ، وآلتقىٰ البطان والحقب . وعلم أن أنباضه بغير توتير ، وإيماضه لا يدل على تخضير وأقصر عن اللجاج واللدد[268] ، وآستبان رشده أمْره ضحىٰ الغد .

وجعل يكتب متنصّلاً ، ويبسط المعاذير متوغلاً . وأنس بالشيخ المرابط أبي عبد اللّه محمّد بن أبي بكر المغربي تلميذ الشيخ أبي هاد شيخ المشايخ الأعلام ، والقطب الذي ألقىٰ آثاره غرراً في وجوه الأيّام .

فرغب من الشيخ أبي عبد اللّه المذكور أن يتحدّث في أمره ، وألقىٰ إليه ما زعم أنه صدقه به سن بكره . وطلب أن يكون قدومه على الباب الكريم في حفاوة الصلحاء الذين قدّروا الوفاء حق قدره .

ولم يكن إلّا أن أسعفه الشيخ أبو عبد اللّه بطلبه . وأخذ من مولانا أمير المؤمنين أيّده اللّه دستوراً تكفّل بإجزال موهبه .

وكان توجّه الشيخ أبي عبد اللّه من منزل المحلّة المنصورة بأغيل . فوجد الشيخ آبن ثابت قد أصابه ألم اعتقل خطاه وأثقل مطاه . فأقام معه حتى تخلّص من مرضه ، وتخلّت دواعيه لقضاء غرضه .

فلما نزل الركاب العلي بالفحص الأبيض خارج قسنطينة وصل آبن ثابت

(268) شدّة الخصومة .

المذكور صحبة الشيخ المغربي ، وأمر بحضوره بالبساط الكريم ، وقبلت توبته التي أظهرها عن القلب غير السليم . وصرف إليه وجه المرضىٰ ، وقيل عفىٰ اللّٰه عمّا سلف ومضى . وجدّد له ظهير الشياخة ، ومهّد له بجبله مهاد الاستناخة . وأيقن بنوىٰ نوائبه ، وإعدام مصاب مصائبه ، وأمضىٰ أكفىٰ أكفال تقديمه ، وأسحب أهدىٰ أهذاب تكريمه ، وأعيد إلى أرجىٰ أرجائه ، وبؤىٰ أنقىٰ أنقاب أدرائه .

لكنه الشيخ الضال أبصرته العافية التي توسد لبردى ظلالها ، ورجع على مرواه مظهراً الخباثة التي ثبطته فأوحىٰ أوحالها ، وأنسته بأغوىٰ أغوالها . وسيأتي ذكر ذلك في موضعه ، ويشرع في إيراده بمشرعه إن شاء اللّٰه تعالىٰ .

ذكر مسير مولانا أمير المسلمين أيّده اللّٰه إلى قسنطينة :

التي تداركها اللّٰه برحمته وصعوده إليها متنكّراً ، وتطوفه عليها متستراً . قد تقدّم فيما أسلفناه من القول ، وأشرنا إليه بلسان الطول . أن أهل قسنطينة لم يزالوا مصرِّين على المكافحة ، طائلاً طيلهم في المقابلة والمقابحة . واصلين مقاداتهم في العناد بالمراوحة .

وإن الوزير آبن ودرار أنذرهم فلم يجبه إلاّ المسفهون ، وأعذر إليهم فلجُّوا في طغيانهم يعمهون فكان جواب الوزير قرع الظنابيب[269] ، وطعن الطوال الأنابيب ، وتعاورهم بسهام كالشئابيب .

وشدّهم في ربقة المذلّة والهوان ، ورمىٰ حصنهم بالحجارة كالزانية بعد الإحصان . وألقىٰ عليهم أرواق الحصار ونوائنه[270] ، وأبدىٰ بحيث الجلاد وأخرج دفائنه . وأرسل عليهم أنفاطاً يتطاير شرارها كشرورهم ، ويحل من أسوارهم محل نيران الحقود من صدورهم . ويخلع قلوبهم بأصوات لا يطيقها

---

(269) الإقدام على الأمر بكل شجاعة وبكل قوّة .

(270) كذا في الأصل .

خروق المسامع ، ويبعثهم بفتكات تلحق الدارع بالحاسر والحاسر بالدارع .

وناشبهم بالحروب التي تعجبت منها المنايا المثارة ، وأصلاهم بالتي وقودها الحجارة ، والناس قبل التي وقودها الناس والحجارة . وغشىٰ أنوارهم بالكماة القوارع كالسيوف الدوافع ، وهجم عليها هجوم الطيف على العيون الهواجع[271] . وسما إليها بالقتال سمو حباب الماء ، وصدمها صدمة المزاحم زجاجة الصهباء ، وتركها طافية في عباب الهيجاء طفو الغناء[272] ، وأطلع على عوراتها آطلاع الناقة البزلاء ، على مسالك المرعىٰ الشاكرة صنائع الأنواء ، والكدرية السارحة في البيداء على طرق الموارد التي لا تكدير لها بالدلاء .

ولم يكن إلّا أن تمكّن من نقب[273] باب القنطرة ، وصبر من كان معه المرامي عليهم من القناطير المقنطرة . حتى كاد يدخل البلد عنوة ، ويمتطي له ذروة ، ويفصم عروة . لكنه أضاع الحزم ، وقصر في الاستيلاء عليها الكرم .

وأخّر اللّه فتحها إلى أجله المعدود ، ويومه المشهود ، وذخره لجمال الوجود ، والإمام الذي برز في ميدان البأس والجود .

ولم يزل أهل قسنطينة على جديلة من أمرهم مصرّين على العناد المضاعف لأصرهم ، حتى أحفظوا الخليفة أعظم أحفاظ ، وأيقظوا عيون العزائم وأجفان الصرائم أي إيقاظ .

وكان سلطانها الحفصي أحمد بن محمد بن أبي يحيىٰ قد آغترّ منها بالمعقل الذي اشتهر في المعاقل ، والمعتصر الذي أعيا تسنمه على الأواخر والأوائل . وأرغم أنوف الأحقاب ، وأشرف على الأكام العالية والهضاب ، إشراف العقاب الكاسرة على الأباطح ذات السراب ، وحمىٰ بمنعته مطالع

---

(271) النائمة .

(272) بضم الغين . كذا في الأصل .

(273) خرق .

السحاب كما حمىٰ كليب بن ربيعـة[274] مواقع السحاب .

وكاد يتناول نجوم السماء ذات الغمام فيتّقي بها نجوم السهام في ليل القتام . وتلقىٰ بها صباح الصفاح إذا تبلّج بآفاق الجيش اللهام ، ويرسلها رجوماً إذا أنس بغتات[275] التولج والاقتحام ، وأهابت الكماة بفتكات الحمام ، ونزوات الموت الزؤام .

معقل دفع في صدر كل حادث ، وعزّز السماكان[276] من سمكه بثالث ، وأناف على النسرين منه ذو نسور كل منها طائر ، وذو أسود ترعد لأسد البروج بها بوادر .

واستقرّ كالعابر ، بواديه فأنسىٰ الشعر العبـور ، وغمص الشعري[277] الغميصـا وسلبها الشعـور ، وكشف هواه عن ثعبـان نهـر يلتقم الصخـرة الصيخود[278] ، وتنزل مخارم الجبال فتكثر الركوع والسجود .

ولا تزال تغتال البروق اللوامع وتروع الغوارب والطوالع . وتلعب بالأبصار الروامق وتثبت عادته بالخوارق ، فمن طلب عقيلته التي حازها ، وقطعة كبده التي مازها[279] . تركه دونها حسيراً وردّه عنها كسيراً .

وأراهـا شامخـة الأنف ، واهية العـطف ، متلعة[280] الجيـد ، معوزة الإقليد ، مزورة الجوانب ، مرسلة الـذوائب ، مشدودة النـطاق ، شرشـة الأخلاق ، بادية النقاب ، محمية الأنقاب . ترنو بطرف ذي شوس ، وتتعاظم

---

(274) كليب بن ربيعة بن الحارث بن مرة التغلبي الوائلي (185-135ق .هـ) سيد بكر وتغلب في الجاهلية ، من الأبطال الشجعان . الزركلي : الأعلام ج 6 ص 90-91 .

(275) كذا في الأصل .

(276) نجمان في السماء .

(277) كذا في الأصل .

(278) الشديدة الحر .

(279) فرزها .

(280) طويلة العنق .

تعاظم ذي هوس .

فجن فؤاد سلطانها المغرور بها جنوناً ، وترك من طاعة الإمام العادل مفروضاً ومسنوناً . وعفىٰ سبلاً كان العدل يحبّها،[281] واستباح دماء كانت محقونة . ومزق أهبها .

وآلتحىٰ أهل ذلك البلد كما يلتحي القضيب ، وانتزعت أيدي اعتدائه نعمتهم كما ينتزع العسيب[282] . وأتىٰ مربع التقىٰ وخيماً وبيلاً ، ورأىٰ سبيل الرشد فلم يتخذه سبيلاً . وارتضع أخلاف الخلاف ، وأغذف[283] ظلام ظلمه أشد الأغذاف ، وأيه بالأوباش فأتوه ، وهيّب بالرعاع فلبُّوه . وصبر لمطاولة الحصار ، وحمل نفسه على اقتحام الأخطار .

ولما دهمه من محاصرة الوزير آبن ودرار مادهم ، وحاق به ما كان غلط في تحقيقه ووهم ، لم يشك أنه هالك إذا قدم الخليفة الإمام بجيوشه ، وأيقن أن مقرّ عناده سيصبح خاوياً على عروشه . ولم يجد لنفسه مخلّصاً ، وأصبح أضيق من القطاه[284] مفحصاً ، فلج[285] في الأضاليل ، واعتمل في الترهات والأباطيل ، وأشاع عند أهل بلده أن مولانا أيّده اللّه قد عدته عن قصد قسنطينة العوادي ، ونجمت بالعرب فتن على أيدي الأعادي ، واضطرمت نيران حروب بيداء[286] الحاضر فيها والبادي .

وأقسم على ذلك بالأيمان المغلّظة ووالىٰ،[87] وأبلغ في تمحيل وصول الركاب العلي وتعالىٰ ، وتوالىٰ أمره على الأكذوبة وتتالىٰ . فوثقوا بأخباره

---

(281) كذا في الأصل .
(282) عسب (بضم العين وتسكين السين أو بضمها معاً) وعسبان جريدة من النخل كشط خوصها .
(283) كذا في الأصل ولعلّه يريد يحفها .
(284) كذا في الأصل .
(285) تمادىٰ .
(286) لعلّه يقصد أبيد .
(287) في الأصل (والى) بتشديد اللام ولعلّه يقصد ووالىٰ .

واقتفروا ذميم آثاره ، وقاتلوا معه شيباً وشبّاناً ، واحتملوا إثماً وبهتاناً وأبدىٰ البر بأحاديثه فطاروا إليه زرافات[288] ووحداناً . ووافقوه على شقّ عصا الإسلام ، واحتقاب الأوزار والآثام ، ظلماً وعدواناً .

ثم انه تحقّق أن مولانا أيّده اللّٰه صدمه بتياره ، وأيقن أنه ستصيبه قارعة بما صنع أو تحل قريباً من داره . سقط في يده ، وخلد الهم بخلده ، وأودىٰ الجلاد الصدق بجلده .

إلّا أنه أظهر الصبر ، وأدار التقسيم والسر . وأشاد بأنّه قد وطن نفسه على الموت ، وصير حياته رهن الفوت . ودعا ببطانته الذين كانوا يظهرون معه الإباء ، ويضبطون له الأسوار ويلقون دونه الأسواء . فعرفهم بأمره ، وأخبرهم ـ فيما زعم ـ بذات صدره ، فاّقتدوا في العناد بفعله ، ونزعوا في قوسه ، وحطبوا في حبله . وزادوا في قول العار بواحاً ، وإظهار الشر صراحاً . وتقدّموا لعمارة الأسوار ، والذبّ عن حلال الديار ، وملاقاة التباب[289] والتبار[290] .

وخاف أهل البلد منهم فأفاضوا في ربابيتهم[291] قداحهم ، وأبدوا للحرب العوان اهتزازهم وارتياحهم . وأظهروا لهم الهوادة ، وأعطوهم[292] فيما زعموا المقادة . وصيروا العناد ظهراً يمتطونه ، والبغي رداءً يبسطونه . ونكروا قرح الحرب ، وأضرموا ألهوب الطعن والضرب . واستنسرت في الظاهر بغاتهم ، واستتب رأي العين انبراؤهم للنزال وانبعاثهم ، وصلبت قناة استشرائهم ، واشتدّت أواخي اعتدائهم .

وبلغ ذلك مولانا أيّده اللّٰه وقد نزل بوادي القطن فاستضعف عقولهم

(288) في الأصل زرفات .
(289) الخسران والضياع .
(290) نفس المعنىٰ السابق تقريباً .
(291) كلمة غير واضحة .
(292) لعل ضمير الجمع الملحق بـ (ربابيتهم ، ولهم ، وأعطوهم تحريف) راجع إلى النسخ لأن الضمير هنا يرجع إلى أمير قسنطينة وهو مفرد .

وأحلامهم ، واستعظم اجتراءهم واجترامهم . ورأىٰ أن العذاب قد حقّت عليهم كلمته ، والنكال قد غشيتهم ضلّته وأظللتهم ظلمته . وعزم على أن يشتد في محاصرتهم أبلغ الاشتداد ، ويطرق جنابهم بأمّ اللهيم وأخت الناد . وصرف أبصار عزائمه تلقاء استئصالهم ، ووكل عيناً غير نائمة باستباحة حلالهم .

ولما رحل من منزل واد القطن في يوم أبدىٰ وجوه البشر رائقة البشر ، وماست به قدود السعود في برود النصر ، لبث تحت أعلامه المنصورة بخلال ما أخذت الجيوش بأفواه الطرق الميسورة . وآزدحمت المواكب في الأودية والشعاب ، واستعلوا بإيجاف[293] الخيل والركاب .

فتلطّف أيّده اللّه في مفارقة ساقته أحسن التلطّف ، وتصرّف في إعمال الرأي السديد أجمل التصرّف . ومشىٰ في أفراس إلى قسنطينة داخلاً في غمار الناس ، مختفياً عن الأعين التي ترفع إليه في موطني الندىٰ والباس . منكراً من ذاته الشريفة أعرف المعارف ، ومجمع الكمال التالد والطارف . متستراً كالشمس حجبها الغيم بطرافه ، والروض الذي أخفاه الليل تحت أسدافه ، والدر الذي واراه البحر في أصدافه . والمسك الذي حجبته اللطائم ، والزهر الذي غيّبته عن الأبصار الكمائم والسيف الذي منع الغمد ظهوره ، وإنسان العين الذي حجب منطبق الأجفان نوره .

وما ثنىٰ العنان حتى دار بقسنطينة دوران العقد بالجيد ، وطاف بها طواف القدوم السعيد . ونظر إلى مداخلها وموالجها ، ورنا إلى مصاعدها ومعارجها .

وفكّر في تسهيل طرق الفتح ، وتطبيق مفاصل الهجوم عليها في طالع السعد والنجح . واستقصر أفعال آبن ودرار في جنب[294] الجدّ والعزم ، ورأىٰ نقض رأيه عن مقادير الآراء الكريمة في الأخذ بالحزم .

---

(293) من أوجف الفرس : جعله يعدو سريعاً .

(294) اجتناب .

وآهتدىٰ في المحاصرة بأمور لم تكن لأهل قسنطينة في حساب ، وسحتهم[295] بعذاب أي عذاب . وصير أطناب عنادهم إلى الإيجاز ، وأعاد صدور فسادهم معدود في الإعجاز ، وحقائق استعدادهم محسوبة في المجاز .

وما رجع أيّده اللّه حتى تكامل بالفحص الأبيض نزول محلاته ، وجاء النصر في أسعد آنائه وأوقاته ، ونطق الفتح بعذبات ألسن راياته .

وقد كانت الساقة السعيدة بمقربة من المعسكر الشريف منتظرة للرجوع ، مرتقبة لاجتلاء الغرّة السعيدة التي أنست البدر عند الطلوع . وأزرت بالشمس عند المتوع .

فتلقته أيّده اللّه مظللة بالألوية والبنود ، موضحة بأعلامها أعلام السعود ، مقيمة هيئة الملك المؤيّد الجنود .

ودخل مخيمه الشريف مرتقباً وفادة البشائر ، مرتقياً ثنايا الثناء الجميل المصائر ، موقناً بيمن الموارد ونجاح المصادر .

﴿ فصل ﴾

ولمّا استقرّ لمولانا أيّده اللّه قراره وجلس مجلس ملكه المأثورة مكارمه الكريمة آثاره ، وقع عزمه الشريف على بناء أبراج أمام سور باب الحمة ، وباب القنطرة وباب الجابية .

وآقتضىٰ رأيه السديد أن يكون على حظٍّ واحد على أعظم ما تكون من الاحتفال ، وأشمخ ما أعدّ للنزال والقتال . كبيرة الأجرام ، سامية الفتن كالشواهق العِظام . تكاد تتناول بأنامل شرفاتها كؤوس النجوم ، وتنتزع ما ألقاه البرق على حلل السحاب من الرقوم ، ضاربة حيث الرياح معقودة بنواصي

(295) أهلكهم واستأصلهم .

(296) ج جون وهو الأسود (من الأضداد) .

الغيوم . مبلغة أجيادها حيث الغمام ، مروعة بالاستيلاء عليها والهجوم .

وقسمت تلك المسافة حتى تعين عدد الأبراج ، وعرفت مقاديرها المحقّقة بالاستتباع والاستخراج . وعيّن أيّده اللّه لبناء كل برج منها عظيماً من عظماء دولته ، وسيوف بأسه وصولته .

وقسم عليهم القبائل ، وأعطىٰ لكل منهم الفارس والراجل ، والسائف والرامح والنابل . وأهبهم هبوب البيض الصوارم ، بداراً إلى إثارة الحفائظ وإمضاء العزائم ، وإسراعاً إلى احتقاب الفخر الواضح المراسم ، وافتتاح البلد الذي أشبه رئيسه شقي البراجم ، وسدك حزبه الحائر بالفتن النـواجم ، وانجحروا معه انجحار صب الأراقم .

وعيّن أيّده اللّه من تلك الأبراج برجاً يباشر تفقّده بنفسه ، ويصير يومه في بنائه مقصراً عن غده منيفاً عن أمسه .

وأمر بالاستكثار من آلات الحصار ، وجعلها قلائص تحمل ظهورها المنايا ، وترغو رغاء سغب ثمود في الغدوات والعشايا. وتضرب على تلك الأسوار ظلّة المنون ، وتطرق وجوهها البيض بالخطوب الجون[297] ، فما شئت من أنفاض كأنّما تطلب عند الأسوار ثأراً ، عادية كأنّما أكلت أموال اليتامىٰ ظلماً فأكلت في بطونها ناراً ، أستغفر اللّه بل هن الصالحات اللاتي لأفعالهن تعزيز ، ولصدورهن إدارات المحراب لكن من الجمان[298] أزيز .

مجاهدات وثقت بالسعادة أحسن الوثوق ، فإن صوتهن كالرعود وطارت سهامهن كالبروق ، وإن جارين الرياح فزن دونهن باللحوق . ومن مجانيق أثرها مرفوع ، وغناؤها بالخفيف والثقيل مسموع ، وإذا لطمت حجارتها خدود الأبراج تركتها وقد مسّها الانجراف ، وآن لها عن مقارها الانصراف .

ولولا ما عرفت من ضررها لأنشدت بنصرة الاشراف ، من خشب مسندة إلى غير ذلك من مطلع خشب تسكنه رماة الحدق ، وترمي فرق الأعداء

---

(297) كذا في الأصل .

بالفرق ، وتحل بأعلاه بيتاً له أسباب لكن للجهاد ، وأوتاد لكن من السهام المتغلغلة في الأكباد ، وفاصلة صغرىٰ لكن من الإرهاب والإبعاد ، وفاصلة كبرىٰ لكن من صدق القتال وفضل الجلاد .

(ومن ملاصق أرضية يروي كراها عن غالب لكن من سهامها ، وأسند عن طالب لكن من نادي رداها وباعث حمامها) .

ومن دبّابات تيسر من فتح المدينة كل مرام ، وسلالم تتلو ألسنة أحوالها بأعلىٰ أسوارها أدخلوها بسلام .

ومن أوذاف تكسيها الأيدي أيداً ، وتعتقلها فلا تمهل المنافقين رويداً ، قاذفة لا يجب عليها الحدّ ، محودة فلذا يحسن منها المضد ، من كل صائلة على الأعداء . إذا اجتمعت في حجرها بنات صخر فأبكت المنافقين بكاء الحسناء .

وأمر أيّده اللّه أن تفتقد القسي الحسنة الازورار ، التي تدني سهامها فما تنام أعينها عن الأوتار . من كل حنيـة عوضت بالشطاط الجنا ، لكنها أنست الصعدة تحت السنان وأزرت بالقنا . صائبة تعلمت وهي في منابت النبع قصار ، كيف يخرج من الشجر الأخضر نار ، فأخرجت وهي يابسة نيران سهام لها شرار ، وأرسلتها مريشة كما غنّت على غصونها من قبل أطيار ، وقومت الرماح التي عادت عند الرمي ميمها ياء ، وفتكت في النحور فكأنّما وجدت مزاج الأمزجة عسلاً وماء .

مصرحة وقد لازمها الثقاف ، تحمي بصدورها الأطراف . معتقلة لا تعرف الاعتقال ، متجرئة على الأعداء وقد لامه الاعتدال . عواسل تذكر وقائع تميم بن مر،(298) ذوابل تثمر نواعم الفتوحات يوم كرّ وفرّ .

من كل راوٍ حديثه معدود في العوالي ، طويل تقصر بإدخاله السرور الأيام

---

(298) لعلّه يقصد مر بن ربيعة . الزركلي . الأعلام - ج 8 ص 81 .

والليالي . صدق بنصح في حكم المشروع مسائله ، ويخرج لأخذ الأعشار من حب القلوب عامله .

وشحذت السيوف الكريمة الضرائب والطبع ، المعروفة . بحسن الضرائب والطبع . القواضي القواضب ، الضواري الضوارب ، كالتي يرهبها المناصي المناصب ، ويتهيّبها المغالي المغالب . الفواصم الفواصل ، للقواصم القواصل ، القواتم القواتل ، التي يرتاع لذكرها المعادي المعادل ، ويتحامىٰ حرابها المنازي المنازل .

صريحة الأحساب كما عرف بنو القين ، سارحة لغات الفتك التي كاد الخليل يجعلها في العين . معجبات راقت الأبصار بجمالها وخرجت من النار والجنة تحت ظلالها . حسنة الخلل والخلال ، كل ليالي حربها ليلة نسخ الآجال . حسنة الطرائق ، حامية دون مجاز للحقائق ، إذا طلقت أغمادها أشافت إليها العوانق ، وإذا طلعت بالأنوار والأنواء تاقت إليها الأحداق والحدائق .

بديعة تسرّ الراجي ، وتجلي المداجي ، وتجلو الدياجي . حسنة الاجتناء والاجتلاء ، يكدر صفا فزندها عيش الأعداء . سام طود فخرها ، ماض حكم أمرها . يقسم صمصامه عمرو بعهدها ، وتخرّ سيوف بني عبس صعقة لذكرها . عجلة تسبق العذل ، بالغة تبلغ الأمل .

سيوف تترك فاءها في السلم باء ، وإن اجتلبت في الحرب جداول أبدت حاء حمائها خاء . من كل سيف يطلب الثأر كأنّه آبن ذي يزن ، ويلبس حواشي البرد اليماني كأنّه قدم من عدن . محمود الجولة ، مرهوب الصولة . بعجز المتنبي عن وصفه ولا غرو فهو سيف الدولة . سعيد الحدّ ، جديد السعد ، ظهر منه الغرب وهو في أحكام الهند .

باتر لسان طيبة طليق ، وحده لمولانا المنصور عقد رقيق . صارم لآجال العداة به أجل صارم ، وحاكم يكاد يرضىٰ بما يقضي به وهو ظالم ، أثير جميل

أثره ، طرير حسبه طرره ، مناصر عزت الصاه[299] وأحزابه ، وعلا الرؤوس حتى كاد يستشرذ بابه ، مظاهر رسم الكتائب بوسمه ، وعرف حقيقة الفتح بحدّه ورسمه . فاتك طالما مرّ له في الملاحم يوم ، وربما سكن غرارة الجفن مكانه نوم . راوٍ عديم الوسن ، إسناد بأسه قوي وهو ليِّن المتن . ما أن يزال يحادث بالصقال ، ويقاتل القبض على قائمه ببسط الآمال محلىً يتمنى العقد النظيم أنضاده ، وتحسد التهائم المكلّلة بالأزهار نجاده .

ويا لكِ من سيوف كرمت مناحيها ، وآتضحت في المعالي معانيها ، فإن قصرت وصلتها كُماة بني مرين بأيديهم ، وكان وصلها خطاهم إلى أعاديهم . مصابيح ليل القتام والعجاج ، ومفاتيح أبواب النصر المرهوبة الإيصاد والإرتاج .

أعلىٰ اللّه بها كلمة الإسلام . وأعاد بأفعالها الحسن بهجة الليالي والأيّام .

وأمّا المعاول فإنها شراتب لأعوال المفسدين وأغوائهم . وتخييب استحلائهم واستجلائهم ، ومحو اجتراحهم واجترائهم . وكادت تهطع لتخليل قوىٰ الأسوار ، وتفريق ما آتّصل من أعضائها البادية للأبصار ، وحلّ تركيب جسومها التي أعطافها الأحجار ، وعضلاتها الألواح التي رشحها الرمل والجيار[300] وبقيت بعد أن عزف بها المقدار ، وعروقها وأغصانها الخشب التي حسن بها الإنشاء والإنشار ، وأرجلها الأساس الذي دام بها الاستقرار . وأيديها الأبراج المرفوعة التي بها الاستظهار ، ورؤوسها الشراريف المتوّجة التي راقت بها الأقطار . وعيونها الكوىٰ التي خرجت منها السهام المريشة فكأنّها الأشفار . وأفواهها الشفافات التي برزت منها الرماح فكأنّها الألسنة الطوال والقِصار . وصدورها الخراجات التي غشيت بالجلود البقريّة فكأنّما هي

(299) كذا في الأصل .
(300) في الهامش .

القميص والصدار .

وآشتاقت الفؤوس إلى تخريب الديار ، وإثكال عامر الأجدار ، ولو يكون كعامر الاجدار . ونزعت المساحي إلى تلك المساحات ، وتشوفت للغيث في منازلها التي مدّت راحات الراحات . وودّت لو وقعت مصانعها ولو على خدودها ، وآنهارت مبانيها ولو على قدودها ، وحرّكت معانيها ولو على عودها .

وعزم مولانا أيّده اللّه على أن يقدم على قسنطينة ليتركها عبرة للمعتبرين ، وينزل في غد ساحتها ليسوء صباح المنذرين . لكن اللّه سبحانه كيف التي كانت أقرب لليسرىٰ ، وأجلب المسرّة الكبرىٰ . وسنىٰ عزّ وجلّ ما تقدّم ذكره من الصنائع التي أقرّت عين الإسلام ، وجمعت المصالح الجميلة الافتتاح والاختتام .

وسيأتي ذكر ذلك إن شاء اللّه محفوظ النظام ، متمطرة في ميدانه جياد الأقلام .

﴿ فصل ﴾

ولمّا نزل مولانا أيّده اللّه بالفحص الأبيض مظهراً السواد الأعظم من كتائبه ، والياً بالليل والنجوم والبروق لكن من نقع جياده وأسنة صعاده ولمعان قواضبه ، وبالأغيال والضراغم والعقبان لكن من خيام فرسانه وفرسان ميدانه وأعلام مقانبه(300) .

وتكامل تخييم العساكر والحافل ، وتناسقت المحلّات المانعة المناصي اللامعة المفاصل . وآستوفىٰ ورود القبائل الذين ازدحموا على موارد المنايا ازدحاماً ، وأعلموا ضرباً فراداً وطعاناً تواما ، «وطلبوا بجهادهم الجنّة التي هي «حسنت مستقراً ومقاماً» . ودعاهم الدين لإصراخه فما ألفاهم روبىٰ ولا نياماً .

---

(300) ج مقنب . أعلام جيوشه .

علم أهل قسنطينة أن رأيهم دلاهم بغرور ، وتركهم ذرية ويل وثبور ، وحرمهم الدخول في الطاعة التي هي ﴿نور على نور﴾ . وعدُّوا أنفسهم في الذاهبين ، وقالوا : ﴿ألاَ لعنة اللّه على الكاذبين﴾ . وعلموا بالضرورة صحّة ما جعلوه في حيِّز المحال ، من قدوم الركاب العلي إلى تلكم الربوع والخلال ، وقدومه عليهم حالي الأحوال ، جميل الانتقاد والانتقال ، محمود الاعتماد والاعتمال ، مرضي الاحتفاء والاحتفال .

ورأوا أنّه لا طاقة لهم بما شاهدوه عياناً ، ولو أنّهم آتّخذوا جيوش كسرىٰ بن هرمز أنصاراً وأعواناً . وأنّهم سينقطع دابرهم انقطاعاً ، ولو أنّهم أتوا بتابعة حمير أتباعاً . ولو شكان ما تنكرت لسلطانهم وجوههم . وأظلّه بعد المحبوب مكروههم . وبلغ به السيل الزبىٰ ، وفاض الآتي على الأكام والربىٰ .

وجاوز الحزام الطيبين ، وأتته الدقارير[301] منذرة بالحين . فبات بليل النابغة بالحمومين ، وليل مهلهل بن ربيعة، ، ،

لكن عفو مولانا أيّده اللّه أخذ بضبعه ، وحلمه الجميل أنعشه بعد ركوب ردعه . وعلمه أن الإمهال كان لاستدراجه لا لتمحيصه ، وإيقانه أن الموت أقرب إليه من شراك نعله وزرّ قميصه .

فحقيق لمولانا أن يقول أي ذنبٍ لا يسعه عفوي ، وأي كدر لا يضمحل بورود صفوي ، وأي جرم لا يرجحه حلمي ، وأي مفضلة لا يجليها علمي .

أبقىٰ اللّه أفعاله الحسنىٰ مثلاً سائراً ، وخلد مناقبه العليا روضاً مزهراً وأفقاً زاهراً .

وسيأتي إن شاء اللّه تفصيل هذا الإجمال منزهة أحاديثه عن الاعضال ، وأدلته الظاهرة عن الأشكال .

---

(302) ج دقرار ودقرارة : مؤامرة .

ذكر القدوم على قسنطينة والتبريز:
ووصف ذلك على التعريف والتمييز:

ولما كان يوم النزول بالفحص الأبيض ، وتعسكر الكتائب فيه بالعزم الأنهىٰ الأنهض . أمر أيّده اللّه أن لا يركب أحد في غد الاّ وهو مظاهر بين دروعه ، شاك في الحديد الذي يروق العيون بمصنوعه ، ويحصن لابسه من بأسه الذي أذن بصدوعه .

فأخرجت الدروع التي حكت جلود الأراقم وقد مزقت ، فخاطبها بأعينها الجراد التي أتقنت العمل وحقّقت ، بل حكت الغدران التي تجمّعت بالتموج وتفرقت ، ونمقت أيدي الرياح من صفحاتها ما تنمقت ، بل حكت النجوم آية نسقت . وظهرت دوائرها متداخلاً بعضها في بعض فتألّفت سوابغ لا يطور جنابها فاصل ولا فاصم . ولا يخفر ذممها على ذوي التيجان بيض صارم . دواوية إن قصدتها السمر السمهرية صارت قصداً ، وإن أشرفت عليها البيض المشرفية صيرتها بدداً .

أبرزت المصفحات التي لا تصفح عن زلّة الرمح إن راودها ، ولا تقبل عثرة السيف الجرّار أن عاهدها . ذات الألواح لكن من الهند المطبوع صفائح ، والد سر لكن من الذهب الذي بهر الكواكب اللوائح .

من كل رائق الديباج ، لم تجل في انهاجه أيدي الانهاج . تعلوها المضمّات الثقال من خالص اللجين والنضار . مشدودة كاللحاء[304] على قصب الروضة المعطار ، كللت باليواقيت ، لاقتضاء النصر في أقرب المواقيت . وزينت باللآلي ، لترىٰ في أحسن الأيام والليالي .

وأمّا المغافر[305] فإنها غفرت ما تقدّم من ذنب الحرب ، بما أنست من يوم

---

(303) كلمة انمحت .

(304) يقصد به القشرة .

(305) المغافر . ج مغفر زرد ينسج على قدر الرأس أو نوع منه .

الفتح المُذْهِب للكرب ، الذي ظهرت حسناته في الشرق بأهل الغرب ، فهي تلوح فوق مفارق الشجعان ، كحباب خمر الكؤوس بأيدي الندمان ، إلاّ أنها أعارت خمارها لعواسل المران ، إذا أشرعت للطعان . ولزرق النصال ، إذا سددت للأوصال ولبيض المناصل ، إذا سلت لحز المفاصل .

وأمّا البيضـات[306] فإنها استعارت ألوان الشموس والبدور ، وآتخذت رؤوس الأعلام للرؤوس أفلاكاً باهرة النور ، فما رمقتها عين سنان إلاّ مسّها تحيير ، ولا رجع لها بصر نصل إلاّ رجع ﴿خاسئاً وهو حسير﴾ .

وآنقضىٰ ذلك اليوم في تحيّز السلاح ، وانتقاء السكك الضامنة النجاح ، وأعطىٰ مولانا أيّده اللّٰه في ذلك اليوم ، من الدروع الهندية ، والمصفحات الديباجية ، والبيضات الفضيّة والذهبيّة ، والسيوف الهنـدوانيّة ، والقسي اللمطية ، والخيول اللاحقية ما أخذت به الحروب مأخذها حديث الاعتزام والاحتزام متناً وإسناداً . وذكرت أيّام الإسكندر ورجعت إلى دار آبن دارىٰ كتائبه . وإن شعر آبن فـاتك[307] ضمد[308] لملوك الطوائف مقانبه ، وسابور آبن هرمز نهدت للإيفاع بأياد حشوده ، وحسان بن سبع صبحت حديس باليمامة جنوده .

أستغفر اللّٰه بل ذكرت أيّام الخلفاء الراشدين في صدر الإسلام ، واجتماع جيوشهم لقهر عبدة الأصنام . وكفّ أكفّ المفسدين المجتنين . للآثام ، وإقامة العدل الذي أنام عيون الأنام ، وبسط الأمنة الناشئة بين ضرير القلم وصليل الحسام .

وجاءت الليلة المقبلة مرعفة بمسك ظلامها أنف الشفق ، مرسلة على

---

(306) كذا في الأصل .

(307) هل يقصد فاتك بن محمد (ت : 553 هـ) أو فاتك بن منصور (ت : 531 هـ) .
راجع في الموضوع . الزركلي : الأعلام ـ ج 5 . ص : 322 .

(308) كذا في الأصل .

قرطاس الأفق اليقـن[309] مداد الغسق . وما زال مولانا أيّده اللّه ناظراً في تعبئة الجيوش وترتيب العسـاكر ، وتـدبير الآراء التي أبـان نجح مـواردها يمن المصادر .

فلمّا نكص الليل على عقبيه وتقهقر ، ومسح الصبح رأس الأفق بيديه فأقبل بهما وأدبر ، ركبت الجيوش التي أصبح كل منها نشيطاً طيب النفس ، وآمتطوا ظهور الجياد وكل منهم مأنوس الظهور ظاهر الانس ، محققاً النصر النهاري بالنظر إلى الشمس . ووقفت الساقة أمام المخيم الشريف رافعة أعلامها ، ناصبة طبولها ، خافضة كلامها ، وآصـطفّت الصفوف ، وتنكّـر المنكر وتعرّف المعروف . وتحيّرت الشعوب والقبائل ، وتحاجرت العمائر والفصائل ، لتترتب الكتائب والجحافل . ورفعت كل جماعة علمها الذي يهتدىٰ بمناره ، ويطلب ظهورها بإظهاره ، وتسند آثار البأس في آثاره ، وتحرّك منه جناح طائر جثم النصر بأوكاره .

واجتمعت الخلائق ، وتزاحمت الفيالق ، وتصاهلت الجرد السوابق ، ولاعبت ظلالها الضمر اللواحق . من كل أدهم أشبه المسك العتيق لكن خالطه الكافور فهو بوجهه تسمىٰ غره ، وحكىٰ الليل البهيم لكن حجوله الصبح الذي بهر أنواراً وراق سرّه . مسرج بالهلال ملجم بالنجوم ، طروب كأنّما علّ بالرحيق المختوم .

ومن أشقر حكىٰ البرق لكن الغيث عرقه ، وكأنّما صهيله الرعد لكن إذا امتد طلقه .

ومن أحمر كأنّه شقيقة نعمان بأيدي الحروب ، إلاّ أن حجوله طاقات نسرين منعش للقلوب .

ومن أصفر كأنّه كأس المدام ، إلاّ أن غرته الحباب الذي أثارته أيدي

---

(309) الأبيض .

الندام ، محجل الشمال كأنّا علقت به قطعة سوسان غبّ الغمام .

وآخر كأنّما لبس الأصيل يوم ملاحمه ، إلاّ أن الليل مسح بيده على عرفه وقوائمه ، وألقىٰ على وجهه أثراً من مباسمه .

ومن أشهب كالقرطاس تخط فيه أيدي الحروب بمداد الدماء ، وتثربه بالنقع المثار في مأزق الهيجاء ، بعد أن تشكّله السيوف الصادقة المضاء وتنقطه الأسنّة المشرعة بأيدي الأعداء ، فيرىٰ ضاربه بصفحة حروف الهيجاء ، ويقرأ راكبه سطور المدح المأثور الأنباء .

ومن أشهب حديدي طويل الذيل ، كأنّما صور من طينة الصبح لكن بعد أن خلطت بطينة الليل . سريع المرور كالسحائب ، بارز العين كالفجر الصادق طويل الجيد كالفجر الكاذب . يتصبّب عرقاً فكأنّما آستعار وقوع الندىٰ . ويقدح بالصفاح ناراً وكأنّها التي آضطرمت في صدور العدىٰ .

ومن كميت كأنّما صور من العنبر المشوب بالعبير ، وترك بين عينيه فلذة من القمر المنير ، ظهره قصير كيوم السرور . وعنقه طويل كليل المهجور ، وحوافره صلبة كقلوب الأعداء الذين تخولوا بمواعظ الملك المنصور . وكشحه ضامر كرمح الخليفة الإمام الذي أشرعه للصدور منهم والنحور ، ومن أشعل قواه مجموعة ، كأنّه للنزال نار قرىٰ مرفوعة . صدره واسع كميدانه ، وعرفه طويل كعنانه ، وأذنه مرتفعة كسنان راكبه يوم طعانه .

ومن أنبط كما زين الفلق بالشفق ، وأسيل النضار على الورق والورق . ورمىٰ في متن الغدير ، بقايا الزهر النضير . يكاد يسبق الأذهان إلى ما يوضحه نتائج البرهان ويأخذ الثنايا على الرياح إذا مرّت بذات الشيخ والبان[310] .

إلى غير تلك من خيول حسنت شياتها وحلاها ، وكرمت أخراها وأولاها ، وعرف الوجيه ولاحق مجدها وعلاها . بحار ركبتها بحار ، وأنوار استقلّت

(310) يتعلّق الأمر بنوع من النبات .

بأعلاها أنوار .

ولم يرع الناس وقد رفعوا العيون ، واجتمعوا كما يتمنىٰ مخبر أن يكون إلاّ خروج مولانا أيّده اللّه وقد لبس ملوطة[311] بيضاء بالعمل الشواشي ، أشبه شيء بالمعصم الموشي . أو الصحيفة التي كتبت فيها آثار مجده العلي . ولبس فوقها مصفحاً ملوكياً عظم قدراً ، وأشبه الروض المزهر فاتّخذ المضمة الشريفة نهراً . وتقلّد السيف الكريم الذي نسميه حساماً وتسميه الحروب نصراً . وجعل على رأسه العزيز بيضة هندية سامية كفخره ، مصقولة نيره كفكره . تنطبع بها الأشياء كما انطبعت الأسرار بقلبه المودع بخزانة صدره .

ولبس أيّده اللّه على المصفح غفارة حمراء كأنّها خجل نجد الزمان أو وردة ناضرة بأكفّ الحسن والإحسان . فما رأت العيون أحسن منه منظراً ، ولا شاهدت من هو أجمل منه مخبراً .

ولما استوىٰ جواداً على ظهر جواد ، وطلع بدراً في سماء سعد وإسعاد ، قرعت الطبول التي أنست زئير الأسد في أغيالها وقصرت بمهموزاتها المرهوبة دون أشبالها . ولاحت البوقات والأنفار في موكب النصر ، فأرّخ العزّ تواريخ سعوده منها بالصفر . وانتشرت الأعلام التي هي بالفتح أعلام ، وأحكام معاقدها للنصر أحكام ، وعذباتها للأعداء عذاب وإيلام ، طالعة في العقاب كالعقبان ، متّفقة الأشكال مختلفة الألوان . يحملها كل رمح يغلب بفضل اللّه ولا يغلب ، أسمر تهرب منه الجون إذا لاح وفي رأسه المذهب . عسال يلتذ الكلم المعسولة بنعته ووصفه ، طويل يفتك فتك قصير لكن من غير جدع لأنفه . هاد يظل ولا يضل ، حسيب يعل ولا يعل . (قانت إن قارب به المحراب البطل صف) ، سعيد ما ضمنته كف إلاّ وللأعداء به كف .

ولمّا ركب مولانا أيّده اللّه في موكبه الذي تضاءلت له المواكب . وظهرت في النهار بليل عجاجه الكواكب ، وآلتقىٰ عليه أهل دخلته الذين هم مدارة

---

(311) قلنسوة من نوع خاص فاخر .

الحروب ومفارج الكروب ، وأسود الغاب التي أنشبت أظفار سيوفها بالخطوب ولم تكن مهمتها يوم الكريهة في السلب لكن في المسلوب وأخذت الجيوش في صعود العقبة التي تفضي إلى مسور قسنطينة ، وتستدني أماكنها المكينة فلا ترىٰ إلّا كتيبة جاءت تتلو أخرىٰ ، وجحافل تنثال على آثار جحافل تترىٰ . وعسكراً يعقب عسكراً ، ومنسراً يستتبع منسراً . وفيلقاً يصمد في آخره فيلق . وأراعيل تغص بها كل بيداء سملق . وسرايا تختلط بسرايا ، وطلائع تقدم بالمنايا . وجنوداً تتبعها جنود ، وأسوداً تستقدمها أسود ، وبنوداً تخالطها بنود ، وحشوداً بظاهرها حشود . وفرسانها تأخذ صوب فرسان ، وخمساناً تعتام ارب خمسان[313] .

وقلّما طلعت قطعة من الجيوش المنصورة ، والأحزاب المبيضة وجوه صحائفها بالأعمال المبرورة . والمساعي المشكورة إلّا ومعها هوادج تزاحم أسوار قسنطينة بمناكبها وترسل عليها بأكفّ النسيم فضل دواهيها . ألف[313] للحروب من العنبر الورد ، وألصق بالهياج من حواشي البرد . معمورة ساحاتها بالجواري ، وهن اللائي يحمين الخيول الجواري . عرائس أيّام الظعان ، قد أوقدت دونها شموع عوامل الحرصان ومشاعل المنايا الضاربة بالأعطان . وجعل[314] يتلوها رؤوس الأبطال وقمم الشجعان .

وتلوم مولانا أيّده اللّه حتى رأىٰ عرض الكتائب ، وسدّت الغبرة ما بين المشارق والمغارب . ثم طلع في كتيبته المختارة التي راعت الجن والإنس ، وآزدحمت بها الأسنة فحجبت الشمس .

وأطلعت من هوادجه العظمىٰ كل فضفاض السحاب مهتز الأعطاف ، عارفاً بأهل الخرف ، تحتجّ الحروب منه بالإشراف ، بادي المحاسن كالروض

---

(312) إشارة إلى الجيش الذي يتكوّن من خمسة أجزاء : المقدّمة والقلب والميمنة والميسرة والساقة .

(313) كذا في الأصل .

(314) كلمة عسيرة القراءة .

غب العارض الوكاف ، تستخر أمامه الطعن والضرب يـوم الاصطفـاف ، وتمشي في مناكبه المنايا المعملة الحوافر والأخفاف .

فلمّا قرب مولانا أيّده اللّه من باب الوادي، ورأىٰ عليه شعار الأعادي، مال بعينه شمالاً ، وصال كالليث مصالاً . حتى كاد طرفه يطأ شفير الحفير ، ويشـرب دماء المنـافقين بالصفيـر . ثم أخذ ذات اليمين قـاصداً مخيّمـه الشريف ، ومقرّه العالي المنيف . وقد كانت مضاربه أقيمت قريب المصلىٰ ، فلاح أفراق السعيد كالصبح إذا تجلّىٰ ، وارتفعت نجوم الأخبية التي تولىٰ العز من أمرها ما تولّىٰ .

فلم ينشب مولانا أيّده اللّه أن نزل عن جواده ، وجرىٰ في إطعام الطعام وإفشاء السلام على معتاده ، وقدح زناد آرائه ، واستفتـح أبواب السمـاء بدعائه . وتوكّل على اللّه في أمره ، وفوّض إليه في سرّه وجهره . وصرف عزمه لمنازلة أهل لعمه والسفاه وتلا قوله تعالىٰ : **﴿فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر اللّه﴾** .

وجلس على سرير ملكه ينتخب الكماة ، ويختار الكفاة ، وينتقي الأبطال الحماة ، ويثبت الحمية ، ويثير الحفائظ المزهية . ويهيب بأهل العزائم ، ويشحذ الضرائم شحذ الصوارم . ويكلا بعينين احداهما ترىٰ ابتداء الأعمال في قهر أولي الضلال ، وأخرىٰ ترىٰ ما وراء العواقب من حسن الأحوال وبلوغ الآمال ، ويبطش بيدين احداهما ممدودة للقتال ، مؤجّجة نار الجلاد والنزال ، وأخرىٰ تستنزل بالخضوع في السؤال عوائد نصر اللّه العميم الجود والإفضال ، ويلبس ثوبين أحدهما لملاقاة البأس ومعانقة الأبطال ، وحفظ الذات الشريفة من بيض السيوف وسمر الرماح وزرق النصال ، وآخر من الصبر المحمود المنال ، والصدق الذي اعتمل الإخلاص في اكتنافه أحسن الاعتمال . وكان خليقاً بما سناه اللّه له من النصر الذي ناله على شرف الكمال ، والفتح الذي حج بيت الخلافة مرضى الإحرام والإحلال ، وأتىٰ على كل ضامر لكن من الرماح السمر الطوال ، وجديراً بما أراه سبحانه منن الصنائع الباهرة الجمال ،

والمكيفات الحسنة التفصيل والإجمال ، والعناية الربّانية التي لا تزال إن شاء اللّه متّصلة الدوام ، دائمة الاتصال والحمد للّه على ذلك حمداً نجد بركته في الحال والاستقبال ، وتعود بالنعم المتوالية الانهماء[315] المتتالية الانهمال[316] .

ذكر ما ظهر من أهل البلد :

عند طلوع الجيوش الوافرة العدّة والعدد :

المظهرة في فضل الجلاد لفضل الجلد .

ولما شاهد أهل قسنطينة من عظمة الملا ما شاهدوه ، واجتازت عليهم العساكر التي رددوا ذكرها وعاودوه . بهتوا وحاروا ، وأثاروا من حزنهم ما أثاروا . وشملهم الندم ، حين زلت بهم القدم ، وتمم وجودهم العدم . وبقوا شاخصة أبصارهم ، مشخصة للخسار أبصارهم . لا ينطقون ولا يستنطقون ، ولا يجمعون من حسن عزائمهم إلاّ دون ما يفرقون ، ولا يرقعون من أهاب صبرهم إلاّ دون ما يمرقون .

أحياء كأنّهم أموات ، لا يعرفون الثبات وهم ثبات . سكارىٰ وما هم بسكارىٰ ، حيارىٰ وحقيق أن يكونوا حيارىٰ .

أناس سيقت الخطوب إليهم ، وضربت الذلّة والمسكنة عليهم ، وجد لهم من كانوا عليه يجترئون ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون . وأيقنوا بالهلاك ، وعلقت طيورهم بالأشراك ، وعزت رهونهم عن الانفكاك .

وزلزلت أقدام أقدامهم ، ونصلت سهام اعتزامهم . وفشىٰ الروع نار حربهم حتى باخت[317] ، واعتمد الجزع اجزاع قلوبهم حتى ساخت . وسكنت زماجر نزالهم ، ونشطت مزاحم قتالهم ، ولانت معاجم مجالهم ، وخمدت نيران جلادهم ، وانبتّت جدائل استعدادهم ، ونبت سيوف

---

(315) و (316) يقصد بذلك استمرار النعمة ودوام الفضل .

(317) سكنت .

عزائمهم ، وكبت خيول صرائمهم ، وصلد زند بأسهم ، وجلت أمراس مراسهم ، وأطفي لهيب اعتدائهم ، ونسلت أجنحة استسرائهم ، وشلت كنائز اقتدارهم ، وأخرجت دفاتر أسرارهم . وفلت شبوات أيديهم ، وحطمت قناة كيدهم ، وجب غارب شرورهم ، وقصمت مرائر أمورهم ، وأزيل ازورار زورهم ، وأقيم درء فسادهم ، وكفّت وطأة عنادهم ، واستشفت بلالة اعتزازهم ، وبكرت شارة امتيازهم . وطوح بهم من حالق ، وأسلمت هامهم إلى فالق . وراضت سيوف جماحهم ، وأركدت الرماح رياحهم ، وأقامت السهام المقومة اعوجاجهم ، وكفّت ألسنة نصالها الذلق لجاجهم ، وأبقت المجانيق بأرجائهم . أثراً فلقيت حجورها كل فم حجراً .

وقامت لهم لا عن برّ ولا عن كرامة ، بل جمعتهم جمع تكسير وكانوا مجموعين جمع سلامة . ولاذوا بأحجار الذئاب العاوية والضباب الهاوية . حذار النفط الذي رماهم بمجال محن ، وأذهب دخانه كل فتنة كانت على دخن .[318] وأصلحوا الحما على وضم[319] ، وقراطيس على أكم .

قد بلغت قلوبهم الحناجر ، وأدمت دموعهم المحاجر . ولم يبقَ إلاّ أن تلتف الساق بالساق ، وبمقال هل من راق بعد السباق؟ . لكن اللّه أجمل لهم صنيعاً ، وسخّر لهم مولانا الذي لم يزل سميعاً ، وتلا لسان حلمه : ﴿**ومن أحياها فكأنّما أحيا الناس جميعاً**﴾ .

جعل اللّه أيّامه لفصول السعد ربيعاً ، ولا زال سيفه لندىٰ النصر رضيعاً ، وجعل عدوه ممن خر للفم واليدين صريعاً .

---

(318) حقد .

(319) ما يوضع بين اللحم والأرض .

ذكر إنابة أمير قسنطينة إلى الطاعة :
ودخوله هو وأهل بلده مع الجماعة :

ولمّا رأىٰ أحمد بن محمد بن أبي يحيىٰ ما نزل بساحته من أحزاب الحقّ والهدى ، وعلم أنه طعمة في لهوات الردىٰ . وحصل في أنشوطة الهلكة ، وعدم بعناده لطائف الخير والبركة . ولم يبقَ إلاّ أن تبتّ السيوف حبل وريده ، وتردد المنايا بيت قصيده ، راجع بصيرته ، وأصلح سريرته . ورد مورد الرشد عذب النطاف صفواً ، وطلب العفو حين رأىٰ خير الفتوح قد جاء عفـواً وأصحب بعد الجماح وأناب ، وكان من الذين يعملون السوء بجهالة قباب . ولجأ إلى ما عرف به مولانا أمير المؤمنين أبو عنان أيّـده اللّه من العفو عند القدرة والحلم ، وما خصّه اللّه به من الفضائل المشتهرة اشتهار قمر التـم[320] والمناقب التي تأسّست مبانيها على قواعد الدِّين والعلم .

وعرض رأيه على أهل بلده فكل أجاب إلى الدخول في طاعة الإمام ، وجعل في عنقه بآلتزام البيعة ربقة الإسلام . ولجؤوا إلى اللّه تعالىٰ في تفريج ما دهمهم من الشدائد ، وخافوا أن يلحقوا بالذين مكروا من قبلهم فأتىٰ اللّه بنيانهم من القواعد . وأخلصوا التوبة النصوح ، وقصدوا الباب المفتوح . والرفد الممنوح ، والصدر المشروح ، اللهم إلاّ طائفة لبست الحق بالباطل ، وأضمرت لخبيث السرائر والدخائل ، أستـار البغي والعناد ، وبقـايا الغي والفساد .

أناس لا يرتكبون إلاّ التي هي أغدر ، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر . قوم يظهرون الطاعة ويضمرون المعصية ، ولا يـدرون بالحسنة السيّئة .

ولم يكن إلاّ أن طلب صاحب قسنطينة المذكور مَنْ يتناول معه الحديث ، ويقبل الطيب منه وينفي الخبيث . فتوّجه إليه الوزير إبن ودرار حتى سمع

(320) يقصد به امتلاء القمر .

كلامه وحقّق افتتاحه واختتامه . وحاصله إلاّ قرار بالذنب والحوب[321] ، والإعلان بالتوبة والدعاء لعلاّم الغيوب . ومدّ يد الرغبة لمولانا أمير المؤمنين أيّده اللّه في العفو عنه وعن أهل بلده ، والغفران لجرائمه التي صيرته هامة يومه أو غده . ولم يشترط في تسليم البلد بذل مال ، ولا تعرض لغير طلب العفو بحال .

فغلبت على مولانا أيّده اللّه الرأفة والحنان وعلم أن الرحماء يرحمهم الرحمان . وهزّته أريحية الجود والكرم ، وعاد إلى عوائد الفضل العمم . وآثر العفو على التشفّي ، ودان بالحلم الذي يذهب آثار المخاوف ويعفي .

فقبل توبة أهل تلك المدرّة ، وعامل في ذلك أيّده اللّه هو أهل التقوىٰ وأهل المغفرة . وأسعفهم بتبليغ الآمال ، وأمّنهم في النفوس والأموال ، وكفّ عنهم السيوف التي تلمطت لاستئصالهم ، والرماح التي تكفّلت طوالها بقصر آجالهم . والسهام التي لا تفل نصالها إلاّ في صدور فلالهم . وأسقط أجنّة المجانيق بعد ظهور حملها . وصير معقولها منقولاً لكن عن مناهج البلدة وسبلها .

وأراح الأسوار مما حمل عليها من الإصر ، ونفض عياد[322] لأنفاط من شرر كالقصر يسري إلى القصر .

ورجع الوزير آبن ودرار إلى صاحب قسنطينة بهذه البشارة والأمنية الحسنة الشارة ، فشكر النعمة شكر الأرض الممحلة لواكف القطر ، وسرّ بذلك أهل بلده سرور التائهين بطلوع الأنجم الزهر . وحمدوا اللّه علىٰ أبقاه حياتهم ، وجمع شتاتهم ، وتفريج أزمتهم ، وعود نعمة نعمتهم . وأقاموا مواسم الأفراح . وتباشرت الجسوم بالأرواح . وحلّت عقل[324] العقول ، وقضي دين السعد على الحلول .

---

(321) يقصد به الإثم .

(322) كذا في الأصل .

وجيء بالعهد المأمون والرفد المأمول . وعمّ النجح وفاز القدح ، وارتفع عن زند الحروب القدح . وأطلّ الخليفة المتوكّل فلا غرو أن سار بين يديه الفتح .

وفي الحين وجّه أحمد بن محمد بن أبي يحيىٰ أخاه الفضل شاكراً للفضل ، مثنياً على القول الإمامي والفعل ، جارياً في تقرير العبودية على أوضح السُّبُل . ومعلماً أن أخاه المذكور تلوم بالبلد قليلاً ليخرج عياله ، ويحتمل أثقاله ، ويسرع عن مسقط رأسه قبل مسقط رأسه وارتحاله .

فلمّا حضر الفضل بالبساط الكريم قبّل الأرض ، وأدّىٰ الواجب من تعظيم الخلافة والفرض . وآلتفت نحو مولانا أمير المؤمنين وتلا قول اللّه سبحانه ﴿تاللّه لقد أثرك اللّه علينا وإن كنا لخاطئين﴾ . وأدّىٰ براءة من أخيه إلى المقام العلي المولوي الإمامي طالباً منه خط يده الكريمة بالأمان ليطمئن قلبه ويسكن روعه ، ويذهب كربه ، ويكمل لديه المسرّة التي قرّبها علىٰ مضاجع الأماني جنبه . فأسعف مولانا أيّده اللّه قصده ، وأنجح بالإسعاف صدره وورده . وأشفق من حال الأخوين ، ورجع الرسول بذخرىٰ جنان لا بخفي حنين .

وبعد ونية خرج الأمير أبو العبّاس إلى المحلّات المنصورة ومعه أهل قسنطينة على اختلافهم في المراتب وتفاوتهم في المناصب وتفرّقهم في المناسب . قد نهكتهم الحرب ، ونال منهم الطعن والضرب . وأوهن قراهم الخوف والجوع . وأذهلهم الروع الذي يعرفه الروع ، متغيّرة وجوههم ، من كثرة ما غشيهم مكروههم .

وأقبلوا شعثاً غبراً ، لا يكادون يفقهون قولاً ولا يفهمون ذكراً . كأنّما أنشروا من القبور ، وأخرجوا من الظلمات إلى النور ، وطالما غشيت عيونهم فأعجب لرفع الجار المجرور .

ولمّا دخل الأمير أبو العبّاس إلى البساط الكريم ، ومثل صاغراً بين يدي الخلافة المحفوفة بالإكبار والتعظيم . أبلغ في الاستجداء ، وأفصح في طلب

العفو والإغضاء . وعدد نِعم مولانا عليه ، وذكر عهوده القديمة بين يديه . فتلقّاه أيّده اللّٰه بالقبول والإقبال ، وجعل له النزل الكريم مكان النزال . فأشفق عليه فضلاً منه وعطفاً . وتلا لسان حاله : ﴿عفا اللّٰه عمّا سلف﴾ وكلّمه أيّده اللّٰه بكلام اندملت به كلومه ، وأعرب عن مكارم الأخلاق منظومه ومفهومه . وأنسه تأنيساً أبقىٰ رمقه حين رمقه ، وأولاه من أياديه الجسام ما أنطق لسانه بالشكر وأطلقه . فقبّل الأرض مرّة بعد أخرى ، ورأىٰ أن اللّٰه قد يسّره لليسرىٰ ، وجعله بطاعة أمير المؤمنين من الذين تنفعهم الذكرىٰ .

وعاد السيف المسلول لبيت حياته من جملة هباته ، والرمح المشرع للباته من بعض عطاياه العائدة بأمنياته . والخيل الراجفة لقتاله من بعض المواهب المتكفّلة بنيل آماله .

وخلعت عليه وعلى أخيه خلع التشريف ، وعرفت حقائق الاعتناء بهما أتم التعريف .

وعند حضور أبي العبّاس المذكور بمجلس الخلافة العليا ، والإمامة الجامعة لمكارم الدين والدنيا ، أدخل أهل قسنطينة للسلام ، وعرضوا على الخليفة الإمام ، عرض الخمائل المجدبة على ساكب الغمام . فسأل أيّده اللّٰه عنهم شخصاً شخصاً ، وبحث عن أحوالهم بحثاً وفحص عنهما فحصاً .

وكان منهم أناس عرفوا بتشيعهم للدولة المرينية ، وتحقّق انقطاعهم للدولة المتوكليّة الفارسيّة . فخصّهم أيّده اللّٰه بشكره ، وضاعف بشراهم ببشره ، وأراهم مبر بره وأقرّ أعينهم بمقرّه . وأفصح بقبول عذرهم ، وأحمدهم عاقبة أمرهم .

وأنزلت حامية الأمير أبي العبّاس أحسن الإنزال ، وإن ضلّت عن غاشيته غواشي النكال . وعيّنت لهم خطة ببلاد الغرب ، وجرايات تتكفّل بالعطاء الحسب . وشملهم العفو والأمان ، وعمّهم العدل والإحسان . وقرأوا كتاب الفرج بعد الشدّة ، فرأوا أنه لا تنفع العدّة عند انقضاء المدّة .

﴿ فصل ﴾

وفي تلك الليلة مضت في قسنطينة أحكام مولانا أمير المؤمنين ، وكانت العاقبة للمتّقين والسعادة لأوليائه المؤمنين . وعيّن أيّده اللّه لقيادة قصبتها المنيعة ، وتولي أوطانها الخصبة المريعة الشيخ أبا علي منصور بن الحاج خلوف فأخلف اللّه عليها بخير ، ودفع إليه عن ساحاتها كل ضير . وأقامت تلك الليل ترفع الرايات العبّاسية من دياجيها ، وتجعل للدولة المرينيّة حسن تناجيها .

فلمّا نصل عن شيبة الصبح خضاب الظلام ، وحلّت عقود الكواكب بعد الاتساق والانتظام . زينت أبراجها بالألوية والبنود ، واتّصل سعد الأخبية بسعد السعود . وصعد إلى أسوارها أهل الفضل والنجدة ، كأنّها الا كليل لكن حل في البلدة . وأمر بقرع الطبول على باب العوادي ، فكانت قرعاً على أكباد الأعادي ، وأشيعت الأنباء في الحواضر والبوادي . وكرم مطمح الفتح[325] ، فبشر بالنجح . وراقت قلائد عقيانه ، فزيّنت بها ترائب زمانه ، ولاحت تباشير البشائر ، وأشعر بالجدل الواضح الشعائر . وتهوديت فيه أخبار النصر تهادي النسيم نوافح الزهر . وعم الاعتاب ، ونسخ العتاب ، وفتحت الأبواب ، ووصلت الأسباب ، وبلغت الآمال الرغاب . وكثر الشكر ، وعدم السكر ، وأسعف الدهر ، وأسعد النهي والأمر . وعادت الرعرع[326] رخاء والعداوة محبّة في اللّه وإخاء . وولىٰ الشيطان صارخاً ، وأضحىٰ اليسر للعسر ناسخاً ، وأصبح مبنىٰ الدين شامخاً ، وشرفه باذخاً . والحمد للّه على ذلكم حمداً يوافي نعمه ويكافي مزيده ، وله الشكر الذي حقّ لنا أن نبدئه ونعيده ، ونجدد ثوب الإخلاص ونجيده .

---

(325) يقصد الفتح بن خاقان .

(326) هلْ يقصد بها الرعرعة؟ .

﴿ فصل ﴾

وأمرني مولانا أيّده اللّٰه بإنشاء كتاب الفتح ، ومسطور البشائر الطالعة طلوع الصبح . وقال لي لا يصبح إلاّ وقد أنشأته على حسب المراد ، وحرّرت منه نسخة يكتب بها لأهل البلاد .

وقصد أيّده اللّٰه التعجيل بإدخال المسرّات على أهل الإسلام والمبادرة بالأنباء المبهجة التي راقت بها وجوه الليالي والأيّام .

فأنشأته وكتبته في الحين ، ونمت إلى أن آن طلوع الصبح المبين ، في منزل لي يمنع عن الطعام والشراب ، ويترب العين قبل تتريب الكتاب(327) . ويكاد يبل القلم للجبين ، ويرسل ريحه فتختطف اليراع(328) من اليمين . ويطمس على وجوه البيان ، وتنزع المعاني من أيدي الأذهان ، ويذهب بأزهار البدائع من جنان الجنان . فلا غرو وجب الاعتذار ، وتعين طلب الإغضاء(328) ممن إليه يُشار . وفاتحة الكتاب المذكور ، والسجل المنشور بعد سطر الافتتاح الذي هو مطلع الهدى والنور .

من عبد اللّٰه المتوكّل على اللّٰه فارس أمير المؤمنين المجاهد في سبيل ربّ العالمين آبن مولانا أمير المؤمنين المجاهِد في سبيل ربّ العالمين أبي الحسن آبن مولانا أمير المسلمين المجاهِد في سبيل ربّ العالمين أبي سعيد آبن مولانا أمير المسلمين المجاهِد في سبيل ربّ العالمين أبي يوسف بن عبد الحق وصل اللّٰه سعده ، ووالىٰ عضده إلى الشرفاء المعظمين الأجلاّء والفقهاء المكرمين الأسنياء والوجوه والأعيان والأمناء المرعيين الاثراء ، والخاصة والعامة من أهل فلانة على الولاء . يسرهم اللّٰه لليسرىٰ ، وأطلع عليهم من سماء القراطيس نجوم البشرىٰ . وجعلهم ممن ذكروا بشكر النعم . وتـوالي الخير العمم فنفعتهم الذكرىٰ:

---

(327) في الحديث : «أتربوا الكتاب فإنه أنجح للحاجة» .

(328) القصبة . يريد المؤلّف إبراز قدرته على الكتابة .

سلام عليكم أجمعين ورحمة اللّه تعالىٰ وبركاته .

أمّا بعد حمد االلّه الذي كتب، ، ،[329] من بعد الذكر ﴿إن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ بمقتضىٰ الحكم النافذ والأمر ، للملك الحق الذي صرف الخلائق في قبضة القهر . وأخبر أنّه يحب المتوكلين . وأنّه مع أولي الصبر ، للقوي العزيز الذي وعد لمن ينصره بالنصر ، الكريم الحليم الذي أخبر أن مع العُسر مثنىٰ اليسر ، غافر الذنب وقابل التوب ومجمل الستر ، الذي أسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة وأوجب المزيد على الشكر ، والصلاة التامة على سيِّدنا ومولانا محمّد الذي خصّه بشرح الصدر . ووضع الوزر المنقض للظهر ، وأخبر أنّه على خُلق عظيم ومزايا رفيعة القـدر ، المخصوص من أسماء إلهه بالرؤوف الرحيم في السرّ والجهر . الذي عفا عمن ظلمه وأحسن لمن أساء إليه فهو الأسوة الحسنة إلى آخر الدهر ، والرضا عن آله وصحبه المنتخبين لشد الأزر ، الطيبين معاقد الأزر . الـرحماء بينهم الأشدّاء على أهل الكفر الذي أخبر أنّهم لذوي الاقتداء كالنجوم الزهر . والدعاء لهذا المقام العلي المجاهدي الإمامي المتوكلي الفارسي بالنصر الذي يطلعه الزمان بين السحر منه والنحر ، وتوالي الفتوحات المعقودة نواصيها بالمدرية البيض والمثقفة السمر ، واقتبال الصنائع الجميلة التي ينعم بها أهل زمان القابض فيه على دينه كالقابض على الجمر .

فإنّا كتبناه إليكم كتبكم اللّه فيمن قدم صالح الأعمال ، وعبد اللّه مخلصاً له الدِّين ففاز بنيل الآمال . من منزلنا الأسعد بظاهر قسنطينة يمنه اللّه تعالىٰ وحرسها . وقد أظهر اللّه آثار نيّتنا الصالحة في كفّ أكف الردىٰ ، وأطلع لنا مصباح اليقين في مشكاة الهدىٰ ، وعرفنا بركة التوكّل عليه في كل الأمور فأعدىٰ الزمان على العدىٰ ، والحمد للّه على ذلكم حمداً ، نبلغ به أقصىٰ المدىٰ ، ونستمنح النعم التي ظلالها تندىٰ ، ومعالمها تتندّىٰ . وإلى هذا ضاعف اللّه نعماكم ، وأحسن عقباكم ، وأعقب حسناكم .

---

(329) كلام غير واضح الكتابة .

فإنّكم قد علمتم أن قسنطينة طال في هذه الأعوام حصارها ، واستطارت صدوع الفتنة التي آضطرمت نارها . فطفقت تسلك في الخسار طريقاً ميتاء[331] ، وأخّر اللّٰه أمرها إلى أجل معدود جمع على الرشاد أهواء . فأعملنا لفتحها العزائم التي تجافت بها جنوب السيوف عن مضاجع الأغماد ، وجمعنا للاستيلاء عليها جيوشاً سال مغيرورها في الأغوار وأنجادها في الأنجاد . ورأينا بعد الاستخارة ، وإقامة سنتها المختارة: أن قدمنا بين يدي حركتنا السعيدة وزيرنا الحظي لدينا أبا زيّان بن ودرار أنجده اللّٰه تعالىٰ فنهض إليها في عساكر تصبّ على الأعداء سوط العذاب ، وسرايا تطير بأجنحة العزائم لحوش خلال الديار والشعاب .

فلم يثن الأعنّة حتى بلغ قسنطينة مطيلاً حصاراً ، وطالباً ثاراً . وكانت ريحاً فلاقت منه أعصاراً .

ولم يكن أسرع من أخذه بمخنقها ، وآعتماله في التقييد لمطلقها . فسلك في مطالبتها النهج الأرشد ، وضيق بصاحبها فكان العود لحصار أحمد أحمد .

ومنها: ولو شكان ما طوىٰ ركابنا العلي على أثر وزيرنا أعزّه اللّٰه المراحل ، وتركنا التذاذاً بشرف المنازلة المنازل . وما أقرّ عين النصر والظهور ، وأبعد العهد بمثله في متقادم العصور والدهور ، كإطلالنا على قسنطينة بالكتائب التي ملأت الفضاء فعصّ ، وكتبت بأقلام الذوابل في طروس الأرض العريضة فشرحت ما دل عليه الفتح ونص ، وروت عن مجاهد ومجالِد ما أخبر به من أحاديث الظفر وقص .

ومنها: وما آجتزنا على أبواب قسنطينة حتى ألقوا إلينا أيدي الإذعان ، وسقط في أيديهم سقوطاً علت به والحمد للّٰه كلمة الإسلام . وداخلهم الرعب الذي أضحت به قلوبهم كأعلامنا خافقة ، ورأوا ما لا طاقة لهم به فأظهروا توبة

---

(330) غير واضحة .

(331) كذا في الأصل .

نصوحاً وإنابة صادقة .

وقد كان أميرهم أبو العبّاس وجّه إلينا طالباً للأمان ، وراغباً في العفو المتفيئة ظلاله عن الشمائل والأيمان . ثم لمّا قامت عمد الأخبية ، وقورب بين الأبنية ، ونزلنا بمضاربنا السعيدة التي هي بفضل اللّه أعزّ الأندية ، أخرج إلينا أخاه الفضل رافعاً والعزّة للّه شعار الانكسار ، مادّاً إلى بابنا والعظمة للّه يد الافتقار والاضطرار . وقدم في الوفد غير المتباطئين ، وحضر بين يدينا فتلا قول اللّه سبحانه: **﴿تاللّه لقد أثرك اللّه علينا وإن كنا لخاطئين﴾** ، ونقل عن أخيه وأهل بلده أنّهم أخلصوا المتاب ، وأظهروا الإنابة علماً بأن اللّه يضل من يشاء ، ويهدي إليه من أناب .

فعند ذلك رجعنا النظر ، وعلمنا أن أكرم الناس من يعفو إذا قدر . وعاملناهم بالصفح القائم بالقسطاس ، واغتنمنا أجر **﴿الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس﴾** ، وعلمنا أن العفو أقرب للتقوىٰ حسبما نطق به الكتاب الكريم المنزّه عن الشك والالتباس .

ومنها: ومع ذلك فإنا قد علمنا أن بذلك البلد شيعالنا خلفهم عن الخروج إلينا العذر ، وأضمروا من طاعتنا ومحبّة أمرنا العزيز ما وجب عليه الشكر . إلى نساء أذقن لباس الجوع والخوف ، وذرية ضعاف ضيق عليهم رحب المشرق والمغرب والقبلة والجوف . فعممناهم بالبشرىٰ ، وعلمنا أنه **﴿لا تزر وازرة وزر أخرىٰ﴾** .

وما توارت شمس ذلك اليوم بالحجاب ، وضرب الليل رواقه على الضراب ، حتى خرج أبو العبّاس وجميع من كان معه من الخدّام والأجناد على اختلاف طبقاتهم القائمة الأشهاد .

فآستغفر من ذنبه ، وأبلغ في الشكر الذي أصبح به أميناً في سربه ، وتلاه أهل بلده في شكر المنن التي طوقت أعناقهم ، وأفصحنا بقول اللّه تعالىٰ: **﴿يغفر اللّه لكم وهو أرحم الراحمين﴾** . فأبقينا أرماقهم . وعلمنا أن

﴿الحسنات يذهبن السيئات﴾ فأوليناهم الخير الذي يطابق ائتلافهم على الطاعة واتفاقهم . ﴿وكفىٰ اللّه المؤمنين القتال﴾ وأصلح لهم الأعمال ، وجعل إلى اللطف المال .

وما أطلّت ليلة يوم تاريخه حتى استولينا على قسنطينة أحسن الاستيلاء ، وآرتقىٰ ثقاتنا ذروتها السامية العلاء ، وظفرنا منها بالعدّة التي كانت في ضمان الأيام والليالي ، والعقيلة الحصان الرزان التي خطبناها ببيض السيوف وسمر العوالي .

بلدة لم ترضَ لأعطافها غير السحاب برداً ، ولا طلبت لأجياد شرفاتها غير النجوم الزواهر عقداً .

ومنها : قسنطينة وما أدراك ما قسنطينة مرقىٰ يقف دونه النجم الطائر ، وما من يلتقي على مركز مرافقة البادي والحاضر .

ولطالما أدارت الحرب على قطبها رحىٰ زبونهم ، وحل حبّها منهم محل السويداء من قلوبهم ، والسوداء من عيونهم .

والآن والحمد للّه تخلّصت من أحكامهم تخلّص البدر من السرار ، وأذلّت بعون اللّه رقاب المفسدين فذلّت إلى آخر الاعصار . فالحمد للّه الذي ذخر لنا شرف هذا الفتح الكريم الآثار ، وجعل على يدينا بحول اللّه خير هذه الأقطار . فها نحن بحمد اللّه قد أخذنا في تمهيدها بالحزم الذي أقام وزن الزمان فآعتدل ، ورفعنا عنها بحول اللّه خفارات العرب ومظالمها رفعاً لأم من حرمة المسلمين ما صدعه الجور وصان منها ما ابتدل .

﴿ فصل ﴾

ولمّا كمل هذا الفتح الذي راق بشراً ، وكان طي الكتب لأخباره نشراً ، وترك الجو بمسك ختامه معطراً ، وحملت به القراطيس فنذرت ما في بطونها محرّراً ، عطف أهل الآداب على بنات الأفكار ، وأشعروا هدي الإشعار ،

ورفعوا قصائد بالتهنئة هي أبدع من نواضر الأزهار ونواظر العرب الأبكار .

إلّا أني شغلت عن استيفاء جمعها وشغلتني الخدم عن صون فرائد منها بعد رفعها . وامتدّي أيدي بعض الخواص إلى تناول نورها ، فأعدمه من يجد هذه الأوراق وغورها ، وكان ذلك منسوباً لظلم الليالي وجورها . ومما حضرني الآن من القصائد التي أودعتها حرز الصون ، ودعت الأداة على حفظها بالعون قصيدة محل الولد أبي العبّاس أحمد بن يحيىٰ بن أحمد بن عبد المنّان[332] سابق حلبة أترابه ، الذي أتىٰ ببيت الإجادة من بابه ، وهام في أودية الإحسان وشعابه.، ونال الجوائز التي أجدت ثوب ثوابه ، والصلات التي أتمّت صلاتها بفاتحة كتابه . وهي :

هي الأسعد اللاتي علاك لها قطب ... هو النصر سام شهبه الدهر لا تخب
هو الفتح سنته السعود فلم يكن ... ليشرع فيه السمر أو تشهر القضب
ستتلوه أبكار الفتوح وعونها ... كما جاء أثر الواحد المفرد الركب
وعادات من عودته نصر دينه ... لديك من الآلاء[333] ما وردها غب
وسل بلطيف الصنع في أمر فتحها ... قسنطينة لما تسامى بها العجب
سموت إليها في جيوشك دارعاً ... كأنّك بدر التم تكنفه الشهب
تحرر زهواً ذيل أفخم فيلق ... يضيق به في المهمة المنزل الرحب
بعيد مجال النقع ، مقترب القنا ... تزار في أنحائه الأسد الغلب
رأىٰ منه حزب البغي ما جمع الهدىٰ ... وأبصر منه الشرق ما أنجب الغرب
وقد قدمت عيس القباب يحفها ... أسود وغىٰ عاداتها الطعن والضرب
فأذعنت الأعداء ذلاً وأيقنوا ... بأنّك من تدنو له العجم والعرب
وقد رنق الرمح الرديني طامياً ... لورد نفوس القوم ، واستشرف العضب[334]

---

(332) شخصية عظيمة من أكبر أعلام العصر المريني لا سيما في البلاط الذي عجّ بنخبة من الكتّاب الذين اشتهروا بقلمهم . راجع ترجمته في : أبن الأحمر : روضة النسرين ص : . ونثير فرائد الجمان: ص ـ 348-350.

(333) ماء وردها .

(334) يراد به القطع والبتر .

وعــاينت الأســد الـنقــاد ولا حـمىٰ هنـالـك إلّا مـا نمـا الصخـر والتـرب
وكــادت بعقبـان الســوابق نحـوهـا تــطيـر إذا مـا أعــوز الهــد والنقب
مصــاعبــة لــولاك عــزمــاً حميتهم قسنـطينة مـا غـرّهم سمكهـا الصعب
ولكن شكـا خـطبـاً لحلمـك أهلهـا وأمـوك كهفاً فـآنجلىٰ عنهم الخـطب
جنحت إلى الرحمىٰ وكنت الذي عفا وأرضـاك ما تـرضىٰ صنيعاً بـه الـرب
وأوسعتهم بـالـحلم والـحلم واسـع لديك لـك الحسنىٰ وإن عظم الـذنب
ولامت شعـابـاً من قسنـطينـة اعتـدىٰ ومـا كـان يـرجىٰ أن يلم بهـا شعب
ولـم يغمـر الأبـطال ظـل قبـابـهـا إلى أن خلا من مالكي أمـرها الشعب
ولـم يلق عنــك الـدرع حتى تقــدما من الـذلّ في درعين صاغهمـا الرعب
وأمست كمـا أملت عــدلاً ورحـمـة ممـد بهـا خصبـاً إذا صـوح الخصب
هـنــاء بهــا أم الـمعــاقـل منـعـة قسنـطينة مـا أن يـراع لهـا سـرب
تعــاظم كفــراً أن يقــال لهـا حمىٰ وتــأنف زهــواً أن يــرام لهـا قــرب
عجبت لهـا عـزت لصحبتهــا الهـوىٰ وشـان الهـوىٰ أن لا يعـز لهـا صحب
ستقـدم بـالبيعــات يـا ملك الهــدىٰ عليك بها في وفـدها الـرسل والكتب
وتحيـا بـك الأوطـان شـرقـاً ومغـربـاً ويشملهـا من جودك الـوكف والسكب
بقيت تـزين الملك والدين مـا آنجلىٰ بعدلك أو إحسـانك الجـور والجدب
ولا زلت تـرقىٰ ما حكىٰ البـدر كامـلاً محيـاك أو ضاهت مـواهبـك السحب

ومن قصيدة للفقيه العدل الكاتب أبي العبّاس بن النعمان وهذا أوّلها:

هــل الفتـح إلّا مــا تسنىٰ أو النصـر تجـد لـه الأقـدار تخـدم والـدهـر؟.

وقال فيها في وصف قسنطينة:

ولمــا أتىٰ مـولىٰ الملوك بـأسـرهم وذخــرهم مــا أن ســواك لهم ذخـر
وأقـبلت الأبــطال مـن كــل جــانب ودار بهــا من حينـه العسكـر المجـر
تـوقـع من فيهـا بـاللحــوق برمســه وحـل بـهم خــوف وداخـلهم ذعـر
وأقـبـل في يــوم الـنـزال أميـرهـا على قـدم يسعىٰ وقـد خـانـه الصبـر
فـأوسعـه المــولىٰ الخليفـة فــارس إمـام الهـدىٰ عفـواً وإن عـظم الـوزر

فهـدي بـلاد الشـرق أعـطت قيـادهـا   وما بـقيـت إلّا بـلاد بهـا الـكفـر
فـمـهـنـيـك أن الـلّه آتـاك نـصـره   وملكـك الـدنيـا امتنـانـاً لـه الشكـر
بقيت مكين الـقـدر منـظوم أسـعـد   مسـوغ نعـمىٰ كـلمـا طلع الـفجـر

ومن قصيدة للكاتب أبي عبد اللّه بن حزب اللّه:

قسـنـطيـنـة لمـا تـمـنـع أهـلهـا   قضىٰ اللّه أن يشقـوا زمانـاً ولم تشقـا
وحين تـراءت غـرّة النصـر أذعنـوا   وطـارت لنـور العـدل أنفسهم سبقـا
فـكلّهـم قـد أطلقـوا مـن عقـالـهم   وحصـرهم لمـا رأوا وجهـك الـطلقـا

وللفقيه أبي محمد بن البرطال أحد شهود البيت الكريم من قصيدة هذا أوّلها:

هي السـعـادة قـد طـوقتـهـا حللا   فـأدّت لك العـزّ في الـدارين والأمـلا
وسـوغتـك من الألـطاف أعـذبهـا   بـإذن من يمنـح المسؤول إن سُئِـلا
وصـافحتـك يـد التـوفيق معـلنـة   بـأن نـصـرك لا ينـفـكّ متّـصـلا
وإنـك الملك المـولىٰ الـذي كـرّمت   آثـاره فـسـرت بيـن الـورىٰ مثـلا
هـذي قسـنطينـة نـالت مسـرتهـا   منكم وسكـانها قد أصبحـوا خولا(335)
من بعـد ما ضـاق ذرعاً بـالحصـار لهـا   جميعـهم ورأوا بـاب الـردىٰ قبـلا

وهذه القصيدة للفقيه القاضي ـ كان بأنفا ـ أبي علي عمر الزناتي وهو الآن أحد شهود البيت الكريم والخدّام الجارين على النهج القويم:

أمـولاي دامت لـك التهنئـة   بعـزّ الفتـوح الـوسـام الشيـه
هنيئـاً بـفتـح قسـنـطينـة   وفي فتحهـا للمنىٰ تـوطيـه
وقـد عمّ عفـوك في أهلهـا   ولـو شئت عمتهم التـرديـه
سجـايـا تـزيـد العلىٰ رفعـة   وتـذكي أحـاديثهـا الأنـديـة
وهـذا بشيـر مـشيـر بمـا   يـواليه من فتـح أفـريقيـه

---

(335) حشم.

فأقطارها كلها بالرضىٰ إليك مقاليدها ملقيه
وكل قبيل بها سامع مطيع ومأموله أعطيه
ولم لا وهم إن أطاعوا غدوا من العدل في عيشة راضيه
وصاروا بسيف الخلافة في حمىٰ حرم لم يدع تعديه
بشراك بشراك ألفاً أبا عنان وفي ألفها تثنيه
فقد حزت شرقاً وغرباً معاً وملكك حلا هما تحليه
فجز للنصارىٰ مبيحاً لما حموا من جبال ومن أوطيه
وخذهم بقتل وأسر وان ، ، ،[336] فالجزية المخزية
فأنت مليك تسنىٰ له أمانيه أكمل التسنيه
وأنت المرجىٰ له ملك ما من الأرض كانت له التزويه
فثق بالمهيمن في نصرة إلى كل ما ترتجي مقضيه
فكم من مراد قصي دنا لما قدر اللّٰه أن يدينه
فلا زلت للملك في نعمة وسعد سعودك في تنميه
ومن سعدكم دابح[337] للعدىٰ وحامي بروج من الأخبية
وأعطاك مولاك ما ترتضي وفوق الرضا أجزل الأعطية
وأجرىٰ لك الخير فيما جرىٰ به عنده سابق ارقضيه
وأولىٰ القبول كما ترتجي لِمَا مرّ من هذه الأدعيه
عليك التحيّات تهدىٰ شذىٰ رياض ويا حسنها مهديه
من العبد هزّته أفراحه فبادر للفوز بالتهنيه

وقال مؤلّف هذا الكتاب إبراهيم بن الحاج:

سل العيس والبرق الذي لاح من نجد متى عهدها بالجزع والعلم الفرد
وهل عندها علم بأعلام حاجر وما هجن لي من لاعج الشوق والوجد

---

(336) غير واضحة .
(337) كذا في الأصل .

وهل وردت ماء الاثيل ودونه ... ظباء سطت ألحاظها النجل بالأسد
معاهد خلفن العماد بواكيا ... فمحت مغانيها كحاشية البرد
الأهل أراها والحمول كأنّها ... سماء حدا سعد بها أنجم السعد
وهل ،،، اللوى ومنازلا ... أضعت بها قلبي وصنت بها مجدي
وكان الهوىٰ هزلاً فلما تلوته ... بمن في القباب الحمر عاد إلى جد
من الجاعلات النقع بعضي ستورها ... فما بعدها يسلي ولا قربها يجدي
عقائل خامرن العقول فلم يبن ... لها الغي في شرع الغرام من الرشد
فقدت فؤادي يوم عارضتني ضحىٰ ... وسلمن تسليم البشاشة والود
ولم أنس لا أنسىٰ الحداة وأينقا ... يراها سراها بالذميل وبالوخد[338]
إذا التفتت نحو الحدوج تمايلت ... وما دمعها دمعي ولا سهدها سهدي
خليلي هل من وقفة دون رامة ... فأشكوبشح الشيح[339] والبان[340] والرند[341]
ويا مسعدي من آل سعد على هوى ... غدا عنده ما علم بلواه ما عندي
وراءك إلّا عن تلهب زفرتي ... بتلك التي تزداد وقداً على وقد
سرى طيف سلمىٰ والنجوم كأنّها ... مطافل غزلان تحوم على ورد
ولاحت سيوف الفرق في راحة الدجا ... فما اتخذت غير الغمامة من غمد
وقد ماس قد الغصن في حلة الصبا ... وسالت دموع الطل في وجنة الورد
فيا قلب لا تذهب على القرب حسرة ... فأحسن من قرب وفاؤك في بعد
ويا نفس لا يأخذ بك اليأس في الهوىٰ ... مأخذه فالوصل في عقب الصد
وقد يدرك الإنسان ما لم يكن له ... براج ويعطىٰ فوق ما نال من قصد
كما أوسع القوم الذين حوتهم ... قسنطينة جوداً ورفداً على رفد
أنابوا لمولانا الخليفة فارس ... ففازوا بنيل السعد والعيشة الرغد
رأوا لاضياء الشهب والبدر في الدجا ... لما سار من يهدي ولا كان من يهدي
ومن بينات الفوز أن ينظروا العدىٰ ... لما حاز من عادوه من شرف عد
ولله يا لله فارس الذي غدا ... كاسمه والخيل خوف الردىٰ تردي

---

(338) الإسراع .

(339) ـ (340) ـ (341) يتعلّق الأمر بنبات خاص .

وتـأبي العلىٰ إلا السمـاحـة والنـدىٰ وسـر التقىٰ إلّا البقـاء على العهـد
وأنتم كـاليـوم الـذي جـاء بـالتي أماطت نقاب النصر في موكب العضد
عـروس من الفتـح المبين تـزينـت فقـامت من الـرمح القـويم على قـدّ
ومـا أضحكت غير الضبا من مباسم ولا وردت غيـر الصـوارم مـن خـد
ومـا نشـرت غيـر العجـاج ذوائبـا ومـا نـظمت غيـر الجمـاجم من عقـد
ومـا اتخـذت غيـر الخيـول مجالسـا ومـا افتـرشت غيـر المـآزق من مهـد
نتيجـة عـزم علم السمـر في الـوغىٰ طعـان العدىٰ والـدرع محكمة السـرد
وآثـار مـأثـور الحفيـظة لم تـزل أفـاعيله وقفاً على الشكـر والحمـد
أزار العـدىٰ جـاء وأزحف بـالـردىٰ شـروباً دمـاء المارقين على حـرد[342]
وأرعن كـالبحـر الخضم تخـوضـه سـفـائن لـكن مـن مضـمـرة جـرد
وحفت بـه الأنهـار لكن من الـظبـا فصيـرت الأعـداء لـلجـزر والمـد
ومـا اتبعت يـومـاً قسـطينـة الهـوىٰ هـواهـا ولا كـان التمنّـع عن عمـد
ولكن لتحـظىٰ بـآقتـراب خليـفـة يـدين بتقـوىٰ اللّٰه في الخـلّ والعقـد
وإن بقـاع الأرض كـالنـاس بعضهم غـدا غيـر مجـدود وآخـر ذا حـد
فـللّٰه عينـا من رأىٰ يـوم فـتـحهـا عجـائب قد جلت عن الحصـر والعدّ
أتتهـا جيـوش زاحفـات كـأنّـهـا مـع النصر قـد كانت هنـاك على وعد
فـأذعـن أهلوهـا وجـاء أميـرهـم لأكـرم مـولىٰ شـأنـه الـرفق بـالعبـد
فـأعـطيتـه حتى الحيـاة مـواهبـا لـربّـك منهـا مـا تعيـد ومـا تبـدي
ولا فرق عند الحـاضر الشهم بين من غـدا وهو محصـور ومن مـر في لحد
ومن كـان جيش الرعب يفني عـداتـه فـذاك غني في الحـروب عن الجنـد
متتت وبعـد الملك أسجحت منعما فللّٰه مـا أسـديت فضـلاً ومـا تسـدي
ويـا حسن فتـح عم تصحيفـه العـدىٰ ومقلوبـه وافىٰ لهم مـزعـج الـوفـد
هـم العـرب الـعـربـاء لا در درهم ولا حـومـوا بـالعيس إلّا على ثمـد
سـلبتـهـم بـالـسيـف أم قـراهـم فمـا ظفـروا منهـا بغـور ولا نجـد
وقـد أشبهـوا الخنسـاء حـزنـاً فكلهم ينـوح على صخـر ويشكـو من الفقـد

---

(342) على قصد (وغدوا على جرد قادرين) .

أتيحت لهم فيها الدواهي دواهما فأعطتهم كل الهموم ولم تكد
وأنستهم نهداً على الصدر معجباً حروب امام جاء صدراً على نهد
إمام هدىٰ قاد الجياد إلى الوغىٰ سراعاً كما طار الشرار من الزند
فمرّت رياح كالرياح سحابها دموعهم خوف المذلّة والطرد
فهذي رماح الخد تشرع نحوهم صدوراً بها ما في الصدور من الحقد
وهذي السيوف البيض ترتد نحوهم لتشفيها بالفتك من كل مرتد
من الباترات الآكلات غمودها فواحل لا عن فكرة لا ولا حبد
تجود على نار الوغىٰ بنفوسها كأنّ سيوف الهند بعض بني الهند
ستتركهم في الأرض للناس عبرة وليس لأمر شاءه اللّه من ردّ
فسر في ضمان اللّه ملكك فوق ما تسنّىٰ قديماً للرشيد وللمهدي
ولا تبد شمس الشرق فالغرب مطلع شموس هدىٰ تبدي لذي الرشد ما تبدي
بقيت سعيداً في الملوك مخلداً ولا زلت تهدينا إلى جنّة الخلد
ودونك مدحاً شبه المسك عرفه فطيبه ينسي أبا الطيب الكندي

ذكر ما ظهر من بعض القسنطينيين المفسدين :

من الهروب إلى الأشقياء للمعتدين :

وما آل إليه الحال من النظر في أمور الحضر ، والأخذ بالحزم الكريم الأثر . وكتب الجلاء على أهل الأضرار والضرر .

ولما خرج الأمير أبو العبّاس أحمد بن محمد ابن أبي يحيىٰ من البلد ، وقدم على المحلة المنصورة بالأهل والولد ، والسبد واللبد . أمر مولانا أيّده اللّه فضربت له بمقربة مخيمه الشريف مضارب ، ورفعت لسكناه أخبية تحسدها الكواكب . فجاور وهو البر بحراً ، ورأىٰ ما غمره من النعم التي ثقد أساداها شفعاً ووتراً ، ونال من آماله كل متيسر ، وانتقل إلى التنعيم وكان بمحسر .

وأمر مولانا أمير المؤمنين أيّده اللّه تعالىٰ بإنزال ناسه في جملة الضياف

الواردين على بابه ، وأقيمت لهم أبنية سلبت ظواهرها لون البدر وباطنها لون سحابه . وعمّوا دون حساب بالعطاء الحساب ، وشملتهم بتلك المغاني مواهب كالرباب . وأنزلوا منازلهم ، وأنيلوا مآملهم ، وعادت السيوف التي صقلت لزوال رقابهم ، وهامهم حامية لهم ومزيلة لأوهامهم ، وما أن تقر في أجفانها أو تقرّ أجفانهم ، ولا تزور أغمادها أو تزورهم يمنهم وآمانهم .

فأفرخ روعهم بكل ريع ، وزال عنهم كل خطب مطيع ، وذلّلوا بذلهم قطوف الأماني تذليلاً ، وآعتاموا للعافية ظلاً ظليلاً ، وفاضت عليهم النعماء التي نقعت غليلاً وشفت عليلاً . وأثقلت كواهلهم المتن التي أحسنت تأميناً وأحسبت تأميلاً .

فلم يطب الأشقياء منهم بذلك نفوساً ، وشاهدوا الأمر معكوساً ، وظنّوا الهدىٰ غيّاً والنعيم بؤساً . ودبّروا أمرهم بليل ، ونالوا من أنفسهم لا من المملكة أعظم نيل .

ولم ينشبوا أن هربوا من المحلّة المنصورة تحت أذيال الظلماء ، وإنما كانوا خبثاً نفثه طيبات الأرجاء ، وأبعدته عن محطّ رحال الرجاء . وابتدروا الفعلة الذميمة أوحىٰ ابتدار ، وساروا بين سمع الأرض وبصرها دون أسماع ولا أبصار . وتركوا الواجب وارتكبوا المحظور فكلّهم مندوب مكروه ، واشتملوا من الدياجي أشباه وجوههم لكن ﴿**يوم تبيض وجوه وتسود وجوه**﴾ . وخاطروا بأنفسهم الخبيثة في طلب النجاة ، وقدموا على آبن تفرجين الحائز بالبضاعة المجزاة لكن من التقاة ، وأعمال البر التي نبذوها نبذ القذاة ، ورموا بها رمي الحصاة . فأخدلوا على الشقي أنواع الهموم ، ونسخوا عليه المظنون بالمعلوم . وتركوه في كرب كربه ، يكاد يتوارىٰ من سوء ما بشر به . ولا غرو فكل منهم النذير العريان ، والقادم الذي جدته إلى حينه الأحيان . والمخبر الذي لا يسأل برهاناً على ما قاله في تلك النائبة ، والرائد الذي لا يكذب أهله الذين تسددت لهم السهام الصائبة .

فأحسنوا الخدمة بذلك من حيث أساءوا ولولا أن الأعمال بالنيّات لاستحقُّوا الشكر كيف شاؤوا .

ولما بلغ ذلك مولانا أيّده اللّه عجب من شقاوة أولئك الأوباش ، وتهافتهم في نار الخسار تهافت الفراش . وعلم أن جيوشه المنصورة كالدهر الذي هو غاشيهم وإن ظنّوا خطبه شاسعاً ، كالليل الذي هو قد زلّهم وإن خالوا المنأىٰ عنه واسعاً ، وصرف وجوه نظره لمن بقي من أولئكم الطغام ، وأذكىٰ عليهم عيوناً لا تكتحل بالمنام .

فما هرب منهم بعد ذلك أحد إلاّ وجد الفوارس بالمراصد ، آخذين بأفواه الطرق على أهل المكايد . فسيق إلى السجن سوق العنز إلى الحظيرة ، وجر إلى الهوان جزاء بما له من سوء الجريرة .

وصرف كل من الباقين إلى حضرة فاس معاناً لا عانياً ، وسار تحت حرمة الإمام الذي حاز قلباً جرياً ونوالاً جارياً . وأعمل الماضيين قلما مبرياً وسيفاً بارياً ، ووقفوا هنالك في مراسم الخدمة ، وأجزلت لهم عوارف النعمة . وعوضوا من الحرور إلى الظل ، ومن المحل بالوابل والطل . وأصغىٰ لهم أناء الاناة ، وأطلعت عليهم شمس الغد الباهرة الإياة . وبدلوا من بعد خوفهم أمناً ، وأعطوا صفقة إيمانهم فما لقوا إلاّ يمناً .

وقرّ قرارهم بحضرة الملك الذي تشرّفت الملوك برسم بساطه ، ورأت خرق عوائد الفضل من أشراطه ، وعلت كلمة الإسلام بجهاده ورباطه ، وتم قياس المجد والعلاء بتحقيق مناطه ، وحاز من المناقب والمآثر ما هو أبدع من الدر في أسماطه . وسكنوا الديار التي تتوق إليها الأبصار ، والمنازل التي حازت وصف الجنة فعرفها تجري من تحتها الأنهار . ونعموا بالأزهار اليانعة والأغصان المائسة ، ورأوا عيوناً تجري في الربوع الأنسة ، ولم يكونوا قبل ذلك يعرفون العيون الجارية إلاّ في الوجوه العابسة .

ولمّا وقع من أمر الهاربين ما وقع وشرع الشقاء من أحكام حزبهم ما شرع ، أمر مولانا أيّده اللّه بأن يستفحص عن أحوال الحضر ، ويُقام فيهم قسطاس الحق الزاكي الأثر فأحضر الجم الغفير للاستفحاص والاستكشاف ، واستجلاء أمور أهل الاختلاف ، والتجانف عن الطاعة والانحراف ، والنظر

فيما يكون به صلاح أحوالهم ، وسراية الرشد إلى أقوالهم وأفعالهم . فأفاضوا في القول الذي وسع لهم فيه وبينوا بياناً يثلج صدر الدين ويشفيه .

فكان مما وضح بعد العفاء ، أن خطيبهم حسن بن خلف بن باديس الذي شهد فيه بعض الخواص أنّه ولي من الأولياء ، وشيعة لهذه الدولة المرينية على والي الأناء . فخلعت عليه لأجل ذلك خلع التشريف والتكريم ، وخص بالتبدية والتقديم وعين للخطابة ببلده ، وجمع شمله بأهله وولده . وصلّىٰ مولانا أيّده اللّه خلفه ولم يزل يوليه عرفه وينشقه عرفه كان من الأشقياء الذين خطب بالعصاء فشق العصاء ، ولم يثنه على رمي الحجارة من السور برمي الحصاء .

ولم يزل منذ كان في المحراب مصلياً ، في حلبة الفتن مجلياً ومصلياً . وقد قرأ علم الخلاف ، مصرّاً على النفاق والخلاف . من رجل سلك للغاوية سبيلاً ، وبدّل كلمة المملكة المرينية تبديلاً . وكان من الذين يرون الناس ولا يذكرون اللّه إلاّ قليلاً .

وقامت عليه بذلك كلّه شهادات أفادت القطع ، وحقّقت الأصل والفرع . وحكمت بإراقة دمه ، ووقفته مواقف ندمه . إلاّ أن مولانا أيّده اللّه أبقىٰ للحلم موضعاً وأوضح للعفو مهيعاً .

ولم يكن إلاّ أن أمر بثقافه ، وذهابه عن ذلك البلد وآنصرافه . وأخذ أيضاً أخوه أبو القاسم شيخ أهل الحرابة ، ومقدّم أرباب الغش والخلابة فلفحته الأصبحية بشواظها ، وأسكن السجن إسكان المعاني الخبيثة بألفاظها .

وأخرج أيضاً من قسنطينة كل من سعىٰ في الفتنة التي هي أشد من القتل ، واستمسك من الفساد بكل مغار الفتل . وطلب الرئاسة بالقبض على رياس النصل ، وتشيع للقوم الذين شاع جورهم في الحزن والسهل .

إلاّ أن الحلم لم يحلم لهم أديمه ، ولا أغفل سقي مدامه مديمه ، والعفو لم يعف لهم سبيله ولا حرم حريمه ، والعهد لم تخلف عهاده ولا ركد نسيمه ،

والوفاء لم يعف[343] رسمه ولا عطل رسيمه . والفضل لم يبعد كهفه ولا تناءىٰ رقيمه ، والجود لم ينتزح زمزمه ولا حطيمه .

ولم يكن إلاّ أن صرفوا إلى الحضرة العلية آمنين في الأموال والنفوس ، متخلّصة كواكبهم من النحوس ، مترعة قلوبهم بالمسرّات أتراع الكؤوس . فنالوا بفاس المحروسة غاية المأمل ، وأشبهوا الذين يساقون إلى الجنة بالسلاسل . فصلحت أحوالهم بعد الفساد ، ونفض عن مضاجعهم شوك القتاد ، وأسكنوا مقر العدل الصادق الأشهاد ، ومحل الجود الذي أثر على جود العهاد . ورأوا كيف يتدارس العلم ويذكر ، وحقّقوا كيف يؤمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر . وشاهدوا المساجد التي تود الثريا لو قبلت ثرياها ، والبلدة لو كانت درجها مفضية إلى مرقاها ، ودقانقها لو حازت دقائق العلوم التي بها مسراها ، والمدارس التي أكرمت منعتها ، وأنست وشي صنعاء صنعتها حيث منابر العلم تعلو . وقِيَم أهل التقوىٰ تغلو ، والمحاسن والمواعظ هذه في العيون تجلىٰ وهذه في الأفواه تحلو .

ومن تمام فضل مولانا أيّده اللّٰه وجوده ، وارضائه بأفعاله الحسنىٰ لمعبوده ، أن استعمل شيخهم حسن بن خلف اللّٰه بن القنفد في الخدمة ، ووفّر حظّه من النعمة ، وبوّأه حرم الحرمة . فشكر ما صنعه المولىٰ الإمام الكريم ، وأنشد لسان ذنبه إنما يغفره العظيم للعظيم .

ولم يزالوا جميعاً في خفض عيش لا خفض قدر ، مملوء منهم بالمسرّات كل قلب في طي كل صدر ، مهتدين من سنان مولانا أيّده اللّٰه بنجم ومن وجهه ببدر . تائبين إلى اللّٰه ثم إليه من ذنوبهم ، نادمين على ما كان من مكاسبهم التي رانت على قلوبهم . راجين أن ينالوا ببركة الإخلاص في طاعته غاية مطلوبهم ومنتهى مرغوبهم .

واللّٰه يجعل أيّام مولانا رياحين رحمة . وروح راحة ونعمة ، ويعلي بإيالته

---

(343) في الأصل يغتبر .

العليا كل همّة . ويعلق الإسلام منها بأكرم آل وذمّة. ويمتع بدولته التي هي خير دول الملوك لخير أمّة . بمنّه وفضله .

ذكر ما عمله مولانا أيّده اللّه مع أهل قسنطينة بعد الفتح :

وما أظهر فيها من أعماله المتكفّلة لهم بالنجح ، وحسناته التي وضحت أنوارها وضوح الصبح .

ولما طهر اللّه طينة قسنطينة من الخبائث ، وكفاها عبث السبيفين سيف الخليفة وسيف الحوادث ، وصرف عنها وجوه الخطوب الكوارث ، وألحاها من الطاعة إلى أحمىٰ الملاوذ والمغاوث . وردّ أحكامها إلى الإمام العادل الذي حلّ من العلياء في الفروع الأثابت نظر أيّده اللّه لأهلها خير نظر ، وتكفّل لهم بأنجح ورد وصدر ، وجاءهم السعد على قدر . وآرتاح خاطر من كان على خطر .

وكان أوّل ما صنعه أيّده اللّه أن عيّن مالاً وافراً وافياً ، ورفداً كافلاً كافياً . وأمر أن يصدق جميعه على الضعفاء من أهل قسنطينة والمساكين ، ورسم أن يحضر لذلك بعض خواصه الذين لهم الفضائل الساطعة البراهين ، وفقهاء بجاية الذين لهم في العلم والدِّين أفسح الميادين ، وعيّن أيضاً من صدور أهل قسنطينة من يعرف المستوجبين للصدقة ، المباح لهم أخذها بالأحوال المحقّقة . فتفرّق ذلك المال على حسب الاختيار . ولم يبقَ هنالك من يشكو بالإقلال والإقتار .

وعمّ الجود الذي تفتقت كمائمه ، وحكىٰ الغيث[344] لكن المعطار نواسمه ، والبشر بروقه التي أنار بها الدجىٰ وانجاب فاحمه . ورجع لليد الاصر . وغلب اليسران العسر . وجاء الغناء فذهب تصحيفه ، وشمل الفضل الذي لم يبلغ أمده ولا أدرك نصيبه . وملئت بيوت القاصدين بالمواهب ،

(344) في الهامش نقرأ الجهد .

وبيوت المقصدين بالعجائب . وأرخصت التوالي بعاطر الثناء ، وسقط الشكر بالأندية سقوط الأنداء .

وأمر أيّده اللّه بأن يرتب بجامعها الأعظم جملة من الفقراء . ويجرىٰ لهم مرتبات صادقة الولاء على الولاء . وأن يكسىٰ شيوخ مساجدها في كل عام ، ويشفع لهم إحسان بإحسان وإنعام بإنعام . ويختن في يوم كل عاشوراء أولاد الضعفاء ويكسون ، ويبذل لهم بإزاء المشقّة الإحسان الذي به يرضون . وتعطىٰ للفقراء والمساكين أضحياتهم في أعياد النحر . وتدخل عليهم المسرّات الطالعة أنوارها في حين الدهر . وتقام في ليلة مولد النبي ﷺ مواسم الأفراح ، وتُوقد الشموع ، ، ،[345] بالصبح الملتاح . وترسل سحائب شذىٰ العنبر الورد ، بوابل ماء الزهر وماء الورد . ويحتفل في الطعام للجمّ الغفير ، ويحضر المغنّون لامتداح من خصّه اللّه بالتعزيز والتوقير ، ووصفه في كتابه العزيز بالبشير النذير السراج المنير ، ﷺ ما هبّت الريح على الروض النضير .

وأمر أيّده اللّه أن تؤدّىٰ بقسنطينة الديون عن المسجونين الذين عجزوا عن الأداء ، والأموات الذين ساروا إلى دار البقاء ، من غير توفية لما عليهم من الحقوق المالية للأموات أمثالهم أو الأحياء ، كل ذلك في كل الأحيان والاناء .

وأمر أيضاً بأن يجرىٰ بها للمسجونين الضعفاء ما يقيم أودهم ، ويخفف كدرهم[346] ، ويحقّق في مراحم دولته العليا معتقدهم .

وصدر بتعريفي ظهير كريم بإجراء هذه العوائد ، والأفعال الكريمة التي أطلعت وجوه المراشد .

وكان من كمال ذلكم العمل الصالح ، وتمام ذلكم السعي الناجح أن أمر بآجتماع أهل قسنطينة بمسجدهم الجامع ، وآستقدموا إلى محل البركات

---

(345) كلمة غير واضحة .

(346) في الأصل كبدهم .

الموفورة البضائع . وقرىء عليهم ذلك الظهير الكريم الذي راق بحديقة حسنة كل حذقة ، وزهىٰ عود المنبر منه بأنضر ورقة . فسرُّوا بذلك أجمعون ، وحمدوا المشهد الذي جاءوا إليه يهرعون . وآبتهجوا بتلكم السير التي نشرت ألوية الإحسان ، وأملت فضلها الملوان ، وكادت تسري أرواحاً لأشياخ البلدان .

وعلموا أن أمرهم قد صار إلى إمام يسعىٰ للآخرة سعيها ، ويرعىٰ الأمة المحمديّة رعيها . ويأخذ بأضباعها من الجور والحيف ، ويمد لها يداً بالسيب وأخرىٰ لعدوها بالسيف ، ويبتدر النظر في مصالحها ابتدار الحجيج مسجد الخيف .

ولم ينشبوا أن ألظوا(347) بالدعاء وألجوا(348) فيه ، وأطاروا الثناء الذي وصلت قوادمه بالإخلاص وخوافيه ، وتلقيت بالرحب قوادمه وأظهرت خوافيه ، وشكروا ما عمّهم من بركاته وأياديه ، شكر الروض بعاطر النسيم لصوب غواديه . وآغتبطوا بطاعته التي أصلحت أحوالهم ، وعصموا بها دماءهم وأموالهم ، وجددوا حباً ينجح أعمالهم ، ويبلغهم بالسر الذي امالهم أمالهم(349) .

وأمر أيّده اللّه بتخيّر الولاة لبلدهم ، وآنتقاء العمّال المتكفلين بنيل أسعدهم . وقدم من أهل البلد المذكور صاحب صلاة يحض الناس على أداء الصلوات في الجماعات ، ويحرص بهم على تحصيل ثوابها الذي هو من أنفس البضاعات . وينبه الغافلين عن السعي لأداء المكتوبة ،(350) ويقيم شعائر الإسلام في الأوقات المطلوبة . ويجعل على التاركين للصلاة عيونه وأرصاده ، ويعاقب على ذلك العقاب الذي يوطد الدين ويرفع عماده .

---

(347) من لظىٰ ، يلظ بالشيء : لازمه وألحّ فيه .
(348) من لجّ في الأمر : لازمه وأبىٰ أن ينصرف عنه .
(349) كذا في الأصل .
(350) في الأصل (السعي لادا) وهي جملة غير واضحة .

فصلحت أمور دينهم ودنياهم ، وأقمرت لهم ليالي منىٰ مناهم ، وحمدوا عند آنبلاج صباح العدل سراهم . وأقاموا في عيش يروق نضارة وغضارة ، ويكرم بطانة وظهارة . وبيتوا تحت ظلال النعيم للأمن سرارة ، وتترك كؤوس الآمال على شرب القلوب مدارة .

جزىٰ اللّٰه مولانا جزاء من كظم الغيظ وعفا . وجدد رسم الفضل والدِّين بعدما عفا ، وأمتع بفضائله التي تليت أخبارها بالمروة والصفا ، وخلد أيّامه التي أذهب اللّٰه بها خبث الظلم ونفىٰ ، بمنّه ويمنه .

ذكر ما كان من فتح بلد العناب :
واستمساك اهلها من الطاعة بأقوىٰ الأسباب :

وكان من الأمور المضحكة التي وقعت والأحوال المغربة التي فتت كبد الملك وصدعت . أن صاحب قسنطينة عبد الرحمٰن بن محمد بن أبي بكر لما أتت جيوش مولانا أيّده اللّٰه لحصاره ، وزحفت كأمثال الربا لمحو آثاره . وقدم بنو مرين في كتائبهم التي تروي أحاديث النصر عوالي ، وتخطب المعالي فترضىٰ مهورهن غوالي ، وتسري فتترك الأيام من شموسها عواطل والليالي بأطراف الرماح حوالي ، وتملي نوادر الفتوحات فتشق القالي . وتغادر دماء المارقين على صوات الجرد الجواري جواري . خاف المغرور على نفسه ، وتبيّن له في يومه ما لم يتبيّن في أمسه فخرج من قسنطينة خائفاً يترقّب ، وهرب عنها وقلبه على جمر الأسىٰ يتقلّب . فقذفت به الموائج ، وترامت بركائبه السُّبُل والمناهج . وكان يدعى حزامة عبد الرحمٰن الداخل فكذب عبد الرحمٰن الخارج . واستقر ببلد العناب لا يمسك دماء إلّا توهم النجاة بركوب البحر ، لما خلت تلك المراسي الشرقيّة من الأساطيل الدافعة في السحر منها والنحر ، والغربان الغربية التي نعقت ببين أهل الفساد وفراق أهل الكفر .

وخالفه أخوه أحمد إلى قسنطينة فآستقلّ بها دونه ، وضبط أحواله في عقر داره وشؤونه . وصبر على حرّ الجلاد ، ورضي الموت ولا التطاوف في البلاد ، ومعاشرة العرب الذين أطال معهم ركض الجياد ، وشنّ الغارة الشعواء

في الأغوار الأفريقيّة والأنجاد . وخاف غدرهم الكامن في صدورهم كمون النار في الزناد .

فلمّا مرض مولانا المرض الذي بلغ منه المبالغ ، وكاد يروع الظل الوارِف والماء السابغ ، وتكسف الشمس الطالعة والقمر البازغ . كثرت الأراجيف هنالك بوفاتـه ، وتبليغ أجله الكـريم إلى منهاتـه . وآضطربت الأمـور ، وآضطرمت الفتن والشرور . وارتفعت الرؤوس بعد تطأطئها وانخفاضها ، وآنبسطت أيدي المفسدين بعد تقهقرها وآنقباضها ، وآل الأمر إلى تعطيل الحصار النافذة أحكامه ، وركود العزائم التي بانت بها سُبل الحق ووضحت أعلامه . ورجع معظم الجيوش الغربية إلى بجاية ، وأعملوا في الانكفاء الرأي وقدموا الراية . وكان من صاحب قسنطينة بذلك بعض التنفّس لكنه لم يحمد عواقب البحث والتحسس .

وفي تلك الفترة نظر أخون عبد الرحمٰن في أمره وأعرب عن علو همّته وجلالة قدره ، فوجّه لعدوه الذي كان عبد الرحمٰن يطمع في زوال ملكه ، ويتناول معه الحروب الناثرة لسلكه . وهو آبن تفراجين الغالب على إبراهيم بن أبي يحيـىٰ ، وتاركه في حكم الحجر الذي لا شرط فيه ولا ثنيا .

فطلب منه عبد الرحمٰن المذكور أن يشتري منه بلد العناب ، ويسكنه معه في تونس التي جمعت أهل الرتب والأرباب ، وظن أنها تنجده من الخيل المرجفة والركاب ، والأساطيل التي تحذوها الرياح حذو الأيانق في القفر اليباب ، وتورد منها أغيالاً للأسد الهضاب ، ومشاحد للبيض العضاب ، وشجراً ملتفّاً لكن من الحراب ، والسهام المنضبة في ربابتها كالرباب .

فأجابه ابن تفراجين إلى ذلك إجابة منتهز للفرصة ، مغتنم إزالة الغصّة . وطلبه في تنجيز البيع وتسليم المبيع ، وآلتزم له أن لا يكون لعهده بالمضيع ، ولا لسرّه بالمذيع .

فمكّنـه عبد الرحمٰن من البلد الذي كان فيه من العاجزين القاعدين ،

﴿وشراه بثمن بخس دراهم معدوده وكان فيه من الزاهدين﴾[351] . وانتقل إلى تونس راضياً من الملك بخدمة غاصبه ، رائماً الذلّ الذي رتغ في مساربه وكرع من مشاربه .

ولم ينشب ابن تفراجين أن حضر بلد العناب وضبط أموره ، «وآستمال بالخدع خاصته وجمهوره ودلاه الشيطان بغرور فطاوع غورروه»[352] وآختار له حصة تحمي ذماره ، وأثار حروباً تحرس أسواره . وقدّم عليه ثقاته الذين أعدّهم للمصابرة على المحاصرة ، ورآهـم أهلاً للمؤازرة عند المخاطرة .

وظن أنّه لا يوصل إلى تونس حتى يطول حصار بلد العناب ، وتدور أفلاك الحروب منه على أثبت الأقطاب . ويتّسع زمانه للتدبير في خلاص نفسه ، واعمال الحيل التي جعلها ثمرة غرسه .

فلما ضرب الفتح من قسنطينة المحروسة بعطن ، وأصبحت بعد أن كانت القرية الظالم أهلها خير وطن ، وآنبسطت الجيوش في تلك الخلال انبساط سابغات الظلال ، وآشتاقت نيران الأسنة لنزيل النزال ، ومرحت السيوف أجفانها شوقاً إلى دماء الأبطال . ولم يبقَ إلاّ أن تهيب الحروب فتهاب ، وتنقطع بالأشقياء الأسباب ، وتسلمهم إلى شعوب الشعاب ، ويبدهم الغلاء ويبيرهم الغلاب . ويلوي بجلدهم الجـلاد ، ويعمهم المصال فيعـوزهم المصـاد،[353] وتحد حـدادهم البيض الحداد ، وتشقى الأجنـاء إذ تـرقى الأجناد . سقط في أيدي المغرورين الأشقياء ، ورموا في بلد العناب[354] بالداهية الدهياء .

وماج بعضهم يومئذٍ في بعضٍ ، وعطلوا ما شاء اللّه من سنّة وفرض .

---

(351) قرآن كريم .

(352) نقرأ كل ذلك بالهامش .

(353) يشير بذلك إلى عدم تمكنهم من مكان يتخذونه ملجأ .

(354) مدينة ومرفأ بالقطر الجزائري (سنة : 507-800) .

ورأت الطائفة التفراجية العذاب قد أتاهم قبلاً ، والخطب قد دهم جلتهم جللاً . وأن الموت أقرب إليهم من أشركة نعالهم ، والإحاطة بهم أوحىٰ من رشق نبالهم ، وتحكّم السيوف في رقابهم أسرع من ومضات برق سحابهم ، وتضلع الرماح من دمائهم أدنىٰ إليهم من محيط هوائهم ، وجوس الخيول لخلال ديارهم أشد تيقناً لديهم من تعاقب ليلهم ونهارهم .

فآختاروا الفرار ، وتركوا الأوطان والديار . وولّوا وهم في الفتنة شرع ، وتقسموا حبل النوىٰ فهو في أيديهم قطع . وتوغلوا في الهرب ، قبل آلتقاء البطان والحقب . وتفرّق ذلك الحزب الخاسر أيدي سبأ ، وأصبحوا عناديد في البطاح والربىٰ فلا سيف إلاّ بلغه نبأ فنبا ، ولا بطل إلاّ وكب ولا طرف إلاّ كبا ، وحل العطب لاستئصال شأفتهم الحبا(355) .

وما وصل منهم إلى تونس إلاّ من أخّر اللّه في أجله ، وأتىٰ يعثر في أذيال خجله ووجله .

، ، ،(356) آبن تفراجين برغاء سقب السماء وأقبل بنات برج إليه في سن القثاء وآعتيام جزائه بالفيلق الجاواء . ولم يشكّوا أن السيوف تشرع في وريده وتحلي جيد المأزق المشهود بجِيده . وأن الرماح تحسم داءه ، وترفع عواملها هامته وتجر أشلاءه .

ولم يبقَ ببلد العناب من يدبّر أمره ، ويضبط برّه وبحره إلاّ قاضيه وخطيبه محمد بن عبد السلام الفحصيلي وكان عديم السياسة محبّاً في الرئاسة . متشيّعاً للعصبة التي يئست من نصر وظهور ، ولم يسع بين أيديها من نور ، وتشبعت من الملك بما لا تملكه فكانت كلابس ثوبي زور . وأطفق بذلك البلد يوقد ناراً للحرب أطفأها اللّه تعالىٰ وأخمدها ، ويقدم آثاراً أخفاها اللّه وأهمدها .

---

(355) كذا في الأصل .

(356) كلمة غير واضحة .

وأقام مولانا أيّده اللّه بظاهر قسنطينة أيّاماً لا يسمع لبلد العناب خبراً ، ولا يعرف لأهله رأياً ولا نظراً . وحدث عنده بأمرهم اهتمام ، وأنشد لسان تمثّله أأيقاظ أمية أم نيام؟ . فآقتضىٰ نظره الكريم أن يتوجّه الشيخ المرابط فاضل بن الشيخ الصالِح أبي تميم ميمون بن عفيف إلى بلد العناب يستطلع طلع أهله ، ويتعرف آراءهم في عقد الأمر وحلّه .

وآستأذنت مولانا أيّده اللّه في أن أكتب عن نفسي إلى القاضي المذكور لأنبهه على ما يجب عليه من الطاعة ، وآتباع السنة والجماعة . وأحضّه على المبادرة بعقد البيعة معطياً صفقة يمينه ، محصناً لعقائد دينه ، مقدماً من ذلك وسيلة تتكفّل بتمكينه ، وتبوؤه رتب العزّ الذي وضح النور فوق جبينه . فأذن لي أيّده اللّه في ذلك حرصاً على هداية أهل الضلال ، وشمول بركاته التي جاوزت مطامح الآمال . وتوجّه المرابِط فاضل إلى ذلكم البلد فأدخل على أهله الفرح ، وقالت له السعادة حدث عن بحر العلم والجود ولا حرج . فتلقّوه أجمعون بالرحب وسرُّوا به سرور الأرض بواكف السحب . وأظهروا له دلائل كل حب خالص ، وعظموه فما لحقت فاضلاً مذمّة من ناقص .

وما وصل إلى القاضي حتى أجمع الناس على طاعة الخليفة الإمام ، وتلقوا بيعته السعيدة بأيدي الائتلاف والالتيام . وأعلنوا بشعار الإنابة لأمره العزيز وأهلُّوا ، وعضوا بالنواجذ على كتاب اللّه وسُنّة رسوله ﷺ فلم يضلّوا . وعزموا على قتال من خالفهم ونزاله ، وتعاضدوا على ذلك العمل الذي سرّ الإسلام بآكتماله ، وأخافوا قاضيهم الذي خادع اللّه والذين آمنوا فلم يظفر بآماله .

فلمّا غلبوه على أمره ، وأنضبوا غدر غدره ، لم يمكنه إلّا أن وافقهم على ما انتحوه كرهاً لا طوعاً ، وملىء منهم رعباً وأشعر روعاً ، وعرض حقائق الأمور جنساً جنساً ونوعاً نوعاً .

وقدم على الباب الكريم في جملة الوجوه والأعيان ، المؤدّين بطاعة الخليفة فرضاً على الأعيان . فأمر مولانا أيّده اللّه بإدخالهم إلى البساط

الشريف ، وإحضارهم بالمواقف الحائزة للمجد المنيف .

فسلموا عليه بوجوه ضاحكة مستبشرة ، ونفوس من الابتهاج والحبور مستكثرة ، إلاّ القاضي المذكور فإنّه أبدىٰ الكآبة والرجوم ، وأظهر بآنقباضه سرّه المكتوم . وصمت عند السؤال عن أهل بلده ، وأعرب عمّا خلد من الهمّ بخلده ، ولم يرجع عن عادة كبره ، ولا جهل أنّه جاهل بقدره ، فصرف إليه مسبار الإمتحان ، واستدلّ على كتاب خباثته الذي أخفاه الطي بالعنوان .

وتعجّب مولانا أيّده اللّٰه من أحواله الحائلة ، وآرائه الفائلة ، ومساعيه الخاطية الخاطلة . إلاّ أنّه أمر بإكرامه في جملة الوفد ، ولم يقطع عنه عوارف الجود والرفد ، وأغضىٰ عنه تفضيلاً منه حين أغضب ، وحفظ منزلته حين أحفظ وما استعتب . وصفح عنه حين أعرض عن الأدب صفحاً ، وأوجده فضل مواهبه الجزيلة وقد أعدم نصحاً .

فلم يكن إلاّ أن طلب أهل بلده حضوره بين يدي الخليفة ، والإذن لهم في التعريف بأحواله السفيهة السخيفة . فأسعفوا بذلك استكشافاً لأمورهم ، ونظراً في المصالح الجالبة لسرورهم . وأحضر القاضي موقف الخصام ، مطالباً بدلائل الاعتصام . فوقعت الشهادات بنفاق نفاقه ، وآعتماله في عزّته وشقاقه . وأنه لما خلا له الجوّ من الفئة التي خسرت الدنيا والآخرة ، وانتهب زعيمها الشقي الذي لم يزل مقهوراً وقد فارق القاهرة . وطلب الاستبداد بنفسه ، وبدل وحشته بأنسه ، وأصرّ على الخلاف ، وطلب الإسعاد والإسعاف . ولم يرع حقوق الخلافة ، ولا عمل بطاعتها الناسخة أحكام المخافة . حتى آضطرّ لإعطاء يد المبايعة ، والتظاهر بالحبّ الكاذب والمشايعة .

ولولا أن أهل بلده رموه عن قوس واحدة ، وأضحت أحزابهم غير مساعِدة له ولا معاضدة . لغلق الأبواب وأوصدها ، وحصّن الأسوار وشيّدها . وآحتمل فجار ، وصبر على الحصار ، وأثار الحرب المضطرمة الأوار . ووقع سؤاله

عمّا قِيل عنه مما زور من كذاب[358] وحار وما أحار بجواب ، وأصمته الحق الذي لا ريب فيه لمرتاب .

إلاّ أن مولانا أيّده اللّه لم يغرب عنه الحلم ، ولا أزعجته تلك الأفاعيل التي أحاط بها العلم . وقصارىٰ أمره أن أمر بسجنه ، وعُوقب بعض عقاب لا رجحان لوزنه ، وأوعز بأشخاصه إلى الغرب ، فهلك هنالك في حكم الثقاف المواصل للكرب ، وخاب قصده في تناول الحرب ، وإقامة سوق الطعن والضرب .

وصرف مولانا أيّده اللّه وفد بلد العناب،[359] ونظر في مصالحهم النظر الجميل الذي أثنت عليه حقائب الأحقاب ، وأعقب الحسنىٰ للأعقاب ، وأبقىٰ لهم السعادة التي تمد أطناب الاطناب .

ذكر البشرىٰ الحاصلة، والغزوة المرضيّة والغنيمة الواصِلة :

لما كان الشقي آبن تفراجين قد تظاهر بخدمة هذا الباب الكريم ، والجري في العبودية وإخلاص الضمير والنيّة على النهج القويم . ووجّه هدية حافلة أقامها دليلاً على آلتزامه للسمع والطاعة ، وآنقياده للأوامر الممتثلة إن شاء اللّه تعالىٰ إلى قيام الساعة . لم يخف عن مولانا أيّده اللّه وجوه مكره وحيله ، وآعتماله في المخادعة التي أودعها أمالي أمله .

لكنه رضي اللّه عنه أحسن المكافأة أضعافاً مُضاعفة ، وأرجأ أمره مساعدة للرأي السديد ومساعفة . ووجّه أيّده اللّه بعض التجّار الخدّام إلى تونس لإقامة المتاع ، والإشراف على أحوال تلك الأقطار والأصقاع .

فلما وصلت الأساطيل المظفرة إلى مرقىٰ بجاية[36] ومرساها ، وتلاحقت

---

(357) كلام غير مستقيم لحذف بعض أجزائه .

(358) كذا في الأصل ولعلّه يقصد كتاب .

(359) وبالهامش نقرأ زيادة «حين عمّهم بالعطاء الحساب ، وبلغهم غايات الآمال والرغاب» .

(360) مرفأ بالقطر الجزائري يصل سكّانه اليوم حوالي 554876 نسمة .

أخراها بأولاها ، ورأت الجيوش البريّة فأقسمت من نقعها بالليل إذا يغشاها . أمر مولانا أيّده اللّٰه تعالىٰ بمسير القَائِدَيْن أبي العبّاس الخطيب وأبي القاسم بن بنج في غرابين ، أصبحا لحلة البحر اللازوردية طرازين وآزدحمت وفود الرياح منهما بين العلمين . وصدر لهما المرسوم الشريف أن يسوقا ما تخلّص بتونس من المتاع برسم العطاء ، وصرفه إلى أهل الحب على أيدي الحبا،[361] وتفصيل جمل الفضل بتفصيله لا للخيلاء . فبادر القائدان إلى تونس حتى قضيا الغرض ، وأدّيا الحق المفترض .

ولم يكن إلّا أن صادف بن بنج شيطيا[362] للروم الذين تجانفوا عن السلم ، وآنقطعوا في البحار خارجين عن ذلكم الحكم . وأقاموا في اليم لانتهاز الفرصة في أهل الايمان ، آخذين بأفواه المراسي التي تحدق أجفان الأجفان .

فتبعه حتى حص، ، ،[363] حصا ، وأورد عليه القتال ظاهراً ونصّاً . وأخذه بغرابه أخذ الصقر للكذرية[364] ، وأسر أهله الذين أحموا نار الحمية ، وزعموا أنهم لا يدنون من الدنيّة . وأتىٰ بهم إلى بلد العناب مقرنين في الأصفاد ، قد أدركت فيهم الأوتار على الأعواد ، وكأنّما البحر ضاق بحياتهم صدره فآعتدىٰ متتابع الأرياد .

وأمّا الخطيب أبو العبّاس فإنه لقي أيضاً جفناً للروم آتياً من أعلامه بالنعمان ومن قاره باليحموم ، مظهراً للمتجردة لكن من السيوف الراغبة للكلوم ، جاعِلاً كل أيّامه يوم بؤس فمن لقيه أيقن الأجل المحتوم المختوم .

إلّا أن الخطيب أبا العبّاس ضيّق عليه مهاب الرياح اللوافح ، وآنقضّ عليه

---

(361) إشارة إلى المفضلين .

(362) يقصد به بحرياً أو غراباً سريع التنقّل على الشاطىء وسيقوم آبن العبّاس بنفس المهمة فيما سيلي .

(363) سقطت ثلاث كلمات تقريباً .

(364) نوع من الطير يشبه القطا .

انقضاض الأجادل على اليعاقيب السوابح . وأرسل عليه عفص السهام المريشة فأقعصت الكفرة أقعاصاً ، وراحت بدمائهم بطاناً وقد غدت خماصاً ، وأبدىٰ بروق السيوف فأتت بهام ، وومضت في غمم لأغمام ، وساورتهم أراقم الرماح الحامِلة لأفظع سهام . وفي الحين أخذ الخطيب الجفن ومن فيه وعلت الكلمة المتلقىٰ ، ، ،(365) من فلق فيه . وجاء بالأسارىٰ مسجورين في البحر المسجور(366) ، وقدم على الأرض العامرة الحارثة بالقوم البور .

وكان وصولهم ووصول الأسارىٰ الآخرين صحبة أهل بلد العناب ، ومن أتىٰ معهم للتهنئة المفتحة الأبواب . فسرّ المسلمون بذلك سروراً آبتهجت به القلوب ، وكرمت بلطائفه المشاهد والغيوب ، وظهرت بآل يعقوب الملة التي أوصىٰ بها إبراهيم بنيه ويعقوب ، أمتع اللّٰه بدولتهم التي لها السؤدد المولود والمكسوف ، وأيّد فارسهم إذا ذكرت الأسماء وقاربهم إذا حضرت الحروب ، وزاده بسطة في النصر الذي لا يمسه اللغوب ، ولا يخلفه المرغوب . بمنّه وفضله .

ذكر وصول بيعة نفطة :
وإظهار أهلها الغبطة :

ولما نظر شيخ نفطة علي بن الخلف في عاقبة أموره ، وأفاق من أغفاة غفلته وسنة غروره ، وأحضر النيّة في الإقلاع عن محظوره ومحذوره ، هدىٰ إلى التزام الطاعة ذوي القلوب الغلف ، وأقام برهان حزمه الموروث وبيّنه بقياس الخلف ، وأتىٰ في خطبة بلده بالبدل والنعت والتأكيد ، فقُوبل بالعطف ، وآختص في ولايته بالعدل والعلمية فآمتنع من الصرف . ووافته كل حرف مهجنة؟ بالبشرىٰ الزاكية العرف ، وحاز بالجد والنصيحة حظاً من آسمه فأهلاً بالاسم والفعل والحرف ، وكشف عن الأحوال فحسن منطقه وأبدع في الكشف ، وجاء في كتابه بالموجز ومن ثنائه بالجمل لكن كرجع الطرف .

---

(365) كلمة ساقطة .

(366) امتلأ بهم البحر المحموم.

ولسرعان ما جمع أهل بلده في طالع السعد ، وأحلّ بمحلّه أهل الحل والعقد . وكتبوا البيعة لمولانا أمير المؤمنين المتوكّل أيّده اللّه تعالىٰ معربين عن كرم الاختصاص ، منزهين بشروطها عن الانتقاص ، معملين أيديهم بالكتب وألسنتهم بالحمد وقلوبهم بالإخلاص . ملتزمين أحكامها التي كرم ميقاتها ، وأثبتت الأعداء بالسيوف إثباتها ، ووجهوا منها روضة كأنّما سطورها في الأوراق غصون وأفقاً اجتلت نجوم معانيه الطالعة في ليلة الحبر عيون ، وشيّعوها بالدعاء تشييع الخمائل العاطرة راحل النسيم(367) ، وآكتفوا سروراً بالسرور الذي جلا عن الوجه الوسيم . وآووا إلى ركن شديد ، ولجأوا إلى عدل وافر وبذل سريع وظل مديد ، وعادت أيّامهم أعياداً لكن أهلتها القسي الطالعة من الغرب . وصباح كل منها سيوف تنير في آفاق الحرب ، وشمسه البشائر التي بزغت لكن في سماء الكتب . وآمنت عربهم لأتراب من مخافة العرب ، ولم يشك حسابهم الرعابيب(368) في حجالهن بالرعب ، وتمهدت أرجاؤهم فلا غلب لأهل حدائقها الغلب ، وعظمت منابتها(369) حتى خلنا قواسمها تعثر في أذيال السحب .

ولمّا وصلت بيعتهم إلى مولانا أيّده اللّه تلقّاها بالقبول والإقبال ، وعمّ أهل تلك العمالة بصالح الأعمال ، وملا لهم دلائل الاعتناء إلى الاصبار والاسبال(370) . وقدم بعد ذلك أبو عبد اللّه محمد بن الشيخ أبي الحسن علي بن الخلف والقاضي أبو عبد اللّه بن خلف اللّه في وفد من أهل تلك البلاد ، وأفواج من ساكني تلك الأغوار والأنجاد .

فعمّهم مولانا أيّده اللّه تعالىٰ بإحسانه ، وأراهم ظهور ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه ، وآنصرفوا شاكرين لنعمه ، شكر المرعىٰ الممحل لواكف

---

(367) كذا في الأصل .

(368) ج رعبوبة أو رعبوب جارية رعبوب ورجل رعبوب شديد الخوف .

(369) كذا في الأصل .

(370) يشير بذلك إلى النعم الجزيلة التي جنوها من موقفهم هٰذا وهو الطاعة والبيعة.

ديمه ، مثنين على جوده وكرمه ، ثناء الطرس[371] على صنائع قلمه . ذاكرين لفضائله ذكر المجادل لعلمه والمجالد لعلمه .

وقد أنشأت بفتح بلد العناب ، ووصول البيعة من نفطة الآهلة الجناب ، وجمع القائدين المجاهدين والإياب ، كتاباً واحداً تعدّدت نسخه الحميدة الاقتراب السائرة في البلاد كسير السحاب ، المدخلة للمسرّات الجميلة الاقتضاء والاقتضاب .

إلاّ أنّه ذهب وآنصاع ، وكان زهراً بمجتمع رياح فلا غرو وإن ضاع . ولقد تمنّىٰ القلم الواشي أن يعيد حديثه فعجز وآرتاع .

ذكر الحركتين البريّة والبحرية :
وفتح تونس كرسي المملكة الافريقية :

ولما قضىٰ مولانا الخليفة المتوكّل أيّده اللّه غرضه من فتح قسنطينة التي آنصاعت ، ، ،[372] بعد الجماح ، وذلّت بعد الطماح ، وشملت أهلها عارفة الاستصلاح ، وحلّ منها حب الدولة المرينيّة محل الأرواح من الأشباح . أقام أيّده اللّه بظاهرها ظاهر الأمر ، ممهّداً أوطانها بالمدرية البيض والمثقفة السمر . والوفود تقدم على بابه ، ورحائل البزل المخيمة تحط بجانبه ، ونيران القرىٰ مشبوبة ، وخطىٰ الساعين لقصده مكتوبة ، والقباب بمدرجة الطريق للضيفان مضروبة والمعالي محفوظة والأموال مهوبة[373] ، والفرش مرفوعة والانعام مجرورة ، والموائد منصوبة ، وبيوت الشعر والشعر هذه مسموعة وهذه مضروبة ، والإبل .قد وجب جنوبها والخيل مجنوبة ، وآثار العدل مشروحة وكؤوسه مشروبة . والمناهج مجلوة والمدائح مجلوبة ، وخروق الفتن مرفوعة ، وأهلة السعود مرقوبة .

---

(371) الصحيفة ويُقال هي الصحيفة التي كتبت ثم محيت .

(372) كلمة غير واضحة عوضناها بما يناسبها .

(373) كذا في الأصل . هل يقصد بها موهوبة؟ .

إلى أن أسلمت سليم بن منصور على اختلاف شعوبها وقبائلها ، وتكاثر عمارتها وفصائلها . الفرقة الذميمة أولاد أبو الليل الذين أشاد مولانا أيّده اللّه بعدم الرضا عنهم ، وتحتيم الأخذ بالثأر منهم ، وتبرأت منهم الأباعد والأقارب ، وضاقت عليهم المشارق والمغارب ، ولم تصحبهم إلاّ الأغوال الدواري والسعالي الدوارب ، حيث تضل القطا الارسال وتتيه النعام الخواصب .

وأتىٰ جميع الكعوب لكعبة الجود . مهدين من ثنائهم وحمدهم ما هو أعطر من الروض المجود . متعاضدين على الخدمة ، متعاقدين على شكر النعمة . وأظهروا النصح الذي لم يكونوا بأهله ، وأعتملوا في الجد الذي لم يروا قط جانحين لفعله، ، ،[374] واستقر الحكمان فالقوي أضعف الناس حتى ينتصف الضعيف منه ، والضعيف أقوىٰ الناس حتى يتوصل بحقّه الذي لا محيد عنه ، والحق، ، ،[375] والباطل لجلج من يعتد به يخنه ، وقسطاس العدل قائم فإن يخف أمر يبنه .

وكان شيخ العرب الأفريقية وأميرها أبو عبد اللّه محمد بن طالب بن مهلهل الكعبي ممن آنقطع إلى هذه الدولة العلية ، وأتىٰ على خلوصه وإخلاصه بالبراهين الجلية . وخدم لكن لأشرف مخدوم ، وأظهر الجدّ فلم يك بمذموم . ونصح فحمد عاقبة النصيحة ، وفاز في آلتزام الطاعة بالصفقة الربيحة .

ونال من مولانا أيّده اللّه كل قبول دائم دائب ، وفاز منه بآعتناء تركه غير تارك لخطة طالب ، فعدل أمور الكعوب تعديل كعوب الرمح ، وأقرّ في الأعشاش طيور اليمن والنجح ، وأعدّ لصحة رأيه حكيماً ، فعاد بالسلامة والربح . وسكن بأولاد سوره سورة الحرب وجعل الحصون حصوناً لكن يوم

---

(374) بياض انمحىٰ وراءه سطر تقريباً .

(375) كلمات كثيرة سقطت أيضاً هنا .

الطعن والضرب ، وأدخل في توالفه مرداساً ، إلّا أنّه لم يرَ من وجوهها عباساً وأزال عن رياب الربب[376] ، وأذهب عن هوارة الهور فذهب ، وأتىٰ بوجوه هذه القبائل معملاً وجوه الرأي السديد ، وفاوضهم في المصالح فالعجب إن أدّىٰ اجتهادهم إلى التقليد ، لكن للخطط العربية التي تهدي إلى النهج الحميد .

وآقتضىٰ نظرهم جميعاً أن رغبوا من مولانا أيّده اللّٰه في محاصرة تونس في هذا العام ووطئها بأقدام الإقدام . والهجوم عليها بجيوش كبحرها ، إلّا أن اللّٰه أذهب عنها الرجس ترفيعاً لقدرها وطهّرها تطهيراً مطيّباً لذكرها . والحوا في ذلك اغتباطاً بأكرم الدول ، وارتباطاً لطاعتها المتكفلة بنيل الأمل ، ونادوا وليس بالخوارج حيّ على خير العمل .

فأخبروا أن هذه الحركة السعيدة إنما أفردت لأخذ قسنطينة وتمهيد أوطانها ، وجعل ذلك شأواً لا تتجاوزه حلبة ميدانها . وما نبهت عيون الجد الذي راق غرة وتحجيلاً ، إلّا لاجتلاء يوم هذا القصد وقد جعل أصيل الراحة أصيلاً ، وبلغت شمس بشائره إلى الغرب فكانت على بلوغ الغاية دليلاً .

وإذا كان الاستحمام يضاعف الأيدي فكيف لا يتّخذ سبيله سبيلاً ، ومع اليوم غد وأنّه على الأعداء ﴿لأشد وطئاً وأقوم قيلًا﴾[377] ، والعزائم كالإبل المرحولة إن حديت قليلاً قليلاً ، سهل لها قطع المسافة البعيدة تسهيلاً ، وإن أرهقت وخداً وذميلاً ، لم تشف بآجتياب القفر اليباب غليلاً ، وقطعت ظهورها قبل أن تسير نزيلاً وتحمد رحيلاً ، والحزم يقف بصاحبه دون مطامح آماله جملة وتفصيلاً ، وإن بخل فلأمرٍ يسدي العطاء على أثر ذلك جزيلاً ، وإن أضحىٰ فلان يفيء على ملاحظه في وقت الاحتياج ظلاً ظليلاً .

وإذا كانت البحار ترجع إلى الركود بعد الهيجان والرياح العواصف تدين

---

(376) كذا في الأصل .

(377) تضمين قرآني .

بالسكون بعد قصف العيدان ، والشمس تتوارىٰ بالحجاب وتغيب عن العيان ، والبدر والنجوم تقصر عند إقبال الصباح عن الذملان،[378] وكيف لا يحتاج إلى أخذ الراحة الإنسان ، الذي خلق ضعيفاً حسبما نطق به محكم القرآن ، وقد جعل اللّٰه لكل شيء قدراً والعقل كالميزان ، والتجارب أحكام تتوقّل مظاهر البيان ، ورحم اللّٰه أبا الطيّب[379] حيث يقول الرأي قبل شجاعة الشجعان .

إلاّ أن العرب المذكورين وعدوا بالحركة إلى تونس بعد تجديد العزائم ، وشد معاقل الصرائم . والاحتفال في جمع الجيوش والكتائب ، والجحافل التي تحل من سماء الحروب محل الكواكب ، ومن رياض النصر محل الأزهار غبّ السحائب وتنزل من أرض العدو منزلة النيران من المواقد ، ومن أرض الحبيب منزلة الدرر من القلائد. وتقدّم على تلك قدوم الصواعق وعلى هذه قدوم الغمام على الحدائق . وأنه لا بد من إيعاب الاحتشاد فالمرء كثير بأخيه فكيف بفصيلته التي تؤويه ، وقبيله الذين يسخطهم ما يسخطه ويرضيهم ما يرضيه ، ورعاياه الذين يذرون في الموارد والمصادر ما يذره ويأتون ما يأتيه ، والقبائل إذا اجتمعت وإن كان العدو مما لا يؤبه به ولا يفكّر فيه ، فإنها أوّلاً عزّ لجامعها إما بالمال الذي يعطيه أو القهر الذي يثبت حكمه ويمضيه ، ثم هي عزّ للإسلام الذي شدت بالإخاء في الدين أواخيه ، والمسلمين الذين حملوا أمر التالف على الوفر فلم يعرف تراخيه ، والجماعة رحمة كما جاء عن النبي الكريم ﷺ الذي غلب[380] أعاديه ، وعمّت الخلائق المرفوعة إليه أيديهم أياديه ، ﷺ ما سرّ الروض بواكف غواديه .

فلمّا عرف العرب الأفريقيُّون المذكورون بذلك علموا أن إمامهم الأشرف أدرىٰ بالأمور ، وأعرف بمصالح الخاصة والجمهور وإن النجح وقف على آرائه وراياته ، ونور الحقّ ظاهر باياته وآياته . وأن الملك سر اللّٰه يؤتيه من يشاء

(378) الإسراع في المشي أو صفة تشبه مشي الإبل .
(379) يقصد به أبا الطيّب المتنبي .
(380) كلمة أنمحت عوضناها بما يناسبها .

كمولانا الذي رحم به العباد والبلاد ، وينزعه ممن يشاء كأعدائه الذين أظهروا في البرّ والبحر الفساد .

إلّا أن العرب المذكورين طلبوا تجديد ظهائرهم وصكوكهم ، وإجراء عوائدهم المعروفة عند ملوكهم ، فأسعفوا بذلك كفأً[381] لما ظهر من تشيّعهم الذي أزال ظلم شكوكهم .

وصدرت لهم بتعريفي ظهائر صريحة أنسابها بيض الوجوه كريمة أحسابها ، محسبة ضاعفت للمخصوصين بها الوفر ، وتأدّت لأربابها كاللجين فلا غرو أن نسوا بها الصفر ، ونزلت أنوارها في الطرف والقلب حين حقّقت الغفر ، ففي كل صفح منها دليل على الصفح الذي شدّ الأزر وأذهب الوزر .

ولم ينشب مولانا أيّده اللّه أن عمّهم بالإحسان الذي تأدّىٰ لكل إنسان عيناً ، وشملهم بالملابس الفاخرة التي اعتدت للمجالس جمالاً وللمواكب زيناً ، وأعطوا السيوف التي راقت في أجفانها النواظر ، وقويت حجّة حسنها ولا غرو فقد حفظت الجواهر . إلى غير ذلك من السروج التي ألفتها الجياد جياداً ، وظلع الأنجاد منها أنجاداً . من كل عالٍ يحسده النجم وتهواه الجواري وإن لم يبقَ منه إلّا الجلد والعظم . سام يبدي من حسنه عجباً ، وكأنّه أنشد صابغة أو فرز فضة وذهباً .

ومن مهاميز مذهبة . كل المحاسن عنها غير مذهبة ، من كل محلىً به الزينة قد اكتملت ، ذي سقط كأنّه الكواكب ولا غرو فهي بالقوس قد اتصلت ، وقربت للأسد فإذا انفصلت الحرب انفصلت .

﴿ فصل ﴾

وطلب من العرب الأفريقيّين المذكورين الرهائن فأعطوها ، وكلّفوا أداء الفروض الدالة على الطاعة فأدّوها ، وحدّت لهم حدود فلم يعتدوها ولا

(381) ولعلّه يقصد مكافأة .

تعدّوها . ودانوا بالصدق لمن جعل اللّه له في الخلافة قدم صدق ، وحسن مقامهم في المناصحة التي انتهجوا منها أوضح طرق ، ودخلوا في عصمة الجماعة التي لها في ميدان الهدىٰ أحسن سبق .

فوقع التوثّق برهـائنهم وإعطاء عهـودهم ، واستتم النظر السـديد في استخدام جموعهم(382) واستيلاف جنودهم . وأذن لهم في الانصراف إلى بلادهم الأفريقيّة ، واستكمال التمهيد لأوطانها الدانية والقصيّة . والأخـذ بأكضام المفسدين ، والفتّ في أعضاء المعتدين . وتأمين السُّبل والطرق وحفظ أعلامها الحدث والعتق ، وضبط أوساط تلك البلاد وأطرافها ، واللياذ بإقامة العدل الذي يقرّها على أحسن أوصافها ، وإشاعة رأي مولانا أمير المؤمنين المتوكّل أيّده اللّه في تثقيف مناديها وإعادة ورق زنادها ، وعظم رمادها ، وحصافة أبرادها . واستظهاره على ذلك بما أعمل فيه نظره الجميل ، وتدبيره الأصيل . من كرم الاستعداد ، والناصب للجلاد واستحمام العساكر المتكافية السرايا ، وانتخاب الأبطال الضاربة المنايا . وتتكتب الكتائب التي استجاش بها على نصر الإسلام ، وآطراد نظام الناس والاقدام ، وإعلاء كلمة الهدىٰ الثابتة الأحكام .

وألقىٰ إليهم أن أمامهم الذي أمّ سُبل الرشاد ، وخليفتهم الذي خلف أكرم الأباء والأجداد ، لا يبالي إذا نامت عيون رعاياه ببرج السهاد ، ولا يبرمه قدوح النصب في إقامة رسم الجهاد . وإنه لرامٍ بهمّته الشريفة إلى ما وراء الغايات ، غير شانىء لشن الغارات ، والازدلاف بأمضىٰ العزمات ، ومساورة الشجعان تحت أذيال الغفرات ، والإكباب على الاصحار بالفيلق الجرّار ، والمصابرة إذا استحر القتال على مناجزة الاذمار ، والمبارزة في غمار الهياج للأبطال غير الأغمار .

امتثل العرب جميع ما قِيل لهم وآئتمروا ، وآلتزموا الوفاء بما أوردوا فيه

(382) كلمة نقرأها بالهامش .

وأصدروا . وانقلبوا مغبوطين في صفقتهم الرابحة ، مستوصبين لآرائهم الناجحة . قد أثقلت ركائبهم وخففت ذنوبهم ، وملئت عيابهم ، وتركت عيوبهم وأعظم حباؤهم وغفر حوبهم ، وأجزلت حرائبهم ووضعت حروبهم ، ووصلت مخاطباتهم ، وأذهبت خطوبهم ، وثبتت أقطابهم وأزيل قطوبهم ، وجبر شعثهم وكرمت شعوبهم . وآنكفّوا شاكرين لصنائع المولىٰ الذي هو للصنع الجميل أهل ، والملك الذي أثار ملكه وضحت فهي صدق وعدل[383] ، والإمام الفاضل الذي استكفىٰ بسيوفه جيد وبعلومه حبل ، والهمّام الباسل الذي أسعفه نصر وأسعده نصل ، وزان جزالته نوال جزل ، وشدّ له أزر فأزيل أزل[384] .

أبقاه اللّه ما أذهب وبال المحال وبل[385] ، وأبان الاستبشار بوفد النسيم بان[386] وأثل[387] بمنّه ويمنه .

﴿ فصل ﴾

ولما أهيب بهم الانصراف ، واكتنفوا بالإحسان والتوسعة أحسن الاكتناف . ومضىٰ أمير المؤمنين المتوكل أيّده اللّه على رأيه في تكميل مطالبهم وإخماد مذاهبهم ، وإنالة مراغبهم ، واستصلاح جوانبهم . رغبوا أن يعين للمسير معهم أحد الأكابر من وجوه الدولة والوزراء المقرّبين ، والخواص المنتخبين . ليحوز الأوطان الأفريقية التي بتت عن طاعة الأشقياء حبالها ، وتمنعت إلاّ على مقاليد الخلافة العلية المتوكلة أقفالها ، واستسعدت بالإيالة التي كحلت عيونها بأنوارها ، وحمت بأسيافها داوية صحاريها وأسياف بحارها ، حتى يستبين أثر التملّك لما قرب منها ونأىٰ ، ويبدو عليها ميسم

---

(383) كلام غير مستقيم حذف منه بعض أجزائه .

(384) ضيق .

(385) المطر الغزير .

(386) كذا في الأصل لعلّه يقصد البان .

(387) عظيم غزير .

الطاعة التي فخر بها الزمان ونأىٰ؟ ، ويفشو اعتصابها بالملك الذي سبق حلبة رهان الممالك وشأي[388] .

وبعد ذلك ينفذ الإقطاعات المأمور حديثها من الانقطاع ، ويمضي إلاّ سهامات المنزهة سهامها الوافرة عن الارتجاع . ويقف بالظهائر الكريمة مواقفها على حكم الظهور . ويصدر الأوامر الكريمة التي حازت شرف الظهور ومجد العصور . ويعرف من نصح من العرب ومن غشّ ، ومن أطفأ نار الاعتزام ومن حش . ومن وفىٰ بالخدمة وقصّر ، ومن عمّه بعد إعطاء يمين المبايعة ومن تبصّر . ومن داوم النصيحة التي هي لسان الطاعة ومن جانبها ، ومن باعد سُبل المحبّة التي هي قوام الأعمال ومن كاتبها ، ويكون مع ذلك على ثنايا الاستشراف لفرصة ينتهزها،[389] وراية في رباوة العزّ يركزها ودفينة من الرأي المستحكم يبرزها ، وقناة من إدارات العدو يلينها حين يغمزها .

فقبل منهم ذلك الكلام ، وتوجّه إليه الصغو ، وعرف أن مقالهم ذلك لم يتخلّله التأثيم ولا ألمّ به اللغو . وأسعفوا بتلك الطلبة ، ووسع لهم جناب الموهبة . ووقع الاختيار على الشيخ الأجلّ أبي زكريا يحيىٰ بن رحو بن تاشفين بن معط وهو الذي عرف في بني مرين أعزّهم اللّه مكانه . وآنفسح في غرض مجدهم الشامخ ميدانه إلى ما تفرّد به من التخصيص بحضور البساط ، والانتظام في سلك الخواص والانخراط .

فتقدّم الأمر الكريم إليه بالاستعداد للفصول ، والاستبلاغ في العزم الماضي النصول ، والأخذ في الحركة التي هبّت بالعقد له ريحها فسرّ بالقبول . وعيّن للمسير معه جيش كثيف ، وعسكر لكريم الاصطفاء والانتخاب به تعريف ، وأشخص في تعبئة أخذ الناس بها مأخذه ، وأهبة جميلة أنفذ بها العزّ من أحكامه ما أنفذه ، فكان فصوله من ظاهر قسنطينة

---

(387)«علت همّته» .

(389) نقرأ بالهامش إضافة : «ومواعد للفتح يستنجزها ، وغاية لإقامة الحرمة يحرزها» .

صحبة العرب الأفريقيين الذين هذّبوا به زهرة الدنيا ، ونالوا بقدومه وإقدامه الرتبة العليا ، وخاف كل منهم أن يموت في الفتنة التي أبلغ وقعها وأغيىٰ . فلجأ إلى العسكر المنصور الذي لا يزال به يحيىٰ .

ولم ينشبوا أن أعملوا الوخد والذميل ، وتخاموا المعرس والمقيل ، وحثّوا الخيل المسومة والرواحل ، ونشروا الألوية وطووا المراحل . فجادل ابن الرمح بلسانه الذليق ، ورقّ حدّ السيف فجل في أفريقية تاريخ الرقيق ، وتعطر أراج البشرىٰ فلا بعد للزهر الأنيق ، وجاءت الفتوحات فأهلاً بالنبأ المستفيض في الزمان المستفيق ، والصنع الغريب في العدو الغريق .

﴿ فصل ﴾

ولمّا نسخ مولانا أيّده اللّه بالنفع ضرّاً ، وكان فعله في حركة البربرا ، صرف وجوه نظره الجميل إلى الأساطيل التي استقرّت بمرسىٰ القل كثرها ، وطلعت بسماء مرقبه زهرها ، وكادت أعوادها ترجع إلى النضارة فيتفتق بالماء الأجاج زهرها . فرأىٰ أيّده اللّه أن أهلها يملّون هنالك الثواء ، ويظهزون لتلك النواحي الاحتواء . ولأنه لا فائدة لإخراج ما شحنت به من آلات الحصار ، وأسباب الاستظهار ، والعدد الآخذة بأضباع الاستنكار ، بعد أن لاذت قسنطينة بجناب الطاعة الحميدة الآثار ، وأمكنت من مقادتها أيدي الاستبشار .

وخطبها الفتح فأجابت ، ودعاها النصر فوهبت وأهابت ، وتودعت في مضر الهدو وما ودعت ، وصدعت بالدعوة العليا وما تصدعت ، ونسخ السلم بها حكم القتال ، وعهد السعد لها بحسن المآل . وأصبحت بعد المجاهرة بالعصيان ، والمباينة بالعدوان . تتبوأ من طاعة أمير المؤمنين مبوأ صدقنا ، وترتق بالإنابة إلى أمره العزيز أعظم رتق .

وأكّد أيّده اللّه جزيلة ارتيائه نازعـاً إلى التي تظهـر فخامـة الملك ، وفشونا[390] العزائم التي تتخطّىٰ إن شاء اللّه أهل الفساد إلى أهل الشرك .

---

(390) غير واضحة .

آخذاً باليمين من أهل الشمال ، نافذاً في مناهج الاستجزال خطوطه والاستجدال . مع قبض العنان عن استبقاء الغايات في أخريات الحركة الظاهرة الآيات . ووقوفاً مع الحزم في تقريب أمد الأرهاف ، والمجانفة لما اكتنف بالاستضعاف .

ووقف به استبصاره على أن الجيش البحري أشدّ احتياجاً للاستجمام ، وأجدر بالتودّع بعد الاستكمال للمقصد الأوّل والاستتمام . لأنهم يقولون إنهم ينتقلون من الأرض الفسيحة الميدان ، إلى ما ضاق من أعواد الأجفان . مسلمين إلى عطامط يراوع ثبجه ، ويطمو عواربه ولججه . حيث الرياح العاصفة تهفو بالعقول والأحلام ، وتستنزل على حكمها أهل اليأس والإقدام .

فهم في هول تشيب منه المفارق ، وجهد ترهبه البيد السمالق ، ونصب لا تعرفه الجيوش المغيرة والفيالق ، وتكلّف في أداء الفرائض التي وضحت لها الحقائق ، وإقامة السنن التي كرمت سوابقها واللواحق . واستمرار مريرهم على منابذة الهجود والهجوع ، والتجافي عن المضاجع المترعة بالذكرىٰ والنزوع . وتوردهم لمياه طال ببطون الأكواب مكثها ، واغتذائهم بأطعمة تقادم في ضمان الاحتراز لبثّها .

إلى غير ذلك من الأمور التي آعتالها التعذّر ، والأحوال التي أعوزها الاستثبات والتقرّر .

فتقدّم أيّده اللّه بالإيعاز إلى قوّاد الأساطيل القوّامين عليها ، وولاة الأجفان المأخوذ بأزمة أنظارهم إليها . وعهد إليهم أيّده اللّه بالشخوص إلى السواحل الأفريقية ليشرفوا على مراقيها ومراسيها ، وينبسطوا في أدانيها وقواصيها . ويصدعوا بالأسماع ، ويفسحوا شأو الاستشناع . ويعرفوا فرض انتهاز الفرص ، والمناصب التي تمتد بها الحبائل للقنص . وينتصروا بمجاثمهم لأخذ البلاد ، في زمن الاستعداد ، ويتفطنوا لعورات المدن التي أنفت من

(391) كذا في الأصل .

الانقياد ، وادلهمت بها غواشي عواشي أهل العناد ومال بسرارتها صنعاً .[392] طاغية أهل العناد . ويبتدروا الكفرة حيث كانوا بغزوات تركب اكتافهم ، وتنسف أوساطهم وأطرافهم ، وملاحم تتيح الأشجان فيهم ، والإداحة؟[393] لأرجائهم ونواحيهم . ووقائع تواضعهم الحرب الضروس ، وتناصبهم الجلاد الذي يستاهل الرئيس والمرؤوس . وهزائم تقودهم بحزام الثبات والتبار ، ويصليهم قفل نار الجحيم نار الأسنّة والشعار . فأتيح وصول الأساطيل المنصورة في طالع لزمت السعود فيه ملازمها ، وتنسعت في حواشيه المسرّات مراسمها ، ووفرت بإقباله المناهج مقاسمها ، وضاعفت الميامن باستيضاح أنواره مياسمها .

وأقبلوها للشرق أغربة كان أعلامها البيض حمائم ، وطرائد كان الأبطال فوقها أسود ضراغم . وشياطىء تستشيط على أعداء اللّه غضباً ، وسلالير يتخذ سبلها في البحر عجباً ، وقوارب تخلص للّه بجهادها قرباً ، ولجحوا بها فلكاً يكاد يستنزل الأفلاك ، وسفائن تحمل على أسرّتها الأملاك ، وشوانىء لعاجل الأعداء الشواني الاهلاك . ومراكب يركببها المناوىء ردعه ، وحراقات تحرق قلب المناصب وتتيح صرعه . منشآت تبدو بمهرق البحر سطورها ، وجواري ترعىٰ بدر الحباب بحورها ، وترفل في حلل أشرعتها وقلوعها ، وتبدي سواد فارقها ، فكأنه بعض دوائبها وفروعها ، حسناوات وصلت بالرياح حبلها ، واعارتها الطيور جناجئها[394] فطارت مثلها .

أهلّة تحمل شموساً وبدوراً ، وتجلو بنجوم أسنّتها غيهباً وديجوراً . ذات دسر وألواح ، جسوم تزهىٰ منالنسيم بأرواح . مواخر كرمت مقادمها ومواخرها ، مسخّرات لا يسخر منها غائبها ولا حاضرها .

وحيّة النجوم ، بائحة للنصر بسرّها المكتوم ، آتية من صفحة وبحرها

(392) غير واضحة في الأصل .
(393) كذا في الأصل .
(394) غير واضحة .

بالوشي المرقوم ، معلمة مجاذيفها عند طفو الحباب حل المنظوم ، متحرّكة فعلها ليس بالمجزوم (كريمة الآثار كالغيث المسجوم ، ما مال بحرها إلّا قامت بالحق المعلوم للسائل والمحروم.)[394] ويتشرّف ببلوغ الآمال على يدي المولى المخدوم .

ولم تزل الرياح تنهضها ، والنواسم ترسلها ولا تقبضها ، والبروق تلقاها ضاحكة مباسمها ، والسحائب تلقاها محتذية غمائمها . حتى اندفعت ببحر أفريقية رائقة الملامح ، فائقة المناجح ، وكرت سوابحها في تلك الميادين كالجرد السوابح .

واستنت في طبل الطول ، وهدرت أبطالها هدرات الفحول في الشول . ورفعت أعلامها المعصومة باليزنية السمراء ، وطلعت بالتعبئة الباهرة الرواء ، والشارة الرائقة الآلاء ، والأهبّة الآخذة بأكضام الأعداء .

وتوالجت مرسىٰ تونس نائية عليه بكلاكلها ، وتكاثفت بمرقبها كاشفة عن معاضلها . واتّسقت هنالك مشربية لإقامة الحرب الزبون . فاصلة بالبيض أخلصتها أيدي القيون ، والسمر العسالة حافة كأهداب العيون .

مشاورة كالرقش النوازي للأبطال ، موسعة من أنطقة القتال للاقتال ، صامدة لاغتيال أسد النزال ، منتصبة كالظلّة على أهل الضلال .

ولما اجتمع القوّاد هنالك أجالوا أقداح الآراء ، وأداروا الحديث في الهجوم على تلك المدينة المنفسحة الاذراء . فأجمعوا على ذلك تظاهراً بصدق العزائم ، وتدامراً على شقيها الذي احتمل أثقال الجرائم ، ومرّ جفا في سيول الهزائم . لأنهم تحقّقوا ما شعثه الروع من رأيه ، وخلطه الرعب من كدحه وسعيه . وإنه رهينة انتكاس ، وصريع إيلاس ، قد وهن اقتداره ، واستتبع عثاره ، وضعفت أنصاره ، واستسلمت للمنازل داره ، قذفت به إلى مفاجأة الخطوب أطواره .

وأعوز القوّاد دخول المرسىٰ الذي قرب من تونس فغيره خبثها ، واعترض

أمامها ، فسلبته الطهارة حدثها . إذ هو ضيق الولاج ، صعب الانتهاج . دافع في صدور الأجفان التي تتقاضىٰ ديون الحرب ، وقادع كبار الأساطيل المستبلغة في إقامة الطعن والضرب .

وآقتضىٰ رأيهم الذي أحصدوا مرائره ، وتفاوضهم الذي تلوا سرائره وضمائره . أن يختاروا جملة من رجال الباس ، ومدارة المصاع والمراس : وينتقوا طائفة من أبطالهم المناجيد ، وأدمارهم الأجاويد ، ويركبوا القوارب الصغار ، مقدمين بين أيديهم الاختبار لينالوا الاختيار .

وأقبلوا بها في زهاء ثلاثمائة راجل ، ما بين سائف ورامح ونابل . ومعهم الرئيس ابن الأحمر قائد القوّاد ، ومن ظاهره من مساعير الجلاد . وأهل الغناء من طبقات القوّاد والرؤساء ، والحفدة الآخذين بحنك الهيجاء ، والخدمة الذين أبلوا في خدمة القراع أحسن البلاء .

فلمّا بلغوا أسوار تونس مرتمين على جوانبها صامدين إلى مراقيها ومراقبها ، منبرين إلى حيث سمنت أبراجها ، وتضاعفت للصاعدين أدراجها ، وآتّسقت على درر واحد في مناغاة الكواكب السامي مناطها ، والذهاب في المنعة التي تكاملت أشراطها ، وأفرجت لهم عن باب الديوان مضبوطاً بكفاة الرجال ، مكتنفاً بآلات القتال ، موشحاً بالعدد المحكمة الاعمال .

فلم ينشب القوّاد أن نزلوا عن متون الأعواد ، وهجموا على ذلك الباب حاشين نار الجلاد . وواضِعوا من كان هنالك للحرب فظهروا عليهم مضغطين ، ومالوا على العصبة القاسطة بالإبادة مقسطين . ووضعوا فيهم السيف حتى خلص لهم تملّك الباب ، واجتازوه على حكم الغلاب .

واشتهر مجال المناوشة والمماصعة ، واستوسع ميدان المجالدة والمقارعة . وعمدوا إلى برج والاهم فملكوا مقاده ، وخلعوا عن عاتق الحماية نجاده . وافتتحوه وما غير السيوف مقاليد ، وتمنّع نجاده فلم تمهله إلاّ رجالهم المناجيد . ونشروا على رؤوس شراريعه ذوائب الألوية وأنفذوا على ألسنة

النصر بداره أوضح الأقضية . ولم يشغل ذلك الأكبر عن التوغل في طلب الاستيلاء ، ومفاتحة المدينة التي ضمّت نسر الأعداء .

وما راع الشقي ابن تفراجين إلاّ وصول النذير العريان يعلمه أن تونس قد أخذ بطرف بساطها ، وخرم ما والىٰ العقد من درر أسماطها ، وانتزعت فلذة من كبدها ، وجدم بعض أنامل يدها . ونُوديت فدخلها الترخيم ، وأبدىٰ عليها السير والتقسيم . وبغتها على كره مالك عصمتها الطلاق والتحريم . وأشعر أن حماة رجاله قد شملتهم النكبة والردعة ، وكشفوا عن مراكزهم ورابتهم الصرعة ، ونسخت بالإبداع في مذاكرتهم البدعة، وشملت فحولهم الهيبة القدعة . وكانت لهم بالسيوف الخفضة بالرماح الرفعة . فسرعان ما وافىٰ الشقي المناجزة بمن أعدّه لنا من فرسان ورجال ، ومقاديم أبطال ، ومدارة حرب نزال . فصدمهم بأسنا الجلاد ، وساوروا الردود والامداد . ولم ترعهم وهم مترجلون فرسان تنقض انقضاض العقبان خيولها ، وتساجل في السرعة الرياح إذا مرّت صباها وقبولها . ولا الدارعون امتطوا ألجرد السوابق ، وحفزوا تحت اللبود المطهمة اللواحق .

من كل أعوجي يشي البروق الصادق ومضها ، ووجيهي يقيد الأوابد التي انفسحت للجفول أرضها ، ولا حقي يسابق السحب المستطيرة فلا يستتب نهضها .

ولو شكان ما اصطبروا مع الشقي وأحزانه في مأزق فغر به الحمام فاه ، وآكتال للفوارس الدارعين بأوفر صاع واوفاه . وفاصلوه بطعان يصبح الموت في حجراته ، وناجزوه بضراب تضج المنون من نزواته . وجاولوه في كل بقعة اعتام سرارتها ، ودافعوه في كل ناحية عمّ قرارتها . فقبضوا خيله ورجله ، واحتازوا رشاءه وسجله .

وكانت لهم الديرة عليه ، وفاء بضمان البأس والإقدام ، وكشفاً عن عواقب الاستمساك بحبل اللّه والاعتصام . وآنجلت الوقيعة عن قتل صناديد أحزابه ، والصرع لطائفة من حماة جنابه ، والظهور عليه في عقر داره ،

والتوصّل بأنياب كماته إلى محو أثاره . وتحاجر الفريقان في يوم أنوم على العدو ، وتحيّزت الفتيان في وقت حكم لحزب اللّه المفلحين بالعلو . فرأىٰ القوّاد أن تونس لا يهمهم استعصاؤها ، ولا يكيدهم جماحها وإباؤها وأنها لا تستعصم من سيوفهم ، ولا تمنع من رحولهم ، وأنها آخذة رماحهم ، وسنية افتتاحهم ، ومطية استلائهم ، ورمية سهام مصابهم .

ورجعوا آخرة ذلك اليوم إلى الأساطيل المنصورة ، والأجفان التي تركوها بمرسىٰ الكبير كالحور المقصورة . وعزموا على أن يهبطوا في اليوم الثاني بجموعهم الوافرة الأعداد ، وإمدادهم التي خفّت لشعر نار الجلاد ، وكفت المشاهد عيب من لم يشهد الكائنة من الأنجاد .

وأجمعوا على أن يصابحوا الشقي بأبطال تملأ الفضاء عصائبها ، وشجعان تنزع درر الرامسان مقانبها . وتنهد إليه بسيوف تجال في تلك الأرض المعطشة جداول ، ورماح تذكر بطولها أيّام الفراق الأطاول . وتصول ليس لصبغها ولا لفصول زمنها على الأعداء فصول . وباتوا ليلهم متجافية جنوبهم عن المضاجع منتظرة أحزابهم بروز الذين كتب عليهم القتال إلى المصارع .

فلمّا تمحص في بطن الدجا حسن الصباح ، وكرم حمله وفصاله على وفق السؤل والاقتراح . وفوا بما عاهدوا عليه العزائم ، ولم يحفروا الحفائظ المتلظية والصرائم . وهبّوا للمعاركة هبوب البيض الفواصل ، وآنبروا إلى المناجرة انبراء العقبان الخائنة الأجادل . فلم يكن إلّا أن وجدوا تونس قد لفظت شقيها لفظاً ، وتلا أهلها فاللّه خير حفظاً ، واستجذلوا بظهور الإيالة الفضلىٰ التي توسعهم لحظاً .

وذلك أن طليعة الجيش البحري لما ناهضته فتفتق دونها صفوفه ، ونازلته فردت على الادبار زحوفه ، وضاغطته فأبصر منونه قد أقبلت وحتوفه ، واستحار في أمره فعرف منكره وأنكر معروفه . ونجا منها بعد اللتيا والتي ، وما قال لنفسه التي طارت شعاعاً اثبتي . وأبصر حماته قد ضرجوا[395] بالدماء ، ودارت

---

(395) اصطبغوا وتلطّخوا .

عليهم رحىٰ الهيجاء . فآحتال في الخلاص من شرك الحرب الذي علّق به جناحه ، والنجاة من أنشوطة القهر التي ظهر بها افتضاحه . ولم يجد بداً من الفرار ، والتخلّي عن الطريق ليأتي المنار ، والإسراع بالهرب ، قبل قرع النبع بالغرب ، والتقاذف في مهوىٰ العطب . ورأىٰ أن الليل أخفىٰ للويل ، والخيبة خير من الحشف وسوء الكيل .

فخرج منها خائفاً يترقّب ، ويتسلل لواذاً كلمح البصر وهو أقرب ولاذ بجنح الليل البهيم ، وشرد وهو الظالم شرود الظليم ، وسلم في جنّته التي أصبحت كالصريم ، ومنازله التي جرّ بها أذيال النعيم . وخلف من آثاثه وأسبائه ما له خطر وبال ، ولم يعقبه في محاولة استرجاعه إلّا وبال .

وترك من ذخائره ما أثقل ظهور القلاص ، وحكم الغلب على غواليه بالإرخاص . وقد أنفسه بالنزوح عمّا هو أعزّ عليه من نفسه ، وانطلق وبين جنبيه داء لا يتداوىٰ أو يودعه في رمسه . وبعد لاي استقر بالمهدية حاملاً أعباء الثكل ، منتظراً لمحاصرة أخرىٰ حذوك النعل بالنعل . بل يئس في الرادفة من الحياة ولم يطمع وقد إنقطع شأو النجاء في النجاة . وأيقن بعارقة العظم ، وحاقة الحطم ، وجادة الخطم ، وبائنة الوقم[396] ، وواضحة الهضم ، وماحية الرسم ، ومذهبة الوسم ، ومنكرة المسمىٰ والاسم .

وأمّا سلطانه بل محجوره الأمير إبراهيم بن يحيىٰ فإنّه كان أجلاه مع أولاد أبي الليل ، ونال منه بالإسلام إلى الخونة أعظم النيل . وتركه بين ظهرانيهم صفر اليدين ، سخين العين لفقد العينين . ضارباً في الأرض لكن هو ضارب للصدرين ، منتظراً في موارده ومصادره الحين ، وامتطاء الدهم التي من مربط الغين . عالِماً أن ساعده مولانا أيّده اللّه ساعد منه باليدين . ويصرعه للجنبين لا جرم أن مولانا نصره اللّه من بحر التوكّل يغترف ، وبالبراءة من الحول والقوة

(396) القهر . استعمل المؤلّف سلسلة من الألفاظ لتدلّ على معنىٰ واحد تقريباً وهو سوء العاقبة . تقريباً وهو سوء العافية .

يعترف ، وبإعانة اللّه من آبن أبي يحيـى وغيره ينتصف ، وإذا نادى طالباً للثأر بالإجماع أن إبراهيم لا ينصرف ، والفتح علامة خفضه لكنه لبلاده التي ببغضه تتصف .

﴿ فصل ﴾

وما نهض قوّاد البحر إلاّ وأخبروا أن الشقي ابن تفراجين ولى وهمومه مستحضرة ، وخرج عن تونس وعزائمه مستقصرة . وأجفلت أحزابه التي استنفرها ﴿فكأنّهم حمر مستنفرة﴾ .

وغادر الحضرة التي استولى عليها غدراً ، وأرهقها من أمرها عسراً ، وعمّ أهلها بأسرهم أسراً . وترك مقدمات قصورها سالبة لكن للأبصـار[397] ، منعكسة العكس[398] المستوى لكن على عصابة الفجّار . ونادت بشعار الإمام الذي أزال البلىٰ عن البلاد ، وأعلى أغلال أهل الفساد . وأبدىٰ مجاسر محاسن العدل ، وفض لطائم لطائف الفضل . ولهجت بطاعة مولانا أمير المؤمنين ، ونادت ألسن حالها : ﴿ادخلوها بسلام آمنين﴾ .

فلم ينشب القوّاد أن احتلُّوا ساحتهـا ، وحسنت مناظـرهم ومناظمهم بمساحتها[399] ، وسمعوا مقالها ، وحمدوا مقامها ، وانتجعوا مرادها ، ويسّروا مرامها . وظفروا منها بأوقىٰ أوقات ، وأكفى أكفال وأقوىٰ أقوات . وتبوؤوا أسنىٰ أسنامها ، وتسوروا أعلىٰ أعلامها ، وجروا أهدىٰ أهدابها ، واقتصوا أسرىٰ أسرابها ، وتوصلوا إلى أبهىٰ أبهائها ، واستولوا على أرجا أرجائها .

وتملّكوا قصبتها الحافلة الحافدة ، وانسوها بذكر مولانا ، أيّده اللّه ملوكها الحاسرة الحاشدة وتملّكوا أسرّتها المنضودة المنضـورة ، وكراسي ملكهـا المنصوبة المنصورة .

---

(397) في الهامش نقرأ : «مهملة والعجب أنّها مستكملة الأنوار» .
(398) كذا في الأصل .
(399) في الهامش نقرأ : «واجتلوا مناجم مناجحها واجتنوا أزهىٰ ، ، (كلمة ساقطة)» .

وجالوا في مصانعها فتركوا صلاة القصر بالقصر ، وحسبوا ذلك اليوم عيداً فلو حضره الأعداء لكان عيد النحر ، لكنه فطر أكباد شيعهم فهو عيد الفطر .

وأخذوا الملك الذي اغتبط بمولانا الجوّاد أبي عنان أكرم ملوك العباد ، وترك الأمير إبراهيم بن أبي يحيى فهو صحيح الإسناد ، وتذكّر حقوق الدولة العلوية بتلك البلاد ، فمالت للحسن لكن من فعال مولانا الرفيع العماد ، ورفع اللّه كلمته الصادقة الأشهاد ، وبسط يده على الأغوار والأنجاد .

ولم ينشب الرئيس أبو عبد اللّه بن الأحمر قائد القوّاد ، وقطب دائرة أهل الجلاد أن تقدّم لضبط تونس وإقامة زورها ، والاعتمال في إزالة ميلها وصغرها ، وأبرم القوّاد آراءهم في سدّ عورات أسوارها[400] .

واستحضروا بياض أهل تونس والسواد الأعظم من أهلها فأتوا مهطعين ، ولبُّوا نداء الطاعة مسرعين . وتكاثفت جموعهم مستبطئين الحدّ الثابتة دلائله ، محتقبين الأخلاص الصادقة محائله . مغتبطين بالإيالة التي خضدت شوكة العناد ، والمملكة العظمى التي جدعت أنوف الفساد . مستبلغين في تعزيز الخلافة الرحمى ، وتوفير جلالها الأحمى . مستوسعين في أعمال شكرها ، مسترسلين في تعظيم قدرها ، مستقيمين على جادة الجد في القيام بأمرها ، مستديمين بركة الإطالة في عمرها .

وطلبوا بعقد البيعة لمولانا الخليفة أمير المؤمنين المتوكّل أيّده اللّه فطوّقوا بأمانتها أعناقهم ، وأعطوا بآلتزامها عهدهم وميثاقهم . وعقدوها على أتمّ شروطها ولم يدهنوا في أحكام ربوطها ، وتقلّدوها بيعة رضوان طمّ بها السرور ، وسعدت بإحصار مراميها[401] الخاصة والجمهور ، وتلى عند انتقالها الآن وما تستوي الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور[402] ، وضاقت فسحة

(400) في الهامش نقرأ : «معاقد أزرارها وخلل أقطارها» .

(401) كلمة غير واضحة.

(402) حر الشمس .

رقّها المنثور ، ومجال كتابها المسطور ، عن إيراد الشهادات التي صدرت عن الحب الوافر في الصدور ، والتشيّع الذي آستوىٰ على أريكة الابتهاج والحبور . والانقطاع الذي استتبت تمائله[403] على جوانب الظهور .

وأمسوا وقد صرفوا القذىٰ عن مواردهم ، وأرضوا عالِم الغيب والشهادة في مشاهدهم ، وختموا صحائف أعمالهم بإعطاء صفقة إيمانهم ، ونفي الهوادة والهوىٰ عن أحكام أديانهم ، واحضان[404] عقدها مستنيمين إلى أكناف أسلامهم وإيمانهم .

ومحوا ما فشا عنهم من الانقياد لأهل المكر والكياد . والامتثال والائتمار ، لأحكام العثرة الأشرار . وأوضحوا المعاذير التي نسخت العتب بالاعتاب ، ولم تنط اللائمة بأفعالهم المعروفة الأسباب .

وأشاعوا الابتهاج حتى عادت تونس تونس كآسمها ، وأذاعوا البشرىٰ فما أجد من معارض لحكمها . واستعاضوا من الجور أقساطاً ، ومن الكلال نشاطاً ، ومن الانقباض آنبساطاً ، ومن الكراهية آغتباطاً ، ومن الانحلال في أمور دينهم آرتباطاً .

واستيقنت أنفسهم أعداءهم على الأعداء ،[405] استيعادهم بالكلمة السواء . وتفيئهم ظلال الأمنة ، وتبدلهم السيئة بالحسنة . وأوذنوا بآنحسار الضراء ، وآنجلاء الغماء ، والانغماس في بحور النعماء ، والاستيضاء بمصابيح السراء .

ونشأت لهم سحابة السعادة بحرية ، وخلعت عليهم ملابس الهداية عبقرية . وأهاب بهم الملك الذي تفرّد من المجد بأشرف الوسائل ، وسأل عن أشراط الكمال وما المسؤول عنها بأعلم من السائل . أيهت بهم الدولة المرينية

---

(403) كذا في الأصل .

(404) كذا في الأصل .

(405) كلمة سقطت في الأصل .

التي هي مطالع الهدىٰ ، ومعدن المجد المؤثل والندىٰ . والفائزة في دول الإسلام بالشرف العتيد ، والفخر الذي لو تعاطاه بنو مروان لأشاب رأس الوليد . وعمّتهم بركة الدعوة وأبدىٰ الصريح عن الرغوة . واستراحوا من الظلمة الذين أخذوا حيث ثقفوا ، ونسفوا أيّة وقفوا .

وغضبوا فآعتبوا بالصيلم،(406) وسخطوا فأرضوا بطعن كرشاء العيلم . وآنجلوا عن منازلهم حين لم يجدوا من يذب عنهم ، وخرجوا من ديارهم ولو كان لهم أمرهم ما فعلوه إلّا قليل منهم .

وآستقام التدبير في رعي الرعايا ، واحماد الخطا وغفر الخطايا وإفشاء التجلة والإكرام ، والإبراز في البرّ والاحترام . وشمول الرفق ، وإمضاء الحكم بالحقّ . واستفاض الشكر والدعاء ، وتألّفت على الطاعة الأهواء .

﴿ فصل ﴾

وعلى أثر ذلك وصل إلى تونس الشيخ أبو زكريا يحيىٰ بن رحو في الجيش الذي استحكمت عقائد مضائه ، واستلحمت أرحام بأسه وغنائه . ودخل في التعبئة التي ضاق بها ذرع الفضاء ، والأهبّة التي تطاولت إليها أعناق الهيجاء ، والترتيب الذي استبلغ في الفخامة والبهاء ، والتبريز الذي آضمحلّت به أمور الأشقياء .

فتخلّىٰ الرئيس المعظّم ابن الأحمر عن منصب الأمرة ، ونسخ ما آحتمل تأديته حالة الفترة . ورجع إلى ولاية الأساطيل ، وجمع نظام القوّاد البهاليل .

وآستقلّ الشيخ أبو زكريا بالأمور يمضيها على رسومها ، والإدارة يحيط بمنطوقها ومفهومها . والتدبير يجيل قدحه الفائز . والسياسة يقيم حدّها

---

(406) الرمح والمصيبة العظمىٰ .

(407) ج عيالم إذلالاً لهم واحتقاراً .

المتمايز . وضبط تونس ضبطاً نزع عن قوس السداد ، وأخبر تأثّماً بالتي أمالت أعطاف البلاد . وسرّت قلوب العباد ودفع في نحور أهل العداء ، وأشرع في عضد العضد لأهل تلك الأرجاء .

وأنفذ للعرب الخادمين ما عهدت به ظهائرهم وسجلاتهم ، وترفع عن القسمة الضيزىٰ فصلحت سرائرهم وطويّاتهم . واتّخذ الحزم بسجيره في إجلاء حسدتهم الأشرار . وطرد أولاد أبي الليل[408] طرداً اشتهر اشتهار النهار . وأوسع المستمسكين بعرى الطاعة في مسترزقاتهم ومرافدهم ، وأنبض بعرق في إجراء عوائدهم . وما أعمل حكم اللين فأهمل جانب الأغلاظ ، ولا اعتبر في مكالمته المعاني فغفل عن الألفاظ .

وخالف سَيْر من كان قبله في إضاعة الضعيف والميل مع القوي ، وتمكين الأعراب من مقادة الفقير من الغني . وعاناهم حتى عرفوا أن البحر قصرت عنه الغدر ، وأن جري المذكيات حسرت عنه الحمر .

وزاد أهل تونس اغتباطاً بإهطاعهم إلى المبايعة والمشايعة ، وأمنوا بغتات المنازلة والمقارعة ، وجروا على أحسن وتيرة في إمحاض المطاوعة والمتابعة .

وصلحت أحوالهم على أيدي الحماة الرادّة ، والصناديد القادة . والمراجيح السادة واشتاقوا إلى الإمام الذي تهوى إليه الأفئدة حبّاً ، ورضوا به خليفة لما رضوا بمحمّد رسولاً وباللّه ربّاً . وودُّوا لو طاروا إليه طيران الحمائم إلى الوكر ، حتى يبصروا محياه الذي أبقى يسرة البشر ، وكان فرضاً على الحسن أن ينسىٰ به سنة البدر .

ووقع آعتمال بياضهم في القدوم على المخيّم الشريف ، وبادروا غير متثاقلين استقداماً على المحل المنيف ومولانا أيّده اللّه لا يدور بحنانه وقوع ذلك الواقع ، وإن كان قد جعله في ضمان عزائمه المزرية بالسيوف القواطع ،

(408) يقصد بهم العابثين الفاسدين ، اللصوص من قبيلة معينة .

وأخّره إلى أجل معدود غير محرم المواضع ، وأزمع أن يسعىٰ له سعيه حتى يتيح محو المطامع ، ويقطع دابر القوم الذين أضاعوا أحكام الشرائع ، ولا يفلت منهم أحد إلاّ إلى الملاحد الوحية والمصارع ، ويجتث أثلة الفساد اجتثاثاً يؤدِّي بالمنازي ويلوي بالمنازع .

ذكر وصول البريد بالفتح الحميد :
وقدوم الوفد التونسي على المخيّم السعيد :

وبينما نحن بين يدي مولانا أمير المؤمنين أيّده اللّه بـظاهر قسنـطينة المحروسة نأخذ من ماله ومن أدبه ، ونستضيء في العلوم بأنوار شهبه ونشاهد أصداره للسير التي نشأت في حجر العدل والإحسان ، ونتوضّح اعتماله في الإدارات الجميلة التي أذهبت رمانة الأزمان . ونتعجب مما خصّ به من الفضائل التي روت تهذيب الكمال عن الجمال ، وأخذت عجائب الإيضاح عن الجلال ، والخصال الشريفة التي يعجز عن وصف احداها ابن أبي الخصال ، والمناقب الكريمة التي لم تكن للتبابعة ولا العباهلة الأقيال[409] ، والمفاخر العليّة التي قصرت بالقياصرة والأكاسرة في متقادم الأجيال .

والمملكة العلية التي اشتملت بالعلم والجود والبأس ، ووقفت دون صفاها ومروّتها بنو مروان وبنو العبّاس .

ولم تثنِ بأبي عنان العنّان ، حتى سامت العنان ، وتملّكت البلدان ، وأقرّت العيون وسرّت الأعيان . ومثلنا ببساطه الكريمة في غدوة يوم أسند ركبته إلى ركبتي السعد ، ووضع يديه على فخذي العلاء والمجد . ونطق بألسنة المسرّات ، وآتّسقت أوقاته نسق الدرّات ، وكشف عن المجتلىٰ الوضاح ، واستورىٰ زناد الأفراح . وتوشّح بنطاق النطق الجميل ، واستعلت دعواه بشعار المكيّف الجليل .

---

(409) المقرون على مهلكهم فلم يزالوا عنه (كما في القاموس) .

إذا بالبريد قد وضع إطار اللغوب والاين ، وحط أعباء النصب قاضياً للدَّيْن . وفاتح العلم الشريف بأخذ تونس محجمة عن مواضعة الحروب ، ناكصة عن مساورة الخطوب . قاذفة بشقيها إلى مطارح الاغتراب ، منحية عليه بمرهفي الثبار والتباب ، مصحبة المغادة لصولة الملك الرفيع النصاب . محتذية لخدمته الذين كفوا العداء ، ووضعوا مواضع النقب الهناء .

مسرورة بطلائع جيوشه التي استفتحت مغالق السعود ، ورفعت نواظر النصر الموعود . وذلّلت صعاب الأمور ، وأنبعت نطاق السرور . متشوّفة لاستتباب التدبير الذي يأسو كلومها ، مشرفيّة لاستتمام النصر المصلي الذي يحيي رسومها ، ضارعة في قبول توبتها وميتتها ، راغبة في الصفح عن ذهابها والاحماد لجيئتها . عائدة برضا الخليفة من سخطه ، لائذة بعفوه الذي لا يخطو التثريب بخططه .

فسرّ أيّده اللّه بذلك سروراً ظهر على أسرة وجهه ، وحمد اللّه على ذلك الصنع الجميل الذي تحار العقول في كنهه . وسجد سجدة الشكر مرجحاً إيتاءها ، وأثنىٰ على اللّه تعالىٰ الأثنية التي آرتضىٰ إعادتها وإبداءها .

ورأىٰ أن ذلك من نتائج التوكّل على اللّه وإنه لمضمون لقيه[410] الصادق ، وشعاره الذي اشتهر في المغارب والمشارق .

ولم ينشب أن أذن لبني مرين أعزّهم اللّه على اختلاف طبقاتهم ، وتفاوت مراتبهم وتباين درجاتهم ، ولجميع القبائل على اختلاف أحسابهم ، وتفاوت أجدامهم ومحاتدهم وأنسابهم . ولسائر الأجناد والمرتزقة ، وأرباب الخطط المستوسقة . ووجوه الخدّام والعمّال ، وصدور الحفدة وأرباب الأشغال . والوفود الواصلين من جميع الكور والبلاد ، والحاضرين بالباب الكريم من الحواضر والبوادي .

فأقبلوا للتهنئة على الرسوم المحفوظة ، والعوائد الملحوظة . والترتيب

(410) هل يقصد لقياه؟ .

المنظوم ، والتوصيل المعلوم . واحتوشوا البساط الشريف أفواجاً ، وأزعجوا لتأدية ذلك الفرض المؤكّد إزعاجاً . فهنؤوا ودعوا ملء الأفواه ، وشافهوا بالثناء الرغيب بسداد الشفاه . وأفاضوا في الحمد للّه على هذا الفتح الذي عنده نظيم ، والمكيف الجميل الذي بشّر به العدو فظل وجهه مسودّاً وهو كظيم .

وهدوا إلى الطيب من القول فنهجهم في الاستبلاغ قويم ، ونودوا : اعملوا شكراً فلم يلهجهم إلّا تكميل له وتتميم . وأهيب بهم الانصراف ففصلوا والظهور قد قام قائم ظهيرته ، والسرور قد أعرب عن كرم سريرته ، والحبور قد لفّ القلوب في جيرته ، والابتهاج قد أحضر النفوس في حظيرته ، والجذل قد كشف القناع عن ستيرته ، والدهر قد طلب الإقالة من جريرته . والعزّ قد اشتدت جبوته ، وانفسحت ندوته ، والسعد قد امتدت خطوته ، واستعلت حظوته ، والفخر قد تطاول في البناء لكن لبيوت المجد السامية ذروته .

ووصل وفد تونس إلى المخيم الشريف يقدمهم شيخ الركوب الحجازية ، ومهيمن الحجاج الذي جعل الحجازية ، شهاب الدين أحمد بن الرمال الرياحي فأقبلوا إلى الأبواب العالية ، والسرادقات السامية .

مرفوعة أبصارهم إلى ما غشىٰ تلك المواقف الشريفة من أنوار الجلال ، وأشعّة الكمال ، وما فاض عليها من أضواء الجمال .

وتحمّلوا الإعجاب بما شاهدوه من أبّهة الملك وفخامة السلطان ، وتقدّموا حائزين لما يوضحونه من الجيوش المنزعة للسباسب والغيطان .

وما أتاح اغتصاص الأرض العريضة من العساكر التي عقدت صفوفها معاقد التيجان ، والكتائب التي عمدت خيامها بعواسل الحران ، ورقعت خروقها بنقع المذاكي الزاحفة للأقران .

ونخب أفئدتهم ما كان تكاثف من الهيبة التي رمت بهم مراميها ، وحسرت أعينهم بما شاهدوه من الأخبية التي حسدت الشهب مراقيها ، والفساطيط التي

جلت بأسنّة الرماح دياجيها .

وانتهوا إلى حيث يلتمس الإذن ، وتشارك العين في هول المقام الاذن . فتلقاهم الموكل بإقامة الرسوم ، ورفع القضايا إلى المعارف الشريفة والعلوم .

وشافه الوزراء والحجبة يطلبهم الوصول إلى البساط ، وتهنئة الخلافة العلية بالفتح المستحكم الأشراط ، والنجوع بالطاعة التي نسخت كلمة القسط بالاقساط .

فأوعز بالإذن لهم في المثول ، وأوصلهم إلى نفسه معرِّفاً إيّاهم بركة الحلول . وأقبل عليهم بوجهه الأسعد محسناً للثناء ، ومحملاً البشر عنهم في أمحاص الولاء ، وماصح من تشيّعهم المأثور الأنباء ، ومواقفهم مع الطلائع المشخصة لاختبار أحوال الأعداء .

وبسط لهم في الوعد الجميل ، وبوّأهم سنام العزّ الموفىٰ على التأميل . وسمعوا كلامه الذي تناول الحكمة وفصل الخطاب ، وزهيت المجالس منه بالمطال المطاب . واستدلُّوا ببشره على جميل صنعه ، وأيقنوا بكرم عفوه الذي لا نسخ لشرعه . ونالوا منه فضلاً عميماً ، ومقصداً كريماً ، وجوداً جسيماً . وسيراً نافست العقود النفائس نظامها ، وسياسة شريفة أنفذ الحلم والأناة أحكامها ، ورفع اليمن والأمان أعلامها .

ولما فصلوا عن المجلس أتبعهم الأمر الكريم بسعة الإنزال ، وافعام غرب النوال ، وتحسين مثواهم تحت العناية السابغة الظلال .

وأقاموا هنالك أيّاماً يتودعون ملياً ، ويستنجزون للسعادة وعداً ماتياً . ويتوسعون في اجتناء ضروب النعيم ، ويعتامون طريقاً متاء(411) من البرّ والتكريم .

ثم أمروا بالقفول ، وفتحت لهم مناسق قبول القبول . وخلعت عليهم

(411) موسعاً وطويلاً .

الخلع التي استكملت الزينة والبهـاء ، وأجزلت صـلاتهم التي ذهب بها الاستحماد حيث شاء . وأثقلت حقائبهم فرموا، ، ، شأواً بعيداً ، واجتابوا بالسعد مفاوز[412] وبيداً[413] . حتى أنشد المبصرون ما للجمال تشبيهاً وبيداً .

وقدموا على تونس بالمناهج التي أحسنت زائداً ومزيداً وسرّت عن اليمين وعن الشمال قعيداً ، وفتقوا كمائم الثناء فعطروا بهـا صعيداً ، وأسمعـوا سعيداً .

وأفاضوا في الشكر الذي جانس النور نظيراً والزهر نضيداً ، ونشروا ألوية الحمد الذي ترك اللسان مجيباً واللسن[414] مجيداً .

وتباشر الناس بدولة الإمام الذي أصبح مقيلاً مقيداً ، والخليفة الذي أمسى حمياً حميداً .

أبقاه اللّه في سعد لا يألوه مزيداً ، وعزّ يتفيّأ ظلّه مديداً ، وجعل الليالي له خولاً[415] والأيام عبيداً . بمنّه ويمنه .

﴿ فصـل ﴾

يقول مؤلّف هذا الكتاب إبراهيم بن الحاج : وقطعت سحابة ذلك اليوم منفذاً لما نِيط بي من الأوامر العلية والخدم السلطانية . معملاً للشكر بمجلس الخلافة ، آخذاً في المسرّات بالشفوف والإنافة .

فلمّا فضت نوافح الأفق عن مسك الدياجي ، وأفضىٰ الليل بسرّه إلى النجم المناجي . وآن أن تحوم العين على موارد الكرىٰ ، وتخف لنفس بأثقال المضجع الذي أثرىٰ به الثرىٰ . أمرني مولانا أيّده اللّه بإنشاء كتاب الفتح ،

(412) كذا في الأصل .

(413) ج بيداء .

(414) يقصد بذلك الفصاحة .

(415) ج خولي الاماء والحاشية .

وتبيين مناحي ذلك المنح . وقال لا يظلّك الصبح إلاّ وقد جئتني به مكتوباً مسطوراً ، وقدمت منه بين يديك نوراً ، وأهبت بالكتبة الماثلين حضوراً ، ليكتبوا نسخة التي تروق بأيدي السفر سفوراً . جرياً على رسمه الذي أنهض ولم يريث[416] ، وامتثالاً لقول اللّه تعالىٰ : ﴿وأمّا بنعمة ربّك فحدِّث﴾ . ومسارعة إلى مغفرة من ربّه بتسكين النفوس المعمورة بحبّه ، وتزلّفاً إلى اللّه بالدعاية إلى شكره ، وإنهاء البشائر التي صلّىٰ بها القلم المكتوبة في ليل حبره .

فأنشأت الكتاب المذكور في بعض أوقات ليلتي تلك راضياً من القول بعفوه ، متوصلاً بحسب الاستعجال إلى ربقه لا صفوه .

وكتبته أسرع من إلمام الطيف وأعجل من تذكّر المشتاق لليالي الخيف .[417] وأخذت مضجعي حتى شمت الأفق عاطس الفجر ، ولعبت أيدي الصباح بالأنجم الزهر .

وجئت إلى البساط الشريف محضراً للمكتوب ، غير متقاعس عن المغزىٰ المطلوب .

وعرضته على العلوم الشريفة ، والمعارف المنيفة ، حتى أخذ الاطلاع منه مآخذه الكريمة ، وسلك به السفر المستبلغ مسالكه القويمة . وفاتحة الكتاب بعد سطره الأعلىٰ ، ومقدمته الفضلىٰ ، وتاج مفرقه الأجلىٰ :

من عبد اللّه المتوكّل على اللّه فارس أمير المؤمنين المجاهد في سبيل ربّ العالمين آبن مولانا أمير المسلمين المجاهِد في سبيل ربّ العالمين أبي الحسن آبن مولانا أمير المؤمنين المجاهِد في سبيل ربّ العالمين أبي سعيد آبن مولانا أمير المسلمين المجاهِد في سبيل ربّ العالمين أبي يوسف بن عبد الحق أيّده اللّه بنصره ، وأمدّه بمعونته ويسره ، إلى الشرفاء المعظمين

---

(416) يقصد السرعة التي تم بها الفعل .

(417) مسجد الخيف ، ليالي منىٰ .

الأجلّاء ، والفقهاء المكرمين الأسنياء ، والوجوه والأعيان الاثراء ، والأمناء المرعيين النصحاء ، والخاصّة من أهل كذا والعامّة على الولاء . وصل اللّه لهم سعادة صافية المشارع ، وإفادة ضافية المدارع ، ووصل لكم البشرىٰ الطالعة الأنوار النيّرة المطالع .

سلام عليكم أجمعين ورحمة اللّه تعالىٰ وبركاته .

أمّا بعد حمد اللّه الذي له الأرض يورثها من يشاء من عباده . مالك المُلك ومقيم أشهاده يؤتي الملك من يشاء بفضله وأنجاده ، وينزع الملك ممن يشاء بعدله ، الذي لا خلع لنجاده ، ويعزّ من يشاء ، ويذلّ من يشاء حكمة منه جارية على حسب مراده ، ودلائل قائمة على اختراعه للعالَم وإيجاده ، واختصاصه بالديمومية والبقاء وانفراده ، فله العزّة جميعاً حسبما نطق به الكتاب الصادع بإرشاده ، سبحانه لا يسأل عمّا يَفعل وكلٌّ يُسأل عن إصداره وإيراده ، والصلاة التامة على سيّدنا محمّد الذي أظهر الدين بصعوده وأخفىٰ الشرك بصعاده ، وسمّاه بالرؤوف الرحيم فهو المنجز لوعده والمخلف لإيعاده ، والمتحلّي بخلق[418] القرآن الذي نزل به الروح الأمين على قلبه وفؤاده ، والرضا عن آله وصحبه الذين اقتدوا بحسن جداله وصدق جلاده ، وعضدوه على محو الباطل والفتّ في أعضاده ، وكتب عليهم القتال فجاهدوا في اللّه حق جهاده ، وفتحوا الأقطار فتحاً استولىٰ على أبعد آماده ، ومهّدوا الأقطار تمهيداً أقعد له النجح بمرصاده ، وبايعوه على المنشط والمكره مبايعة بوّأها الصدق وثير مهاده ، والدعاء لهذا المقام العلي الإمامي المجاهدي المتوكلي الفارسي بالنصر الذي لا قدح في قدح زناده ، والعضد الذي طعن في طعن أنجاده ، والتأييد الذي تصحبه التقوىٰ فيجعلها خير زاده ، واتصال الفتوحات التي يروي حديثها فتشهد الرماح بعد التعديل والتجريح بصحة إسناده ، وتشرح متون السيوف متنه فتثبت حكم سعوده وإسعاده .

فإنّا كتبناه إليكم كتب اللّه لكم كلاءة يعقد بنواصيها الخير ، وأسمعكم

(418) كذا في الأصل وخلق القرآن معروفة .

المسار التي تجتلي ملاكم وكأنّما على رؤوسكم الطير . من منزلنا الأسعد بظاهر قسنطينة يمنه اللّه .

وإنه للمنزل الذي ضربت بمدرجته السعود قبابها ، وأبدت بعرصاتها البشائر رونقها وشبابها ، وأوجفت الفتوح إلى اعتيامه خيلها وركابها ، على حين توكلنا على اللّه فأفاء ظلال النعم وأصفىٰ شرابها ، وفوضنا إليه في أمورنا فأحسن عقباها وكرّم مآبها . وأولانا من صنائعه الجميلة ما يعجز عنه الشكر الذي وصلت به السعادة أسبابها ، وكيف لا والشكر يحتاج إلى الشكر تسلسلاً فتحت له لطائف العرفان أبوابها ، فله الحمد الذي يليق بذاته التي جعلت النور حجابها ، وأسمائه الحسنىٰ التي أفلح من أحصاها وعلم حسابها ، وله الشكر الدائم ما أرسلت السماء سحابها ، وملأت الشعوب أودية مكّة وشعابها .

وإلى هذا زادكم اللّه بسطة في المسرّات والبشرى وجعلكم ممن سارع إلى مغفرة من ربّه فنال سعادة الأخرىٰ. فإنا قد أوفدنا عليكم كتباً بما سناه اللّه لنا من الفتوح ، وما توالى من صدق مخائل المنوح ، وظهور حزبنا المؤيّد ولله المنّة بالملائكة والروح . وأفصحنا له بقوة رحابنا في اقتراب الفتح الأعظم الأسمىٰ ، واستقدام البشائر التي روت عن نافع لكن من النعمى ، وأسندت عن مالك لكن لقياد من حاد دولتنا العظمى .

والآن والحمد للّه قد حقّق اللّه رجاءنا ، وجاءنا من نصر اللّه والفتح ما جاءنا . لا جرم أن اللّه تعالى منّ علينا بفتح تونس التي كانت لفتوح أفريقية مسك الختام ولبنة التمام ، وعنوان طرس النصر الذي قام على أقدام الاقدام ، وعدّة الزمان الذي كتبها بمداد الليالي في قراطيس الأيّام ، وأشهد عليها أهل التمكين لكن من السيوف ، وأهل التلوين لكن من الأعلام .

تونس وما أدراك ما تونس جنة البلاد ، ونزهة الحاضر والباد ، ذات الجنّات التي حلّ سوادها من العين بالسواد ، والمشبهة أبراجها البروج لكن دراريها أسنّة الصعاد .

والحضرة التي تميّزت بالحسن والإحسان ، وحلّت من شرف الاختطاط محل الإنسان من العين والعين من الإنسان ، وضربت بها الأمثال حين عدمت لها الأمثال في البلدان .

ومن الكتاب المذكور في وصف تونس أيضاً: (418 ب) وعادت إليها هذه الكلمة المرينية عود الحلي إلى العاطل ، وتوجّه إليها عزم هذه الخلافة المتوكلية فقذف بالحقّ على الباطل .

ولم يكن بأسرع من اشتمالها بملاءة العافية والأمان ، واستردادها لشباب حسنها الذي غيّرته حوادث الأزمان .

واستولينا على أفريقية ذات الأقاليم المعجز وصفها أرباب الأقلام ، والممالك التي استسلمت لها الملوك قبل الإسلام ، فلم يرتض اللّه أولاً لفتحها إلاّ الصحابة الكرام ، ولا اختار لإيضاح أعلامها إلاّ أولئكم السادة الأعلام .

فنهدوا[419] إليها في الكتائب الوافرة الأعداد ، وثنوا لقتال ملوكها أزمة الركائب وأعنّة الجياد ، فآستأصلوا شأفتهم بالسمر المثقفة والبيض الحداد» .

ومن الكتاب المذكور في وصف أفريقية بعد ذكر بني الأغلب[420] وبني عبيد السعيد :

«ولم تزل الملوك بعد ذلك تبذل في تملّكها نفائس النفوس ، وتغتبط بإيالتها اغتباطاً أبدىٰ دلائله أوضح من الشموس . فكم جرت بها من وقائع أدارت كؤوس الحتوف ، وملاحم أودت بالألوف ، ونسرت عقود الصفوف ، وأودعت سريرة حب الفتك في جوانح السيوف .

وقد كان في هذه الأزمان المتأخّرة أعضل داؤها وتفاقم أمرها ، وذهب بنار

---

(419) انقضّوا عليها .

(420) راجع في الموضوع محمد الطالبي : دولة بني الأغلب ، أطرحة مرقنة .

الفتن المشتعلة الضرام حبرها وسبرها . حتى وهن بها الإسلام واستكان ، وعاد ما كان من عظيم شأنها كأنّه ما كان .

فوفّقنا اللّه لأخذ الثأر ، وأخذتنا الحميّة الصادرة عن جميل الاستبصار ، وثارت عزائمنا الماضية فكانت أمضىٰ من الأسمر الخطار ، والأبيض البتّار» .

ومن فصول هذا الكتاب المذكور :

« ما ألقت إلينا عرب أفريقية أيدي الانقياد والاستجداء ، ولم يتخلّف منهم عن طاعتنا إلاّ ثلّة من الأشقياء ، وشرذمة من أولاد أبي الليل أجفلوا اجفال الظلمان في الصحراء ، ولفظتهم المراعي الخصيبة إلى كل داوية يجيش بها صدر الهواء ، وفلاة غبراء لا تهتدي فيها القطا لمساقط الأنواء .

وعن قريب إن شاء اللّه تتضلّع سيوفنا من دمائهم ، ويركبهم الزحف الذي لا يترك إن شاء اللّه حيّاً بأحيائهم» .

ومن فصول هذا الكتاب :

«فلم يرع شقي تونس إلاّ قدوم جواريها المنشآت في البحر كالأعلام ، وفلكنا المشحون لكن بأولي البأس والاعتزام ، والعدد التي التحمت بها الحروب أبلغ الالتحام .

ولحين وصولهم يوم الخميس آخر يوم شعبان نزل قوّادنا في ثلاثمائة رجل ليختبروا تونس بعض الاختبار ، ويقدموا بين أيديهم مقدمة من مقـدمات الحصار .

فلما أشرفوا عليها إشراف العقبان الكاسرة ، وأظهروا من صدق عزائمهم ما عاد به الشقي في الحافرة بادروا إلى طلوع الأسوار ، وتملّكوا برجاً من أبراجها المنيعة الذمار ، الدافعة في صدورهم العسكر الجرّار ، وجاسوا خلال الديار ، واستباحوا حماها العاقد للجوار . وزحف إليهم الشقي ابن تفراجين بمن كان معه من الرجال والفرسان ، فناوبوهم سجال الضرائب والطعان .

وأوسعوه أنواع النكال ، وأذاقوه وبال أمره الجدير بالوبال ، وثبتوا مع حزب الخائن أعظم الثبات ، واعتركوا معهم آعتراكاً رماهم في هوّة الشتات . وقتلوا من فرسانه جملة كالقائد ميمون وموسىٰ بن عثمان العبد الوادي إلى غيرهما ممن دارت عليهم رحىٰ المنايا ، ولم يعرفوا في مواقفهم إلاّ الدنو من الدنايا .

فلما أثار الليل عجاج دجاه ، وآغتالت مواكب، ، ،[422] جيوشه وسراياه . تحاجز الفريقان ، وتواقفت عن القاضية، ،[422] ونوىٰ بأسنا الرجوع على أكمل الاستعداد ، وأيقنوا بالظفر الصادق الميعاد .

فآغتنم الشقي ساعة الإمهال ، ورأىٰ أن أيّامه في الادبار ، وسعودنا في الإقبال . ولسرعان ما هرب مستعجلاً وركب الليل جملاً ، وآبتغىٰ عن قرارته حولاً . وأفلال من أنشوطة الحمام ، ونجا منجىٰ الحارث[423] بن هشام يوم الموت الزؤام .» .

ومن فصول هذا الكتاب المذكور بعد ذكر أهل تونس :

«وأظهروا الفرح بإيالتنا الحسنىٰ ، وسرُّوا بذلك سروراً أغنىٰ وأفنىٰ . وأيقنوا بما اشتهر عن مقامنا الكريم من رفع المظالم ، وإيثار الرفق الكريم الآثار المأثور المكارم . ومحو المنكرات التي أباحها المرتكبون للجرائم ، وعلموا أن سيوفنا تحلّهم جنة الأمن الوافر المقاسم ، وأن نظرنا الجميل سيلم من شعثهم ما أبقته آثار الهزائم ، ويجبر من أحوالهم ما صدعته الفتن المرسلة الخوافي والقوادم» .

ومن الكتاب المذكور :

---

(421) عداوة بني عبد الوادي لبني مرين عداوة معروفة تقليدية . راجع في الموضوع . آبن الأحمر : روضة النسرين .

(422) كلمة غير واضحة لعلّها «الفئتان» .

(423) ابن المغيرة المخزومي (، ، ، ـ 18 هـ) صحابي . راجع في الموضوع الزركلي الأعلام . ج 2 ص 161 .

«وأعلمناكم بهذا الفتح المعلىٰ قدحه ، والمكيف الجميل الذي تبلّج صبحه . وتأرجّ نفحه لتشيّعوا أخباره الرائقة المياسم ، إشاعة الأفق لتأشير الصبح الباسم ، وتذيّعوها إذاعة النواسم ، لشذىٰ الزهر غبّ الغمائم ، واللّٰه يحملكم في كنف حفظه الدائم ، وينجح أعمالكم الصالحة التي هي بالخواتم» .

﴿ فصل ﴾

ولما وصل البريد معلماً بالمكيف الذي اقترن به النجح ، وأظهر الفعل الماضي فجاء في آخره الفتح . وقدم بالبشارة التي قام بها القلم في ليل الأنفاس ، وسجد فمكن وجهه من أرض القرطاس . وأدّىٰ الثناء السائر الذي وضح سبلاً ، ولم يلتبس وضعاً ولا استعمالاً ولا حملاً .

وشرح أحوال تونس التي استمسكت بالهدى الإمامي ، وأطلقت عنانها في شكر الملك العناني ، وذكرها مقام مولانا أيّده اللّٰه ، ، تذكرة الفارسي . كان بالبساط الشريف الكاتب الشاعر المجيد أبو العبّاس أحمد بن يحيىٰ بن أحمد بن عبد المنّان[424] الخزرجي . فهامت أفكاره في وادي المعاني وشعابها ، وقضى فرض المديح فأتىٰ بيوت الأشعار من أبوابها .

ورسم هذه المقطوعة في طرس ، وغرس أغصان السطور في روضه أحسن غرس . وناولني إيّاه فأتيت به اليد الكريمة التي ساجلت السحب فكرم لها در ، وأشبهت البحر فلا غرو وإن استقر بها در .

والمقطوعة هي هذه :

هنيئاً لك التأييد في البرّ والبحر   وفتح على فتح ونصر على نصر
عنت تونس طوعاً لأمرك إذ رأت   بنياتها ألقت إليك عرىٰ الأمر

---

(424) تقدّمت الإشارة إليه . راجع ترجمته في روضة النسرين ، وفي نثير الجمان ، وفي مستودع العلّامة لابن الأحمر .

كـذلـك تقفـو أثـرهـا أخـواتهـا جميعاً على حكم السعود التي تـدري
فـلا زال ذاك الـعـزم يـطلع دائمـاً على الـدين والدنيا بشـائـر كـالـزهـر

فلمّا وقف عليها مولانا أيّده اللّه استبلغ في استحسانها ، وتلقّاها بالقبول المرجح لميزانها . وأمر بالخلع عليه ، والإحسان إليه . فظهر ذلك عليه ظهوراً ميّز مكانه ، وأعلى في أترابه المستكتبين شأنه .

وقال الكاتب الشاعر أبو العبّاس عبد المنّان عند قدوم أسارىٰ النصارى ، ووفود البشائر التي أقبلت تتبارىٰ:

أتـاك بسـامي الفتـح سعـد مـلازم أفـاعـيله لا مـا آدّعـتـه الـصـوارم
وجـاءك نـصـر بـالـنصـارىٰ أذلّـة ومـثلك مـن ذلّـت إليـه الأعـاجـم
بقيـت تـوافيـك الـبشـائـر جـمّـة وتعـرض ارسـالاً عليـك الغنـائـم
ولا زلت بعيـا[425] نـاثـر بصفـات مـا يـوافيك من وفـد الفتـوح ونـاظم
ودمت عـزيـزاً حـظك النصـر دائمـاً وحظ الـعـداة المـارقين الـهـزائم
إذا عـزّ هـذا الملك عـزّ بـه العلىٰ وعـزّ بـه ديـن الهـدىٰ والـمكـارم

وللشيخ الفقيه الأديب أبي محمد البرطال أحد شهود البيت العلي المخصوص من مولانا أيّده اللّه بالقبول والمكان السني وذلك من قصيدة أعلقها بالتهنية ولبّىٰ بها منادي المدح أوحى التلبية .

هنيئـاً أيـا مـولاي ملكـك تـونسـا وإثبـاتهـا فـي سلك مـلككـم حقـا
لـقـد كسيت عـزّاً بـكـم وسعـادة وقـد سـابقت بـالفخـر أمثـالهـا سبقـا
وقـد نسخت أحكـام أحـوازهـا بكـم وقـد أحكمت فيهـا الهـدايـة مـا تبقـا
كـذاك بـلاد الكفـر تفتـح عـاجـلاً وتمحق عبـاد الضـلال بهـا محقـا
وتبقىٰ لحفظ الـدين والعـدل خـالـداً بقـدرة من يـرضى الأمـانـة والصدقـا
وعـذراً لشيـخ خـامـد الـذهن قـاصـر عليـل ولكني بـرحـمـاك لا أشقـا

---

(425) كذا وردت في الأصل وهو كلام يعسر فهمه نظراً لسقوط بعض الحروف أو لتحريف في النسخ .

وقال الشيخ الفقيه القاضي أبو علي عمر الزناتي أحد شهود البيت العلي :

يا إمام الهدىٰ ودين الرشاد دمت للمسلمين أعلىٰ عماد
قد ملأت البلاد عدلاً فودت لو تملكتها أقاصي البلاد
هذه تونس أطاعت بطوع وأجابت رضا نداء المنادي
فر طاغوتها القوي شقاء قادة للهوان شرّ قياد
فكأنّ بالشقي جاء أخيذاً في قيود تقوده لا نقياد
ينفذ الحكم فيه شرعاً نفوذاً فيه حكم لعمره بالنفاد
لم يزل من مرادها أن تحلىٰ بحلىٰ ملكك للرفيع العماد
فتحلّت كما أرادت وحلّت من سماء العلىٰ بأشرف ناد
سرها أن رأت جواري نصر جائلات ببحرها كالجياد
أوضحت عندما رأتها تبدت سرها في الهوىٰ فأضحت تنادي
إن قصدي كقصدكم فكلانا فائز من سعوده بالمراد
ادخلوا آمنين لا لجدال يتّقي من معاند وجلاد
خلدت دعوة الخليفة يدعي بٱسمه ها هنا ليوم التناد
أمضت عزمه الإمام فأغنت في الذي رام عن مواض حداد
نية يعلم الإلٰه تعالىٰ صدق إخلاصها لحسم القصاد
فحباه المنىٰ وأجرىٰ على ما يرتضيه المنىٰ برغم المعاد
فهنيئاً أبا عنان بفتح قاطع كل مطمع للعناد
يسّر اللّٰه أمره فتسنّىٰ منه للأولياء أسنىٰ المراد
فٱحمد اللّٰه فهو أعلىٰ معين، وأرج موعد فضله في ازدياد
فكان بالفتوح جاءت توالي نسقاً في حواضر وبوادي
فتجوز البلاد طرّاً وتحوي ملك ما قد روىٰ لخير العباد
صلوات الإلٰه تهدىٰ إليه في توالٍ تسره وتماد
وحبا ملكك العلي ظهوراً برغم الكفر في أحط الوهاد
وعلى حضرة الإمام سلام مثل زهر الربىٰ سقته الغواد

ووجّه بهذه القصيدة من مكناسة الشيخ المشتغل الكاتب أبو عبد اللّٰه بن

جابر . وتركت مطلعها لنكادة فيه وتشبج[426] مجّه الطرس عن فيه:

بشراك بالفتح مولانا فقد نفحت ... بـه عليـك صبـاه أو جنـائبـه
وبالسلامة مضروباً سرادقها ... عليـك والنصـر خفّـاق دوائبـه
ناداك مشرقنا الأقصىٰ وقد طويت ... طي السجيل على جمر ترائبه
فمـذ طلعت على أرجائـه فلقاً ... لم يحتجب عن عيون الخلق حاجبه
طلوع بدر الدجىٰ تزهىٰ مشارقه ... طوراً وتزهىٰ به طوراً مغاربه
هشت مغانيه إجلالاً وتكرمة ... إلى لقائك وارتاحت ملاعبه
وحولك الجيش قد سال، ، ، به ... سيلاً تضيق به ذرعاً مذاهبه
فلم تدع معقلاً في أرضهم أشبا ... إلاّ تضعضع وانهدّت جوانبه
وهل على الأرض حصن لا تنازله ... أو في البسيطة جيش لا تحاربه
وكل مملكة لم، ، ، مالكها ... مغصوبة فليرد الغصب غاصبه
كأنّني بك قد عمّ البلاد ومن ... فيها نداك الذي سحت سحائبه
أقبلت في طالع اليمن الذي اقترنت ... به السعود اقترانات تصاحبه
إقبال من خلصت في اللّه نيّته ... فكان للّه باديه وغائبه
حتى لقد صدقت آماله وزكت ... أعماله وأنقضت طرّاً مآربه
أبا عنان أمير المؤمنين ومن ... بالنصر والسعد مغلوب محاربه
تبارك اللّه ما أسناك من ملك ... طلق محياه ميمون نقائبه
أبقيت بالشرق تاريخاً إذا كتبت ... غرائب الدهر فلتكتب غرائبه
وليهن ملكك إنجاز العهود له ... حقّاً من اللّه محمود عواقبه

﴿ فصل ﴾

ولم تزل البيعات الأفريقية تتجدّد لمولانا أمير المؤمنين أيّده اللّه تجديداً أعطىٰ به العاقدون صفقات إيمانهم وثمرات قلوبهم ، وشكروا اللّه عليه قياماً

---

(426) كلام جاء مخالفاً لما قد عهد به المقام .

وقعوداً وعلى جنوبهم ، ونالوا من الأمنة الملبة والمصالح المستتبّـة غايـة مطلوبهم .

وتتابع قدوم الوفود بها من جميع الكور والبلدان ، والأقاليم الأفريقية والأوطان . وواصلوا الوفادة على الباب الكريم أفواجاً وارسالاً ، وحطّوا بالمواقف الشريفة رحالاً ، وأزالوا عن السيوف كلولاً وعن النفوس كلالاً ، وأذّن بهم مؤذّن الاستقدام فأتوا رجالاً ، وعلى كل ضامر فسح له الإيضاء مجالاً .

وتكنفوا السرادقات الشريفة رافعين أكفّهم بالـدعاء ، مضحكين ثنـاء الثناء ، ملهجين بسراية السراء ، قوّامين على شرح الأحوال وبسط الأنباء ، محتذين مواسم الحب ، تاركين شقيهم حيث كان درج الضب .

مغتبطين بالإيالة التي زانت نوالها بثقاتها ، وأدّت صلاة صلاتها في أوّل أوقاتها . وصدعت بالعدل الذي صدع قلوب المفسدين ، وسدّت الثغور سدّاً هشّم ثغور المعتدين .

وتميّزت بالفضائل التي أمنت أحكامها من نسخ ، وتناولت المناقب التي شمخت على بني شمخ . وتولّت السير التي وفّرت قسط القسط ، والسياسة التي حسن ارتباط جزائها بالشرط .

ومالوا على جوانبه مسروجين الرأفة والحنان ، ومتوضحين شفق الاشفاق ملء العيان . وقدموا سجلاتهم المرقومة بما التزموه من السمع والطاعة ، واعتمدوه من الاعتصام بالسنّة والجماعة . موفين بما عاهدوا عليه اللّه من حفظ الربقة ، والتجانف عن سُبُل الفرقة . غير ناكثين: **﴿ومن نكث فإنما ينكث على نفسه﴾**[427] ولا متخابثين ومن تخابث كانت الشقاوة ثمرة غرسه .

واستمرّوا على ذلك خالفاً يتلو سالفاً ، وبادئاً يترك رادفاً ، ومجلياً يغادر

(427) تضمين قرآني .

مصلياً ويرجي عاطفاً . فكان رسم الخلافة الفارسية توصيلهم إلى مجلسها العالي ، وبساطها الذي خدمته الأيام والليالي . وانزالهم موسعاً عليهم كما وسّع اللّه عليها ، وإقبالها محسنة إليهم كما أحسن اللّه إليها . مباحة لهم الإقامة للتشفّي من المشاهدة ، والتودّع في أكناف المعاهدة . واستيفاء المطالب ، والاستنهاء في المراغب .

حتى إذا نزعت بهم إلى أوطانهم النوازع ، وانتظمت مصالحهم التي فزعت إليها الفوازع . وقع الإيعاز بآنصرافهم وفصولهم ، وصدر الإذن الكريم بإتاحة قفولهم . وأمر لهم بالخلع الفاخرة ، والأعطية المتكاثرة . وجدّدت لهم المراسم الشريفة بالانقطاع والإسهام ، والمنشورات الكريمة بالإحسان والانعام .

وصدرت الأوامر العلية عاهدة بإجراء عوائدهم ، وإجزال موافدهم ، وإصلاح أحوال معاهدهم ، وإنجاح آمال غائبهم وشاهدهم . وعيّن لكل موضع قائد يذبّ عن حلاله ، ووالٍ ومشرف يتعاونان على جباية أمواله . وما كان محتاجاً إلى الجيش سدّت معرته بكماة لا تميل إلاّ في الحروب رؤوسهم ، ولا تسيل إلاّ على حدّ الظباة نفوسهم ، وحماة يبعد بغض الحياة آمالهم ، ويقرب حب الموت لهم آجالهم .

وأميلت سوالف أعدائه الصيد ، بكل متميّز بالامتعاض القريب والصيت البعيد . وأقيمت دونه الفوارس باذلة حياتها بالطوع ، مرخصة أنفسها يوم الروع . مائلة على الأقران بطعن دراك ، وضرب لا يطيقه الأبطال يوم عراك .

واستتبّ العمل على ذلك حتى فاز مولانا أيّده اللّه بآماله ، وانتشرت دعوته المطلعة أنوار جلاله ، وعادت الأقاليم كلّها صالحة ولا غرو فهي من أعماله ، واستأنفت الأقطار صلاحاً عظم استقامه ، ونجاحاً كرم استكشافه واستغلاله ، وفاضت عليها أشعة العدل الذي حسن مستقره ومقامه ، وعادت لها الأيام أما جودها فواكف غمامه ، وأمّا حسنها فوافر أقسامه .

وجعلت الكتب تخترق الآفاق مشخصاً بها إلى الأمام ، موسعاً لها في شأو

الاستقدام ، معدماً صدوفها عن أنهاج الاستكتام . مودعة كل مسرة وضحت سبيلاً ، وجاءت باستصحاب الحال دليلاً ، مضمنة من الأنباء المبهجة ما كرم جملة وتفصيلاً ، وجعلت للأقلام في نهر القراطيس سبحاً طويلاً . ، ، ،

معربة عن الأحوال التي آستوثق صلاحها ، والشؤون التي آستنجح غدوها ورواحها . منهية ما أراد موجهوها من الاعـلام بآستسعـادهم ، والتمهيد لبلادهم . وأنّهم في خير لا يطار غرابه ، وأمن لا ينور إلاّ بمصابيح السعود محرابه .

قد استحمدوا هذه الدولة الشريفة التي شربت بكأس السر الأصفىٰ ، واكتنفت بالتي هي أحفل وأحفىٰ ، وأرت في محاصرة المفسدين الذي هو أكفل وأكفىٰ ، وضربت في ساحاتهم أخبيتها فكأنّها خواتم تبدو في بيان يد تخفىٰ ، وحدت ركائب النصر العزيز فباتت به في مزدلفة الزلفىٰ .

ولم تزل الوفود متردّدة ، وناشئة المسرّات متجدّدة . فقابل مولانا أيّده اللّه ذلك بالشكر الذي كرم نطقاً وعقداً ، وأفاض في الحمد الذي آنتظم بجيد الإخلاص عقداً ، وآتّسق في سماء الأعمال التي هي بالنيّات قمراً وسعداً ، وأثنىٰ علىٰ اللّه الثناء الذي يستحقّه عظمة ومجداً ، وتواضع لربّه الذي أولاه نصراً وعضداً ، وتلا قوله تعالىٰ: ﴿**إن كل مَنْ في السماوات والأرض إلاّ أتىٰ الرحمان عبداً**﴾ .

ولم يزل أيّده اللّه في مزيد ظهوره ، واعداً على كل عدو كفور ، معتاداً لكل سامس،(428) محيياً لكل طامس . مصيباً في تدبيره شاكلة الرمية مفعماً الدلو بعباوة الزكية . فالأمن غروب أهل الفساد ، تالاً من عروش أهل العناد . رادعاً الراكبين ردع لجاجهم ، قادعاً أنوف المولين على أدراجهم . ناجحاً ماجد الرأي ، منتصبة إداراته على علم الهدي ، منوطة معاقدهـا بجميل السعي ، ميمون النقيبة إذا كشفت عن ساقها الحروب ، صادق البأس إذا

(428) كذا في الأصل . هل يقصد بها شامس ومعناه المعاند والمعادي والتحريف من الناسخ .

استخفّ العدو أمله الكذوب .

وسنورد من مضامين أخباره وميامين آثاره ما يبلغ حيث شاء من البيان ، وتزهىٰ بثمرات إيضاحه أوراق هذا الديوان إن شاء اللّه تعالىٰ لا ربّ سواه .

ذكر ما ظهر من رياح بعد الفتح:

ونسّق اخبارهم المهيئة بالشرح:

وكانت عرب رياح قد أبلوا في أداء الطاعة بلاءً مأثوراً ، وأظهروا في الخدمة النصائح التي لامت صدوعاً وفطوراً .

وكان مولانا دام عزّه لملة الرسول وأمّته ، واستقرّت الأوطان حين أرسل سبحانه رياحاً نشراً بين يدي رحمته ، واستمسكوا بالإيالة التي نالوا بها في حرم ملكه رغيب حرمته .

وكان لهم على الخلافة العلية المتفضّلة عهد بإجزال النوال ، وإنجاح الأعمال ، وامطائهم سنام العزّ الرفيع المنال . والأخذ بأضباعهم من غمرات الخصاصات والأزمات ، والإبلاغ في أرفادهم إذا نشيت بنشيم حبائل الملمات . جزاء على خدمتهم التي اعتدل قسطاسها ، وأفاعيلهم التي أنشدت بصدق المراسي أمراسها . وكفاء لانقطاعهم الذي حديقته منصورة ، وتشيّعهم الذي قراءته في آخر ليل العجاج محضورة . وإخلاصهم الذي حسر ثوبه ، وولائهم الذي أظهر صوابه ولزم صوبه .

فآكتنفتهم السعادة التي في يد أيديها طول ، وعمّتهم الهداية التي عهدها مسؤول ، وارتشفوا ثغر المسرّات وكأنّه منهل بالراح معلول ، وملكوا ذا أمر أمره ، وردوا مداواة الجرح لمن عرف سبره ، وحلبوا حلباً احتسوا مأذوناً لهم شطره .

إلى أن ظهر من شيخهم يعقوب بن علي ما ظهر من سوء التصرّف ، وولىٰ نفسه المعاتب التي كرّت بالتنكر على التعرف .

ثم لما رفعت خفاراتهم عن الأوطان السدويكشية[429] ووضعت ضرائبهم التي أثقلوا بها كواهل الرعيّة . ظهرت ولا ريب دلائل احتيالهم ، وبانت لأولي النهي مخائل انتكاثهم ، واحتملوها غصصاً ملء الحشا والحيازم ، واحتقبوها مذلّة أوجبت عندهم قيام المآثم .

إلّا أنهم لم يظهروا كما ذكرنا تجانفهم عن الطاعة ، ولا جاهروا بالمعصيّة التي ضاق عنها جناب الاستطاعة ، وأضمروا ما أشرنا إليه من الخروج عن حبل الإنابة ، ومفارقة أوطانهم التي أهابت بهم أوحىٰ الإهابة . ومطاوعة استسرائهم في انتباذ العهود ، وصلي النار ذات الوقود . وإرضاء الشيطان الذي أحلب[430] عليهم بخيله ورجله ، ووعدهم غروراً لا ماء لواديه ولا ظل لاتلة .

ولم يرتابـوا في مطاولـة الحصارة ، وتمـادي قسنطينـة على الإصرار والاستكبار . حتى يجدوا سبيلًا للتشغيب ، ويفجأوا بحازب أمر التحزيب ، ويشقُّوا عصا الإسلام شقّ العسيب ، ويبسطوا على البلاد أيدي التـدويخ والتخريب . فعكس اللّه آمالهم ، وصيّر أنكالهم أنكىٰ لهم .

ولم يكن إلّا أن فتحت قسنطينة عند التبسط عليها ، وأخذ بخطامها عند الصمد بالمقاتلة إليها ، وتبرأت إلى عزائم مولانا الخليفة من منعتها ، وحزت بين يدي حفاظه لائذة بصعقتها ، ومكنت الدولة العنانية من عنانها ، وأسلمت للصولة الفارسية جميع رجالها وفرسانها ، وباحت بالسر الذي له في صدرها دفائن وردت حيات سهامها إلى أحجارها وهي الكنائن ، وأقرّت جنـوب السيوف في مضاجعها وهي الأغماد والأجفان ، وأعادت أقلام رماح الخط إلى محابيرها وهي البيوت والأكنان .

وأنفت من الاستصراخ بالعرب الذين مروا ضروعها ولم يرعوا عهدها لكن

---

(429) راجع في الموضوع . ابن خلدون : التعريف ، والعبر بصفة عامة .

(430) كذا في الأصل ولعلّه يقصد أناء عليهم .

رعوا زروعها . وعلمت أنّهم لن يغنوا عنها من اللّه وخليفته شيئاً ولو أصرخوا ، وأن أقدارهم أقلّ من أن يذهبوا عنها روعها النافث في روعها أو يفرخوا . فلا جرم سقط[431] في أيدي الرياحين أعظم سقوط ، وأتيحت لهم الذاهبة بكل عيش مغبوط .

وفتحت عليهم بذلك الفتح أبواب اليأس ، ولم يكونوا من الصابرين في البأساء والضرّاء وحين البأس ، فتنوولوا بالهزائم والإفلاس ، وغودروا رهان الإتعاس ، كلما ردُّوا إلى الفتنة أركسوا فيها أبلغ الأركاس ، وحقّت عليهم كلمة العذاب فآستعاضوا الإيحاش من الإيناس ، وطويت أنباؤهم السارّة طي السجل للقرطاس .

وشرح الحال في ذلك أن الخليفة الإمام أيّده اللّه اشتغل بعد الفتح بسد عورات قسنطينة وتشييدها ، وضبط أمورها التي ألقت إليه بإقليدها ، حتى رقأت دماء كلومها وتلاءمت صدوع ثلومها . وتملأت صوناً وحياطة ، وظلت أسباب الأمنة بها منتاطة . وارتاش جناحها ، وزال عنها جناحها ، وآستقام ميلها ، واستوثق نيلها .

وبانت صواها الطاسمة ، وظهرت سبلها الطامسة العاتمة . وربأت بنفسها عن طواعية الأعداء ، وهوادة العزّة بالإثم والإباء .

وتكفّل نظر مولانا أيّده اللّه بإقامة جنفها ، وإزالة صلفها ولمّ مشاعثها ، ونفي خبائثها .

ثم أنه أيّده اللّه أخذ في تمهيد أوطانها ، والتبسّط بالاحتكام على عربانها ، وسائر العمائر والقبائل الضاربين بأعطانها . لتعم المصالح الجامعة ، وتتوفّر المناجح المتتابعة . وتستقرّ على أثبت قواعدها السياسة ، وتتصل على أوثق معاقدها الحراسة . وتشمل العافية ملء نطقها ، وتتوطّد المسرّات سداد طرقها ، وتأمن الرعايا من تفرّقها وفرقها ، وتتعرّف بركة هذه

(431) كذا في الأصل ولعلّه يريد فلا جرم إن سقطت في أيدي الرياحين أعظم سقوط .

الدولة الجامعة بين الحسنيين خلقها وخلقها . ويمن هذه الإيالة التي تحلّت من المعالي بحدثها وعتقها . وتعود الأمور جارية على وتيرة العدل والاعتدال ، ويأخذ التدبير مآخذه المقرونة بحسن الإقبال ، وتستتب المملكة في قهر أهل الضلال ، وصيرورة أحوالهم إلى الاضمحلال ، والقيام على المفسدين بفاتقة مصائبهم يوم النزال ، والقاضية باستغلاق ألسنتهم يوم الجدال ، والنازية إليهم نهب الاعمار ونسخ الآجال ، والموت الأحمر طافحاً من نجيع الاقتال .

فكان أوّل ما آعتمل فيه مولانا أيّده اللّه أن طلب العرب وسائر القبائل بالمراهين الجزلة التي يملك بها تصريف أمورهم ، ويؤخذ بأكظامهم ان قدحوا شرر شرورهم . ويقادون بأزمّة الالتزام منها مصحبة مصاعبهم ، محبوبة بتحمّل أثقال القيس ذراهم وغواربهم . مدفوعة نواصيهم إلى أيدي الأيد ، مصروف إلى التضليل ما اعتقبوه من الكيد . منسوخة أحكام تحكمهم ، غير، ، ،[432] بإيعازهم وتقدّمهم .

وتعاورهم السيار والاختيار ، وأُنبج على استسقاط رتب عزّهم الاقتدار . واعتمد كل واحد منهم على انفراده ، وتخصّص النظر في تثقيف ، مناده ، والاستبلاغ في الأخذ بمقاده . فمن أنجب وكرم جني غرسه ، وسرت نفسه بآبن هو عليه كنفسه . طُولِب بإحضار ذلك الابن رهينة يكون عليها دركه ، وحتم عليه تسليمه إلى السجن الذي لا يفلته شزكه . وودعه مظهراً عبر عبرات ، ذاهبة نفسه عليه حسرات . وصرف أمّه متلفعة بمرط أشجانها ، لا تعرف من غلس أحزانها ، فالوجد يصدع بالأنباء الصادقة لكن عن صدوعها ، وحبة قلبها قد كادت تنبت في جميل السيل لكن من دموعها .

ومن لم يكن له ولد بهذه المثابة ، ولم يتوقل ابنه مظاهر النجابة ، وكان له أخ يستظهر به على أعدائه ، ويأتي به الحرب لا تنهزه إلاّ نصرة أحيائه ، والدفاع عن النسي والطامت عن نسائه . وكان عضده في الحرب ويده التي

---

(432) غير واضحة .

يبطش بها عند الطعن والضرب . أو غير الأخ ممن يعتد به عند آحتدام الجلاد والمضاع ، ويهيب به إذا أذنت الكماة بقرع أبواب القراع . ويشترك معه في متلاحم الأحساب ، ويتلاقىٰ معه على سروات المحاتد والأنساب . لا جرم أن طُولِب المرتهن بإحضاره ، وعهد إليه بإطفاء ناره ، وإدالة دار الارتهان من داره . فلا يواعد أو يذل ، ويرقب في المؤمن الذمّة والآل(433) . ويقبض يد ظلمه وجوره ، ويستعيذ باللّه من جوره بعد كوره .

وعلم مولانا أيّده اللّه أن هذا النوع من السياسة هو الذي يكفي معرتهم ، ويستأصل استتابه مضرتهم ، ويعود على جماهير المسلمين بمديمة اعتزازهم ، ويجذل الرعايا بضبط أطرافهم وأحوازهم . وتجري البلاد على أساس من التمهيد والمال ، ويقيم هيبة الملك الذي استقلّ بأعباء الاسترعاء أحسن استقلال .

فأمر أيّده اللّه بكتب أسماء المطلوبين للاسترهان ، وملئت بسوادها الأزمة المتناولة بالشمائل والأيمان . ونظم التعيين شتيتهم ، واعتمد التشخيص تثبيتهم ، وميّز البحث والتنقيب أفرادهم ، وحصر الاستقصاء والاستيفاء أعدادهم . ووضح النهج في إتيان ذلك العمل ، وبانت وجوه الرأي في إزاحة العلل .

وشرع من ذلك فيما ظهر به الشرع ، واستوسع على آثاره للرعايا النفع . وصدر العهد الشريف بمطالبة رياح أوّلاً بالرهائن ، وأوعز إليهم بتلك المفاتحة التي أثارت كامن الضغائن .

ووقفوا بحيث تتناولهم الأحكام، وتجري عليهم بإنفاذ أوامرها الأقلام. واضطرُّوا لترك الجاهلية الجهلاء ، ودخول سوادهم الأعظم في شرائع الملّة الحنيفية البيضاء .

وألزموا الانقياد للخلافة والعمل بما رسمته ، ودعوا على جادة الجد

---

(433) العهد .

للاعتمال فيما حتمته . فأنفوا من ذلك أنفة جبلة ابن الايهم(434) من الأعداء ، وتحيّزوا معلنين الإباء ، وكانت شقواتهم أسرع من عدوى الثوباء ، وأضبّوا لثات العدوان ، وكشفوا وجوه العصيان . ونصبوا راية الخلاف ، ومرقوا عن مركز الائتلاف . وبطروا(435) معيشتهم بطراً ، وتقطعوا أمرهم بينهم زبراً ، وسيقوا إلى مهوىٰ الخسار زمراً .

وعرفوا نعمة اللّه عليهم فما عرفوها ، وأزفّت آزفة تبابهم فما استكفوها ولا صرفوها ، وذكروا آلاء الخليفة لديهم فكفروها ، وخوطبوا بالأيادي التي قلدت أعناقهم فلم يشكروها . وتقحموا جراشم نار البغي ، وباءوا فيما أملوه بالفضوح والخزي . وكاشحوا بالعداوة إمامهم ، وأسلموا إلى أيدي الغي إيمانهم وإسلامهم . وأتوا بنكث البيعة خطأ كبيراً ، وتحمّلوا أوزاراً سيسألون عنها يوم لا يظلمون نقيراً . وأصبحوا من القوم الذين يستكبرون ولا يفعلون ما يؤمرون ، فحاق بهم الويل وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون .

ولم يكن بأسرع من إخافتهم للسُبُل ، وقطعهم للطُرق الذلل . وشنوا الغارة على الضعفاء ، واختلسوا ما وجدوه في الخلاء . واستصرخوا قبائلهم على الرعايا ، وضربوا في الأرض بالجموع والسرايا . وانتابت طائفة منهم ما قرب من المحلاّت المنصورة ، والجيوش المتكاثرة غير المكثورة ، ليحاولوا غرّة في تعرية حاطب ، وأخذ دابة ندت عن راكب . فلم يظفروا إلاّ بنصب واين ، ولا رجعوا إلاّ بخفي حنين . وشردوا كل مشرّد ، وطردوا كل طرد .

فلما رأىٰ مولانا أيّده اللّه انهم قد غفلوا عن عزم أمورهم ، ولم تعم أبصارهم لكن عمت قلوبهم التي في صدورهم . تقدّم إليهم بالإعذار والإنذار ، وحذّرهم عواقب التمادي والإصرار . وأقام عليهم الحجّة ، وبيّن

---

(434) يتعلّق الأمر بجبلة بن الايهم الغسّاني آخر ملوك الغساسنة ، عاش في الجاهلية وفي الإسلام راجع ترجمته في الزركلي : الاعلام ج 2 ص : 102 .

(435) تكدير العيش وتنغيصه .

لهم أنجاده الواضحة المحجة ، فما نفعتهم الذكرىٰ ، ولا قبلوا التيسير لليسرىٰ ، ولا خافوا يوم البطشة الكبرىٰ .

وجعل يعقوب بن علي يطوف مخرباً قبائل العرب الرياحيّة من أولاد محمّد بن مسعود بن سلطان ، ويحيىٰ بن دريد بن مسعود وأولاد عساكر ابن سلطان . وسائر من تفرّع عن جذم رياح من سكان الصحارىٰ والقفار والأفارق المنتجعة مواقع الأمطار . كسعيد والأخضر ومسلم إلى غيرهم ممن التمىٰ في سير هوازن إلى هلال بن عامر ، ودافع عن أحسابها بكل رمح طويل وعصب باتر . «كالمنترين» من قربة وتوبة والقبائل الداخلة في سوادهم ، والشعوب المحسوبة في عدادهم والفصائل المنسوقة جموعها في انضادهم .

وكان الشقي يعقوب المذكور قد عقد حلفاً مع منصور بن طالب ابن مهلهل الكعبي ومن دخل في أحزابه من حمر وغيرهم من عرب أفريقية ذوبان الحروب ، وأنضاء الحوادث والخطوب . الذين مرقوا عن جماهير الكعبيين المهطعين إلى الطاعة ، وغلبت عليهم شقوتهم فأنصاعوا عن سياج السنّة والجماعة .

واستـظهر بهم ذلـك الشيطان الغـوي على ما رامـه من إثارة الفتن ، وإبداء ، ،[436] الأضغان والأحن[437] . فلم ينفعـه التحزيب ، ولا لحـدته الإهابة والتشويب . وخامر قلوبهم الرعب ، وضاق عليهم جميعاً الشـرق والغرب . وانتكثت آراؤهم ، وتقاعست أذواؤهم[438] ، وعـدمت أحياءهـا أحياؤهـم . ورموا من تخوّفهم عزائم الخلافة العليّة بالداء العضال ، والداهية الدهياء المرهفة نصالها للانتصال .

ولم يصحب مساعيهم النجاة ولا النجاح ، وغدت أعمال رياح كرماد

(436) غير واضحة في الأصل .

(437) الحقد .

(438) كذا في الأصل .

اشتدت به الرياح . ونكسوا أبصارهم افتضاحاً ، وحظروا من أقوالهم الشنيعة ما كان مُباحاً . وأظهروا في التفاشل لخومية شنشنتهم ، وآن أن تكبّهم في نار الحروب حصائد ألسنتهم ، ودخلت على أفعالهم المعتلّة الجوازم وثبتت ملزوم خسرانهم فثبت اللازم وداخلهم الروع الذي سكن متحركه لكن ضلوعهم ، وعمّهم الرهب الذي أثبت أفئدتهم لكن ونفاً(439) هجوعهم(440) .

ولما علموا أمولانا أيّده اللّه قد عزم على قطع دابـرهم ، واستئصال عشائرهم ، وأن يتتبع فرارهم ، ويمحق محق الربا آثارهم ، لم تكن تقلّهم أرض ، ولا تظلّهم سماء لبروقها ومض .

ولو شكان ما آمتازوا بالذلّة أعظم امتياز ، وانكسروا كالفريضة المتناهية على أربعة أحياز . فمنهم المبادر بإعطاء مرهونه ، والاعتلاق بالخدمة المتكفلة بهدوئه وهدونه . ومنهم الداخل في غمار الرعايا الجـاحد لمـا داناه مـع المفسدين من الدنايا . ومنهم من ألقىٰ دلوه في دلاء الأفريقيين سفهاً وغروراً ، وصحب عصبتهم الخاسرة حين ولوا على أدبارهم نفوراً . ومنهم من انحدر إلى الصحراء وفرّ إليها فرار الفراء ، وآعتصم بالقفر اليباب ، الذي تتحاماه حتى مواطن السحاب . حيث مزاحف الحيّات كآثار الأصبحيّة ، ومنازي الصلال الرقش كمواقع المشرفية .

وهؤلاء الجمّ الغفيـر من جموع الاعـراب ، والسواد الأعـظم الـذي فغرت(441) لهم فاغرة التباب . لكن أكثرهم رجاء بعد ذلك(442) للّه وقاراً ، وأطاع الخليفة واستغفر استغفاراً ، وأخلص التوبة النصوح إعلاناً وإسـراراً ، وأدّىٰ مرهونه سميعاً مطيعاً فلم يخف عثاراً ، وقالت له السعادة نم صالحاً لا تخـشَ ضرراً ولا اضرار،، ، إلّا من الحوادث اللائي قد تطرقن أسحاراً ،

---

(439) ينقوه نقوا لغة نفاه (كما في القاموس) .

(440) نومهم راحتهم .

(441) تفتحت وتوسعت .

(442) غير واضحة .

وآتّصلت لهم عوائد الإحسان الذي أرسل سماءه مدراراً ، وعوارف الانعام الذي أطلق أنواء وأطلع أنواراً .

خلع عليهم بعد أن كانوا لا يعرفون الخلع إلاّ لقلوبهم ، وأجزلت سهامهم من الحباء المجلي لركوبهم ، بعد أن كانوا لا يدرون ما السهام إلاّ في حروبهم ، ووقع لهم في الطروس بالأمان الذي هو عروة استمساكهم ، بعد أن كانوا لا يعرفون التوقيع إلاّ في مهاوي هلاكهم .

ووقفوا عند الحدود ، مخافة إقامة الحدود ، وأمنوا من الهجوم فتمتعوا بالهجود[443] ، وأغرت التوبة أعينهم بالسجوم فأخلصوا في السجود ، وابتهلوا بالدعاء لإمامهم المشهور المشهود ، المرجو وعده والمرهوب وعيده إلى اليوم الموعود ، أبقاه اللّه في ملك بادي الجنوح مؤيّد الجنود ، ونفع بحبّه المحمول في ملاءة الإخلاص المحمود .

وسنشير إلى ذلك في موضعه بدرء من القول ، ونستأنف لذلك ذكراً يعلو به يمن الطول[444] ، إن شاء اللّه الذي بيده مقاليد القوّة والحول .

﴿ فصل ﴾

ولمّا ارتدّ يعقوب بن علي عن طاعة الإمام ، وعصىٰ ربّه الداعي إلى دار السلام . واستاق رياحاً في أزمة تحزيبه ، وعادت سفائن تحزيبه ، في بحر الخسار تجري به . وخاض في أمور هي كالزند الواري يلازمه شرره ، وكاليمّ الطامي لا يفارقه غرره .

وارتكب أحوالاً لا يثبتها النظر الراجح الأحوال ، وحاول مقصداً هو كالإنجاب الذاتي معدود في المحال . وحرك من عزائم مولانا أيّده اللّه ما سكنه اللياذ بحلمه ، وسلَّ من سيوف حروبه ما أغمده العياذ بسلمه ، وأرسل

---

(443) نوم ، راحة .

(444) المن .

من حفاظه ما قبضه التصرّف الجاري على رسمه .

ونشر من أغلاظه ما طواه اللين المقتضي اعمال حكمه كان أوّل من بادر للخدمة من رياح ، وأحسن في اقتداء وأحسب في اقتداح . الشيخ أبو سعيد عثمان بن يوسف بن سليمان بن علي بن سباع بن يحيىٰ بن دريد . شيخ أولاد يحيىٰ وزعيمهم ، ومقعدهم في طاعة الخليفة ومقيمهم .

فكان السابق الذي مسحت أيدي الأيد[445] وجهه ، والمحلي في حلبة الطائفين الذين عدموا شبهه ، والمجلي لظلام الظلم الذي عرف قدره وآكتنه كنهه .

وأخلص عثمان بن يوسف في خدمة آل عثمان كما أخلص يعقوب في خدمة آل يعقوب ثم نكث ومان[446] . وكانت الأعمال بالخواتـم بشهادة أكرم شهيد فنكب أبو راشد عن الرشد وسعد به أبو سعيد .

ولسرعان ما جاء بجملة أولاده مستخلصين للارتهان ، وآلتمس بهم قبول الخلافة التي صافحت يمن اليمن والأمان . واستولىٰ في الانقطاع على نهاية أمده ، وكان رضا إمامه أحبّ إليه من نفسه وأهله وولده . واستأمن لمن دخل في مصافه ملقياً يد الانقياد ، وأطلق لسانه بشكر الملك الجواد ، وعنانه لمدافعة أهل الفساد . وأحر[447] الطاعة رسنه ، وأدّىٰ فروضه وسننه ، وسبق إلى مقر الأمن قبل أن تسبقه الجياد ، وتبدل النجدة ما صان النجاد ، وتبدي صفائح وجهها الصفائح لكن لأهل العناد ، وتتمم في ليل العجاج أورادها لكن في قطع الأوراد .

فرعىٰ له مولانا أيّده اللّه حبّه السامية مظاهره ، ونصحه التي حسنت موارده ومصادره ، ومبادرته بالخدمة قبل أن ترجف بالروع بوادره . وقوبل بالشكر

(445) آد ، يئد ، أيداً : القوة .

(446) يمين : يكذب .

(447) كلمة تنقصها بعض أجزائها .

الذي أدّاه عن القلب اللسان ، وأحسن إليه ما شاء و ﴿هل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان﴾ .

وقيل له على الخبير بأحوالك سقطت؟[448] ، وقد أجرنا من أجرت وشرطنا ما شرطت . ووسع له في الأرفاد ، وأمن على نعمته من النفي والنفاد . وعلم أن نجم العرب قد هوىٰ ، ومحود الذواودة قد ذوىٰ[449] ، لما ضل حزبهم الخاسر وغوىٰ ، وعوىٰ في حوأب الخسار وما آرعوىٰ . وأن سعد مولانا أيّده اللّٰه مُمْعِنٌ في قتالهم عن ركض السوابق ، وحمل الأعلام الخوافق . وهبوب السيوف من مراقدها ، واستتباب مساعدتها لسواعدها وانتعاش الرماح من مراكزها ، وهزّها إذا أذنت الحروب بهزاهزها .

فكيف وقد ألجمت الخيول لكل تقي ملجم ، وسابقتهم الأعلام والبنود إلى كل مجثم . وعينت لهم الجيوش حاشة لا لهوبها . جاعلة الميامن والمياسر حفافىٰ[450] قلوبها ، ونبهت لحربهم الأجفان أجفان سيوفها ، وأغربت بعواسل الرماح فآشتدّ الفتك إلى حروفها . وسدّد كل سهم مريش لكل شيطان مريد ، ونهد بكل سوف عنيف لكل جبّار منهم عنيد . وآعتاضوا مما يحبّون ما يكرهون ، وحيل بينهم وبين ما يشتهون .

وكان من فعل مولانا أيّده اللّٰه مع عثمان بن يوسف المذكور أن ردّ عليه أولاده إلاّ واحداً منهم ليس بموضع عزازته ، ولا محل ارتياحه واعتزارته لكنه حوىٰ به العزّ الذي لا يلحق ، وغلقت دار الارتهان منه على رهن لا يغلق .

وقدم على رياح حين تأخّر عن جموعهم، ، ، على ضلعه حين آرتحلوا عن منازلهم وربوعهم ، وأمر الخادمون من العرب بالدخول في مواقفه والانحياش إلى مزاحفه ، واستنهضوا لمؤازرته، ، ، واستقدموا لمظاهرته .

---

(448) كذا في الأصل .
(449) قد ذبل .
(450) كذا في الأصل .

وتقدّم إليهم بآحتذاء حذوه ، وآقتفاء خطوه ، وألزموا بآتباعه ولو سجد لسهوه وأضيف لهؤلاء العرب الحقدة ، المتخلّفين عن المرقة المردة ، أفاريق من القبائل المطيعة أهل العهود ممن سألت[451] عنهم الحروب فألفتهم مجيبين ، وأهابت بهم إليهم المناجيد قلوبهم مهيبين . وناجزوا العدو فما عردوا[452] عن لقائه . وهايجهم يوم المصائب فما زادوا عن جزائه ، ولا راموا النجاة إلّا بآقتحام هيجائه .

وأُمروا باجتماع الأيدي على مدافعة الأشقياء ، وإجلائهم عن تلك الاذراء ، والصعود إليهم في كتائبهم الصادفة المضاء ، والزحف إليهم بطعان كأذان الفراء ، ومضرب كالجمهرة الرشعاء .

فلم يزل ابن يوسف متظاهراً على المفسدين حتى أخلوا له ولمن معه الجو ، وخافوا معرته ومعرتهم فيمّموا القفر الفدفد[453] والدو ، ، [454] .

ذكر إغارة العرب:

وانكفائهم بسوء المنقلب:

ولما أزفّ الجلاء بالعرب المارقين ، وآنكشفوا عن الأوطان المتجلّية سائقين . ونزلوا للبغي داراً مجلالاً ، وآنصاعوا عمن يقاتلهم أن منعوه؟ عقالاً ، ونكبوا عن الواضحة فضلوا بناسهم يميناً وشمالاً ، ورأوا أنّهم قد بعدوا عن المحلّات المنصورة التي امتدت ظلالاً ، وأوسعت الملحمة جلاء والملحدة جدالاً .

وأُعتقهم من أسرها كل مقرب للنجاة مقرب ، وأنشدوا بعد الجد في الهرب ، شتان بين مشرق ومغرب .

---

(451) في الأصل استل .
(452) فما فروا وما تخلّوا .
(453) القفر .
(454) البرية .

إلّا أنّهم لما تناولتهم شماتة الأعداء ، وسلقتهم ألسنة اللوماء . ورموا بالخطوب المتشاجرة ، والحوادث المتشازرة ، ورأوا فضوح الدنيا الذي هو أهون من فضوح الآخرة . نزعت بهم الآراء الفائلة إلى طلب المغالطة ، وان تظن خطأتهم(455) عند المشاحطة .

وطمعوا في أن يسمع لهم جعجعة وإن لم يرّ طحن ، وأن يكون لهم قعقعة بالشنان وأن صحبها وهن . وأن يقولوا رغينا وان كان رغاؤهم ثغاء ، وأجرينا وإن كان إجراؤهم لا يعدو جلاء .

فأجمعوا أمرهم على أن يغيروا على بلاد سدويكش الغربية ، ويضربوا فيها بالسمرية غير السرية ، ويكتسحوا ما وجدوه من الزرع المكومة بخلالها ، والأنعام التي إن هم إلّا كأمثالها ، بل هم أضل ولا إفاقة لضلالها .

فلما أطلقوها ملمومة الشعاع ، مخفية الشعاع ، مسودة القناع ، مزيلة للقنوع زعيمة الاقتناع . زحف إليهم القائد المتولي عمالة تلك البلاد في زهاء مائتي فارس أكثرهم حماة الوطيس من بني وطاس ، من كل متشمّر للحرب وداعس ثابت القدم في الهياج كطود راس ، متسربل بسرابيل تقيه البأس إن مني بباس .

ومعهم طائفة من بني مرين فرسان الإسلام ، ومعفري الأساد في الأجام ، الخائضين غمرات الموت الزؤام ، القاذفين بالكماة في لهوات الحمام . الكثيرين كبني قيلة عند الفزع ، القليلين وقد أمر أمرهم عند الطمع . كرش القتال وعيبته ، المهيبين بالملك لإقامة هيبته . مجدلي الأقران ، ومقطري الشجعان . الراوين عن عراك أحاديث النصر ، الهاصرين أغصان العوالي أحسن الهصر ، المتوسطة صلاة نزالهم فكأنّها صلاة عصر العصر ، الملتهين عن النخل بالقصر ، بخيول ترمي حوافرها بشرر كالقصر ، المقدمين على كل

(455) غير واضح .

(456) غير واضحة .

جيش مجرور وإن تقدم المجرور، ، ،[457] الحصر .

فصدقوا حملاتهم على الاعراب ، وفاضوا بحوراً على تلك الأغراب . وناجزوهم بمستحر الطعان والضراب وأعطشوا ليل العجاج ، وأنهروا فتق الدم الثجاج ، وأطالوا هيجان الصحب والضجاج ، وأحمدوا مضاماتهم في تلك الأباطح والفجاج .

وعطفوا عليهم كمهد السيل ، بكل طرف قصير الظهر طويل الذيل ، وفرس عودوه إبطاء المفصل ودلج الليل . ونهد ركبه صدر فألهىٰ عن النهد في الصدر ، وسكب حاد ممتطيه فأنسىٰ السكب لكن من القطر ، وتكلم فأنس السكت لكن من القطر . ونهضوا إليهم بعزائم هي كالسيوف مضاء ، وكرّوا عليهم بصرائم هي كالسمر[458] السمهرية غناء . واصطبروا معهم حتى كان لهم الظهور والطعن في الظهور ، وعاركوهم حتى صرفت عن ضربهم الصدور . وكان لهم بعد الورود فضل الصدور .

ولم ينشب الأعراب أن ولّوهم أدبارهم كأنّهم عاد حين أهلكوه بالدبور، ، ،[459] النعام الفوازع ، وصالوا عليهم فلا فرق بين الحاسر والدارع . وتقاضوا معهم في تلك المآزق ديون الحرب . وتراضوا بمقاتلهم في ذلك الموقف الصعب فلا بطل إلاّ بطل، ، ،[460] دليل ثباته ، ولا ، ، ، إلاّ آنبهمت سبيل نجاته .

فلا ذمر إلاّ لقصر عن حماية ذمامره ، ولا مقدم إلاّ أخّر قدمه آلتياذاً بفراره . وقتلوا السيوف في جسوم القتيلين بها ، وحطموا الرماح في أشباح المحطمين بسلبها ، ونكب المفسدون النكبة التي عظم أثرها ، وهزموا الهزيمة التي شمخ خبرها .

---

(457) بياض .

(458) في الأصل لا السيوف (، ، ،) لا السمر .

(459) كلمة أصيبت بتحريف صعب علينا تعويضها بما يناسبها .

(460) كذا في الأصل .

وبرزوا في نحر عواليهم مركوبة أرداعهم ، ومثلوا في مجرىٰ سوابقهم مضمومة بأيدي الردىٰ أوزاعهم . وخليت بأسلحتهم الملقاة ترائب التراب ، وتمنطقت بأسلابهم خصور الطراب والهضاب . وآنجلت الوقيعة عن يوم طلعت شمس أفقه على قرن الشيطان ، وشمس تلامعه على إقرار الأقران .

فكأن الشمس بدر لأنها لاحت في جنح الدجىٰ لكن من النقع ، وكأنّ البدر شمس لأنه لازم النهار لكن من البشائر الظاهرة النفع . وكأنّ الفلق يشفق لكن بدم الأعداء ، وكأنّ الشفق فلق لأنه مقارن بآنتشار الأضواء . وكأنّ الأسنة كواكب لأنها تميل في الأسحار لكنها جمع سحر وكأنّ الكواكب أسنّة لأنها تطلع بآنقراض أجل وآنقضاب قمر . وكان زعيم ذلك الجيش المنكوس المنكوب ، والجمع المعلول المغلوب ، والردّ المسلول المسلوب ، أبو دينار سليمان بن علي بن أحمد ، وتلاه في الرتبة صولة آبن الشقي يعقوب بن أحمد .

فلما فضحهما الانهزام ، وخانهما الثبات والإقدام وضمتهما الحطمة في حبالها ، وعركتهما الحرب عرك الرحىٰ بثقالها ، وحم حمام انصارهما ، واستشلت كنائز استنصارهما ، وفضّت قوادم أقدامهما ، وأوردت السريجية بإسراجها وإلجامها .

وبصراً فلها ولا عيب بسيوف قاهريهم إلاّ الفل ، وشاهداً أحزابها وقد حزبهم الذلّ . وشلت أيديهم حين جذهم الشل . أسامنا[461] على أنفسهما القائد الذي ركبهما زحفه ، وطلب الاجتماع به في ميعاد ردفهما خسفه .

فحملت القائد نخوة عن الغلب على اسعافهما ، وأوصلهما إلى نفسه بعد إقرارهما بالعجز واعترافهما . فاحمدا التذلل لمولانا أيّده اللّه والخضوع ، واعترفا بآلائه التي عمّت التابع والمتبوع . وقالوا نحن عبيد مولانا ومسرفو انعامه ، ولم يكن لنا عزّ إلاّ بالإيحاش إلى مقامه . فلما طردنا الآن عن بابه

(461) كذا في الأصل كلمة عسيرة الفهم ومختلّة الوضع .

وجنبنا اللياذ بجنابه ، وجلانا عن موارد اقترابه . لا جرم حملنا الخوف على النجاة بالنفوس ، ولم نطلب الرئاسة لكن سلامة الرؤوس . وقد وقعنا الآن في هذا المحذور ، وزيّن لنا الشيطان أعمال الغرور فخاب قدحنا ، ولم نور قدحنا[462] وها نحن كما ترىٰ وعينه فراره . وهذا يوم له ما بعده مما يشقّ علينا انتظاره . لكنا لا نيأس من عفو مولانا وإن أذنبنا ولا نقطع آمالنا وإن لنا ما اكتسبنا) .

فآنبهم القائد وفضحهم ، وبيّن لهم ونصحهم . وقال لهم : هذا كلام حقّ أريد به باطل ، وإن جيد إحادته من التوفيق لعاطل . وإلاّ فما للعبد عن باب مولاه فرار ، وذلّه عزّ لمن صحبه استبصار .

فلو كنتم على بيّنات من أمركم لحططتم بمحل الخليفة رحالكم ، وحكمتموه في نفوسكم تحكيماً ينجح أعمالكم . لكنكم خالفتم أقوالكم الآن بالأفعال ، واتبعتم أهواءكم الناصبة عليكم ظلة الضلال .

ولم يكن إلاّ أن انصرفوا عنه فارّين على وجوههم ، مقروناً مكرهم وهو السيء بمكروههم ، وانجفلوا عن البلاد التليد بقضهم وقضيضهم ، وانصلتوا عنها محزنين لحبيبهم ، سارين لبغضيهم .

وتوغلوا في الصحراء خائفين خائبين ، وأبلغوا في قطع المفوز هائمين هائبين . وأصرّوا على العصيان إصراراً ، وعادوا حزب المؤمنين وأزوروا عنهم آزوراراً .

وشجرتهم عن الطاعة الشواجر ، ولم تنفعهم الروادع والزواجر ، وكانت مصائرهم أسوأ المصائر ، ودارت عليهم دائرة السوء التي هي أردىٰ الدوائر ، وآلت أمورهم إلى ما نذكره إن شاء اللّه في هذا الديوان الواضح الشعائر .

---

(462) كذا في الأصل .

ذكر الحركة على السواوقة:

وما كان من أحوالهم الموافية الموافقة:

ولما ظهر نفاق الاعراب ، وبدلت خرائبهم بالخراب ، وسجد القصد في إجلائهم على سعة آراب الاراب[463] ، صرفت القبائل مقاصدها في الاستصعاب ، ودخل بعضهم في حزب المفسدين الذين هم شر الأحزاب .

وكانت خلال أولاد سواق نوادي مكث وما أولاها من الأوطان ، منبسطة في تلك الأعطان . متيعة بأموالها مواقع القطر ، مستظهرة ببأسها المعروف الخطر .

فلما برقت لهم بارقة الفتنة ، وتحيّنوا أوقات ظهور المحنة ، ارتدّ أولاد سباع بن محمد بن يوسف حمو بن سواق ودخلوا في اضمامة المفسدين وعقدوا حلفاً مع العرب المعتدين ، وأصبحوا وقد تشبّهوا بهم فيما يفعلون ، وزيّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون . حتى شجوا بالمفازة الشجواء ، واستدرجوا من حيث لا يعملون إلى مهاوي الشقاء .

ولم يصحب أولاد سباع المذكور من رعاياهم إلاّ من زهد في الشاء ورغب في البعير ، وهجر الأوطان مستبدلاً برد ظلالها بالهجير .

فٱغترّ العزيزيون بعدهم اغتراراً ، وجمعوا قُدد تلك الجرة التي عمرت أرجاء وأخواراً . ووقع الأخبار أنهم في عشائر وافرة العدد ، متظاهرة العدد .

فأصدر مولانا أيّده اللّه الإيعاز إليهم بتقويض الخيام ، وتقدم إليهم التوقيع الشريف بالاستقدام . وأمروا بالتحوّل عن تلك المنازل ، والتجوّل لحطم الرواحل . والوفادة على المحلاّت المنصورة بأموالهم الثاغية والراغية[464] وانعامهم التي تمنّعت عن الفئة الباغية .

---

(463) كذا في الأصل .

(464) يقال : «ما له ثاغية ولا راغية» .

فلما أبطأ وصولهم ، وتريث عن تلك الأوطان فصولهم . أشخص إليهم الخليفة المتوكّل أيّده اللّه وزيره الحائز لفضل أصالة ، الوارث الوزارة لا عن كلالة . الناصح الجيب ، الميمون الغيب . المشتمل بالوفاء ، الجدير بالاصطناع والاصطفاء . زعيم بني فودود وسيدهم ومظاهرهم بحسن سياسته ومؤيدهم . الشيخ أبا علي الحسن بن عمر بن مخلوف بن عمران وعيّن له جيشاً جرّاراً من سراة بني مرين وفرسانهم ، إلى غيرهم من القبائل الممتاحة بأشنة طعانهم .

من كل صلت الجبين ، أشم العرنين ، خارق ذات اليسار وذات اليمين ، أشجع من أسامة في الغيل الأشب والعرين . تردي بهم عوابس يوم الضراب ، قب البطون لواحق الأقراب . معقدة السبائب ، قادحة في الصفاح نار الحباحب . موسعة لحمها لوكاً واستراطاً ، ملاعبة ظلالها مراحاً ونشاطاً . مختالة في أعنّتها ، مستنّة آرنة[465] بين أسنّتها .

وتقدموا في تعبئة تقرّ بها عيون النزال ، واهية فتلاقى على مركزها محيط القتال . ونهض الوزير المذكور وسعده قد بهر ، وعزمه قد اشتهر ، والجد النافع يروي عنه الحديث والنشر ، فلا أصح من إسناد نافع عن آبن عمر .

ولم ينشب[466] أن طرق السواوقة ليلاً ، وآنصبّ عليهم بالخيول سيلاً ، وشمر لقراعهم ذيلاً ، ومال عليهم بالكماة ميلاً . وهجم على حلالهم هجوم الطيف ، وحسبهم ذباباً لذباب السيف .

فلما فاجأتهم الفواجىء ، وبغتتهم الغرائم النواشىء . تبادروا ركوب الجياد وعقدوا مصافهم للجلاد فلما سمع الوزير جلبتهم ورغاهم وتحقّق لغاهم وعرف لغاهم وعلم أنهم طعمة في لهوات الحمام ، وشربة لغليل الموت الزؤام ، ودرئة لرماح الجيش اللهام ، وربابة[467] لسهام أهل الإقطاع

---

(465) أرن (بكسر الراء) نشط .

(466) سبق شرحه . لم يلبث أن .

(467) مملكة .

والإسهام . أمر بأن يحجز سرعان الناس عن تناول الحرب ، وتقدّم بالوعيد لمن ابتداء[468] مواضعه للطعن والضرب . ورتب الجيش دائراً بتلك الحلال والمعالِم ، ودران الأطواق بالأجياد والأسوار بالمعاصم والأنامل بسمر العوالي والاغماد ببيض الصوارم .

ووجّه إلى أشياخ السواوقة وقادتهم إن هم طلبوا الفرار ، وتعرّضوا للحرب رافعين لها الابصار . فإنهم لا يمهلهم أو يكرّ على جموعهم ، ويستأصل بالسيف أهل ربوعهم ويبيح للجيش اكتساح أموالهم ، وانتهاب حلالهم ، وإخماد ذيالهم ، وبخث أثلهم وسيالهم ، وإيراد الصعاد شرب دمائهم ، والإجهار بالدرب الطريرة لَى أدمائهم[469] .

وخانوا وعيده الذي ثقلت عليهم وطأته ، وسمعوا قوله الذي أتيحت لتلك الفئة فيئته . ولزموا ملازمهم رهباً ، ولقوا من تحمّل ذعرهم نصباً .

وأقام الوزير بقية ليله على ما كان عليه من ترتيب الارصاد ، والأخذ بالحزم الـواري الزناد . وقاتلهم بالرعب ، لا بشأش[470] الصارم العضب ، وجالدهم باللسان ، وخاطبهم بمدارك البيان قبل مدركات الشجعان .

ولم يرم أحفة تلك الحلال حتى حالت صبغة الظلام عن مفرق الأفق ، وجليت عرائس الأنوار في منصّة الشرق ، وجعلت النجوم تياراً على أيدي البرق . فتراءت وجوه الوجوه الأعلام ، وآنشرحت صدور الصدور الكرام .

وبذل الوزير الأمان للسواوقة جهاراً ، وأقال لهم عثاراً ، وأحيا آثاراً . وأمرهم بالرحيل فقعقعـوا[471] غمد أبنيتهم ، وعـطلوا منفسحة أنـديتهم ، وصحبوه بسوادهم ، ووفور أعدادهم ، ومرفوعة أحداجهم وقبابهم ، وما حوته

---

(468) كذا في الأصل والمعنى غير واضح : تشتيت وإتلاف أمتعتهم .
(469) كذا في الأصل .
(470) كلمة غير واضحة عوضناها بما هو مناسب .
(471) كذا في الأصل .

معمودة الخيام من أثاثهم وأسلابهم ، وضمت أموالهم إلى الطرق مدفوعة إلى عصي رعاتهم . مجموعة تفاريقها إلى منهضة حداتهم . مكفوفة عن تبسّطها إلى الانضمام مطارة بين أيدي الجرائد المرهوبة الاصطلاء والاصطلام مقبلة منازل الخليفة الذي أنال وأناب ، وكان خدّامه الذين حشوا[472] الطعان والضراب ، كالسهام التي إن أصابت مراميها فراميها أصاب .

ولو شكان ما أتت مطالعات الوزير ناشرة لخبرهم ، وتطايرت رقعة معلمة بضم نشرهم ، فتقدمت له الأوامر المطاعة بالاحتياط عليهم ، وصرف وجوه الرفق إليهم .

وصدرت له المراسيم الشريفة بإنزالهم إزاء المحلّات المنصورة ، وبذل التأمين لأحزابهم الخائفة المذعورة . فما تلوم الوزير ولا أبطأ ، وأصاب في الاشتمال ولا أخطأ .

ولسرعان ما ارتفع سواد خيامهم ، واندفع بمقربة المعسكر الأعظم سيل أنعامهم ، وحضروا بالمواقف العلية وكل منهم قد كاد يشرق بريقه ، وتلتبس عليه سعته[473] بضيقه . وطأطأوا رؤوسهم تطأطأ الدلاة ، وسلوا عن عزمهم الذي نبذ نبذ القذاة[474] . وأظهروا الاستكانة والخنوع ، وواصلوا التذلّل والخضوع . واستسلموا لأحكام الخلافة ، ولبسوا شعار المخافة . وفي ذلك من عزّ الملك ما بعد العهد بمثله ، وتقادم السلوك لطرقه وسبله .

فما زال هؤلاء السواوقة يقاتلون عرب أفريقية ورياح ، ويقاتلون الجيوش الطامحة أشد طماح . ويدافعون عن أوطانهم كل فيلق جرّار ، ويذبون عن حريمهم بكل أسمر خطار وأبيض تبار ، ولا يغبون شر مغار ، وانتساف أنجاد وأغوار .

---

(472) كذا في الأصل ويقصد خشوا .

(473) كذا في الأصل .

(474) ما يقع في العين من تبنة ونحوها .

وكانت لهم على الرعايا السدويكش اتاوة يأخذونهـا طوعـاً وكرهـاً ، وضرائب تنور للمجاهرة بالمذلّة وجهاً . حتى امتعضت الدولة المرينية للمظلوم فكفّت يد الظالم ، وجدد إمامها الأتقىٰ العدل الـذي آتّسق ملء النجـود والتهائم .

واسترعاه اللّٰه عباده فحاطهم ورعاهم ، وأنحنىٰ بكلكله على المفسدين فقرب مقعاهم . وسعت الرعايا في التزلّف إلى اللّٰه بطاعته فأنجح مسعاهم .

ولم يكن إلاّ أن أمر السواوقة بأداء زكاة أربعة أعوام وهي الأعوام التي منعوا فيها صدقة أموالهم ، وفرحوا بالفتنة الناجمة فأقبلوا على عـواملهم وأعرضوا عن عاملهم ، حتى تخلّت الدواعي الكريمة لإجبارهم ، وأتيح بحول اللّٰه الاقتدار على قطع دابرهم وطمس آثارهم .

فأدُّوا الزكاة المطلوبة منهم لائذين بالتوبة ، ونجعوا بالطاعة التي حلّت حبوتها لإذهاب الحوبة،(475) ومكثوا من نواصي مراهينهم وفاق التعيين ، وبيّنوا دلائل خدمتهم ونصيحتهم أحسن التبيين . وآنقادوا في أزمة الإذعان ، فكتبوا في أزمة الخلصان ، وزكّوا بتلك الصدقة المتكفلة بالنمو والرجحان ، وطهروا بها تطهيراً حفظ قاعدة الإسلام ومخيلة الإيمان ، وعاينوا هدىٰ إمامهم وليس الخبر كالعيان ، وزادوا مع رعيه فلم تقل السعدان مرعىٰ ولا كالسعدان(476) .

وعلى أثر ذلك صرفوا بأموالهم منتجعين أوساط البلاد وأطرافها ، حامدين معه أمورهم التي شاهدت الألطاف خفافها ، ولم يزالوا في أمنة تكرم عطفتها ، ونعم لا تستفرغ صحفتها ، وسعادة تثبت قطرتها وتحسب قطفتها .

---

(475) الإثم والذنب .

(476) كذا في الأصل .

﴿ فصل ﴾

ولما أعطىٰ أولاد سواق زكاة أربعة أعوام ، وقبلت أعمالهم التي كانت خداجاً غير تمام . صدر الأمر الكريم بخروج العمال بجميع الأوطان ليطلبوا صدقات أموالهم ، ويقبضوا مراهينهم التي بها صلاح أحوالهم . وتقدم إليهم بـآلتزام العـدل فيما يعتمـدونه ، وأن يكـون محلّهم الصدق والحقّ فيمـا يقصدونه .

وأهيب بالولاة لاقتضاء المغارم المنـظومة قـوانينها ، وقبض المـلازم المستخلصة لإقامة السياسة أفانينها . وتعيّنت الحصص لقهر أهل الفساد ، واستئصال شافة أهل العناد ، وإداخة متمنعاتهم الشامخة الأطواد . فآستتبّ العمل في ذلك حتى أطرد التمهيد ، واستوسق التسديـد ، وعمّ الصلاح والإصلاح ، ومحيت الارباء وسقيت الأرباح . وهبّ هامد القهر وأورىٰ صالد القسـر . وقـوي سلطان الـطعـان والضـراب ، حتى هـانت الأمـور بعـد الاستصعاب ، وظهرت آثار البأس والإقدام .

وأصبحت الدولة المرينية من حاجتها على طرف التمام ، وساقت أهل الجفال في تصحيف الجبال ، ونكأت قروحهم بعد الاندمال ، واستنزلت المسرين أبلغ الاستنزال ، وتركتهم رهن الاختزاء والاجتزال . وصدعت بالحق الذي لا معارض لنصوصه ، وبسطه العدل الذي لا نسخ لعمومه ولا خروج لخصوصه .

وأوضحت قضية النصر فلم يتسلّط عليها التأويل وأعملت قياس الظهور فلم ينف الجمع ولا أنكر التعليل ، وحقّقت زيرجة السعود فما اختلفت الأحكام ولا فسد التعديل .

وكان مولانا لتلك الأوطان ابن مالك[477] فلا غرو أن نسب إليه التسهيل ،

---

(477) ابن مالك النحوي الشهير صاحب الألفية الشهيرة .

أبقاه اللّه في ملك يسر بأعاريضه وضروبه الخليل، وصنع إذا شاق اذخر ذخره فهو الجليل ، وأمتع بفضائله التي لهج بأنوارها المستنير وأنوائها المستبيل .

ذكر ما كان من أخبار توبة:
وأحاديثها التي أبانت الشوبة والروبة:

وكانت توبة من قبائل الأثبج قد استفحل بالبلاد القسنطينية أمرها ، واشتهر في ممارسة الحروب ومدافعة الخطوب ذكرها . ورحت ريحها على الرعايا زعزعاً ، ونزلت القبائل المستضعفة من جوارهم مناخاً جعجعاً . وغـروا فغاروا ، وأنجدوا في الفتنة وأغاروا . واستغلظ استشراؤهم ، وعظم اجتراحهم واجتراؤهم .

فلما أعطيت القوس باريها ، وقلّدت سياسـة تلك الأوطان حـافظهـا وراعيها . وظهرت الدولة المرينية التي طلعت شمس دعوتها من المغرب ، فقامت قيامة العدو المجلي المجلب .

وكانت من الأشراط لكن من اكتمال السعود ، وأوّل الإمارات لكن على الفتح الموعود ، وتملكت البلاد الشرقيّة أوحىٰ من الإيماء إلى السجود . خضدت شوكة توبة وفلّت شكتها ، وطمست سككها وغيرت سكتها ، ودكّت حال بغيهم (فللّه) دكتها .

ونهد إليهم حاجب الخلافة مغيراً فأوقع بالوشاحين وفريقاً من أولاد مبارك وقيعة شنعاء (477ب) تناقل البلاد أخبارها، واستبلغ في اكتساح أنعامهم استبلاغاً أعظمت به الحروب آثارها . وأجلاهم عن أوطانهم آخذاً بهم ذات الأصحار ، طارحاً لفلّهم الذميم في نقير بئر البوار .

وأزال بكف عدائهم الخوبـة ، وأراد المغفرة للذنـوب فطب تـوبة . وغادرهم منكشفين عن معاهدهم التي أعطوها عهودهم ، متزايلين عن بلادهم التي هي أوّل أرض مسّ ترابها جلودهم .

وتحيرت للطاعة جماهير أولاد مبارك وشيخهم إذ ذاك راجح آبن عنان

الذي رجح في الشجاعة وزنا ، وثنىٰ عنانه فائراً بالقصد الذي لم يرَ دونه وهنا .

فلما فتحت قسنطينة(478) الملاحظ ، وردّت أمورها إلى الإمام المراعي المحافظ . مت المباركون بخدمة قديمة ، ومناب أظهروه فيما يزعمون بقلوب سليمة . فلحقتهم مزاحمه التي تفيأوا أفياءها ، واتبعوا ركابه العلي فأتّبع دلوه في السماح رشاءها .

وطولبوا بالمراهين المتخيرة من الأبناء الأعزّة والاخوان ، ورياحين الآمال المتنسمة في روضات الجنان . فأعطوها والسيف يخاطبهم من وراء حجاب غمده ، وأدّوها ولسان الرمح يأمرهم بما لا مريـة في رشده .

وانكفوا بالتي حقنت دماءهم في أهبها ، وانصرفوا برسم الخدمة التي تكاتبوا من كتبها . وأمّا الوشاحيون فإنهم استصحبوا حكم الخوف والرهب ، ورأوا الضرب في الأرض أحلىٰ من الضرب . ومالوا إلى شق الشقاق الذي ضمّهم في واده ، وجالوا ولا ينكر الجولان على وشاح ولا على أولاده .

واعتصموا بجناب أوراس ، وأملوا أن يستقرّوا منه برأس راس . فأجلاهم عن مثابه أولاد ثابت ، وأصاروا حكم ثباتهم غير ثابت . وفتحت لهم المنايا كل باب ، وجرعت كل صاب كل صاب . وصدع شملهم بأولاد جابر ، وأدبروا فقطع منهم كل دابر ، وطما لهم لج الجلاد فأقصر كل منهم عن لجاجه ، وزخر بحر الحرب فغرق ذلك الفريق الأثبجي في أثباجه .

وذلك أن يحيىٰ بن علي بن جابر النابتي شيخ كرفة لما علم بآنجفالهم عن المحلّات المنصورة وهـربهم عن أحكامهمـا المرهـوبة المحـذورة . استصرخ عليهم قبائله ، واحتشد لقتالهم فارسه وراجله . وانصبّ عليهم بجموع حفظت عهد الباس ورعت دهمه ، ونهد إليهم في ردود بلت لهاة

(478) كلمة غير واضحة .

المنون ووصلت رحمه . وناجزهم برأي من نسائهم المرفوة[479] حدوجهن ، المشاهدة بتلك الأماكن المنفسحة عروجهن . حيث اختلطت الأنعام بالانعام ، والتفت الاقدام بالاقدام ، وتراكم القتام على القتام .

فأصطبر الفريقان على حر الضراب والطعان ، ولبسوا غلائل كالأرجوان ، وتعاطوا كؤوس المنايا بالشمائل والإيمان ، فظهر أهل الطاعة على أهل العصيان ، ومنحهم اللّه النصر الذي سنت أحكامه على لسان السنان .

وآنهزم الأشقياء هزيمة شنعاء فاقت الهزائم ، وأكذبت ظنونهم الرواجم ، وجلبت إليهم الخطوب العظائم . وأخذ لهم زهاء مائتي دور بما كان في أرجائها من النعم والكراع ، والأطعمة والأثاث والمتاع ، والعبيد والخدم والمضارب والخيم . والحدوج والقباب، ، ،[480] والأسلاب . من بعد أن خذلت أبطالهم ، وقتلت تقتيلاً رجالهم . وكان صالح بن رشاش شيخ الوشاحيين قد أبلىٰ في هذه القبائل بلاء مشهوراً ، وقام في تلك المعركة قياماً مأثوراً . فسرعان ما استمر بطعنه نهر الدماء ، وآب بها، ، ، العرىٰ نجلاء . وفارق حومة الهياج وقد مني بخطب فادج ، وفارق الجماعة فكان عمل صالح غير صالح .

فلم ينشب الفل الباقي من الوشاحيين أن تابوا إلى اللّه متاباً ، واستفتحوا للطاعة أثواباً . وتراموا على المرابطين فوصلوا الباب الكريم شافعين فيهم ، ومعلمين بتوفرهم على الإنابة وتوافيهم . وطلبوا لهم العفو الذي يوضح حدداً ، ورفع السيف بقية السيف التي هي أنمىٰ عدداً ، وأنجب إن شاء اللّه في الخدمة ولداً .

فأسعفهم مولانا أيّده اللّه بذلك جرياً على عادته الكريمة في العفو عند الاقتدار ، ورغبة في توفير الرعايا وعمارة الأقطار . ورسم لهم النزول بمقربة

---

(479) كذا في الأصل .

(480) كلمة ساقطة .

من المحلات المنصورة . فأقبلوا منتعشين من عشائرهم ، فائزين في أوطانهم بأوطارهم ، شاكرين نعم الخليفة آناء ليلهم وأطراف نهارهم . وعهد إليهم ببركته ما بقي من مواشيهم فأدّوها نجاز أربعة أعوام ، وأماطوا ما اكتسبوه من أوزار وآثام .

وكان عبد اللّه بن مقرب بن رشاش قد اتخذ رهينة عن صالح عمه ، فأراحه اللّه من همّه وغمّه . ووقع الإيعاز الكريم بإخراجه من مقر الارتهان ، وتسريحه في كنف اليمن والأمان . وصدر له المرسوم الشريف بتقديمه شيخاً على أولاد وشاح ، وفاز من الأثرة والتكرمة بأربىٰ أرباح . فتلقّىٰ ما تولاه بالنصح ، وشكر ما غمره من المن والمنح . واستقام في الخدمة فاستفاد ، وأجال قداح آرائه فأجاد ، ولولا حلم مولانا للزم الجوىٰ وفارق الجواد .

خبر علي بن ثابت والي الجبل:

وما ظهر منه من خلل الخلل :

ولمّا هبّت رياح لكن للفتنة ، وأعربت الأعـراب عن إزالة الهـدنة ، وتكدرت بالمحن أمواههم،[481] وأوكبت أيديهم ونفخت أفواههم ، وسعوا في هلاك نفوسهم ، وتداعوا للتي حكمت ببؤسهم ، وإسقاط رؤوسهم بمساقط رؤوسهم . أظهر علي بن ثابت ما أخفاه من خبث سرائره ، وخان الأمانة التي آنحصر حفظها يوماً بخواطره .

وطُولب بإحضار آبنه عبد الرحمن رهينة فعصىٰ وغوىٰ ، واقتدىٰ برياح فأتبع الهوىٰ . وآثر قرب آبنه على طاعة مولاه ، وكفر نعم الخليفة الذي أولاه من فضله ما أولاه . وسرّ بفعلته الدنية حاسداً شامتاً ، ولم تكن شجرة حسبه طيبة وإن كان أصلها ثابتاً . ووضحت دلائل شقاوته ، وانقطعت أسباب رجاوته واعتصم بقنن جبله ، ورحل من القل إلى قلله . وأفصح له لسان الاعذار

(481) كذا في الأصل .

والانذار فصم ، وأقيمت عليه الحجة الواضحة قصمت وأرم . وأصر على الانتزاح والبعد ، وقاس قياساً فاسداً مبنياً على الطرد .

وبادر مسعود ابن أخيه حسن بن إبراهيم بن أبي بكر ثابت فوقف بالباب الكريم مظهراً لتشيعه وانقطاعه ، مستنيماً إلى الخدمة التي فسحت بوع اضطاعه[482] ، وجعلها ذريعة إلى استخلاصه للولاية واصطناعه ، وأحاط التقرير بشكور غنائه ، وبسط القول في الاعلام بحسن مضائه . فكان له من اسمه واسم ابنه نصيب ، وفاضت عليه سحائب الجود فالعيش أخضر والزمان خصيب .

وما هزّ عطفيه إلاّ صدور العهد الكريم بولايته للجبل عوض عمّه ، ويسوغه النعمة التي عاجلت ملم شعثه بلمه ، وذهب سح غمامها بغمّه ، وصرف قرير العين لجب .اية العين ، مظاهراً على عمّه الذي أخذ بعصيانه طريق العيصين[483] .

وتعيّن الشيخ الأجل أبو عمران موسىٰ بن إبراهيم برسم الوصول إلى الجبل المذكور ، ورتق ما اختلّ فيه من الأمور . فتوجّه في جمعٍ من الفرسان ، وميسر من الحماة الشجعان . فلم يكن إلاّ رستماً وطئت جبلَ بني ثابتَ جياده ، وجرت بمصاعده صعاده ، وذلّلت لأنجاد قومه أنجاده . إذ بعلي بن ثابت قد حاق به الويل والثبور ، وقطعت دون ظهوره الظهور . وزمىٰ به أمضىٰ مراميه الجلاء ، وضاق عليه كل ضيقه الجو المنفسح والفضاء . فاستوصلت نعمته ، وحرمت الدومان حرمته . وملكت أملاكه ، ونشرت أسلاكه . وجعلت عليه الارصاد بحيث حل من تلك الجبال الشواهق ، والقلاع السوامي السوامق . وسلط عليه الحصر ، وأتيح عليه وعلىٰ جميع المفسدين النصر .

---

(482) كذا في الأصل .

(483) ج أعياض : معانيها متعدّدة منها المكان المنعزل المغروس بالأشجار .

وملىء، ، [484]عمراً طويلاً فسلم بذمائه، [484ب] ورد اللّه المنايا المطيفة عن حوائه . حتى أظهر التوبة بعد انصراف المحلّات المنصورة ، وأهدىٰ لقائد قسنطينة ما ارتضاه من الخدم المكشورة . فردّ إلى موضع ولايته ، وعزل آبن أخيه المعتمل في نكايته .

ولم يغن الشيخ من الهدر الحذر ، وصمت الاذن وعمىٰ البصر . وحل آبنه عبد الرحمان في حكم الثقاف ، وخفض بالإضافة إلى المسجونين ولا ينكر خفض المضاف . وسيأتي ذكر ذلك إن شاء اللّه في موضعه ، ويورد إيراداً تحوم الأقلام على مشرعه .

واللّه يؤيّد مولانا بمزيد نصر وعضد ، ويمتع بخلقه التي روت عن سهل بن سعد[485] وفضائله التي انتظمت بجيد الدهر أشرف عقد . وينفع المسلمين بما أخلصوا له من الحب ، وامحضوا لجلاله من الإخلاص العاطر المهب ، وواصلوا من بنائه الذي هو كالسواك مطهرة للفم مرضاة للرب . بمنّه ويمنه .

ذكر الحركة إلى الزاب، وانجاف الخيل إلى بلاده والركاب :

ولما توغل العرب المنافقون في الصحاري والمفاوز ، وغشيهم ما غشيهم من الخطوب الملتهبة الضرام والهزاهز. وشالت نعامتهم، وسارت جهاماً غمامتهم ، وانتشروا حيث الأفاعي تنتاب مراقدهم ، والأراقم تخلف أطواقهم وقلائدهم . ومنوا بقفار ردت سعي القطاة في الاهتداء مخفقاً ، وغنت بها الرياح العواصف غناءها رملاً مطلقاً ، وأصبحوا يدافعون المنايا بما هو أفظع منها مذاقاً ، ويستبقون الحياة بتحسبهم لمر المصاب كأساً دهاقاً . فهم مقتولون بسيوف السراب ، قبل سيوف الهند العضاب ، مقبورون في ذات

---

(484) كلام غير مفهوم عسير القراءة .

(485) (، ، ، ـ 91 هـ) الخزرجي الأنصاري من بني ساعدة صحابي . انظر الزركلي . الأعلام . ج : 3 ص : 210 .

الرمل المنهال قبل الملاحد ، مجاوزون بسوء أعمالهم قبل الموت المؤذن بالشدائد ، محمولون على ظهور القلاص كالجنائز إذا رأوا غير شيء ظنوه ظل المناجز . مقطوعة آمالهم من الظهور ، آيسون من النجاة كما يئس الكفّار من أصحاب القبور . لم يقنع مولانا أيّده اللّه ذلك في نكالهم ، ولا شفىٰ صدره في إحالة أحوالهم ، وأمر العساكر بالتأهّب للكر على أذمائهم ، وعبور الصحراء المقلصة لأفيائهم . وأنعم على جميع جيوشه بالأطعمة المحسبة الكافية ، وعمّ قبائلها المتكاثرة بالأموال الوافرة الوافية . ووكل تفقّد عددهم لخدمة الوزراء والقوّاد ، وطلب الأشياخ بإظهار شعار الاستعداد . وأثار العزائم التي استفتحت مغالق الآمال ، وأنهىٰ الصرائم التي استورت زناد النزال، ، ،

ونادىٰ بالحركة الجامعة لتفريق شمل الأعاد، وأهاب بالكتائب مستوعباً صلاة البأس وقومة الجلاد وأيه[486] بالأبطال لتبسط بلاد الضلال ، وتوسط أوطانهم المنفسحة الحلال . واستحكم رأيه الناجح في الاستنفار ، لائها معاقل أهل الاغترار ، واستئصال من استسلم للكريهة من الفسقة الأشرار .

وتقدّم أيّده اللّه بالإيعاز إلى مسترزقته ومطوعته بالاستكثار من الجمال الرافعة للاصار ، وللأثقال وعهد إليهم بحمل ما يحتاجون إليه من الأطعمة التي يقوىٰ بها الاستظهار ، وتتسنّىٰ بأعدادها للأوقات الأوطار . واستتم العمل في ذلك على ما أشار إليه الحزم ، وأومأ إلى تويّه العزم . واستمر مرير التدبير ، واستقرّت الأمنة من التقصير . وتوفرت أقسام النجاح ، ووضحت أوسام الفلاح . وتنجزت الحركة ، واستديمت الملكة ، وعمّت البركة . فكان رحيل مولانا أيّده اللّه تعالىٰ من ظاهر قسنطينة حرسها اللّه تعالىٰ (من ظاهر قسنطينة حرسها اللّه تعالىٰ)[487] صبيحة يوم، ، ،[488] في طالع سعد لا غصب لمنصب تعليله ، وإقبال نصر لا طمع في نسخ نصّه وتأويله . وآستقدام غصد

---

(486) أثار حماسهم .

(487) التكرار في الأصل .

(488) بياض يؤسف له لأنه يحدد تاريخاً .

لا قدح في مقدّمات قياسه ، واستتمام مجد لا مدّع للبسه ولا نازع للباسه ، وآستكمال عزّ لا مميط[489] لنفسه ولا مفرق لأنفاسه .

فللّه عيناً من رآه أيّده اللّه وقد ملأت الخافقين خافقة أعلامه ، وكتبت في الجو أقلام رماحه بمداد قتامه ، وأكلت سيوفه أغمادها حنقاً على أعدائه المخفرين لذمامه .

وكادت خيوله تسيل لحمها بنيران حقودها ، وتطير إلى الأشقياء الذين أسلموا خدودهم لوطئها ، ودمائهم لورودها، ، ،[490] .

وفي يوم، ، ،[491] كان وصول الركاب العلي بتيجمانين وكان يوماً لم يملك الغيث فيه دمعه ، ولا ترك قوس البروق الرامي بسهام المحب نزعه . فقناع غيمه مثقل ، وتاج أفقه بدرر الحيا مكلّل .

ولمّا كان وقت العصر ملا اللّه بهيادب الغمام مجاجاً ، وأنزل من المعصرات ماءً ثجاجاً . وتتابع نزول الأمطار ، وتناوحت الرياح بتلك الأقطار ، حتى شربت الأرض بكل جود همار ، وسل البرق على المزن كل سيف بتّار ، فسال من كلومها كل بيار ، وعلا الماء حتى كاد يلحق أنجاداً بأغوار .

وما راع أهل المحلّة إلاّ مدود السيول ، هائجاً عبابها هيجان الفحول . كاشفة عن أصول الشجر كأنّما أرادت خطبتها ، مدخلة عليها القواطع ولا غرو فقد عرفت نصبتها ، خارقة الأحجار الأحجار . ماحية لما خطته أيدي الأزهار في جنبات الأنهار ، مقيدة من الحيّات المتقلّبة على الأجحار ، مسودة كالليل إلاّ أن الحباب أظهر نجومه المتجليّة للأبصار .

ولسرعان ما ولجت علينا الأخبية ، وعمرت الأفنية ، وغشيت الأبنية . ثم

---

(489) كلمة عسيرة القراءة .

(490) بياض .

(491) بياض يؤسف له لأنه أيضاً يتعلّق بتاريخ التنقّل أو الحركة .

سكنت غواربها فصارت أغراباً ، ودفع اللّه بنضوب ذلك الماء العذب عذاباً . وأعقبنا سرور وضحت أساريره ، وآنتهاج طلعت طلوع الصبح تباشيره . وبتنا تلك الليلة وأعيننا كأعين السحب قريرة ، وأوجهنا كأوجه الحدائق ناظرة نضيرة .

فلما نعمنا الصباح بنسيمه الرطب ، وألقت النجوم قرطتهن وخواتمهن في ثوب الغرب . وفتقت الشمس كمامة الأفق وتعلّقت بعد الانخفاض بأزرة الشرق ، وتواضعت فأضحت أنوارها مرمية على الطُّرق . ركب مولانا أيّده اللّه إلى القصر الذي بناه عثمان بن علي بن أحمد الرياحي فرأينا قصراً بديعاً قد قامت بذلك الموضع الخلاء عجائب آثاره ، كما يذكر أهل القصص من أحاديث خرافته وأخباره .

وكان قصراً منفسح الساحة ، منخرق المساحة . قد آرتفعت حيطانه من جهاته الأربع بالحجر المنجور المعروف بالعيسوي ، ، ،(493) في قديم الدهور . من حجر كالضرب راس ، يذكر حلم أحنف ويروي صنعته بذكاء إياس ، دافع في صدور المقاتلة ولا غرو فهو ذو قلب قاس ، عارف بمراء ومراس . لا ترميه المجانيق إلاّ كاد يعدو عليها شرره ، ويضحك من يفتت حجارتها تأثيره وأثره .

وقاح الوجه ، متظاهر بالنجه(494) . يعرف صحة الإعراب والبناء ، ويبدي حروفه متمكّنة كالأسماء . إذا انتصب ردّ العدو المناصب ضارباً الأصدرين ، وإن آلتقىٰ في السور مع مثله رأي العين ، تحركت الجيوش الحاصرة بالكسر لالتقاء الساكنين ، وإن دهمها الطالبون بسورها رووا حديث المنعة لكن شرط الصحيحين .

وكان بكل ركن من أركان هذا القصر ، برج لا يصلح أن يكون به أوج إلاّ

---

(492) كذا في الأصل .

(493) كذا في الأصل .

(494) كلمة غير واضحة .

للنسر . وارتفع على بابه برج خامس ناهر اللمح . أبيض منير كعمود الصبح . قد لصقت به خراجة مشرفة على الباب ، معدّة لدمغ من رام ولوجه بالغلاب .

وكانت بداخل القصر ديار محكمة البنـاء ، متناسقـة السكك متّسعـة الأذراء .[495] أجلها دار عثمان بن أحمد وكانت بديعة الاختطاط ، معجبة الاستنباط . قد قامت من جهاتها الأربع على السواري السامية من الرخام ، مما اخترعته ملوك الروم قبل الإسلام ، وخلفته بلميس وغيرها عبرة لأولي النهي والأحلام .

وحفّت بهذا القصر جنّات تعرف في وجوهها نضرة النعيم ، وحدائق تسهل ألفات غصونها ألسنة النسيم . من كل ناضرة تبدي محاسنها الفائقة ، وتنسي حمائم شجراتها الزائقة غناء رائقة . وخصلة تتخذ ذر السخاب[496] من ذر السحاب ، وتلهي ورقها غبّ الرباب غناء الرباب . وخضرة تسبي بالأنفاس العطرية ، وتنعم وتنغم بالعين وتمكن من طبقتها الغنية .

وزاهر طاب رياه[497] ، وذكر اللّه بألسن حاله ففاضت عيناه . ومطلول قامت بجنّته حوراء ، فآمتدت الأمياء ، وطاب الثواء ، ، رقّ هواء ، وأخرج الغصن ينظف رأسه ماء ، ورویٰ عن روح وريحان أحاديث وأنباء .

ومزهر يدير عن وصف محاسنه ابن مقبل ، وينساب نهره فيعجز عن وصف حصاه آبن جندل ،[498] ريان تهيله الأنهار العميمة الحياء ، وأخرج أزهاره البديعة الرواء ، وأشبه زيادة فهو يفخر ببني ماء السماء .

وكان عثمان بن علي قد آختصّ من تلك الجنّات بأوسعها جناباً ، وأكرمها

---

(495) كذا في الأصل لعلّه يقصد بها الفناء .

(496) قلادة من قرنفل ونحوه .

(497) كذا في الأصل ولعلّه يقصد به نضجه وتفتحه .

(498) هل يقصد به عامر بن حارثة أم المنذر بن امرىء القيس أم عبادة بن عبد اللّه؟ انظر الزركلي . الأعلام . ج 6 ص 119 .

انتساباً وأبدعها شباباً ، وأحسنها غبّ الغيث قلائد وملاباً .

ولم يزل به جديد الإنس ناعم البال ، جانياً قبل ثمرات الحدائق وثمرات الآمال . متظاهراً بالرباط ، نازعاً فيما يزعم عن الهياط والمياط . مشتداً على لواته الذين غصب أرضهم ، وآنبسط في أرجائها بالبناء فأعظم قبضهم .

وآجتمعت إليه أفاريق من الناس ينقادون لحكمه في الظاهر ، ويأمنون بجواره من معرة الجيوش والعساكر . ويغيرون من موضعهم تلك على الضعفاء ، ويكتسحون أموالهم تحت أذيال الظلماء . حتى إذا ركب عثمان دخلوا في مصاف المرابطين ، وكانوا في أمرهم من المغالطين . ومع ما كان المرابط عثمان أُوتي من البسطة في المال ، ومنح من المكاسب وآتساع الأحوال . فإنه كان لا يقري الضيف إلّا قليلاً ، ولا يقوم بحقوق الاخوان ولو آتّخذوه خليلاً . فقاصده يرحل وهو بالخيبة قمن ، وضيفه ينشد الماء في دار عثمان له ثمن .

وآتّصل حاله على الدعة والأمان ، وجرّ أذيال النعيم بتلك الأوطان . حتى جاهر أخوه يعقوب بن علي بالخلاف ، وأشرف على مساعي غير الأشراف . [(499)] .

فدخل عثمان بن علي معه في الفتنة ، وأخذ بشوب من المحنة . ورأى المنا في المنافي ، وأعمال القوادم في العصيان والخوافي . وترك قصره مقراً لأهل العناد ، وملجأ لعصائب الفساد . وتحقّق أن بقاءه أعظم ضرر لقسنطينة وأحوازها وإغفال أمره فات لا شك في صدورها واعجازها . مع أنه موضع كما ذكرنا مغصوب ، ومكان به الظلم والجور معصوب . فأمر مولانا أيّده اللّه بهدمه ، وصدر عهده الكريم بإذهاب رسمه . وركب حتى قسمت مسافاته على القبائل ، وأسلمت مصانعه البديعة إلى الغوائل ، فتحكمت في تحليل تركيبه المعاول ، ولم يعجب من مبنيه إن غيّرته العوامل .

---

(499) كذا في الأصل .

وآستمرّ العمل على ذلك جلّ زمان ذلك اليوم حتى لصقت أعاليه بالأرض ، وحكمت حروف القوس على مرفوعه بالخفض . ثم عمد الجموع المعروفون بأبادين إلى الجنّات فعمّوا شجرها قطعاً ، وأعدموها أصلاً وفرعاً ، وقرعوا كبد أرضها قرعاً ، وأبقوا بترائب ترابها لذعاً . وخرّت حيطانها إلى الأذقان ، وآنسلّت أرضها من ربقة الغصب والعدوان .

وما رجع الخليفة أيّده اللّه إلى سرادقه(500) الأشرف حتى محيت آثار القصر ، وأثبتت آيات النصر . وسعدت القلوب والنفوس ، ورفعت بآنحطاط تلك المصانع الرؤوس . وفتح أبوابه الفتح ، ونجح القصد وقصد النجح ، والحمد للّه على ذلك حمداً يعظم به المن والمنح .

﴿ فصل ﴾

وبتنا الليلة الموالية لذلك اليوم في سفح الجبل الذي خلص للواته تملكه بعد الاغتصاب ، وآرتفعت عادية من كان بقصره المهدوم من الاعراب . وتملانا النعم التي جلت عن الشرح ، وكان عيشنا الرضي فلا غرو إن سر بليله السفح) .

ولما صدعت زجاجة الصبح ، ورویٰ الأفق من نوره عـن الوضاح ، رحل مولانا أيّده اللّه من تيجمامين فآنتشرت العساكر ذات اليمين وذات الشمال ، واستباحت ما كان للمفسدين من القلاع بتلك الجبال ، وعظم نيلها من أهل السفه والضلال . إلى أن انتهىٰ الركاب العلي إلى قصر باينة فنزلت المحلات المنصورة بأرجائه ، وحطت ركائب الفناء بفنائه ، وأوردت سؤال النقض لكن على بنائه .

وهذا القصر بناه سعيد بن موسىٰ بن أحمد الرياحي حرصاً على الادخار ، واعتمالاً في الضرر والاصرار . وكان سعيد هذا ممن وصل سبب الفساد

---

(500) كذا في الأصل .

بسببه ، وتظاهر بالرباط فكان لكن لمن ظفر به .

فأمر مولانا أيّده اللّه أن يلحق قصره بقصر آبن عمّه ، ويتناول بالهدم المسيء لأهل ثمه ورمه . فآقتحمت القبائل مسافاته ، ونهدت معتملة في محو سماته .

وركب الخليفة المتوكّل أيّده اللّه في مواكب من جيوشه المظفرة وسار إلى مدينة لميس فنظر إلى آثار مصانعها التي كانت أعجوبة الليالي والأيام ، وشاهد بقايا معالمها التي خربتها سيوف الإسلام . وطاف بقبّتها العظمىٰ المبنية بالحجارة المنحوتة ، الموصوفة بإتقان الصنعة المنعوتة . المزدانة بمنقوش التصاوير ، المضمنة جوانبها ببدائع الأساطير . المرتفعة حيطانها في الجو المنخرق المحفوفة بالأساطين التي هي من أعظم ما يرىٰ في المغرب والمشرق . الفارجة عن بلاطات متّصلة بساحتها الكبرىٰ ، القائمة على السواري التي تره[501] الأبصار عنها حسرىٰ .

إلى غير ذلك من المصانع التي آشتملت بملاءة الإبداع ، وذهبت حيث شاءت من محاسن الاختراع . وشهدت بما كان لقاطنيها من طول الاعمار ، وجلالة الأقدار ، وعظيم الأيد والاقتدار ، وما أثلوه من الملك العزيز الأنصار ، والنعم التي أستدرُّوا ثجاجها من معصرات الاعصار . حتى استرجع الدهر منهم هبّاته واستردّها ، وفرق جموعهم التي استجاشها بأسهم واستمدّها . ونقلهم من القصور إلى القبور ، وأودعهم بظلمات اللحود إلى يوم النشور . وأسلمهم لحومهم للدود ، وأصارهم عدماً بعد الوجود . وجعل أخبارهم منبئة عن آثارهم ، وآثارهم معربة عن اغتباطهم بالدنيا واغترارهم ، طالت ـ واللّه ـ آمالهم ، فصرفت إلى ما لا ينفع أعمالهم ، وكثر في المباهات استرسالهم ، فكانت لغير ذات الحزم أقوالهم وأفعالهم .

فالربوع تندبهم بصداها ، وتشفق من أحوالهم التي طال في التفريط

---

(501) كذا في الأصل وره ورها .

مداها ، والسحب تبكي رحمة لهم بأعين حياها ، والأزهار ترق لطول عناهم الذي شجاها .

أمّا أنّهم قدموا على ما قدموا ، ووجدوا ما عملوا حاضراً فندموا ، وأحبّوا العاجلة والآخرة خير لو علموا ، ولو سعوا لها سعيها ما حرموا ، ولو كانوا في الدنيا كعابر سبيل لسلموا . فإنا للّه وإنا إليه راجعون ، واللّه يجعلنا ممن يطيعون ويطاوعون ، ويسابقون إلى مغفرة من ربّهم ويسارعون بمنّه ويمنه .

رجع الحديث :

فآعتبر مولانا أيّده اللّه في تلك الآثار ، البادية في تلك الأحجار إلى اللسان العربي الذي هو لسان أهل الجنّة دار القرار ، فوجد فيها ذرءاً[502] من التعريفات والاخبار ، وبعض الحكم التي يستحسنها أولو البصائر والأبصار .

ولما قضىٰ أيّده اللّه في مشاهدة تلك الرسوم البلاقع[503] غرضة ، وشكر اللّه تعالىٰ على نعمه العميمة شكراً أدّىٰ مفترضه . عطف على القصور التي اعتادها المعتدون ، والقلاع التي شيّدها بلميس العرب المفسدون ، وبنوها ضراراً بالأوطان التي في اقتحامها يجهدون ، ولتخريب عمارتها يصعدون ، ولشن الغارات على صعفاتها ينهدون . كأبي دينار سليمان بن علي بن أحمد الذي عدم عزاً ، ولم يجد لشفرته محزاً .[504] وكدم في غير مكدم ، وندم ولات ساعة مندم . وأصبح أشأم على قومه من قاشر ، وأعدىٰ من جرير على نمير بن عامر .

وقد كان الجو خلاله وأحدث بلميس عمراناً ، وديدنها أن لا تترك بذات بطائحها سكاناً . فلما نزل مولانا أيّده اللّه بساحاتها معملاً قصداً ناجحاً ، وعرج على مساربها كاسباً بالنيـل من أعداء اللّه عمـلاً صالحـاً . آرتفع التلبيس ، وعادت إلى عزّها لميس ، وعم بآيحاش تلك البقاع التأنيس .

---

(502) قليلاً من .

(503) كذا في الأصل المندثرة .

(504) موضع القطع .

ولسرعان ما صدر الأمر الكريم بإضرام تلك القصور والقلاع نـاراً ، واستئصالها بالانتساف جهاراً ، وجمع الأيدي على هدمها امتعاضاً للدِّين وانتصاراً وما سار الركاب العلي عن تلك الأقطار ، حتى تبوأ كل قصر مقعده من النار . وحسرت لأهله الحسرة عن ذراعها ، وكشفت لهم الخطوب المقنعة عن قناعها . فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ، وتلك ربوعهم دارسة بما اجترحوا واجترموا . ووراء ذلك إن شاء اللّٰه أيّام ترمي جلّة الأعداء بالخطب الجُلل ، وتتركهم وقد سالت بهم أودية الأسل ، وغشيهم من المنايا موج كالظلل .

وبات مولانا أيّده اللّٰه بباتنة مكتمل السعود ، شاملاً في الدياجي الجون بالجود . فلما اشتعل رأس الليل شيباً ، وبان الصبح فلم يدع شكاً ولا ريباً . وطلعت شمس الأفق على شموس المعالي ، وأضـاءت الآفاق المهتـوكة بأطراف العوالي . وقع الإيعاز الكريم بالإقامة سحابة ذلك اليوم الأغر ، وإراحة الخيل والركاب بذلك المنزل الأسعد والمقرّ .

وأمر بتعفية ما بقي من رسوم القصور اللميسيّة ، والقلاع التي عطفت عليها وجوه الخيول الوجيهية . فتحكمت الفؤوس في أساسها ، ومحيت محو الخطوط من أطراسها . وجد في استئصالها اليوم والأمس ، وميّز من حدودها الرسم والجنس ، وسلّط على أهلها الطرد وعلى آمالهم العكس . وأمست تعول من آلام المعاول ، ملحقة أعاليها بالأسافل . لا يلم بها بعد ذلك إلاّ الضبع والسرحان ، ولا تغمر ساحاتها إلاّ النسور القشاعم والعقبان . بارزة بعد رياح لمهب الرياح ، مسلمة حماها للاستيفاء والاستباح . كأنّما كانت ظلالاً فتقلّصت ، وأوهاماً في أذهان الأيام والليالي فتخلصت ، وشكوكاً أحاط بها التأمّل والاستدلال فآنزاحت ، وشبها أنست من وحشتها البراهين القطعية وأراحت . وكأنّما سواد حبّاتها التي كانت تعبق ، ظلام محاه الصبح المشرق الأشرق ، أو خيالات ظهرت لأعينها لما آنصبّ فيها الماء الأزرق .

رجع الحديث :

وركب مولانا أيّده اللّٰه إلى قصر باتنه فضرب له هنالك خباء ، وأعظم لتلك البقعة حباء ، وانتشرت من بشره وبشائره فيها أضواء .

وأمر أيّده اللّه على ذلك القصر فعفيت آثاره ، وبشرت من مهرق المعمور أسطاره وكأنّما كانت أسسه أسواراً ففضحت أسراره . وأضحىٰ برجه وليس بوتد لكن مقرّاً للأوتاد ، ونظر إليه عداوة الدراري . لكن من عوامل الصعاد . وأمسىٰ خلاء ، وأنسىٰ(505) أن أهله احتملوا جلاء ، وتغيرت أحواله فمارق هوىٰ ولا راق هواء ، وانطمست أضواؤه فما أظهر غناً(506) ولا أسمع غناء .

هذا وكم سر به الداني من سكّانه والقاصي ، وأعجبهم عصيان سعيد الذي أشبه أباه الذميم النواصي ، فأنشدوا لفراقه النخل فالقصر ولا غرو وهو قصر سعيد بن العاصي ، ورضي اللّه عن والد عمرو الأشدق فلقد أخذ من أمثال هذا الشقي بالنواصي ، وكان لمولانا أيّده اللّه ربيع جود للمناصر وصيف باس للمناصي .

ذكر الوصول إلى القنطرة :
وما كان من عصوف الريح المنكرة :

ولما حللنا في حضيض جبل أوراس ، وأصبنا من حصون الأعداء المعتدين من كل وجه أو رأس ، وخرجت رماحنا فولجنا فالخوارج كل عزيز وبالجوارح كل كناس . وكان لمولانا أيّده اللّه الظهور الذي عضد نصره بقياس . لم ننشب أن انحدرنا إلى أحواز القنطرة فأقمنا بها الأبنية ، وضربنا بالآكام المشرفة على الوادي الأخبية .

وذلك على أثر غيث استلج في الهملان ، وناء بكلكله على السباسب والعيطان ، وحب أسنمت الهضاب بالدومان(507) . وعالي بالوادي سيلاً أوسع الصخرة الصيخود ركضاً ، وكاد يشبه النار الحامية فيأكل بعضه بعضاً .

فلما بثّ الليل على كافور الأرض مسكه ، وألقىٰ على المنزل العميم

---

(505) كذا في الأصل .

(506) كذا في الأصل .

(507) كذا في الأصل .

البركات بركه ، ونظم من درر الدراري[508] عقده النفيس وسلكه . لم يرعنا إلاّ عصوف الريح الصرصر شيعة الانبراء ، مالئة ما بين الأرض والسماء ، فاضة أسداد الفضاء ، خارقة لمدارع الظلماء . مذكرة الريح العقيم ، وعاد عهدها القديم .

واشتد بلاؤها حتى رمت بالأخبية والخيام ، وكرت على الفساطيط القائمة كأعلىٰ الأعلام . ورفعت الأثواب وما خفّ من الأثاث ، وانبعثت لنقلها من مكان إلى مكان أشد الانبعاث . ورمت بمسافات أفراق السعيد إلى الأرض ، وأدخلت على أحزانه ما شاءت من السلم والبرم والقبض . وأهطع قومة الأخبية ، والموكلون بحفظ تلك الأنـدية . وثبتت أقـدامهم والريـح تكاد تصرعهم ، ومن تلك المواقف الشريفة ترفعهم . ولم يكن إلاّ أن جمعوا أيديهم على الإمساك بأسباب الأخبية السلطانية ، والأخذ بأطناب المضارب الإمامية . فكان بقاؤها كرامة لساكنها الذي أقرض اللّه قرضاً حسناً ، وأحيـىٰ للفرائض والسنن سنناً ، وسهر وعيون رعاياه قد ملئت وسناً وسناً ، ودعا اللّه تعالىٰ فقبل دعاءه الصادق سرّاً وعلناً .

وأما ما جاورها من أخبية الخواص ، وخيامهم المحكمة الاصطفاف والتراص ، فإنها آنهدمت لأول عصوف الريح ، وبرح بها الانكشاف أوحىٰ التبريح .

ولم يزل الأمر مهولاً ، ونطاق الصبر محلولاً . حتى تداركنا اللّه بلطفه ، ومنَّ على نفوسنا الضعاف بعطفه . فسكنت سورة تلك الـريح العـاتية ، وعوضت رداها رداء العافية . وأذن الصعود بإقبال السعود ، وأسمعت السلامة تحيّاتها فرفعت الأخبية رؤوسها من السجود . وبتنا بقية ليلتنا تلك معتملين في الحمد للّه تعالىٰ والشكر ، ذاكرين لنعمه الظاهرة والباطنة أجمل الذكر .

فلما كبر الصبح لصلاة صلاته ، ولم يرض عقود النجوم حلياً للباته .

---

(508) نجوم ساطعة .

وخرقت الشمس جيب الأفق ، وتبارت حلبة أنواره لإحراز خصل السبق . ركب مولانا أيّده اللّه في جيوشه ليترك قصر يعقوب بن علي خاوياً على عروشه .

وكان الطريق إليه مسلوكاً تحت القنطرة التي غصت بالسيل ، وولج مدّه وسها ولوج الليل في النهار والنهار في الليل . فلم تقدر الخيل السابحة على النفوذ ، وعد الوصول إليه ضرباً من المستحيل المنبوذ .

فعطف الخليفة أيّده اللّه عنانه سالكاً بأعلىٰ القنطرة ، ناهداً بكتائبه الجرارة إلى تلك المنظرة . فشاهد الوادي عيناً وقد آلتمع ما بين شطيه ، وأمكن خوض عنانه الذي ألقىٰ يديه على منكبيه .

غير أن الانحدار إليه في ثلمة من الرصيف المنسوق بالحجارة ، المنقطع دون الحدائق الرائقة النضارة . فرمىٰ مولانا أيّده اللّه من تلك الثلمة(509) حصانه ، وآرتكب في طلب العُلىٰ خطراً حرسه اللّه منّه وصانه .

ونزلت الجيوش عن خيولها فرمت بها من تلك الثلمة ، وأمنت ببركة إمامها الصالح من الحطمة . وخاضوا جانباً من الوادي ، زاحفين للنيل من الأعادي . وأفضوا إلى قصر بديع ، بل حصن منيع . قد أعمقت حفائره ، وأعليت مظاهره . ونسقت أبراجه ، ووعرت أنهاجه .

واختطّ بإزاء ذلك النهر الذي ارتفعت سواقيه محسباً كل روض لاحت أقماره وغنت قماريه . فلا ترىٰ ببسائطه إلاّ نخيلاً دانية ثمراته ، وزرعاً يعجب الزراع نباته . ومراعي لا همود لأزهارها المرتضعة ثدي الديمة ، ولا عيب في نسيمها إلاّ أنّه يمشي بين الرياض بالنميمة .

وكان يعقوب بن علي قد قصر على هذا القصر هواه ، وأسكن به صهره علياً بن الحكيم وكرم به مثواه . وأمر بتشييده على ربة حجابه ، وأقرّ جنب

(509) خلل في جدار القنطرة .

أماله على جنابه . وجعله مستودع ذخائره ، وأحلّه من الغبطة محل السر من خواطره .

فلما نزع يده من طاعة الخليفة وحظر عليه الوصول إلى الحضرة العالية المنيفة . ظن أن ذلك القصر ينجيه من جيوش بني مرين ، وأنّهم لن تصل أسدهم منه إلى عرين . فترك به ما عزَّ عليه وآستنام إلى كفاية صهره المذكور واستند إليه .

فلما قارب مولانا أيّده اللّه القصر بالمنازل وطمت عساكره على الأطم والمعاقل . علم ابن الحكيم ما لم يكن يعلم ، وأيقن بالتي هي أدهىٰ وأعظم . فوادع مسكنه وداع الأبد ، وفارق القصر مفارقة الروح للجسد . ولحق بالعرب المصحرين ، وكان لروعه من المظهرين ، ولبقاء روعه من المشركين .

رجع الحديث :

فأمر مولانا أيّده اللّه بهدم ذلك القصر المشيد ، والحصن الذي ألقىٰ إليه بالإقليد . فقطعت أواصر أسواره ، وتناهت القبائل في محو آثاره . وتنوولت بالتخريب ماثلات دياره . وصرعت جدرانه صرع الأقران ، وكتبت حيطانه إلى الأذان . وتردد الاستئصال لسواده ، وآستوسع الفتك بأغواره وأنجاده . ووطىء بالانتساف وطأً متثاقلاً ، وآتّخذ الحطم بأرجائه مدىً متطاولاً .

وشيع مثل الانقعار على نخيله ، وتحكّم القطع الذي قعد الشقي بسبيله . وأحيط بثمره ، وشجر الاصطلام بين شجره .

وبسته جبال أبراجه أعظم البس ، وأطرد شغل غبارها فكان ضرب الأس . وسقىٰ قاعاً صفصفاً ، لا يجد الاعتبار عنه مصرفاً .

إلّا أنّه بقيت بأرجائه نخيلات ضاق وقت النهار عن قطعها ، وولت الجيوش قبل أن تصدع الآراء بصدعها .

وبتنا بمنزل القنطرة في سرور جلب بالساعد الأسد ، وفرح أمتع بالمرعىٰ الأنف والمنهل العد . فلما سل الصبح سيفه من غمد الدياجي ، وفضح سر البقعة المعطار نسيمها المناجي . أمر مولانا أيّده اللّٰه بالرحيل ، وأوعز بأعمال الوخد والذميل . ووجه وزيره الشهير الغناء الشيخ أبا علي الحسن بن عمر الفودودي في خلق كثير استنهضوا لقطع ما بقي بقصر القنطرة من ذوات الظلال ، والانحاء على بواسقها بالاستئصال . وتعفية كل قائم له في الروض استصلاح ، وناعم سدبت أصوله لما بصرت فروعه رباح .

وما شوهد طفل ذلك اليوم حتى عدم الشجر والنجم ، ومحي الأثر وأذهب الرسم . وقيل هنا كان القصر وسواده ، وعدد الشقي وأعداده ، لكن البغي أورىٰ له زناده ، وكفر النعمة صدقت له أشهاده ، فأصبح وقد عاد حتى هجوعه ورقاده ، ورمىٰ به الجلاء مرماه البعيدة آماده ، ولفظته إلى الخطوب المدلهمة أغواره وأنجاده ، فأنصدع صدع الزجاجة التي لا ترجو جبوراً(509ب) فؤاده ،(510) التي كادت تفهمها صهيلاً جياده ، وتخطها في مهارق الصعيد صعاده ، ونيطت به اللائمة التي لا يُتاح عنها جياده ، ولا يميط عنه عارها وهو ما هو كياده .

وهكذا عوائد اللّٰه سبحانه مع مولانا الصادق جهاده ، في كل مناف ظهر فساده ، ومناص مناصب وضح عناده أدام اللّٰه لمقامه النصر الذي يكرم أسناوه(511) ويصح إسناده ، ومنحه الفتح الذي تحمد بمنعه ومرائه ، ،(512) وخصّه بتوالي السعد الذي يرضي مقاله ويملك مقاده بمنّه ويمنه .

﴿ فصل ﴾

وكان نزول مولانا أيّده اللّٰه يوم الخميس المذكور بغربيه المسرور بأهل الغرب، الذي كان يحييهم بالسنة بسيمه الرطب ، ويميل رؤوس نخيله لتقبّل

---

(510) كلام غير واضح .

(511) كذا في الأصل وقد يفهم أسناؤه .

(512) كلمة غير واضحة .

أقدام الماشي بذلك الترب.

وكان يوماً التظت جمرات هجيره، وسأله القيظ عن قبيله وقطميره. وحميٰ جوه حتى قيد النسيم آخذاً، وكاد يسقط الطائر فوق الرؤوس حنيذاً. وشنع تأثيره في الخائضين بحر سرابه، وعظم أسراره بكل أشعث أغبر سرىٰ به حتى عصب الأفواه، وحيل بين المرء ومناه.

وكادت الأصوات تنقطع، والقلوب إلى الحناجر ترتفع. وطال قصير الوقت، وقالت النفس لضلوعها «أحرورية أنت»؟، وتوقع للمصابرين الموت وخيف من شدّة العطش الموت.

فاضطرّ الناس إلى الإفطار، وتبريد الضلوع الحرار، وإحياء النفوس التي توارت بالأوار. إلاّ مولانا أيّده اللّه فإنّه أقام مصابِراً العطش الفادح، مغتنماً حسن المثوبة على ذلك العمل الصالح. وكذلك فعل في كل يوم من أيّام ذلك الشهر تكميلاً لفضل صيامه المتكفّل بعظيم الأجر، ولم يأت بعدة أخر كسائر السفر.

وأقام رمضان إيماناً واحتساباً، وفتح لأنواع العبادات أبواباً. وبذ الناس صبراً، وملكهم أشرح صدراً، وأحسبهم خبراً وخبراً. زاده اللّه من فضله الذي يذهب أزلاً ويشد أزراً، وأمضىٰ له في رقاب الأعادي نصلاً وضاعف به نصراً وأحمد آراءه قدحاً وأعلىٰ ذكره قدراً.

ذكر الركوب إلى الجريد،،،،،[513]:
القصر المشيد:

وأقمنا تلك الليلة بمنزل،،[513] ندهق كؤوس السرور إلى اصبارها، ونستكشف المسرّات عن بدائع أسمارها. ونصف وجاه السعود، الذي بدا وبيض الطيب برأسه. وطلعت الشمس بنورها الرائق، ووجد شرح أحاديثها

---

(513) كلمة غير واضحة.

بالمشارق .

فركب مولانا أيّده اللّه إلى الوطاية الشهيرة المزارع ، المنسابة المذانب المفعمة المشارع . وآعتام بخيله ورجله الحصن المعروف بالجديد الذي اشتمل بالخصب ، وراقت جوانبه بالحدائق الغلب . والغلّات التي غلت أيدي المحل والجدب ، واستوجب حكم الحب ، بكرم الحب ، والفاكهة والأب ، وطيب المنسم والمهب .

وهذا الحصن كان قرّة عين ليعقوب بن علي ، وأعظم ذخر لوالٍ له وولي ، ومنه كانت أقواته المرغدة ، ومراقده المسعفة المسعدة . ومرافقه المنتخبة المنجدة . وبجراية مياهه عظمت جرايته ، وبرعي حميمه كرمت رعايته . وبأتاوته أطاعت العرب الجهلاء . وبحسنات سواده كانت له على قومه اليد البيضاء .

فهو بنعيمه، ، ،[515] مسرور فالطويل من مساحته، ، ،[514] يمسّه الشافعي فلا عمل له إلّا على الجديد . حتى أراد اللّه بشقاوته فضل ، وطمع في التي لا ثوىٰ لها فذل .

رجع الحديث :

فأمر مولانا أيّده اللّه بهدمه وإعدامه ، وأوعز بنسخ أحكام أحكامه ، ومحو سرور أسواره ، وتقطير المواثل[515]من أقطاره ، وإلصاق الخسف بدياره ، واثمار الاستقصاء لآثاره .

فتقسّمت الجيوش مسافاته الراكبة صهوات الأرض ، وتوزعت جنباته التي حكم على نية بقائها بالرفض . فآندفعت الهدمة لنقضه ، وفضت بعضه على بعضه . وغصبت البث بمحاسنه المبثوثة وصيرت أبراجه قطميراً للسنبلة لكن المحروثة .

---

(514) بياض .

(515) ماثلة سارة أو ما ذهب من الرسوم أثره .

ورمت أعضاءه بتفريق الاتصال ، وصيّرت جرحه أرغب من أن يندمل بعض الاندمال ، وأسقطت عليه أهوىٰ الأهوال ، وفتت منه في أكفىٰ الأكفال . وأعدمت حفائرها المعمّقة ظهوراً ، وردمتها بسائر الأسوار فكأنّما كانت لها قبوراً .

وأحاطت النيران بخشب السقف فضمّتها ضمّاً ، وأكلتها أكلًا لمّاً . ورمت بدخانها فألبست جوها حداداً ، وهرقته على قرطاس الأرض حتى خلناه مداداً . وذهب العين والاثر ، وشكيت العجز والتجر ، وبقيت تلك المواضع عبرة لمن اعتبر ، ومستطلع عجائب لمن أذكر .

وهكذا اليمين الفاجرة تدر الديار بلاقع[516] حسبما أنبأ به سيّد البشر ، ﷺ وأخبر . والبغي مرضعه وخيم ، والعدوان موقفه ذميم ، وكفران الصنيعة لوم ، وأم النكث أنوم حطوم ، ولله بخلفائه عناية تدوم ، وما هو إلّا النصر فلا صادّ عمّا يروم ، وإن ربّك لبالمرصاد فأين يذهب الباغي الظلوم؟ .

رجع الحديث :

ولما اشتغلت القبائل بالهدم ، واعتمدت المياه بالردع والحفائر بالردم . أمر الخليفة المتوكّل أيّده الله بأن يضرب له خباء بأحد البساتين ، حيث الطير كيحيىٰ بن أكثم دفين في الرياحين .

لم ينشب أيّده الله وأمر أن تقطع النخيل التي قامت على رؤوس الرياض فكأنّها ملوك ، وتحلّت بأنداء السحائب فكأنّها أجياد وتلك الأنداء ملوك . فكشفت عن سوقها لوافد النسيم ، ورانت الجديد حتى بعرجونها القديم . وروت من جدوعها عن رافع ، ومن عناقيدها عن جامع ، ومن ثمرها الذي أينع عن نافع .

إلى غيرها من الشجرات التي آتّسقت بكل منبت ممطور ، وأتت أغصانها

---

(516) بلقعة أرض قفراء

باللحن والعجب أنها آخذة عن آبن عصفور .[517] فلم يكن بأسرع من خرور النخل بكل مكان ، وتراميها عن شمائل وأيمان . وآعترضت الطرق التي غشيتها الهزاهز ، فظلّت على حيطانها محمولة كأنّها الجنائز . ومنها ما آستقرّ بأقصىٰ حضيض ، وسدّ الطريق مخضرة كأنّه آبن بيض .

وأمّا سوىٰ النخل من الشجرات فلم تقنع السيوف بأجفاء شوارب غصونها ، ورمي أفنانها التي آغتدت وهي المفروضة بمسنونها . حتى أسلمت أصولها لكل ذي هراوة ماضي الشبا[518] وقامت دونها رجال زاحفة زحف الدبىٰ ،[519] ماحقة آثارها محق الربا .

وآتّصل العمل على بقية ذلك اليوم حتى تقلّص كل ظل ، وسرجت القلاص من حرم تلك الأماكن في حل ، وغلت أيدي المنافقين على المؤمنين الذين نزع ما في صدورهم من غل ، وظلت دماء المارقين بعزائم ملك على معاقلهم مطل ، وإمام من ميقات النصر بقطع دابرهم مهل ، وخليفة صالح لدين للّه معزّ وللكفر مذلّ .

ذكر هدم فلق وتعليق هامته :
وضم يد القهر للقسر على إضمامته :

وهذا الحصن كان من حصون العرب التي نحىٰ[520] إليهم ضرابها ، وقصورهم الشامخة التي تحمي بالطعان والضراب جوانبها . وكان عالي البناء ، ذاهباً كل مذهب في الإباء . متناسق الأسوار ، مستوسع بمجاثم الجدار .

قد عمقت حفائره قدر ما رفعت أبراجه ، وضيقت موالجه قدر ما وسعت

---

(517) لعلّه يقصد ابن عصفور الاشبيلي (587-646) النحوي الشهير .
(518) ما يقطع به .
(519) ملـ‍صغر من الجراد ونحوه .
(520) كذا في الأصل .

مجاجه . وآستوىٰ أحسن ما أستوىٰ معقل أشب ، ومعتصر على أهل عصره حدب . وآحتوىٰ على دور حسنت بها المواقف والمرافق ، ولزمت أياديها الاسباع فلم تخرج يمنها المرافق .

وآستقرّ بها خدّام العرب كل خبير خبيث ، مغير غير مغيث . معل للمطالع مطامح ، نذل لا يعرف الفواضل لكن الفواضح . إذا أخطأ[521] خطأ ، وإذا حلا الورد حلا .

من كل واصل لذميل ذميم ، كريه غير كريم ، عادل دون لام عاصم دون ميم . فكان عرينه بهم في ضيم وضير ، لا ينفعه بذل سيب لذي سير ، ولا يجديه إخفاء عيب لشبيه نمير . إلى أن أراح اللّه من مضرّته ، وألهم خليفته لإذهاب معرّته .

فلما ركب مولانا أيّده اللّه تعالىٰ لاستئصال الجديد[522] ، مستظهراً بالعزم العتيد . وجه بطائفة من أهل محلاته ، وأوعز لهم بهدم فلق وإراحة علاته . فما أمسىٰ مساء ذلك اليوم إلاّ وقد عفىٰ الأنساف أساريره ، وطوىٰ طواميره ، ومحا محاديره ، وأصار حضيضاً مراقيه ومراقبه ، وفرىٰ فرائضه وكوىٰ كواثبه .[523] وغير منه ربعاً قرىٰ قرائبه وحبا حبائبه .

وبقي ملاعب للضبع الضابحة ، والسراحين السارحة ، والرياح المتناوحة . ولم يبقَ من معانيه إلاّ رسوم كخط زبور في مصاحف . وباقي الوشم في ظواهر أيد عواطف ، وسوافع جثم لا تغرف المصارف .

---

(521) كذا في الأصل .

(522) كذا في الأصل .

(523) كثب التراب نثره ، والكاثبة مؤنّث الكاثب من الفرس : أعلىٰ الظهر كما في القاموس .

ذكر الوصول إلى بسكرة :
قاعدة الزاب :

وما نال رئيسها الشيخ أبو يعقوب بن مزني من الآمال الرغاب .

كان وصول الركاب العلي إلى ظاهر بسكرة وحلّه الخليفة أيّده الله في التعبئة الحافلة ، والشارة الفخمة الكاملة .

وخرج أهل بسكرة للقائه محتفلين في بروزهم المستتم لبهائه ، مستوعبين أصحارهم في المستبلغ في احتفائه . وأتوا كأحسن ما أتت رعية إمامها ، وسلمت طبقاتهم كأفضل ما أسمعت سلامها . وأظهروا الطاعة التي نجوا بها من الهلكة ، والخدمة التي حفظت نظام الملكة .

واستظهروا بالمحبّة التي رأت أحسن رأيها ، والمشايعة التي ركبت سنن هديها . وجاهروا بالسرور الذي اطمأنّت في كنفه الآمال ، وأشاعوا الابتهاج الذي حليت بنفائسه الأحوال . واستجذلوا بالقدوم الذي أحمد صفقة الأماني ، والوفادة التي راقت أهبّتها أعين التهاني . وتوافوا مطلقين ألسنتهم بالثناء ، وتلاحقوا معملين الشكر المأثور الأنباء . ودهشوا لهول ما عاينوه من فخامة الملك ، ونخبة اقتدتهم استعظاماً للجيوش الحاطمة بلاد الشرك ، الملقية كلاكلها على أهل الضلال والإفك .

ووقفوا الأبصار على ما أظل الأرض من الألوية والبنود ، وحلىٰ الجياد المختالة في أعنّتها تحت أولي الجود . وردف تلك المناظر وصول الساجحات بالبوجات المغشاة بالحلل الصافية الديباج ، والقباب التي جرت أهذاب الحرير في تلك الأباطح والفجاج ، والأحداج التي رمى رائق استبرقها بنوره الوهّاج .

ونظروا إلى الراغيات تمشي وئيداً بخلائل الذهب والفضّة ، والقلائد التي قصرت أكاليلها بأزهار الروضة الغضّة . سادة الجو بالهوادج المثقلة برودها بالعسجد واللجين ، حاكماً تحن ورودها على الأعداء الخائنين بالحين .

وفي الحين قامت الأبنية آخذة بمفارج الجو ، وانتسقت الأخبية المتلاحقة مشرفة على تلك التلاع الحو .[524] وارتفعت أعمدة الخيام ، وضربت الفساطيط المستتبة الانتظام .

ونصب أفراج السعيد أمام روض آبن داوس الذي سكنه الخليفة ، وشرفه التشريف الذي علت رتبته المنيفة . وأخذت أخبية الخواص مقاعدها التي اقتضاها القرب ، وعادت تلك الجنبات وكأنّها نسقت بها الدراري والشهب ، وتفتحت بجوها الأزهار كما سحبت به أذيالها السحب ، وقامت قيامة الأعداء المفسدين ولا غرو فقد أطلع شمسه الغرب ، وتكاملت السعود فلم يخطب قربها الخطب ، وعمّت البشائر التي أسدت حرائبها الحرب ، وأطردت الفتوحات فجمعت الكتائب وفرقت الكتب .[525] .

وآزدهف[526] عقول أهل بسكرة الإعجاب بما شاهدوه ، وعمّت الأمنة كل موطن نازلوا به عسكر الاعراب وجالدوه ، واستقبلوا نعماً هامية وسعادة باقية ونالوا بمقاطعة الفئة الساخطة عيشة راضية وصلحت أحوالهم صلاحاً لا تزال أحكامه إن شاء اللّه ماضية .

﴿ فصل ﴾

وكان رئيسهم الشيخ أبو يعقوب يوسف بن منصور آبن الفضل بن مزني ممن آنقطع إلى الدولة المرينية ، وهاجر قبل فتح أفريقية لحضرتها العليّة . وكتب بيعة بلده لمولانا المرحوم،[527] ونزع عن طاعة الأمر المخذول المذموم .

ولجأ إلى الأمر العزيز . وتبوأ من متابث[527] بابه الحرز الحريز ، وتملىٰ

(524) حوة سواد الخضرة أو الحمرة إلى السواد ج حو .

(525) هل يقصد بها المصاحف؟ .

(526) أصابه علل وهلاك ـ استولىٰ هنا .

(527) يقصد أبا الحسن والد أبي عنان .

(527) كذا في الأصل .

من نعم مولانا أمير المسلمين رحمه اللّه ما ساغ ، ولم يوقت له جوده إلاّ الإسباغ ، ووفّقه اللّه للخير فما طغىٰ بصر بصيرته ولا زاغ .

ورحل معه إلى أفريقية حتى أخذ بعنانها ، وأشخص جيوشه المقيمة ميل أوطانها ، فألوت بعمر عمر سلطانها ، ومالت على أحزابه بضرابها وطعانها .

وتملّك مولانا أمير المسلمين تونس المهيبة بعدله . واستوثق له ملكها الذي سلمته لاحق به وأهله .

ومن هنا آنصرف الشيخ أبو يعقوب إلى بسكرة بلده ، مخصوصاً بالاعتناء الذي لا غاية لأمده . وأقام هنالك معتملاً في ضم المجاني الزائية ، قواماً على استيفاء الاتاوة الريعية .

فلما استقلّ المولىٰ أبوعمر تاشفين من نكبته ، وأقصر سيف سعوده عن نبوته . واستقدم إلى أفريقية ممنوحاً رضا خير الاباء ، وأوعز إلى مّال المغرب بآصحاب ركابه إيعاز الاعتناء . كان آبن مزني ممن لقيه بقسنطينة قادماً بهديته التي أوطاها نهج الاحتفال ، وما جباه من المال الذي كان غير محتقر في جنب تلك الأعمال .

وهنالك عصفت ريح الفتنة ، وانقضت أيّام الهدنة . وبلغت المولىٰ أبا عمر كائنة أفريقية التي قطعت دون الآمال ، ومتت في أعضاد الرجال . وتركت الذباب مستنسراً ، والويل مستبحراً ، وأعادت الورد مستكدراً ، والخطب مشتهراً . وجرت إلى الأوطان وقائع أبلىٰ فيها آبن مزني أحسن البلاء ، وسلك في اختلاف أوطارها مسلك الوفاء . وخلص إلى بلده بعد اقتحام الغمار ، وارتكاب الأخطار . ووجود المعاذير عن التقصير ، وآتساع المناديح[528] للتبديل والتغيير .

لكنّه أقام على الطاعة ، وأشاع حبّه وتشيّعه أعظم الإشاعة . وعمل في

---

(528) كذا في الأصل .

تلك الأيام وما بعدها أعمالاً أفردته بحسن الأحدوثة ، وأورثته الشرف المتوكى على زرائبه المبثوثة.

فلما بلغ مولانا بآنقياد الخلافة آماله ، وأتته فلم يك يصلح إلّا لها ولم تك تصلح إلّا له . وأورثه اللّه ملك أبيه بواجب الاستحقاق ، وناط بجيد إمامته طوق الإجماع والاتفاق ، وصدع بها متوكلية فأربىٰ هذا البحر بالغرب على جعفر بالعراق .

ولم ينشب آبن مزني أن وجّه بيعته التي احتاط بها لدينه ، وأعطىٰ بها صفقة يمينه ، وأتىٰ بابه الكريم فروىٰ حديث الجود عن بن معينه ، وشاهد نور الجبين الأشرف ففارقه والنور فوق جبينه .

ولم يزل مكتنفاً الخدم والنصائح ، مستكملاً ذلك العمل الصالح ، مستبلغاً في ملاحظة الموارد والمصادر ، يقظ الفؤاد في اجتناب النواهي وامتثال الأوامر . حتى تناهت به مراقي الخصوصيّة ، وأحمدته ما توافىٰ لديه من خصال الرجولية . واستحثّته السعادة إلى نيل مقاسمها السنيّة .

وأخذ به الجمد في صعد لا يألوه استساق أمان . ولا يقف به دون غاية في مبذول عزّ وأمان . حتى أجرته العرب أزمّتها ، وأرعته أذمّتها . وكادت الجوزاء توطؤه قمّتها ، واستتب استقلاله بالسياسة المستوسعة نطقها ، والسيرة الشارعة إلى نيل الاستنجاح والاستنصاح طرقها .

واضطلع بما أسجل له عليه ، وسلك الواضحة فيما ألقىٰ مقاده بيديه ، وعرف قدر النعمة المسداة عوداً على بدء إليه . وقام بما قلّد قياماً استحكم مغزاه ، ونهض بأعباء الولاية نهوضاً كرم معتزاه . وأغنىٰ الغناء الذي آقتضاه ممحوض الإخلاص ، ووصل الغاية التي أشار إليها كرم الاختصاص .

ثم لمّا تحرّك مولانا أيّده اللّه إلى قسنطينة شخص إلى بابه ، وأعجل القدوم لهجاً بحلول جنابه ، وأجاد الجز في آرائه وطبّق الفصل في الاستظهار بمضائه . فآتّسع نيل مراده . ورأىٰ القبول المديم لاستسعاده وغمرته التكرمات

المبذولة ، والتجلّات الموصولة ، والألطاف المأمولة .

ولم يرم مبوأه من الجوار الكريم حتى رجعت قسنطينة عن انتكاث رأيها ، وأجلت عن الفتح الذي بلغ محلّه هدي هديها . وكان ممن يـدعىٰ إلى المفاوضة في أمور العرب ، ويحضر البساط العلي جميد المقترب ثم لم يفارق الركاب الأشرف حتى أفعمت بسائط الزاب العساكر ، وأنخنا ببسكرة مرفوعة إليها النواظر . فأخرج علوفات الجيوش كلّها من مخازن طعامه ، وأبلغ في توسعة الإنزال عملاً على شاكلة همّته واهتمامه . وبذل الخدم التي عضدت السالف بالخالف . وبالغ في النصائح التي جمعت بين التالد والطارف .

فآستحسن مولانا أيّده اللّه تصرّفاته أبلغ الاستحسان ، ورعىٰ له سوابقه التي سارت أخبارها سير الشمس في البلدان . وخلع عليه وعلى ولده الخلع الملوكية الفاخرة ، وكساهم الملابس الحافلة الباهية البـاهرة . وأعـطاهما الخيول السوابق من اللائي أضحت بالوجيه ولاحق لواحق . ذوات الجهازات بالذهب الثقيل الوزن ، والفضّة الخالصة السبك البادية الحسن . المودعة عجائب الصنائع ، المستبلغة حملها ما شاءت من البدائع .

وأمر لنسائه من حلائل ، وبنات جلائل ، بالكسي السابغة الفواضل ، المثقلة بالذهب المشاكة ألوان الأصائل . وأسبغ عليهن المـدارع فائقـة الديباج ، مسوأة بالرقوم المعجبة الاستنتاج . وألحفهن بالأردية المنتخبة من صافي الحرير ، الدمقس المغار الفتل المحكم التقدير ، منخفضة عن المقانع المسهمة ، والوقايات المنجدة المنمنمة ، والذخائر العالية القيم المستعظمة .

وأعطاهن البغلات ذات الجهازات التي يعين فيها الرقم ، واللزم التي كاد يحسدها حلى النجم . مستولية على كمال الزينة ، والمحاسن المكينة ، والمناظر الرائقة المستبينة .

كل ذلك مما أهدته ملوك الروم مختلفة في إهدائها ، وخدمت به باب أمير المؤمنين مستبلغة استجذابها . ومما صنع للخليفة أيّده اللّه بديار الصنائع

ببلاده ، وأبدعه مماليكه(529) الذين استبقوا شأو استعداده .

وعقد أيّده اللّه للشيخ أبي يعقوب على الزاب ، مطلقة يده في التصرّفات المحمودة الاستتباب وألبسه رداء العزّ فضفاضاً ، ولم يأله استحثاثاً إلى نيل الرتب واستنهاضاً . وجزاه على ما أسلف خير جزاء ، وأحمد عواقبه إحماداً استولىٰ على بهاء . وأبان عن مكانته في خلصاء الدولة التي استكفت بهم أحسن استكفاء ، وأحسن رأيه فيه إحساناً أقبله كل نهج سواء ، وألبسه من التكريم الحاضر الملاء(530) أسبغ ملاء .

﴿ فصل ﴾

وكان عبد الرحمٰن صاحب طولقة من بلاد الزاب ، قد آغترّ بمؤازرة الاعراب . وأمحضهم النصائح ، ووالىٰ الغادي منهم والرائح ، وأرضىٰ القبائل فأبدىٰ القبائح .

ولم ينشب أن تجافى عن مطاوعة الشيخ أبي يعقوب ومشايعته ، وأنف من الأصحاب جماحاً قطع به عن متابعته . ولم يلاحظ مكان ولايته المسجول لها ، وجهل واجبات الخلافة التي ولت الخدم وجوهها قبلها .

واستنام إلى قصبة طولقة التي اشتهرت في تلك البلاد ، وقبضت المنعة يدها إباء عن الانقياد ، واطمأنّت بها مفاصل فصل الجلاد ، وسنت على مناكبها دروع الاستعداد ، ورمىٰ البغي إليها ببصره النافذ جنوحاً للاعتهاد وأضحت سفعاً للخدّين لكن بنقع الجياد ، موشحة العطفين لكن بالعدد الوافرة الأعداد .

فأهم الشيخ أبا يعقوب شأنّها ، واستدام زمانه الداء زمانها ، وأنبأ عمّا في صحيفتها عنوانها . ولم يزل الشيخ يترصّد انتهاز فرصة في عبد الرحمٰن

(529) غير واضحة .

(530) يقصد به الخير العميم الثروة .

الطولقي وآلتماس سبيل لأخذه الوجي،[531] والقود[532] الرخي . وأقام مغضباً عنه في المسائل ، متحيناً له العلوي[533] بحبائل الغوائل .

فلما أعملت الجيوش المرينية إلى الزاب نهضاً ، وأطفأت نار الفتن التي أكل بعضها بعضاً ، ونبهت عيون الاغماض التي تملأت غمضاً . وهجمت على تلك البلاد ، وتبسطت تلك الجهات اعتمالاً في الجهاد . وأوردت الاعراب أحواض أم قتيم ، وسلكت بتلك الفرق الخارقة شعاب أم غتيم ، ودهمت جموعهم بالـذميم ، وطرقت جنـابهم بآحتفـاء الناد وأم اللهيم ، وحملتهم ما شاءت أن تحمله من الضير والضيم . خاف عبد الرحمن الطولقي من قاصم ظهره ، وإقامة الرعب الذي جثم أي جثوم بصدره ، ووقف به الروع على غايته الموذنة بآنحلال أمره ، وأثقله الرهب بتداعي ركن عزائه وصبره .

ولم ينشب أن وصل إلى الباب الكريم من غير عقد أمان ، ولا إظهار متاب من عدوان ، ولا التماس رضا من الخليفة في إسرار ولا إعلان ، وآعتام المحبّات العالية غير مات[534] بخدمة في حين من الأحيان ، ولا جانح المبذول نصيحة في زمن من الأزمان ، ولا متواف على سياسة فرصة تلبسه مغافر الغفران ، ولا مظهر لسيرة حميدة تحسن أعماله بعض الإحسان .

فعند ذلك أمكن الشيخ أبا يعقوب أن يعرف بأحوال ذلك الفاجر ، وما بقي من معرّة خلافه في الموارد والمصادر . فأمور مولانا أيّده اللّه بالقبض عليه ، وأوعز بضربه فقرّت عين آبـن مزني بالنظر إليه . وكان ذلك من أكبر آماله التي نالها ، وأعظم أمانيه التي جلت السعادة أحوالها .

ولم يزل عبد الرحمٰن المذكور مطالباً بالمال موصـداً عليه في أطباق

---

(531) كذا في الأصل .

(532) كلمة غير واضحة .

(533) كلمة مسح نصفها .

(534) بخدمة .

النكال . ونقل إلى حضرة فاس فلبث في سجنها ، وأخرج وأهله من طولقة الممكنة من حصنها . ورجع أمرها إلى آبن مزني حكماً وجباية ، وجدد له مولانا الخليفة أيّده اللّه بذلك عناية . وسيأتي ذكر الوصول إلى طولقة بالجيوش ، وترك قصبتها المنيعة كالعهن المنفوش . ونورد ذلك في هٰذا الكتاب إن شاء اللّه إيراداً واضح الإعلام ، ونعمل في شأن قصبة تلك الأقاليم قصبة الأقلام ، وشرح أمرها شرحاً تنذمل به كلوم الكلام ، وتنتظم به أكاليل القول أحسن الانتظام .

﴿ فصل ﴾

وتطارح أبو يعقوب بن مزني راغباً في الإقامة ـ على بسكرة ـ أربعة أيّام ، لئلا تكون ليالي الضيافة خداجاً غير تام .

فكان من جملة تشريفه أن أسعفت رغبته ، وقبلت في الخدم المرضية قربته ، وأسعف بطلبه ، الدال على أصالة محبته ، وكمل مراده الذي حمد ما حمد من مغبّته .

ولما أطلّ يوم الجمعة ، وآن أن يثوب بالصلاة ، ويتعيّن السعي إليها بالوقار والاناة . دعا بالمواكب الشريفة لدخول البلد المذكور ، وأشعروا بركوب الخليفة إلى مسجده المعمور . لأداء الصلاة الجامعة ، واغتنام أجورها المتتابعة . فنظمت الطرق بتعبئات[535] الجيوش والكتائب ، وارتصّت الصفوف على حسب المراتب . وانتدبت طبقات الناس للروم الملازم ، وإقامة المراسم ، وأخذوا في شؤون الخدمة المتكفّلة بالمراحم .

وركب نساء البلد السطوح ، وتبوأنها للإشراف على المواكب الصروح . وملأن الطرق عاقدات صفوفهن بممر الخليفة ، ناظرات لأنوار غرّته الشريفة .

فلم يرع أولئك الخلق إلّا ركوب الخليفة مكتنفاً بالزينة الفاخرة ، والشارة

---

(535) كذا في الأصل .

الباهرة ، والمنظر الهائل والأبهة الظاهرة .

وكادت الأرض تميد لكثرة ما غشيها من المقانب ، والجحافل الغاصّة بالأسنة والقواضب . والعساكر التي ملأت الأفق صهيلاً ، والأراعل التي تفيأت للألوية والبنود ظلاً ظليلاً .

ودخل مولانا الخليفة إلى البلد والأصوات مرتفعة بالسلام ، والعقول ذاهلة من هول ذلك المقام . والدعاء مردّد جهاراً ، والثناء متبلّج زهراً ومتأرج أزهاراً ، والشكر متأنّق قدراً ومتألّق أنواراً . وولاء الولاول مبذول ، ومدىٰ المدائح موصول . وفضاء الفضائل مغمور ، ومعان المعالي منظور منضور . وسما السماح لاحوضها منزوح ولابذلها منزور . واقتراب الاقتراح دان ، وابتهال الابتهاج ذو افتنان . وأمان الأماني حاصل ، وتهادي التهاني واصل . وأفراع الأفراح ناعمة ، وأرواح الأرواح ناسمة . وخطور الخطوب معدوم ، والصديق موقوف والعدو موقوم ، وأوطأ الأوطار مسلوك ، وقول القوم الحاسدين متروك . وغيظ الغبطة غير مائل ، والجود سائل لكل سائل ، ولسان السعد قائل لكل قائل . ومحال المحل مرفوع ، والازم والأزل تلك وهذا مدفوع ، والعاصي مصدور والعاسي مصدوع ، والفوز مشروح والبذل مشروع ، والعزّ مزور والخير مزروع ، والحباء ممنوح والاعتداء ممنوع ، وحبل العدل مجدول(536) وأنف الظالم مجدوع .

ولما أدّىٰ مولانا أيّده اللّه المفروضة ، ونال مثاوبها المعروضة . فصل عن المسجد إلى قصر بسكرة فدخل دياره ، وشاهد آثاره ، وزار بما هو أجدىٰ من القطر أقطاره .

وقد كان الشيخ أبو يعقوب رغب منه أيّده اللّه في الدخول إليه ، وعطف موكبه الأعظم عليه ، وكأنّه أراد أن يعرف مولانا أيّده اللّه بقدر ما أنعم عليه به . ووصل سبب الامتنان بسببه فآحتفل في تزيين بيوته بالفرش الآخذة ببهاء

(536) يقصد بذلك متين وثابت .

الحسن والجمال ، واستبلغ في إرسال ستورها البديعة الأعمال ، المنسوجة بالذهب الفائق الكمال . مما كان سوغ له حمله من الفرش التي كرم بها إنزاله لما وصل تلمسان ، وقدم على مولانا الخليفة الذي أحسبه الإحسان ، وغير ذلك مما جلب له من البلدان ، وأثمن في اقتنائه أحسن الأثمان .

فكان جميع ذلك من هبات مولانا الذي ملك القصر وما حواه ، ونهض فلم يبعد عليه مثواه ، ولا طاوع التنائي مأواه . لكنه أيّده اللّه رعىٰ السوابق ، فأحمل اللواحق ، وقلّد المنن الفوائق ، ودفع الخطوب الطوارق . وشكر اللّه على ما أعطاه من فضله ، ثم حاز أجر بذله وتسليمه إيضاحاً لطرق المعروف وسبله ، وقياماً بحقوق الوفاء الذي لا بتّ لرشائه ولا خرق لسجلّه ، وافتناناً في الجود الذي لا إقلاع لمزنه ولا رقو لوبله .

وأبقىٰ لابن مزني بدخول مكانه ، شرفاً لا منكر لعرفانه ، ومجداً لا تطفيف في ميزانه ، وسعداً لا مبارع في برهانه .

ولم يزد أيّده اللّه على أن نظر إلى ذلك القصر ماشياً في أرجائه ، وأبقىٰ به عرفاً يفوق الزهر العاطر غبّ سمائه .

ثم ركب راجعاً من غير الطريق الذي أتىٰ عليه . فعدّ ذلك اليوم يوم عيد ، وعزّز العيدان منه بثالث سعيد . وامتلأت الغابة بالخيول ، وضاقت عن مسالك الحامل المحمول ، فما جمع الناس إلّا صحراء البلد مزدانة بالخليفة الزاكي الأصول ، والإمام البر الوصول ، سيف اللّه المسلول الناصر لدين الرسول ، ﷺ فلا زال خالداً لكن في السعد المأمول ، والملك الذي يقضيه الزمان دينه لكن على الحلول .

﴿ فصل ﴾

وآجتاز مولانا الخليفة أيّده اللّه على وطأة المصلىٰ وهو البستان الأعظم الذي احتفل آبن مزني في غرسه ، ووصل يومه في تفقّده بأمسه ، وجعله مجلبة أنسه ومنية نفسه . وفسح له في العمر حتىٰ أثمرت أشجاره ، وقرّت

عيوناً ببنياتها أنهاره .

فلم ينشب الشيخ أبو يعقوب أن رغب من مولانا الخليفة أيّده اللّه في دخوله ، وقال هذا ملكك فشرّفه بحلوله . وأسعف عبدك بمراده في مراده ، وأرغم بأنافة عزّه أنوف حسّاده .

فدخل أيّده اللّه ذلك الملك الذي لا يصلح إلّا إلى الأملاك ، ولا تشبه مطالع زهر زهره إلّا بالأفلاك . وجال منه أيّده اللّه في أكناف ممتدة الظلال ، طيّبة الفرع والآصال . وحدائق مائلة الأغصان ، قد اختلطت بها ثمرات النخل والتين والرمّان ، وغير ذلك من الثمرات المتفنّنة في الأفنان ، فصارت كأنّها أطباق منظمة بالفواكه المختلفة الألوان ، مقدّمة على بساط النور البهيج لكل مسرور الجنان بالجنان .

فشكر مولانا أيّده اللّه للشيخ أبي يعقوب حسن اختياره ، وأبقىٰ له النعمة التي جددت لبوس استبشاره ، وشرّفه التشريف الذي لا ماحي لفخاره ، وأقرّ عينه بآبقائه(537) على ما كان عليه وإقراره .

فلم يبق للشيخ أمنية إلّا استقصاها تناولاً ، ولا رتبة عزّ إلّا استغشاها تطاولاً . وآخىٰ السعد الذي وقىٰ وقائع الحوادث ، وأربىٰ أرباح الآلاء المواكث . وقلّده أسلىٰ أسلاك الولاية ، وأبدىٰ له أسرىٰ أسرار الرعاية . ولوىٰ لوائح الاستيلاء المخل بالأمور ، وحمىٰ حمائل أيده عن الانهاج والدثور ، ومكّن أرمىٰ أرماحه من صدور أعدائه الصدور . بفضل الخليفة الذي تلفع من المعالي بأثوابها ، وانتدىٰ بمقامات الفضائل فكان أثوىٰ بها ، والإمام الذي جعل المعارف جنىٰ جنانه ، والقراطيس محاسر محاسن بيانه ، والملك الصالح الذي أفلح المقتدي بعلومه والمقتفي لآثاره ، وفاز المجتدي لنداه والمجتلىٰ لأنواره ، وخاب المنازل لجنوده والمنازع لأنصاره ، وأبقاه اللّه في عيش لا مماحق لانداره ، وملك ينعم الحدائق بأنوائه والأحداث بأنواره .

---

(537) في الأصل بإلقائه .

﴿ فصل ﴾

ومن تشريفه لابن مزني واعتنائه ، وإظهاره بظهر الغيب لاحظائه . أنه جلس بظاهر بسكرة مع أهل مجلسه العالي مجيلاً في ميدان المذاكرة ، ناظماً ما شاء من فرائد فوائد المحاضرة .

واستحلّت الحال ذكر بسكرة وهوئها ، وما لقيناه من الجهد في أرجائها . فتقدّم قاضي الجماعة وخطيب الحضرة العلية الحاج أبو عبد اللّه محمد بن أحمد المقري مؤثر الارتجال ، ولم تسمح خواطره إلاّ بهذا البيت المنفرد فقال :

دخلت بـلاد اللّه شـرقـاً ومغـربـاً   فلم تـرَ عيني مثـل بسكـرة يبسـا

فزاد عليه مولانا الخليفة أيّده اللّه أسرع من ارتداد الطرف وأوحىٰ من رجع البصر وهو العطف فقال :

ويـا قبـح مـا أسـود القتام بـوجههـا   فمذ غشي الابصار لم تبصـر الشمسا
فخسـراً وسحقاً لابن هـان لقد غـوىٰ   بمـدح بـلاد الـزاب إذ عـدم الحسا

وأشار مولانا أيّده اللّه إلى ما أنشده لنا من شعر أبي القاسم بن هانـي الأندلسي المتجانف في شنيع مدحه لجعفر عن السنني المرضي كقوله :

خليلي أين الـزاب مني وجعفـر   وجنّـة عـدن بنت عنهـا وكـوثـر؟!

وفي الحين أمرني مولانا أيّده اللّه بالزيادة على ثلاثة الأبيات . وقال لي اذكر آبن مزني فيما تنظمه بأحسن الصفات فهو حسنة هذه البلاد ، وبوجوده أنس الأغوار منها الأنجاد . فقلت مذيلاً ، مؤتمراً للخليفة ممتثلاً :

ولـكن بـه عـبـد لخيـر خـليـفـة   جـواد ينيـل الـرفـد أو يبـذل الانسا
فمهمـا شكت بـاليبس بسكـرة حبـاً   ببعض عـطايا فـارس فـزكت غـرسـا
كـأنّ آبن مزن يخلف المـزن عندمـا   يجـود إمـام لم يـدع هـديـه لبسـا

ومهما عـلا وأسـودّ يـومـاً قتـامهـا فأشبه من أضحىٰ بها حال من أمسىٰ
جـلا عـدل مـولانـا الخليفـة فـارس شموساً هـدت أنوارهـا الجن والإنسا
ومـا تشـرف الأوطـان إلاّ بمن حـوت وما قدر جسم المرء أن يفصل النفسا
وكـل بـلاد الـلّه طـر بـفـارس ستسعـد يومـاً مثل مـا سعـدت أمسـا
وإن بـلاد الـزاب بـعـد حـلولـه بـهـا لحقيـق أن تحـب ولا تنسـا
ولا خسـر عندي بعـدها لابن هـانيء بمـدح لها مـا صافـح القلم الـطرسـا
وإن كـان فيهـا جعفـر جعفـراً فقـد جرت أنمل المولىٰ بها أبحـراً خمسا

ولما كتبت أبياتي هذه في القرطاس ناولته اليد الكريمة التي هي معدن الجود والباس فأبان أيّده اللّه عن عوائده الجميلة في الاستحسان ، وأقبل على قراءتها ضاحك السن فصيح اللسان . ثم قال لي : آطوِ بساط هذا النظم ، وتقدّم لنسخ ذلك الحكم . فذلك أبقىٰ لتطيب نفس آبن مزني ، وأجزل للعارفة التي بلغناه بها كل أمل قصي .

فبادرت إلى الائتمار ، وجعلت الصمت شعار الاشعار ، ووقع الجبر الكامل فلم يسمع الشيخ إلاّ ما سرّه في النفس والأهل والدار . جزىٰ اللّه مولانا على أعماله الفاضلة جزاء المتّقين الأبرار . وجعل ملكه مستمر الدوام دائم الاستمرار ، مارق النسيم في الأسحار ، وأثنت على الغيث ثنايا الأزهار ، وأسمع الظليم عراره بذات العرار .

ذكر الرحيل :

إلى طولقة المتقدِّمة الذِّكر :

وما حاق بفرفر من الحوادث المديمة للحمد والشكر .

وفي اليوم الثاني والعشرين لشهر رمضان المعظّم المذكور كان الرحيل إلى طولقة في طالع سعد أعلىٰ أعلاق المناجح ، وأتاح اعجال إعجاب المنائح . ويمن أجح ضرام الضراب ، وأحمد غلاء الغلاب . وإقبال له بالسعد اقتداء وللعدو اقتداع . ولها سمة اقترار ولإقدامه افتراع ، وتيسير به ينعم بال ويتسع

باع ، وتسهيل به للشقي انتفاء وللسعيد انتفاع .

وتحرّكت الجيوش الطوالب الطوالع ، وارتفعت أعلامها الروائق الروائع . ونهدت الكتائب التي انتصبت فآنتصفت ، واختبطت سيوفها فآختطفت ، وصمدت العساكر التي أبلت فأبلغت ، وأفرجت عن دلائها فأفرغت ، وآعتصبت فآعتصرت وآحتقبت فآحتقرت ، وآنتصبت فآنتصرت ، ورجعت الجحافل التي أوجفت فأوجعت ، وأبدلت فأبدعت ، وامتننت فأمتعت ، وأضحت مواردها ورماحها أسرعت ، وأخبار الفتح نقلت ، وعليل الصدور نقعت ، وأديم الظلم فرت وهضابه فرعت ، وأكباد البغي قرحت ومروته قرعت .

ولم يزل المشي متتابعاً متتالياً ، والتأويب متواصلاً متوالياً ، حتى أشرفنا على فرفر وطولقة فأوعز مولانا الخليفة أيّده اللّه بإقامة المحلاة بين البلدين ، وجعلهما لبحورها كالشاطئين . وخفّ أيّده اللّه بمن تطاير من أهل دخلته على الخيول السريعة المشي ، والجياد التي تفري أديم الأرض أبلغ الفري :

وتبعه وزيره الشيخ أبو علي الحسن بن عمر الفودودي بالساقة الشريفة مبارية بأعلامها المرتفعة سوامق النخل ، معدّة ضرب طبولها لإطلال الإمام العدل ، الكريم الفضل والفصل ، الطالع أنجاد النصر بالنصل ، المخمد[538] أذيال[539] الفتن بالقنا الذبل[540] .

ولم ينشب أيّده اللّه أن دخل طولقة فتنقل بجامعها ، وجال في مقاطعها . ودخل قصبتها التي خلت من السكان . وآنبرت لها طوارق الحدثان . فوجدها أيّده اللّه على ما وصف له من التمنّع القديم عهده ، والتصعّب المبرم عقده ، والإتقان المنتظم عقده . فأوعز في الحين بهدمها ، وإذهاب وسامتها ووسمها ، وإسقاط ثناياها التي أباحت الظلم ارتشاف ظلمها .

فشرع في ذلك بحكم الرماح المشرّعة ، وآنبرىٰ ذلك العمل وفاق الآراء

(538) ، (539) ، (540) كذا في الأصل .

المنجية المنجعة . وخرج أيّده اللّه عن ذلك البلد وأهله الذين شملهم الجهل ، وتفرّقت بهم في معرفة قدر الخلافة السبل . قد اجتمعوا لرؤيته أيّده اللّه داعين ، ولحق الأدب غير مراعين . فبعض يقول هذا سيدي السلطان ويشير إليه منقاداً له البنان ، وبعضهم يقول سيّدي أبو عنان ، ويظن أن ذلك هو الجاري على لسان . وبعضهم ينظر إليه فلا يعرف كيف يقال لصاحب تلك الخطة ، بل يقف مبهتاً في السكّة التي أقلّته والخطة .

وجعلوا يتبعون الركاب العلي غير متهيئين لقربهم ، وطفقوا يمشون أمامه وخلفه ويجنبه وهو أيّده اللّه قد عذرهم بجهلهم ، وتحقّق سرار حبّهم . وجلالهم عن ثغر بسام ، وبشر كأنّه برق والجود فيض غمام .

وكنت أعجب من حالهم ، وأنظر في ذلك الموطن إلى أعمالهم . إلى أن بلغ مولانا الخليفة أيّده اللّه إلى صحراء البلد وقد تلاحقت الكتائب ، وتناسقت المواكب . وقامت التعبئة التي حفت بها المساري والمسارب وردفت ظهره الساقة العظمىٰ ، وخفقت البنود المهيبة بهيبة الملك الأحمىٰ .

وقرعت الطبول ، واختالت في أعنّتها الخيول ، وانتشرت بين يديه أيّده اللّه الأعلاج والرومية ، والممالك الزنجية ، والأجناد الأندلسية ، والطوائف التركية والططرية ، والأفاريق العراقية والمصرية والشامية ، واليمنية والهندية ، وسائر التركمانية . منتظمة جموعهم على قوادهم المحتفلين في إقامة الترتيب ، الحافظين أماكنهم في السرىٰ والتأويب .

فسرعان ما رجع أهل طولقة إدراجهم ، وتركوا استتباعهم واستنهاجهم . وجعلت أنظر إليهم هاربين ، مباعدين غير مكاتبين . قد أخذت الهيبة بمجامع قلوبهم ، وركبهم الروع الذي استولىٰ على مشاهدهم وغيوبهم .

ووقع الإيعاز الكريم بضرب خباء بصحراء البلد المذكور ، وقعد به أيّده اللّه لتفقّد الأمور . وصدر الرسم الكريم بعرض الدخلات السعيدة على التوالي ، وميّز المعنيين في المصادر والموارد الملازمة للركاب العالي ،

ومشاهدة الحال الحالي . فوقف على جلية أحوالهم في تلك الملازم ، وسدّت ذرائع أحلالهم بالمراسم . وأسعد جد أهل الجد ، وأوردوا من فضل الخباء بالمورد العد . واستتب العمل الذي يحفظ سياج الملك ، ويبني نظام الأخذ الذي تقتضيه السياسة والترك .

ورجع مولانا الخليفة أيّده اللّه إلى مخيّمه ساحباً رداء العزّ ، متيحاً الإصابة في التطبيق للأمور والحزّ . وبات بمنزلـه ذلك ليلة يـوم الجمعة الثـالث والعشرين لشهر رمضان المعظّم .

فلما نصل خصاب الظلام ، وانتسم ثغر الصبح أحسن انتسام . أمر أيّده اللّه بتخريب حصن فرفر وانتسافه ، والاستيلاء بالقطع والحرق على أواسطه وأطرافه . وأيه بمن في المحلات المنصـورة من فارس وراجـل ، وعالٍ وسافل ، وحـاف وناعـل . وأمر بحمـل الفؤوس والمساحي ، والمعـاول والعتلات والمداحي ، ومقامع الحديد التي تقيم نوائح النواحي .

وركب مولانا الخليفة إليه ، ولو شكان ما قدم محتشداً عليه . فلم ننشب أن أخذنا بأفواه مسالكه ، وتوغلنا في بسائط قد إمتدّت ، واترعت بالنعم التي لا تحصى إذا عُدّت . وتولجنا ملء تلك الأرض العريضة بساتين قد تمنطقت بالأنهار والمذانب ، ونسقت النخل العادية بترابها نسق العقود على الترائب .

بواسق فاض على أعطافها التزيين ، وأشبهت الألفات لكن لظلّها المد ولثراها اللين . وقصرت على طموحها أنواع الأشجار التي أعربت عن فضلها ، وحملت أغصانها المضاجعة لويلها ، فكان على يد القابلة لكن للنمو وضع حملها .

نواضر شنفت آذان ورقها بدرر الندىٰ أحسن التشنيف ، ورأت في كل بقعة غين الخليل فأدخلت نسيمها المعتل في اللفيف . ذات ترتيب أبدت به انتخاء وزهواً ، وظنّت أن الغيث لو عرف فضل صفوفها لأتاها ولو حبواً .

وأفضىٰ بنـا التـوغّـل في تلك البسـاتين إلى الحصن الـذي اكتنفـه

الاستعصاب ، وأعمقت حفائره فلم يشبع بطونها إلّا التراب . ونظرنا إلى أبراجه التي شمخت بأنوفها وأسواره التي لم ترض غير دم الأعراب . خضاباً لكفوفها وجال الناس خلفها في دور قائمة البناء . حافظة لودائع النعماء قد وسعت ساحاتها ما شاءت ، وأتت في اختطاطها على حسب المرغوب وجاءت .

وهذا الحصن كان ليعقوب بن علي وجماهر أولاد محمد الذخر الأعظم ، والملجأ الأكرم ، والعتاد الأفخر الأفخم . والمعقل الذي لا عقل لجنايته ، والمعتصر الذي لا معتصر لابايته . معدن أحسابهم ، وفذلكة حسابهم ، ونكتبة استعدادهم ، ومطية استرفادهم ، ومجمع منتفعاتهم ، ومأمن مسترضعاتهم ، وملاذهم إذا أمحلت البلاد ، وركنهم الشديد إذا آقشعرت التلاد ، وأوعزت أحلامهم الجلاد ، وافتقروا إلى الازواد . ومقرّهم إذا أخلفت النجوم وضنت بحل عقود عزاليها الغيوم . ومأواهم إذا نابت النوائب ، وصوح المشارب . ومثواهم إذا جفّ الثرىٰ ، وبرىٰ نجمه وشجره خالج الجدب قراءة القرىٰ .

ومسكنهم إذا سكنت الرياح اللوافح ، وغرست بقيامهم النجدات الفوادح ، وضعفت عن مشيها السوابح والبوارح . ودارهم المسلية إذا كلب الزمان، وأخلبت الأعطان ورحل القطان ، ووعدهم الفقر الشيطان ، وعمّهم اليأس الذي امتلأت دلاؤه وأسعدت الأشطان[542] .

ولم يزالوا يعرفون مكانه من إعزازهم ، ويقدرون قدره التفاتاً ليوم أعوازهم . حتى انتحت له الدواهم الدواهي ، وأناخت عليه النوائب النواهي ، فأضحىٰ وهو الواهن الواهي ، ساجداً على آراب حيطانه ولا غرو فهو الساهي) .

---

(541) التراب .

(542) الحيل .

ولم يكن إلاّ أن أمر مولانا الخليفة بإذهاب مينه ، وإزالة زينه ، وإشهاد انطفائه على عينه . فشدّت القبائل لاستئصاله الأزر ، وتقسموا مسافاته تقسم ساكنيه الجزر . واتّصل العمل في ذلك هدماً وحرقاً ، واجتمعت عليه الأيدي محواً ومحقاً . حتى عرفت أبنيته الخط بالغبار بعد التجميل ، وسقفه الكسر وكسر الكسر لكن بالتنقيل . وعفرت بأخاديده خدود الصخور ، ولم تطمع بطون حفائره في الظهور .

وهاج ظمؤها بعد التضلع من الماء ، ودورانه فيها كالسوار لكن من الفضّة البيضاء . ولطمت أسواره بالأرض،،، وأعدمت إلى يوم الجزاء والعرض ، وحكم على دورها بالإباحة بعد المنح ، وبالخفض بعد الرفع ، وشكت حيطانه بداء الصرع ، فكويت بما اشتعل في سقفها من النار ذات السفع . وجعلت عليها شررها تمائم ، ولم يزجر لها (نحبىٰ الهبهال[543]) الأشائم . ونال الانتساف من معالمه ما تمنّىٰ ، وأنشدت الجدارات أسسها بنتم وبنا . وأصبحت أنقاضه كالنقيضين لا يجتمعان ، وبيوته كالضدّين لا يلتقيـان ، وجسوم منازله كالأعراض لا تبقي موجودة في الأعيان ، ولا تستقلّ بأنفسها وقتاً من الأوقات ولا حيناً من الأحيان ، بل تلازم الجواهر لكنّها هنالك عن مدامع العربان .

فلا معلم يتوضّح ، ولا مغنىٰ يتصفح . ولا رسم يعرفه رسم ، ولا مسكن به لسكن اسم . ولا دار يدور بها ركب ، لا ربع يرتع به شرب . ولا طلل بالسحب مطلول ، ولا محل بابه للوفد محلول ، ولا بيت ينشد به بيت ولا أري يربط به كميت . ولا برج يتبرّج به كاعب ، ولا سور يتسوّره ملاعب . ولا حائط يحوط أثاثاً ، ولا حجرة تجمع ذكوراً وإناثاً . ولا إيوان يعمر أواناً ، ولا قصر يقصر عليه سكاناً . ولا منزل يعد به نزل ، ولا منتدىٰ يسمع به جد وهزل . ولا مقام تقوم به الأعراب ، ولا منزه ينزه عما يعاب . ولا حفير يجف ، ولا ستارة تكف ، ولا شرافات تشرف ، ولا عين عين تطرف . ولا

(543) خمس كلمات غير واضحة الكتابة وعسيرة القراءة .

بادية آثارها حاضرة ، ولا حاضرة آثارها بادية ، ولا ساقية تلوح وهي جارية ، فترجع عنها الجارية وهي ساقية . ولا مشعر يهديه الشعر ، ولا مشهد يشاهده السفر ، ولا مجلس يطأ حبراته الحبر . ولا مكان يلازمه التمكين ، ولا معان تعن به الخرد العين ، ولا محتبىً يبذل به الحباء ، ولا ندىً تتساقط به الأنداء ، ولا غرفة يغترف بها من نهرها النعماء، ، ، ،(544) .

وأمر مولانا الخليفة أيّده اللّه أن يستأصل بالقطع جميع ما حوته بسائط فرفر من النخيل النضيد طلعها ، وسائر الأشجار التي حسن أصلها وفرعها . وأن يمات منها كل بستان أتاه بالإنسان باعث حينه ، ولطالما أقام مقتضباً لدينه ، لا يدري أين ملابس زينه وطفق يبصر عيون السحاب ولا يبصر الخدع في عينه . فأنتهضت الجيوش كلّها بمن تبعها من الخدمة على اختلافهم ، وتباين أصنافهم . ومن آنضاف إليهم من أهل بلاد الزاب ، مستقدمين لدهم العمل المواصل الاستتباب . مبتدرين للامتثال الظاهر النفع ، منتدبين بالاتهم التي عرف حكمها لكن بالقطع .

وسلّط أيّده اللّه السواد الأعظم على سوادها الأعظم ، وأعرىٰ غرس نعمه الحديثة والقديمة بغرسها الأحدث والأقدم . والحق بالبور والعامر ما شاء من البوار . فكأنّه طالب حدائقها بالأوتار ، ولم يغض عما شجر بين الأشجار ، وما هو إلاّ القهر للمفسدين الأشرار ، وسد الذرائع في بقاء المعتدين الأغمار . والاعتمال في إعدام منتفعاتهم جملة ، وإكساب أيديهم وهناً وقلوبهم وهلة . حتى تشتمل الأمنة البدو والحضر ، ويعمّهم العدل الذي بهر وظهر ، فلا يخاف المرء الذئب إذا خطر . ولا يخشىٰ إذا مرّ وحده الرياح والمطر .

ولو شكان ما قطعت ألوف النخيل ، وصودم وصلها مصارمة حبل النخيل . وألحقت بها أصناف الشجر ، مفضوضة بها أفواه الثمر . وتراكم البعض على البعض حتى انقطعت الطرق والمسالك ، وعميت السبل وخفيت المبارك ، ورحل عنها أكمّها وقدمت المهالك .

---

(544) بياض يغطي حوالي 3 كلمات .

وأمر مولانا الخليفة أيّده اللّه فضرب له خباء في بعض تلك الخوانق ، وجعل ينفذ أوامره منه إلى المغارب والمشارق ، ويشرف على عمل جيوشه ورعاياه ، وينيلهم من عدوّهم الذي مني بالثكل قبل مناياه . وأحياناً يركب أيّده اللّه حتى يرىٰ ما آنتهىٰ إليه العمل فيما بعد من مجلسه الكريم ، وينظر إلى تلك الجنّات التي أصبحت كالصريم .

وآتّصل التجديد لذلكم العمل مدة ستة أيّام حتى لم يبق بمساكن أهل الضلال ما له ظل ، ولا طلل مطل ، ولا مقيل مقلّ . ولا مسرح لناظر يناظر ، ولا مبد لخاطر مسلٍ خاطر . ولا عرجون يسند عن جبر ، ويروي حديث الفضل عن يسر . ولا زرع يرقص في الروض بأكامه ، ولا زهر يروي عن السائب لكن من غمامه .

ولا حمام فروعي ، ولا نبات أصولي ، ولا بلبل منطقي ، ولا نور عددي ، ولا ماء فرضي . ولا أس ولا أس ، ولا كاس ولا كاس . ولا راض ولا راضع ، ولا شاف ولا شافع ، ولا طلع ناجم ولا نجم طالع . ولا مال للفجرة ينمو ولا أحاديث تمنىٰ ، ولا حمىً للغدرة ينزل ولا منزل يحمىٰ .

ولا حديقة تحمد الانتقال وتبذل النقل ، ولا روضة تسال عينها فتأخذ العقل . ولا جنّة يهدي النسيم أنفاسها المعطرة ، وتلحفها البروق بأرديتها المعصفرة ولا بستان يتوضأ النبات بفضل سحائبه ، ويصلي في أشجاره النسيم فيجعل العود على حاجبه ، ولا رستاق يروي عن صالح لكن من غروساته ، وينسد عن الخلواني لكن من ثمراته .

وأصبحت فرفر أوحش من الرمس ، وأكره من الجسم بعد فراق النفس ، كأن لم تغن بالأمس ، ولا طلعت زهر أزهارها على رغم أنف الشمس . ولا وقف النسيم على غصونها فقد قميصه من قبل ، ولا ضربت خيام الغيوم من ظلالها في أفسح سبل ، ولا أمست الطير من شق ستائر أوراقها في شغل . ولا حفّت مجرة نهرها بكواكب السعد ، ولا راع حصاة حالية الغواني فلمست جانب العقد .

ولعمري ما كان استئصالها إلّا بالكثير من الشهور وكيف بالأيّام ، وما كان الاستبلاغ في انتسافها ليأتي إلّا بمضي السنين والأعوام . لكن ذلك كان من كرامة مولانا الخليفة الإمام ، معزّ كلمة الإسلام ، الكريم الاعتزاز والاعتزام ، الحاسم أدواء المفسدين بالحسام ، أبقاه اللّه في ملك لا يضار ولا يُضام ، وعزّ لا يعرو عروته الانفصام ، وأمتع بعلومه وجوده تلك الرياض وتلك الغمام .

﴿ فصل ﴾

وفي الأيام التي قعد فيها مولانا الخليفة أيّده اللّه لمحو آثار فرفر ، وإطفاء نور نورها الذي أزهر . آنحازت طوائف من بسكرة وبلاد الزاب ، لاستئصال قصبة طولقة الرفيعة الجناب . وأتّصل عملهم في إدامة أعوالها بالمعاول ، وتغيير مساحاتها بالمساحي العوامل ، والفؤوس التي ألحقت الأعالي بالأسافل .

فلم يبقوا لحسنها بحدّ الشبا شباباً ، وعذبوا بقرعهم الحجارة حتى كادت تقول يا ليتني كنت تراباً . وأوغلوا في نقضها حتى شمخت أنوف الفؤوس وعظمت قدراً ، وسرت الخنفساء من مساحيهم فأظهرت العجب ولم ترحم صخراً .

وأصبحت أسوارها مجرىً للجود العراب ، وبروجها مطلعاً للعواء لكن من الكلاب . وحيطانها موطناً لأخفاف ونعال ، مرجومة كقبر أبي رغال ، فلولا الدور القائمة قريباً منها لكانت مسعىً لسعال ، وأغيالاً لأغوال . وجناناً لجنان ، ودار إقامة لطل وأفعوان .

لكن مولانا الخليفة أيّده اللّه أشفق على رعية أهل طولقة فأبقاهم ومواطنهم ، ورحم مساكينهم فخلّاهم ومساكنهم .

وكانت طولقة كالمستشفىٰ زادت أوجاله ، وسكن البحرين فعظم طحاله .

---

(545) يقصد بذلك طرف الرمح أو النصل القاطع .

حتى إذا نجع فيه التدبير ، وتولىٰ علاجه الدري الخبير . آستوىٰ ما عظم ، ورجع إلى الحد الذي كرم . وعاد الارتفاع إلى انخفاض ، وآنصرم الداء الذي كان كاشفاً عن أقبح أعراض .

وفارق صدرها السجي الذي كان فيه ، وحلقها الغصة التي كانت تؤذيه . وصلحت الأمور وأمر الصلاح ، ونجحت العامة وعمّ النجاح ، وركبت الأفراس ووصلت الأفراح ، وأذهبت الأوضار وأطلعت الأوضاح ، ورأت طولقة بركات الإمام العادل الذي محيت به الأرباء[546] وعظمت الأرباح .

﴿ فصل ﴾

ولمّا عرف أيّده اللّه وهو ببلاد الزاب ، أن العرب المفسدين قد أبلغوا في توغّل القفر التباب . وأصحروا اصحاراً جاوز المعتاد ، واقتحموا الموامي التي قطعت الظهور وصدعت الأكباد ، وأقدموا على معاضل ، وارتكبوا أخطاراً جلائل؟ وقذفت بهم أيدي الأهوال ، وأجفلوا اجفال الرمال . واستقرّوا بحيث لا تصلهم الرياح الهوج ، ولا يُتاح للقطا من مفاحصها إليهم العروج . وواصلوا سيرهم بكل دوية تصح به الأساود من التطاء الهواء ، وتذوب حسومها من حر الرمضاء . وتشغل بها الأفاعي عن اللذاغ ، وذو الأدوات عن عوائد الأفراغ . والحرباء عن افتراع التنضبة ، والضب عن إقبار جحره السامي المرقبة . والفحول عن رغائها ، والخيول عن جرائها ، وتكاد الصدور فيها لا تعرف بقلوبها ، والنجوم لا تهتدي في الأفق لطلوعها ولا غرو بها ، والرماح تذهل عن طعانها ، والسيوف تنسىٰ ضراب أقرانها .

لم ينشب مولانا أدام اللّه أيّامه أن أقصر عن اتباعهم ، وتركهم للتي قطعت ما شب واكتهل من أطماعهم وعلم أن سلوك تلك الصحاري بجيوشه التي لا تحصىٰ اتباعها عدداً ، واعتسافه لتلك المفاوز بعساكره التي كثرت عدداً وأهلاً وولداً . مما يأباه الحزم الذي ارتدىٰ بردائه ، والنظر المصلحي الذي يفيأ

---

(546) مصيبة ج أرب .

وارف أفيائه . وآثر الاشفاق الذي لم يغب شفقه ، واليسر الذي وضحت للطارقين طرقه .

ووقع نظره الكريم فيما ذكر به على أرماق العرب ويجعله عنواناً لصحيفة الغلب . فلم ير أوفىٰ بالقصد من إعدام الطعام بكل موضع يهيأ لهم فيه انتهابه ، أو اشتراؤه كما يرتضيه أربابه .

وتفقّد أيّده اللّه أحوال بلاد الزاب فإذا مخازنها مملوءة بالأطعمة ، مترعة بالحبوب المستكرمة والزروع المحسبة أعواماً ، الكافية طعناً؟ ومقاماً ، المرغدة عيش أهلها الذين أضحت لهم السعادة لزاماً . إلى ما آذخروه من التمر المختلف الأنواع ، وسائر ، ،[547] الدائمة الاتباع .

فأمر أيّده اللّه برفع الحراثة عن مزارع صحاريها ، والاقتصار على ما يبدر بغاباتها ، الممنوعة عن أعاديها . وبرثت[548] الوعيد على من خالف الأمر ، ووضع البدر ، بالمواضع التي عرفت الخطر ، حيث يتأتّىٰ للعربان أن يعملوا الغدر ، ويوفوا في شن الغارة النذر ، ويملأ الجائع منهم البطن ويشفي الصدر .

وأوعز أيّده اللّه لشيخ الدوس أن يثقف جميع ما بتلك البلدان من خزين العربان ، وتقدّم إليه بالوعيد على إضاعة الحزم في ذلك الشان . وكذلك صدرت المراسم لأهل بلاد الزاب ، بتثقيف ما يكون بكل بلد منها من أملاك الأعراب ، واعتصارها مدىٰ الأحقاب . ورفع غلاتها في جملة المجابي السلطانية ، وإضافة رسومها إلى المختص المنوط بالدولة العنانية .

وشد الشيخ آبن مزني حيازيمه للاشتداد في ذلك كلّه ، وإحكام عقده وحلّه . حتى استحكم التدبير ، ونهض للأعداء التدمير . ولفظتهم الربوع ،

---

(547) بياض .

(548) غير واضحة .

وتحكّم فيه الميسران الروع والجوع . وجفا عيونهم المنام ، ولو ناموا لسلّت عليهم سيوف الخليفة الإمام .[549] ولم يبقَ لهم بجميع بلاد الزاب مرتفق ولا منتفع ، ولا أبيح لعهدهم في معاهدها مرتجع . وأنشد منشدهم أعائد وأحاديث المنىٰ جدع .

وما آنصرف مولانا الخليفة أيّده اللّه عن الزاب حتى لمَّ شعاعه التمهيد ، وأفاض شعاعه العدل المديد ، وضمّ نشره وأهدىٰ بشره التوفيق والتسديد ، ومضت فيه أحكام الخليفة ، ولإمضاء السيف الهندواني بكفّه الشريفة ، أو الرمح الرديني بيمناه العالية المنيفة . كما زلّت فيه للسياسة نعل ، ولا نبا للهيبة نصل ، ولا بت للحرمة حبل . وفرغ عن قلوب أهله ، وجمع شتيت شمله ، وعرفه السعد بحسنه وفضله .

ولم يذعر له سرب ، ولا كدر شرب ، وعاد لولاية الغرب فما فلّ له غرب ، ولا خرقت لعزّه حجب ، وزال تقلّبه فما ألمَّ به قلب ، وعمّه جود جم وعطاء حسب ، وشملته البركات فما أخلفت أنواء ولا أجهمت سحب . وذلك شيء بعد عهد الملك بمثله ، وعجبت الاعصار والامصار من سلوك سبله . لا جرم أنه لم يسمع في هذه الأزمان كلها بملك وطىء الزاب بجيوشه وجنوده ، وهان عليه تحمّل المشاق في التوصّل إلى أغواره ونجوده .

وما زال أولاد عبد المؤمن ثم أولاد أبي حفص يتحامون دخوله ، ويتهيّبون حلوله . ويرون أنه في حكم الصحاري المتخاطفة والمدامي[550] المترامية المتقاذفة ، وأن الجيوش العظيمة . إذا أمّتها خيف عليها من نفاد الأزواد ، والإخلال بمضامين الاستعداد . وآنضمام العدو المعتاد للأصحار ، إلى قرع مروتها بالغوار ، والطمع في تشعيثها لقرب الديار ، وقوة الاستظهار . حتى أتيح له هذا الملك المطاع ، الجوّاد الباذل الشجاع . الذي أمنت جيوشه

---

(549) في الأصل «الأحلام» .

(550) ج دوماء الفلاة التي لا ماء فيها .

بعطاياه الفقر ، ولم تتهيّب بفضل عزائمه المهتمّة القفر .[551] ولم تبال بمن أصحر من العربان ، ولو فاتوا مدىٰ الحسبان ، بل صمدت لها في مفاوزها بالضراب والطعان ، وجلت عن أن تقعقع لها بالشنان ، والناس على دين الملك فلا نكوص عن تخضيع الأقران ، وعمارة الحروب بتجديل الأبطال والخمسان ، والمحاريب بالتسبيح تارة وترتيل القرآن ، والذبّ عن الرعايا الذين منوا بأهل العدوان ، وطلب المعالي ولو اكتنفها الفرقدان ، وأخذ الحمد العالي الأثمان ، ولو خبأته الأسد بين أنيابها في كل الأزمان .

فالحمد للّه الذي شرف عصرنا بخير الملوك جمالاً وجلالاً ، والإمام العادل الذي أبرّ جلاداً وجدالاً ، وأنسىٰ وقائع العبيد من بحر فعاله التي بهرت كمالاً ، وأناف بغلبه على بني الأغلب فلم يساو عقال عقالاً . أبقاه اللّه في ملك يرف ظلالاً ، ومحا به وعلى يديه ضلالاً ، وهناه وما حوله من النعم التي كرمت تفصيلاً وإجمالاً .

ذكر الرحيل :

إلى تقاوس وأوطانها :

وهدم القلاع التي ارتفعت أسنمتها بأعطانها .

وفي يوم الأربعاء الثامن والعشرين لشهر رمضان المعظّم المذكور رحلنا من المنزل الأسعد ما بين فرفر وطولقة ففصلنا عنه لامسين أبشار البشائر ، مطلعين للنصر أوضح الشعائر ، فارحين بالإياب الميمون الطاهر ، والظفر الجميع المصائر . فكان مبنياً بغدير الحصا على مياه مرتها السحب من ضروعها ، وحبت حماة الشرع بشروعها كأنّما أعدتها نزلاً لشقيقها جوداً ، وإكراماً لمشبهها سعوداً وصعوداً . فآرتفعت هنالك أبنية المحلّات ، وبتنا بذلك المعسكر المحبوب على العلات .

---

(551) كذا في الأصل .

فلما رجع غفل الأفق إلى وسمه ، وأعيل نسيم الصبح كأنّما أعداه حرف العلة الذي في اسمه . وفاض نهر النهار فسارت النجوم في مدّه حباباً ، وآن أن ترفع الشمس عن وجهها برقعاً وتميط نقاباً . ضرب طبل الرحيل ، واستركبت الجيوش للوخد والذميل . وسرنا والظهور قد أقام النصر بين ظهرانيه ، والسعد قد سعىٰ[552] أهل الغرور[553] بغراريه . إلى أن وصلنا إلى مدوكال فأشرفنا منها على أسوار، ، الحفائر أساور . وسواد جنّات أطلعت النجوم الزهر لكنها التي تسمىٰ أزاهر . وتوافت المحلّات المنصورة فآخترقت أبنيتها الجو ، وروعت بوطء جيادها من سكن الدو .[554] .

وفي هذا اليوم ظهر سراق من بوادي رياح المفسدين ممن عول على سبق جواده ، وباع نفسه بآتباع هواه في إظهار فساده . وبارىٰ الطير في سرعة هربه ، والثعلب في تراوغه مع شدّة رهبه .

وحمل هؤلاء الأوباش على ما ارتكبوه الجهل ، وخاطروا المخاطرة التي لا يُطاق لها الحمل . فأرصد لهم مولانا الخليفة أيّده اللّه فرساناً تربوا في حجور الحروب ، وأبطالاً إذا طربت بالطعن حقولهم فعلىٰ النفع شق الجيوب . وأنهد إليهم رماة لا تبرح الاقدام مواطىء أقدامهم ، ولا يزالون يلتقطون حبّات القلوب لكن بمناقر سهامهم .

فعقدوا لهم في أعقاب المحلّات وادبار الرحائل المنتشرة انتشار السجلات إلى أن تراءت العين بالعين ، وأديت المناجزة بقضاء الدين . فحاق بالمفسدين عذاب واصب ، وأعقب زجرهم في تلك المساعي باع ناعب .

ولم ينج من نجا منهم إلّا لمعرفته بتلك الشعاب والثنايا ، واستتاره بجنح الليل الذي اسود كوجوه المنايا ، وكانت السلامة حطت من المرباع والصفايا .

---

(552) كذا في الأصل .

(553) بفتح العين هو الشيطان والتلف والغرر هو الخطر .

(554) المفازة .

وقد كان سراق من بني مالك فيهم دغار ابن عيسىٰ قد تعرّضوا لأخذ بقر بقيت في أعقاب الرحائل بالزائب ، وطلبوا انتهاز فرصة وأخذ بعض الأسباب ، وطمعوا في الانتهاء إلى الانتهاب ، والصمد إلى الاحتراف بالاختراب .

فزحف إليهم الموكلون بحفظ الأخرات ، مجتمعة جرائد خيلهم اجتماع الحصا بالجمرات . فنالوا من المفسدين النيل الذي فتّ في أعضادهم ، ولولا هرب الأشقياء على البعد لاستولىٰ القتل على أنجادهم ، ولم يسلم من سلم من أئمة فسادهم .

ولم يزل اعتناء مولانا الخليفة أيّده اللّه مصروفاً إلى تنقيل المراصد ، بالجموع والجرائد . وسد الثنايا التي يشرف منها سراق العربان ، بكل بطل مكتمل السن ماضي السنان ، وشباب يشب نار الضراب والطعان . حتى أمن الضعيف من الناس أمنة القوي ، ولحق النضو الفاني بالفحل الصائل الأرجي .[555] وانتشرت رعاة البهم في ضمان رعاية البهم ، وكاد الذئب يرعىٰ مع الغنم ، والنار لا تعدو على يابس الضال والسلم .

جزىٰ اللّه مولانا السعيد القدوم الراسخ القدم ، جزاء من تكفّل بإزالة الهموم وعلو الهمم ، ونظر لعامة المسلمين نظراً غمرهم بالخير العمم .

رجع الحديث :

ورحلنا من مدوكال في صبيحة يوم الجمعة الموفىٰ ثلاثين لشهر رمضان المعظّم المذكور في كنف النصر والظهور ، والسعادة المتّسقة الشموس والبدور ، والمسرّات المنزّهة عن النشوز إلى يوم النشور .

وتوغّل مولانا أيّده اللّه في طلب الصيد ، وإظهار القوة باللّه والأيد . حتى قدرت الأرض التي قطعناها ، والشقّة التي فرينا برد سرابها وصدعناها ، بما ينيف عن سبعين ميلاً ، ويحصل زهاءها تحصيلاً . فلا سرور إلّا سال سيله

---

(555) كذا في الأصل .

بكل سبيل ، ولا ابتهاج إلّا وسرّه إثمد النقع فكحل عينه بميل . ولا جذل إلّا أهمىٰ مطره ونبه مطاريبه ، وجعل آثار السنابك في جوامع البيداء محاريبه . ولا سعد إلّا وآتّخذ غرر الجياد طروس كتبه ، وأزمة الركائب أزمة حساب قربه ، ولا نصر إلّا جعل عوامل الرماح عوامل رفعه وحقق بأحكام أشراعها أكام شرعه . ولا فتح إلّا أصار السيوف المحروسة الأجفان نداماً،[556] وجاء بصهيل الخيول غناء وبدم الأعداء مداماً .

وكان ذلك اليوم يوماً أخذ في أمره بالوثيقة ، وحادت تقاوس من سحبه كل بكر حرة عتيقة ، وغاب عنهن دينار الشمس في كيس الغيم وتركن كالدرهم كل حديقة .

وما وصلناها لابسين خلع الاستبشار ، إلّا وقد قامت خطباً الأطيار على منابر الأشجار . لكن النهرٰ ، ،[556] مس الحصا ، وعبث النسيم بأذيال الروض وشق العصا .

وكان نزولنا من شرقها في أرض آهتزّت وربت ، ورأت أهل الغرب السعداء فأغربت . ولسرعان ما ارتفعت بها الأبنية واشتبكت ، وجرت على خدودها دموع الغمام فضحكت .

وقضينا هنالك ليلة تركت عقد الكواكب منثوراً ، وكلانّ الغيث غسل الليل الذي مات مقسوراً ، فجعل في الآخرة من بياض الصبح كافوراً . وترجحت الإقامة على تقاوس أما أولاً فلإقامة سنة العيد الطاهر السعد ، وأمّا ثانياً فلإراحة الخيل والركاب مما لحقها بالأمس من الجهد ، وأمّا ثالثاً فللنظر في مصالحها المحكمة الحل والعقد ، وأمّا رابعاً فلهدم القلاع والمعاقل الطاهرة الحرد ، إلى غير ذلك من المصالح التي انتظمت في جيد السياسة انتظام العقد.

ولما قرب طلوع الشمس وبزوغها ، وآن أن تفيض الأشعة فروعها .

---

(556) كلمة غير واضحة .

(557) كذا في الأصل وهي غير مفهومة .

استركبت الجيوش وروعت بوقع حوافرها الوحوش . وانتظمت التعبئة المدهشة ، وترتبت المواكب المجهشة وقامت الصفوف التي طالما أظلّتها العجاجات المغطشة .

وبرز مولانا الخليفة أيّده اللّه إلى مصلاه وعليه السكينة والوقار ، إذا سمت لهجت به في آفاقها الأنوار . وأم رابية هنالك حيثما الرياح بعاطر أنفاسها ، وصبّت عليها السحب الماء حتى بلغ شؤون رأسها . فزادت طيباً على طيب ، وشرفت بوقفة إمام وجلسة خطيب .

ولما أقام أيّده اللّه السنّة ، وشكر النعمة التي خوّلها والمنّة . رجع إلى مخيمه العالي ، وأطعم الناس على التوالي . وبذل العرف ، ورفعت السجف ، وشمل العطف . وحضرت بين يديه الكريمتين فرغبت منه أيّده اللّه أن يبقي ذلك المصلىٰ أثراً من آثار بنائه ، كما ترك أخوه الغيث أثراً من النور البهيج بأرجائه .

فأمر أيّده اللّه ببناء محراب هنالك ، وأنزله بصفح زمام تلك الأرض منزلة بذلك . فلم ينشب أن استوىٰ أشد بياضاً من الطرس،(558) مشرفاً بأنواره إشراف الشمس قابضة عليه كفّ الصلوات الخمس بالخمس مولياً السائح المتجرِّد أعظم الانس ، فما فارقه إلّا وأنشد حازم حزمه منا النفس .

أبقىٰ اللّه مولانا الخليفة لعمل صالح يتمّه ، وشعث فادح يلمّه ، وهيأ له الفوز العظيم الذي يعمّ الخلائق ويعمّه .

﴿ فصل ﴾

وما كملت عوائد الأعياد ، وحمدت مساعي الاستعداد ، حتى يصل الفتح القاطع دابر أهل الفساد ، وأهديت المسرّات الصادقة الاشهاد ، حتى تهدىٰ رؤوس الأعادي فوق سمر الصعاد ، وفاضت عوارف الأرفاد ، حتى تفيض دماء

(558) الصحيفة البيضاء .

المعتدين على الأغوار والأنجاد . لم ينشب مولانا الخليفة أيّده اللّه أن اختار قائداً لتقاوس جزلاً ، ووالياً لا يعرف مذ أنهضه الجد هزلاً . ورسم بآستقدام مشرف يضم مجابيها ، ويبلغ في التثمير والنماء مراميها .

واستحضر الملأ من أهل قاوس على أحسن حال من التيمن بالبيعة التي لم تلههم عن ذكر اللّه وعنها تجارة ولا بيع ، والاغتباط بالإيالة العلية التي وضح لها ريع وكرم ريع . والاعتصام بمثابة عزّها إذا أتيح لأسرار الغادرين ذيع .

فأدُّوا الفرض ، وقبّلوا الأرض . وتحاجزت الخاصة معطوفاً عليهم الكلام ، مصروفاً إليهم الاهتمام . وأخذ معهم فيما يكون به استتباب مصالحهم ، واستنساق مناجحهم . فأبانوا وما بانوا ، ومنّ عليهم بالاستفهام فما مانوا .

وتقدم إلى شيوخهم الذين تأتىٰ من اجتماعهم ما تأتّىٰ ، وحسبهم الناظر جميعاً وقلوبهم وتحقّق ما كان بينهم من الغدر والختل ، وما اعتملوا فيه من القتل والفتنة التي هي أشد من القتل .

فطُولبوا بإحضار مراهينهم التي هي ملاك تسكينهم وتهدينهم ، وبالالتزام منها يهتدون إلى التزام دينهم . فأعطوها على ما اقتضاه التخيّر ، ورسمه العزّ الذي لا يعرون التغير ولا يلم بساحته إن شاء اللّه التحيّر وصدرت لهم المراسم الشريفة بإجرائهم على عوائدهم في التحرير واستنهاج سُبُل الاعتناء الذي تعاضد أوّله بالأخير .

واستقبلوا عيشاً هنياً ، وزماناً مرضياً ، وشبت دنياهم من بعد أن بلغت من الكبر عتياً ، وصلحت أحوالهم صلاحاً عبقرياً ، وآتّخذت النجاة نجياً ، وعمّتهم المسرّات التي انتحوا سواء نهجها سوياً ، وعمروا نديها المغمور بالبشرىٰ ندياً .

﴿ فصل ﴾

وكانت تقاوس هذه على آتساع سوادها ، وعظيم أرفادها ، واستحكام أسباب استعدادها . وما خصّت به من كرم التربة ، وحسن الخطة والنصبة . وتمنطقها بالأنهار ، وتوشحها بالأشجار . ومحالفتها للخصب ، وجدعها لأنف الجدب . وجمعها لأشتات المحاسن ، وتيسر مرافقها للقاطن والساكن . وكثرة جبايتها ، ومحقوق إبايتها . قدْ أعطاها أصحابها الموحدون منذ أزمان لعربي جلف وهو محمد بن يحيىٰ شيخ أولاد عساكر وشيطانها الذي آوته الخلافة فألفته الغادر الماكر .

ولم يزل هو وقومه يرعون بيتها وقبلتها ، ويغيِّرون دينها في التمهد ونحلتها ، ويستأصلون شأفتها وينحتون أثلتها ، ويستغلّون في نجمها ، ويحلقون ديباجة وجهها ، وينثرون كرشها ، ويأخذون ذميها .[559] ويطلبون دهشها . حتى كادت تعود خلاء وأنا لمثلها الخلاء ويعدم مالها لولا أن المال حيث الماء ، والعين حيث العيون ، والفيء حيث الأفياء . ولبس هذا العربي العساكري في الدولة العلوية حتى بقيت تقاوس بيده غنيمة باردة ، ونعمة هاملة لا هامدة . واقطاعاً لظهور الرعايا به قطع ، وإسهاماً لسهامه في صدورهم صدع .

ولم تزل مترعة بزروع العرب ، مملوءة بما كان لهم من المال والنشب . حتى انتزعها مولانا الخليفة أيّده اللّٰه من أيدي المعتدين عليها انتزاعاً غير المناكر ، وقهرهم بنو مرين الذين أعجزت مناقبهم المني والشاكر وعلم أن واحداً من بني عسكر يغلب أولاد عساكر . واسترجعها أيّده اللّٰه بما كان لهم فيها من مدخور ومخزون ، ومكيل وموزون . وناطق وصامت ، وقائت وغير قائت . وديار مشيّدة البنيان ، ومساكن كانت أيّامها كالأعياد للأعيان ، ومعاهد طالما ذكرت فيها أحوال الأديار لا الأديان . إلى ما كان لهم بخارجها من جنّات

---

(559) غير واضحة .

دللت قطوفها ، وبساتين اختلفت قلوب ثمراتها لما اختلفت صفوفها ، ورساتين[560] ظهر بما هو أحسن من لبس الشفوف شفوفها ، وجاءت أنهارها لمعنى في غيرها فكأنّها حروفها . إلى غير ذلك من دمن يعجز عن وصفها آبن الدمينة،[561] ومراع يبدي بها الخصب أفانينه ، الفينة بعد الفينة .

فتحصّل ذلك كلّه لجانب المختص ، وظهر أثر العدل للمقتصّ المغتصّ . وسوغ جميع ما كان هنالك من الزروع للجيوش المنصورة ، والكتائب المحبوة المحبورة . فتناولها البيع بأرخص الأثمان والعطاء ، ووقعت بذلك التوسعة التي زادت بها السراء . وأنطق لسانه الشكر وأبدىٰ الثناء ، ودعونا وإن لم ندع اللّه لخليفته الذي أحسن إلينا فلِمَن الدعاء؟!

﴿ فصل ﴾

وكان سفيان من المواضع التي تضر بتقاوس أعظم الضرر ، ويخطر عليها المفسدون فيتأتّىٰ لهم منها ارتكاب الخطر . فمهما أغاروا بقصده أغاروا ، وإن جلوا في الفترات بدياره أعملوا حيلهم وأداروا حتى إذا أنسوا وصول الجيوش المرينية ، وأشرفت عليهم الجحافل بالسيوف المشرفيّة . أجفلوا مصحرين ، وولُّوا لمركهم مظهرين . ونجو بأنفسهم الذميمة الدنيّة ، وخلوا سفيان غير السري مباحاً للسريّة .

ولم تكن كتقاوس مما يرتضي سكناها الجيش ، ويطيب به للحماة القاطنين العيش . فآقتضىٰ النظر الكريم أن نهض إلى هدمها وزير الخلافة العلية الشيخ أبو علي الحسن بن عمر الفودودي بخلائق ممن ضمّه سواد المحلّات ، وقطعة من الجيوش الحقيقة بالتجلّات . فآبتدأ هدمها في ثاني يوم عيد الفطر المذكور ، ولم يفرغ من ذلك في سحابته الشارحة للصدور .

---

(560) رساتين في الأصل .

(561) المرتبط بالطرق ويقطعها .

فتوجّه إليه في اليوم الذي ردفه مربي الخليفة وحاجبه ، وثقته التي حمدت مقاصده ومذاهبه . الشيخ أبو عثمان سعيد بن موسى العجيسي بخيل ورجل ، مانحاً من القوة بأفعم شجل .[562] مشخصاً بآلات الهدم ، مرصداً للوقد والوقم .

فآستولىٰ في ذلك اليوم تعفية آثار سفيان ، وصيّره كأنّه ما كان ، ولم يترك به بحر الأهوال إلّا الغربان . وعاد ذلك الحصن كعظام حصن أبي عيينة . ولحق من كان فيه من الأشقياء الذين أجبروا المدينة من عرينه وأزيل سواده وكأنّه حروف كشطت من القرطاس ، وقطعت شجراته فكأنّها أقلام رميت من مواضع الأنفاس .[563] وأمست حفائره وقد عادت من الحرب بالسلم ، وضاقت كأخلاق الرجال لكن بالردم . وعيل صبر بساتينها فـأذنت بعويـل ، وعلا الحاجب عينها لكن على وجه جميل ، وأولاها الغيث لكن عادت العين منقوطة لكل عابر سبيل ، وطالب رفد جزيل .

وأسند سفيان أحاديث آنتسافه ، ، لما أرسل أبو عثمان عليه المهالك ذات مزيد ، فأحكم الغلب محققة بمسندات سفيان ومراسل سعيد . وقبل أن يتمكن الحاجب المذكور من استئصال الهدم والهدّ ، ومساعدة الأيد لساعده الأشدّ ، لقىٰ غازية من سراق رياح ، آتية إلى سفيان الذي هيض لأهله كل جناح . طالبين أن يتعرّفوا من أحوال المحلة ما يبشّر به مروعة العربان ، وما ذلك إلّا بُعْدَها عن تلك الأوطان ، وفصول أراعيلها عن تلك الأحـواض الرياحيّة والأغطان[564] .

فهجم الحاجب عليهم بمن معه من بني أبيه ، وغيرهم من القبائل الذين ركبوا الخيل من نسل الوجيه مع الثقة الوجيه ، وشكروا أيادي ذلك الخاصة النبيه شكر النبيه .

---

(562) كذا في الأصل ولعلّه يقصد السجل .

(563) ما يكتب به .

(564) كذا في الأصل لعلّه يقصد الأغصان .

وما راع الأشقياء السراق الأرماح كأمداح حامليها طوال ، وسيوف قصرت فكأنّها للأعداء آجال . وسهام تتغلغل في قلوب المفسدين فكأنّها أشرار ، وربما ظهرت موارقها فكأنّها بروق والدماء أمطار .

ولسرعان ما آنهزموا منكوبين ، ونكصوا على الأعقاب مغلوبين ، وما قبضت الأعنّة حتى قبضت أرواح فتيانهم الأشقياء المطلوبين ، ولا بعداً للقوم الذين هم غياث المكروبين ، وسم المحاربين وملجأ المحروبين .

﴿ فصل ﴾

وكانت لريغه وغيرهم قلاع رسخت بتلك الجبال مفارعها ، وكادت تلمس الشمس مطالعها . وحصون تمنطقت بالسحاب ، وأجذبت ذيول الغمام أحسن الاجتذاب . ومدت أنامل شرفاتها لتناول[565] كؤوس النجوم ، وكشفت عن مناكب أبراجها لتحمل أثقال الغيوم . من كل سام شابق ، نات ناتق ، فار فارق ، عال رام رامق ، زائن رائق ، لا يخاف الموت محاصرة وقد أبدىٰ كل شاهق ، ولا يرضىٰ التسمية بجبل الفتح وإن كان أوّل منازل الظفر لطارق .

وكانت هذه القلاع قد أبدت لأهل الأمر نزاعاً وللفتن نزوعاً ، وارتفعت بحيث الأهوال بحور فخلناها قلوعاً . كما أن تلك الحصون عهد[566] الرقم فخلناها زانيات محصنات ، وأبدت نشوزها الخلاف فخلناها نساء فاركات ناشزات .

ولم تزل مأوىٰ لكل سار سارق ، وملجأ لكل مناف منافق ، ومصب السون[567] والعرب بتغريمها مغرمة ، ومعاقد حكمهم لأربابها محكمة . وآطرد لهم ذلك بمحبة قاطنيها في الفساد ، والخروج عن الطاعة لأولي الأمر والانقياد ، ومفارقة الجماعة التي بها فوز الحياة وعزّ المعاد . أخلاقاً جبلوا

---

(565) كذا في الأصل وقد عوضناه بما يناسب .

(566) كذا في الأصل .

(567) غير واضحة ولعلّها السيول .

عليها بجبالهم ، وخلالاً لا يصرفهم عنها الجوس لخلالهم .

فرأىٰ مولانا الخليفة أيّده اللّٰه أن هدمها من السداد والصلاح ، وانتسافها من إمارات الفلاح والنجاح . فتوجّه الحاجب ثقة الخلافة الشيخ أبو عثمان سعيد بن موسىٰ بجموع من الخيل والرجال ، والآلات الكفيلة بتلك الأعمال . فعفىٰ آثار قلعتين في يوم واحد ، وكذب صاعد أسوارهما فيما آدّعاه من الاستعصاء فلم ينكر كذب صاعد . ولم يعتصم منه مراقيها التي نزل بها العصم ، ولا منعت منه مراقبها التي يحسد نجم نباتها النجم . وتركهما مثلولثي[568] الجدر مثلولثي[569] العروش . فبقي بوجوه صخورهما ما شاءت المعاول من الكدوح والخدوش . وتولىٰ غير الشيخ أبي عثمان من الخواص هدم ما سوىٰ تينك القلعتين . فلا أثر لجميعها بعدالعين ، ولا خلف لأبدها غير الأين . ولا إياب لغمارها أو تباح إياب القارظين،[570] ولا ارفاد لأهلها أو تنضب مياه الرافدين .

﴿ فصل ﴾

ولما كان الركاب العلي مستقرّاً بظاهر تقاوس استوفىٰ وصول العرب الخادمين من أولاد يحيىٰ بن دريد وأولاد محمّد وأولاد عساكر والبوادي بجميع أموالهم . وإبلهم وجمالهم حاطّين بتلك الأذراء لرحالهم ، عاقدين مناظم حلالهم . ضاربين خيامهم التي هي الدياجي إلّا أن الأسنة نجومها الطالعة ، موشين من بيوتهم أغيالاً إلّا أن الأبطال أسودها الرائعة ، وأكنسة إلّا أن نساءهم غزلانها الراتعة . وترعت بمواشيهم الترع ، واجتمع الهبع[571] والربع ، وعمّ الري والشبع . وحضر بالبساط الكريم شيخ أولاد يحيىٰ أبو سعيد عثمان بن يوسف بن سليمان بن علي والشيخ حواباً بن يحيىٰ بن علي وغيرهما من الأشياخ ، ورؤوس الأعشاش الذين أفرخ روعهم أحسن الافراخ ، ووجوه

---

(568) و (569) كذا في الأصل .

(570) كذا في الأصل وهو كلام غامض ، ولعلّ ما يوضح هو إشارته إلى الخراب المقصود .

(571) ج هباع : صغار الحمر .

العرب الذين أصرخوا حلفاءهم أفضل الإصراخ ، ودانوا بالطاعة الكريمة الاستتباب والاستنساخ ، والنصائح المبلغة المنىٰ الواسعة المناخ .

فأوعز إليهم بأداء زكاتهم المفروضة ، واستكمال الطهرة بصدقات أموالهم المعروضة . وتعيّن للحضور على ذلك كبير فقهاء الدولة جليس الخلافة أبو العبّاس بن الصباغ . والكاتب القديم الخدمة ، الرفيع الرتبة ، المنيع الحرمة . الحاج الفقيه أبو القاسم البرجي .

وأشخص الوزير آبن ودرار ومعه كبار الكتّاب الزمامية . وأصحاب الأشغال السلطانية وآقتضىٰ عز الملك ، وفخامة الملك استيفاء أخذ الزكاة على الحالة التي لم يقدر عليها أحد من الملوك المتقدمين ، والسلاطين المتحكمين .

وكان مولانا الخليفة أيّده اللّه لذلك القصد من المتممين ، وبذلك العمل الصالح من المتخنثين المأثمين[573] . ولم ينشب أن انتحىٰ بتلك الزكاة مصارفها . وأسدىٰ على من حضر من الأصناف عوارفها . وتجدد للإسلام ظهور وعزّ ، وأضحىٰ لعطفيه بالمسرّة هزّ ، جزىٰ اللّه مولانا على ذلك جزاء من لز في قرن التقوىٰ فكرم له لزّ[574] .

﴿ فصل ﴾

وكانت مقر من البلاد الشهيرة والمسورات المنيبة المنيرة ، والحواضر المشيدة بالطاعة المشيرة . ذات الزيتون الملتفّ الحدائق ، والفواكه التي تحلىٰ فيّ عين الناظر وتحلو في فم الذائق . والمحارث التي حدثها مطر بأحاديثه الحسان ، والمزارع التي في مواريثها حظوظ للشقائق لكن شقائق النعمان .

---

(572) كذا في الأصل بحذف «التي» .

(573) كلام غامض ربما قصد به المترفع عن الإثم .

(574) يقصد به الخير .

ولم تزل تحت أحكام السلطنة مأمونة مأمولة ، وبراح الراحات منهلة معلولة . تمضى فيها الأوامر ، ولا يتمكّن منها الداء المخافر . حتى أتيح لها هؤلاء الموحدون المتأخِّرون فعزلوا عنها ولا تهم وإن لم يغنوا غناء ، وأزالوا عنها حكمهم وإن كان عن هبوبه هباء. وأسلموها للعرب يعيدون برامها إلى النقض، ويحلبون ضروع جبايتها شحباً في الإناء وسخباً في الأرض. ويتحكمون في أهلها تحكّم النار في الحطب ، ويقودونهم في أضيق العطن إلى مورد العطب . وأعدموا جفن بلدهم لخظاً،[575] فما أقرُّوا للساكنين جفناً ولا لحظاً ، وأخرجوا كثيراً منهم فكان حظ النزيل من قراهم أن قيل هذا مقري لفظاً . حتى أصبحت وحشاها يوقد وثوبها يقد ، وأهلها يردون بالظلم عناة وأدعيتهم لا تردّ . خالية إلاّ أنها مملوءة جوراً ، واسعة الزور إلاّ أنّها لا تسر زوراً . قد أخلاها الخراب فكأنّها طن دور سورها تسلسلاً ودوراً .

ولم تزل العرب يتوارثونها لكن العاصب منقوط العين ، ويقتسمون نسمها لكن قبل إنفاذ الوصية وقضاء الدين . حتى ساءت عواقبها بتملّك يعقوب واستعانت بـآل مرين استعانة القدس بآل أيّوب . فلم ينشب مولانا الخليفة أن أغاثها وكفّ بعزائمه المحادثة بالمضاء أحداثها ، وصرف عن جنابها ما دهمه من صروفه وعالج داءها بالعقار الهندي لكن من سيوفه .

وقد كان بعض شيوخها وصل الباب الكريم بظاهر قسنطينة فأوصله مولانا أيّده اللّه إليه ، وأضفى لبوس النعم عليه . وصرفه إلى مقرّه لتثقيف أموال العرب وأملاكها ، ورفض ما نصبت من أشراكها لاشراكها .

وصدر المرسوم الشريف لأهلها بالوعد الجميل ، وأريحوا إراحة أوفت على التأميل ، فلم يظلمهم ذو العقل الخفيف بالمغرم الثقيل ، وظهرت وجوه العدل فبان حسن انطباعها بالسيف الصقيل وقصرت المسرّات أوقاتها لكن آعتماداً على الرمح الطويل .

---

(575) كذا في الأصل ربما قصد به لخصا .

ولما كان الركاب العلي بظاهر تقاوس وصل وفد مقرة حامدين لربّهم ، حاملين الأنفاس والنفائس لكن من ثنائهم وحبّهم . قد استراحوا إلى كفالة الدولة الغالبة ، وكثر تحدّثهم بنعمها الراهنة الراتبة . ومنبسطة في أكناف السعادة آمالهم ، متوافية على كمال الاستصلاح أحوالهم . قد رمىٰ بهم حسن الرجاء في أوديته ، ودفعهم كرم الالتجاء إلى أنديته . وأقبلوا فقبلوا ، ووصلوا فوصلوا . ونزلوا فآتّسعت لهم الانزال ، وأفضوا إلى مرادهم فحسن الافضاء وعمّ الافضال .

وتركوا البغي ففازوا بنيل ابتغائهم ولقوا واصلاً وعطاء فدانوا بآعتزال لكن عن أهوائهم ، بل لقوا أبا المعالي وهو مولانا فكانوا من المثنية لكن لأعدائهم . وكفلهم آبن الطيّب لكن حياً وميتاً فكانوا من المنية . ويصرهم الإمام الفخر لكن للملوك فكانوا من الفرقة الناجية المرضية .

وتحدّثوا في مصالح بلادهم فتوخيت ، واستخليت مسرّاتهم الكاملة واستجليت ، وتولاهم النظر الجميل فحددت مناشيرهم وأحييت ظهائرهم . وكانوا بسبيل الاعتناء الذي بعدت به مصائبهم ، وحسنت مصائرهم وأمّا صالحهم أبو عبد اللّه الحباس فإنه بلغ التي صدعت من رتب الاكرام ، وحل التي فرعت من مراقي العزّ والاحترام ، التفاتاً لجانب الصّلاح والدين ، وتجلّة لمناصب أهل اليقين . ومناسبة اطردها قياس التقوىٰ ، واعتمالاً في إقامة السنّة التي ثبتت ثبوت ثهلان[578] ورضوىٰ .

وجددت له صكوكه ومراسيمه ، وسدت للدعاء والشكر حيازيمه . وأمروا بالبحث عمّا ألقىٰ عليه جناحه الاخفاء ، من زروع العرب الذين تجارت بهم الأهواء . وأموالهم التي تحامىٰ جانبها بعد الاستحقاق والعداء ، وضم

---

(576) جبل .

(577) هل يقصد بديل بن ورقاء؟ .

(578) كذا في الأصل وهو جبل .

أملاكهم التي شيعت له بساتينها تشيع ابن ورقاء[579] الورقاء .

وتقدّم قائداً بذلك البلد وعمالته ، حامد آبن الوزير بن أبي زيد رحو بن يعقوب لما عرف مولانا أيّده اللّٰه تعالىٰ من نجابته ، وحسن استماعه وإجابته . واضطلاعه بما أخذ بصنعه إلى استتمام أموره ، وأطيل هبوبه إلى سدّ الثنايا المبيحة لمحذوره . إلى ما استبلغ في اغتنامه من محاولات حسنة ، وإدارات على حسن السياسة مؤتمنة . ومزاولات لآراء العربان ، وتفطن لما آقتضته طباعهم في ملابسة الأوطان .

وأضيفت إليه مع ذلك ولاية جبل عياض ، وأنهض إلى الاستقلال بالقيادة أحسن إنهاض . وانتخب له جيش من بني مرين أعزّهم اللّٰه وغيرهم من القبائل ، مدفوعة بعزائمهم صدور العوائل . محمية بهم حوازات تلك البلاد ، مكفوفة بأيديهم أيدي أهل الفساد . وترتبت أعطيتهم في جرائد الكتبة ، وتعينت جراياتهم المحسبة في أزمة الحسبة . وتوجّه حامد من تقاوس محموداً ، قائد الأبطال الذين دعتهم السلم أناسي والحرب أسوداً .

ونجح القصد الذي حمدنا اللّٰه عليه قياماً وقعوداً ، وصلحت أحوال تلك المدرة صلاحاً مودوداً ، وأصبح العدل منشوراً لا منشوداً ، ونصر اللّٰه مولانا على أعدائه الذين صدوا عنه صدوداً .

﴿ فصل ﴾

وكانت زراية قد اكتسبت رفعة ، وأزرت بقصور تلك البلاد متعة . ولم تزل منسوبة للعرب مميلة لركائبهم ميل الطرب . مقبلة إليهم باللبيب الرخي ، مغرة لهم كنعف اللوىٰ للتعلبي .

فعزم مولانا أيّده اللّٰه أن يوجّه إليها من تقاوس من يهدمها ، ويشخص طائفة من الجيوش المنصورة تدمدمها . ووقع الازماع على ذلك استتباعاً لزوال

(579) نوع من العنب أو ما يسمىٰ بالبرقوق بالمغرب .

الداء ، واستئصالاً لنعمة الأعداء ، واستبلاغاً في الاعدام والأعداء . إلى أن وصل كتاب آبن مزني من بسكرة شافعاً لصاحب زراية ، ورافعاً على وفائه الراية . ومعلماً أنه يد باطشة لمولانا أيّده اللّه على المفسدين ، وعين على من يغر أو يغير من المعتدين .

وآلتزم آبن مزني مرجع الدرك عليه في ذلك ، وصدع بالنصائح التي اترعت المالك . وهو من هو بعداً عن الظنة في كل ما يدرّه ويأتيه ، وتنزهاً عن الميل والهوادة في كل ما يعتامه ويلتحيه .

فقبل مولانا أيّده اللّه شفاعته ، وشكر رأيه وحمد إذاعته . وأحسبت صاحب زراية التكرمة ، وآنجلت عنه غماته المظلمة . وبقي قصره جميعاً شمله شاملاً جمعه ، مرتبعاً أهله آهلاً ربعه ، صادعاً شعبه مشعوباً صدعه ، وكتب للمولىٰ الخليفة الأجر الذي فرع أصله وتآكل فرعه ، أيّده اللّه بالنصر الذي يشرع ورده ويورد شرعه ، وأولاده العزّ الذي يطلع نجمه وينجم طلعه . حتى كان من أمره ما سنذكره إن شاء اللّه في كائنات العام الآتي قريباً ، ووقائعه التي لم تبق بتلك القصور بعد القصور من العرب عريباً .

﴿ فصل ﴾

ولمّا كنّا بظاهر تقاوس تذكّر مولانا الخليفة أيّده اللّه بسكرة وحدائقها ، وسكناه روض بن داوس الذي أبدت به المسرّات وسائقها ، وإقامته به الأيام التي ملأت بالسيف حقائبها ، وحمت بالسيف حقائقها . فلم ينشب أيّده اللّه أن أمر لابن داوس صاحب الروض بخلع نفيسة وبذر من الذهب العين ، وأشخص له بذلك أشخاصاً تركه ملء اليدين ، وأولاده الاعتناء الذي اشتهر اشتهار البروق بالإبرقين . وجمع له بين الشرف وتصحيفه لكن في الخير ، وغاذر أخباره سائرة في البلاد وإن لم يعتمل في السير .

وسرّ آبن مزني بإرسال مزن الجود على صهره ، وخال خال ولده[572] روضاً روىٰ قطره بقطره ، وتمت عليه النعمة التي أطلقها بلسانه وقيّدها بشكره ،

وأثنىٰ الجميع فكأنّهم أهدوا إلى الأفق أنوار بحره ، وإلى البحر نفائس درّه ، وإلى الروض منشورة عطره ، وعاطر نشره .

أبقىٰ اللّه مولانا الخليفة في ملك لا مقدر لاعتلاء قدره ، وسلطان لا نهاية لآماد نهيه وأمره ، وأيّده اللّه على أعدائه سيفاً أبيضنا وأسمرنا ببيضه وسمره .

﴿ فصـل ﴾

وفي يوم الأحد الثاني لشهر شوال المذكور دخل مولانا أيّده اللّه تقاوس وجال في رياضها ، وبساتينها المعتملة في أحلالها وأحماضها . ورساتيقها التي أفنىٰ جواهر الكلم وصف أغراضها . وأعجبه تكاثف ظلالها التي علىٰ القلب بآستحسانها خفّة ، وآطراد أنهارها المنيعة التي راقت لهـا بصافي الأوراق ضفة . وراقه منها أشجار صعدت في الجو كل تصعيد ، وقلدتها أعنان السحاب بدرر دررها أحسن تقليد . ومياه ضاقت بها ذروع الأرض ، وكادت تشكوها إلى البارق الصادق الومض . فلا ترىٰ إلّا مذانب لا مزاحم لدليل دورانها إلّا أصول الشجر ، ولا يعترض لملازماتها الصحيحة إلّا الساقط لكن من الثمر . ولا تبصر إلّا غصوناً بعيدة مهوىٰ الزهر ، أسيلة مجرىٰ الدمع لكن إذا بكت عيون المطر .

إلى غير ذلك من النبات الذي باهىٰ وبهر ، فلولا ما نعلم من صلاحه وحسن استقامته لقلنا انه سحر .

هذا وما من بستان يبعد عن بستان ، ولا جنان يشجر أذيال أشجارها عن جنان ، ولا روض يحل أيدي قضبانه عن ازرار روض ، ولا حديقة تميل حديقتها عن مشاهدة حوم على حوض . بل آتّصل السواد بالسواد ، وامّتدت مظاهر ذلك وهذا ما شاءت من الامتداد .

ومما آختصّ به كل موضع منها شجر التين الذي اشتهر فضله في السفح الشرقي والجوز الذي أدهش ثمره فأخذنا المدهش عن الجوزي والعين[580]

---

(580) كذا في الأصل .

الذي جاء بالغريب ، وخرجه النضر فجمع اللسان لكن في الفم المستطيب .

إلى غير ذلك من الفواكه التي سرّ بها الفاكهون ، والثمرات التي طلب الوصول لكن إليها السالكون . فهو بلد خصيب ، وقطر ماؤه صائب وساكنه مصيب .

نحمد اللّه على أن ردّ حكمه لسيد الملوك البادي الحكم ، ونظمه في سلك إيالته التي متعت بالكرىٰ وسرّت بالكرم ، ولله الشكر الذي يحفظ نعمه التي هي منشأ النعم ، واللّه يبقي خلافته الرافعة الخلاف الراعية للذمم ، ويبقي زمان نصره العائدة لياليه مطالاً من الديم[581] .

ذكر القدوم على قسنطينة والإياب :

والأخذ في الحركة إلى بلاد الاعراب :

وفي يوم الاثنين التاسع لشوّال المذكور كان الفصول من تقاوس والسعد له مقارن والقرين مسعود ، والجود راع والمرعىٰ مجود ، وللجهاد ألوية خافقة وبنود ، فكأنّما أحيىٰ يوسف بن أيّوب الذي كرمت له بالفتح عهود ، والملك العادل نور الدّين الذي تقضت له بالنصر وعود ، ولا غرو فمولانا صلاح الدين حقاً وهو من قبل محمود ، والبشائر قد أسرعت فكأنّها طيور وجند مولانا تحتها أسود ، والتهاني قد أقبلت فكأنّها أجياد ومآثر مولانا لها عقود ، والمباهج قد راقت فكأنّها خفر والمجالس خدود ، والمناجح قد أغدقت فكأنّها غيوث والطبول رعود .

وما سارت ركائبنا إلاّ في بطاحٍ رشتها أيدي الأمطار ، وجاد مرعاها بما اختضر نباتاً فكأنّه خالع للعذار . فآمتلأت كؤوس الغدران بالمدام ، لكن من وكوف السحب وسح الغمام. وتعطرت المنازل فكان كل دار دارين، وعبقت الأسحار والأصائل فكأنّها رياحين .

---

(581) ج ديمة . استمرار .

ولم يزل العمل مستتباً في ترتيب الأحراس عند الرحيل ، والتصعيد والافراغ بالأبطال الغرّ البهاليل . والأخذ بالحوطة في ملازمة أعقاب الرواحل ونصب الحبائل للعرب المتّكلين بعيشهم الزائل . والترصّد وماذا عسىٰ أن يشخصوه من سارق مختلس ، ومستشرف لبعض الأخبار ملتمس .

وكان مولانا أيّده اللّه يبعد عن صوب المحلّات المنصورة قابلاً إلى المصائد والمطارد ، ومنتحياً الجهات التي تنجم منها طلائع العدو المعانِد . ويميل على الجوانب المخوفة بنفسه الشريفة وأفراد من الأبطال المختارة ، والشجعان الذين لم يزالوا عابرين جسور الجسارة ، مبتدراً للطعن أن أزفّت الغارة ، منشداً بين رجاله ومن تكن الحضارة ، ناظراً في المصالح على وجهه النضارة .

فأمن الناس أمان حمائم الحرم ، ولم يروا الموت أفضل نزال على الحرم ، وساروا حيث شاءوا وكما شاءوا بالنعم والنعم .

وكان وصولنا إلى قسنطينة يوم السبت الثاني عشر لشوال المذكور فبرز مولانا الخليفة أيّده اللّه بالتعبئة المنتظمة ملء الأنجاد والتهائم ، والمواكب التي كان سراها في ظهور العزائم ، والمراكب التي صارمت الهوينا لكن بالصرائم .

وكان الأمير أبو زيّان آبن مولانا الخليفة الإمام المتوكل أبقاه اللّه للدولة زيناً،(582) ولشبخ الملك وجهاً ولوجه المجد عيناً . قد تخلّف بقسنطينة لمرض ألمّ ، وغرض لقيت منه المعالي ما أهمّ . وأقام معه وزيره وخواص خدّامه . ونشأت إحسانه وأنعامه . ووجوه أهل امرته ومصابيح أفق حضرته ، وقومة مجالسه وأنديته ، وعقدة راياته وألويته ، وخدمة سيدة قصره ، وسفرة نهيه وأمره . إلى غيرهم من لفيف جيشه الجرّار ، وسواد عسكره الذي خضعت له رقاب الأمصار والاعصار .

---

(582) كذا في الأصل .

وآنضاف إليهم من كان تركه مولانا الخليفة أيّده اللّٰه هنالك من جيوشه الزاخرة بحارها ، وعساكره التي طمّ على آفاق البلاد تيارها . لمّا علم أيّده اللّٰه أن الزاب يضيق عن حمل ما جند وكتب ، وقوىٰ بلاده تضعف عن تلقّي ما نظم من المقانب ورتب . فآنضمّ الجميع إلى موكب الأمير وحشروا مدفوعين إلى النظام والترتيب ، وحفظ المراسم المستوسقة بالبعيد والقريب .

فلما وطئوا موضع اللقاء عقدوا المصاف داهشين مما غشيهم من هيبة الخلافة ، مجهشين إلى كنف ملكها الكريم الإنالة والإنافة . ونهض الأمير مقبلاً على الموكب الأعظم صامداً إليه ، مستبلغاً في البر الذي عطفت أواصره عليه .

ولمّا آنتهىٰ إلى مقامات الورعة ، وحدود الركبة الفرعة . جرىٰ مولانا أيّده اللّٰه على رسمه المعروف ووقف لبيعة ولده وسليل مجده ، وبيعة المحتوشين بالركاب العلي من بعده . وأقبل الأمير السامي الفخار ، ملتزماً بعد ترجّله سمت الوقار . وخلفه الجيوش المترجلة مقتفية آثاره ، رادفة في ربقة الترتيب أنواره . مقبلة بوجوه ضاحكة مستبشرة ، ونفوس لبلوغ الآمال مستشعرة . فبدأ الأمير بتقبيل الركاب ، واستتبّ لمن بعده ذلك الرسم أحسن الاستتباب .

وجعل مولانا الخليفة أيّده اللّٰه تعالىٰ يتلقّىٰ المسلمين ببشره ، ويرسل قبول قبوله معطرة بشذاه ونشره . والطبول أثناء ذلك تذهب في الأسماع كل مذهب ، والألوية المرقوب اطلالها قد زانت كل مرقب . والشكر للّٰه هجيري الألسنة ، ثم الدعاء لخليفته المظهر لسيرته الحسنة . والثناء على ذلك المولىٰ الثاني لعنانه منتشر ، والذكر لمناقبه متواتر فلا ينكره إلّا كذّاب أشرّ .

فلمّا استتمّ ذلك العمل ، وتبوأ متبوّأه الجذل قصد الخليفة مخيمه الشريف وقد احتفل الأمير في إحضار الضيافات ، واستبلغ في إعدادها أحسن الاستبلاغات . فأطعم الناس إطعاماً عمّ وخصّ ، وأحسب أحساباً قصّ من أحاديث الجو ما قصّ .

وخرج الخاصة والعامة منأهل قسنطينة للسلام ، فأوصلوا إلى مقرّ الإكبار والإعظام ، ورأوا القبول الوافر الأقسام الباهر القسام . وشملت المسرّات فكان الشامل عاضداً لـلارشاد ، وشفـع التمهيد بـالهدايـة فغلب أهل الضـلال والإلحاد ، وتمّت النعمة فلا تجانف عن نيل السعادة والاسعاد ، والحمد للّه على ذلك حمداً نذخره معاداً إلى يوم المعاد .

﴿ فصـل ﴾

ولمّا قضىٰ مولانا الخليفة أيّده اللّه حركته الزابية مشرفاً على ثنايا قصوده ، وأوفىٰ على شرف الشرف المنجز في النصر لوعوده ، ونال وما ينال أعظم لكن على رغم حسوده. صرف إلى الأوطان القسنطينة وما كاثبها[583] وما صاقبها من الأقاليم الأفريقية ، وأرهف،،، الكفيل باستصلاحها ، وأحصد حبل الاهتمام المفوز لقداحها ، وأولاها حظاً من خاطره المبارك العائد بـآستنجاحهـا ، واستوسق رأيه عزماً على دخول بلاد توبة واسترجاع القلاع التي بأيديها ، وعمارتها مستمراً بمباشرة المصالح التي تحبيها وتحييها . ونزوعاً إلى تبسة التي هي مركز دائرة الأقاليم ، ومجمـع الأوشاب الاعـرابية والأصـاميم . واسترواحاً إلى تكميل غبطتها بإيالته الفضلىٰ ، واعتمالاً في تمهيدها الذي يجد آخره يوم تجتر السرائر وتبلىٰ،،،[584] .

وكان رحيلنا من ظاهر قسنطينة على الحالة المستوفية[585] مطالع العزّ ، والأهبة التي هزّت جذوع النصر أحسن الهزّ ، وتزاحمت العساكر قاصدة الطية ، حائزة أراقم رماحها التي يرهبها ملوك بني حية . مقتلّدة سيوفها طالما سلّت للقرن المظلل ، وأغراها الكشاف بالمفضل . وأشبهت الجداول بما أحسن عند تكاثر الأعداء بالضرب بالجدول .

---

(583) ما اجتمع حولها .

(584) بياض .

(585) في الأصل المتوفية .

ولم تزل الأعلام منشورة ، والأمثال مطوية ، والهوينا مكروهة والسرعة مرضية . حتى نزلنا بتحست فخيمنا في تلك الخلال ، وأطلنا السقا فكان الماء أعزّ من المال . لكن مولانا أيّده اللّٰه لم يقتدح في عزمه قادح ، وطلب المعالي بدليل الراحة مرجوح ودليل العنا راجح .

وقد كان أولاد أبي الليل رؤساء عرب أفريقية قد سمعوا بفصول قائد تونس الشيخ أبي زكرياء يحيىٰ ابن رحو ومن معه من الجيش المحفوظ ، والعسكر الملحوظ بالعيون والملحوظ ، مستأثرين من العزّ بأوفر الأقسام وأوفىٰ الحظوظ ، وأن أولاد كعب الخادمين قد دخلوا في سوادهم ، واجتمعت أنجادهم لأنجادهم . واحتشدت القبائل الأفريقية مظاهرة للكلمة العالية ، صائلة على الفئة الباغية ، والعصبة اللاغبة اللاغية ، والفرقة الفرقة الخاشية .

فأنس أولاد أبي الليل الدواهي ، وأيقنوا بالتي في قطع دابرهم ماهي ، وخلعوا أردية ، ، ،[586] التي أمضت فيهم الأوامر والنواهي . وأقصروا عن حمل أوزار الحرب والضرب في الأرض للطعن والضرب . وارتكب ظهورهم كل جيش جرّار . يدع الآكام كأنّها صحار .

وانتشرت عليهم الخطوب كأنّها طالبة أوتار ، وبارت عليهم نوائب الأيّام فكأنّها مدركات لثأر .

ولو شكان ما ذا دوا عن أفريقية ذود غرائب القلاص ، وأخلص الصقل السيوف لاختلائها[587]؟ أحسن الإخلاص ، وألزمت الاستنشاق لكن لصدء الحديد العواص ، والاستمتار لكن للدرع المضاعف نسجها والدلاص ، ورمت صدور البلاد منهم بشجىٰ اغتصّت به أعظم الاغتصاص .

وطلب يعقوب بن علي التحيّز إليهم بمن معه من البرناجيين الذين دانوا برهبانية الرهب ، ووسع اللّٰه عليهم فلم يوسعوا على أنفسهم إلاّ في الهرب ،

---

(586) غير واضحة .

(587) كلام غير واضح هامهم .

إلى من آنضاف إليهم من ناس منصور بن طالب وإنه لمخذول إذا طلب ، وخلفائه من حمير الذين خامرهم الروع فغلبوا كما غلب . وسلبت عقولهم فلا عقل عندهم لمن قتل وسلب .

فهبّت ريح أولاد أبي الليل بمؤازرة رياح ، وعطفوا على تبسة ليجتمع شملهم بعد إشراح . وطمعوا في النجاة معهم بنفوسهم ، لا في المناجزة التي تطيل بها السيوف سجود رؤوسهم .

ويلغ مولانا أيّده اللّه كتاب صاحب تبسة مخبراً بنزولهم تلك المنازل ، فشحذ لرقابهم البيض المناصل ، وأشرع إلى صدورهم السمر الذوابل . وأحب أن يغترّوا بمصائرهم على الجلاد ، وممارستهم للحروب الوارية الزناد . حتى يتّصل بسوادهم ، ويتلاحق جياده بجيادهم . فلا يترك بمواطن الاعراب من عريب ، ويعم الظالمين الذين هم في شقاق بعيد بهلاك قريب ، ويستأصل أولاد أبي الليل بوقيعة لا تدع معذرة ، مطلعاً بذلك نهار العدل الذي لم تزل أنواره مسفرة ، حتى يتلو لسان النصر : **﴿فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة﴾**[588] .

ثم بلغ مولانا أيّده اللّه أنّهم لا يثبتون للقائه ، ولا يتهايجون اقتحاماً لنار هيجائه ، ولا يناجزون أقلّ عبيده المغمورين بآلائه ، ولا يبارزون أضعف عتقائه المتشرفين بولائه . وأنّهم عازمون على الاستبلاغ في الفرار ، والانسلال عن رتق تلك الأقطار . خوفاً أن تتلاحق بهم الجيوش الأفريقية منذرة بالحين ، فيحصلون بين الشوكتين ، وتنضخ جلود جلادهم بين النارين . ويحاط بهم ولاء إحاطة السلاسل بالأعناق ، والأهذاب بالأحداق . وتجتمع عليهم الأيدي ولاء اجتماع اليعاسيب على الضرب الحلو المذاق . وان طلائعهم محثوثة ، وعيونهم وأرصادهم مبثوثة . ونخب كماتهم منخوبون روعاً ورعباً ، وفوارسهم قد ضعفت عن أن ترتكب من المناهدة مركباً صعباً ،

---

(588) قرآن كريم .

ومناجيدهم قد ضاقت عليهم الأرض العريضة ، وآحتوت المباينة بالنـزال قلوبهم المريضة .

فرأى مولانا أيّده اللّه أن اتباعهم في البيد التي لا ماء فيها ولا ظل ، والصحارىٰ المتوغلة التي لا مهيب بها ولا مهل . ضائر بالجيوش التي كثر كراعها ، وملأ الأرض اتباعها ، وكلّت عن الاستقلال بهم أبصـار الآفاق وأسماعها . لا سيما والليل طويل ومولانا أيّده اللّه معتمر ، ولليوم ما بعده وهو ببلوغ الآمال إن شاء اللّه مشعر .

وأمّا توبة فهم رعية ساقطون عن درجة الاعتبار وقوّادهم تمضىٰ الأحكام في بلادهم على حسب القصد والاختيار ، وتبسة؟ قد ظهر صلاحها فأغنت عن السبر والاختبار . فلا رأي إلّا في راحة النوع الناطق ، وحملة أثقاله الصاهل والناهق . والإفضاء بهم إلى أكناف التودّع ، والأخذ بهم إلى الإياب الكفيل بالتوسّع . لا سيما وقد اشتد البرد فما قيل حتى ، وأقبل الشتاء فقلوب السحب جميعاً لا شتىٰ . والثلوج تسقي الأرض كافورها لتنقطع ولادتها ، والبروق تلفح الآفاق بنيرانها فلا تنفع عيادتها . والرياح قد أبدت عصوفاً دائماً ، وأتت بجنودها فكأنّما ظنت كل قائم قائماً .

ومع ذلك فإن الخائن الغادر الماكر عيبة العيب ، الذميم المشهد والغيب . مسيلمة عصره الذي خافه الناس آتقاء فحشه وهجره : عمر بن ميمون بن أمصمود كان وجّهه مولانا الخليفة رضي اللّه عنه بعد فتح قسنطينة إلى الوزير أبي زيان فارس بن ميمون ودرار وحمد اللّه في شأن إنزال عرب استوجبوا البر ، واستحقّوا الاعتناء المستمر .

وأراد مولانا تتويجهم بالنزول عند وزيره ، وإظهار حرمتهم بإسناد أمرهم إلى نصيحته وظفره . فسلك معه الوزير مسلك الممازحة ، وكانت منه دعابة بديعة المعاداة والمراوحة فقال له ان رحيلنا إلى الزاب أوجب أن تركنـا الأثقال ، وخلفنا وراءنا الأهل والعيال .

ولم نصحب من المضارب إلّا ما يسعني ولا يفضل عنّي ، فما أحقّ هؤلاء العرب بالخيبة الصادرة لهم منّي . ثم انه أمر بإنزالهم موسعاً عليهم ، مصروفاً عنان الاحتفاء والاحتفال إليهم . عملاً على شاكلة همّته التي برعت مطامح الهمم ، وقياماً على أقدام الائتمار لامامه المستزجل للكرم .

ثم ان عمر بن ميمون رجع إلى السلطان خبيث النفس ، معتاضاً الوحشة من الإنس . وكنت[589] يديه أيّده اللّه على أهبّة الفصول لتنفيذ أوامره ، وملاقاة بواديه وحواضره . فقال له ما بالك يا عمر؟ فقال : إن الوزير أبىٰ أن ينقاد لما أمرته به من إنزال الضيوف واستعذر عن ذلك استعذار التجانف عن سبيل الطاعة والصدوف .[590] فآحفظ ذلك الخليفة إحفاظاً دعدع طود حلمه ، وأخرجه في الأناة عن معهود رسمه .

ولم ينشب الوزير أن دخل عليه على اثر ذلك فأوسعه توبيخاً وتقريعاً ، وسبّه على رؤوس الحاضرين سبّاً شنيعاً . ولم يكن وبّخه مدة خلافته ولا سبّه ، ولا عامله إلّا بما يطيب نفسه ويجتذب حبّه .

فأثّر ذلك في قلب الوزير تأثيراً أنطق لسانه ، وأفاض في ذلك المقام الهائل بيانه ، فآعتذر أوّلاً عن ذلك بأنّه ما قال لعمر بن ميمون ما قاله إلّا على وجه الدعابة ، وأنّه امتثل المرسوم الشريف آمتثال الإخلاص والمراقبة . وقال يا مولانا إن الحسنة لعشر أمثالها وإلّا فما لمولانا أيّده اللّه قد نسي حسناتي التي تفوت الحصر ، ولم يذكر سوابقي التي ضمنت له النصر . وواخذني بذنب واحد لم يقم عليه دليل ، ولا وضح لصحة إسناده سبيل . وأين غرب حلم مولانا الذي وسع عظيم الذنوب ، وأين غابت أناته التي كفلت بنيل المرغوب والمطلوب .

فآستحيىٰ مولانا الخليفة رضي اللّه عنه الذي ألان له جانب الكلام ،

---

(589) كذا في الأصل .

(590) مال إليه .

وأزال الفظاظة تحلياً بسجايا أهل العقول والأحلام . وآنصرف الوزير عن المجلس وقد أضمر لعمر بن ميمون العداوة والمكاشحة ، وأراه المغالبة بالأحنة والمفاضحة .

فآحتال عمر بن ميمون في إزالة نعمه ، وسعىٰ السعاية الشنيعة في سفك دمه . وأقام في السرّ شهود زور بأن الوزير المذكور عوّل على غدر الخليفة ، وسعىٰ فس استسقاط الرتب المنيفة . وإنه تحدّث في ذلك مع عمدة شيوخ بني مرين إذ ذاك فأجابوه لاهجين بالمغادرة ، وأبرموا ذلك الأمر إبراماً مدّوا إليه أيدي المؤازرة والمظاهرة وأنّه ما بقي إلاّ أن يرتكبوها شنعاء ويبرزوا سؤتها سواء . ويتبادروا التي تطيل حزن الإسلام ، وتبكي عيون الليالي والأيّام .

فقبل مولانا الخليفة رضي اللّه عنه تلك السعاية التي تولىٰ البغي تزخرفها ، وأضمر الإيقاع بأركان مملكته ولو شاء اللّه لعلم الحقائق وعرفها .

وكان هذا الأمر مما رجح لديه الرجوع إلى الغرب وحمله في التغير على ظهرائه ونصحائه على ارتكاب المركب الصعب .

وفي ليلة أشاد رضي اللّه عنه لخواصه بالرجوع ، بعد مفاوضة نزعت عن قوس الهداية أحسن النزوع . فشاع ذلك تلك الليلة في المحلاّت المنصورة التي سئمت من قطع المراحل ، وآنضاء الرواحل ، وصدع الفلوات والمجاهل . وسرّ الناس بذلك سروراً تهادته الأرواح ، واستحمدوا ذلك القصد استحماداً تناقلته الأفراح .

وأصبحنا مقيمين بذلك المنزل لتتميم المصالح ، واعمال الآراء في تكميل المناجح . وأقبلت ليلة يوم، ، (592) فسرّت فيها العيون بكراها ، وأعطيت بها النفوس نفائس مناها .

---

(591) بياض .

(592) بياض .

فلما نشر الأفق ألوية الصباح ، وسقط غراب الليل مقصوص الجناح . استركبت الجيوش للرحيل ، وأخذ بهم سواء السبيل . وانتظمت المواكب على مولانا الخليفة رضي اللّه عنه مسرورة بالإياب ، قائمة على الاستجذال، ، ، الغياب . وصرفوا الأعنة نحو قسنطينة فطويت لهم الأرض ، وبسط لهم قوادمه وخوافيه النهض . وقدم الناس عليها عاملين على الجهاز ، والفصول عن تلك النواحي والأحواز .

وأقام مولانا رضي اللّه عنه عليها يومين حتى تهيأ الاستعداد للتغريب ، ورتّب أحوال قسنطينة أحسن الترتيب . ورحلنا على طريق بازر إلى أن أشرفنا على سطيف ، آخذين بالحزم الذي لم يكن في ميزانه من تطفيف . ثم أخذنا ذات اليسار منتهضين في سيرنا أحسن انتهاض ، حتى بلغنا الجبل المدارك لعياض . ثم قدمنا على المسيلة خائضين سواقيها بالساقات ، مخترقين بطاحها المنفسحة أعظم الاختراقات .

وأقام مولانا الخليفة بها حتى أثقلت ظهور الكراع ، وحملت الأطعمة المختلفة الأصناف والأنواع . وأشعر الناس بالمسير على الصحراء ، إشفاقاً على حملة الأثقال من سلوك عراعر الجبال ، واغتيام الأوعار المجشمة للأهوال .

وبظاهر المسيلة أمرني مولانا الخليفة رضي اللّه عنه بإنشاء كتاب اقتطعت زهره الذابل بيد الإسراع . وغصبت بالإعجال منصبه فلم يجنح الابداء للإبداع .

فاتحة : من عبد اللّه المتوكّل على اللّه فارس أمير المؤمنين المجاهد في سبيل ربّ العالمين ، آبن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل ربّ العالمين ، أبي الحسن بن مولانا أمير المؤمنين المجاهد في سبيل ربّ العالمين ، أبي سعيد عثمان آبن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل ربّ

(522) غير واضح .

العالمين . أبي يوسف بن عبد الحق أيّده اللّه بنصره . وأمدّه بعونه وبشره . إلى الشرفاء المعظمين الأصلاء ، والفقهاء الأجلّاء والأشياخ والصلحاء ، المباركين الأتقياء ، والوجوه والأعيان المكرمين الأثراء ، والأمناء المرعيين النصحاء ، والخاصة من أهل بلد كذا والعامة على الولاء . وصل اللّه لهم سعادة طالعة الأنوار ، وأسمعهم أنباء النصر الذي تتلوه ألسنة الأزمان والاعصار ، وأطلعهم على المتزيدات التي تلبس أعطاف الأنضار حلل الاستبشار ، وتتفتق طروسها عن المسرّات تفتّق الكمام عن الأزهار .

سلام عليكم أجمعين ورحمة اللّه تعالىٰ وبركاته .

أمّا بعد حمد اللّه الذي جلّت عظمته وكبرياؤه ، وتقدّست صفاته العليا وأسماؤه ، وتنزهت عن الإحصاء نعمته وعن الحساب عطاؤه ، الملك الحقّ الذي عمّت الخلائق آلاؤه ، الحكم العدل الذي يجري بما شاء قضاؤه ، الربّ القاهر الشديد محاله وابتلاؤه ، الذي إذا أخذ الظالم لم يفلته وإن طال إمهاله له ، ، الولي النصير فلا يخاف ولا يحزن أولياؤه ، الفتّاح العليم فطوبىٰ لمن نصر دينه الباهر سناه وسناؤه ، والصلاة التامّة على سيِّدنا ومولانا محمد الذي عظم اجتباؤه واصطفاؤه ، وجلّ في الأنبياء حبّه وحباؤه أكرم الناس إذا اشتدت لاواؤه ، وأشجعهم إذا نشر لواؤه ، وخير من ركب الجياد وقد زحفت لمأزق الجلاد أعداؤه ، وأفضل من سارع إلى الطعان والضراب على حين شبّت ضرامها هيجاؤه ، وأغامت بالنقع المثار فوق العسكر الجرّار سماؤه ، وجاهد في اللّه حقّ جهاده حسبما اقتضاه عناؤه ومضاؤه ، وحكم به يوم آزدلاف الكتائب وآصطفاف المقانب اباؤه ، والرضا عن آله وصحبه الذين نصروا الحقّ حتى رسخ بناؤه ، وأظهروا الصدق حتى انتشرت على قسمات الهدىٰ أضواؤه ، وفتحوا الأقطار فتحاً انفسحت لوفود المسرّات أرجاؤه ، ومهدوا الأمصار تمهيداً على بساط العزّ والظهور أرجاؤه والدعاء لهذا الأمر العلي الإمامي المجاهدي المتوكلي الفارسي بالنصر الذي يحسن احتفاله واحتفاؤه ، والعضد الذي تكرم ارتياده وارتياؤه ، وصلة الفتح الذي ترویٰ عن سمر الرماح وبيض الصفاح أنباؤه .

فإنّا كتبناه إليكم كتبكم اللّه في المتّقين الأبرار ، وجعلكم ممن سارع إلى مرضاة الملك الغفّار ، من منزلنا السعيد بكذا يمنه اللّه وليس بفضل اللّه الذي عليه اعتمادنا وبركة سيِّدنا ومولانا محمّد الذي به توسلنا وإلى جاهه العظيم استنادنا ، وإلى السعادة التي آطّرد قياسها ، والمسرّات التي قام قسطاسها ، وصلة الصنائع الجميلة التي عطرت المهبّات أنفاسها ، وتوالي المكيفات البديعة التي شرح معاني الرشد إيناسها ، ونحن نحمد اللّه تعالىٰ على ذلك بمحامده التي كرمت أنواعها وأجناسها ، ونسأله أن يوزعنا شكر نعمه التي أنار في مشكاة الآمال مصباحها ونبراسها .

وإلى هذا أسعدكم اللّه وأصعدكم وعمر بالبركات والحسنات يومكم وغدكم . فإنكم بحسب مالكم عندنا من العناية الراسخة القواعد ، والرعاية الشامخة المصاعد ، والكرامة المعمورة المشاهد ، والأثرة الحسنة التي أقامت أوضح الشواهد ، لا نزال نعلمكم بما تزيد لدينا من الأنباء الكريمة المصادر والموارد ، وأخبار النصر الجميل الصلاة والعوائد .

وقد علمتم ما كان من إقامتنا بظاهر قسنطينة حرسها اللّه لتمهيد أوطانها التي نجمت بها الفتن ، وتسكين رعاياها التي طالما فجعتها المحن ، وألقىٰ عليهم أصرة الزمن . حتى أعطت قبائلها المشهورة المراهين على حكم الإذعان ، وربطناهم لأحكام السياسة التي بها قوام البلدان . فصلحت أمورها بعد الفساد ، وأحييٰ اللّه بها كلمة العدل الصادق الاشهاد .

ثم إنّا طلبنا رياح أيضاً بالمراهين الجزلة ، ولم تدن إنفاذ المصالح العامة بالمهلة . فأنابت طائفة منهم إلى ما أريد منهم على أكمل الأحوال ، وأدُّوا زكاتهم على أقدام الائتمار والامتثال . وأمّا الطائفة الأخرى فآختاروا نفاق نفاقهم ، وخلعوا ربقة الإسلام من أعناقهم ، وأخذتهم العزّة بالإثم . ومرقوا من السنّة والجماعة مروق السهم . ودلاهم الشيطان بغرور ، ورماهم في مهاوي ويل وثبور .

فآستخرنا اللّه في جهادهم وإنه لأفضل من جهاد الروم ، واستحضرنا

نصوص الفقهاء في مثل هذه النازلة والقصد المروم . وتحركنا إلى بلاد الزاب مقار[593] الأشقياء الذين استحقبوا نكراً ، ومواطنهم التي يذكرونها كذكرهم آباءهم أو أشدّ ذكراً .

فلما علموا بذلك هربوا إلى الصحاري والقفار ، وتاهوا في الموامي التي لا تهدي فيها القطا لمساقط الأمطار . وحقّت عليهم كلمة العذاب ووجبت ، وراموا النجاة فضاقت عليهم الأرض بما رحبت[594] .

ولم يكن بأسرع من وصولنا إلى بلاد الزاب ، وإنجاف الخيل لها كما ترضاه الركاب . فتتبعنا بالمنازل شتىٰ أقطارها ، وحسنا بجيوشنا المظفرة خلال ديارها. وهدمنا ما كان للأشقياء من حصون وخربنا ما كان لهم من أوطان، وقطعنا نخيلهم الذي كان بحدائقه الملتفّة صنواناً وغير صنوان .

ومنها :

«ولما حل ركابنا العلي بسكـرة قاعدة بلاد الزاب وأمّ قراها التي ارتادتها ركائبنا أحسن الارتياد . رعينا لشيخها أبي يعقوب بن مزني ما أسفله من الخدم وما كان له في مناصحة مولانا المرحوم من رسوخ القدم ، وللوفاء الجاري على النهج الأمم ، ثم ما كان من مبادرته لخدمة بابنا الكريم ، وعمله على شاكلة الإخلاص الصادر عن القلب السليم . فأقررناه ببلده أحسن الاقرار ، وأحمدناه عواقب أمره المرضي الإعلان والإسرار . وملأنا يده بالعطاء ، وسمعه بالثناء ، وقلبه بمضاعف السراء» .

ومنها :

«ولم تزل أنباء أفريقية تصلنا بما يقرّ العيون ، ويصدق في مواصلة النصر والظهور الظنون . فها هي قد استوثق بها ملكنا المنيع النمار ، وقرّت في نصاب إيالتنا الرفيعة المقدار، ومضت فيها أوامرنا على حسب القصد والاختيار.

---

(593) ج مقر .
(594) قرآن كريم .

ولم يظهر من أهلها إلاّ المحافظة على طاعتنا والتحيّز إلى حزبنا المفلح وجماعتنا . والاستمساك بدولتنا الرحمىٰ ، والمطاولة والمصاولة بحسام عزّنا الأحمىٰ .

ولم تزل بيعاتهم تصلنا على أكمل الشروط ، وأحسن الربوط .

وقد وجّهنا إليكم نسخاً مما ورد علينا منها في هذه الأوقات لتعلموا ما عند عاقديها من حسن السرائر ، ومرضي الضمائر ، والمحبّة الواضحة الشعائر ، والاغتباط بطاعتنا الكريمة الأواصر . والسرور بدعوتنا التي زهيت بها صدور المحاريب وظهور المنابر .» .

ومنها :

«وآعلموا أنّا قد قضينا هذه الحركة المباركة على أفضل ما يتمنّىٰ مخير أن يكون ، وأفضل حال لا يزال إن شاء اللّه واصلاً العزّ والظهور والهدىٰ والهدون .

وعمّا قريب إن شاء اللّه يكون قدومنا على بلادنا الغربية في طالع السعود ، مبلغين الآمال التي نسقت على ترائب الأزمان نسق العقود ، والحمد للّه على ذلكم حمداً يكافي نعمه المنهلة العهاد الكريمة العهود» .

ذكر القدوم إلى تلمسان :
ومشاهدتنا آثارها الحسان :

وفي يوم قدوم مولانا رضي اللّه عنه على تلمسان بالتعبئة التي خضعت لها ملوك الأرض ، والترتيب الفخم الذي اذكر بعرض العساكر يوم العرض . واحتفل أهل تلمسان في البروز المشهود المشهور ، وخرجوا عن بكرة أبيهم إظهاراً للسرور وسروراً بالظهور . وجروا على رسومهم المتعارفة في محاجرة أرباب الصنائع ، وابداء أعلامهم السافرة عن المنظر الرائق الرائع .

وكان نزول المحلاّت المنصورة بالصفصيف مطلعة من أخبيتها النجوم ،

مرسلة من أسنّتها على شياطين الإنس الرجوم . ذاهبة حيث شاءت من التهائم والنجود ، محوطة بالترتيب المنظوم المنضود .

ثم انتقلنا إلى منزل يمامة إشعاراً بالوجهة الغربية ، وتبياناً لمياسمها المرضية . ودخلنا مع مولانا أيّده اللّه إلى مشور قصره ، وتركناه للتنعّم بأفلاذ كبده ومكنونات صدره . ثم خرج جلي التعريف أنه قد عزم على الثواء قليلاً بربعه المستحسن ، ودخول حمامه الذي يعجز المبرد عن وصف مائه المسخن . وكتبت إليه استدعي منه التعريف بالعشر التي تقرأ يوم الجمعة قبل الصلاة ، ويصدع العشار بهديها الباهر الإياة . جرياً على رسومي المعتادة ، وقياماً بالوظائف الملقية بالمقادة . فلو شكان ما خرج لي الخط الكريم توقيعاً على ما أردته ، وانصرفت لما اخترته من تجديد العهود التلمسانية وقصدته .

ثم قضينا الصلاة معتملين في الإخلاص ، وكملت المسرّة لأهل ذلك البلد القديم الاختصاص . ونظر في مصالحهم نظراً نيط به الاستبلاغ ، وأعان على إبرام معاقده الصحة والفراغ . وخرج مولانا أيّده اللّه إلى محلاّته المنصورة فبات بها قرير العين متلقياً وفد الراحة بالراحتين وأخذنا بذلك المنزل نوء كاد يترف دموع السحاب ، ويسمع في شجره صوت العود شاكياً بالرباب . ولا تسل عن الأخبية التي خلناها لمدة حبساً طافياً ، والخيم التي ظنناها بها(596) غناء مترامياً . حتى لقد سجدت العمد وأبدت انكفاء . فلم تكن صلاتها في الطين إيماء ، ورمت الأرض بأوتاد كأنّما كانت في صدورها عقوداً ، وتقطعت الأسباب فكأنّها كانت للصحو عهوداً . وبدت عليها الشقة لكن من الكتّان ، ومزقتها أيدي الرياح فلم يكن لنا بها يدان . ولقينا مشقّة كادت تذهب أرماقاً ، ولم نتمنّ يعلم اللّه نفاقاً لكن تمنينا شقاقاً .

وكثرت الأوجال التي عمّت تلك المقامة ، فوددنا الرحيل لحرب اليمامة ، ولا الثراء بيمامة .

---

(595) كذا في الأصل .

(596) كلمةٌ غير واضحة .

ذكر المسير إلى الغرب :

وتيسير أسباب الدناوة والقرب :

ورحلت المحلات المنصورة فائضة على الأباطح والأكمات ، نافضة أجنحة أعلامها على الأغوار والهضبات .

ولما أخذت الطرق منها سدادها ، وقسمت من كسر أعدادها ، رجع السلطان إلى تلمسان بعد أن وقف بسفح الجبل المشرف عليها، وتذكر معاهدة في ربوعها التي كان يبدي الحنين إليها ثم دخل إلى قصره متنعماً بمحاسنه التي بهرت ، وبدائعه التي نضرت كل عين نظرت ، والسلو حضرت على كل مهجة حضرت . وناهيك من قصر أقرّت له قصور الأرض بالقصور ، وتضاءلت له المصانع تضاؤل الشهب للبدور ، والمذانب للبحور ، والمخشلبة للدر المنظوم في الأجياد والنحور ، واختطّت به دار الملك التي هي أعجوبة الدهر . وأبو مهر الذي يروي من نباته عن النصر . حيث الأشجار عرائس إلاّ أن درر القطر ثمارها والأطيار غوان إلاّ أن الأوراق كللها وأستارها . والنسيم عليل فلا غرو أن استند إلى آس . والقصور أجياد لكن لمن يظفر الحاسد من حليها إلاّ بوسواس .

وكان ثواء(597) السلطان بالقصر إلى وقت صلاة الظهر ثم خرج فأدّىٰ بمسجد المشور المكتوبة ، ونال أجورها المكسوبة ومثاوبها الموهوبة .

ثم ركب في موكبه الأعظم منظوم التعبئة ، فسيح مجال الأعلام والألوية . وخرج إلى بقعة العباد ، مرتقياً عن الأغوار إلى الأنجاد . ودخل إلى ضريح شيخ المشائخ سلطان العارفين أبي مدين شعيب بن الحسن الأندلسي رضي الله عنه فأطال به المقام ، وواصل الدعاء وأدام .

وأقمت معه هنالك ما شاء الله ثم خرجت برسم لقاء أصحابي الذين كنت

---

(597) إقامته به .

معهم هنالك منقطعاً ، ولآثارهم في الزهد وسلوك الرشد متّبعاً . فرفع إليه بعد انصرافي بعض الشكايات ، وكتبت قصة لم تأل في تقرير الحالات . فدعاني رضي اللّٰه عنه حتى وعيت مقتضاها ، وطالعته بمنطوقها وفحواها . وصدر أمره الكريم بإثبات الفضل والصدع بكلمة العدل .

ولم ينشب رضي اللّٰه عنه أن سار إلى ضريح الشيخ الصالح أبي إسحٰق الطيّار رضي اللّٰه عنه فأقام أيضاً هنالك معتملاً في دعاء مسترسلاً في شكر اللّٰه تعالىٰ وثناء ورفع إليه أيضاً بعض الشكايات فأمرني بإنفاذ أمره إلى بعض الولاة واستحضاره لرفع الظلامة التي جانفت سبيل النجاة ، وهنالك صلّينا صلاة العصر . ثم ركب في موكبه الذيٰ هو مركز دائرة النصر .

وأخذ أيّده اللّٰه في صعد حتى استوىٰ على ساقية النضراني وتوضحها منسابة بمنته كالأراقم والضلال ، مضمخة الشاطئيـن بمسك الظلال ، مرسلة على زمرد نباتها البليل ، سبائك الفضة مشوبة بذهب الأصيـل . وطاوع آنسيابها في ذلك المشرف الذي عطرته هبوب النواسم وجلا من محاسن الحدائق غب الغمائم ، ما هو أبدع من الوشي المرسل بأيدي الرواقم ، وأحسن في صدر الأفق من عقود النجوم العواتم . فلمّا آن أن،، ، معاقدها ، وتناثرت على ترائب البلد قلائدها . دعا بالساقي فشرب من مائها العذب ، وسقىٰ أحد الخواص المستأثرين منه بالقرب . وأفاض في الثناء على ماء تلمسان وطيب هوائها . وأنحىٰ على المحتوىٰ المقام بأنحائها ، وأعرب عن محبّته فيها ، وولوعه بمغانيها . فكم أقام بالمنصورة منصوراً وسكن منازلها التي دعتها الدراري أفلاكاً ودعوناها قصوراً . وكم أولىٰ ببني بلال أفضالاً . وقال أنفق بلال من ذي العرس أقلالاً . وكم أفار بالفوارة جوداً ، وحدا إلى جامع غزالة أسوداً . وربط بالوريط من وحش ، وبسط له فيه النور البهيج من فرش . وكم حسدته بغدير الجوزة أنجم الجوزاء ، ونظر إلى الحوت كأنّه الأسنة في النثرة الحصداء ، ونعم بذلك النهر الذي يؤكّد محاسنه بالنون .

وآنحدر إلى جنات الصفصيف التي هي بهجة القلوب ونزهة العيون .

وكم اختالت بباب الجياد جياده . وركـزت بصعيد تلك البقـاع صعاده . وصحب لبريد العباد عباداً ونساكاً ورأيناه بالكهف الضحاك كهفاً لنا ضحاكاً .

وكم أبقىٰ بتلمسان من آثار حسان ، ومصانع يعجز عن وصفها كل لسان . ولا كجامع الخطبة الأعظم الذي أمر بٱختطاطه في حضيض البيت الذي فيه ضريح الشيخ الصالح أبي عبد اللّٰه الشودي المعروف بالحلوي رضي اللّٰه عنه وهو من أجمل الجوامع ، قد أحكمت فيه أنواع الصنائع ، وأبدىٰ الاحتفال به ما شاء من البدائع . وتتصل به الزاوية المنفسحة الأرجاء اللابسة حلل السنا والسناء ، المزدانة بالقبّة التي يحسد ارتفاع سمكها السماك ، وتتمنّىٰ الاقتعاد بصدرها الأملاك ، وتخنع لجلال مبناها الأفلاك .

وتتصل بهذه الزاوية من جهة الجوف مدرسة متعددة البيوت ، رفيعة السموت ، بديعة النعوت . وبها أبواب تشرع إلى ديار كاملة المنافع ، حسنة المقاطع . معينـة للرؤساء القـائمين بالـوظائف ، المتـولين لأرفاد البـادي والعاكف .

جزىٰ اللّٰه مولانا على ذلك جزاء من ٱعتنىٰ بأوليائه أحياءً وأمواتاً . ونقص بالجود مالاً وكمل ذاتاً وجعل بين أعماله الصالحات وبين الفوز بعلو الدرجات ميقاتاً .

رجع الحديث:

ولم ينشب السلطان أن ٱنحدر عن اليفاع ، وأخذ الطريق فيمن أنجد معه وأنجد من الأتباع ، وٱستوىٰ على النهج المعبّد بعبيده ، ولحق بأبناء تكتيبه وتجنيده . وأفضىٰ إلى أغلان حيث ارتفعت أبنيته وخبت أنوار الشمس لما بدت أخبيته . فولج مخيمه الشريف صالح الأمور ، مجهراً بردّة الجهور . ولم يكن له بعد إقامة حتى أتىٰ ظاهر وجدة واجداً على قومه ، مظهراً لهم التي هي أشد من تثريبه ولومه . وهنالك ابتدأ العقاب وزوال النعم والرغاب وأظهر بعض ما وقر في صدره ، وتنكّر حتى لمنفذي نهيه وأمره .

وجلس للعرض فما أحد من أشياخ بني مرين أعزّهم اللّه والقبائل إلاّ ناقشه الحساب ، ورابه من قلبه ظهر المجن إليه ما راب . فطلبهم بإحضار الفرسان الذين التزموا القيام بأعطيتهم ، وأخذوا البلاد مكفلين بحملهم تحت الوسم . ولم يسامح أحداً برز غير شاك في سلاحه ، ولا تجاوز عمّن نقصت حاله عن الحالة التي يرضاها يوم كفاحه ، وجعل ذلك سبباً لأخذ الأشياخ الذين زور عمر بن ميمون من أمر غدرهم ما زوّر ، وفجع الإسلام بما مثل من الأكذوبة عليهم وصور . ولم يراقب فيهم ربّه الذي هو بالمرصاد ، ولا آتّقىٰ يوماً يرجع فيه إلى خالق العباد . فأسلموا إلى السجن الذي غنت فيه كبولهم بالثقيل ، ولم تفك دوائرها التي هي غير مدافعة لرأي الخليل .

وضمّت عليهم أيدي القهر والجهد ، ولم يكن منهم جان إلاّ لزهرة الشكر والحمد . وأوحشت منهم المواكب ، وأذرفت على تغيّرهم الدموع السواكب . وعثر الخطب منهم أشد عتر ، وكثر من حربهم وكربهم ما كثر . وأقاموا منتظرين الفرج ، مستصلحين من عهد عزّهم ما مرج .[598] .

﴿ فصل ﴾

وكان الرحيل من وجدة والسرور قد نصع طيبه وسطع ، وهمىٰ صيبه وهمع ، وبدر السعادة قد طلب وطلع . والابتهاج قد امتاز بأبدع المياسم ، عن أنق المباسم . والجذل يرعاها حيّاً ، وهيق[600] لقرب الغرب زياً . والعزّ قد توضحت قسماته ، وتأرجت بالدنو من المنازل نسماته ، والنصر قد تهلل طلاقه ، وحلا مذاقه . والعضد غير معضود عزّه ، ولا مسعد عن التشمير ثمره . والظهور ناعم الدوح ، حسن الروم باسم الروح . والخير قد سفحت غمائمه ، وعطرت زوائده وعطفت روائمه وذكر الفتوح قد شرف المشرفية ، وعطر بأردانه الردينية . وأهدىٰ إلى الدار توابعه الدارية .

---

(598) التبس وضاع وفسد .

(599) كذا في الأصل والمعنىٰ غامض نظراً لانمحاء بعض الحروف .

(600) كلام غير واضح .

فكان نزول مولانا السلطان بايسلي والشمس مشرقة كالأفراح ، حاسرة نقاب الغيم عن وجهها الوضّاح ، والسحب قد رقا، ،[601] بعد الانسفاح . والأنواء قد كتمت أسرار سقياها بعد الافتضاح .

وآتّسع وقت السلطان هنالك للعرض ، وصرف أموره بين الإبرام والنقض . فبتنا هنالك ليلة هادئة الجو . سارحة سوانم نجومها في مراعيها للتو.

فلما فصلت آيات النهار ، وتليت أسفار الأسفار ، وكتبت صفحات الأفق باهرة الأنوار . صدر الأمر بالرحيل ، وآعتمدت جمله بالتفصيل . وشدّ[602] الرحال ، ورفعت الأثقال . وآستوىٰ السواد الأعظم راكباً جادة الطريق ، وأنعشت الجيوش التي أذالت سعة الأرض بالضيق . وأمر اللّٰه تعالىٰ الريح فعصفت ، وخشنت ملابس جوها واستعصفت . وأتت من الغرب تلفح وجوهنا ، مقروناً مندوبها للهبوب بمكروهنا. وآتّصل ذلك من غير ركود ، ولا دكون ولا همود .

وأرسل اللّٰه معها شآبيب كأفواه الأداوىٰ ، متوالية تتحدّر من منقلات المزن وتتهاوىٰ . سادة ما بين الأرض والسماء . مخلية خزائن الأنواء متوالية النزول ، متتالية الهموع والهمول . ثجاجة الغيوم ، متّصلة السح والسفك والسجوم . حتى تركت الأرض بحاراً زاخرة ، وكادت تكون من الأمواج المتلاطمة ساخرة .

وأتت من كل أوب ، وعمّت كل صوب ، وبلّلت كل ثوب . وسالت تحت الشعار والدثار ، وباشرت جميل الإبشار . وآشتدّ الرد حتى برح ، وعظم القرّ حتى قرح . وتفاقم الخطب ، وعمّ الكرب . وقلّ التجلّد والاصطبار ، وتحيّرت العقول والأفكار . وضاق نطاق الاحتمال ، لتلك الدواهي الدواهم

(601) كلمتان أصيبتا باختزال .

(602) كلمة ساقطة غوضناها بـ «وشد» .

والأهوال . حتى تساقط كثير من الناس أمواتاً ، وشاهدوا النفوس النفيسة فواتاً . وحمّ الحمام وقطعت الأرحام . وأعرض الرجل عن كرام أهله وذويه ، وفرّ المرء من أخيه وأمّه وأبيه . ورميت في الأرض الذخائر ، ولم تحفظ الأموال الأخائر . ونفقت الخيل والبغال ، وما بُقيت في التسلّي الأقوال .

وكان يوماً أيأس من السلامة ، وكأنّه أهوال يوم القيامة ، وأربىٰ على أيّام الهزائم ، وأنسىٰ زمان الوقائم والملاحم .

وبعد جهد وصل مولانا أيّده اللّه إلى تامة فألفاها ناقصة المرافق ، ذميمة العوائد مليمة العوائق . وتعذّر وصول الأثقال ، بأحمال الأموال ، فضلاً عن الأطعمة المتروكة الإيصال . وكان السلطان بخير إلاّ أنّه ما تعشّىٰ تلك الليلة إلاّ بقليل ثريد ، ما دوم بشيء من سمن وطرف قديد .

ووصل الخبر أن حملاً من الذهب العين حمله الوادي ، وعدت عن إخراجه العوادي ، وعجز الحاضر ن تداركه في ذلك اليوم والبادي .

وعهدي بالسلطان بعد هذا اليوم والجيوش تعرض عليه ، والعساكر تميز بين يديه . فكان الخاسرون أكثر من الدارعين ، والمفرقون لأسلحتهم أقلّ من الجامعين . فإذا سألهم السلطان عن ذلك قال كل واحد منهم: «ضاع سلاحي في أنكاد ، وبه عدمت الطارف والتلاد .» فكان يعجب من ذلك ويقبل العذر ، ويهون على كل منهم الأمر . وأصدر مراسيمه لولاة تلك البلدان ، وعمّال تلك الأوطان . ليبحثوا عمّا ضاع لأهل المحلاّت ، ويأخذوا بالإسناد في ذلك على أكمل الحالات .

رجع الحديث:

وأقام السلطان بتامة بياض يوم ، حائماً على مورد النبي أحسن حوم .

---

(603) بياض .

(604) بياض .

حتى آجتمع بعد تفرّقهم الشنيع الناس ، وسلّموا على مولاهم الذي عمّ به الإيناس . وتحدّثوا عن فقد من أشابتهم[605] بالأمس ، وكانت الرامسات سبب إبداعه في الرمس . وطلعت الشمس التي ردّ البرد حاجتها ، وأقرّت عيون أهل القرّ مواهبها ، ولم تضق كأهل الأرض مذانبها . وانتعش الضعيف ، وسرّ الشريف ، وعدم التطفيف ، وزال عن كلم الأمان التحريف . ونشرت الملابس ملء الأباطح ، وطوىٰ حديث الخطب الفاضح ، وظهر يمن الخواتم في تلك الفواتح . وأقيمت الأسواق وذهب الأسواء ، ونسيت الأهوال وخولفت الأهواء . وطاب الوقت وراق النعت .

﴿ فصل ﴾

وكان وصول مولانا أمير المؤمنين إلى «تازىٰ» معتمداً بالسعود التي لا توازن ولا توازى . ممكن الظهور ظاهر التمكين ، شاكراً اللّه على النصر العزيز والفتح المبين . والعزّ قد أقام للملك الندب بالواجب ، والعضد قد قضىٰ بالإباحة لكن لأوطان العدو المناصب ، والعدو المكروه قد رأىٰ الفرص لكن في خدّه بالدموع السواكب . والظفر قد أنشبت في أهل الفساد أظفاره ، والغلب قد روىٰ أحاديث التشفّي وأخباره .

وكان وصوله في التعبئة التي علت بها يد الملك التي ابهتت ملوك العرب والعجم والترك . فخرج أهل البلد للإبراز ، ونالوا بفضل الاعتزاز حظوظ الاعتبار . وسرُّوا بقدوم مولاهم الخليفة الذي أولاهم من فضله ما أولاهم ، سروراً أصمىٰ العدو وأسماهم ، وحياهم بنوافحه الأرجة فأحياهم . وابتهجوا بالوفادة المعجبة ، ابتهاج الأرض المجدبة بالغيوث الكافية المحسبة ، والخمائل المعشبة المعشبة ، بنواسمها المطرية المطربة ، وسواجعها المغرية المغربة .

وقبّلوا خير ركاب ، كل عدو أمامه بالحذر كاب . وتمتعوا من رؤية الغرّة

---

(605) غير واضحة .

التي سعدت بها غرّة كل شهر ، والمحيا المحيا الذي جلا للبشر أجمل بشر ، وأهدىٰ من عرفه أعطر نشر .

وكان نزوله أيّده اللّه بأزرو في القصر العثماني الذي تأرج، ، ، الند ، وأسعده فيه ببركة الجد الجد . وهو قصر معجب البناء ، واسع الفناء . قد أبدىٰ الحسن الذي هو بأتمّ حدوده معزف ، وحاز وطف سوره بانيه فهو عال ومشرف .

ولا أعجب من روضه الذي قرّت بعينه العين ، وزال بآجتلاء محاسنه اللغوب والأين . فهو مطرد المياه منعكس الأغصان ، مبد فنون الأزهار في نواعم الأفنان . ملتف الأشجار ، نفاح العشايا والأسحار . لا يرىٰ فيه عليل إلاّ النسيم ، ولا سقيم إلاّ اللحظ الذي يريه الوجه الوسيم . فهو طيِّب الهواء ، صيِّب الأنواء . لا زال شبحاً لروح المعالي ، ومـأما[606] لحسنـات الأيّام والليالي . ولا برح روضه راضياً عن الغيث ، سالماً في كل الأحيان من الفساد والغيث .

﴿ فصل ﴾

ورحل مولانا أمير المؤمنين أدام اللّه بسطه بمكينه ، وأبرّ يمين العزّ بتقبيل يمينه . من تازىٰ مسروراً بقرب الديار ، محبوراً بقضاء المأرب والأوطار .

وجعل في طريقه الوزراء يتفقّدون أحوال الجيوش التي قضت الخدم ، وأعلت في الأخذ بالثأر الهمم ، وعرضوا في تلك الطرق الغاصّة بالبهائم والبهم ، وميّزوا تمييزاً أوضح من شؤونهم ما آنبهم .

وصدرت المراسم الشريفة بأخذ الهاربين ، والأخذ بأفواه الشعاب على الذاهبين . واشتد في ذلك اشتداداً أسلم أقواماً إلى العقاب والنكال ، ورمىٰ

---

(606) كذا في الأصل .

(607) صبروا .

بهم في بحور الهموم والأوحال . وقاد إليهم الخطوب التي عركتهم عرك الرحىٰ بالثقال . وسدت الذرائع ، وأوضحت للعزم المهائع . وحمد اللّه أهل الوفاء وشكروا ، وتلا لسان سعادتهم: ﴿وما يلقاها إلاّ الذين صبروا﴾[607] .

﴿ فصل ﴾

وفي يوم رحيلنا من الركن الذي ظهر أمامه من الوادي الصفاء ، ولم يقل على أثار من ذهب العفاء . أمر مولانا السلطان برفع الأخبية ، ونقل الأبنية . وتقويض الخيام الخيار ، وترك مضاجع النوام للنوار ، ومحال الناسم المعطاء للناسم المعطار .

وقعد في خباء الجلوس مع خواص ملكه ، وفرائد سلكه . مفيضاً في المصالح ، مفيضاً للمنايا والمنائح وقد كان أمر طائفة من الجيش بالعرض ، وألزمهم القيام بذلك الفرض ، وتحلية ترائب الأرض .

فآصطفّت هنالك الصفوف ، وظهر لها لما لبست الشفوق والشفوف . ونزل الكماة الكفاة والأبطال الذين تسر بهم العوافي والعفاة ، والأذمار الذين ترجوهم العناة، ، ، العتاة . وأخليت لهم الميامن والمياسر ، وفسحت المسافر والمحاسر . وبهرت أسودهم الكواسي وعقبانهم الكواسر ، وأحضر العرضة ، والكتبة النهضة ، ودعىٰ بالأسماء ، وتعرض للأصماء ، ونزل القضاء من السماء .

فأمر بثقاف جملة من الأشياخ ، وحيل بين الأعشاش والأفراخ ، وصارت السجول للقحام كالفخاخ ، وخافوا المنايا بذلك المناخ .

فممن سجن في ذلك اليوم سليمان بن إبراهيم ابن حازم الذي اشتهر بيته اشتهار أبي حازم ، وكان رعىٰ أسلافه ضربه لازم فأفضىٰ، ، ، القيود ، ودفع للعقبة الكرود .

---

(607) قرآن كريم .

وأقام مولانا السلطان عارضاً ، مرسلاً من نكاله ونواله عارضاً ، حتى أحمر البأس وجهاً وأخضر الندىٰ عارضاً . وكان ركوبه من ذلك المنزل عند دلوك الشمس ، في أهبّة كانت قرّة للعين وبهجة للنفس .

ولم ينشب أن أخذ في الصيادة ، وصال على الوحوش المراعة بالجموع المرتادة . وبزّ بالبزاة أجنحة الكروان ، واعتقب الكراكي بالعقبان . وعير حجول الحجل ، ورساها بالوجا والوجل . ونعم الجوارح كأنّها جوارح ، وما برح حتى ذلت له السوانح والبوارح . وفاض على مداه النجيع ، وحسّ في مداه الترجيع . وآنفجر دم الصدع كالصديع ، وأميلت أقلام الرماح للتوقيع . وروىٰ ثعلب من جلده عن الممزق وغشىٰ[608] الليث من شعره إلى نار المحلق .

وأخفقت آراء الأرانب وأسلمت أنفسها للضواري الضوارب . وذابت كبد الذئب ، وعذب لدينا ما ناله من التعذيب .

وما وصل السلطان إلى سبو حتى تمكّن الأصيل ، وظهر منه التفريج والتأصيل . وقضىٰ للحسن أعظم حقوق ، وترك على ثوب الأفق أثر خلوق . وبعدوة الوادي وجدنا أعيان الفاسيين ، ووجوههم قد اصطفّوا للقاء السلطان مسرورين . بقدومهم على تلك الأوطان ، ولا غرو فهو روح تلك الأشباح الحسان ، والإمام الصالح الذي عمّ أهلها بالعدل والإحسان .

وكانوا جميعاً لابسين البياض ، حامدين الارتماء بعد أن شكوا الارتماض . وما منهم إلاّ راكب صاهلاً أو شاحجاً ، كالنجم تلفيه إلى الأوج عارجاً . ولسبيله في الأفلاك ناهجاً ناضرة وجوههم ، ثانياً عنهم مكروههم ، مرفوعة نواظرهم ، حاضروا ابتهاجهم مبتهجاً حاضرهم ، طائلة أيديهم وأياديهم . بادياً سرورهم مسروراً بأيديهم ، قد عدتهم عواديهم ، وصارمت النوىٰ نواديهم . ولمسوا أبشار البشائر ، وجذلوا بالخير الرائد والمولىٰ الزائر .

---

(608) غير واضحة .

ولما شاهدوا الموكب الأفخم الأفخر ، وعاينوا النور الأبهىٰ الأبهر . نزلوا عن الصهوات ، ونالوا من المسرّات أعظم الشهوات . وقبّلوا الأرض أمام الإمام ، وهنّوه بالسلامة بعد السلام.

فأقبل عليهم وكلّمهم ، وتنصّر[608ب] أعلىٰ الأعلام أعلمهم ، وبالجوذ أبهاهم ، وللشكر ألهمهم.

وما وصل إلى المحلّة المنصورة بخولان حتى أبـدت صحيفة الليـل العنوان. فآرتجّت النفوس من التعب والأين ، ونعمنا بالبقعة التي هي سحنة عين الماء وقرّة العين. واحتفل الأمير أبو زيد عبد الرحمٰن آبن مولانا أمير المؤمنين في التضييف ، وعرف حقائق الاحتفاء أحسن التعريف. وأوفت طيافيره كالهضاب ، معطرة كالحدائق غب السحاب. وأقبلت موائده بمـا تحملته موائد ، محقّقة في تصريفها الزوائد ، مجزلة الصلات والعوائد.

وبتنا بذلك المكان الذي تنأىٰ به لو رأته قحطان ، ويفخر به لو شاهده عمرو بن مالك ولا غرو فهو خولان. وأقسم لقد مر به الحارث فكأنّه آبن مرة الذي نماه كهلان. ورقصت أحكام التنائي للرمض ، ووافتنا أكباد ليس هي إلاّ أولاد تمشي على الأرض. واجتمع شمل الأصـول بالفـروع ، وآن رقوء الدموع ، وصدعت حجة السرور بجبر الصدوع ، وعد حديث الوصل في المسند المرفوع.

وعمرت كمائم الأخبية بأزهار المحاسن ، واعملت المواطىء في أحب المواطن ، وتلاقىٰ المتحرك بالساكن ، وابتهج أهل المكانة بأحسن الأماكن. وظهر للواردين جبل زالغ الذي تعطّر هبه ، وكرمت فاكهته وأبّه ، فقالوا كما قال الصادق في أُحُد: «هذا جبل يحبّنا ونحبّه».

واندفع الجواري بأفراق السعيد يغنين فرحاً بالتلاقي ، وطرباً لمشاهدة

(608 ب) كذا في الأصل وهي كلمة غير واضحة .

المولىٰ الراقي الراقي. فسمع التشبيب بالتشبيب ، ولم نبك لذكرىٰ المنزل والحبيب ، وتلاحين التلاحين ، منسية ترجيع الوارشين. وأشعرت بالمسرّات الأشعار ، وظهر ملك الزنج لكنه الطار ، وكادت تهز معاطفها الأقطار.

ولم يزل للأصوات صيت ، ولأوقات الغناء توقيت. إلى أن وجّه عني السلطان فحضرت بين يديه مع بعض الأصحاب ، وأفاض معي في الحديث المطال المصاب. والمغنيات منّا بالقرب فـائهات عن أشهىٰ من المـورد العذب. فدعا أيّده اللّه رئيس الفتيان ، وكبير أولئك الخلصان ، فأسرّ إليه الأمر بإسكات القيان ، وإخفاء أصواتهن التي كانت شنوف الآذان. وأوعز بأشخاص المبشرين بالإياب ، والمعلمين بقدوم الركاب. ورقمت الطروس بذلك النبأ الأسرّ ، والخبر الذي به الصلاح في البحر والبر. وبينا هنالك ليلة أظهرت تأمينها ، وأخلصت على دعاء البشرىٰ تأمينها ، وتزينت من نجومها بأسلاك ، ولبست حلل أحلاك. وتورد خدّها بـالشفق ، وأرسلت دوائب من الغسق وكحلت عيون الكواكب بإثمد دجاها ، واختالت في برود النعيم عاطرة رياها ، وكأنّما البروق في الثنايا ثناياها. إلى غمرة الصبح بالسيب وألزمها أن تضرب خمارها على الجيب.

وأجرىٰ النهار خيول أنواره ، وفضح ما كتمه من أسراره. وأحسن وضوء الوضاءة ، وأضاءت أشعته أكمل الإضاءة ، ورفل في الحلّة النورية والملاءة. وأماط النقاب عن وجه شمسه ، وأهدىٰ ما شاءه الانس من أنسه.

وعند ذلك ركبت الجيوش والجحافل ، وآصطفّت الصفوف الحوافل . وتجلّت العساكر كالسحاب المركوم ، ووقفت الكتائب كالبحر المسجور غبّ الغيث المسجوم . ومثلت الساقـة العظمىٰ كـالحدائق الـزاهرة والـرياض الناضرة ، والأطواد المتلاصقة المتناظرة .

وآرتفعت الأعلام كالأعلام ، نيران قراها الأسنة المشهودة الاضطرام . من كل أبيض كالصبح الرافع اللبس ، يجلو طرر ذهب كأنّها أشعة الشمس .

ومن أحمر كالخد غب الخجل ، تلوح رقومه بالنضار كصفرة الوجل . ومن أخضر كالعذار تلوح سماته ، أو (الزرع الذي يعجب الزراع نباته .) ومن أصفر كالأصيل والراح المموجة في يد الخليل .

إلى غير ذلك من الألوان المتفرّعة ، والأعراض المتنوعة . كل قد استنهيت فيه الصنائع ، واستقصيت في وشيه البدائع . وأودع الخطوط المحكمة بخيط الذهب الابريز ، المثبتة شرف التطريز ، الشارحة نكتة التمييز .

وأقام السلطان في مخيّمه الحالي الجيّد بالجود ، المحبب إلى الأغوار والنجود ، المنيف بمحاسنه على الروض المجود . وتلبث بخلال ما ترتبت القبائل وأحملت بملابسها الخمائل .

وخرجت أفلاذ الدور ، وبرزت العواتق والحيض وذوات الخدور . وكان يوماً قارب يوم العيد فأعطىٰ حكمه ، بل زاد عليه فأنسىٰ رسمه ، وحاز وسمه واسمه . وخرج جميع من كان بالحضرة من الخاصة والعامة ، بالزينة الفاخرة التامة ، معوذين من العين اللامة . من كل شاب وكهل ، وشيخ متلقي بأهل وسهل .

وتميّز كل صنف من أرباب الصناعات ، والحرف الموفرة للبضاعات بأعلام فيها صور الآلات التي يستعملونها خصوصاً ، ويبدون على الانفراد بشعارها ظواهر ونصوصاً . وتوشح جميعهم بالبياض الرائق ، المزري بأقحوان الحدائق . واحتملوا القسي البديعة الحسن ، وتقلّدوا السيوف المعتاص وصفها على اللسن . من كل مصقول الفرند ، منضمد الغرب من الهند . موشي الحميلة ، كنور الخميلة . مبد حليته النضارية للناظر ، معلق محبة تقلّده بخاطر الخاطر . ضاحك السن ، رائق كبرق المزن ، ومن العجب أنّه يبدي العين خارج الجفن ، ويلقي حديثه صحيحاً وهو لين المتن .

وتقدم الورعة والقومة فرتبوا صفوف أهل فاس ترتيباً استحكم ، ونظموا

جموعهم تنظيماً على العقود تهكم . وأبدوا أعلامهم أزاهر ، ولا غرو فقد خرجت من الحضرة نواضر ونسقوهم حفا في الطريق نسق الأسطار ، مفصولاً بينهما كمواضع الأشعار . والبياض المتروك بين الأشجاع ، في الرسائل المعتادة ابداء الابتداع . أو الثلج الظاهر بين الحاجبين ، ووسطىٰ العقد المعترضة بين الدرتين .

وتقدم صاحب الشرطة سعيد بن إبراهيم ابن خزر وارث خطة والده ، المقتدي بمصادره وموارده . وعليه من ملابس الحرب ما نبهت أهل الشرق والغرب ، ومعه خيول تجر ذيول العصب ، وتختال في الوشي كربات الحدوج والحجب . وعليها من خدامه كل شاكي السلاح ، بادي الاهتزاز والارتياح ، كأنّما عوطىٰ صرف الراح ، في القداح الرحراح .

وبين يـدي صـاحب الشـرطـة المـذكـور رجـال ظـاهـرة سكينتهم ، ثقيلة ، ، ، كاملة زينتهم . وكل واحد منهم قد رفع راية ، وأحرز غاية ، وحصل على البروز دراية ورواية . وبأيدي جميعهم الدرق السار شهودها ، البادية عند نهودهم نهودها . المغشاة بأمثال وشي صنعاء ، ومشاكهات الزهر صافح الديمة الوطفاء .

ولم ينشب مولانا أيّده اللّٰه أن ركب وسار ، وجاد الجود الدائر وقصد الدار . وبهر العيون بروائـه الفخم ، وأعرب عن شـرفه الجم ، وسؤدده الضخم .

وقرعت الطبول على نسب موسيقيّة ، وطرائق غربية وشرقية . وارتفعت الأصوات بالسلام ، وبُودِر بالتقبيل والاستـلام . وامتلأت الأرض التي طابت نشراً ، ولا غرو فقد وجدنا كل فرس بحراً .

من كل طويل العنق والأذنين ، قصير العضدين والساقين ، عـريض الخدّين والوركين ، رحيب الجوف والمنخرين ، ضخم الناهضين والمنكبين ، حـديـد العينين والعـروقين ، رقيق الجفـون والحـاجبين ، غليظ اللحم

والحالبين ، ضيِّق ما بين الابطين ، عاري قصبة الأنف والغاربين ، بعيد ما بين الصدغين والمنكبين ، قريب ما بين اللحيين والمرفقين .

قد أخذ من الظبي طول أو ظفه(609) للرجلين ، ومن الذئب العسلان وشيخ النسيين ، ومن الكلب طول اللسان وهرت الشدقين ، ومن الحمار عرض الصهوة ومن الثور عرض الكتفين ، ومن النعامة المشي ومن البعير طول الذراعين ، ومن الثعلب التقريب ومن الأرنب صغر الكعبين .

سبقة يوم الرهان ، ومحرزة الخصل في الميدان ، كلّها المحلية التي تبدي السرور على أوجه أصحابها ، ولا تعرف المطلي إلّا إن كان من ركابها ، ولا المسلي إلّا بأحاديث نصرها ، ولا المرتاح إلّا كان للحرب الحاكمة بكرها وفرها ، ولا العاطف إلّا إن كان على الأبطال المرتاعة بحصرها . ولا المؤمل إلّا أن كان مجريها للباذل للجود ، ولا اللطيم إلّا إن كان عدوها في المأزق المشهود ، ولا السكينة إلّا إن كان حاسدها المذمم في الجود .

معتملة في الصهيل ، اعتمال السيوف في الصليل . فما شئت من مصلصل حيث اللحم يصل ، ومجلجل حيث الأخطار تجل . وأجش حيث الحرب قد جشأت ، وهزيم لا يرىٰ بهزيم إذا الجولات نشأت . وأغن حيث الصوارم غنت ونالت المنايا من الأعادي ما تمنّت .

من كل أدهم كأنّه مسك الغزال الذي يدانيه سباقاً ، أو قطعة العنبر الذي كاد قدح حوافره يشعله ويذهله احتراقاً . بل قطعه غيم لكنه في السرعة كبرقها ، وكسواد العين لكنه سبق نظراتها في طرقها . وربما عرق يحره فأشبه هموع الغيم ودموع العين ، وقيد الأوابد ولا غرو فأذناه كالقلمين .

وآخر أحوىٰ كالزرع ، معتدل القصبة مذ نشأ في النقع . محبوب بآستحقاق ، منذ استغلظ واستوىٰ على ساق . لم يجد عصفوراً إلّا من عزّته ،

---

(609) ج وظيف الساق .

ولا رأىٰ برداً إلّا عند فرته . يميل لكن لمراس ، ويسر به الحارث ولكن المكنىٰ بأبي فراس ، معتمد الاحتراس ، لا تكمـل فائـدته إلّا في أيّـام الدراس .

ومن كميت كأخته التي هي الخمر ، صافي العينين كأباريق تلك التي يشرح بها الصدر ، وإن عرق حكىٰ حبابها لكن لا يكون به السكر ، وربما حرب وجرىٰ فحصل بتلك الري[610] وبهذا النصر ، واتّسع كأسها وصدره فدام بتلك الانس وبهذا السكر ، ورقت أذنه ومجاجتها فساعد تلك البشرىٰ وهذه البشر .

ومن ورد بصره حديد ، وجريه سريع ومجاله مديد ، وحسنه كامل إذا مشىٰ والقنا قصيد . إذا عرق عطر ما بين الغور والنجد ، ولا ينكر التعطير على ماء الورد .

ومن أشقر كالدينار البادي النفع ، فلا غرو إن كانٓ حسن الطبع . سليماً من القرض ، بديع الضرب لكن في الأرض . جار بين الناس ، معدود في الأكياس . يصرف ويختبر ، ويستغرب بين الحب لـه[611] ويعتبر ويمسح بالأيدي إذا أغبر ، ويحرص على رجوعه إذا فر . قد عرف مقداره القاص ، وشهد بفضله الناص . ورواقه التشبيب لكن في الحرب ، وهذبه التطريق لكن للطعن والضرب . وحمىٰ بأشد استظهار ، وكتب أحياناً لكن بأسيار . فناره المأزق والملاحم ، ودخانه النقع المتراكم . وزرته التي تشير إليها النجوم العواتم ، وسكته[612] حيث النسور القشاعم ، وداره دار الحرب التي تعرفها العزائم .

وآخر كالزعفران الذي ازداد نصوعاً ، فإن أطلي به مأزق القتال لا يزال

---

(610) كذا في الأصل .
(611) غير واضحة .
(612) كذا في الأصل .

مولعاً . مقو للقلب لكن قلب الجيش ، ذو شعر من تناوله فقد حظىٰ بطيب العيش . كريم المنشأ أصله لاحق ، قصير الساق منظره رائق . ما لاح في مكان إلّا اشتدّ له حافر ، ولا روىٰ إلّا أضحىٰ شذاه وهو عاطر ، وكم زيّن الألوان فسرّ محضر وحاضر .

ومن أصفر نماه المذهب ، وحسن له المذهب . كالخمر فما أحسن مزاجه ، وأكثر للسرور والجبور إسراجه . يزهىٰ بكأس لكن من الدروع ، ويحف باس لكن للقلب المصدوت . ويجري بالحضرة لكنها فاسٍ ، وتجلىٰ به الهموم والكروب فلا باس . ولله ما أجمله إذا جاء عتيقاً ، سائلاً لكن يمناً وتوفيقاً . جارياً لكن طلقاً مديداً ، متطايراً لكن إن طلب طريداً . محرماً لكن على عداه ، مكرهاً لكن لمن غاب عنه هداه . محذوراً لكن عند اشتداد الكروب ، فيه منافع للناس لكن يوم الحروب . يعجز عن وصفه أبو نوّاس ويحديه الأعشىٰ أي إيناس له أكرم ساق وأفضل حاث لكن لسباق محرم الأوتار لكنها التي بمعنىٰ الثأر ، وضرب الأعواد لكن في صدور الكماة الأحرار ، ويحسن به الإيقاع لكن في المضمار ، ولا يدار حتى يبدو لماسكه طوالع الاستبشار .

ومن أغبر تبرزه الأغوار والأنجاد ، كالجمر الذي يعلوه الرماد . باد للطارق والمحروب ، يسر به من شب لكن من الحروب . عابث بفاس لكن من لجامه ، مذكي لكل فارس اشتمل بظلامه . لا يزال يسمع فيه غلي مرجل لكن من اهتزاهه . ملهب لكن في الميدان ، حاكم لكن للاظعان . يتمناه في الملوك مخرق ، ويشتهي اثارته مغرب ومشرق .

ومن أشهب كالصبح السافر ، طالع لكن من أفق العساكر . يبين لذي عينين لكن في دجا النقع ، ويدغو صادعاً لكن لقلوب الأعداء بالفجع مفرج عن الكروب مسل ، ينبه المصلّي إذا بدا وهو مجل . مشتهر كل الناس يدريه في الشرق والغرب . ولا بدّ أن يتقدّمه فجر لكن للدم برمح مجريه في الحرب .

﴿ فصل ﴾

وما زال السلطان متهللاً في مشيه ، مظهراً سمت هديه . مشاهداً من حال الناس الأعاجيب ، مبصراً الأعاجم خاضعة له والأعاريب . حتى تلقته البيضاء بالراحتين وبرزت . وهي من حفيرتها ذات النطاقين ، طيبة والطيبات للطيبين . كريمة والكرائم للكرام المنتخبين . مظهرة القبول حتى من نسيمها ، قائمة على ساق لكن لتنسيمها ، باذلة بشارة الأرواح لكن من شذاها ، مبصرة منمولانا المن الذي كفاها ، والسلوىٰ لكن عن هوىً سواها .

بلدة أبدع بانيها في انتخاب لخطتها وتخيّر ، وجعل حدودها الجامعة المانعة مفيدة لأحسن تصوّر . مرينية البناء فلا غرو ان أعظم قدرها ، يعقوبية فلا غرو إن ظهر توكّلها وصبرها ، يوسفيّة فلا غرو إن ظهر حسنها وجمالها ، عامرية فلا غرو إن حميت ببني قيس عيلان حلالها . سليمانية فلا غرو إن قهر ملكها ، عثمانية فلا غرو إن عرف حياؤها ونسكها . علوية فلا غرو إن ظهر بها الشجاعة والعلم ورف على جنباتها العدل والحلم .

ولله ما أشمخها حين أصبحت إيوان فارس ، ودفعت في صدر كل منافس ، وجلّت بنجوم قواضبها كل ليل دامس .

وسعدت بقدوم القادم ، وارتاحت للمقادي المنادم . وأومأت إليه بعيون هي جوار لا جوارح ، وكادت تشير بالأنامل لكنها الشرفات الطوامح .

واستضحكت طرباً بالوافد الجميل الصفات . وفتحت أبوابها لكن التي كانت مسدودة بشفاط[613] الدفّات .

ولم ينشب مولانا السلطان أن حل بدار ملكه ، وواسطة عقده البلداني وسلكه . ودخل إلى مشوره المنيل المنيف ، وجلس بالقبّة العظمىٰ المخصوصة بالتشريع والتشريف .

---

(613) كذا في الأصل .

وقد كانت الأطعمة الحافلة مهيأة للوفود ، معـدّة للقادمين في طـالع السعود . بادية موائدها المستديرة كأنّها البدور ، متداخلة صحافها فكأنّها الكواكب التي علاها النور . مستطيلة ميادبها[614] كأنّها خيوط الفجر ، مستأثرة من ألقاب البديع بالطي والنشر. منفسحة جفانها كالخوابي[615] مرتفعة سدفاتها كالروابي. سافرة سفراتها التي عمّها تزيين، وظهر لها في المجالس فضل مبين، فهي تحفظ البساط إن ظهرت يمين. فأكل الناس جماعات وأفاريق، وطيف عليهم بأكواس وأباريق.

فلمّا أرادوا أن ينتشروا بعد أن طعموا . وحظوا بالأايدي بعد أن قبّلوا اليد الكريمة واستلموا قام السلطان من مجلسه وأمر بأخذ الوزير آآبن ودرار وحمله إلى محبسه ، فكان المتولّي للقبض عليه عمر بن ميمون سيئة زمانه ، السالق الخلائق بلسانـه[616] .

فأتىٰ الأمر الذي عظمت به الهواجس ، وفجع بفارس الذي لم تلد مثله الرووم ولا فارس . وتضعضعت للفضائل أرسخ أركان ، وأصبح المجد ضماناً بعد أبي زيان . وعجبنا من زمان بدل العزّ بهون ، وأتىٰ بأنواع من العجاائب وفنون ، فلم ينج فارس من فارس . ولا آبن ميمون من آبن ميمون .

ثم أمر السلطان بأخذ جملة من شيوخ بني مرين ككمسعود آبن الحسن شيخ بني عسكر وزعيمهم ، المتولي في صريححهم وصميمهم ، الجامع لشتيتهم والحافظ لنظيمهم . ومحمّد بن زجدان شيخ بني ونجاس وفارسها ، الناعم غصنه في أطيب مغارسها . الحافظ لأطراف البلاد ، الظانّة حصاته في أغوارها والأنجاد . مدافع العرب العربان المتعرض في لهوات الصحراء ، الرامي فروجها بالفليق الجاواء . وكعمر بن الزبير فارس الإسلام ، ومجدل

---

(614) كذا في الأصل .

(615) واسعة وكأنّها حوض .

(616) كذا في الأصل يقصد به الشيء السيء الأخلاق الذي يؤذي الناس .

عبدة الأصنام . والفاضل الذي سار في ميدان الكمال أحسن السير ، وبلي منن عمرأبن ميمون بالظلم الذي أبعد عن الخير ، وأشبه الحجّاج فلا غرو أن أضرّ ب آبن الزبير . وعمر بن عبد المؤمن شيخ بني واريتان مبدىء الحرب ، ومسسعر الطعن والضرب ، والشجااع الذي ااشتهر فلم ينكر اشتهار آبن عبد المؤمن في الغرب . وأخذ أيضاً أبو زيان محمد بن عثمان بن السلطان أبي تاشفين شيخ بني عبد الوادي ، ورئيسهم الذي تعرف فضله النوادي .

وكذلك أخذ عمر بن منديل بن محمد شيخ مغراوة الذي فرعهم بالمحتد الرفيع المكان ، وكان أصله فيهم ثابتاً لكنه آبن عبد الرحمان . وأخذ عمر بن العجوز ترجمان الخلافة ونصيحها الحسن الإنالة والإنافة . وقائد قوّاد الروم ، المعروف إنجاحه للقصد المروم .

فتغيّرت لهذه الوقائع المعالي ، وحدث[617] الكدر عند صفو اللليالي . وعكس الخطب الأمل ، ونقض السرور حين قيل كمل . وانصرف من بقي من شيوخ القبائل ، ورؤساء الفضائل . خائفين على نفوسهم ، غير آمنين من نسخ نعيمهم ببؤسهم .

ثم إن السلطان استفتىٰ بعض فقهاء مجلسه في أمر الوزير آبن ودرار فأفتىٰ بقتله ، وكان ذلك الفقيه عدواً للوزير محاولاً لختله . وخفي ذلك الأمر عن مولانا حتى تصوّر له الباطل في صورة الحق ، وخدع في تحمّل ذلك الحمل الأشقّ .

ولم يكن إلّا أن قام عيد النحر ، وأمر على الوزير بالقتل صبراً فمن للمعالي بعده بالصبر؟! وأثكل بالواحد المعدوول بالألوف ألوف الخلائق ، وبت للسياسة والرئاسة أشرف العلائق ، وعفىٰ للحاضر على العفو والصفح أوضح الطرائق وفقد منه ظهيراً ميمون النقيبة ، مظهراً للسِيَر العجيبة ، والتصرّفات الغريبة ، وفل سيف ملكه الحسن الضرائب الماضي الضريبة .

---

(617) هل يقصد أحدثت؟

فأضحت رماح بني أبيه تنوشه ، وسيوف قومه مثلولة بها عروشه . فصرع أوحىٰ من تناثر السلك ، وحمل مصرجاً[618] بدمائه هي عند اللّه أطيب من ريح المسك . وأقسم ما طاب المجد بمتولي قتله نفساً ، ولا وجد بأحد منهم بعد فقده أنساً . بل شرع دمهم واشترط ، وغنىٰ في أخريات العيد ضحوا بأشمط .[619] .

وكذلك أيضاً قتل مسعود بن الحسن وعمر بن عبد المؤمن والوزير ابن حمو وسليمان آبن إبراهيم وكان المتولي لقتلهم قرابتهم واخوانهم فشلت اليمين باليسار ، وأسيلت العيون بالأشفار ، وترجح حكم الامتثال والائتمار على حكم الإشفاق والاستنصار . وقضي الأمر ، وأودع بين الجوانح الجمر .

ولم يترجح عند السلطان قتل من بقي من الشيوخ إلّا أنه أبلغ في الأغلاظ عليهم وساق متسعات الشجون في ضيقات السجون إليهم .

وكانوا أحاديث الفضل فسلسلوا ، وأحكام الحماسة والرياسة فعللوا. إلى أن جعل اللّه من أمرهم فرجاً، واستنشقوا من طيب العيش أرجاً. وأخرجوا بعد وفاة السلطان من السجون ، واستقبلوا الليالي البيض بعد الليالي الجون . وقتل عمر بن ميمون شر قتلة ، وفتل في ذروة القصاص أحسن فتلة .

ثم لمّا صارت الخلافة إلى الأمير السعيد . وتمهدت له البلاد الملقية بالأقاليد . استدرك الأمر في أحوال شهود الزور ، القادحين مع عمر بن ميمون شرر الشرور . فقتلوا عدلاً كما قتلوا الأشراف ظلماً ، وتحقق أولوا الألباب أن اللّه تعالىٰ كان أملىٰ لهم ليزدادوا إثماً .

فسبحان الباقي بعد فناء خلقه ، الماحي ظلم الباطل بنور حقّه . . الملك الحقّ الذي تفرّد بالدوام ، وتنزّه عن حوادث الليالي والأيام ، المقدس عن عوارض الأجسام ، الذي لا تدرك حقيقة ذاته بالعقول والأوهام . وتبارك من

---

(618) مغطى بدمائه.

(619) أشيت : رجل اختلط سواد شعره بالأبيض .

له الحكم والتدبير ، «وتعالىٰ اللّٰه الـذي ليس كمثله شيء وهو السميـع البصير .» وصلّىٰ اللّٰه على سيّدنا ومولانا محمّد البشير النذير ، المخصوص بالتعزيز والتوقير وعلى آله وصحبه المطهرين أكمل التطهير . ولا حول ولا قوّة إلّا باللّٰه العلي العظيم ، وهو سبحانه المسؤول في الهداية إلى الصراط المستقيم .

بعض المصادر والمراجع المعتمدة

(العربيـة)

ابن الأحمر، أبو الوليد إسماعيل:

1 ـ نثير الجمان في شعر من نظمني وإيّاه الزمان تحقيق د. م. ر. الداية بيروت 1976.

2 ـ نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان تحقيق د. م. ر. الداية بيروت 1967.

3 ـ مستودع العلّامة ومستبدع العلامة تحقيق التركي ومحمد ابن تاويت التطواني تطوان 1384 - 1964.

4 ـ روضة النسرين في دولة بني مرين تحقيق عبد الوهّاب بنمنصور الرباط 1962.

ابن إبراهيم، العبّاس: الاعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام فاس 1355 - 1937.

باب، أحمد التنبكتي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج القاهرة 1329 - 1911.

البلوي، خالد، أبو البقاء: تاج المفرق في تحلية علماء المشرق تحقيق الحسن السائح دون تاريخ.

ابن جابر الوادياشي: برنامج الوادياشي تقديم وتحقيق د. محمد الحبيب الهيلة، تونس، 1981.

الجزنائي، أبو الحسن: زهرة الاس في بناء مدينة فاس الجزائر، 1340.

ابن الحاج، النميري: مذكرات مخطوط الاسكوريال رقم 483 ـ ورقم 1734.

ابن خلدون، عبد الرحمان:

1 ـ كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيّام العرب والعجم والبربر ومن

عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بيروت بدون تاريخ.
2 ـ التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً تحقيق محمد ابن تاويت الطنجي، القاهرة 1951 - 1379.
3 ـ المقدمة، القاهرة بدون تاريخ.
ابن خلدون، يحيىٰ: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد تحقيق أ. بيل الجزائر 1904 - 1913.
ابن الخطيب، لسان الدين:
1 ـ الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق م. ع. عنان 4 ج القاهرة 1373 - 1978.
2 ـ الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه من المائة الثامنة، تحقيق د. إحسان عباس بيروت 1963.
3 ـ نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، تحقيق المختار العبادي، القاهرة بدون تاريخ.
4 ـ رياحة الكتاب ونجعة المنتاب مخطوط خاص.
الخزاعي، أبو الحسن علي: تخريج الدلالات السمعية مخطوط خاص.
ابن أبي دينار، أبو عبد الله محمد: المؤنس في أخبار أفريقيا وتونس، تونس 1286.
ابن الدراج، أبو عبد الله: كتاب الإمتاع والانتفاع بمسألة سماع السماع، دراسة وإعداد د. محمد ابن شقرون، القينطرة، د. ت.
الزركشي، أبو عبد الله محمد: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تونس، 1289هـ.
بنشريفة الدكتور محمد: أبو المطرف بن عميرة، الرباط 1966.
ابن شقرون، محمد بن أحمد: مظاهر الثقافة المغربية، الرباط 1970.
ابن الشمّاع، أبو العبّاس أحمد: الأدلة النورانية على مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق ع. الكعاك، تونس 1936.
العمري، ابن فضل الله: مسالك الابصار في ممالك الأمصار ترجمة:

Gaudefroy - Demombyne باريز 1927.

العمراني، د. عبد الله: البلاد المغربي في المجالين الروحي والزمني، دعوة الحقّ ع. 3، 1971، ص. 68-69.

الفاسي، محمد: مقدمة لكتاب الاكسير في فكاك الأسير لأبي عثمان المكناسي الرباط 1965.

ابن القاضي، أحمد: جذوة الاقتباس فيمن حلّ من الأعلام بمدينة فاس فاس 1309-1311.

ابن قنفد، أبو العبّاس أحمد: الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية تقديم وتحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي تونس 1968.

القلقشندي، أبو العباس أحمد: صبح الأعشى في صناعة الانشاء نسخة مصورة، القاهرة د. ت.

ابن مريم، أبو عبد الله محمد: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، نشر ابن شنب، الجزائر 1908.

المقري، أحمد، شهاب الدين:

1 ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ، ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد بيروت. د. ت.

2 ـ أزهار الرياض في أخبار عياض صندوق إحياء التراث الإسلامي الرباط 1398 - 1978.

المنوزي، محمد عبد الهادي: ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين الرباط د. ت.

مجهول: الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية تحقيق محمد بن أبي شنب الجزائر 1339 - 1920.

ابن مرزوق، شمس الدين: المسند الصحيح الحسن في أخبار مولانا أبي الحسن خ ع ق. 111.

ويمكن الاستعانة بـ:

1) الدكتور محمد حجي: النشاط الفكري في العصر السعدي.

2) الدكتور محمد الأخضر: الحياة الأدبية في عهد الدولة العلوية للاطلاع على التطور الذي طرأ على المظاهر الحضارية الأدبية التي أشرنا إليها في الفصول السابقة.

(باللغة الأجنبية)

- **BENCHEKROUN, M. B. A.** Le Milieu Marocain et ses Aspects Culturels, Rabat, 1970.
- **Id.,** La Vie Intellectuelle Marocaine sous les Mérinides et les Wattasides, Rabat, 1974.
- **Campany, Antonio le..,** Los Antiguos Tratados de Place y Alianzas entr Africa Desde de Aragon... Cité por De Mas Latrie.
- **De Mas, Latrie,** Traites de Paix et de Commerce de Documents Divers concernant les Relations des Chretiens avec les Arabes de l'Afrique Septentrionale du Moyen âge, Paris, 1906.
- **De Premare, A. L.,** Maghreb et Andalousie au XIVè Siècle. Les Notes de Voyage d'un Andalous au Maroc 1344 - 1345, Lyon. 1981.
- **Hopkins, J. F. P.,** An Andalusian Poet of The Foutée Noth Century: Ibn Hajj in Bulletin of Thé School M The Oriental Studies Vol. XXIV (1961).
- **Marçais, G.** Les Arabes en Berberie du XIè au XIVè Siècle, Constantine Paris, 1937.

فهرس الآيات القرآنية

الآية	السورة	الرقم	الصفحة
وتكون لكما الكبرياء في الأرض	يونس	78	79
وأما بنعمة ربّك فحدِّث	الضحى	11	370
فمن نكث فإنما ينكث على نفسه	الفتح	10	380
وما يلقاها إلاّ الذين صبروا	فصلت	35	494
يا أيُّها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار	التوبة	123	159
يوم تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه	آل عمران	106	321
يغفر اللّه لكم وهو أرحم الراحمين	يوسف	92	318

فهرس الأحاديث النبوية

فهرس الأشعار

البيت	القافية	عدد الأبيات	الشاعر	الصفحة
الترتيب حسب تسلسل الصفحات				
لي المديح . . .	وثناء	2	إبراهيم ابن الحاج	58
أيا عجباً كيف . . .	وناسي	2	إبراهيم ابن الحاج	58
أجاحدي . . .	أوهامة	2	إبراهيم ابن الحاج	60
هي الـدور	بتغيير	2	إبراهيم ابن الحاج	25
وآلة للمواقت . . .	ضائعة	4	ابن عبد المنان	118
أعرني أمير المؤمنين . .	هائب	2	ابن الحاج	133
ألما بأجداث . . .	المحائب	2	أبو عنان المرينيّ	135
يا ملما . . .	الوداد	2	أبو عنان المرينيّ	136
يا رامياً بالنبال . . .	دعج	3	أبو عنان المرينيّ	136
وقل لمن وافى . . .	واهب	28	إبراهيم ابن الحاج	153 - 154
هدرت دم . . .	خدار	1	أبو الحسن ابن مهادف	241
يبدون كالمذزهي . . .	الأزهار	1	ابن أبي شامة	241
والعابثات . . .	الأفكار	1	ابن النعمان	241
والظاعنات . . .	الخطار	1	إبراهيم ابن الحاج	241
فكأنّما الأجفان . . .	شفار	1	إبراهيم ابن الحاج	241
أيا ملكا . . .	الركائب	5	أحمد الفشتالي	237
بجند أمير . . .	مؤيداً	2	أعشىٰ همذان	242

البيت	القافية	عدد الأبيات	الشاعر	الصفحة
		الترتيب حسب تسلسل الصفحات		
تهنأ بزجر. . .	أحمد	1	أبو محمد البرطال	242
لك السعد. . .	العدا	12	أبو عبد اللّه العزفي	242
إليك وإلي. . .	مرددا	18	عبد المنّان	243
يا خير ملك. . .	منتهر	7	ابن الحاج	261
قصدت تمهيد. . .	قبائلها	4	سعود	261
هي الأسعد. . .	كل تخب	30	أبو عبد المنان	320
هي السعادة. . .	الإملا	6	البرطال	322
أمولاي دامت. . .	الشيه	24	الزناتي	322 - 23
سل العيس. . .	القرد	66	ابن الحاج	324- 25
هنيئاً لك. . .	نهر	4	أبو العباس الخزرجي	376- 7
هنيئاً أيا مولاي. . .	حقاً	6	أبو محمد البرطال	377
يا إمام الهدى. . .	عماد	23	أبو علي. . . الزناتي	378
بشراي بالفتح. . .	حنائبة	18	أبو عبد اللّه بن جابر	379
ويا قبح ما أسود. . .	الشمسا	2	أبو عنان	441
ولكي به عبد. . .	الانسا	10	إبراهيم ابن الحاج	441

ملحق

قد أشرنا سابقاً إلى الأبيات التي تنقص القصيدة التي نظمها ابن الحاج في تهنئة أبي عنان المريني بالإبلال من مرض، وقد أوردها كاملة المقري في نفح الطيب (ج 9، 325، 326) وها نحن نكمل القصيدة المُشار إليها بالأبيات التالية:

مطالب الا أنهن مواهب
قضى الله أن تقضى فنعم المطالب
بشفاء أمير المؤمنين وانه
لأكرم من أن تحدى إليه الركائب
وكم قلت غاب البدر والشمس ضلة
ورانت على قلبي الهموم النواصب
ولم يغبا لكن شكا الضر فارس
وأوحش منه مجلس الملك غائب
لك الله يا خير الملوك وخير من
تحن له حتى العتاق الشوازب
وحسبي دعاء لو سكت كفيته
كما قيل لكن في الدعاء مذاهب
بلغت بك الآمال حتى كأنّها
وقد صدقت ما شئت صدقا كواذب

فهرس الأماكن

فهرس الأعلام

« م »

فهرس محتويات الكتاب

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	**الصفحة**

الموضوع	الصفحة
ذكر وجه الوزير وما ظهر من حسن تدبير	220
ذكر الحركة السعيدة	223
ذكر أفراق السعيد	228
وصول أهل بجاية برسم السلام	252
ذكر مجيء السيل	258
ذكر وصول الأسطول	269
ذكر الإزالة لخفارات الأعراب	280
ذكر وصول علي ابن ثابت	284
ذكر مسير مولانا أمير المسلمين أيّده اللّه إلى قسنطينة	288
ذكر القدوم على قسنطينة والتبريز	301
ذكر ما ظهر من أهل البلد عند طلوع الجيش الوافرة العدّة والعدد	308
ذكر إنابة أمير قسنطينة إلى الطاعة	310
ذكر ما ظهر من بعض القسنطينيين المفسدين	326
ذكر ما عمله مولانا أيّده اللّه مع أهل القسنطينة بعد الفتح	331
ذكر ما كان من فتح باب العناب	334
ذكر البشرى الحاصبة والعزوة المرضية والغنيمة الواصلة	340
ذكر وصول بيعة نفطة وإظهار أهلها الغبطة	342
ذكر الحركتين البريّة والبحرية وفتح تونس كرسي المملكة الافريقية	344
ذكر وصول البريد بالفتح الحميد:	
وقدوم الوفد التونسي على المخيّم السعيد	365
ذكر ما ظهر من رياح بعد الفتح: ونسق اخبارهم المهيئة بالشرح	383
ذكر إغارة العرب: وانكفائهم بسوء المنقلب	394
ذكر الحركة على السواوقة: وما كان من أحوالهم الموافية والموافقة	399
ذكر ما كان من أخبار توبة: وأحاديثها التي أبانت الشوبة والروبة	405
خبر علي بن ثابت والي الجبل: وما ظهر منه من خلل الخلل	408

الموضوع	الصفحة

صدر للمؤلِّف

ـ مظاهر الثقافة المغربية (باللغة العربية) دراسة أدبيّة نالت جائزة المغرب.

[الرباط 1970]

ـ البيئة المغربية ومظاهرها الثقافية (دراسة حضارية باللغة الفرنسية).

[الرباط 1970]

ـ الحياة الفكرية في عهد الدولة المرينية والوطاسية (دكتوراه الدولة باللغة الفرنسية) الجامعة الفرنسية.

[1974]

ـ معجم التربية والتعليم (فرنسي عربي).

[الرباط 1976]

ـ الثقافة الشعبية المغربية (في المصادر والمراجع العربية والفرنسية والاسبانية).

[1980]

ـ فن الطبخ في الأندلس والمغرب في بداية عصر بني مرين.

أو:

فضالة الخوان في طيِّبات الطعام والألوان لابن رزين التجيبي، تقديم وتحقيق.

[الرباط 1981]

ـ مصادر التعليم والتربية في عهد الحماية الفرنسية والاسبانية (دراسة وتحقيق وتعريب).

[الرباط 1982]

ـ اتجاهات أدبيّة وحضارية في عصر بني مرين أو كتاب الإمتاع والانتفاع بمسألة سماع السماع لابن الدراج السبتي (دراسة وتحقيق).

[الرباط 1982]

ـ فيض العُباب لابن الحاج النميري رحلة أبي عنان المريني تقديم وتحقيق.

[1981]

ـ العبادات في الإسلام ومظاهرها السياسية والاجتماعية والتربوية.

تحت الطبع:

ـ الاستشراق وأثره في الفكر الإسلامي.

دار الغرب الإسلامي
بيروت - لبنان
لصاحبها الحبيب اللمسي

شارع الصوراتي (المعماري) - الحمراء - بناية الأسود
تلفون : 340131 - 340132 - ص . ب . 5787 - 113 بيروت - لبنان
DAR AL-GHARB AL-ISLAMI – B.P.:113-5787 - Beyrouth - Liban

الرقم : 1990/4/2000/165
التنضيد : وليد حلاق / بيروت
الطباعة : مطابع الشروق
بيروت : ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ - برقياً : الشروق - تلكس SHOROK 20175 LE

Relation de Voyage
(Fayd al' Ubāb),

(Rihla) effectué par
Le Souverain Mérinide
Abu Inān
(XIVe siècle)

A travers les pays du Maghrib
par Ibn al. Hāǧ
an. Numayri

Introduction. Edition.

Mohamed Benchekroun.

(Profes. Université Mohamed V)

Rabat

Dar al-Gharb al-Islami

Relation de Voyage
(Fayd al' Ubāb),